

المجلس الأعلى للثقافة

إبراهيم عبد القادر المازنى

الأعمال غير المنشورة

المجلد الثالث

تطبيقات نقدية

جمع وتحرير وتقديم

عبد السلام حيدر


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب

تليجرام
هنا
سور الأزبكية

المجلس الأعلى للثقافة

الأعمال الكاملة

إبراهيم عبد القادر المازنى

الأعمال غير المنشورة

المجلد الثالث

تطبيقات نقدية

جمع وتحرير وتقديم

عبد السلام حيدر



٢٠٠٩

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

المازنى ، إبراهيم عبد القادر (١٨٨٩-١٩٤٩)
الأعمال الكاملة ، الأعمال غير المنشورة ، المجلد الثالث -
تطبيقات نقدية ، جمع وتحرير وتقديم : عبد السلام حيدر
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٩
٦١٢ ص ، ٢٤ سم .
١ - الأدب العربى - مجموعات
(أ) حيدر ، عبد السلام (جامع ومحرر ومقدم)
(ب) العنوان ٨١٠,٨

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٧٣١٣
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 872 - 5
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo.

Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.

فهرس المجلد الثالث


تليجرام
غواص في بحر الكتب

تمهيد عام

مرت عملية نشر أعمال إبراهيم عبد القادر المازنى - حتى الآن - بمرحلتين أساسيتين. فى المرحلة الأولى التى أنجزها المازنى نفسه يمكن أن نتبين عدة نقاط مهمة هى :

(١) أن المازنى بدأ بنشر الشعر "ديوان المازنى - الجزء الأول" (١٩١٣)، ثم الكتابات النقدية حول الشعر "شعر حافظ" (١٩١٣)، و"الشعر غاياته ووسائطه" (١٩١٥)، ثم توقف عن نظم الشعر تقريباً عام ١٩٢٠ .

(٢) مع بدء عمله الصحفى بعد ثورة ١٩١٩ نشر (بالاشتراك مع العقاد) "الديوان فى الأدب والنقد" (١٩٢١)، ثم "حصاد الهشيم" (١٩٢٥)، و "قبض الريح" (١٩٢٧) .

(٣) فى عام ١٩٢٨ بدأ المازنى مرحلة الإبداع القصصى؛ حيث اهتم بجمع أعماله القصصية والروائية، بينما امتنع عن نشر الكتب النقدية، وإن لم يمتنع عن مواصلة كتابة المقالات النقدية. وقد نشر فى هذه المرحلة: "صندوق الدنيا" (١٩٢٩)، "إبراهيم الكاتب" (١٩٣١)، "خيوط العنكبوت" (١٩٣٥). ونشر مسرحية واحدة هى "غريزة المرأة" أو "حكم الطاعة" (١٩٣١)، والتى أثارت ضجة ضخمة بسبب "انتحالها" كما ادعى البعض .

(٤) وفى عامى ١٩٣٥ و١٩٣٧ نشر على التوالى مجموعتى "خيوط العنكبوت" و"فى الطريق"، وامتنع عن نشر المجموعات حتى عام ١٩٤٤؛ حيث نشر مجموعته الأخيرة "ع الماشى" .

(٥) وفى عام ١٩٤٣ نشر عدة روايات هى "عودٌ على بَدء" فى أبريل ، و "إبراهيم الثانى" فى يونيه، و "ميدو وشركاه" فى يونيه أيضًا. أما "ثلاثة رجال وامرأة" فقد صدرت فى يناير من عام ١٩٤٤ .

* * *

أما فى المرحلة الثانية التى أنجزها آخرون، وهى المستمرة حتى الآن، والتى جرى فيها تشويه أعمال المازنى بدرجات متفاوتة أعظمها الإهمال شبه التام لها! وفى هذه المرحلة يمكن أن نتبين عدة نقاط مهمة أيضًا :

(١) أول "تشويه" لأحد أعمال المازنى تم فى حياته حين نشرت طبعة مختصرة إلى النصف من "صندوق الدنيا" فى سلسلة "كتب للجميع" عدد مايو ١٩٤٨ .

(٢) وفى آخر ١٩٤٩ صدرت روايته القصيرة "من النافذة". وفى لقاء خاص مع الأستاذ محمد إبراهيم عبد القادر المازنى فى ١٩٩٢/٤/٢٨ ذكر لى أنه نشر "من النافذة" بعد وفاة المازنى بشهرين، وأن الكتيب الذى نشر فى سلسلة اقرأ كان جاهزًا للنشر قبل وفاته، وأنه قد أضاف إليه بعض المقالات. وواضح أن الرواية تنتهى عند الفقرة رقم (٧)، وهى السلسلة التى نشرها تحت نفس العنوان فى جريدة "البلاغ" فى الفترة ما بين ١٩٤٣/١٠/١٠ وحتى ١٩٤٣/١١/٢٨ . وقد نشر المازنى أربع مقالات أخرى تحت نفس العنوان: الأولى فى ١٩٤٣/١٢/٥ وتمثل الفقرة رقم (٨)، والثانية فى ١٩٤٤/١/٢، وهذه سقطت من الكتيب، لا ندرى بمعرفة المازنى أم لا، والثالثة فى ١٩٤٤/١/٩ وتمثل الفقرة رقم (٩)، والرابعة فى ١٩٤٤/١/٢٣، وتمثل الفقرة رقم (١٠). وظنى أن المقالات التسع الباقية - التى كتبها المازنى فى عامى ١٩٣٦ و١٩٤٤ - هى التى أضافها محمد المازنى حتى يصبح الكتيب فى حجم كتيبات سلسلة اقرأ !

(٣) فى الذكرى العاشرة لوفاة المازنى بدأت "الدار القومية للطباعة والنشر" فى إحياء ذكرى المازنى بإعادة طبع بعض أعماله السابقة، وجمع بعض الأعمال غير المنشورة، فى كتب جديدة. ورغم أن الدار قد أحسنت بجمع بعض الأعمال

غير المنشورة ونشرها، فإنها شوهت أغلب الأعمال التى أعادت نشرها. ربما كان السبب أن لكتب الدار حجماً معيناً، ومن ثم فقد تم تعديل (تشويه) هذه الأعمال بطريقة منظمة، حتى تناسب الحجم المقرر لها مسبقًا. والمشكلة هى أن أغلب الطبعات التالية (على سبيل المثال طبعة دار الشروق لبعض أعمال المازنى) اعتمدت - ربما بسبب الكسل - على هذه الطبعة المشوهة، وكأنها الأصل الذى نشره المازنى فى حياته! وقد حاولت تحديد هذا التشويه الذى بدأ منذ بداية الستينيات، فتوصلت إلى ما يلى :

(أ) فى أغسطس ١٩٦٠ تم حذف مقدمة الطبعة الأولى من "إبراهيم الكاتب" (سبع صفحات)، وهى المقدمة التى أثبتها المازنى فى الطبعة الثانية عام ١٩٤٥، بل وأضاف إلى هذه الطبعة الثانية مقدمة ثانية قصيرة حذفت أيضًا فى كل الطبعات التى صدرت حتى الآن .

(ب) مجموعة "فى الطريق" التى جرى تشويهها فى سلسلة كتاب الهلال فى عدد نوفمبر ١٩٥٣ بحذف ١٤ صورة وأقصوصة، جرى تشويهها مرة أخرى على يد الدار القومية فى مارس ١٩٦١ بحذف ثلاثة أعمال أخرى. ومعنى هذا أن أكثر من نصف المجموعة قد اقتطعت وتمت إضافتها إلى كتب ومجموعات المازنى الأخرى !

(ج) فى عام ١٩٧٤ نشرت مجلة "الجديد" رحلة المازنى لحضور مهرجان المعرى تحت عنوان "رحلة الشام"، وادعت أن النص لم ينشر من قبل، وكذلك فعلت مع نص محاضرة المازنى للمؤتمر. والتشويه يأتى من هذا الادعاء رغم أن نص الرحلة نشر فى جريدة البلاغ (فى الفترة من ١١ أكتوبر ١٩٤٤ إلى ٢٣ نوفمبر ١٩٤٤) تحت عنوان "فى مهرجان المعرى"، وكذلك نص محاضرة المازنى إلى المهرجان التى نشرت مرتين لا مرة واحدة: الأولى تحت عنوان "أبو العلاء الشاعر الإنسانى" فى عدد أغسطس/سبتمبر ١٩٤٤ من مجلة "الحديث" الذى تم تخصيصه للمعرى بمناسبة المهرجان. والمرة الثانية فى "جريدة البلاغ" على ثلاثة أيام (فى الفترة من ٣٠ سبتمبر إلى ٢ أكتوبر من عام ١٩٤٤)، مباشرة بعد نشر نص الرحلة، تحت عنوان "أبو العلاء المعرى، كلمة الأستاذ المازنى فى العيد الألفى". من الجدير بالذكر أن مدحت الجيار أصدر نفس

المخطوطة فى كتابه "أدب الرحلة، رحلة الشام للمازنى نموذجًا" (١٩٩٤). ورغم أن المازنى لم يقم بالرحلة إلا فى عام ١٩٤٤، فإنه يذكر أن المازنى كتب المخطوطة وراجعها بقلمه عام ١٩٣٦ . وربما كان الأقرب للصحة أنه كتبها ونشرها فى البلاغ عام ١٩٤٤، ثم راجعها وأضاف المقدمة في عام ١٩٤٦ أو حولها .

(د) فى عام ١٩٧٥ أعادت دار الشروق نشر مجموعة المازنى الأخيرة "ع الماشى"، وكان التشويه هذه المرة بالإضافة؛ حيث أُضيفت للمجموعة خمس أقاصيص كانت قد نزعت من مجموعة "فى الطريق"، وهى: الوطواط، والشيخ مبارك، والبرهان، وورطة، وأرواح متآلفة. ولم أستطع حتى الآن التبين إن كان هذا وقع من الدار القومية أولاً أم لا .

وقد ذكر محمد المازنى لى أن ما سقط فى الطبعات التالية كان بسبب غفلة عمه أحمد عبد القادر المازنى الذى كان مسئولاً آنذاك عن نشر تراث أخيه. والغريب أنه رفض أن أطلع على مخطوطة "رحلة العراق" التى بحوزته - لمقارنتها بالنصوص المنشورة تحت نفس العنوان - لعدم ثقته فى الأكاديميين؛ لأن أحدهم، كما قال، قد أخذ بعض المخطوطات ونشرها دون أن يعطيه حقه! والظن أنه يوجد داع للمقارنة؛ لأننى أتصور أن المازنى قد جمع رحلتيه إلى العراق عام ١٩٣٦ وعام ١٩٤٥ تحت مسمى واحد وبمقدمة جديدة. ولأننى لم أتمكن من رؤية المخطوطة بعد فقد رأيت أن أنشر الرحلتين كل على حدة مع التفريق بينهما بذكر سنة الرحلة بين قوسين .

* * *

بقى أن نشير إلى أن الدار القومية قد نشرت فى الستينيات عدة كتب للمازنى بمعرفة ورثته هى :

(أ) "قصة حياة" (فى ١٩٦١/٥/٤)، وهو - كما جاء على غلافه - كتاب جديد لم يسبق نشره. وهو تجميع لسلسلتين من المقالات الأولى نشرها المازنى تحت عنوان "حياة الخوف من الخوف" فى الفترة من نوفمبر ١٩٣٧ إلى فبراير ١٩٣٨ ،

وتمثل ترجمة ذاتية للفترة المبكرة من حياته الاجتماعية والدراسية. والثانية نشرها تحت عنوان "كيف ولماذا أعتزل الناس" فى الفترة ما بين ديسمبر ١٩٣٨ ومارس ١٩٣٩ ، وتمثل ترجمة فكرية للسنوات الأخيرة من حياته الفكرية والأدبية .

(ب) "مختارات من أدب المازنى" (فى ١٩٦١/٧/٦)، وهو تجميع لما نزع من "صندوق الدنيا" و"فى الطريق" بالإضافة إلى ثلاث أقاصيص جمعت من الدوريات هى: "حلم"، و"المطلوب مديرة بيت"، و"عاقبة سليمة" .

(ج) "أحاديث المازنى" (فى ١٩٦١/٨/١٠)، وهو - كما جاء على غلافه - كتاب جديد لم يسبق نشره. وهو يحتوى على عدد من الأحاديث والمقالات والصور والأقاصيص. وهذا ما يمكن أن يقال أيضًا عن كتاب "سبيل الحياة" الذى نشر فى الفترة نفسها، ويحتوى على مجموعة من المقالات والصور التى لم يسبق جمعها فى كتاب مع استثناء وحيد يتمثل فى قطعة "خواطر فى مرقص" المنزوعة من "صندوق الدنيا". فى هذه الفترة تعرضت "من النافذة" مرة ثانية للتشويه؛ حيث زيدت فقرتان، وأضيف لها ملحق جديد هو "صور من الحياة" الذى حوى ثمانى أقاصيص تجمع لأول مرة .

ورغم أن عدد صفحات هذه الكتب الجديدة يقارب الخمسمائة صفحة، فإنه بقى الكثير من كتابات المازنى التى لم تجمع؛ لذا عزمت على تتبع كل ما نشره المازنى لجمعه وتوثيقه، حتى يتيسر إصدار أعماله الكاملة. ولا بد أن أشير إلى أن هاجس إخراج أعمال المازنى الكاملة كان - وما زال - يرافقنى منذ دراستى إياه (فى الفترة ما بين ١٩٩٠ و ١٩٩٤) لنيل درجة الماجستير. وكنت آنذاك قد جمعت كمية صالحة من هذه الأعمال. وعندما وجدت الفراغ المطلوب والاستعداد المبدئى من قبل الدكتور جابر عصفور لطبع الأعمال الكاملة للمازنى، على أن نبدأ بالأعمال غير المنشورة، عدت إلى ما سبق أن جمعته، وشرعت فى جمع الباقى أو نسخه. ورغم صعوبة الأمر، خاصة بعد ضياع أو تمزق بعض الدوريات القديمة مما جعل العمل فى بعض الأحيان يشبه عمل علماء الحفريات، فإننى واصلت العمل لجمع وتحرير ودراسة الأعمال المجموعة هنا. وقد اعتمدت فى ذلك على ببليوجرافيا أعمال المازنى التى أعدها حمدى

السكوت ومارسدن جونز. ورغم اكتشافى أنها، فى بعض الأحيان، لم تكن دقيقة بما فيه الكفاية؛ حيث نسبت للمازنى أعمالاً لابنه محمد أو لسميه إبراهيم المصرى، فإنها أفادتنى فى إعداد هذه الأعمال للنشر؛ فالشكر الجزيل لهما .

وقد قسمت الأعمال المجموعة هنا، على أساس موضوعى، إلى ثلاثة أقسام: قسم "التأملات والذكريات"، ويقع فى المجلد الأول من الأعمال غير المنشورة، ويضم ما نشره المازنى من مقالات تعرض فيها لذكر بعض أحداث حياته وتأملاته حولها وحول الحياة بصفة عامة . وفى المجلد الثانى جمعت ما تيسر جمعه من «المقالات والدراسات النقدية» . أما المجلد الثالث فخصص لقسم « الأشكال السردية»، سواء أكانت قصيرة مثل الصورة والأقصوصة والمقال القصصى أم طويلة مثل الرواية (وسوف نخص رحلات المازنى بمجلد خاص) ... إلخ . وقد حرصت على تقديم كل قسم بمقدمة خاصة أشير فيها إلى بعض خصائص الأعمال المنشورة فيه .

تبقى ثلاث ملاحظات: الأولى أننى رتبت الأعمال المجموعة فى كل مجلد على أساس تاريخى. والثانية أن تأملات المازنى وذكرياته تخترق أيضًا المجلدين الأخيرين، ولكنها ليست غالبة كما فى المجلد الأول الذى خصصته لهذا الأمر. والأخيرة أننى ما زلت أحتفظ بالكثير من مقالات المازنى الاجتماعية والسياسية، خاصة تلك التى نشرها فى أخريات حياته؛ لأننى لم أرتح بعد إلى طريقة مناسبة لنشرها.

وأخيراً لا يسعنى إلا أن أشكر كل من مد يد العون لإنجاز هذا العمل، وأخص بالذكر موظفى مخزن الدوريات بدار الكتب المصرية : نجيب عبد العظيم، وعبد الحكيم على محمد، ومحمد عبد المحسن، وخالد سعيد، وأستير مسعد مقار. كما أتوجه بالشكر للمجلس الأعلى للثقافة وأمينه العام الذى وقف خلف هذا العمل حتى اكتمل .

د . عبد السلام حيدر

مقدمة المجلد الثالث

(١)

يستطيع القارئ المتفحص لهذه لمقالات المجموعة هنا أن يفهم التطور الفكرى للمازنى كناقد، كيف بدأ حياته الأدبية عنيفًا فى النقد، ثم أصبح فى النهاية لين الملمس رقيق الحاشية يتقبل أغلب الكتب بالحمد (بل ويثنى عليها أجمل الثناء). وقد علل ذلك فى أحد مقالاته الكاشفة بتغير الزمن وزوال دواعى العنف القديم: "ثم أنى رشدت أيضًا، فما ترتفع السن دون أن تفيد المرء شيئًا من البصر والحكمة ولو قليلاً، وقد كنت فى شبابى أحمل على من نسميهم أصحاب المذهب القديم البالى، وأهل الجمود والخمود، وأخوف ما أخاف الآن أن أصير أنا إلى ضرب آخر من الجمودة فأنا أحاول جاهداً أن أتقى هذا، وأن أجدد نفسى، فليس همى اليوم تنبيه غافل أو إيقاظ راقد؛ فقد فتحت الدنيا كلها عيونها ولله الحمد، وإنما همى الأكبر أن أمنع أو أركد، وكل جديد يصبح قديمًا عتيقًا إذا لم يتعهده صاحبه بما يقتضيه التطور، ولم يتوله بما يجعله صالحًا للزمان الجديد ونزعاته واتجاهاته"[١].

ربما كان حرص المازنى على أن يجعل كل ما يتناوله صالحًا للتعبير عن نزعاته واتجاهه خير تعليل لطغيان صوته الشخصى على "المقالات التطبيقية" المجموعة هنا؛ فهو لا يحرص فقط على تقديم صورة للنتاج الأدبى والفكرى، وإنما أيضًا على استخدام ذلك للتعبير عن نفسه بطريقة مغايرة. ومن هنا يلاحظ أن تركيز المازنى على ضرورة الانتفاع من العمل الإبداعى يزداد مع مرور الوقت. فعلى قدر الانتفاع من العمل

---

(١) المازنى: فى عالم الكتب: "سؤال وجوابه". البلاغ فى ٢ سبتمبر سنة ١٩٤٥ (ص٤).

الأدبى أو على قدر المحصول من ورائه تكون قيمته. والمنفعة لديه فكرية أو تعليمية ثم جمالية؛ فالقيمة الجمالية ترتبط لديه بمدى إفادة القارئ منها؛ فالمتعة هنا ليست مجردة، وسيقع القارئ على فقرات عديدة اجتمعت على تكرار هذا المعنى مثل:

"والسؤال الذى ينبغى أن يلقيه المرء على نفسه وهو يتدبر كتابًا هو هذا: ما هى الفائدة المباشرة التى خرجت بها من لغة أو فكرة أو معنى، أو حقيقة أو ما هو من ذلك بسبيل. ومن الإنصاف للكاتب أن لا نبخل عليه بالاعتراف بما أفدنا منه، إذا كنا أفدنا شيئًا ولو قليلاً"(٢).

أو :

"ليس الذى يعنينى من الرواية أن فلانًا أو علانًا هو الذى كتبها، وإن كان اسم الكاتب المعروف بالتجويد والبراعة من دواعى الثقة وباعث الاطمئنان إلا أن وقت القارئ لن يضيع فى كلام فارغ، ولكنما الذى يعنينى هو السؤال: هل أعانتنى الرواية على فهم شىء أو اغتفار شىء؟ أو سؤال آخر كهذا "هل استطاعت هذه الرواية أن تكشف لى عن وجوه من الجمال لم أكن أراها أو أفطن إليها؟ أو هل أوقدت لى نارًا يدفأ بها ما ابترد من الإيمان بشىء ما؟ أما الحكايات فكالألفاظ فى طريقنا جميعا"(٣).

وبناء على ضرورة المنفعة نجد المازنى يطلق بعض الأحكام القاسية ذات النزعة الأخلاقية – وإن أنكر ذلك – كما فى موقفه من أبى نواس: "كلا، لم يكن أبو نواس إنسانًا فحلاً، أو شاعرًا فحلاً، وإنما كان مخلوقًا ضعيفًا عجز عن النهوض بأعباء الحياة فلاذ بالخمر وعكف عليها فرارًا وخورًا.. ولسنا ننظر بهذا القول إلى القيمة الأخلاقية للشعر، ونضعها فى المقام الأول، وإنما ننظر إلى قيمة الحياة نفسها وإلى معناها فى نظر الشاعر. وقد أعطينا الحياة لنحياها لا لنهرب منها ونغيب عنها، ولكفى

---

(٢) المازنى: أحاديث المازنى، ص ٨٠ .

(٣) المازنى: مختارات من أدب المازنى، ص١٦ .

بالموت غيبة طويلة. وقد آن أن نضع كل شيء في موضعه، وأن نضبط موازيننا ونحكمها، ونتقى أن نغالى أو نهول بشيء. وليس ألزم لنا من تصحيح الموازين والمقاييس القديمة الموروثة"(٤).

ولعل ضبط الموازين وتصحيحها هو ما حمله على الحديث المباشر عن "مذهبه فى النقد"، وذلك إبان حديثه عن إحدى الروايات؛ حيث قال: "ومن أجل هذا كان مذهبى فى النقد أن أنظر إلى جملة ما فى الكتاب من الإحسان مقيسة إلى جملة ما فيه من العيب، فإذا أربى الإحسان على الإساءة تقبلته وتجاوزت عما فيه من نقص أو مأخذ، وإلا رفضته. فهو ميزان ينصب وأى كفتيه رجحت أخذت بها. وهذا فى مذهبى هو العدل الميسور فى وزن الآراء والأعمال والحكم عليها"(٥).

(٢)

كذلك سيتبين لقارئ المقالات المجموعة هنا أن المازنى - كما أظهرت مقالات المجلد الثانى - لم يكن هاربًا من الحياة، ولكن فاعلاً فيها، فى الحياة الأدبية على الأقل، وأن له بعض الآراء المتطورة فى سياقها الزمنى عن اجتماعية العمل الأدبى خاصة الجانب القصصى منه.

فعلى سبيل المثال كان المازنى شديد الوعى بإمكانيات القصة وقدرتها على المستوى الاجتماعى على علاج كثير من أخطاء المجتمع سواء الأخلاقية أو اللغوية أو حتى السياسية؛ حيث لديها القدرة على تحريك الخاملين بإثارة ثائرتهم وإبدال جبنهم شجاعة ورجولة. ويضرب المازنى مثلاً لذلك بما حدث فى روسيا قبل الثورة البلشفية عام ١٩١٧ .

(٤) المازنى: أبو نواس للأستاذ عبد الحليم عباس. البلاغ فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٤ (ص٤).
(٥) المازنى: الأمير حيدر. مجلة "الكتاب" فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ (ص٩٠).

فقد أباح القياصرة للروائيين الروس كتابة الروايات وهم يحسبونها أسلم الأعمال وآمنها مغبة، ولكن خاب ظنهم "ويظن المستبدون أن لا ضير في هذا ولا بأس منها كأن تصوير ظروف الحياة ووقعها للقارئ الغافل أو العاجز عن تأليف هذه الصور لنفسه وجمع شتاتها وتقدير أثرها - لا أثر له في تكوين إرادة الجماعة وحفزها إلى نشدان ما ينقصها ودفع ما يرهقها. ولقد حدث أن بعض القياصرة كان يستمع إلى روايات دويستفسكى - أو غيره - ويضحك ويعجب لمهارة الكاتب وصدق تصويره ودقة تحليله. ولم يكن يدرى أن هذه الروايات بعينها هى التى ستثل عرش أسرة "رومانوف" بما نفثت فى النفوس ونبهت. كما كان "لويس الرابع عشر" يشهد روايات "موليير" ويغرق فى الضحك وإن كانت على هذه أول بواعث الانقلاب الاجتماعى"[٦].

وكان المازنى يرى فى القصة وسيلة من أقوى وسائل إحياء اللغة العربية؛ "لأنها أخف على القراء وأقل عسرًا وأكثر تداولاً، فهى تشيع ما لا تشيعه الكتب المقصورة على البحث فى العلوم أو الآداب أو الفنون أو الفلسفات أو غير ذلك مما يقل الإقبال عليه والنشاط له، ثم إنها تحوج إلى تناول معارض شتى من المعانى والأوصاف. فمن تصوير حالة نفسية إلى رسم خلق، ومن وصف حادثة إلى الإعراب عن فكرة أو خاطر أو شعور - أو خالجة على العموم - ومن صفة إنسان أو حيوان أو طير أو نبات إلى نعت حركة أو سكون، ومن تصوير أردية وأطعمة وأشربة ومساكن وأثاث وأمراض وعلاجات ومناظر سماء أو زرع أو مياه إلى آخر ذلك مما لا سبيل إلى حصره، وليس غير الرواية أو القصة يتطلب ذلك ويدعو إليه، ولهذا قلنا إن القصة ليس شىء أعون منها على تجديد اللغة وإحيائها وإفشاء معرفتها والعلم بها بين الذين لا يسهل عليهم الدرس والتنقيب أو لا يتسنى لهم كما يتسنى للمتفرغ المتخلى"[٧].

ومن هنا، فإن المبدع أحوج إلى العلم باللغة والتوفر على مادتها والإحاطة بها من سواه؛ فإن قصّر أو أهمل أو تهاون كانت تبعة ذلك أعظم من تبعة سواه من الكُتَّاب،

(٦) المازنى: حصاد الهشيم، ص٤٤ .

(٧) المازنى: عودة الروح لتوفيق الحكيم. البلاغ ٢٥ يونيو ١٩٣٣، ص ٣ .

ويجب أن يكون حسابه – نقديًا – أشد وأعسر من حساب سواه. ولكن شدة المازنى النقدية لم تكن تجلب له إلا عداء جانب لا بأس به من المقودين. وكان لا يمل ينبه المنقودين إلى ضرورة تقبل ما يكتبه بإحسان فيقول: "ما زلت أرى أنه ما نفع الكاتب مثل النقد بالغًا ما بلغ العنف أو الشطط أو التجنى فيه، وللناس عقول وإن كنا نتكلف سوء الظن بهم أو نسرف فى ذلك، والكتاب الذى يعييك أن تقع فيه على عيب لا يكون "إنسانيًا". فأكبر عيب فى كتاب أن يخلو من العيب، وأخلق بالقارئ أن يشعر أن صاحبه من عالم آخر، وأن تفوته متعة الشعور بأن الكاتب على جلال قدره ليس إلا بشرًا مثلنا يجوز عليه ما يجوز علينا من الخطأ والنقص والقصور وما إلى ذلك"(٨).

وتنقلنا هذه الإشارة إلى القارئ إلى الحلقة المفقودة فى سُلَّم الانتفاع الأدبى. وقد كان دأب المازنى أن يحاول رفع قارئه من مستوى القراءة لمجرد المتعة إلى مستوى القراءة الناقدة، وهى قراءة متعبة: "وما زال أنفع للقارئ أو السامع أن يُعمل فكره، وأن لا يكون كل عمله أن يقنع بالتلقى دون أن يحتاج إلى جهد يبذله من ذات نفسه فخير الأدب ما دعاك إلى التفكير والتدبير، وأحوجك إلى اجتثاث خيالك، وخير الفنون على اختلافها من موسيقى وتصوير وغير ذلك ما أيقظ عقلك وحرك نفسك وابتعث رقادك أما ما يتركك كما كنت، جامدًا أو مسترخيًا متفترًا، ولا يشعرك بحاجة إلى تخيل أو تأمل، فهذا لا خير فيه ولا غناء له"(٩).

فهو هنا لا يستهين بدور القارئ وأثره فى العملية الإبداعية، ولكنه يرى أن دوره فى التلقى لا ينبغى أن يكون سلبيًا، بل عليه أن يتفاعل مع ما يتلقى من إبداع، وأن يتعمقه، محاولاً الوصول إلى القيمة الجمالية للنص المقروء، ويكون ذلك بالتعرف على المتاعب التى يتكبدها الكاتب فى العملية الإبداعية حتى يصب أفكاره فى قوالب ملائمة يطلع عليها القارئ، يستمتع بها و"يستفيد" منها.

---

(٨) المازنى: فى عالم الكتب. البلاغ فى ١ يولية سنة ١٩٤٥ (ص٤).

(٩) المازنى: أحاديث المازنى، ص٢١ .

(٣)

وفى النهاية نقول - بهدف التلخيص - إن هذه المجموعة "النقدية التطبيقية" تبين العديد من الركائز النقدية عند المازنى. أولها: أن المازنى المطبوع على التمرد الساكن الذى ليس فيه ضجة كان شديد الاعتزاز بحريته، شديد الحرص على استقلال شخصيته، ولا يسمح لنفسه "بأن تتسرب فى نفس أخرى أو تفنى فيها أو تجعلها محور وجودها"[١٠]. كان لا يختار ولا يكتب إلا عن النصوص التى يجد فيها جزءًا من نفسه أو تساعده على فهم ذاته وتعمقها؛ فكأنه يوظف النصوص التى يتناولها للتعبير عن ذاته وعن تجربته ورؤيته للعالم. وربما كان هذا أحد أهم أسباب استطراداته المتكررة؛ فرغم أنه يدخل أحيانًا فى موضوع الكتاب مباشرة؛ فإنه كان - فى أحيان أخرى كثيرة يستطرد عنها أو يأخذه عنوانها إلى عوالم أخرى ونظرات عامة أو صور ليس هذا مجالها ، ولكنه لا يأبى الاستطراد الذى كثيراً ما كان يقطعه بجملة "فلنقصر ولنعود". ولا ننكر أن هذا كان مما يزعج أصحاب هذه النصوص كثيراً ، وأزعجنى إبان جمع هذه النصوص وتصنيفها.

د. عبد السلام حيدر

---

(١٠) إبراهيم عبد القادر المازنى: المرأة فى حياة الأديب، مجلة "الرسالة" فى أول مايو سنة ١٩٣٩ (ص٨٤٩-٨٥٠).

نصوص "تطبيقات نقدية"

(مرتبة تاريخيًا)

أساليب الكتابة

إلى محمد حسين هيكل[١١]

نعيتَ على كُتَّاب البيان اختلاف أساليبهم وفخامة تراكيبهم وعدولهم – كما زعمت – عن مذاهب السهولة إلى جفوة الأعراب وخشونة البادية، وقلت إن اللفظ السهل يخف محمله على السمع ويسهل جريه على اللسان وروده على الطبع، وإنه ما ملكت القلوب ولا استرقت الأفهام واختلبت الألباب بمثل اللفظ الواضح المشرق الذى يجلى عن نفسه ويشف ظاهره عن باطنه، ويُمهد له وطاء الطبع قبل أن تمتلئ منه العين. وهو كلام ليس فيه مساغ للطعن أو مجاز للشبهة، وقد كنت ألومهم معك وأعذرك منهم لو كانوا أثاروا – كما زعمت – مدفون الألفاظ، واستخرجوا مهجور الكلام، ولم تذهب أنت إلى ما هو أبعد من ذلك؛ حيث جعلت النزول إلى درجة البسطاء والانحطاط إلى مرتبة العوام فرضًا على الكاتب واجب الأداء، وقد نسيت – صانك الله – أن لكل مقام مقالاً، ولكل طبقة كتابًا، ولكل صحيفة قراء؛ فإن كان ظنى صادقًا وكان قد غاب ذلك عنك، فاعلم وأنت المجرب العارف، والعَوَانُ لا تُعلم الخِمْرَةَ[١٢]، أن ما تدعوننا إليه لا يقدمنا خطوة وإن كان يؤخرنا عشرًا؛ لأن فى الناس العالم والجاهل، والكاتب لا يستطيع أن يولج المعنى أفهامهم على السواء مهما تبذل فى أساليبه وتسفل فى تراكيبه، والرجل لا يكتب ليقرأ كل الناس، ولقد رأيت لك كلمة فى البيان فى الجمال والحب وأثرهما فى الحياة؛ فهل حسبت أن كل قراء البيان قد قرأوها، أو أن كل الذين طالعوها فهموها على قرب منالها وسهولة أسلوبها. وإذ كنت خبيرًا بأسرار الجمال، وكنت عارفًا بموارد الكلام

(١١) نشرت فى "البيان" فى مارس سنة ١٩١٢ (ص٥٣٦–٥٤٠).

(١٢) مثل يعنى أن المرأة الثيب أو المجربة لا تحتاج لأن تعلم كيف تخمر العجين! (المحرر).

ومصادره، خبيرًا بمحاسنه ومساوئه؛ فهلاً ذكرت أن اللفظ المهذب والديباجة الأنيقة موقعًا في القلب ومخالطة للنفس، وهل كان عمر بن أبى ربيعة يبلغ من معشوقاته مثل ما بلغ لو كان قال لهن "أحبكن" وسكت، وبماذا فتن الناس بشار وهو أعمى مشوه الوجه؟ أليس بحلاوة لفظه ورشاقة معناه، وهل ترى للجاحظ إلا لفظًا منضداً وسياقًا مطرداً وحبكًا جيداً وكلاماً منسجماً، وهو مع ذلك من أكابر الكُتاب ومشاهير المترسلين؛ فإن قلت ذاك زمان وهذا زمان، قلنا لك إن البلاغة فى كل زمان نصفها لفظ؛ لأن اللفظ جسم وروحه المعنى؛ فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصًا للكلام وهجنة عليه، ولا تجد معنى يختل إلا من جهة اللفظ، واللفظ الرث يفسد المعنى، والشائق من الألفاظ يزينه ولو كان مبتذلاً. انظر إلى قول جرير (ويروى للمعلوط السعدى):

إن الذين غدوا بلُبك غادَروا ... وَشَلاً بعينكَ ما يزالُ مَعينا[١٣]
غيضن من عَبَراتهن وقُلنَ لى ... ماذا لقيتَ من الهوى ولَقينا

هذه الألفاظ كما ترى أحسن شىء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ما تحتها من المعنى وجدته بسيطًا، وانظر إلى قول بشار:

إذا ما غَضبنا غضبةً مُضَريةً ... هتكنا حجَاب الشمسِ أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سيداً من قبيلةٍ ... ذُرى منبرٍ صلّى عَلَينا وَسَلَّما

فهذا كلام فخم جزل، وهو أدل على القوة وأشبه بما وقع فيه من موضع الافتخار، ثم انظر إلى قول لبيد:

ما عاتبَ الحرَ الكريمَ كنفسه ... والمرءُ يُصلحهُ الجليسُ الصالحُ

فهذا وإن كان جيد المعنى والسبك، فإنه قليل الماء والرونق، وكذلك قول النابغة:

خطاطيفُ حُجن فى حبال متينة ... تَمُدُّ بها أيدٍ إليك نوازعُ

(١٣) وشل: مسيل ماء (المحرر).

فإن ألفاظه ليست جياداً ولا مبينة لمعناه؛ لأنه أراد أنت في قدرتك عليّ كخطاطيف عقف وأنا كدلو تمد بتلك الخطاطيف على أن المعنى ليس جيداً، ولا غنى بالكاتب الذي يريد أن يتفنن في ضروب الخطاب ويتبسط في فنون اليراع، ولا الشاعر الذي يحاول أن يملك أعناق المعاني ورقاب الخواطر، ولا الخطيب الذي يريد أن يضع لسانه حيث شاء، عن الاقتداء بالأولين والاقتباس من المتقدمين واحتذاء مثال السابقين فيما سلكوه من طرقهم ونهجوه من سبلهم، والمقلُّ من الألفاظ يعجز عن ذلك. واللفظ - أصلحك الله - زينة المعنى وإن يكن المعنى عماد اللفظ، فليس ينبغي أن تكون الألفاظ غير مشاكلة للمعاني في حسنها ولا المعاني غير مشابهة للألفاظ في جمالها، وما مثل المعنى الرائع في اللفظ المبتذل إلا كمثل المليحة الحسناء في طمر خلق، وبراعة الشكل وظرف الهيئة نصف الجمال ونصفه الثاني حسن المُجَرَّد؛ فليست عناية الكاتب باللفظ إلا كعناية الغادة بثيابها، واللفظ أغلى من المعنى ثمناً وأعز مطلباً؛ فإن المعاني موجودة في طباع الناس يستوي الجاهل فيها والحاذق، ولكن العمل في الكتابة الأدبية على جودة الألفاظ وحسن السبك وصحة التأليف ألا ترى لو أن رجلاً أراد في المدح تشبيه رجل لما أخطأ أن يشبهه في الجود بالغيث والبحر، وفي الإقدام بالأسد، وفي المضاء بالسيف، وفي العزم بالسيل، وفي الحسن بالشمس، فإن لم يحسن تركيب هذه المعاني في أحسن حلاها من اللفظ الجيد الجامع للرقة والجزالة والعذوبة والطلاوة والسهولة والحلاوة لم يكن للمعنى قدر. وعلى قدر تفاوت اللفظ يتفاوت حسن المعنى. انظر إلى قول المتنبي في استعطافه المشهور:

وكـيـفَ يتمُ بأسُكَ في أُناسٍ ... تُصيبُهمُ فيُؤلمُكَ المُصابُ

وقول الآخر:

فإن أنتقم منه أكُن مثلَ رائشٍ ... سِهامَ عَدُوٍ يُستَهاضُ بها العَظمُ[14]

(١٤) البيت لمعن بن أوس المازني، وهو من بحر الطويل، ورائش أي يزين بالريش.

وقول قيس بن زهير:

فإن أكُ قد بَردَتُ بهم غَليلي   فلَم أَقطع بهم إلا بَناني

وقول الحرث بن وعلة:

قومي همُ قتلوا أميمَ أخي   فإذا رميتُ يصيبني سهمي

فلئن عفوت لا عفون جللا   ولئن سطوت لأوهنن عظمي

وقول العديل(١٥):

وإني وإن عاديتهم أو جفوتهم   لتألمْ مما علَّ أكبادهم كبدي

وقول النميري(١٦):

فإنك حين تبلُغُهم أَذاةٌ   وإن ظَلَموا لمحترقُ الضَميرِ

فقد جاءوا بشيء واحد لا تفاضل بينهم فيه إلا من جهة حسن السبك ومن جهة الإيجاز في اللفظ، وهذا مثال آخر. قال النابغة:

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقه   عَصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ

جوانحَ قد أثبتن أنَّ قَبيلَهُ   إذا ما التقى الجمعانِ أولُ غائبِ

وقال أبو نواس:

يتوخى الطيرُ غُدوتَه   ثِقَةً باللحمِ من جزَرِه

وقال مسلم بن الوليد:

قد عودَ الطيرَ عاداتٍ وَثقنَ بها   فهُنَّ يَتْبَعنَهُ في كُلِ مُرتَحَلِ

---

(١٥) ربما يعني العديل بن الفرخ بن معن البجلي. ويلقب بالعباب (ت. ١٠٠هـ).

(١٦) يعني منصور النمري (ت. ١٩٠هـ/٨٠٥م).

وقال أبو تمام:

وقد ظُلِّلت عقبانُ أعلامه ضُحى ... بعقبانِ طَيرٍ فى الدماءِ نواهلِ
أَقامَت معَ الراياتِ حَتى كَأنها ... من الجيشِ إلا أنها لم تُقاتلِ

وقال المتنبى وقد خرج إلى غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وصار كأنه المبتدع لهذا المعنى:

وذى لَجَب لا ذو الجَناحِ أَمامَهُ ... بناجٍ ولا الوَحشُ المُثارُ بسالمِ
تمرُّ عليهِ الشمسُ وهىَ ضعيفةٌ ... تُطالعُهُ من بينِ ريشِ القَشاعمِ

فأما كون الناس ليسوا كلهم أدباء فلا ينبغى أن نكلفهم فهمَ ما لا يعرفون فصحيح، ولكن الذنب فى ذلك ليس للكاتب الذى يصور ما يتمثل له من الخواطر على الأسلوب العربى الصحيح بل للذين لا يعلمون النَّشء علوم اللسان ويقفونهم على أخبار العرب ويروونهم أشعارها وأمثالها، وللذين لو شاءوا لمهروا فيها وملكوا عنانها وتوسطوا باحتها.

(متلو)

النقد والمناظرة

كلمات نابليون[17]

كان ميرابو يغير على كل كُتَّاب عصره وخطبائهم ويعدو على بنات أفكارهم. حدّث ديمونت (Dumont) قال: "كان ميرابو لا يستحيى أن يطلق يده فى كلام غيره من الناس فمن ذلك أنه خطبنا مرة فأطال عنان القول وامتد به نفس الكلام، فخطر لى أن أذيل كلمته بكلمة أُلخص فيها خطبته ليقرب بعيدُها ويجتمع شتيتُها، وكان إلى يمينى اللورد إِلجن فدفعت إليه ما كتبته فاستجزله، ولقيت ميرابو فى المساء فحدثته بما جرى وأريته الرقعة فاستجادها وعرَّفنى أنه انتوى أن ينتحلها إذا خطب فى "الجمعية" غدا؛ فقلت إن اللورد إِلجن يعلم من أمرها ما تحسب أنه جاهله. فقال: لا بأس علىّ منه. أما والله لو أن خمسين غيره يعلمون ذلك لما ردّنى علمهم عما اعتزمت. فلما كان الغد صدع بها أخزاه الله!".

وإنما فعل ذلك ميرابو؛ لأنه كان من عظم الشخصية وقوتها بحيث كان يرى أن له الحق فيما كان هو الداعى إليه والسبب فيه. ذلك شأن ميرابو وهو أيضًا شأن نابليون وارث شهرته وخليفته فى أمته، وإن كانت دولة السيف غير دولة اللسان، وسلطان "المدفع" غير سلطان البلاغة والبيان، وإن من كان من طراز ميرابو ونابليون يوشك أن لا يكون صاحب خطبة أو رأى لأنهما ليسا كالعين يتفجر منها الماء، ولكن كالحوض تملأه ويشرع فيه الناس؛ فهما مرآة تبصر فيها خيال عصريهما وكتاب تقرأ فى سطوره روح زمنيهما، وهما باقيان ما بقى للقرن الثامن عشر والتاسع عشر ذكر،

---

(١٧) نشرت فى "البيان" فى مايو سنة ١٩١٢ (ص٦٧٨-٦٨٤).

وليسا كهيجو، فإن هذا أبقى على الزمن من الزمن وأخلد على الأيام من الأيام. ومن أجل هذا كان فرضًا على من يعانى تاريخ فرنسا لذلك العهد، ويطلب الوقوف على حالتها الاجتماعية والأخلاقية والأدبية أيضًا أن يقرأ ما تركه أمثال ميرابو ونابليون من رسائل وخطب وحكم وأمثال وإلا كان علمه رثا لا خير فيه ولا غناء.

ولم يكن نابليون عظيمًا، ولكن الناس كانوا صغارًا وما أحبه العامة وأشباههم إلا لما كان بينه وبينهم من الشبه، وما زال الناس في كل أمة وزمان يميلون بالود لمن يشاكلهم ويختصون بالمحبة والإعزاز من يحاكيهم، ولئن صح أن عناصر الشيء وأجزاءه المكونة له صور في الحقيقة منه أي أن الرئة مكونة من رئات صغيرة والكبد أكباد دقيقة والكلية كلى لطيفة، فليس بدعًا في الرأي ولا مستنكرًا في القول أن نذهب إلى أن كل فرنسي لعهد هذا الرجل كان نابليونا صغيرًا. وعلى هذا تكون عنايتنا بكلامه وآرائه عناية بآراء فرنسا وأفكارها ومذاهبها. وقد وقفنا منذ أيام على كتابين معربين عن أصل إنجليزي واحد جمع فيه واضعه كلمات نابليون وقليلا من رسائله وآرائه فيما كان يقع في زمانه من الحوادث ويعرض له من الأمور؛ فقلنا: أو بلغ من رواج المعربات ونفاق سوقها وكثرة طلابها وخطابها في مصر أن يعرب الكتاب - الواحد رجلان على علم أحدهما بما سبق إليه صاحبه[١٨]، ثم سألنا نفر من أصحابنا وإخواننا أن نقارن بينهما؛ فاستخرنا الله في الموازنة بينهما والمفاضلة بين كتابيهما.

أما المعربان فأحدهما محمد لطفي جمعة واسم كتابه «حكم نابليون»، والثاني إبراهيم رمزي واسم كتابه «كلمات نابليون». والاسم الثاني أصح ولذلك صدرنا به كلمتنا فيهما، لأنه أدل على ما انطوى عليه الكتاب وانكسرت عليه فصوله وأبوابه، وإنما هي كلمات كان يرسلها نابليون لا يقصد بها إلى الحكمة أو الفلسفة، وما أظن قوله يودع جنده: "إن قلبي معكم فلا تنسوني" يدخل في باب الحكم أو هو منها في شيء.

---

(١٨) أسبق الاثنين إلى مزاولة التعريب إبراهيم رمزي، ولطفي جمعة أسبق إلى إظهار تعريبه، ولعل هذا من مرجحات الأول لأن التأني أبلغ في إنجاح الحاجة.

وقد أهمل لطفى جمعة أن يذكر على الكتاب أهو الواضع له أم غيره، ولست أدرى ماذا أراد بقوله إنه من قلمه؟ أليوهم صغار الناس أنه هو مؤلفه وجامعه والحقيقة غير ذلك، أم هو السهو والنسيان لعنهما الله فلشد ما يخزيان الفتى ويخجلانه؟

وبعد فإن كتاب رمزى أحسن منحى وأسد منهجًا، وأجزل تعبيرًا وأعذب موردًا، وأحسن تنسيقًا وتبويبًا، وأغض مكاسر وأصدق تعريبًا. ولطفى جمعة سخيف العبارة مبتذل التراكيب، عامىّ الألفاظ، كثير اللحن، جم العثار، قليل العناية بترتيب الأبواب، سيئ الحرص على معانى الكتاب، شديد التصرف بالنقص والزيادة، والحذف والإضافة، وبالجملة فإن كتابه - كما قال فيه أحد الأدباء الظرفاء معارضة للأصل - لا تعريبًا له. وبيان ذلك جميعه أن الفصل السابع فى كتابه جاء بعد الثالث، والرابع بعد التاسع، وهذا منتهى ما وصل إليه اضطراب التأليف واختلال النظام، ولعمرى لو أن رجلاً تعمد أن يفسد كتابًا بما يقدم ويؤخر منه لما استطاع أن يأتى بأسوأ من ذلك. ولقد بلغنى، والعهدة على الراوى، فى شرح ذلك وتعليله أن نفرًا من إخوانه أعانوه على نقل الكتاب وكانوا أمضى منه فيما استكفاهم وأسرع إلى قضاء مقترحه.

وهذا وإن كنت لا أقول به فلست مع ذلك أنفيه عنه؛ فأنا بمنزلة بين الرفض والقبول، والتكذيب والتصديق. حتى يبرح الخفاء وينحسر الإبهام. ومن سوء حرصه على معانى الكتاب قوله فى ص ١٣٠ "ما أحسن راحة البدن لقد صار يغمى علىّ فى فراشى" تعريبًا لهذه العبارة:

"the bed has become for me a place of luxury"

والصواب ما جاء فى كتاب رمزى ص ١٣٢ "لقد أصبح الفراش عندى منزلاً للنعيم" والفرق بين المعنيين ظاهر، وليت شعرى أى راحة فى أن يغمى عليك يا لطفى وأى لذة فى أن يغيب عنك صوابك وإحساسك؟ أليس لك من الذكاء والفطنة ما يريك سخافة ذلك؟

ومن تصرفه بالنقص حذفه أسطرا كثيرة فى الكلام على الشجاعة قال: إننى لم أر رجلاً يظهر شجاعة فى وقت لم يكن ينتظر فيه غدرًا". وصواب ذلك ما جاء فى كتاب رمزى:

"لم أر من الشجاعة الأدبية ذلك الصنف الذى أسميه شجاعة الساعة الثانية بعد نصف الليل أى أننى لم أر رجلاً عنده الشجاعة الحاضرة ما لابد منه لدفع الغوائل إذا هى أتت غير منذرة ولا منتظرة. شجاعة تحفظ لصاحبها إلخ إلخ". وهى ترجمة حرفية لما جاء بالأصل ص (١١٤) .

ومن تصرفه بالزيادة قوله: "المطامع الكبرى (كطلب الرفعة وحب الرئاسة)" وليس لما حصرناه بين قوسين أصل. وقس على هذا سائر الكتاب.

ومن لحنه قوله: "لقد ظهر محمد فى وقت كان الناس فيه (محتاجون) والصواب محتاجين. وقوله "قد منحنى الله قوة تمكنى من التغلب على (سائر) العقبات والصواب كل؛ لأن سائر معناها باقى قال الشنفرى:

إذا قطعوا رَأسى وفى الرأسِ أكثَرى وغودِرَ عند الُملتَقى ثَمَّ سائِرى

وقوله: "الصيت الذائع (كالغوغاء) البالغة عنان السماء".. والصواب الضوضاء؛ لأن الغوغاء هم أوغاد الناس وأنذالهم. وقال:" اعتدت سماع الأنباء المزعجة فلا (يريعنى) منها الآن شىء، ولكننى بعد ساعة من سماع نبأ (مريع)".. والصواب يروعنى ومروّع. وقال: "لبست تاج فرنسا (المصاغ) من (ذهب)".. والصواب المصوغ من الذهب. وقال: "فإذا مت وأنا على عرشى (محاطًا) بكل".. والصواب محوطًا. وقال: "ولكن موت واترلو أفضل فإن الشعب كان حينذاك يحبنى (ويوجد) علىّ".. والصواب يجد، على أن هذا خطأ أيضًا؛ لأن وجد عليه يجده موجدة معناه غضب، والموجدة منزلة بين العتب والسخط. وقال: "خير معلم للفتاة (هى) أمها".. والصواب هو. وقال: "فلا أدرى إن كان هذا لأننى بلغت السن (الذى)".. وصوابه التى.. إلخ.

وحسبنا ذلك وكفى به دليلاً على ضعف نقده وخفة بضاعته ونزارة مادته، ولو أنا أردنا أن نحصى سقاط هذا الرجل اللفظية والمعنوية لأحرجنا القراء وكربناهم، وإنها وأيم الحق لسماجة فى المرء أن يتطفل على موائد الكتبة وليس له أداتهم ولا له آلتهم، ويدس بنفسه بينهم وليس منهم، ولو كان له جبين يندى أو طرف ينكسر لانزوى فى بيته

حياءً ولاتخذ من داره جُنة يتقى بها سهام السخرية والهزوء، ولوجد لنفسه مندوحة عن موقف يخزى فيه. وأى عـيب أكبر وخـزى أفضح من أن ينتحل الرجـل كتابًا برمته. لقد سمعنا بمـن يسرق المعنى والمعنيـين، ولكننا ما علمنـا على النـاس مثـل ذلك مـن قبـل.

على أنى أعجب لصاحب البيان - وعهدنا به من ذوى البصر بصرف الكلام والخبرة بنقد جيده ورديئه - كيف لم يفطن لضعفه الظاهر وقصوره البادى حتى صار يستعين به ويعمد إليه فى النقل والتعريب، وحتى كان من أمره معه أن أخذ ينقل له كتاب الواجب. وقد قال لى أحد الذين قرأوه بالفرنسية أن صنيعه به أشنع من صنيعه بكتاب نابليون.

قـال: "فـإن داخلك فى قـولى شك فـانظر ص٢٤ من كتـابه (يعنى الواجب) تجـده يقول فى كلامه عن أعداء الفلسفة والحرية: "... فهم تارة ينعون على الفلسفة **carts sese** وطوراً يعنفـون أصحاب.. إلخ"، ألا ترى أنه عجز عن نقـل هذا اللفظ وتعريبه فـأبقاه كما هو. وأى فـائدة فى التعريب إذاً؟ وهل معنى التعريب أن نعيد طبع الكتاب بلغته التى كتب بها". ونحن نشايعه على رأيه ونأخذ عليه ما يأتى:

قال فى أول مقدمة المؤلف: "(تُعتبر) الفلسفة فى نظر الفلاسفة علماً..." وما نعرف لهذا الاستعمال أصلاً؛ فإنه يقال اعتبر من الشىء تعجب وبه اتعظ، ولكن لا يقال اعتبره بمعنى عده أبداً. وقال فى هذه الجملة أيضًا: "علما (يشتمل) جملة من المسائل.. والصواب على، وقال: "مبادئ ونتائج ما عداها من العلوم".. والصواب مبادئ ما عداها ونتائجها. وقال: "التى (تكسبها) الحياة ثوبا عمليا".. والصواب تكسوها. وقال: "المشتغلين بالعيش الأدنى".. وصـوابه كمـا أخبرنى من قـرأ الأصل المترفين. وقـال: "سـابقا بـأفكاره".. والصواب لأفكاره. وقـال: "إن الإنسـان ليذهب (أبعد) من ذلك".. والصـواب إلى ما هو أبعد. وقـال: "لو كـان (للإنسـانية) ذلك المستقبل".. والصـواب للإنسـان. وهذا كله فى الصفحة الأولى من المقدمة وحدها فما ظنك بسائر الكتب. فاتق الله يا صاحب البيان،

واعلم أن قراءك قد اطمأنوا إلى علمك وركنوا إلى تحقيقك فلا تسيء إليهم ولا تدعهم يحملون الخطأ عن صحيفتك وهم يحسبونه صواباً، واصنع لهذه اللغة يصنع الله لك، ولن يضيع أجر من أحسن عملا.

"**البيان**" نشرنا هذه الكلمة عملا "بحرية النشر" ولنا مقال نبين فيه رأينا فيما ضمنته هذه الكلمة لم يتسع له هذا الموضع، وسوف ننشره فى أحد الأعداد الآتية إن شاء الله.

باب الأدب : نقد ديوان شكرى[١٩]

(١)

ظهر الجزء الثانى من ديوان الشاعر العبقرى عبد الرحمن شكرى، وهو كما يرى القارئ فى فنون من الشعر وأبواب من المعانى لم يألفها جمهور هذا الناس، ولا هى مما يتمثل فى خواطرهم ويحوم عليه فكرهم، ولقد عابوه بها وقالوا إنه عدل عن طريقة الأعراب والمألوف من مناهجهم إلى مذاهب الفرنجة، وإنه يطبع على غرارهم، ويحتذى على مثالهم فى تصوير المعانى ورسم الخيالات، وإنه لو كان أخذ نفسه بانتهاج سبيل المتقدمين من أهل هذا اللسان العربى بأن زاوج بين معانيهم وألفاظهم، لألبس هذه المعانى أشكالها ووفاها زينتها وجمالها، ولكان قد جاء لا هُجنة عليه، ولا عيب فيه. فأما أن شكرى لا يجرى على منهاج العرب فصحيح لا مساغ للشك فيه، ولكن ذلك لا يزرى به ولا ينزل من درجته؛ لأن العرب لم يتصرفوا فى كل فنون الشعر، ولم يطرقوا كل أبوابه، ولأن الشعر شىء تستوى فيه وَغْبة[٢٠] الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، وليس أغرب من قول القائل هذا خيال إفرنجى وهذا عربى، وهذا معنى شرقى وهذا غربى؛ لأن الشعر موجود فى طباع كل الأمم، وإنما هو معان لا يزال الإنسان ينشئها فى نفسه ويصرفها فى فكره ويناجى بها قلبه، ويراجع فيها عقله، والإنسان هو هو فى الشرق والغرب، والناس جميعًا من طينة واحدة والنفوس متقاربة، وإنما الفرق فى طريقة العبارة عن المعانى، وفى أسلوب التفكير لا فى جوهر الفكرة، وفى القالب لا فيما يفرغ فيه.

---

(١٩) نشرت فى "الجريدة" فى ٣٠ يوليو سنة ١٩١٣ (ص١-٢).

(٢٠) وغبة: أضعف وأحمق.

كما أن الفرق بين إنسان وإنسان أن هذا أسود وهذا أبيض، والشعر ليس كالبترول أو الذهب تجده فى بقعة دون أخرى وبلد دون بلد، وعلى أنه بعد لو كان ثمة شىء مما يتوهمون، وكان هناك معنى عربى وآخر إفرنجى لما كان علينا بأس من ذلك، فإن إجادة قوم فيما تناولوه من الأغراض والمعانى لا تنفى إجادة ما خلاهم من الأمم والشعوب، ولكن الحال والحمد لله ليس على ما خيل أصحابنا، والأمر على خلاف ما سبق إلى أوهامهم؛ لأن الشعر خصوصه كالعموم وسبيل الشاعر إذا قال أن يسوق قوله إلى الناس جملة، لا إلى طائفة منهم خاصة، ومن أجل ذلك تجد الشعر يقرأ بكل مكان، ويظهر ما فيه على كل لسان، ويوجد مع كل زمان، ويتغلغل إلى كل وجدان، على تباعد ما بين الأمصار، وتفاوت ما بين الأعصار، يقرأه الفتيان كما يقرأه الشيوخ، ويقرأه ذو اللهو والدعابة كما يقرأه ذو الجد والمرارة، ويقرأه ذو الأربة كما يقرأه ذو العنجهية، ويقرأه الناسك الورع كما يقرأه الفاتك الخليع، وذلك أمر يستحيل فى غير الشعر، فمن قال هذا معنى إفرنجى وهذا معنى عربى، وجعل ذلك ذريعة إلى تنقص الواحد والإشارة بالآخر، فقد ظلم الشعر ودل على ضيق روحه وعامية نفسه.

* * *

لا ريب أنه كان أربح لشكرى وأرجع فى يده لو راض نفسه على الاقتياس بغيره من شعراء هذا البلد من مثل حافظ وأضرابه؛ فإن الشهرة والربح الذى هو تاليها ورديفها فى الوجود ليسا فى كل حال من نصيب أهل الفضل، والحظوظ ليست موزعة بين الناس على نسبة أقدارهم وكفاءتهم، فإن الماء ليطفو على وجهه فى انسيابه كل خفيف المحمل، ويرسب فى قاعه كل عظيم القدر، وقد يسمو العصفور الضعيف بجناحه إلى حيث لا يستطيع أن يبلغ الإنسان بما له من القوة والحيلة، لكن العبقرية لا تبعث الرغبة فى الخلود؛ لأن الشىء الباقى أحب إلى صاحب النفس العظيمة من الفانى، والعظيم أكلف بالثابت منه بالمزعزع، والأبد فى رأى العقل أملك لعنان النفس الكبيرة وأسحر للب من الساعة أو اليوم أو القرن، ألا ترى أن الصخرة تصطرع عندها جنود التيار

أروع أبهة وأبهر جلالة من الصخرة الصناعية فى حديقة الملك، والكهف فى الجبل تصخب عند بابه الأرواح أملأ للصدر وأجل فى العين من كهف "إسماعيل" فى "حديقة الأزبكية"، ولماذا يجعل أحدنا من مفاخرة أنه يؤول إلى كرم عريق، ومجد عادى عتيق؟ كذلك فى الجبال معنى تدور عليه فى القصور فتخطئه!

نقول إنه كان أذيع لذكره وأقل مؤونه عليه، لو أنه لم يسهد جفنه فى رياضة القوافى الصعبة، ولم يضن نفسه فى فتح إغلاق المعانى والغوص على الخيالات البديعة والموضوعات المبتكرة، فإن أسير الشعر ليس أدقه وأجوده، فإن ما سار على الأفواه وملأ الأسماع مثل الشعر الذى ملؤه الجرأة والغلو أو السطحى الذى لا ينفذ إلى الصميم من الأخلاق والعادات ولا يبلغ كنه شىء من الأشياء، أو الذى يستولى على الأوهام فيلهى الذهن عن التدبر والنظر، وأما الشعر الذى يتصل بالقلوب ويمتزج بأجزاء النفوس فيشعرها قوتها، ويكشف لها عن مواطن ضعفها، ذلك الشعر الذى يجمع بين حكمة الأولين وإبداع المتأخرين فما [أندر] قارئيه وأخمل قائليه!

ألسنا نحاول الزراية على طائفة من الشعراء أو الطعن عليهم والغض منهم، وإنما نريد أن نقول إن الشعراء فريقان، فريق خيل إليه أنه ليس فى الشعر كثير طائل، وإنه ليس إلا فرقة يتعلل بها الغافل أو فكاهة يسلو بها الجاهل أو بكاء راحل أو وصف ساعة ونعت منزل أو إسراف قول فى مدح أو هجاء، وإنه ليس فيه دقائق وأسرار طريق العلم بها الرواية والفكر ولطائف مستقاها العقل وخصائص ينفرد بها قوم دُلوا عليها وهُدوا إليها، وإنه حسب أحدهم أن لا يلحن فينصب فى موضع الرفع ويرفع فى موضع النصب أو يخطئ فيجىء باللفظة على غير ما هى عليه فى الوضع اللغوى، فإن استظهر للأمر وبالغ فيه، فأن يكون حسن المطابقة والتجنيس صحيح التقسيم لطيف الكناية والتعريض رشيق التذييل والترصيع. وفريق آخر أحس فى نفسه دبيب الخيال ووجد فى صدره جيشان الخواطر، فأحب أن يكون نبى نفسه ورسول قلبه، وأن يكشف للناس عما ارتسم على قلبه وانتقش فى ذهنه وظهر لعالم حسه وبرز لمشهد مشاعره، وهو لا يبالى خلع الناس عليه أجمل حلل المدح أم شيعوه بالذم والقدح.

وأنت فقد تعلم أن أطيب ما يذكر به عظيم، وأكبر ما يعزى إليه من الفضل أن يقال إنه لا يجرى قلمه إلا بما فى نفسه، وإنه يرصد برق الخواطر فى ذهنه ولا يستمطر غيث غيره، وإنه لا ينظر إلا بقلبه ولا يستعين إلا بفكره ولا يستنجد إلا رأيه، وإنه لا يأبى أن يبرز معانيه من ضميره وأن تدين لتبيينه وتصويره، وأن ترى سافرة بغير نقاب نادية دون حجاب، وإنه لا يستعير معانى غيره لأنه وإن أفاد المعانى فقد خسر الروح والرجولة وهما كل شىء، ولأنه يعلم أن الحمام لا تكون منه نسور وإن استعار أجنحة النسور، وإنه لا يقلد إلا نفسه، ولا يحتذى إلا على مثال فى ذهنه، ولا ينهج إلا طريقًا بكرًا لم يسبق إليه، وإنه لا يقيم وزنًا لضجات الثناء أو لصرخات الأعداء، ولا يحفل عرف الناس له قدره أو أنكروا مزيته وفضله؛ إذ حسبه أن يكون قد جاد بما عنده غير مدخر وسعًا ولا آليًا جهدًا، وأن يكون قد صدق نفسه وجعل لسانه صورة لقلبه.

ما من عظيم إلا والصدق من صفاته الظاهرة وآياته الدالة عليه المشيرة إليه، ولست واجدًا فحلاً من فحول الأدب إلا وكان قوله جزءًا من نفسه وقطعة من تجاربه، وذلك لأن العظيم لا يعدل بالحق شيئًا "وهو لا يلبس آراءه كما يلبس ثيابه"، ولا يقبع فى كسر بيته ثم ينظر إلى العالم من نوافذ الجرائد متوقعًا أن يقع حادث كبير كزلزال مسينا أو الحرب الطرابلسية ليقول فى ذلك شعرًا؛ فإن هذه الحوادث، وإن تكن فى ذاتها أمرًا جللاً، غير أن الشاعر خليق أن لا يعيرها التفاته إلا ليجعلها ذريعة إلى تصوير حقيقة هى فى تقديره أكبر وأصدق، وأغلى وأثمن، فربما صور لك العظيم سقوط دولة وقيام أخرى ليكشف لك عن قلبين معذبين كما يستعين الممثل بالستائر، ولكن صغار الناس لا يفهمون كيف يعدل الشاعر عن أجهر الحوادث وأضخمها إلى أصغرها وأضألها، ولا يتفطنون للسر فى ذلك وقد يتهمونه بضعف الإدراك وفساد الذوق وموت الأريحية، وأين تقع عندهم قصة هاملت وهى من صوغ الخيال وتزويقه من الحرب الطرابلسية؟ أتكون زينة الخيال خيرًا من عاطل الحقيقة؟ ذلك لأنهم أولعوا بالإغراب والتبذر، فلم يفهموا فرق ما بين الحقائق، ولم يميزوا بين الخيال الصحيح والخيال السقيم، والشاعر عندهم إما أن يكون مقلدًا كذابًا أو كآلة التصوير الشمسى،

وإنما شغفوا بالأغراض الرائعة ليخفوا تحتها خيالهم. وأنت فمهما كانت منزلتك من البلاغة ومكانتك من الفصاحة فإنه لا يقع فى إمكانك أن تبصرهم الصواب أو تميلهم عن رأيهم؛ لأن أعينهم سادرة، ولأنك تعالج مرضًا مزمنًا وداءً متمكنًا، ولأنك فى منزلة من يحاول أن يصوغ عقولهم صيغة جديدة وينشئهم نشأة أخرى، وأنى لهم أن يدركوا أن البحر إذا هاج لم تعرف أى أرضه أبعد غوراً حتى إذا سكنت سورته ظهر لك المكان الضحل من غيره.

إنما الأديب من انتفع به الأدب وزادت به مادته، وما يتأتى ذلك إلا للفحل المبتكر أو الذى يحدث من القديم جديداً؛ فأما هذه الأصداء فما أقل غناءها وأغنانا عنها، ولعمرى كيف ينتفع الأدب بمن يتنسمون الآراء ويتسقطونها ليعرفوا ما ينبغى أن يكون رأيهم، وليعملوا فى ذلك شعراً رجاء أن يكون لكلامهم قسط من الاستحسان ونصيب من الإعجاب؛ فهم يفرون من نفوسهم ليصيروا إلى رأى الجمهور، رغبة فى كسب الحمد ونيل الثناء - هؤلاء هم تجار الأدب - أليس من خلق التاجر أن يتوخى مرضاة زبائنه ويتحرى مسرتهم وإن كلفه ذلك تدليس سلعته عليهم والمكر بهم؟

مائدة أفلاطون

وتاريخ الفلسفة اليونانية[٢١]

(١)

ندع هنيهة ميادين السياسة الضيقة الحرجة وما فيها من إسفاف فى الغايات ومزالق للخداع ونخرج إلى فضاء الفكر الحر وجو العقل النقى الذى لا يشوب صفوه إلا قلق الرغبة فى الكمال، والذى لا تكدره أوحال الحقارات التى لا تفتأ تذكر الإنسان بأنه من طينة الأرض الوضيعة، على أنه حتى هنا يحس من يحن إلى صفاء النفس القديمة أن البواعث المادية قد أفسدت كل شىء، وأن العوامل التجارية قد عكرت الجو، وأين اليوم – فى مصر على الأقل – تلك النزعة الجليلة التى يجتليها المرء فى آثار المتقدمين، وذلك الإخلاص الرائع الذى يتنسمه من مخلفاتهم؟

أقول هذا بمناسبة "مائدة أفلاطون" وهى رسالة بديعة لأفلاطون، فيلسوف اليونان، نستحى أن نجرى القلم بشىء من الثناء عليها؛ لأنها متاع عام لكل الأدباء وكنز جليل يقتنيه، أول ما يقتنى، حتى الأحداث من محبى الحكمة والفلسفة والأدب. وقد نقلها إلى العربية الأستاذ محمد أفندى لطفى جمعة المحامى، ومهد لها بمقدمة طويلة فى تاريخ الفلسفة اليونانية تقع فى أكثر من مائتى صفحة من مائتين وست وسبعين من [الغرار] الصغير ووقع فى يدى كتابه هذا اتفاقاً.

---

(٢١) نشرت فى جريدة "الأخبار" القديمة فى ٦ يوليه سنة ١٩٢١، ص١ .

وللطفى أفندى هذا ولع بترجمه نفائس القدماء مثل الجولستان - حديقة الورد - للسعدى الفارسى ومثل حكم بتاح حوتب الحكيم المصرى، ولكن الغريب أنه لم يعن أحد بنقدها أو وزن عمله فيها وبيان مبلغ ما رزق من التوفيق فى نقلها، وليس هذا بالبداهة لتفه فى الأصل يهوى به عن استحقاق العناية؛ فإن لهذه الآثار قيمتها لا ينكرها عليها منكر، وإنما العلة فى رأينا هى أنه غير موفق فيما يعالج وكذلك أراه فى "مائدة أفلاطون". ولولا أن هذه "المائدة" من أجمل وأتم ما أخرجه أفلاطون، ولولا أننا لا نحب أن يروج بين الشبان الخطأ المحض والزغل البحت، ولولا أن أكثر شبابنا ليسوا بعد من سعة الاطلاع والنضوج بحيث نأمن عليهم قراءة هذا التخليط - لولا كل ذلك لما عنينا بأمرها.

* * *

قلنا إن المترجم وضع مقدمة فى تاريخ الفلسفة اليونانية تقع فى مائتى صفحة وخمس صفحات، وقد كنا خليقين أن نحمد منه هذا الذى جشم نفسه لو أنه تحرى الدقة والصواب. جشم نفسه؟! كلا والله ما نظنه تكلف أدنى نصب أو عانى أيسر تعب، فإن فى الكتاب من التخبط والتخليط ما ينفى عنه مظنة إجهاد الذهن وإرهاق الخاطر. ووالله ما ندرى ماذا يمنعه أن يتثبت مما يقول؟ والكتب والمراجع عديدة، والحمد لله لا يكاد يأخذها حصر وهى قريبة المنال من كل طالب وهبها ليست فى بيته، فهل تقصر يده أو يد سواه عن الوصول إليها فى دار الكتب المفتوحة لكل قاصد؟

فى عصرنا الحاضر - فى هذا القرن العشرين لا فى أوائل الخليقة - رجل من كبار العلماء وفحول المفكرين اسمه بوانكاريه وهو ابن عم رئيس الجمهورية الفرنسية الأسبق - هذا العالم الحديث يذهب بحق إلى أن كل ما يعده البشر ثابتًا من الحقائق - حتى الرياضى منها مثل ١+١=٢ - إنما كان ثابتًا بالنسبة إلينا نحن بنى الإنسان فى الظروف المحيطة بنا أى أنه ليس ثم شىء من المعارف والحقائق يمكن أن يقال عنه إنه ثابت ثبوتًا مطلقًا؛ فلو أن القمر مثلاً كان مأهولاً "بنوع" آخر من الحياة، وتناول أحد

ساكنيه معارفنا الثابتة فى رأينا ويقيننا وتدبر فى ضوء ظروفه هو المختلفة عن ظروفنا وبفكره الذى لا يماثل فكرنا، لنازع فى صحتها على التحقيق. وقد تناول بوانكاريه هذا طائفة من البدائه الهندسية المقطوع بصحتها وكشف عن الجانب الذى يمكن أن تطعن من ناحيته، ورأيه مشهور معروف ولولا أنى أكتب الآن من الذاكرة لسقت للقارئ بعض قوله فى هذا الصدد.

ومع ذلك لا يتحرج لطفى أفندى جمعة أن يقول فى أكثر من مكان واحد فى مقدمته أن هذا الرجل أو ذاك من فلاسفة اليونان بنى مذهبه أو آراءه على "العلم الصحيح"! ويقول هذا فى معرض كلامه على تاريخ الفلسفة التى يعلم كل امرئ أنها كل يوم فى شأن وأنه ليس أقبل منها للنقض والهدم!!

وقرأنا له فى صفحة ١١٧ من مقدمته "وقال زينو بأن كل فترة من التاريخ هى عبارة عن صورة طبق الأصل من الفترة السابقة وهذا المبدأ فيثاغورثى فى أصله وهو رأى يقصى الاختبار عن أعمال البشر ويؤيد أننا مسيرون وأننا كائنات ضعيفة فى أيدى القضاء والقدر. وهذا هو الرأى الذى انتحله فردريك نيتشه وبنى عليه فلسفته دون أن يذكر منشأه. ولكننا لا نسمى هذا سرقة أدبية، ولكننا نفسره بتوارد الخواطر لأنه شتان بين هذا الرأى فى بساطته وبين البناء الشامخ الذى شاده نيتشه".

والذى نعلمه نحن ونعتذر إلى الكاتب الفاضل، اضطرارنا إلى قوله هو (أولا) أن فردريك نيتشه لم يشد بناءً شامخًا لأنه ليست له فلسفة معينة، بل إننا نستطيع أن نخرج من كتبه فلسفتين متناقضتين؛ إذ كان لم يضع مذهبًا بل كان يكتب كل ما يخطر على باله ولو كان هراءً محضًا (وثانيا) أن فردريك نيتشه آخر من يمكن أن يخطر لهم الاعتراف بضعف الإنسان وكونه آلة فى أيدى القضاء والقدر لأنه من عباد القوة، ولا يتفق من يذهب إلى إبادة الضعفاء ومن وضع [أفكار] "السوبرمان" أن يكون من المقرين بضعف الإنسان (وثالثا) أن نيتشه لم يقل هذا الذى عزاه إليه الكاتب العالم ثم أشار إلى أنه سرقته إياه، وإنما الذى قاله هو أن المادة واحدة والقوة واحدة، ولكن الصور التى ينتجها التفاعل والتصادم والتصارع هى المختلفات وأقرب مثل لذلك

آلة الكليدسكوب وهى المنظار فى طرفه قطع عديدة شتى الألوان تنظر إليها من الجانب الآخر فترى صورة مؤلفة من ألوان قطعها، تحركها وتنظر فتتغير أوضاع القطع وتبدو صورة أخرى وهكذا.

على أن لطفى أفندى لا يكتفى بأن يعزو إلى المحدثين ما هم بُراء منه، بل هو يتبرع - بما فى دماغه، أو فيما ينقل عنه من الكتب العربية، للقدماء أيضًا؛ فقد نحل فيثاغورث هذا الرأى قال "وهو أول من فرق بين إدراك الإنسان والحيوان بعبارة وجيزة إذ قال إن هداية الحيوان مقدرة على الآثار التى جبل الحيوان عليها وهداية الإنسان مقدرة على الآثار التى فطر الإنسان عليها، فكأنه يقول إن الحيوان يعيش بالغريزة والإنسان يعيش بالعقل، ولا يوجد فرق عظيم بين هذا الرأى وبين العلم الحديث".

العلم الحديث!! مرحى مرحى! وهل للعلم الحديث شأن بهذه السفسطة؟؟ وماذا [..] - إن صحت رواية الكاتب فيما عزاه إلى فيثاغورث - حتى يستحق أن يعد أول من فرق بين إدراك الحيوان وإدراك الإنسان ومن الذى يفهم من هذا التفريق أن الحيوان يعيش بالغريزة والإنسان بالعقل؟؟ ومن [...][٢٢].

---

(٢٢) تعذر الوقوف على بقية المقالة بسبب تمزق الأصل وضياعه!

مائدة أفلاطون

وتاريخ الفلسفة اليونانية[٢٣]

(٢)

لم ينج شيء في هذا العالم المادى ولا فيما وراءه من تهجم للكاتب العالم لطفى أفندى جمعة حتى لنرى الكون وأصل الوجود معروفين عنده وإن كان يجهلهما كل من دب ودرج في هذه الدنيا الجاهلة. والمسألة عنده بسيطة لم يبلغ من تعقدها واستعصائها على العقل البشرى أن يحتاج الأمر إلى كل هذه السلسلة الطويلة من الفلاسفة والعلماء الذين ظهروا في الوجود، وكأننا به يذهب إلى أن جميع الأجيال التى تعاقبت على سطح الأرض وفي نواحيها العديدة المختلفة بعد اليونان جاءت تكراراً مملاً لا لزوم له ولا فائدة منه ولا خير فيه. ومادام اليونان قد خلقوا وعاشوا وعالجوا كل معضلة من معضلات الكون والفكر وحلوها فقد كان ينبغى أن ينقطع بعدهم تيار الحياة وتقفر الأرض من قطانها الفضوليين الذين يعيشون عيالاً على أسلافهم. ولكن ما العمل إذا كانت الطبيعة مسرفة مبذرة أو هي لا ترى رأى لطفى أفندى في خلقها؟؟

نعم هذا الوجود فصول متكررة مرذولة في نظر لطفى أفندى وليس الرومان والعرب والألمان والإنجليز وغيرهم إلا صوراً طبق الأصل من اليونان، وليس دارون مثلا إلا نسخة معادة من أناكساجور[٢٤] مع فروق ضرورية واختلافات لا مفر منها في طول

---

(٢٣) نشرت في جريدة "الأخبار" (القديمة) في ١٣ يوليه سنة ١٩٢١، (ص١).

(٢٤) ربما كان أناكساجور Anaxagoras أول فيلسوف يعيش في أثينا؛ حيث عاش على التقريب من ٥٠٠ إلى ٤٢٨ ق. م. وهو ينتمى إلى ما يطلق عليه مؤرخو الفلسفة "ما قبل سقراط" (المحرر).

اللحية أو قصرها وفى نوع الثياب وتفصيلها. فماذا كانت الفائدة من خلق دارون فى العصر الحديث بعد أن ظهر أناكساجور فى الزمن القديم؟ هل كان غرض الطبيعة أن يكشف دارون للناس عن أصل الوجود؟ تالله ما أجهلها وأعظم خطأها!! لقد عاش أناكساجور وتبين هذا الأصل وشرحه بما لا يحتاج إلى زيادة، وإلى القارئ ما قاله لطفى أفندى في هذا الصدد مصححاً لغلطة الطبيعة الجاهلة المسرفة التى أصبحت تستحق منه الحجْر والوصاية: "ففضل أناكساجور على العلم عظيم وكلامه فى أصل الوجود ينطبق على العلم الحديث وهو راجع إلى رغبته فى تعليل مبدأ الموجودات فقال إن مبدأها متشابه الأجزاء، وهى أجزاء لطيفة لا يدركها الحس ولا ينالها العقل منها كون الكون كله العلوى منه والسفلى لأن المركبات مسبوقة بالبسائط والمختلفات أيضاً مسبوقة بالمتشابهات، وهذه النظرية انتحلها دارون"أ هـ.

فالكون له قسمان أحدهما علوى والثانى سفلى - هكذا قال بروتوس العصر الحاضر، فإن عجز القارئ عن تصور هذه الجغرافية الفلسفية الهندسية فلا يلومن إلا نفسه - وهذان القسمان متشابهان ومكونان من أجزاء لطيفة جداً لا تستطيع إدراكها أيها القارئ بحسك ولا فهمها بعقلك. إنما يستطيع ذلك اثنان لا ثالث لهما، أحدهما أناكساجور وهذا مات، وثانيهما لا أنا ولا أنت! وما السبب فى أن الكون مؤلف من أجزاء؟! تعليل ذلك أن البسيط فى ترتيب الطبيعة يجيء قبل المركب والمتشابهات قبل المختلفات.

فانظر ماذا صنع دارون؟ جاء فأغار على هذا التفسير المشرق لأصل الوجود وانتحله لنفسه، ولكنه لجهله وغباوته لم يفهمه، فأخرجه للناس فى صورة سخيفة معقدة ليستر سرقته الفظيعة، وذهب يدعى "أن جهلنا بقوانين التنوع عميق ولا تستطيع فى حالة واحدة من بين مائة أن تدعى معرفة السبب الذى جعل هذا أو ذاك يتنوع" وهو يرجو من وراء إعلان جهلنا وإيهامنا أننا فى أعمق درك منه أن يخفى سطوه على القدماء، ولكن الحق لا يعدم نصيراً ولو بعد خمسة وعشرين قرناً. ولما كان دارون قد عقد الموضوع فقد احتاج الأمر إلى أن يظهر بيننا عن يريق عليه نور ذكائه ويفيض

عليه من بحر عرفانه وإلا فمن كان يعرف أن المُركب مُركب؟ نعم إن لفظة "المُركب" وحدها كافية للدلالة على أن البساطة سابقة، وإذا صح أن الأمر يحتاج إلى إيضاح؛ فالذى وضع كلمة "المُركب" هو صاحب الفضل الأول لا أناكساجور ولا غيره، ولكن على الرغم من ذلك أناكساجور هو الذى عرف أصل الوجود وداروين سرق نظريته ولطفى أفندى هو الذى قبض عليه "متلبسًا بالجريمة".

بيد أننا نستطيع أن ندافع عن الطبيعة فى نقطة واحدة ورجاؤنا إلى الكاتب أن يتقبل منا ما نبسطه لها بين يديه من العذر وأن يغتفر لها كل هذا الإسراف من أجل عينين اثنتين وإن كانتا لسوء حظنا ليستا بسوداوين – نعنى الفيلسوف أوجست كونت الذى مدحه الكاتب فى غضون كلامه على أرسطوطاليس، وذلك حيث يقول: "فأى عقل إنسانى قبل أرسطو أو بعده – بغض النظر عن الحكماء الذين استعانوا بالعلوم الحديثة أمثال أوجست كونت – بلغ هذا الشأو فى التفكير وألم هذا الإلمام بحكمة الإنسان وعلومه؟".

فأوجست كونت أحد الأفذاذ القلائل الذين بلغوا شأو أرسطوطاليس، ومع ذلك فقد كنا نحسب قبل عهد لطفى أفندى أنه إن كان أحد الفلاسفة المحدثين مدينا لأرسطوطاليس بأركان فلسفته فهو أوجست كونت هذا باعترافه فى كتاب "الفلسفة الوضعية" – أو هو على الأقل معترف بأنه أخذ أحد ركنى فلسفته الاجتماعية عن أرسطوطاليس ونعنى به ركن الثبات فى [أصل] الجماعة البشرية، وهو ما يسميه "استتيك". وأنه لمدين أيضًا لأرسطوطاليس بالركن الثانى وهو قابلية الجماعة للتطور وفق الأحوال والظروف التى تمر بها والتكيف على مقتضاها. فما للطفى أفندى يبعثر تهم السرقة والإغارة ذات اليمين وذات الشمال على كل عالم وفيلسوف إلا هذا الذى لم ينكر فضل أرسطوطاليس عليه؟

وللطفى أفندى فلسفة خاصة به نعترف أمام الملأ أنه انفرد بها ولم يشاركه أحد فيها لسبب بسيط هو أنها ليست قابلة للسرقة! وذلك حيث أراد أن يعلل كون أهل

أثينا عاقبوا أو حاولوا على الأقل أن يعاقبوا كثيرا من فلاسفتهم فقتلوا سقراط وأحرقوا فيثاغورث وحاولوا شيئا من هذا مع أناكساجور وأفلاطون وأرسطوطاليس وفى هذا يقول:

"والحقيقة أن أهل أثينا فى عهد سقراط أو أفلاطون أو أرسطو لم يكونوا إلا جماعة من الجهلاء السخفاء المتعصبين المبغضين للعظماء المحبين للانتقام. وإننا نستهجن الآن إحراق فيثاغورث وو.. وهذا الاستهجان ليس إلا غشًا وخداعًا منا لأنفسنا ولغيرنا، لأننا إذا رأينا الآن بين ظهرانينا نابغًا أو ممتازًا، فلا نلبث أن نكرهه ونحتقره ثم نضايقه لنخمد أنفاسه وإذا استطعنا قتله فإننا لا نتردد".

والقارئ معذور يا لطفى أفندى إذا [...] كيف يمكن أن يخرج من الجهل والسخافة والتعصب والبغض للعظماء عشرات من الفحول فى الفلسفة والحكمة والشعر والخطابة والحكومة. أليس الرجل ابن عصره ونتيجته مهما بلغ من الفرق بينه وبين غيره من الأفراد أمثاله فى المواهب والملكات؟؟ هل يمكن أن يظهر العظيم فى وسط غير مستعد له؟

وأدهى من هذه النظرية وأشق فهمًا [...][٢٥].

(٢٥) تعذر الوقوف على بقية المقالة بسبب تمزق الأصل وضياعه!

فى عالم الكتب :

رسائل الأحزان فى فلسفة الحب والجمال[٢٦]

كتاب اسمه "رسائل الأحزان فى فلسفة الحب والجمال" يضعه رجل من أركان المذهب القديم هو السيد مصطفى صادق الرافعى ويدفع بنسخة منه إلىّ أنا الذى لا يحب مع الأسف الفلسفة، ولا يستطيع أن يستكنه الجمال أو يستشف سر الحب ولا يعد نفسه - حين يعدها شيئًا - إلا من ممثلى المذهب الجديد لسوء حظ هذا المذهب! فأى موقف هذا؟ المذهب القديم فى هذا العصر، لا الأدب القديم، بغيض إلىّ كل البغض، والعناوين الضخمة تسخطنى وتنفرنى لأنى جربت خداعها وحيلها ولم أعد أستمرئ أن أنتظر أن أظفر بدرة؛ فإذا هى فى يدى حصاة لا تؤكل ولا تشرب ولا يحمدها رائيها ولا خابريها ولا يسره غيبها ولا ظاهرها، والفلسفة، وبخاصة فلسفة هذين، شىء لا قبل لى به ولا صبر لى عليه. ولست أحب أن أضع فى شدقى حديدًا ثم أمط شفتى وأقول "الله! ما أحلاه وأشهاه!" فكيف السبيل إلى إنصاف الكاتب أو إنصاف النفس أو على الأصح تحاشى تهمة الظلم؟

والرسائل موضوعة على لسان غارق فى الحب إلى أذنيه، وهذا هو الذى طمأننى وقوى قلبى على تصفحها وثبت يقينى وعمر صدرى به وأنا أتلوها واحدة بعد أخرى، وأنصب لكل واحدة ما عندى من الموازين. ولا يتوهم القارئ أن هذا إنما كان كذلك لأن صاحب الرسائل عاشق بل هائم مسحور وأنه ليس أعرف بالحب منه ولا أقدر على الكشف عن أسراره ولا أفهم للجمال ولا أخلق بأن يقول لنا ما هو. كلا! فما لهذا

(٢٦) نشرت فى جريدة "الأخبار" (القديمة) فى ٢٤ مايو سنة ١٩٢٤، (ص١-٢).

اجترأت على قراءة الكتاب بل لشيء آخر على نقيضه: هو أن العاشق أقل الناس على الفلسفة التى أمقتها وأفزع منها! ولا شك أن الله قادر أن يخلق عاشقًا يستطيع على الرغم من بلابله ووساوسه ومن أحلامه وهواجسه، أن يتفلسف، وأن يحصر ذهنه فى موضوع حبه وأن يضبط نفسه ويملك أن ينحي عن عينه أو خياله الأطياف التى تخطر له والصور التى تطالعه والقبل الموهومة التى ترتسم على شفتيه وقصائد الغزل المتصورة التى تقال فيه، وأن يسوق إلينا نظرية أو رأيًا لا تفسد شرحه الحماسة ووقدة العاطفة.

الله قادر على ذلك بلا نزاع ولكنا الآن ليس من همنا أن نبين ما الله قادر فما لهذا دخل فى موضوعنا ولا هو محل جدال، وإنما الذى نقصد إليه هو أن نقول إن المحب تستغرقه العاطفة فلا يستطيع أن يتناول موضوع الحب أو الجمال بالبحث الهادئ الجاد الذى لابد منه فى الفلسفة. ونضرب لذلك مثلاً يقرب المسألة ويجعلها أوضح فنقول هبك لقيت سكران طافحًا أفيخطر لك أن تتقدم إليه أن يلقى عليك محاضرة فى الخمر! أظنه آخر من يسعه ذلك! كذلك الخائف لا يجد من اضطرابه ما يعينه على البحث فى الخوف وما سببه وما نتائجه وما مظاهره النفسية والجسدية ولا يسعه وهو واقع تحت تأثير الخوف إلا أن يتلمس وسائل الاطمئنان أو يلوذ بالفرار. ومثل هذا يقال عن العاشق، فإن له من قلقه ومواجده وهمومه وانفعالات نفسه واهتياج عواطفه واضطراب أعصابه ما يشغله ويصرفه إلا الخالى والسالى. والإنسان فى ذلك كالبحر إذا اصطخب وأربد ثبجه لم تستبن العين فيه إلا أمواجًا تلتطم وأواذى تندفع حتى إذا سكن وقرت ثورته ظهر للغائص فى لجه ما يضمر فى جوفه من الحصى والدر وغير ذلك.

نعم يستطيع أن ينظم قصيدة، وأن يخرجها رائعة "أبقى على الزمن الباقى من الزمن"، ولكن الشعر شيء والفلسفة شيء آخر. هذا لابد فيه من العاطفة إذ كانت العاطفة مجاله لا العقل، والإحساس ميدانه لا الفكر، وكان الشاعر إنما يعنى بالفكر لا لذاته، ولكن على قدر ارتباطه بالعاطفة. وليس معنى هذا أن بالشعر عن الفكر غنيانا فما يمكن أن يكون كذلك إلا هراء المجانين، وإنما معناه أن الشاعر إذا عنى بفكرة فإنه لا يفعل ذلك لأنها سديدة صائبة فى ذاتها بل لأن إحساسًا نبهها وعاطفة حركتها وولدتها. وكثيراً ما يلقى الشاعر إليك بالخاطر الرائع وهو لا يدركه تمام الإدراك

ولا يخطر له بعد المدى الذى ذهب إليه فيه ولا يفطن إلى العمق الذى غاص إليه ولا إلى كل الصواب الذى اتفق له.

أما الفلسفة فشيء آخر مختلف جداً، لذلك لم أكد أقرأ في رسائل الأحزان قول هذا العاشق المسحور إلى صديقه السيد الرافعي: "على أنك لم تفقد مني في هذه السنة (يعنى التى غاب فيها عنه) إلا بضعة كتب وكلاما كنا نترسل به وليس فيه إلا الحبر فسأرد عليك من ذلك كتب سنوات وأعوضك برسائلى كلامًا فيه دمع العين ودم القلب. فقدتني صديقًا يهز يديك بتحيته، والآن أعود إليك شاعراً يهز قلبك بأنينه. فقدتني شخصًا وسأرجع إليك كتابًا".

أقول لم أكد أقرأ هذا حتى صفقت! وحمدت الله على نجاتى من معاناة الفلسفة! وأيقنت أنى هنا أمام رجل يقول لصديقه إنه شاعر وإنه سيسفح له دمع العين ودم القلب لا أمام فيلسوف سيمطرنى وابلاً من الحجارة وسحًا من الحديد! هان الخطب. وليزعم الصديق المسحور بعد ذلك أنه نبى وأنه ملهم أو ليقل عند السيد الرافعي إنه "يجيء بكلام علوى مشرق كتسبيح الملائكة يمازجه أحيانًا شيء يحار فيه الفهم، فما أبالي أو أخاف أي وصف ينحل نفسه أو يخلعه عليه صاحبه غير الفلسفة، ولقد طالعت الكتاب فصدق ظني وصح رأيي ولم أصطدم فيه بفلسفة كائنة ما كانت على الرغم من هذا العنوان المرعب الذى كاد يصدني عن فتح الكتاب. إذًا فأي شيء هو؟ أى شيء هو؟ كتاب! تستطيع أن تقرأه كما فعلت، وأن تفهم بعضه. وقد أنذرنا الرافعي بهذا في المقدمة التي وضعها لرسائل صديقه فقال: "يصف حبيبته في هذه الرسائل كأنه مسحور بها فيجيء بكلام علوى مشرق كتسبيح الملائكة يمازجه أحيانًا شيء يحار فيه الفهم لأن أحدنا إنما يرسل فكره وراء قلمه أما هو فيرسل نفسه وراء فكره ويستمد قلمه منها، فمنزلته أن يكتب ثلاث كلمات ومنزلتنا أن نفهم كلمتين. والإنسان منا كاتب مفكر، أما هو فقد زاد بصاحبته فكان كاتبا مفكرًا وملهمًا".

فيظهر أن الكلمة الثالثة التي لا يفهمها الإنسان منا هي تلك التي جاءته من صاحبته إلهامًا! فليته لم يعشق ليجيء كلامه مفهومًا! ولم أسمع تسابيح الملائكة حتى أعرف أهي ككلام صاحبنا حين يصف صاحبته، ولكن الذى أعرفه هو أن هذا

الصاحب المسحور ألهم كثيراً! فكانت أكثر كلماته هي الثالثة. وأرى من حق السيد الرافعي علي ومن واجبي له أن أعاتبه على أن أطاع صديقه وامتثل أمره الذي قال له فيه: "وأرجوك عافاك الله أن لا تتطلع في قلمي بنقد أو اعتراض أو تعقيب بل دعني وما أكتبه كما أكتبه"، فقد كان واجبه أن لا يعبأ بهذا الرجاء وأن ينقد ويعترض ويعقب. ولو أن الرسائل كانت ستظل مطوية لما كان في تركها كما هي من بأس، وأما وصاحبها المسحور قد بدا له أن ينشرها، فإن خليقاً به أن ينبهه إلى أن الغرض من الكتابة هو الإفهام أو نقل المعنى أو الخاطر أو الإحساس من إنسان إلى إنسان. هذا هو الغرض من الكتابة فيما نعلم ونرى. عندي معنى أو رأى أو نظرية أو إحساس أو خالجة على العموم أريد أن أنهيها إليك وأطلعك عليها لترى بعيني أو تحس بأعصابي، فإذا عجزت عن ذلك فإني لا أكون صنعت شيئًا، وقد يكون مرد عجزي إلى أن الفكرة أو العاطفة ليست واضحة كل الوضوح عندي وأني تسرعت وعالجت الإفضاء بها قبل أن أستجليها أو أنضجها؛ فيخرج الرأى فطيراً أو مشكلا والإحساس غامضاً، وربما كان مرجع العجز إلى ضعف الأداء وعدم التمكن من ناصية اللغة كما يكون سببه أحياناً لا قلة المحصول اللغوي، بل عدم القدرة على اختيار أشف الرموز عن المقصود – والألفاظ كما تعلم رموز – وأكفلها بتبيين المراد على وجه الدقة. وكثيرا ما تكون كثرة المحصول – كما تكون قلته – سبباً في الضعف والغموض لما عسى أن تغري به من الإسراف وعدم التدقيق؛ لأن العبرة هي بحسن انتقاء الرموز المبينة ووضعها في مواضيعها. كذلك المصور أداته الألوان وهي كثيرة وليس المعول عليها، بل على وضعها في مواضعها والقدرة على المزاوجة بينها بحيث تخرج لك صورة تراها وتفهمها أو ترى منها وتفهم ما أراد المصور. وكثيراً ما يكون من المستحسن أن يتحدث المرء بخاطره أو إحساسه قبل أن يكتبه، كما يفتح المرء "الحنفية" ليرى أفيها ماء وما قوته ومبلغ تدفقه؟ أو كما يفتح أحدنا صندوقا ليحيط بما فيه ويعرضه على نظره، وبذلك يتبين مواضع النقص وجوانب الغموض ويعرف الجهات التي تكون الفكرة مأتية منها.

وأراني أطلت في غير طائل على ما يظهر فموعدنا الأسبوع الآتي بهذه الرسائل المخزنة.

فى عالم الكتب :
رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب
نظرة أولى تحليلية[٢٧]

لا فلسفة عندى للحب - ولا لسواه فى الحقيقة - هو عندى أبسط من أن يحتاج إلى تفلسف، أو قل - إذا شئت - إنه أخفى سرًا وأعوص أمرًا من أن تجدى معه فلسفة أو يكشف عن سره غوص. وقد لا يبهظك أن تعرف ماذا يصاحبه من التأثر فيما يسمونه مركز التوليد الذى فى الدماغ وفى غيره أيضًا من المراكز التابعة له. وماذا يحدث فى الخيال والإرادة وغيرهما وماذا يحسه ويعانيه المرء. ولكن وراء ذلك مجاهل لم يذرع شبراً منها لا شوبنهاوار ولا هارتمان ولا دارون ولا سبنسر لو أن من السهل أن يصبر المرء على ما كتب هؤلاء، وأن يسيغه إذا صح أنهم كشفوا عن شيء من هذه المجاهل ولم يضيفوا إليها مجاهل أخرى من عندهم بما شعبوا وحيروا. كذلك الكهرباء نعرف فعلها وتوليدها ونسخرها ولا ندرى ما كنهها. وليس هذا سوى مثل أمثاله عدد الحصى والرمال. لذلك كانت هذه الفلسفات عبثًا - إلى الآن على الأقل - وإن كان الباعث عليها والدافع إلى معاناتها مفهومًا لا يسع المرء إلا أن يقدره ويكبره. ولا يتوهم أحد من القراء أنى أدعو إلى الإقلاع عن البحث والإمساك عن استجلاء الغوامض فإن الناس أحرار ولهم ولا شك أن يصنعوا ما شاءوا بأدمغتهم وأعمارهم. وأحسب أنه لن يطيعنى أحد إذا دعوت إلى ذلك ولو كانت لى سطوة القدر. ولكنه عذر أبسطه بين يدى قصورى وعجزى عن الاستطلاع وكراهتى لمتاعبه. غير أنى مع ذلك

(٢٧) نشرت فى جريدة "الأخبار" (القديمة) فى ٣١ مايو سنة ١٩٢٤، (ص١-٢).

صرت أرى أن الفلاسفة كالأطفال يخلقون لأنفسهم المشاكل ثم يقضون أعمارهم فى حلها كما يفعل الطفل حين يتناول بكرة من الخيط فيعتقدها ثم يعالج أن يصلح ما أفسدت يداه فلا تزيد إلا تعقيداً.

والحب مسألة عادية جداً يصاب به الإنسان منا مرة أو مرات فى حياته كالزكام لا ينجو منه ذو أنف، وكذلك الجوع والظمأ وما إليهما ولست ترى الأدباء مع ذلك من كتاب وشعراء يعنون بهذه الأمور عنايتهم بالحب، وربما كان تعليل ذلك أن الحب مسألة متعلقة *بالنوع على حين لا تعدو تلك أن تكون فردية*. ومن *المسلم به* – *ولا أدرى لماذا؟* – *أن النوع أهم من الفرد*.

وليكن الحب ما شاء فلست أراه مستوجباً أن نحزن أو أن من حقه أن يفضى إلى ذلك. وإذا لاحظنا أنه قوام الحياة الإنسانية وأن الفضل فى بقاء النوع يرجع إليه جاز لنا أن نستغرب أن يكون سبباً فى كل هذه الهموم والأحزان التى تسح بوصفها أقلام العشاق الذين ابتلاهم الله به. إلا إذا اعتبرنا أن بقاء النوع كارثة! وبخاصة إذا ذكرنا أن الفرد يمضى والنوع يأبى إلا أن يبقى على رغم أنوف الأفراد، وإنه لنوع عجيب حقا ! يأتى الفرد منه إلى الدنيا أول ما يأتى باكيًا صارخًا بلا داع، ثم يشب ويكبر وينضج كيانه ويتنبه مركز التوليد فى دماغه ويكتسب ما يصفه بعضهم "بالقطبية الجنسية" أو بعبارة أسهل وإن كانت أقل دقة يحس الظمأ إلى الحب حتى إذا اهتدى إلى طلبته ووفق إلى بغيته وصادف فى حياته واحدة من الجنس الآخر وجرى معها الشوط المقدر راح يندب حياته ويصور لنا نفسه كالحامل تلاً من الأحزان والهموم. أو هكذا يصور لنا الكتاب المسألة. ولما كان الحب بلاءً عامًا فقد وجب أن تكون الدنيا مناحة كبيرة تلطم فيها الخدود وتندب الجدود وتشتكى الهموم ويذرف منها الدمع السجوم.. أو كيرًا هائلاً ينفخ فيه كوبيد[٢٨] ذلك الطفل المجنح الخبيث... فهل الدنيا كذلك؟ إننا بحمد الله عائشون فيها فيظهر أن الكتاب يصفون عالمًا آخر ويعنون دنيا

---

(٢٨) كوبيد عند الأقدمين إله الحب، ويصورونه طفلاً ذا جناحين وفى يده قوس وسهام (المازنى).

غير هذه لا ترى فيها إلا كل ساهم ممطوط الوجه مسترخى اللحية من الحزن وإلا كل باك بأربع عيون وزافر كأن فى جوفه بركانا.. وما هكذا دنيانا أبقانا الله فيها وأطال أعمارنا وإن كانت تسخطنا أحيانًا! فهى - بالغة ما بلغت متاعبها - خير من ذلك العالم البهلوانى الذى يصفه الروائيون والذى لا تقع فيه العين إلا على مغشىٍّ عليه؛ لأن امرأة خطرت أمامه، أو خال بنفسه يضحك وحده ويحدث - لا أدرى من - وفى يده منديلاً أو زهرة أو شعرة لا ينفك يضمها بكلتا يديه إلى صدره أو يقبلها ثم يناجيها ثم يرفع طرفه إلى السماء ويجثو على الأرض ذاهلاً عن ثيابه الأنيقة، ويخاطب الماء والهواء ويعانق الأشباح والخيالات...

إن الرجل السليم العقل لا يعرف هذا الضرب من الخبل الذى يسمونه الحب. وما كان الحب شيئًا سوى الرغبة الطبيعية فى التعارف الجثمانى الكفيل بحفظ النوع. والرجل المعافى يكون شاعرًا بعاطفته مدركًا للغاية منها قادرًا على ضبطها غير قابل لما تصفه الروايات الفاسدة من مفاجآت الجفوة والحنين ومن إفلاس الشخصية والعقل، ومن تعاقب الاغتباط والحزن والاعتراف والإنكار ومن الهذيان المحموم والعنف الطائش والرغبة الفاترة والعواصف التى تثور بالبرق والرعد بلا إنذار.

والواقع أن أكثر ما تعرفه المدن الضخمة من الحب هو ذلك النوع المحموم وهو ليس فى الحقيقة حبًا وإنما هو نتيجة العلل التى تسببها حياة المدن من جهة والإيحاء المستفاد من الكتب الفاسدة التى وضعها المرضى والمصابون فى أعصابهم من جهة أخرى؛ فهو ضرب من الحب التقليدى يحاكى فيه المرء ما سمع به ويترسم مواقع أقدام من قرأ عنهم فى تلك الكتب. وماذا يحدث فى العادة، لا فى القرى حيث الطبيعة لا تزال سيدة الدار، بل فى المدن المكتظة بالناس، المسقمة للنفوس، المضعفة للأعصاب. يلتقى رجل وامرأة تكون المصادفة أو علاقات النسب أو الجوار أو غير ذلك قد جمعت بينهما، فيصغو كل منهما إلى صاحبه بالود وعند هذا الحد ينتهى عمل الطبيعة، ويبدأ فعل الكتب الفاسدة فينصب المسرح وترسم جوانبه ويقف فوقه الممثلان كأنهما آلتان من آلات الفونغراف. ومما هو خليق أن يضاعف الصفة التمثيلية، ويؤكد الصبغة التقليدية أن تكون المرأة ممن يجدن القراءة. ومعلوم أن المرأة أميل من الرجل إلى أن

تعد الحب غاية الغايات ومحور الحياة الإنسانية وهى محقة فى هذا؛ لأن دورها فيه هو الأكبر؛ إذ هى التى تقدم كل ما يلزم لتكوين الجنين وليس الرجل إلا أداة لتمكينها من هذا العمل الذى تتمثل فيه التضحية، ومن هنا كان مركز التوليد عند المرأة أتم وأنشط منه عند الرجل، وكانت هى أحس بما يجب توفره فى الرجل من الصفات وأدق شعوراً به من الرجل، ولكن الروايات تعصف برأسها وتذهب بلبها. ولما كانت الروايات لا تدور إلا على الحب وكانت تبالغ فيما تصف من جهاد الرجل فى سبيل المرأة ومن النشوة حين يظفر بها فأخلق بالمرأة التى تقرأ ذلك أن تغالى فى اعتدادها بنفسها، وأن تعد الفوز بها من نعم الله الكبرى التى لا تتاح إلا لأسعد السعداء، وأن يكون الميزان الذى تقدر به الرجل هو قدرته على الحب، وأن تؤثر على المالك لحواسه، الضابط لإرادته، ذلك الضعيف الخوار الذى يحيله الحب كالخرقة أو الورقة المبلولة وهى تنتظر لذلك أن يلبس شخصية واحد ممن قرأت عنهم وأن يمطرها سحاً من غزل الروايات وأن يؤدى معها مثل تلك الأدوار التى راقتها وأفسدت عليها غرائزها، أى أن يحبها وتحبه من الذاكرة تقليداً!

* * *

والآن ما نوع الحب الذى فى كتاب السيد مصطفى صادق الرافعى؟ أهو طبيعى أم تقليدى؟ ومن الضرب الذى تتجلى فيه الرجولة والأنوثة كما خلقهما الله أم كما أفسدتهما المدنية وأمراضها والكتب وحماقاتها وتهويلاتها؟ الكتاب دائر على امرأة ورجل ولا ثالث لهما إلا الحب. فأى امرأة هذه؟ لست أرى أدل عليها وأكشف عن حقيقتها مما ورد عنها فى الرسالة السابعة، وذلك حيث يقول عاشقها صاحب الرسائل فى عقب حوار بينه وبينها "وهنا لمست كتفى وانتهضت وقد أشارت وقد أشارت إلى زهرة حمراء كوجه المستحيى ثم مشت إليها فاقتطفتها ورجعت، فعلمت أن الكلام كان سقطة منى فتداركته وأردت أن أقلبه عن جهته، ولكنها تنهدت ثم قالت ما أحببتك شخصاً بل شعراً ولا إنساناً بل فكراً".

فهذه ولا شك ليست أنثى كاللواتي نعهدن. إذا كانت لا تحب الرجل لأنه هو أداتها التى تمكنها مما فرض عليها فى سبيل النوع بل لتتمتع منه ببهلوان عقلى يهضب لها بالشعر والنثر وتفيض عيناه بالدموع ويختنق بالزفرات وليلقى إليها مثل كلام الباطنية الذى لا يفهم ويرسم لها بالألفاظ الجوفاء ما يكظ رأسه المحموم من الخيالات. ودليلى على ذلك ما رواه عاشقها قال - فى الرسالة السابعة أيضًا - "فى تلك الساعة ذكرت هى الشعر وقالت إنه يخرجنا الآن من حدود العمر الأرضى فإن فى هذا العمر ساعات لا تحسب منه إما لأنها أبدع وأجمل فلا يلائمها، وإما لأنها أقبح وأسخف فلا تلائمه أفتراها أقبح وأسخف؟ قلت يا شاعرتى الغريزة إن اللغة أيضًا تخرج من حدود الأرض أحيانًا فهى فى مثل هذه الساعة فى مثل هذه الروضة فى مثل هذه الجميلة لا تؤدى إلا معنى الجمال والحب. أما الأقبح والأسخف فلا يدخلان هنا إلا بعد أن نخرج نحن ويدخل غيرنا.. قالت يا لك من "عقل جميل" كما يسمى الفرنسيون ظرفاءهم ثم تناولت من المثبنة (الكيس) فى يدها أنبوب قلمها الرصاصى المصنوع من الذهب وأخرجت دفترًا صغيرًا وغمست سن القلم فى ثناياها وفكرت لحظة ثم غمسته ثانية ثم كتبت فى طرة الصفحة هذه الكلمة "الشعر" ونظرت إلىّ باسمة، وقالت خذ هذا القلم واكتب كلمة صغيرة فى الشعر لأنقلها إلى الفرنسية فى مقالة لى..".

أفيرانا القراء أخطأنا؟ أليست هذه "ذاكرة" لا امرأة؟ والعجب لماذا لا تحب كتابًا ولا تحمل قاموسًا بدلاً من هذا الدفتر الذى تخط ف.٢٥يه مفردات!؟

وموعدنا ببقية التحليل الأسبوع الآتى.

فى عالم الكتب :
رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب
نظرة تحليلية[٢٩]

كتبنا كلمتين عن "رسائل الأحزان فى فلسفة الجمال والحب" قلنا فيهما إنه لا فلسفة هناك، وإن أقل الناس قدرة على فلسفة الحب هو العاشق المسحور، وإنه لا يستطيع ذلك غير الساكن القلب الوادع النفس الذى سلا وخلا من هواجس العشق ووساوسه، وإنها رسائل كتبها صاحبها، لأنه أراد أن يكتب شيئًا، وإن فيها غموضًا كثيرًا لا ينكره صاحب الكتاب، بل يعلنه إلى الناس فى المقدمة التي وضعها ويحيل فيه على الإلهام! ويبسط ذلك عذرًا مما اعتوره من الإبهام، وإن الحب الذى تصفه هذه الرسائل ليس سوى شذوذ عن الطبيعى المألوف لم يخلق لمثله الرجال والنساء، ولسنا ندرى أكان الأديب مصطفى أفندى صادق الرافعى حين دفع إلينا نسخة من هذه الرسائل يريد أن نكتب له رأيه هو أم رأينا نحن فيها! وإنما الذى ندريه على التحقيق هو أنه ضاق صدرًا بما ارتأينا فكتب كلمة يشبهنا فيها بصبية تقول الحكاية التى قصها عنها إنها لم تفرق بين زاهد "مبنى من التقوى وعمود مبنى الحجر"، ويذكرنا بأن هناك فرقًا بين الفجلة يقضمها الرجل الساذج والزهرة يتأملها ويتملى بحسنها وأرجها الرجل المهذب. كأنما كنا زعمنا الأمر على خلاف ذلك أو ذهبنا إلى أن الفجلة والزهرة شىء واحد، وأن هذه وتلك مما يقضم بالأسنان ويطحن بين الأضراس.

---

(٢٩) نشرت فى جريدة "الأخبار" (القديمة) فى ٧ يونيه سنة ١٩٢٤، (ص١-٢).

ولسنا نحب أن نجاريه فى حرج الصدر وضيق الحظيرة، فإنه بحث يحتاج إلى أعصاب هادئة لا ثائرة. وفى الأمثال من ألف فقد استهدف وكان بعض من قرأت عنهم من الإغريق القدماء يقول "ليت عدوى يؤلف كتابًا!" وليس من المعقول أن يطالب الناس بأن يروا فى كل كتاب رأى واضعه فيه. هذه دكتاتورية لا سبيل إليها فى هذا العالم الحر فلنكن منها جميعا على يأس كبير. وعلى أنى أؤكد لصديقى الأديب الرافعى أفندى أن الأدب يسعه أن يستغنى عنه وعنى، وأنه لا يفقد شيئًا إذا لم نحسب من رجاله، وأن "الحياة" لا تميز بين أناسى تتعاشق وتتناسل وبهائم تتوالد ولا تحسن أن تقرض الشعر وتصف خوالج نفسها إذا كان لها نفس، وأن المهذب الذى يقف مسمراً أمام الزهرة يتأملها ويتثر نظره إليها ويتخيلها فى أكمامها وتحت عين الشمس وفى ضوء القمر ومتفتحة مطلولة توامض الأنجم الزهر وذاوية ذابلة ومسحوقة تحت الأقدام - مثل هذا المهذب - ليس بأفضل فى نظر "الحياة" من الساذج الجلف الذى يتناول الفجلة ليقضمها ويدير عليها رحى أضراسه ثم ينحنى إلى الماء الجارى ويمط إليه فمه ويكرع الكرعة الروية منه ويحمد الله!

وبعد ذلك نقول للأديب مصطفى أفندى صادق الرافعى إن معشوقة صاحبه ليست من الإناث إلا بافتقارها إلى لحية "مبنى من التقوى" ما كانت لتجعلها رجلاً وإلا بأن لها ثديين لا نعرف (هى) لأى شىء وضعهما الله على صدرها وشاهدى على ذلك قول الأديب الرافعى أفندى نفسه أو قول صاحبه فى رسالته الرابعة "إن بعض الرجال يكون فى صفاته كذبًا على الرجال فهذه والله (يعنى حبيبته) كذب على النساء ولو جاز قلت إنها ولدت خطأ فى هذا الجلد". فهل لهذا معنى سوى أنها ليست مثل النساء اللواتى خلقهن الله! ومتى كانت هذه المرأه كذبا على النساء ومغايرة لهن باعتراف صاحبها فأين شططنا حين نقول إن حبها ليس طبيعيًا كالذى نعهده بين الرجال والنساء! وكيف استباح لنفسه أن يصفها هذا الوصف وينكر عليها الأنوثة الطبيعية ثم يشبهنا بالصبية التى لم تميز بين زاهد مبنى من التقوى مبنى من الحجر؟

ويقول عنها بعد صفحة وبعض صفحة "إنها تريد أن تجمع إلى صفاء وجهها وإشراق خديها وخلابتها وسحرها، صفاء اللفظ وإشراق المعنى وحسن المعرض وجمال العبارة وهذا هو الحب عندها. تحبك كما تحب كلمة تكتبها أو معنى تتخيله فإذا سئمتك لم تكن عندها إلا الثالثة.. إلا صحيفة تمزقها" فهل أبعدنا؟

وهى تتفلسف أيضًا !! قال صاحبها بعد حديث وصف نفسه بعده بأنه مسيح جديد! "فضحكت من عبوسها، وهى حين تتفلسف تظلها سحب من الفكر فتراها قد غامت فيها ولا يبقى لك أمل إلا فى وميض من ابتسامتها يلمع أحيانًا كما تنظر للشمس من فتق فى السحاب يتمزق ثم يسرع فيلتئم - أتدرى ماذا كان جوابها؟ قالت: خلقنا لهذا الحب من قبل يومنا، ولعل يومنا إذا جاء كان يوم بغض منك أو منى. قلت فمعنى "أيها الحبيب" فى فلسفتك - أيها البغيض - ؟ قالت كلا كلا! لا أدرى، ولكنى أتكلم بلغة النطق - وفى ناموس الفهم الإنسانى لغة غيرها، وفى ناموس الأقدار لغة غير اللغتين. فإنك لترانى، ولكنى أرى فى أخرى والأخرى ترى فيها ثالثة. هذا أشعر به ولا أدرى كيف أصفه، فإن عبرت عنه بلغة النطق انقلب كلامى عن جهته فصار من كلام الموسوسين والممرورين والمجانين. أنا أحسن الكلام مع السماء وأنت تحسن الفهم عن السماء فحاجتى إليك هى أن تتكلم فى روحى وحاجتك إلى هى أن أتكلم فى قلبك. أتستطيع أن تلبسنى جلدك وتخيطه على و.. فقلت مهلاً مهلاً إنك أنت الآن لا تتكلمين ولا التى فيك بل تلك الثالثة.. وإذا كان استهلاك كلامها سلخ جلدى.. وهنا وضعت يدها على فمها وجعل يغت ضحكها ويتكسر على صلابة قلبها تكسر قطع البلور الثمين فى غير نظام ولا مهل".

وقد أطلت الاقتباس وإن كنت على هذا لم أفهم سوى جملتين الأولى أن كلامها ينقلب عن جهته فيصير من كلام الموسوسين والممرورين والمجانين.. وأنه لكذلك حقًا وصدقًا! والثانية أنها تريد أن تسلخ جلد صاحبها! ولم أفهم الباقى ولى العذر ممهداً فى المقدمة، لأنه إذا كانت منزلتنا أن نفهم كلمتين من ثلاث كلمات ينطق بها المسحور بها "لأن الإنسان منا كاتب مفكر أما هو فقد زاد بصاحبته فكان كاتبًا مفكرًا وملهمًا" نقول إذا كانت منزلتنا أن لا نفهم الكلمة الثالثة التى ينطق بها ملهمًا منها فأحر بنا أن لا نفهم شيئًا من كلامها هى؛ إذ كانت هى مصدر كل هذا الإلهام!

فأى حب هذا؟ أترى الحب هو أن يجلس امرأة ورجل ويتكلمان على هذا النحو بكلام "الموسوسين والممرورين والمجانين" يومًا بعد يوم وساعة فى إثر ساعة؟ أهو أن يعيشا فى السماء ومع السماء كما تقول هذه "الساحرة"! وأن لا يحسنا الكلام إلا مع السماء أو الفهم إلا عن السماء؟! وأن لا يطلب أحدهما من صاحبه حين يطلب شيئًا إلا أن يسلخ جلده ويخرجه من إهابه؟!

ثم أليس لنا العذر نحن أبناء الأرض إذا لم تسم مداركنا إلى هذا المستوى السماوى؟ بل وإن صاحبها لأعجز منا عن الفهم والإدراك. وإنه لهو القائل فى عقب حديث كهذا "فأطرقت شيئًا وقلت اسمعى: ما أنت محاطة بست جهات بل بست علامات استفهام! وإن فلسفتك هذه جعلتك ما لا أدرى: ألغزًا فى إنسانة أم إنسانة فى لغز؟ وعلى أيهما فإن العمر يذهب فى فهمك وأحتاج بعد إلى عمر جديد فى حبك، ولن تبعثنى فلسفتك من قبرى يومًا إذا سويت بجسدى الحفرة".

صدق والله فما تنفع أحدًا هذه الفلسفة! ولقد سئم صاحبها هذا الجنون ومل هذا الضرب التقليدى من الحب فصاح بها فى الصفحة ٦٦ من رسائله "اصعدى إلى سمائك العالية، ولكن ألبسينى قبل ذلك جناحين. كونى ما أرادت نفسك ولكن أشعرى نفسك هذه أنى إنسان!"

لقد قالها والله! وتساءل كما تساءلنا "أى حب هذا؟ لقد امتحنت منها بفتاة أبحث عنها فى النساء فلا أجدها، وأبحث عنها فى نفسها فلا أجدها" وأحسب العبارة الأخيرة من كلامه وشكواه إلهامًا!

نعم يا صاحبها ليس هذا حبًا ولا هى كالنساء ولا أنت والله كالرجال! فإن لكل فرد إحساسًا غريزيًا خفيًا يهديه إلى الصفات والمزايا التى يطلبها فى المرأة لتنتقل منه ومنها هذه الصفات والمزايا إلى نسلهما وتتأكد فيه. وقد لا تتوفر كل الصفات المطلوبة بل هذا هو الأغلب والأرجح، ولكن الذى يبغيه الفرد هو أن تكون المرأة أقرب ما يستطاع إلى المثل الأعلى العضوى الذى يكونه لنفسه بعد نضوجه الجنسى. وعلى قدر التقارب أو التباعد بين هذا المثل الأعلى والمرأة تكون درجات الإحساس الجنسى نحوها. فإذا كثرت الاختلافات وتعددت وجوه التباين صار لابد من التكيف والمواءمة بين

الاثنين حتى تختفى وجوه الاختلاف ويتقارب الشخصان ويلتئمان وقد يعييهما أن يتلاءما، وأن يتجاوزا عما بينها من التباعد والاختلاف، فلا تكون العلاقة التى نشأت بينهما ولم تسلس إلا نتيجة زغل فى الإحساس الغريزى الجنسى الذى يهدى كل رجل إلى المرأة الصالحة له وكل امرأة إلى الرجل الموافق لها. وهذا هو الذى حدث فى رسائل الأحزان، فقال العاشق فى آخر رسائله "حسوت كأس الحب فدارت فى دمى وانحدرت إلى قلبى وصعدت إلى رأسى وهذه الرسائل هى الحقيقة التى كانت فى خمرها قطرت من القلم كلاماً ومعانى ومنذ اليوم سأضع العقل بينى وبين تلك الكأس فلا أراها إلا جنوناً ملوناً ومرضاً مزخرفاً ثم لا أراها إلا حلماً خمرياً زاهياً إن حَسُن بالنائم أن يستغرق فيه لا يحسُن بالمتيقظ أن يلم به، ثم لا أعرفها إلا شيئاً يجب إطراحه، إن لم تدعه لأنه إثم فلتدعه لأنه ذم".

* * *

وأكبر الظن أن الأديب مصطفى أفندى صادق الرافعى قرأ ترجمة "آلام فرتر" التى وضعها جويته شاعر الألمان قبل أن يبلغ العشرين وأراد أن يقلدها فى رسائل الأحزان. ويعلم من قرأ شيئاً عن الأدب الألمانى أن "آلام فرتر" استولت على هوى النفوس واستبدت بميل القلوب فى نواحى العالم، وأنها نُقلت إلى كل اللغات وحاكاها الكُتاب فى كل مكان وقد عالج فيها جويته أن يصور طائفة من الإحساسات لم يعرض لشرحها وتحليلها أسلافه من الكُتاب والشعراء ولعلهم ما كانوا ليستطيعوا ذلك؛ لأنها إحساسات منشؤها العاطفة التى لا تقبل التحول إلى عمل والتى لا تشيع إلا فى عصور اللين والاسترخاء والإنكار. ولقد كان جويته نفسه أول من فطن إلى عيوب روايته وإلى خطأ من قلدوه حتى لتمنى أن يجمع ما فى أيدى الناس من نسخها... فإذا صح ظننا وكان الأديب الرافعى قد قصد إلى هذه المحاكاة فهذا رأى جويته فى قصته! ونزيد على ذلك أن الترجمة العربية ضاعفت عيوب الأصل.

في عالم الكتب :
الدكتور طه حسين ومجنون ليلى
- تطبيقات -[٣٠]

باسم الله وما توفيقي إلا بالله. وبعد، أيها القراء، فقد هداني في البحث والتقصي مع الأسف إلى حقيقة خفيت عليكم - حقيقة أن سرني أني وفقت إليها، لقد ساءني والله أنها نسخت حلمًا لذيذًا عشت به زمنًا رغدًا، فليست كل حقيقة سارة، وما كل حلم يشتهي المرء أن يفيق من أضغاثه. ولكنه "التعمق في البحث والإلحاح في التحقيق العلمي" قاتلهما الله! والتحقيق العلمي كالجيلوتين!! لا يرحم ولا يدركه العطف على الأوهام التي يحصدها والخرافات التي يطير رؤوسها عن أبدانها التي تتكون على الأيام كجزائر المرجان.

وأوجز على خلاف عادتي فأقول: إن "صديقي" الدكتور طه حسين الذي سمعتم به وقرأتم ما كتبته عنه شخص لا وجود له في دنيانا هذه، وأنه من مخلوقات الخيال ليس إلا..!!

أتهزون رؤوسكم إنكارًا؟ يا سبحان الله! وهل هو أضخم شأنًا أو أحق بأن يكون مخلوقًا حقيقيًا من هومر الذي يذهب الكثيرون من جلة العلماء المحققين إلى أنه اسم خرافي؟ أو من شكسبير الذي يزعم بعضهم أنه اسم انتحله واستتر وراءه خلافه؟ كلا! لا محل للإنكار ورفض التصديق. والقدرة الإلهية التي تفنى الموجود لا يعجزها أن لا توجده أصلاً.

---

(٣٠) نشرت في "اللواء المصري والأخبار" في ٢٨ يونيه سنة ١٩٢٥ (ص٢).

والمرء بعد أن يعود ترابًا فى تراب تحت تراب، كما يقول الخيام، يجرى ذكره على "بعض" الألسنة ثم يقل وروده عليها يومًا بعد يوم حتى تُطوى صحيفته ويتم محوه فكأنه ما كان. وذاك مرجوعنا جميعًا بإذن الله فى هذه الدنيا التى لا تتسع لنا إلا فوجًا فى إثر فوج. وهبوا الدكتور حقيقة مادية نلمسها ونحسها إذا شئنا فماذا يضيره أن ننكر وجوده ؟ أليس الثابت على كل حال أنه - بعد عمر طويل إن كان يشتهى طول العمر - سيحور صدى تتجاوب به كهوف بعض النفوس أو على الأكثر كتابًا أو كتبًا تتداولها الأيدى؟ نعم، وما أحسبه يمكن أن يطمع فى أكثر من هذا؛ لأنه ليس ثم ما هو أكثر من ذلك. وهذه كتبه بين أيدينا فماذا إذن؟ ما حاجتنا إلى صاحبها؟ لماذا ينبغى أن يكون لها صاحب موجود؟! ويا سيدى القارئ إن هذا الذى "يتسمى" الدكتور طه حسين ينكر فى إحدى مقالاته المعزوة إليه أن شخصًا اسمه مجنون ليلى دبَّ على ظهر الأرض ويزعمه طائفة محشودة من القصص ابتكرها أكثر من واحد. ودليله على ذلك أن الرواة تضاربوا فى شأن هذا المجنون وبالغوا وجاوزوا المعقول ولا أدرى ماذا صنعوا أيضًا! أفلا نستطيع نحن قياسًا على هذا المنطق أن نشك فى وجود من نشاء، بل أن ننكر وجوده بتاتًا؟ نعم يسعنا ذلك بلا ريب. ومن ترى أحق بأن يطبق عليه هذا المنطق من صاحبه؟ ويعز علينا أن نمحو من الدنيا رجلاً قبل أن تعفى عليه الأيام كما ستعفى علينا أجمعين، ولكن المثل يقول"كما تدين تدان"، ولقد أسلفنا لك أن الدكتور لم يتحرج أن ينكر أن مجنون ليلى وجد فى الدنيا ولم يصده عن هذا الإنكار القاسى حتى ولا العاطفة الفنية. ورحم الله ابن الرومى فقد كان يقول:

ولو أننـــى أحـببت ميتًا عشـقـتُه بحسن الذى آثرتُ فيه من الحسنى[٣١]

ولكن الدكتور يعمد إلى صورة حيه فيحاول بمنطقه أن يقضى عليه ويفجعنا فيها ويسلبنا أياها، ويحسب أن قصة المجنون يمكن أن تبقى لها روعتها وجمالها وأخذها بعد أن تفقد الأصل وتخسر عنصر الوحدة فيها وبعد أن تصبح مرقعة كأسمال المتسولين!

(٣١) من الطويل وفى رواية أخرى "لحسن".

فها قد قيض الله للدكتور مجنونًا أخر ينكر وجوده كما أنكر هو وجود المجنون القديم!! وإنه لانتصاف! فما يضير صاحب ليلى ما يقول الدكتور فيه. فأما الدكتور فسيحتاج بعد اليوم إلى كل من عنده من الشهود وما في جعبته من الأوراق ليثبت أن لاسمه مسمى وهيهات!!

* * *

كنت جالسًا ذات يوم مع صديقي الأستاذ العقاد فتذاكرنا حديث الأربعاء وصاحبه بمناسبة ما كتبته عنه، واستطردنا إلى طريقته في البحث "التحقيق العلمي"، ثم إلى سيرة مجنون ليلى؛ فقال الأستاذ العقاد: عن أي شيء يسفر البحث يا ترى لو نسجنا على منوال الدكتور فيما كتبه عن المجنون؟ إنه لا يبقى منه شيء كما لم يبق هو شيئًا من المجنون. والحق أقول إن مقترح العقاد راقني. وإن نفسي ظلت تنازعني بعد ذلك أن أتولى إمضاء هذه الفكرة؛ فلبست أتردد حتى لم أعد أستطيع المقاومة. وقد أقنعت نفسي بقولي لها إن العقاد لا يضيره أن أسطو على فكرة أو أفكار له؛ فإنه أغنى من ذلك وأنا أفقر من أن أدعها له، وإن كنت أردها بهذا الإعلان إليه.

وبعد هذا البيان الذي لابد منه أقول لنفترض أن مؤرخًا في القرن الثالث والعشرين مثلاً تناول حياة الدكتور بمثل تمحيصه وتحقيقه العلمي؛ فهل تكون النتيجة إلا كما يأتي:

"يزعمون أن رجلاً اسمه الدكتور طه حسين عاش بمصر في أوليات القرن العشرين، وأنه صاحب هذه الكتب المختلفة التي نسبوها إليه ونحلوه إياها، ولكن كل ما اطلعت عليه مما يعزى له يحملني على التردد بين رأيين: أحدهما أن يكون هناك أناس كثيرون يتسمون "طه حسين"، وثانيهما أن يكون هذا اسمًا استعاره فرد أو عدة أفراد لما كتبوه ونشروه. ذلك أنه على ما روى أزهري النشأة، والأزهر هذا جامعة إسلامية كبرى يلبس طلابها الجبة والقفطان والعمامة أو ما ماثل ذلك من ثياب العامة في ذلك الوقت مما تجد نماذج منه في المتاحف؛ فهو على هذا "شيخ" ويقولون إنه كان في

صدر أيامه هذه يكتب فى صحيفة يومية أسمها "الجريدة"، ولكنى رجعت مجموعة هذه "الجريدة" فى دار الكتب فألفيت أحد أدباء ذاك العصر واسمه "عبد الرحمن شكرى" يسميه "طه أفندى حسين" فى مقال له. وهو ما لا سبيل إلى حمله على أنه خطأ أو ذلة قلم؛ لأن الفرق بين الأفندى والشيخ كان من الوضوح والاختلاف فى التعليم وفى النشأة والوسط والزى كان من الشدة بحيث لا يعقل أن يقع الخلط بينهما. فهل طه أفندى حسين هو عين الشيخ طه حسين؟! ولا شك أن شكرى كان يعرف المعنى "بطه أفندى حسين" فقد كانت بينهما ملاحاة تدل على ذلك قصيدة نشرتها الجريدة بإمضاء "طه حسين" ومطلعها:

"قل لشكرى فقد غلا وتمادى   بعض ما أنت فيه يشفى الفؤادا"

وأحر بمتهاجيين أن يعرف كل منهما صاحبه وأن لا يجعله "أفنديا" وهو شيخ. ومما هو خليق أن يضاعف الشك فى أنهما شخص واحد أن الشعر لم يكن من أدوات الشيخ طه حسين، وأن ناشرى كتبه ومترجمى حياته لم ينسبوا إليه بيتًا واحداً.

ويعزى إلى طه حسين ولا أدرى أيهما مقال بل عدة مقالات فى الجريدة يدعو فيها إلى تغيير الهجاء ورسم الكلمات. فهل كان الداعى إلى هذا والملح فيه الشيخ أو طه أفندى؟ أما الشيخ طه فكان على ما يقولون مكفوف البصر، وكان فى ذلك الوقت لا يزال طالبًا بالأزهر، ومن المعلوم أن طلبة الأزهر كانوا من "المحافظين" ومن أشد طبقات المتعلمين استنكارا للبدع ونفوراً من أصحابها، وكثيراً ما كانوا يتجاوزون الاستهجان بالقلب أو باللفظ، ويتضاربون بما كانوا يتفكهون بأن يسموه "السلاح الأحمر" يعنون به النعال! ولم يرو أن الشيخ طه كان من أبطال هذه المعارك الحمراء ولا من ضحاياها، وأخلق به ألا يكون وقد كان - كما يزعمون - ضريراً. فلو أنه صاحب هذه البدعة والمنادى بها لأصابه رشاش من قذائفها. زد على ذلك أنه ضرير. وما اهتمام الضرير برسم الكلمات؟! ما له ولهذا وهو لا يعانيه ولا يكابد صعوباته؟! إن الاهتمام لذلك والتحمس له أحق بأن يكون من رجل يكابد الكتابة بنفسه لا من كفيف ما عليه إلا أن يُملى. وهو على كل حال خاطر أولى به أن يجرى ببال مبصر لا ضرير. فالأرجح فى

الاحتمال والأقرب إلى المعقول أن يكون هناك شخصان اسم كل منهما "طه حسين" وأحدهما أفندى مبصر يقول الشعر ويدعو إلى تغيير الهجاء والثانى شيخ ضرير يكتب فى الأدب.

والآن من هو الدكتور طه حسين صاحب "حديث الأربعاء" أهو الشيخ أم الأفندى أم هو لا هذا ولا ذاك بل شخص ثالث؟! أما إنه أحدهما فإنى أقطع بنفيه. وحسبك الفرق بين أسلوب هذين وأسلوب ثالثهما. وسننقل لك فقرات تريك من التباين ما لا يدع مجازاً للشك فى أن الكُتَّاب عديدون.

قال الشيخ طه حسين فى كتابه ذكرى أبى العلاء "كان أبو العلاء يحرص أشد الحرص على أن يخفى نفسه على القارئ فى بعض رسائله، ولكن شخصه كان يأبى إلا الظهور. وكان يلقى بينه وبين القارئ أستاراً صفيقة من غريب اللفظ، وحجباً كثيفة من ثقيل السجع، ويقيم حوله أسواراً منيعة من المباحث اللغوية والصور الدينية، ولكن عواطفه الحادة تأبى إلا أن تخترق هذه الموانع كافة لتصل إلى قلب القارئ فتترك فيه ندوباً لدغات الجمر أخف منها وقعاً وأهون منها احتمالاً".

وهو أسلوب لا شذوذ فيه كما ترى، ولكن اقرأ الآن الفقرة الآتية من كلام "الدكتور" طه حسين فى نفس الموضوع والمعنى. قال: "ذلك أن أبا العلاء كان - كما تعلم - من أشد الناس إيثاراً للغريب وتهالكاً عليه، ثم كان أبو العلاء إلى هذا - فيما أعتقد أنا - يتكلف الغريب ويتعمده ليصد عامة الناس وجهالهم - سواء فى ذلك العلماء وغير العلماء - عن قراءته والظهور على ما فيه. وكأن أبا العلاء كان لا يكتب لعصره، وكأن أبا العلاء كان يحس أن عصره خليق ألا يكتب له، وكأنه كان يكتب لهذا العصر الحديث الذى نحن فيه وللعصور التى ستليه، وكأنه كان يخشى على آثاره الأدبية أن يفهمها أهل زمانه فيفسدوها ويشوهوها ويحولوا بيننا وبين فهمها، وكأنه إنما أقام من الغريب وقواعد النحو والصرف والعروض والقافية طلاسم وأرصاداً شغل بها أهل عصره عن هذا الكنز حتى لا يصلوا إليه وحتى تسلم لنا نحن خلاصته، فنترك للقدماء نحوهم وصرفهم وغريبهم وعروضهم وقوافيهم، ونفرغ لخلاصة هذا الكنز من فلسفة فى الخلق والجماعة والدين".

ثم اقرأ للشيخ طه حسين قوله من ذكرى أبي العلاء أيضًا: "من قرأ رسالة الغفران وأراد أن يفقه معناها حق الفقه احتاج إلى دقة ملاحظة، وحذق فطنة، وبعد نظر، ونور بصيرة، وإلى أن يدرس روح الكاتب فيحسن درسه ويعرف أغراضه، فإذا لم يوفق إلى ذلك مرت به رسالة الغفران وهو يظنها من أقوم كتب الدين".

وقس هذا إلى ما كتبه "الدكتور": "أراد أبو العلاء أن يتفكه وأراد أبو العلاء أن ينقد وأراد أن يكفر وأراد أن يؤمن، ولست أحتاط فى لفظ ولا أتحرج من معنى، وإنما أريد أن أكون حرًا فيما أفهم وفيما أقول، فالحرية وحدها هى السبيل إلى فهم أبى العلاء، وقد أراد أبوالعلاء هذا كله، أراد أن يتفكه فتفكه إلى غير حد، وأراد أن ينقد فنقد فى غير رحمة، وأراد أن يكفر فكفر بغير حساب، وأراد أن يؤمن فآمن فى غير شك. أراد هذا كله ووفق إلى هذا كله أحسن توفيق إلخ".

وإنما أكثرت من المقتطفات ليتيقن القارئ أن الكاتبين شخصان مختلفان، ولا عجب أن يكونا كذلك، فإن الأسلوب صورة من النفس. وهكذا صار عندنا من المشتركين فى حمل هذا الاسم ثلاثة أشخاص متباينين: شيخ وأفندى ودكتور.

ويظهر أن هناك أكثر من دكتور طه حسين واحد. ففى بعض المقالات المعزوة إلى هذا المتسمى "الدكتور طه حسين" تنويه بأن كاتبها كفيف وفى البعض الآخر ما يفيد أنه مبصر؛ فهو يقول "قرأت ورأيت وشهدت" وما إلى ذلك من الألفاظ الدالة على الرؤية ويصف لك بعض المشاهد لا تخيلاً بل كما هى كائنة. مثال ذلك بعض رسائل بعث بها من فرنسا وفيها يصف مناظر البلدان، ومقالات عن روايات شهد تمثيلها ولم يقتصر فى كلامه عنها على تناول القصة، بل جاوز هذا إلى التمثيل والأداء. ومما يؤكد هذا التعدد أيضًا أن لأحد هؤلاء الدكاترة - فإنهم على ما يبدو لى كثر - أبناء يسميهم أسماء أفرنجية، وإن الصحف المحفوظة فى دار الكتب مختلفة، فبعضها يقول الشيخ طه حسين والبعض يذكر الدكتور طه وواحدة تزعمه أستاذًا فى الجامعة وأخرى صحفيًا، ومعروف أن قوانين ذلك العصر لا تجيز أن يكون المرء موظفًا فى جامعة أميرية وصحفيًا فى الوقت عينه. وأحد هؤلاء الدكاترة كان مولعًا باللاتينية واليونانية

وكان يلح على وزارة المعارف أن تدرسهما فى المدارس الثانوية ولا يكاد يتفق ذلك مع الصبغة الأزهرية الأولى. أضف إلى ذلك أن "الشيخ طه حسين" كان ذا لحية، وأن دكتور الجامعة أو الصحفى كان أفنديًا حليقًا؛ فالأمر كما ترى لا يعدو إحدى اثنتين: أن يكون هناك أشخاص عديدون لهذا الاسم وهو غير محتمل، أو أن يكون هذا الاسم مستعاراً وهو الأرجح".

* * *

وبعد فكيف يرى القراء هذا المنطق؟ أليس مهلهلاً واهن الأركان متداعى البنيان؟ نعم هو كذلك بلا نزاع! ولكنه ليس أوهى من منطق الدكتور فى كلامه عن المجنون. ولقد أردنا أن نثبت بهذا التطبيق أنه ما هكذا يكتب التاريخ ولا على هذا النحو يكون "التعمق فى البحث والإلحاح فى التحقيق العلمى"، وإنه إذا كان مجرد التضارب فى الروايات والعجز عن التوفيق بينها يكفى لمحو رجل من الوجود فقد صار ذلك سبيلاً إلى إنكار كل شيء.

ولقد تعمدنا فيما أوردنا أن نسوق أشياء من هنا وهنا، وأن نهمل الصلات الكائنة بينها؛ لأن كثيراً من حلقات السلسلة يسقط مع الزمن، ولأن هذا على الأرجح هو كل ما يبقى معروفًا عن المترجم له بعد قرن أو قرون. وهل فى تراجم العرب مثلاً أكثر من هذا؟ هل يعرف أحدنا عن شاعر أموى أو جاهلى ما هو أوفى أو أشد اتساقًا مما أوردنا من حياة الدكتور؟ كلا! فإذا كان الدكتور طه حسين يبيح لنفسه أن ينكر وجود المجنون اعتماداً على التضارب فى الروايات ونقصها وتشويهها فقد ضاع الدكتور نفسه والله! وشبيه بهذا أن يختلف شهود حادثة فننكر وقوعها.

في عالم الكتب :
تصفية أدبية !؟
" مختارات سلامة موسى "[٣٢]

سلامة أفندى موسى رجل ليس بشىء إن لم يكن دجالاً! بضاعته بضاعة الحواة والمشعوذين وله حركاتهم وإشاراتهم وأساليبهم. يزعم نفسه أو يزعمه بعض الناس أديباً، وتعالى الأدب عن هذا الدجل، ويدعى العلم، وجل العلم أن يكون هذا وعاءه، ويحاكى الملاحدة ليقول عنه المغفلون واسع الذهن، وليتسنى له أن يغمز الإسلام ويبسط لسانه فى العرب. والحقيقة أنه لا أديب ولا عالم ولا ملحد، وإنما هو مشعوذ يقف فى السوق ويصفر ويصفق ويصخب ويجمع الفارغين حوله بما يحدث من الصياح الفارغ والضجة الكاذبة، ثم ينطلق يصف نفسه بالصراحة والجرأة والنزوع إلى الجديد ومسايرة العلم والكلف بالمثل العليا ومائة ألف مزية أخرى ليس له من واحدة منها حظ، ثم لا يصنع شيئاً لأنه لا يقدر على شىء، فهو شر من "البهلوان" الذى يخطو - على الأقل - على الحبال المشدودة ويباشر عليها من الألعاب ما أتقنه بالمران؛ فدجله من ذلك الضرب الذى ليس أخطر منه ولا أحق بالقمع والمطاردة.

وما كنا لنتكلف أن نتصدى له؛ وأن نرفع فى وجهه السوط إلا لاعتقادنا أنه قد آن لمن تعنيهم كرامة الأدب أن يقتلعوا الطفيليات، وأن يطهروا من حشراتها ونباتاتها، رياضه، وأن يقصوا عن مجاله هؤلاء الواغلين الذين يتخذون أسمى ما فى الدنيا وأجل ما فى

---

(٣٢) نشرت فى "اللواء المصرى والأخبار" فى ٧ يوليه سنة ١٩٢٥ (ص٢).

النفس طبولاً لهم، ويتذرعــون بالتهجم على الدين – على دين واحـد فى الحقيقة – وعلى العلم والفلسفة والأدب لنيل ما لا يستحقون، ويفسدون عقول الناس، ويبلبلون خواطرهم بما يغالطونهم فيه ويخادعونهم عنه.

وقد بلينا فى دهرنا هذا بأناس يعينون هؤلاء المشعوذين بالإشادة بجرأتهم والثناء عليها والتصفيق لها، ويكتبون عنهم فى مجلاتهم أنهم أهل صراحة، وأنهم لا يتهيبون الجهر بآرائهم إلى آخر هذا الهذيان حتى أضلوا الجمهور وأزاغوا بصره وأداروا رأسه فأقبل عليهم واستعد لتقبل كلامهم وتصديق شعوذتهم. والجمهور معذور وما حيلته إذا تآمر الدجاجلة وأعوانهم والمداورون من الكُتَّاب طلاب الشهرة وبغاة الصيت الأجوف؟ ومن سوء الحظ أن صحفنا قلما تحجم عن مدح من يتقدمون إليها بكتبهم كائنة ما كانت، وأنها لا تعنى، كما ينبغى، بإرشاد الجمهور. والمجاملة عندها فى الأغلب والأعم آثر من الحق والواجب. ويسمع الناس الثناء من كل ناحية، ويرون البخور يحرق فى كل مجمرة ولا ترد آذانهم كلمة اعتراض؛ لأنه ما من أحد يعنيه جداً أن ينهد إلى المادحين، ولأن ذوى البصر والرأى خلقاء أن يتمهلوا حتى يتبينوا، وكثيراً ما يستنكفون أن ينهضوا إلى مدافعة الفارغين اعتماداً على أن الشهرة الزائفة قصيرة العمر، وأن الطبل والزمر لا يغنيان، وأن الضجة ستقر لا محالة، والجو لابد صاف على الأيام وعندئذ تتبين الأقدار وينزل كل امرئ منزله لا يعدوه، فأى عجب إذا انخدعت الجماهير وراج بينها ما حقه الكساد؟؟.

وأمامى، وأنا أكتب هذا، عدة مجموعات من صحف شتى، أنظر إليها وأتساءل عما صنع الله بموضوع تقاريظها؟ أين ذهب "العمق" و"قوة الخيال" و"روعة الأفكار" و"طلاوة الأسلوب" و"النبوغ" وغير ذلك مما لا آخر له؟! ذهب كل هذا إلى حيث ذهب الموصوفون به – أعنى إلى قاع الجب الذى يدفن الزمن فيه نتاج العقم ومحصول السفسطة والزغل والدجل! حتى أسماء هؤلاء النبغاء الأفذاذ نقرؤها فننكرها ونقول، ونحن نجرى اللحظ فيما خلعته الصحف عليها من برود الحمد والتعظيم: أو أقل من أن نشيع الميت بكلمة خير؟؟ أو ما نرى الفقراء يلفون موتاهم فى أكفان من الحرير؟ فهذا من ذاك فيما أرى!.

ولكن الصدر يضيق أحيانًا والصبر ينفد والنفس تثور على هؤلاء الواغلين الأدعياء الذين يكظون الطريق ويزحمونه في وجوه من هم أقدر على السير فيه وأهدى، ويحس المرء بالحاجة الملحة إلى المجرفة. وها أنذا أتناولها الآن لأزيل بها بعض الطين عن وجه الأدب الصريح؟.

* * *

ولنقل أولاً كلمة فى هذه الجرأة التى يمتاز بها سلامة أفندى موسى فى رأى نفسه وفيما يدعى إخوانه! ما هى هذه الجرأة؟ وفى أى عصر يحسبنا سلامة أفندى هذا نعيش الآن؟ أتراه هو وإخوانه يريدون أن يوهموا القراء أن الكُتَّاب والمفكرين لا يزالون يستهدفون لعَنَتِ الجهل وعسف التعصب كما كانوا فى القرون الخالية؟ ما أظن بهذه العصابة المتآمرة على الأدب إلا أنها تقصد إلى ذلك، أو لم يكن سقراط يقرر أن الأساطير خرافات وحماقات، وأن الإنسان ينبغى أن يعرف نفسه، وأن لا يستمع إلا إلى صوت ضميره أو يهتدى إلا بنور عقله؟ نعم كان ذلك دأب سقراط فثار به أرستفانيز يسخر منه أقسى سخرية على المسرح، ولم يعدم أناسًا ينصبون أنفسهم قضاة يحاكمونه على إفساد الشبان ويحكمون عليه بالموت. والمسيح - صلوات الله عليه - المسيح الذى لم يعرف قلبه البغض، والذى كان يعلم الناس الصفح عن المسىء والعطف على المساكين والمساواة أمام الخلق، ألم يعدوه خارجًا ويزعموه مجنونًا؟ وكريستوف كولب الذى صمد للعالم كله وغالب الناس والطبيعة وأبى أن يصدق أن الأرض مسطحة كالفطيرة وخاض البحار المجهولة وصبر على تمرد النواتية حتى بلغ الدنيا الجديدة وربحها للقديمة، ماذا لقى من الناس إلا الحبس والأغلال والإهانة؟ نعم نجا من التعذيب ولما يكد غير أنه مات فقيراً مشرداً مهينًا مسبوبًا مخونًا! وجاليليو الذى اخترع الترمومتر والتلسكوب التى كشفت له عن عوالم لم يحلم بها حالم وعن ضآلة أرضنا بين كواكب هذا الكون المهول. ألم يضطره فزع الناس من الحق أن ينحنى أمام غباوتهم التى ظفرت به؟

ألم يقض أيامه الأخيرة أعمى فى محبس موحش ضيق؟ كذلك مات ميشيل سيرفيه وسافونارولا تعذيبًا، وفر ديكارت من بلاده وقضى نحبه فى منفاه، وأقصى أوفيد كما أقصى يوريبيدس عن موطنه، واضطر سينيكا أن ينتحر، وقضى أرشيميد نحبه من يد جندى سكران، وقتل الجند ديموستين وسيسرو أخطب خطباء الأقدمين. ولو شئنا لأطلنا القائمة ولكن ما حاجتنا إلى ذلك؟ أليس المحقق أن هذا جزاء العظماء والفحول؟ أليس على قدر سخافة الجماهير وانحطاطها تكون قسوتها فى اضطهاد من يبلغ من غرارتهم أن يعالجوا تثقيف عقولها وصقل نفوسها؟ نعم بلا شك! ومن الشجاعة التى تستحق التنويه أن يقدم إنسان على ذلك، وإنها لجرأة تذكر وتشكر لسلامة أفندى. ألسنا نحرق الكُتَّاب والمفكرين الآن كما كان يفعل آباؤنا؟ ألسنا نعذب أصحاب الآراء الجديدة فى هذا الزمن وننفيهم ونشردهم؟

وما جزاء من يتعرض لهذه الأخطار والأهوال التى يقف لها الجلد ويقشعر منها البدن؟ أأقل من أن نكون أبدًا على ذكر هذه الجرأة الرائعة التى لا تكترث للتعذيب ولا تحفل بالآلام المرعبة؟ حقه ذلك ولا ريب!.

ولكن يا سقراط هذا العصر الغارق فى خرافات الأساطير لا تخش أن تموت بالسم فإن السم أغلى من حكمتك! ويا كولب الزمن الذى يرتاد مجاهل العلم والفلسفة ويفتح كل جديد بكر من عوالم الفكر لا تخف أن تهان أو تسجن أو تشرد فكفى بعقلك سجنًا لك وبآثار قلمك مهانة، ويا جاليليو الأوان الذى يرفع عينه فى سماء الفكر فيبرز المستتر ويصحح النسب المقلوبة ثق أن الله أرحم من أن يصيبك بعمى العين بعد عمى القلب، وأن يقدر لك أن تجمع بين وحشة السجن ووحشة النفس المجدبة!.

ما هذه الجرأة التى تباهى بها يا هذا؟ وما معناها أو محلها فى زمن كهذا ينشر الناس فيه كل ما يخطر لهم بلا تقيا ولا حذر ولا حرج؟ حقًا إنها لجرأة!

* * *

وعلام اجترأ هذا السلامة أفندى موسى؟ يضحكنا والله أنه لم يجترئ إلا على فضيحة نفسه! فقد قرأت له فى مقدمة كتابه الذى سماه "مختارات سلامة موسى" قوله:

"وفى هذا القدر كفاية من الاعتذار عن المقالات التالية، فهى أدبية علمية فلسفية، ليس فيها عناية الصناعات البديعية أو البيانية بل هى مكتوبة بما أعتقد أنه سيكون أسلوب المستقبل، وهو الأسلوب "التلغرافى" حيث لا تزيد الألفاظ عن المعانى".

مسكين هذا الفتى حقًا! وإنى لأرثى له وأعطف عليه، وكيف لا يدركنى العطف على إنسان له رأس مغروز بين كتفيه وأعصاب متفرعة فى نواحى جسمه وقلب يدق فى صدره ولا يشعر مع هذا أن الألفاظ تضيق بالمعانى ولا تتسع لها؟! أكبر الظن لا بل اليقين - أن سلامة أفندى لم يقرأ فى حياته كتابًا فى موضوع عويص يتطلب كد الذهن، ولم يخطر له فى عمره خاطر عميق أو دقيق يعيى المرء أن يعبر عنه وإلا لما قال إن أسلوبه تلغرافى، وإن هذا سيكون أسلوب المستقبل! ما معنى الأسلوب التلغرافى؟ معناه - كما هو واضح - إن اللغة أوسع من المعانى والآراء والإحساسات والخوالج على العموم، أو بعبارة أقرب إلى فهم أمثاله أن الأوعية أكثر من السوائل المراد صبها فيها، وأنه ما من معنى أو رأى أو إحساس يخطر لنا ونريد العبارة عنه إلا وسعنا أن نصبه فى قوالب عديدة تختلف إيجازاً وإطناباً؛ فينبغى لنا أن نتوخى الاقتصاد ونجانب الإسراف ونتحاشى أن نجلو المعانى فى حفلى من الزينة وحشد من الحوشى. فهل الأمر كذلك والحال على ما خيل لسلامة أفندى؟ لقد كان ظننا أن الكُتَّاب والشعراء والمفكرين إنما يشكون قصور اللغة عن أداء المراد منها. وكنت أنا أبدأ أقول إن اللغة - كل لغة - أشبه شىء بإشارات الخرس التى تتخيل فيها أغراض صاحبها ولا توفيها بيانًا أو توسعها جلاء فجاءنا سلامة أفندى فى آخر الزمن يقول بل الأمر على عكس ذلك واللغة أوسع حظيرة مما تستدعى العبارة عن معانينا! وله وحده العذر! وماذا كنت تتوقع ممن لم يعان أزمة التعبير عن معنى لا تحيط به الألفاظ؟؟

يخطر الخاطر للكاتب منا فيلتمس له العبارة الكفيلة بإبرازه، وقد يجد اللفظ حاضراً ولكنه لا يرى أنه يؤدى خاطره بنفس القوة التى يحسها فى نفسه، وقد يوفق إلى هذا

وذاك وتعييه الإحاطة بحواشيه أو تصفيته، وما من كاتب قديم أو حديث وشرقى أو غربى حقيق بهذا الاسم إلا جرب العجز التام عن أداء بعض ما يتمخض عنه ذهنه، وإلا عانى من برح ذلك وآلامه أحيانًا شرًا مما تعانيه الحامل ضربها الطلق.

والدنيا تتسع وأفق الحياة يرحب على الأيام، وكلما اتسعت الدنيا اتسعت المعانى تبعًا لها واحتاجت اللغة إلى إتمام النقص الذى فيها وإلى استكمال أدواتها، ولكن سلامة يعكس الآية ويقلب القضية ويذهب إلى أن اللغة محتاجة إلى الاختزال، وأنها أوفى مما تستدعى الحاجة وتستلزم الترجمة عن الفكر أو الإحساس!

ولنماش سلامة أفندى قليلاً لنرسم معه وطبقًا لنظريته خط التقدم فى المستقبل فنقول إذا كان الانتقال سيستمر على هذا النحو الذى يصفه حضرته من الإطناب الذى ألفه القدماء وقلدهم فيه أبناء الجيل الحاضر إلى الإيجاز التلغرافى الذى يتحراه سلامه أفندى؛ فأحر أن تكون الخطوة التالية فى أدوار الرقى الموسوى أن تصبح الكتب والرسائل عبارة عن عناوين فقط يفهم منها كل المراد بلا حاجة إلى شرح أو إيضاح. فإذا أراد ناقد مثلا أن يبدى رأيه فى كتاب "مختارات سلامة موسى" أو كتبه كلها اكتفى بأن يقول عن صاحبها: "دجال"!؟! واستغنى بمثل هذه الكلمة المفردة عما نفيض نحن فيه اليوم من البيان والتبيين. وبذلك تصبح كتب الأدب عبارة عن معاجم ينقصها الشرح، وأقل ما لهذا من المزايا أن تتضاءل نفقات الطبع، وأن تزول الحاجة إلى ناشرى الكتب، وأن لا يتعاظم أديبًا بالغًا ما بلغ فقره، إبراز خواطره ونشرها للجمهور إذ كانت الكتب ستكون عبارة عن صفحات معدودات فى كل صفحة لفظة تغنى عن مجلد من مجلدات القدماء أمثالنا!

ولابد بعد ذلك من خطوة أخرى فى طريق هذا الرقى الموسوى. وما أظن بالقارئ إلا أنه قد فطن إليها فما بها من خفاء، وإنها لنتيجة محتمة، وهل يمكن أن تكون شيئًا غير "البكم" التام المطبق؟؟ أليس واضحًا أن هذه هى الغاية والنهاية؟ وعندئذ يصبح أبلغ البلغاء وأفصح الفصحاء وأقدر المترسلين والمنشئين هو أتمهم بكمًا وأشدهم خرسًا وأقلهم حاجة أو شعورًا بالحاجة إلى النطق الآدمى!؟ ولا تبقى ثم حاجة حتى

إلى هذا اللسان الذى نحركه فى أشداقنا ويصبح من الزوائد الضارة؛ لأنه يغرى بالكلام على نحو ما كان يفعل الأقدمون، والكلام، كما صار غير خاف، عى! والنطق فهاهة، والبكم غاية البلاغة وأعلى منازل الفصاحة والبيان، وإذن فلتستأصل الألسنة ولتستل من الحلوق! ولتحرق أيضًا الكتب المخلفة من الأزمنة الغابرة حين كان الناس يفهمون الأمور مقلوبة!

والأدب ليس بالظاهرة المنعزلة عن ظواهر الحياة الأخرى، وهو يمت بسبب إلى الموسيقى والغناء والتصوير وما إلى ذلك، وخليق بما يخضع له الأدب من سنن الترقى الموسوى أن يسرى أيضًا على إخوانه هاتيك؛ إذ لا يعقل أن يكون الأدب وحده خاضعًا لناموس مستقل عن سائر نواميس الحياة، ولقد غبر زمن كان فيه الشعر والرقص والغناء فنًا واحدًا ممتزجًا ثم تميزت ونهض كل منها على قدميه. فماذا ترى يكون مصيرها غدًا؟ كيف تزاول على الأسلوب التلغرافى الموسوى؟ الحق أقول إنى عاجز عن تصور مآلها وإنى أخشى إذا طاوعت الخيال أن أرسم للقراء صورًا مضحكة. ولست أكره أن أُضحك القراء وأُدخل السرور على نفوسهم، ولكنى أكره أن أفسد على نفسى الأمر وأهدم كل ما بنيته إلى الآن، وأخلق بهم إذا أنا رسمت لهم هذه الصور التى تتمثل لعينى كلما أجلتها فى المستقبل الموسوى للفنون، أن يتوهموا أنى عابث هازل وإن كنت لم أجدُ فى حياتى كهذا الجد. فلنتقدم بالرجاء فى تواضع وخشوع إلى مولانا الأستاذ سلامة موسى رسول البكم فى هذه الدنيا المرزوءة أن يبين لنا كيف غدًا يكون مرجوع هذه الفنون التى نبتت فى ثرى الهمجية الإنسانية الثرثارة المسرفة التى لا يكفيها الكلام والكتابة والشعر، بل لابد أن تغنى، ولا تجتزئ بكل هذا ولا يرضيها إلا أن تتخذ آلات ذات أوتار وأخرى لها أبواق ترسل بها أصواتًا منكرة تسميها موسيقى ولا يقنعها حتى هذا بل ترقص أيضًا وتحرك جسمها كل حركة وتصنع به كل ما يصنع. ولابد فوق هذا من فنون صامته مثل التصوير والحفر. فتالله ما أعظم سفه الإنسان وأحقه بالحجر على عقله وعواطفه والضرب على يديه ولسانه! إن العلم يقول لنا أن الإنسان حيوان، وكل حيوان ما خلا الإنسان يقنع بأصوات قليلة ولا يعرف هذه الفنون الآدمية من مثل الغناء والموسيقى والتصوير والأدب. فلماذا يخالفها وبأى شىء يفضلها؟

وما له لا يكفيه ما يكفيها؟ أليس المستقبل للعلم؟ نعم وإنه للمتكفل بأن يرد الإنسان إلى صوابه ويسلبه هذه الزوائد التى استحدثها ويعيده حيوانًا كسائر الحيوان ببركة سلامة أفندى موسى وأشباهه!

وبعد فأحسبنى فهمت! ذلك أن سلامة أفندى هذا لا يفهم من الجمال إلا أنه شىء لا يؤكل ولا يشرب! وهو لهذا يخلط بينه وبين ما يسميه "الصناعات البديعية أو البيانية" وعنده أن الأسلوب لا يعدو أن يكون حافلاً بهذه الصناعات أو خاليًا منها، ولما كان هو أعجز خلق الله عن إفراغ خواطره فى قوالب جميلة، وكانت هذه الخواطر غير قابلة لشىء من هذا، وكان هو لا يفهم من الجمال - كما أسلفنا - إلا أنه صناعات بديعية فقد راح يدعو إلى هذا الأسلوب التلغرافى ويصف كلامه به ليسوغ بذلك عطله من كل عنصر من عناصر الجمال حتى ما لا تخلو منه "طقطوقة" علمية! فالمسألة كما ترى لا تخرج عن كونها تسويفًا للعجز والتجرد من كل مزية. والسلام على سلامة موسى فى العاطلين، والسلام عليه فى الدجاجلة والمشعوذين!

في عالم الكتب :

عود إلى الدكتور طه حسين

التفاتات ذهنه(٣٣)

نعود إلى الدكتور طه حسين بعد أن صخخنا سلامة أفندى موسى فى بعض الطريق وتركناه ملقى على جادته، وإنما نحيي الدكتور بعد أن نكرناه لنقول كلمة فى التفاتات ذهنه واتجاهات خواطره، كان حقها التقديم ولأمر ما تأخرت، ولقد بينا من قبل أن المرء يترجم عن نفسه ويكشف عن دخائلها ويعرض على النفس جوانبها فى كل ما يكتب قصد إلى ذلك أم لم يقصد، ولعل العمد مفسدة، وأتم ما يكون الكلام حين ينطلق على وجهه فى غير تكلف، ومن الذى وسعه أن يقف على مستسر نفسه ويحيط بما انطوت عليه من مضمراتها؟ هذا ولو لم يكن من ذاك إلا أن لكل أمرئ أسلوبه فى الكتابة وفى الطريقة التى يتناول بها موضوعه والجهة التى يطرقه منها لكان ذلك حسبنا.

ولقد لفتنى من الدكتور فى كتابيه: "حديث الأربعاء" – وهو مما وضع – "وقصص تمثيلية" – وهى ملخصة – أن له ولعًا بتعقب الزناة والفساق والفجرة والزنادقة. وقد ينكر القارئ أن أدخل القصص التمثيلية فى هذا الحساب ويقول إنها ليست له، وإن كل ما له فيها أنه ساق خلاصة وجيزة لها. وهو اعتراض مدفوع لأن الاختيار يدل على عقل المرء ويشى بهواه كالابتكار سواء بسواء، وإنما يختار المرء ما يوافقه ويرضاه

(٣٣) نشرت فى "اللواء المصرى والأخبار" فى ١٢ يوليه سنة ١٩٢٥ (ص٢).

ويحمله عليه اتجاه فكره حتى لا يسعه أن يتخطاه. ولست بمازح حين أنبه إلى ذلك، وها هو ذا حديث الأربعاء ماذا فيه؟ فيه كلام طويل عن العصر العباسي، وللعصر العباسي وجوه شتى، وفي وسعك أن تكتب عنه من عدة جهات، وأن تتناول فلسفته أو علمه أو شعره، وجده أو هزله. ولكن الدكتور طه يدع كل جوانب سوى الهزل والمجون ويروح يزعم لك أنه عصر مجون ودعارة وإباحة متغلغلة إلى كل فرع من فروع الحياة. فلماذا؟ لأية علة يغضى عن الجوانب الأخرى لذلك العهد؟ بل قل لماذا لا يرى فى غير الماجنين والخليعين صورة منه؟ ولست أفترى عليه فإنه القائل فى الصفحة السابعة والعشرين من كتابه: "أدرس هذا العصر درسًا جيداً وأقرأ بنوع خاصة شعر الشعراء وما كان يجرى فى مجامعهم من حديث تدهشك ظاهرة غريبة، هى ظاهرة الإباحة والإسراف فى حرية الفكر وكثرة الازدراء لكل قديم سواء أكان هذا القديم دينًا أم خلقًا ثم سياسة أم أدبًا. فقد ظهرت الزندقة وانتشرت انتشاراً فاحشًا اضطر الخلفاء من بنى العباس إلى أن يبطشوا بالشعراء والكُتَّاب؛ لأنهم اتهموا بهذه الزندقة، وظهر ازدراء الأدب العربى القديم والعادات العربية القديمة والسياسة العربية القديمة، بل ظهر ازدراء الأمة العربية نفسها وتفضيل الأمة الفارسية عليها، وكانت مجالس الشعراء والكُتَّاب والوزراء مظهراً لهذا كله. وليس يعنينا أن تكون النهضة السياسية الفارسية وحرصها على الانتقام من العرب والاستئثار دونهم بالسلطان مصدر هذا التغير، وإنما الذى يعنينا أن هذا التغير قد وجد وقوى حتى ظهر فى الشعر ظهوراً جعل إنكاره مستحيلاً".

ولم يكف الدكتور أن يعمد إلى طائفة معينة من شعراء العباسيين، وأن يرسم من سيرتهم صورة يزعمها صورة العصر، بل هو ينكر أن غير هؤلاء من العلماء أو الشعراء يمثل العهد العباسي! وأقرأ له قوله في ص٥٠ من هذا الكتاب:

.. فقد بينا في ذلك الحديث أن هؤلاء الشعراء كانوا يمثلون عصرهم حقًا، وكانوا له أشد تمثيلاً وأصدق لحياته تصويراً من الفقهاء والمحدثين وأصحاب الكلام، وأن هؤلاء العلماء على ارتفاع أقدارهم العلمية ومنازلهم الاجتماعية والسياسية، وعلى أن كثيراً منهم كان ورعًا مخلصًا طيب السيرة لم يأمنوا أن يكون من بينهم من شك كما

شك الشعراء ولها كما لها الشعراء واستمتع بلذات الحياة "فى سره" كما استمتع بها الشعراء فى جهرهم".

وهل يقف الدكتور هنا ويقنع بهذا القدر؟ كلا يا سيدى! بل يجرى إلى آخر الشوط ويقول فى الصفحة التاسعة والثلاثين من كتابه: "خسرت الأخلاق من هذا التطور وربح الأدب فلم يعرف العرب عصراً كثر فيه المجون وأتقن الشعراء التصرف فى فنونه وألوانه كهذا العصر ثم كان من كثرة المجون، أو بعبارة أصح، كان من فساد الخلق فى ذلك العصر والعصور التى وليته أن ظهر فن جديد من الغزل لم يكن معروفًا فى الجاهلية ولا فى صدر الإسلام ولا فى أيام بنى أمية، وإنما هو أثر من آثار الحضارة العباسية، هو أثر أنشأته هذه الحضارة الفارسية عندما خالطت العرب أو عندما انتقل العرب إليها فاستقر سلطانهم فى بغداد، وهذا الفن الجديد هو الغزل بالغلمان الذى سنحدثك عن خصائصه فى غير هذا الفصل".

وإذا سمعت رجلاً يقول إن الأخلاق فسدت وخسرت وإن الأدب ربح من وراء ذلك؛ أفلا ينهض لك العذر إذا قلت إنه ينفح عن هذا الفساد ويسوغ هذه الخسارة؟؟ نعم بلا ريب. وأنت تحس من كلامه الرضى والارتياح، ومن الذى لا يشعر بذلك حين يقرأ قوله فى عقب ما سقنا لك: "وإنما الذى يعنينا الآن أن نلاحظه أن هؤلاء الناس الذين وصفنا لك ما وصلوا إليه من شك فى كل شىء وعبث بكل شىء وإسراف فى المجون واللهو كانوا يجتمعون، ويجتمعون كثيراً أكثر مما كان يجتمع أسلافهم، وكانت اجتماعاتهم ناعمة غضة فيها اللهو وفيها الترف. كانوا لا يجتمعون إلا على لذة، إلا على كأس تدار أو إثم يقترف وكانت اللذة والآثام حديثهم إذا اجتمعوا، يتحدثون فيها شعراً ونثراً وكان الدين واللغة والفلسفة حديثهم أيضاً ولم تكن اجتماعاتهم تخلو دائمًا من النساء، فقد كان الإماء الظريفات يأخذن منها بنصيب عظيم، وكانوا يجتمعون فى الحانات والأديرة وفى بيوت الأمراء والوزراء وفى بيوتهم الخاصة فيلونون ويتحدثون فأنت تستطيع أن تتنبأ بمقدار ما كان لأحاديثهم هذه من أثر عظيم فى الأدب العربى والعقل العربى، كانت هذه الأحاديث عذبة غير متكلفة ولا ثقيلة الروح. كانت تصدر عنهم عفواً فتمثل عقولهم وشعورهم وقوة حرصهم على اللذات وشدة شغفهم بالجديد أحسن تمثيل" آه (ص ٤٠).

ثم مضى يورد سير أبى نواس ومن إليه من مثل الوليد بن يزيد ومطيع بن إياس وحماد عجرد والحسين بن الضحاك ووالبة بن الحباب وأبان ومروان بن أبى حفصة ويقول فى بيان الحكمة فى ذلك إنه لا يريد أن يكتفى بالقول "بأن القرن الثانى للهجرة على كثرة من عاش فيه من الفقهاء والزهاد وأصحاب الشك والمشغوفين بالجد إنما كان عصر شك ومجون وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة والعادات الموروثة والدين أيضًا... وإنما أريد أن أشخص حياة هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون تشخيصًا لا يجعل إلى الشك فيها سبيلا ثم أريد أن أبين أن هؤلاء الشاكين المسرفين فى المجون، إن سخط عليهم نفر قليل من الفقهاء وأصحاب الزهد، فقد كان الناس جميعًا على اختلاف طبقاتهم وأهوائهم ومنازعهم يحبونهم ويميلون إليهم ويتفكهون بما يوصفون به من ظرف وما يروى عنهم من هزل ومجون، وإذا كان هؤلاء الشعراء وأصحابهم من حرية الرأى ومن الإسراف فى حب اللذة والتهالك عليها سرًا وجهرًا بهذا الحد... وإذا كان الناس بهم معجبين وعنهم راضين أقول إذا كان الأمر على هذا النحو فليس عندى شك فى أن هذا العصر الذى عاش فيه هؤلاء الشعراء وهؤلاء الناس الذين كانوا يعجبون بهم لم يكن عصر إيمان ويقين فى جملته، وإنما كان عصر شك واستخفاف وعصر مجون واستهتار باللذات" أ هـ (ص ١٨٤).

وحسبنا هذه المقتطفات التى تعمدنا الاستكثار منها لينتفى كل شك فى أن الدكتور يلح فى إثبات ما يذهب إليه، وأن هذا الرأى الذى عَنَّ له وعالج إثباته مستغرق لذهنه، وأنه يصرفه عن إجالة الفكر فى كل جانب آخر من جوانب الحياة فى ذلك العصر.

ولا يسمح لنا ما نقصد إلى تبيينه بمناقشة الدكتور فى رأيه لئلا يختلط الأمر علينا وعلى القراء، ونكتفى بملاحظة واحدة هى أنه ما من عصر يمكن أن يكون له جانب واحد كما يريد أن يصور لنا العصر العباسى، وأنه لم يخل زمن قديم أو حديث من مثل ما يصف الدكتور. ولو أن كاتبًا تناول عصرنا الحاضر لألفى مجال الكلام ذا سعة على نحو ما فعل الدكتور. ولكنه لا يكون صادقًا ولا دقيقًا إذا ذهب يزعم أن حياتنا الحاضرة قائمة على الفسق والفجور والدعارة والإباحة والزندقة والإلحاد من

أجل أن الشعراء والكُتَّاب – وأنا منهم ولا فخر – ذكروا الخمر وتغزلوا وتشببوا، وأن الناس يتفكهون فى مجالسهم ويرفهون عن نفوسهم بالتلهى والمجانة أحيانًا، وأن ذلك يعجب الفارغين ويروقهم.

وبعد ذلك نعود إلى ما كنا فيه وننتقل إلى قصص الدكتور ولنبدأ بقوله عنها: "فأنا أعترف بأنى لا أتخير هذه القصص عفواً، وإنما أتخير منها بنوع خاص ما من شأنه أن يهز العاطفة ويلذ العقل أو يدعو إلى العناية والتفكير". فليس فى الأمر مجال للتأول والتمحل والإحالة على الاتفاق والمصادفات؛ فإن العمد هنا معترف به. ومن العسير أن نلخص هذه القصص الكثيرة فى أسطر قليلة هذا مطلب لا سبيل إليه. وعلى أنها قصص متداولة فحسبنا أن نقول دون أن نخشى اعتراضًا إنه ما من قصة منها إلا وهى تنطوى على نوع أو أنواع من "الخيانات" أو مما يسميه الدكتور "الشر والنكر". ويقول الدكتور إنه إنما كتبها وجمعها ونشرها؛ لأنه يريد أن يطلع قراء اللغة العربية "على نحو من أنحاء الأدب الغربى"، ولأنه يرغب "أن يكون بهذه القصص وما فيها من الآراء الفلسفية والمذاهب الفنية المختلفة أثر فى نفوس الأدباء والذين يعنون منهم بالتمثيل العربى خاصة يحملهم على أن يعنوا بهذا الفن الناشئ فى أدبنا عناية ترفع شأنه وتجعله خصبًا مفيدًا".

وللقارئ أن يسأل: لماذا لم يؤثر الدكتور "نحواً" آخر من "أنحاء" الأدب الغربى وليس هذا كل ما فيه ولا هو خيره؟؟ لماذا عنى على وجه الخصوص بقصص الزناة والزوانى وبحكايات الجهاد – كما يقول هو – "بين العواطف والشعور من جهة وبين العقل من جهة أخرى، بين العواطف والشعور الفردية من ناحية وبين القانون والأوضاع الاجتماعية من ناحية أخرى، بين العواطف وبين الواجب وبين العقل وبين الدين ثم بين القانون وبين الدين أيضًا"؟؟

ألا ترى أن صنيعه فى اختيار هذه القصص كصنيعه فى اختيار من كتب عنهم من العباسيين؟؟ فكما أنه ترك أبا تمام والبحترى والشريف ومهيار والمتنبى والمعرى من فحول شعراء العرب وفضلائهم ووقع على أهل المجون والخلاعة والاستهتاك كذلك

لم ينتق من كنوز الأدب الغربي إلا هذه القصص الحافلة بضروب "الآثام والمنكرات" حتى حين يلخص قصة دانمركية لا تكون هذه القصة إلا من هذا النوع. وهو يصف كل قصة يلخصها بأنها "لذيذة" وبأنها "ممتعة" وقد يعتذر لصاحبها بأنها "ليست شيئًا اخترعه اختراعًا، وإنما هى شىء طبعي يقع كثيرًا"، ويسأل أحيانًا كالذى يريد أن يسوغ هذا الشر والمنكر "من الذى يستطيع أن يوفق بين نفسه وبين واجبه حقًا؟" ويقرر طوراً أن الحب فى هذه القصة حب علماء" ويهون عليك ما فى أخرى بأن واضعها إذا كان "يمثل أشنع الرذائل وأقبحها وأبشع مظهر للطبيعة الإنسانية"؛ فإنه "إذا بلغ بهذه الرذائل أقصى ما يمكن أن يبلغ بها من الشدة والقبح استخلص منها الخير والفضيلة وأظهر لك أن الإنسان قد يكون شريراً، وأن حياته قد تمتلئ بالآثام والمنكرات، ولكن فى هذه الحياة أو فى هذه الطبيعة الإنسانية قبساً من الخير. لا تكاد تختصم الرذائل وخصال الشر حتى يتولد هذا القبس من اختصامها فما أسرع ما ينبعث منه ضوء هادئ مريح يبدد هذه الظلمات ويمحو هذه الآثام وإذا النفس الإنسانية طاهرة قد فطرت على الطهر، وخيرة قد برئت على الخير".

ونحسب الآن أن نزعة الدكتور قد صارت ملموسة باليد، فهل لها تعليل؟ هل فى وسع الكاتب منا أن يبين لماذا كان الأمر كذلك والحال على ما وصفنا للقراء؟ نعم، والعلة ظاهرة والكلام حاضر، ولكنا أطلنا فلنرجئ هذا إلى الأسبوع القادم فإن القول فيه يطول.

حول الدكتور طه حسين

كلمة إلى المؤتلفين وأخرى إلى الدكتور طه[٣٤]

الأصل فى كتاب "فى الشعر الجاهلى" أنه كتاب فى الأدب، وقد نظرنا فيه نظرة من قبل على هذا الاعتبار فلا حاجة بنا إلى تكرير رأينا فيه ولو غير الدكتور طه حسين هو الذى وضع هذا الكتاب وأخرجه للناس وهو الذى يدرس الأدب بالجامعة المصرية لكان الأرجح فى الرأى والأقرب إلى الاحتمال ألا تقوم عليه هذه القيامة كلها، ولكن للدكتور طه حسين تاريخًا مع السعديين يوغر عليه صدورهم ويهيج عليه أحقادهم؛ فقد اشتغل بالشئون السياسية زمنًا وأصلى أعمال السعديين وأساليبهم ونزعاتهم نارًا حامية من النقد فحفظوها له وطووا أضالعهم على نية الانتقام منه، فلما ظنوا أن الصيد أكثبهم وأن الفريسة وقعت بين أيديهم قاموا وقعدوا وهاجوا وماجوا وراحوا يطلبون إعدام الكتاب وتقديم صاحبه للمحاكمة وفصله من وظيفته، وكانوا يرجون أن يتم الأمر على هواهم، ولم يدخلوا فى حسابهم أن دولة عدلى باشا قد يعترض على مطالبهم أو ينهد لهم، فلما فعل ظهرت الجفوة ووقعت النبوة كما يعرف القراء.

وقد حسب الناس أن الأمر انتهى بما أعلنه النائب عبد الحميد أفندى البنان فى جلسة النواب التى عقدوها فى يوم ١٤ سبتمبر من أنه لم يعد يرى محلاً للرغبة التى اقترح على المجلس الموافقة عليها، وأنه مكتف ببلاغ قدمه إلى النيابة. غير أن ذلك لم يكن سوى ستر مهلهل أسدل على [... وة][٣٥] المنهارة فى صفوف المؤتلفين، فلا تزال

---

(٣٤) نشرت فى جريدة "الاتحاد" فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٦، (ص٦).

(٣٥) الكلمة غير واضحة فى الأصل ولم نتوصل إلى بديل مناسب! (المحرر)

مسألة هذا الكتاب موضوع مشادة سخيفة بينهم ومحل خلاف ليس أقطع منه على لجاجة السعديين فى الطغيان.

وليس من همنا أن ندافع عن كتاب الدكتور طه حسين أو أن نسوغ ما زل به قلمه، فقد كان له ألف مندوحة عما وقع فيه، وقد كنا وما زلنا نتسخط الإساءة إلى الناس عفواً أو عمداً فى أقوى عواطفهم، ونعنى بها العواطف الدينية، ولكن استهجاننا ما تورط فيه الدكتور طه ليس معناه أن نشايع هؤلاء الأرازل على حكم الفوضى. فنحن كالناس إنكاراً لما جمح به قلم الدكتور طه، ولكنا ننكر أيضاً أن يحاول السعديون إرغام الحكومة على تجاهل القانون ومعاملة خصومهم على غير مقتضاه. أليسوا قد أوعزوا إلى نائبهم عبد الحميد البنان أفندى أن يبلغ النيابة كما أوعزوا إليه قبل ذلك أن يطرح على المجلس تلك الرغبة التى استفزت رئيس الوزارة؟؟ نعم! إذن ما لهم لا يدعون النيابة وشأنها تحقق أو لا تحقق طبقاً لما تراه؟؟

الدكتور طه حسين أساء من حيث يقصد أو لا يقصد إلى الناس فى عقائدهم. هذا حسن، والدكتور طه كان ينبغى أن يلقى عقاباً يردعه ويزجر سواه عن مثل فعلته. هذا حسن أيضاً وصحيح، ولكن مثل ذلك صحة أن ليس فى القانون المصرى ما يجعل ما فعله الدكتور طه جريمة لها عقابها بالغاً ما بلغ. ولا يخفى أن الدستور ينص فى المادة السادسة على أنه "لا جريمة ولا عقوبة إلا بناء على قانون، ولا عقاب إلا على الأفعال اللاحقة لصدور القانون الذى ينص عليها". فأين القانون الذى تعاقبون به الدكتور؟ إنه لا وجود له! ولو أن القانون صدر اليوم لبقى أن يجىء الكتاب لاحقاً لا سابقاً له.

والمادة الرابعة من الدستور تنص على أن "حرية الرأى مكفولة، ولكل إنسان الإعراب عن فكره بالقول أو الكتابة أو بالتصوير أو بغير ذلك فى حدود القانون".

والقانون الذى يعاقب على مثل ما كتب الدكتور لم يصدر بعد ودعك من حرية الاعتقاد وأنها بحكم الدستور مطلقة، فإن الأمر هنا ليس أمر اعتقاد بل هو مسألة نشر.

وقد أحال من بلغ النيابة على المواد ٣٠، ١٢٩، ١٤٨ من قانون العقوبات؛ فأما المادة الـ ٣٠ فخاصة بجواز الحكم بالمصادرة إذا صدر الحكم بعقوبة لجناية أو جنحة، وأما المادة الـ ١٤٨ فخاصة بطرق النشر. فلم يبق إلا المادة ١٣٩ وهذا نصها:

"يعاقب بتلك العقوبات (الحبس مدة لا تزيد على سنة أو غرامة لا تتجاوز خمسين جنيهًا مصريًا) على كل تعدٍّ يقع بإحدى الطرق المبينة بالمواد ١٤٨ و ١٥٠ على أحد الأديان التي تؤدى شعائرها علنًا ويقع تحت أحكام هذه المادة:

أولاً – طبع أو نشر كتاب مقدس في نظر أهل دين من الأديان التي تؤدى شعائرها علنًا إذا حرف عمداً نص هذا الكتاب تحريفًا يغير معناه.

ثانيًا – تقليد احتفال ديني في مكان عمومي أو مجتمع عمومي بقصد السخرية به أو ليتفرج عليه الحضور" اهـ.

والدكتور طه لم يفعل شيئًا من هذا الذي تنص عليه المادة. المسألة إذن ليست مسألة النيابة أو الوزارة أو البرلمان، ولكنها قد تكون مسألة مجلس الجامعة وما ينبغي أن يتوخى فيها ويراعى من الحرص على احترام الأديان وعدم التعرض لها بإساءة ما. ونحن كما قلنا في طليعة من ينكرون على الدكتور طه ما كتب وما مس به العقائد، ولقد نشرنا من قبل رسائل عدة لكثير من الكتاب أشبعوا الدكتور فيها نقداً وأوسعوه تقريعًا، ولكن مسألة الدكتور طه ليست من اختصاص أحد سوى الجامعة نفسها، وهي المطالبة كما أسلفنا بأن تحرص على أن يبقى الدين منزهًا عن المطاعن، وهي التي تنظر في أمر الدكتور طه ما دام القانون المصري ينقصه النص الذي يعاقب مثله على مثل ما كتب، وشبيه بذلك ما وقع للشيخ على عبد الرازق؛ فقد نظر في أمره علماء الأزهر فقرروا، استناداً إلى قانون الأزهر، إخراجه من زمرة العلماء، وترتب على ذلك فصله من وظيفة القضاء التي كان يشغلها.

أما أن يحتم السعديون الإحالة على النيابة والمحاكمة مع عدم وجود نص قانوني يجعل ذلك ممكنًا فسفاهة وتعنت وفوضى وتدخل في القضاء لا يجوز في حال من الأحوال، وأما أن يكون ذلك سبب نزاع بين هؤلاء القوم أو زعمائهم وبين ذلك الفريق من الوزراء الذي يظاهر عدلي باشا فغير مفهوم.

ولسنا، كما قدمنا، ندافع عن الدكتور طه. فما يكاد يعنينا ما يصنعون به، ولكنا ندافع عن القانون وندعو إلى وجوب احترامه واحترام القضاء. وقد يكون من دواعي الأسف أن بالقانون نقصًا جعل إفلات الدكتور من يد القضاء سهلاً، وإنه ليشق على النفس أن تألم نفوس الملايين، وأن تجرح في أحس موضع منها، وأن لا يمكنها القانون مع ذلك من الترفيه عنها بعقاب المسيء إليها عامدًا كان أو غير عامد، ولكنه لا حيلة لأحد مع الأسف إلا إذا وجدت الجامعة بابًا أو وسيلة.

وكلمة أخرى نقولها للدكتور وأضرابه. وتلك أنه ليس من مروءة النفس أن يتبرع الكاتب بالإساءة إلى الناس في معتقداتهم، وأن لا يتقى ذلك اعتمادًا على أن القانون لا يأخذ عليه توجهه فيه، ولتكن عقيدة من شاء كما يشاء فما يطلع على السرائر غير بارئها، ولكن معاهد العلم حقيقة أن [يتجافى][٣٦] بها أساتذتها عن الاشتغال فيها بتلقين الطلبة ما لا حق لهم في تلقينهم إياه. وهم يدرسون أدبًا أو تاريخًا أو رياضة أو غير ذلك فما لهم وللأديان؟؟ وإذا كان من الميسور أن يثبت الأستاذ أن نظرية هندسية أو طبيعية أو غير ذلك صحيحة لا ريب فيها؛ فبأى عقل يستطيع أن يثبت أن ما يذهب إليه من الإنكار الديني هو الصواب المطلق الذى لا يعتوره الشك؟؟ إنه وجود لا آخر له، وما عَدَت عقولنا أن كانت "مساطر" لها أول وآخر؛ فكيف يريدون أن يقيسوا غير المحدود بالمحدود، واللانهائي بالمنتهى؟! إن البحث حسن وضروري ولا غنى بأحد عنه، ولكن نفوس الطلبة ينبغي أن تكون أعز علينا من أن نركض بها بين هذه الوعور التى لم يفد أحد من الركض بينها سوى الحيرة والألم واليأس وتحطيم النفس والعقل.

---

(٣٦) الكلمة غير واضحة فى الأصل! (المحرر)

الكتب والمؤلفون :

ديوان العقاد[٣٧]

"بحر بلا انتهاء!". هذا هو الذى بين أيدى القراء: موج فوق موج، ودفاع بعد دفاع، ورغوة من ورائها رغوة، وحركة فى إثر حركة، وأواذى مصطفقة، ورياح مصطخبة، ومد جزر، وضوضاء كأنما شياطين الأرض تعوى، وظلام يصد العين عن النظر، وصفاء شفاف يغرى بالخوض والسبح، وسحب ترق وتكثف وتتفرق وتتجمع وتهضب ثم تقلع، وأمساء محلولكة عادية، وأصباح مشرقة زاهية، وصخور ناتئة ورمال بليلة، وسفائن ماخرة أو مغرقة محطمة، ورعود مجلجلة، وأغاديد وأهازيج هافية، وآفاق تصفو وتغيم، وأنجم زهر تخفق على اللج، ودر وأصداف، وحصى وحجارة، وأعشاب نابتة وأحياء متصارعة، وصور يختفى فيها الزائل فى ثنايا الثابت، وتجتمع فيها الجنة والنار، والحاشية الرقيقة، والجوف الغائر، ويلتقى عندها الحاضر والماضى، والسكون والحركة الدائمة، والفناء والخلود، واللحظات والآباد والبر والبحر، والشرق والغرب، والليل والنهار، والشمس والقمر، وكل نفس ترى هذا البحر الزاخر بشتى الصور والحالات، ولكن ليس كل أحد بقادر على أن يرسمها ويلقى بها إليك.

فلا يحسب القارئ أنه واجد هنا كلاماً متشابهاً ونغماً مطرداً، فى بعضه ما يغنى عن سائره، وفى قليله ما يدل على كثيره، أو تقليد أو محاكاة لقديم أو جديد، وإنما هنا كما يقول "العقاد" نفسه كتاب أو ديوان:

---

(٣٧) نشرت فى مجلة "الجديد" فى ٢٠ مارس سنة ١٩٢٨، (ص٢١٩-٢٢٠).

"فيه من الحكمة والغباء وفيه من يأس ومن رجاء

وفيه من حب ومن بغضاء صورة محياى لعين الرائى"

فهو صورة صادقة لنفس صاحبه الحية الواعية لما يدور فيها ويطيف بها ويجرى حولها، ولكل طور من أطوارها وحالة من حالاتها وجانب من جوانبها.

والشعر ألسنة تفضي الحياة بها إلى الحياة بما يطويه كتمان

لولا القريض لكانت وهي فاتنة خرساء ليس لها بالقول تبيان

مادام في الكون ركن للحياة يرى ففي صحائفه للشعر ديوان

كما يقول فى قصيدته الرائعة التى أسماها "الحب الأول" وعارض بها نونية ابن الرومى فى مدح أبى الصقر، وصدق العقاد، والشعر فى مراد أمره كما وصف، وإنى لأحس بعد الفراغ من مراجعة ديوانه كأن تعبير الحياة لى كان حقيقيًا أن يكون ناقصًا من بعض وجوهه لو لم يقل العقاد شعره هذا، وما أرانى مبالغًا، ولا أنا أقول ذلك على سبيل المجاملة أو مدح صديق لصديق، لا والله، وأحسب أنى ما كنت لأشعر بذلك أو التفت إلى هذا المعنى لو بقيت جاهلاً شعره أو لو كان هو لم ينظمه، ولتلك طريقتى فى تقدير الكلام وهذا عندى المحك الذى لا يخطئ، فلست أنفك كلما قرأت شيئًا أسأل نفسى: هبنى لم أكن قرأت هذا أو لم يكتبه صاحبه فماذا كنت أخسر؟ وأى نقص كنت حريًا أن أحسه؟ ولقد نصبت هذا الميزان لنفسى فانتهيت إلى أنه لا خير فيما قرضت من الشعر، وأن الأدب المصرى لا يزيد به ولا ينقصه إذا فقده، فكففت عن النظم ونفضت يدى من القريض، وأكثر ما يجامل المرء نفسه لا غيره، ولو كان هذا الغير العقاد، ومن العسير علىّ أن أبين على وجه الدقة ما أعنى أو أن أقدر للقارئ أو لنفسى مبلغ النقص فى تعبير الحياة بغير هذا الشعر؛ فهذا ما لا سبيل إليه ولا قدرة فيما أظن لأحد عليه، وأحسبنى أريد أن أقول إنى اطلعت من شعر العقاد على نواحى كانت محجوبة عن عينى، وإنى وجدت فيه التعبير عما كنت أحسه ولا أكاد أدرك كنهه، أو ما أدرك ولا أقوى على العبارة عنه، وإنى زدت للحياة فهمًا وبها شعورًا وعلمًا،

وماذا تبغي من الشعر بعد ذلك وهو شيء لا يؤكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يصلح أن يكون زينة ولا ينفع فى معاش؟

وفي هذا الشعر ما فى الحياة والطبيعة، وليس كل ما فى الحياة معجبًا مونقًا ولا كل ما فى الطبيعة الأزهار والرياحين، فثم إلى جانبها الشوك والجبال الجرداء والبراكين الفائرة الثائرة بالخراب والدمار والنقمة، والعقاد نفسه يقر أن فى ديوانه "غباء" إلى جانب الحكمة ويأسًا إلى جوار الرجاء وبغضًا يناوح الحب وكثيرًا غير ذلك مما ضاق عنه الشعر وأوجز فى بيانه الشاعر ومثل له لتقيس أنت عليه، وما أظن به إلا أنه يعنى "بالغباء" غباء من يعنى نفسه فى هذه الدنيا بالأدب والخلود وما إلى ذلك مما هو منه بسبيل لا غباء من لا يفهم ولا يرى حين ينظر، وكأنما أراد العقاد أن ينبه القارئ إلى ما ذكرنا من أن ديوانه صورة من حياته تمثل أطوار نفسه وحالاتها وتنتقل خوالجها، فاستهله بهذه الأرجوزة القصيرة التى سقنا لك منها بيتين، والتى يدفع بها كتابه إلى أيدى القراء كما تدفع المدرعة إلى المحيط، ثم وزع أجزاءه على مدار الحياة، فالأول "يقظة الصباح" الندى بالأمل والعزم والحرارة والفتوة، والثانى "وهج الظهيرة" ويا له من وهج! وما أحماها وقدة وأهولها دعكة، ثم "أشباح الأصيل"؛ إذ الشاعر جالس على ربوة الحياة أو قمة الجبل بعد أن أصعد فيه يدير عينيه فيما ارتفع عنه ويجيل خاطره فيما يوشك أن ينحدر إليه، ويعجب ويسخر، ويحسبك منه من فوق هذه الرباوة العالية "ترجمة شيطان" فإن فيها من فلسفة الحياة وعمق النظر وصحة الإدراك ولذع السخر الحكيم أكثر مما فى دواوين بأسرها ولو لم يكن للعقاد سواها لكانت حسبه مخلداً لذكره بين الفحول، ثم "أشجان الليل" من كل لون وطبق حتى ليكاد ينخدع القارئ، ويحسب أن الرجل قد رده الله ناشئًا فى ريعان العمر وحرارة الصبا، وما هو به إلا من حيث إحساسه بالدنيا والحياة.

* * *

وبعد فهل يصلح هذا الكلام أن يكون مقدمة لهذا الديوان؟ لا أدرى! وليس ذنبى ألا يكون كذلك؛ فقد أردت شيئًا وأراد العقاد خلافه، وكان العزم أن أقول غير ما قلت وأن آخذ فى نهج غير هذا النهج، فأبى علىّ ما هممت به وردنى عما شرعت فيه، وركب رأسه وأصر أن أعدل، فإذا كان فيما كتبت قصور أو تقصير فالذنب له وحده دونى، وما كنت أبغى إلا أن أقول كلمة حق أبرئ بها ذمتى وأنصفه حتى من نفسى، فأباها علىّ واستنكرها منى كبرًا أو تواضعًا أو حياءً أو مجاملة لا أدرى! وحسنًا فعل أو شرًا فعل! فما بالعقاد من حاجة إلى إنصاف منى أو من سواى، وإنه للرجل الذى يلقى بديوانه إلى الناس وهو يقول لهم:

هــذا كـتـابى فى يـد القـراء ... ينزل فى بحـر بلا انتـهـاء

....

فليلق بين القـدح والثناء ... ما شاءت الدنيا من الجزاء

وعلى أنه ماذا يقول الكاتب فى التمهيد لديوان ضخم كهذا؟ ماذا يأخذ وماذا يدع؟ وبأى جانب من جوانبه يتعلق وهى لا يأخذها إحصاء وليس بعضها بأحق بالعناية من بعض؟ وعند أية ناحية من التفاتات ذهنه يقف وهى شاملة محيطة؟ كلا! لا سبيل إلى ذلك، والقراء عندى كما هم عند جحا أحد رجلين: واحد لا ينقصه الفهم وسرعة التلقف، ولا حاجة بمثل هذا إلى بيان نبسطه بين يديه، وآخر يعوزه الذكاء أو هو ممن لا يريدون أن ينظروا بعيونهم ويفهموا بعقولهم ومن العبث خطاب أمثاله.

إذن فلينزل الديوان إلى بحر الحياة كما شاء صاحبه أن ينزله، مستغنيًا عن الشراع والقلوع زاهدًا فى العجلات والدواليب، ماضيًا على دله بتوحده مستعزًا بقوته مطمئنًا إلى تمرده!

تاريخ الحركة القومية[٣٨]

(١)

استطراد

لما أهدى إلىّ صديقى الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعى كتابه "تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر" فرحت به وأكبرت هذا الجهد وانتويت أن أعجل بالتخلى لقراءته والكتابة فيه، وأقبلت عليه مبتدئًا بالفصل الأول حتى بلغت نصفه ثم وقعت عينى على الإهداء، وفيه يقول:

"إلى أخى العزيز أمين بك الرافعى من فقدته [وأنا] أحوج ما أكون إلى حبه وعطفه..."

فوقفت وطويت الكتاب وانصرفت عنه...

أنا أيضًا كان لى أمين بك "أخًا عزيزًا" - كان قريبى وليس من رحمى، وكان نسيبى ولست من نسبه، وقد فقدته، كما فقده أخوه، وأنا "أحوج ما أكون إلى حبه وعطفه"، وما زلت، كلما ذكرته، جف حلقى وعصب ريقى. وكل شىء يذكرنيه: شمائله الطيبة الشكول، وفقرى إلى حرارة إيمانه وقوة روحه التى كنت أستمد منها العون والغوث، وهذا التحطم الذى أحسه بعده فى كيانى، والتهدم الذى أجده فى بنيانى، والضعف الذى يساورنى، واليأس الذى يخامرنى، فقد كنت معه كأنما ليس فى الدنيا سواه، وكأن الناس غيره ما كانوا؛ فلما خلت منه رقعتى صارت الصحراء فى قلبى...

---

(٣٨) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٢ مارس سنة ١٩٢٩، (ص١٣).

فمن العسير أن أكون بسبيل من ذكر أمين بك، وأن أقدر مع ذلك على توقى الخلط والاضطراب - الخلط بين خواطرى وبين ما أعالج من التفكير فى أمور لا علاقة لها بشخصى، والاضطراب الذى يحدثه اكتظاظ النفس بالذكر، وهى - على كونها عناء - تسحر العقل وتغريه بالتعلق بها والاستغراق فيها، ومن سوء حظى أن ذكراه كالحلم بالفردوس: حاجة النفس كلها ومنى النفس جميعاً.

* * *

اتهم الأستاذ عبد الرحمن بك بأنه احتذى كتاب "فتح مصر" للأستاذ حافظ بك عوض، أو نقل عنه، ثم لم يعن بالإشارة إليه فى جملة المراجع التى اعتمد عليها "وانتفع بها" وقد أذكرنى هذا، بأنى أنا أيضًا رميت بهذا، وقال عنى بعضهم إنى نقلت "مذكرات حواء" عن "مارك توين" الكاتب الأمريكى. وصحيح أن "مارك توين" سبقنى إلى الوجود وتقدمنى فى الحياة، وأنه عاش ومات قبل أن أجيء أنا إلى هذه الدنيا بحقبة طويلة، وصحيح أيضًا أن له "مذكرات حواء"، ولكن غير الصحيح هو أنى نقلت عنه أو سطوت عليه. ولو قال العائب أنى اقتست به أو قلدته بأن تناولت موضوعًا سبقنى إليه، لكان هذا أشبه بالحق، ولكنه نظر فلم ير أنى زدت على آدم وحواء إنسانًا ثالثًا أو أحلت الجنة شيئًا غير الجنة أو جعلت إبليس يوسوس بغير العصيان، فقال: سرق وسطا وليس له فضل فيما كتب، ولا جديد فيما جاء به. وبديهى أن للموضوع عناصره التى لا يمكن أن تختلف أو تتعدد أو تزيد أو تنقص، ولو كتب مائة غير مارك توين وغيرى عن حواء وآدم لما وسعهم أن يضيفوا إلى هذه العناصر أو ينقصوا، فالعوامل المشتركة بين مارك توين وبينى، والتى لا يمكن إلا أن تكون مشتركة، هى آدم وحواء والجنة وإبليس والشجرة المحرمة والعصيان والخروج من الفردوس. ولا جديد فى هذه ولا حيلة لأحد فيها ولا قدرة على تبديلها، وإنما يكون الجديد أو الاختلاف بين كاتب وكاتب، فيما يصنعه المرء بها، ويتخذها أداة له. وقد عالجت أنا أن أدير الموضوع على فرق ما بين الرجل والمرأة من حيث الإحساس الجنسى والأمومة والأبوة، وأن أمثل لما سبق أن ذهبت إليه فيما كتبت عن "المتنبى" فى "حصاد الهشيم" من أن

الخلود يعفى على الإحساس الجنسى بل على كل إحساس إنسانى سواه، وأن قضاء الموت هو الذى ينشئ هذه الاحساسات ويثيرها، وهو ما لم يقصد إليه مارك توين، ولم يتعرض له لا صراحة ولا ضمناً ولا من قريب ولا من بعيد.

ومن هذا القبيل أيضاً اتهام الأستاذ الرافعى بالنقل عن كتاب الأستاذ حافظ بك عوض، وكلا الكتابين يتناول تاريخ مصر من عهد الغزوة الفرنسية مع التمهيد لذلك بما لابد منه، فهذه فترة من التاريخ معالمها قائمة، وحدودها مرسومة، وحوادثها معلومة، وليس فى طوق مؤرخ أن يقدم أو يؤخر أو يغير أو يبدل فيما هو ثابت منها. وكل كتاب عن هذه الفترة ككل كتاب آخر عنها من هذه الناحية أى من حيث تسلسل الوقائع وتتالى الحوادث، وإنما يكون الفرق فى وجهة النظر وفيما يحاول كل مؤرخ أن يبرزه أو يستخلصه. وكتاب الأستاذ الرافعى يختلف عن كتاب الأستاذ حافظ بك عوض، أو يتميز إذا شئت، بأنه درس لحوادث التاريخ وبحث عن مظاهر الشعور القومى فيما وقع، وهو ما لم يقصد إليه حافظ بك، فلكل كتاب منحى وأسلوب وغاية وطريقة فى تناول الموضوع وعرض الحوادث وإن كانا من حيث المعالم الكبرى لا يكادان يختلفان إلا بمقدار التفاوت فى القدرة على التحقيق والصبر على الغربلة.

وأنعم باليقظة والتدقيق فى محاسبة الكتاب، فليس أعون من ذلك على إحكام التقدير والإنصاف فى إيفاء كل ذى حق حقه، ولكن الغلو فى ذلك يقضى على الاجتهاد أو على الأقل يقطع الطريق على التوليد. ولو جرى العالم على أن كل من سبق إلى شيء فله احتكاره ولا حق لمتأخر فى تناوله، لكان هذا قضاء بالعقم والركود، ولاستحال معه التطور والتقدم. وماذا كان مصير الأديان يكون؟ وندع الأديان، فإن طريقها شائك والعثار غير مأمون، ونضرب مثلاً من الأدب: قصة "فَوست" التى تداولها الشعراء والكُتَّاب ورجال الدين وتعاقبوا عليها، وهى كما يعرف القراء قصة أستاذ ألمانى فى وتنبرج برم بالعلم ولم يجد فيه مقنعاً له فانصرف إلى السحر، وجاءه اثنان من تلاميذه بكتاب فى السحر استعان به على إحضار الشياطين لاستخدام أسرعها فوجد فى ميفيستوفليس بغيته فتعاقد معه على أن يكون طوع أمر فَوست أربعة وعشرين عاماً يسلم نفسه بعدها إلى الموكلين بالجحيم. ويزور فَوست بلاط "بارما" ويعرض فنون

سحره على الأمير ويرد إلى الحياة بعض الغابرين وفى جملتهم هيلين الإغريقية ثم يعود إلى وتنبرج ويستفسر من ميفيستوفليس عن الجحيم وآلها، ثم يستخبره عن النعيم الفردوسي، فيأبى الشيطان أن ينبئه ويلح فَوست، فيفر الشيطان. فيعتزم فَوست أن يبتغى الرحمة من السماء ويلعن السحر، وتسمع الجحيم لعنته فيعود الشيطان إليه وهو يصلى ويعرض عليه تاجًا وصولجانًا فلا يقبل، فيدعو الشيطان هيلين ويحضرها من العالم الماضى فتستولى على قلب فَوست وتنأى به عن التوبة، ثم يوافيه الميعاد المضروب ويستحوذ عليه الشيطان. والمغزى ظاهر، وهو أن الإغراق فى المطامع مغبته اللعنة، وأن السعيد هو القنوع.

وقد صنع مارلو الشاعر الإنجليزى روايته وحاكها من هذه الخيوط. فلما جاء لسنج لم يرض أن يدع فَوست فريسة للشياطين وطعامًا للجحيم؛ لأن هذا يكون معناه القول بأن نشدان الحقيقة مسعى شيطاني. وقد نشر فصلاً واحدًا من روايته كان كافيًا لإثارة الرغبة فى تناول هذا الموضوع. وصار فَوست فى رأى زعماء الأدب فى ذلك العصر يمثل الطماح وتنكب الطرق المعبدة المألوفة والتمرد على القيود الإنسانية. ووضع جيته روايته المشهورة وسبقه مالر موللر وكلنجر وسودن وفيدمان وفريدريك شنك.

والأصل فى كل هذه الروايات واحد ولكن أسلوب التناول مختلف؛ فمارلو – كما رأيت – يدع فَوست يبوء بلعنة الجرى وراء الغايات البعيدة ويقيم إلى جانبه خادمًا له هو هانز فورست ويجعله مثله قادراً على إحضار الشياطين ولكنه لا يجعل لهم عليه سلطانًا، ويصير هذا الخادم حارسًا ويشهد مصرع فَوست وهو يعالج غصص الموت وهول اللعنة السماوية، والخادم يرجع الصوت بأنشودة الحراس. ولنسج – كما أسلفنا – يأبى أن يجعل الطماح ونشدان الحقيقة مجلبة للعنة. وكلنجر يجعل فَوست هو مخترع الطباعة ويخوض به شروراً شتى – بعضها مما اجترح والبعض مما اقترف غيره – إلى الجحيم. وسودن يصور فَوست خصمًا للطغاة ووطنيًا متأجج الحماسة وإن كان يلقى به فى آخر الأمر إلى الشياطين. وشنك يرفع مستوى فَوست النفسى ويمثله أقوى وأقدر على مقاومة الإغواء.

أما جيته فلم يستطع - كما لم يستطع لسنج - أن يسلم فَوست إلى الشيطان على ما رسمت الأسطورة القديمة، ومن أجل هذا جعل الله في المقدمة يقول: إن طماح فَوست يسره وأنه سيخرجه من الظلام الذى يتحسس طريقه فيه، إلى النور، وينال الشيطان الأذن بإغواء فَوست، ولكنا نعلم على الرغم من ذلك أنه لن يستطيع أن يتنكب بفَوست طريق روحه، وأن الشيطان قد يسعه أن يضله حيناً، ولكنه لا يستطيع أن يبلغ منه مأربه كله وأن يثنى خطاه إلى طريق الإثم والخطأ بلا رجعة. وفَوست فى هذه القصة القديمة هو جيته الذى طرق كل باب من أبواب المعرفة، وكان يرجو أن يهتدى إلى حل للغز المحير، حتى فى العلوم التى كانت فى زمنه مستهجنة وفى كتابات الكيميائيين والسيميائيين. وقد فكر كفَوست فى الانتحار، وكان مثله ليس بمقفر النفس من الإحساس الدينى، وكان له، كما كان لفَوست، إخوان من طراز ميفستوفيليس - ميرك وهردر مثلا - يشعرونه بضآلته ويدفعونه إلى السعى والمجاهدة وطلب الشأو البعيد، وأحب كفَوست فتاة من طبقة دون طبقته، وكما شقيت جريتشن فى الرواية، كذلك فريدريكه بريون شقيت بحب جيته لها، وظل كما ظل بطل روايته إلى آخر عمره يرى الطريق المستقيم ويرجع إليه بعد أن ينحرف عنه، وقد جاء إلى البلاط، كما جاء فَوست، وصار له فيه صوت مسموع، وذهب إلى جنوب أوروبا كفَوست، واستمد من بلاد الأدب القديم قوة جديدة ومطامح أسمى وأنقى، وأفاد منها نظراً أصفى وبصيرة أذكى، وشارف كفَوست آلهة الإغريق، وأكب على فنونهم وآدابهم الخالدة واستوحاها أسمى الحقائق، واستجمع قوته فى جوارها وحشد نزعاته وميوله ووحدها فى ضوئها. وليس معنى هذا أن فَوست هو جيته فى كل ما جل ودق، ولكنما معناه أنه يمثل آراء جيته فى كبرى المسائل: فى ذهابه مثلاً إلى أن الإنسان مخلوق للكفاح، وأن طريق الخلاص هو العمل الجدى الشاق، وفيما وضعه على لسان فَوست وهو يلفظ روحه "إن الذى يستحق الحرية، كالحياة، هو وحده الذى يكون عليه أن يفوز بها كل يوم" - كما قال "تل" قبله فى رواية "شيللر": إنى لا أستمتع بالحياة إلا حين انتزعها، وأفوز بها كل يوم من جديد"، وفى رفعه العمل للخير العام فوق المصالح الأدبية وتقديمه عليها، فقد كانت رواية فَوست كما صاغها جيته درساً للأمة الألمانية بما أعربت عنه من

الشوق إلى العمل فى عصر كان فقيراً فى الأعمال، فقام الكتاب بعده[٣٩] يرددون صوته وينعون استيلاء المباحث النظرية على هوى النفوس وميول القلوب، ويعللون ذلك بحرمان الشعب الألمانى من الاشتراك فى إدارة شؤونه ويقولون إن طول هذا الحرمان أفقده القدرة على التصرف العملى، وألجأه إلى إدارة عينه فى نفسه والنسج من خيوط أمعانه.

وبعد فليس هذا محل الكلام على فَوست، ولا كان هذا ما قصدنا إليه. ولكن الكلام فتح بعضه بعضاً، وقد أردنا أن نقول إن كون واحد قد تناول موضوعاً لا يوصد باب الاجتهاد ولا يمنع التوليد، وفى تاريخ قصة فَوست وما تطورت إليه فى أيدى من تعاقبوا عليها شاهد وعبرة، والعود إلى ارتياد المطروق قد يفضى إلى الكشف عن لقية نفيسة ومعدن كريم، وأين ذلك الغائص الذى يسعه أن يطفو بكل ما فى درك اللجة؟؟

---

(٣٩) مثل البارون فون شتين. (المازنى).

تاريخ الحركة القومية[٤٠]

(٢)

الثورات ونظرية "المعدة"

يقول "جيته" بلسان "فَوست" فى روايته الخالدة الملة: "الأزمنة الماضية كتاب عليه سبعة أختام، والذى تسميه "روح" تلك الأزمان ليس فى الحقيقة سوى روحك أنت، وفى مرآتها تبصر تلك العصور".

وهذا هو الذى ينظم التاريخ فى سلك الفنون أو يجعله أقرب إليها وأشبه بها منه بالعلوم، وقد يكون من المشكوك فيه جدا أن يستطيع إنسان أن يرى شيئًا ما إلا من خلال نفسه أو أن يسعه أن ينحى عن عينه هذه "المرآة"، وأن لا يدع صورته المحببة كما تبدو له فيها، وانعكاس الأضواء على صفحتها، تزيغان بصره. وللإنسان عذره إذا أعياه هذا التجرد، وعزه أن يكون إلا ابن زمنه ومن مخلوقات عصره. وقد خطر لى وأنا أطالع "تاريخ الحركة القومية" للأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك أن أجرب هذا التجرد أو على الأصح أن أتتبع ذهنى وهو يكون آراءه فى الكتاب ويؤلف الصور عن ذلك العصر الذى يتناوله، وأن أتبين من أين أجىء بالألوان التى أفيضها على الصورة، فقلت: فى هذا الكتاب وصف لنظام الحكم فى عهد المماليك ومظاهره، ولنظام الملكية والضرائب والقضاء وللحالة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وهى حالة زرية تغثى النفس وتكرب الصدر، فإلى أى شىء أقيسها؟ لا إلى نفسها، بل إلى العصر الذى أنا

---

(٤٠) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٩ مارس سنة ١٩٢٩، (ص١٢).

فيه وإلى المقاييس التى اعتدت أن أحكم بها. فأنا أقابل حالة التعليم التى وصفها على باشا مبارك بقوله:

"من ابتداء القرن التاسع إلى القرن الثانى عشر - يعنى مدة ثلاثة قرون - قد أهمل أمر المدارس، وامتدت أيدى الأطماع إلى أوقافها، وتصرف فيها النظار على خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا فى مفارقتها وصار ذلك يزيد فى كل سنة عما قبلها لكثرة الاضطربات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع التدريس فيها بالكلية، وبيعت كتبها وانتهبت، ثم أخذت تتشعث وتتخرب من عدم الالتفات إلى عمارتها ومرمتها، فامتدت أيدى الناس والظلمة إلى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها حتى آل بعض تلك المدارس الفخمة والمبانى الجليلة إلى زاوية صغيرة تراها مغلقة فى أغلب الأيام وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشًا وغير ذلك، ولله عاقبة الأمور".

أقول إنى أقابل ذلك الزمن الذى كانت تنقلب فيه المدارس "زرائب" للحيوان وتهجر فيه أبنيتها وتسرق أبوابها ويقتلع رخامها؛ بهذا العصر الحاضر الذى يعمر فيه خراب العقول، وتقلب فيه المنازل مدارس وتبنى فيه المعاهد وتغدق عليها أموال الكرماء وتحبس عليها الأوقاف وتفرض لها الضرائب - وأتأمل الخطين: طريق التقدم الذى نسير فيه ونحتث عليه خطانا، وطريق التقهقر والتراجع الذى كانت تركض فيه البلاد مولية منهزمة، وعلى هذا أقيم حكمى وأبنى رأيى. ومن هذا وذاك أؤلف الصورة وألونها. وعلى هذا فليقس القارئ فما أردنا سوى التمثيل.

وكتاب الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعى، كما هو ظاهر من عنوانه، موضوع ليجلو مسألتين: نشوء الحركة القومية، وتطور نظام الحكم فى مصر، وقد جره البحث فى الأولى إلى الثانية؛ لأن "سياسة الحكم وأساليبه" - كما يقول فى المقدمة - "كانت فى مختلف العصور والبلدان من الأسباب الرئيسية لظهور الانقلابات والحركات القومية، كما أن لهذه الحركات أثرًا فعالاً فى تطور نظام الحكم بحيث تجد بينها اتصالاً طبيعيًا يجعل الاشتراك فى بحثهما أمرًا لا مندوحة عنه؛ لذلك جعلت دراسة نظم الحكم فى مصر وتطورها قسمًا من أقسام الكتاب وأومأت إليه فى عنوانه".

وهذا هو الجديد فى كتابه وتلك مزيته وهو بهذا يصحح خطأ شائعًا بين أنصاف المتعلمين أو هو – إذا آثرت هذا التعبير – ينبه إلى حقيقة يهملها هؤلاء ولا يكلفون أنفسهم تمحيصها، وما أكثر من يتوهم أن الحركة القومية المصرية ترجع إلى عهد الاحتلال الإنجليزى أو على الأكثر إلى الأيام التى انتهت بالثورة العرابية، وحتى الذين يردونها إلى عصر الثورة العرابية لا تعدم منهم من ينكر على تلك الثورة بواعثها القومية ويعزوها إلى المنافسة بين العنصرين التركى والمصرى فى الجيش وحسد هذا لذاك، وهى نظرة سطحية لو أخذنا بها وقسنا عليها لما بقى فى الدنيا سوى شيء واحد هو "المعدة"، ولصارت المعدة هى الأول والآخر والظاهر والباطن. وماذا كانت الثورة الفرنسية الكبرى نفسها إذا نزلنا على حكم هذا المنطق؟ ماذا كانت أسبابها المباشرة؟ يقول المؤرخون إن هذه الأسباب تنحصر على الإجمال فى إسراف أسرة بوربون وظلمها وطغيانها، وفى الامتيازات الجائرة التى كان يتمتع بها النبلاء وكبار رجال الكنيسة، وفى سوء حالة الشعب، وفى الروح الثورية التى أفشاها الكُتَّاب الفرنسيون، ويزيدون على ذلك عدوى الثورة الأمريكية.

فما هى مظاهر الظلم البوربونى؟ كان من مظاهره أن حياة أفراد الشعب وأموالهم كانت رهنًا بمشيئة الملك، وكان الناس يغيبون فى السجون من غير أن يعرفوا لماذا اعتقلوا وأى ذنب جنوا، وكان الملك يوقع أوامر القبض ويترك مكان الاسم خاليًا ويعطى محاسيبه وذوى الحظوة عنده هذه الأوامر ليستخدموها ضد من شاءوا من خصومهم، وكانت الضرائب تفرض بإرادة الملك وتصيب الفقراء أكثر مما تصيب الأغنياء، وكانت تجبى على طريقة يذهب بها نصفها أو ثلثها إلى الجباة وكان ما يدخل الخزانة منها ينفق جانب كبير منه على اللهو والمفاسد، وكان النبلاء يملكون نحو خمس الأرض ولهم حقوق إقطاعية على جانب كبير مما يملك الفلاحون وكانوا لا يؤدون ضريبة، وكان ثلث الأرض فى أيدى رجال الكنيسة وهذا الثلث أيضًا لا يجبى منه مال للدولة، وكان جمهور الفلاحين كأنما وجد ليؤدى الرسوم للنبلاء والعشور للقساوسة والضرائب للملك، وكان محرمًا عليهم أن يحيطوا حقولهم بسياج يحمى زروعهم؛ لأن السياج أو الحواجز تعترض النبلاء حين يخرجون للصيد وتعطلهم، ولم يكن يسمح لهم

أن يقصوا الحيوان الذى يتخذ للصيد عن زروعهم بل كان محرمًا عليهم أن يزرعوا أرضهم فى بعض الفصول لأن زرعها يزعج الحيوان والطير ويفسد الصيد على النبلاء. وعليهم فوق هذا أن يحتملوا منظر النبلاء وحاشيتهم وكلابهم وهم يدوسون حقولهم ويتلفوها، وأن يشكروا الله ويحمدوه؛ لأنهم ليسوا بعض ما يصاد. ولم يكن من غير المألوف أن يموت الرجال والنساء والأطفال جوعًا فى الغابات أو على الطريق؛ حتى قال فينيلون للويس الرابع عشر: "إن شعبك يموت جوعًا، وبدلاً من انتزاع المال من هذه الخلائق التعسة يجب أن يعطوا الثياب والطعام؛ فقد صارت فرنسا مستشفى ضخمًا حافلاً بالأسى خاليًا من الطعام".

وماذا كانت خلاصة التعاليم الثورية التى بثها أدباء فرنسا وكُتَّابها؟ الاحتجاج الحار على مظالم ذلك العهد!

وبدأت الثورة وقامت الجمعية الوطنية أو التأسيسية وتألف الحرس الوطنى وهوجم الباستيل وسقط وألغيت الامتيازات التى كانت للنبلاء ورجال الكنيسة، وأعلنت حقوق الإنسان، وطلب الشعب أن ينتقل الملك من فرساى إلى قصر التويلرى فى باريس، وسار الموكب يحف به الحرسان الوطنى والسويسرى وتزحمه جماهير الغوغاء، وحول مركبة الملك والملكة وولى عهدهما النساء يرقصن ويصخبن ويتوثبن فوق مركبات المدافع ويمتطين جيادها ويسخرن من الملكة ويعانقن رجال الحرس ويرفعن العقائر بأخشن الأغانى ويصحن "سيكثر الخبز الآن؛ فقد جئنا بالخباز وزوجة الخباز وابن الخباز".

فهى المعدة التى أطلقت الثورة الفرنسية إذن، ومدت موجتها شرقًا وغربًا، تنشر الحرية وتقوض صروح الظلم والاستبداد وتسوى بين الناس وترفع منار العدل وتقيم سيادة الشعب، وتجعل الحكومة للمحكومين وبإرادتهم واشتراكهم!

والثورة المصرية الأخيرة ماذا هى إذ أخذنا بهذا المنطق؟ لم تكن ثورة وطنية غايتها تحرير البلاد وفك رقاب أبنائها، وإنما كانت غضبة سخط وتمرد على ما احتمل الناس فى خلال الحرب من اعتقال وسجن ومن الاستيلاء على المواشى والدواب

والمحاصيل ومن تقييد لحرية الكلام والكتابة ولمواعيد السهر، ومن غلاء المعيشة وارتفاع أثمان الحاجات الضرورية كالقمح والزبدة والسكر ولا شيء غير هذا يرحمنا الله!

كذلك ثورة القاهرة على عهد نابليون ثم في عهد خلفائه على الجيش لم يكن ثم من باعث عليها إلا مصادرة الأملاك وهدم المباني وابتزاز الأموال وإزالة البوابات التي كانت تفصل بين الأحياء، وفرض الرسوم وإرهاق الأهالي بتكليفهم رش الشوارع وتعليق المصابيح على أبواب بيوتهم في الليل وتغريمهم إذا لم يفعلوا ذلك.

كلا! هذه نظرة تمسخ الإنسان كرشًا وتحيل رأسه الذي بين كتفيه معدة أخرى لا أداة تفكير وفهم ونظر وتدبر. وما من ثورة إلا ولها عللها المعنوية، أما الأسباب المباشرة فهذه كالقشة التي تكسر ظهر البعير، فليست هي السر أو الباعث الخفي والحافز القوي الذي يعم التأثر به ويقل التفطن إليه في حينه، وإنما هي الزيادة التي لا [...][٤١]، والإضافة التي لا توافق استعداداً من النفوس للقبول. ولقد صبرت كل دولة مقاتلة في خلال الحرب العظمى على أهول وأفدح مما أصابنا، وعانت من الخسارة في الأرواح والأجسام والأموال ومن الكرب والضيق وامتداد ليل اليأس وبعد الإيذان بالأمل والبشرى بالانفراج، ما لم نكابد منه خردلة، ولكن تلك الأمم صبرت أجمل الصبر على ما قاست؛ لأنه في سبيل حياتها ومن أجل وجودها وعزتها وبإرادتها الحرة. أما نحن فقد حرمنا هذا العزاء ولم يكن لنا من سبيل إلى مثل هذا التأسي. ومن هذا القبيل ما جر إلى الحرب التي انتهت باستقلال الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أراد برلمان الملك جورج الثالث أن يفرض على هذه الولايات ضريبة يستعين بها على سد نفقات الدفاع عن المستعمرات البريطانية. ولم تكن الضريبة فادحة، ولكن الولايات أبت أن تؤديها من غير أن يكون لها رأي في تقريرها، وقالت إنها لا تكون عادلة إلا إذا قررتها مجالسها التشريعية لا مجلس أجنبي عنها، فأدى ذلك إلى الحرب دفاعًا من هذه الولايات عن حقوقها وحرياتها لا استثقالاً للضريبة في ذاتها.

---

(٤١) كلمة ساقطة أو ممسوحة من الأصل المتاح! (المحرر).

وبعد فقد تختلف الآراء فى تعيين العصر الذى بدأ فيه نشوء الشعور القومى المصرى كما نفهمه الآن وقد يتقدم به كاتب إلى ما قبل الغزوة الفرنسية ويتأخر به غيره عنها، على أنه لا خلاف فيما نظن على أن هذا الشعور القومى كان موجوداً فى كل عصر ولكنه ظل كامناً فى الفترات الطويلة؛ لأن سيرة الحكام الذين تعاقبوا على البلاد كان من شأنها أن تضعفه أو تخنقه، ولأن ما مر عليها لم يكن يستثير دفينه ويوقظ نائمه. ومما يغلط المرء فى هذا الشأن حين يقلب صفحات الماضى أنه لا يجد مظاهر "الشعور" بهذا الشعور القومى على نحو ما هو حاصل الآن فى زماننا هذا، وأنه يخطئ فى حوادث هذا الماضى آيات الإدراك الحديث لمعنى الوطن، ولكن كون الناس فى تلك الأزمنة السالفة لم يعتادوا أن يذكروا كلمة "الوطن" ويجروها على ألسنتهم ليس معناه أنهم كانوا لا يحسون أن لهم وطناً أو أن لهم قومية متميزة بطابعها المصرى الخاص، فإن إنكارنا لوجود هذا الإحساس الوطنى الذى كان ينقصه التعبير لا الوجود، يفضى بنا إلى إنكار هذه القوة التى وسعها أن تحافظ على الصبغة المصرية وطابعها الخاص، بل التى وسعها على كل ما مر عليها من الحقب الحافلة أن تدمج فى نفسها كل دخيل وأن تفنيه فيها وتطبعه بطابعها وتمصره. فكل ما هنالك من الفرق هو أن شعورنا القومى فى العصر الحاضر وُفق إلى العبارة عنه، أو هو شعور تم بالإدراك. أما هذا الشعور فى العصور الماضية فكان يعوزه التعبير، أو هو، كما يقول الغربيون، لم يكن قد فطن إلى نفسه ووجدها.

ومن هنا مزية التاريخ الذى يضعه الأستاذ عبد الرحمن بك الرافعى، والذى يبرز فيه مظاهر هذا الشعور وبواعثه وحركاته، ويؤكده ويضع أصبع القارئ عليه، ويتعقبه فىَّ حيثما يبدو وينفض عنه التراب ويجلوه ويرفعه قِبل العيون، هذا إلى مزية أخرى هى التمحيص والتحقيق وقد وفق فى ذلك توفيقاً يهنأ به ويحمد عليه، فجاء كتابه فاتحة عهد جديد فى التأليف التاريخى ورسالة محبوكة ممتعة من الماضى إلى الحاضر.

زينب[٤٢]

(١)

الصراع بين الواجب والعاطفة

أحب الروايات لأنى أحب الأحلام، وما أكثر ما يحير فى الأمر أذكره: أهو بعض ما اتفق لى أم ما حلُمت به؟ ولقد التهمت فى حداثتى - غير ألف ليلة وليلة - حكاية سيف بن ذى يزن، وقصص المردة والشياطين وحروب علىّ كرم الله وجهه مع الجان، وما أحسب هذه إلا بعض أحلام الإنسانية بالقدرة التى لا تحد ولا يحول دون إرادتها وتصرفها حائل من المادة.

على أن حبى للروايات راجع إلى سبب آخر أعمق، ذلك أنى أحب الحياة وأجهلها وأشتاق أن أعرفها، وليست الأحلام فى مرد أمرها إلا أداة لسد النقص فى حياة الإنسان وملء الفراغ فى تجاربه ومعرفته، والرجل الذى خبر الحياة وخاض لججها لا يكاد يحتاج أن يحلم، وليس كذلك المحروم "المحلأ" عن مواردها، وهذا بعض الفرق بين رجل العمل ورجل الفكر، أو رجل الإرادة ورجل الأحلام، وهل التفكير إلا ضرب من الأحلام؟

ومن حبى للروايات وإقبالى عليها وشغفى بها هممت - فى فاتحة عهد اشتغالى بالأدب - أن أضع رواية، واخترت لها عصر الرشيد، وكتبت منها فصلاً أو فصلين

---

(٤٢) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٢٧ إبريل سنة ١٩٢٩، (ص٥).

قرأهما صديق لى فأثنى عليهما مخلصًا أو منافقًا، غير أنى مزقتهما وانصرفت عن هذا العبث، وكيف أحسن تصوير عصر الرشيد وأنا لو حاولت تصوير العصر الذى أعيش فيه لأعيانى الأمر وعزنى مطلبه وماذا أعرف أنا من الحياة وأنا امرؤ غادر المدرسة طالبًا وعاد إليها معلمًا؟؟ كلا! لا بد من درس الحياة أولاً. وهكذا كان، ولكنى مع الأسف ذهبت أدرسها من الكتب فضاع عمرى سدى واحتجت أن أعود أدراجى إلى الدنيا.

وظهرت رواية "زينب" وأنا دفين بين الكتب، فلم أقرأها وإن كنت قد عرفت مما سمعت أنها للدكتور هيكل (بك) ولم أزهد فيها استخفافًا بها بل خوفًا منها، ذلك أنى سمعت أنها مكتوبة باللغة العامية لا العربية الصحيحة، وليس هذا بصحيح، ولكنى صدقته يومئذ، وكنت قد آليت ألا أقرأ من الكتب إلا ما هو مكتوب بلغة جيدة، وأمضيت العزم على ذلك صارمًا؛ وعلة ذلك أنى كنت يومئذ "مدرس ترجمة"، ولغة التلاميذ ركيكة ضعيفة محشوة بالأغلاط، وكان عملى يضطرنى أن أراجع وأصحح أكثر من مائتين من كراسات هؤلاء التلاميذ، فخفت أن آلف الركاكة والضعف على الأيام، وأن يجر ما لابد منه من التسامح معهم إلى التسامح مع نفسى فيهبط مستوى كتابتى وينحط أسلوبى ويعتوره الوهن من بعض جهاته فيفقد الاستواء ويعود كالطريق الذى لم يعبد، بعضه سهل وبعضه حزَن، ولا تكاد القدم تطمئن إلى انتظامه مسافة حتى تعترضها الحفر والنقر، وتلك آفة التدريس، فإن المدرس من طول تحريه أن ينزل إلى مستوى العقول التى يلقنها قد يهوى هو نفسه إلى هذا المستوى بعد أعوام إذا قصر فى الإطلاع أو كسل عنه. ومن أجل هذا أقسمت ألا أقرأ من الكتب إلا أقواها وأسماها وأمتنها. ومن هنا تشددى فى النقد تلك الأيام، ولا يزال تلاميذى يذكرون لى ما كانوا يكرهونه من صرامة أحكامى عليهم وقسوتى فى تقدير الدرجات لهم.

هذا ما كان من أمرى مع "زينب" فبقيت أجهلها بل نسيتها كل هذه السنوات، وألفت رواية أتممتها منذ عام، ولا أزال أكر إليها بالتنقيح والتهذيب وأتلكأ غير مستعجل نشرها؛ لأنها فى ظنى أول رواية مصرية، فما أجدرنى بالعناية بها مخافة أن تولد ميتة

أو أن يجىء أول القصيدة كفراً. وظللت متعلقًا بهذا الوهم حتى بددته الطبعة الثانية من "زينب" فحرمنى الدكتور هيكل ما لعلى كنت أتعزى به وأعتذر أيضًا لو ساء القراء فى روايتى بعد نشرها.

وأهدى إلىّ الدكتور هيكل (بك) نسخة منها فتقبلتها شاكراً، ولكنى لا أكتمه ولا أكتم القراء أنى حرت: أمن واجبى أن أغتبط بظهور الرواية المصرية أم أتسخط فقد المزية التى كنت أعتقد أنها مدخرة لى؛ أعنى أن أكون أنا، كما كنت أتوهم، أول روائى مصرى بالمعنى الصحيح، ولم تطل حيرتى؛ فقد سبقنى هيكل (بك) وتقدمنى فى هذا الطريق غيره أيضًا ممن لا يدانونه، ولا حيلة فى ذلك، ولا معنى للأسف من أجله، وفى وسعنا جميعًا الآن أن ننتفع بما مهدوا، والإخلاص للأدب أسمى وأجمل وأجل أيضًا من الإخلاص للنفس، إذا صح أن الأنانية الحمقاء من الإخلاص للنفس فى كثير أو قليل. وعلى أن التعزى لم يوصد بابه، ففى مقدور كل امرئ أن يحدث نفسه؛ فيقول إن السبق وحده ليس هو المزية، فقد يدرك اللاحق السابق ويفوقه أيضًا ويخلفه وراءه لولا أن تقول: "هيهات! هيهات! لقد سبقت والسلام ولا خير فى عزاء هو بالوهم أشبه وإلى التغرير أقرب".

وكنت مرة مع الدكتور هيكل (بك) فدخل عليه "شيخ" شاب، دار بينهما كلام فى شأن لا يعنينى، ثم قال الشيخ وقد هم بالانصراف:

"تسمح سعادتك ببضع نسخ من الكتاب".

وخيل إلىّ الدكتور هيكل لم يفهم مراده كما لم أفهمه، فقد كان الطلب مفاجئًا والتفت إليه هيكل (بك) يسأله: "أى كتاب"؟

واضطرب الشيخ قليلاً واحمر وجهه وتلعثم وهو يقول:

"كتاب... أ... زينب هانم"!

فانفجرنا ضاحكين وتبسط الدكتور هيكل؛ فقال:

"أتراك تظن أن زينب هذه قريبتى"؟

كلا، ليست زينب هذه "هانمًا" ولا شبهها، وأنها لم تكن من أجل ذلك أقل استيجابًا للاحترام والعطف، وإنما هى فتاة من صميم الريف تعمل فى الحقول كسواها من الرجال والنساء بأجر لا يكاد يسد الرمق، وتنام فى الحقل أحيانًا إلى منتصف الليل، ثم تقوم إلى عملها، وترسل فى فحمة الليل صوتها الريان فتجيبها العاملات، فتكون "تلك موسيقى الصيف فى ليله البديع ترسل فى أذن الخلفية النائمة نغمة الهوى وتبعث فى قلوب العاملين العزاء عن ليلهم الساهر". وتُحِبُ زينب وتُحَبُ، تحب رجلاً من طبقتها فيزوجها أهلها من سواه - رجلاً لا تحبه، ولكنها تفى له وتغالب كمدها ولوعتها، ويسألها السائلون "ما لها" ويلحون عليها أن تكاشفهم بما تطوى عليه أضالعها من الهم وما يجن صدرها من الأسى فلا تزيد على "مفيش" ويلقاها رفقاء صباها فيلقونها "الزوجة المحملة بالمسئولية الناظرة إلى الحياة بعين اليائس المتألم والمرأة المحسة بواجبها نحو رجل ائتمنها "فلا دعابة ولا هزل ولا مرح مما كان فى الليالى السوالف، ويذكرها الفتى منهم بتلك الأيام الخوالى، وإن كان العهد بها قريبًا، فتكتفى بأن تقول:

"لا مانسيتش، لكن أنا أجوزت"

ويوشك أن يذهب حبيبها الذى ضرب الدهر بينها وبينه - إلا لقاءً فى الطريق لا ينفع غلة ولا يبل أوامًا - إلى السودان مجندًا، فيحن جسمها إلى جسمه، وتلح بها الصبوة إليه "لتأخذ منه كل ما تقدر فى هذا الأسبوع الباقى".

ولكنها مع ذلك، وعلى الرغم من ذلك تقنى حياءها وتتحفظ بشرفها وتصر على الوفاء لزوجها الذى يثق بها ويطمئن إليها، ويصيبها السل فلا تباليه ولا تنقطع عن عملها ولا تكف عن الخروج فى البكرة المطلولة لملء جرتها. ويستفحل الداء ويتفاقم الشر وتموت بين ذراعى أمها. وحتى فى هذه الساعة لا تبوح لأمها بما قتلها كتمانه وأذوتها لواعجه، ولا تزيد على أن تطلب "أن تأتيها بمنديل محلاوى موضوع فى صندوقها" (كان قد سقط من إبراهيم الذى تحبه يوم سفره فاحتفظت به) وتقبل المنديل وتوصى أن يدفن معها بلا شرح ولا تعليل.

فأى مزية "للهوانم" على هذه الفتاة الريفية الساذجة؟ وكم "هانم" تقوى على هذا العراك العنيف بين الواجب والإحساس وتخرج منه ظافرة كزينب وإن كانت المغريات لا آخر لها وراحة الأعصاب بالخيانة سهلة ميسرة؟ الزوج واثق مطمئن والتقاليد لا تلزم الزوجة أن تتحصن بجدران دارها، وهى تحمل عبء البيت وتغادره متى شاءت لقضاء حاجاته فى الصباح وفى المساء ومتى أحبت، وليس من المحرم ولا من المعيب أن تلقى الرجل من معارفها فى الطريق فتلقى إليه التحية وتسايره وتتحدث إليه. وجسمها يصبو إلى إبراهيم الذى تحب لا إلى زوجها حسن، وأعصابها تتمزق حرقة وحنيناً، ودماؤها تتقد فى عروقها التى تكاد تتفجر من قوة الضغط، وشبابها يصرخ ويصيح بها أن لا تقتله، وحبها يهتف أن تستمتع بضمة أو قبلة بل أن تبذل نفسها ولو مرة واحدة لإبراهيم ثم تتخذ من هذا البذل ذخراً تتعزى به على الأيام وواحة سلوان تلوذ بها وتستريح إليها وتأنس كلما كربها الإحساس بالصحراء التى تذوى فى جدبها شبابها وتخلق فى فيافيها جدتها ونضرتها وتريق على رمالها الظامئة المحترقة حياتها قطرة قطرة. ولكنها كلما حدثتها نفسها بأن تطيع صباها، وأن تذعن لمطالب جسمها ردها الشعور بالواجب وأدركها العطف حتى على زوجها الذى لا تحبه ورقت له نفسها وتمنت لو استطاعت أن تجزيه حباً بحب، وآلمها أن "لم يتهيأ قلبها لحبه"، وأن الله لم يضعه فى طريقها حين بدأت تجد فى كل إنسان محبوبها لعلها كانت تجد فيه من يملأ وجودها".

والواقع أن الرواية كلها عراك قاسى بين الواجب والعاطفة، وهذا أبرز ما يكون فى نفس زينب، ولكن مظاهره واضحة أيضاً فى نفس إبراهيم الذى تحبه، فقد كان صديق حسن الذى كُتبت زينب من نصيبه، وهم - أى إبراهيم - أن يخطبها، ولكنه أحجم لأنه قدر بحق أن نتيجة ذلك ستكون بلا ريب أن يخسر حسناً ولا يفوز بزينب، فما من المعقول أن يرتضيه أبوها ويؤثره على حسن وهو أغنى وأحسن حالاً. وليس أجمل من الصداقة العفيفة التى ظلت قائمة بين هذين الرجلين على الرغم من حب إبراهيم لزوجة صاحبه، إلى آخر ليلة يبيتها إبراهيم فى بلدته ويقضيها معه حسن، بل حتى إلى ما بعد سفره مع فرقته إلى السودان، فما يختص برسائله سوى حسن ثم هو يحمل على نفسه فيهمل أن يذكر زينب فى رسائله.

كذلك حامد الطالب المتعلم وابن الرجل الذى تعمل فى أرضه زينب وإبراهيم وغيرهما من العاملات والعمال - جذبه جمال زينب أيامًا وأغراه شبابه بمغازلتها فطوق خصرها وقبلها فتفلتت من عناقه فأحس "بقشعريرة تعلو كل جسمه. كانت أولاً قشعريرة الرغبة ثم انقلبت مرة واحدة قشعريرة العظمة والترفع... وصعدت إلى وجهه حمرة الخجل". ولقيها مرة أخرى على سطح بيت فيه عرس فأدركه العطف عليها فى وحدتها ورق قلبه لها وتجافى بنفسه عن مغازلتها.

وأحب ابنة عمه "عزيزة" ولم يستطع أن يكاشفها بهواه مشافهة فكتب إليها فردت عليه تجيبه بمثل ما عنده، وهو الرجل، ومع ذلك ضاقت به الحيل ولم يجد السبيل إلى الخلوة بها ليفضى إليها بما فى نفسه ويبثها حبه، حتى احتالت هى له، وحتى فى شبه الخلوة التى أتاحتها له لم يحسن اغتنام الفرصة، ثم زوجها أبوها من غيره فساء وقع ذلك فى نفسه، ولكن الشباب هو الشباب، فما أسرع ما ألقى نفسه مشغوفًا بسواها، غير أنه لم يسلها على الحقيقة وإنما عرته نوبة - من أثر الصدمة - فطغى به الشعور بالرغبة فى زينب - فى زينب الأنثى ذات العين النجلاء والخد المتورد واللون القمحى والجسم الغض والقوام اللين والخصر الدقيق والبنان الرخص، لا فى معنى السعادة التى كان يرجوها والغبطة التى كان يجدها من عزيزة ابنة عمه، غير أنه رد نفسه على مكروهها وصدها عن تعقب زينب، فحميت المعركة فى نفسه وغاب عقله لحظة، وانطفأت شعلة ذكائه هنيهة، فمضى إلى شيخ طريقة زار بلدته فاعترف له بالصراع الذى يعانيه وأخذ منه عهداً، [فهدأت] تأثراته زمنًا ثم هاج هائجة وعظم سخطه حتى على نفسه؛ لأنه "اعترف لإنسان بهواجس صدره وكمين قلبه. اعترف بها لمن لا يفهمها ومن لا يجيب عنها إلا بكلمة (نعم) ولا يقدر له على شىء. أليس عاراً أن يتعهد الإنسان مثل هذا الأبله بأن يعمل خيراً؟ ألم يدس بذلك على شرف نفسه وضميره؟"

وبعد شهر من عودته إلى القاهرة اختفى من البيت وترك لأبيه رسالة يشرح له فيها قصة هذا الصراع بين عقله وهواه، وواجبه وعواطفه، ثم أردفها برسالة أخرى أنبأ أباه فيها أنه يعيش "اليوم عيشاً رغداً وأعمل فأجنى من جبينى ما يقيم حياتى".

فهذا مثال آخر لهذا الصراع. وما أظن بحامد هذا إلا أنه يمثل آراء الدكتور هيكل فى شبابه، وما أراه إلا أحسن التصوير وصدق فى الوصف، فإن هيكل (بك) كما أعرفه لينفتح أمامه الطريقان؛ فيؤثر طريق الواجب على ما عداه. وقد كان من المعقول أن تجيء الرواية التى يصفها فى شبابه هكذا: نزاعًا عنيفًا بين العقل والعاطفة، والواجب والهوى، فإن الشباب هو وقت هذا النزاع، وأيامه هى الأوان الذى تَحمى فيه، وعهده هو الزمن الذى يطول فيه التردد ويشتد الاضطراب وتعظم الحيرة. وقد تمتد هذه الحيرة ويطول أمد التردد إلى آخر العمر. وأى مفكر لا يتردد، وأى نفس حساسة لا يساويها الاضطراب.

هنا نقف اليوم، فما لما تثيره هذه الرواية الزاخرة القوية من المسائل آخر.

زينب[٤٣]

(٢)

فن الرواية - تصوير الريف - الحوار واللهجات العامية

قال لى صديق مرة، وقد علم أنى أهم بوضع رواية أعالج كتابتها، إن الرواية فن لا يليق بك ولا يناسب مركزك الأدبى، فصدمنى هذا الرأى ولكنى كنت أعرف من صديقى الجد والإخلاص وصدق السريرة؛ فلم يسعنى إلا أن أشكر له بواعثه، وأن أعرب له عن احترامى لها. وكان صديقى كلما لقينى بعد ذلك وعرضت مناسبة يسألنى عن الرواية: ألا أزال مصراً على وضعها ماضياً فى تأليفها؟ فأقول "نعم" ولا أزيد، فيهز رأسه أسفًا مشفقًا، وتفيض نفسى بحبه وشكره على رأيه فى "أدبى" هذا، وإن بقيت أمقت منه سوء رأيه فى فن الرواية. ومضت السنون وهو على إشفاقه وأنا على إصرارى، وأنستنى الأيام هذا وذاك حتى ردتنى هذه الجملة من "تقديم الطبعة الثانية" لرواية زينب وفيها يقول هيكل (بك):

"نشرت هذه القصة للمرة الأولى فى سنة ١٩١٤ على أنها بقلم مصرى فلاح. نشرتها بعد تردد غير قليل فى نشرها ووضع اسمى عليها. فلقد بدأت كتابتها فى باريس فى إبريل سنة ١٩١٠ وفرغت منها فى مارس سنة ١٩١١ ... وكنت فخوراً بها حين كتابتها وبعد إتمامها معتقداً أنى فتحت بها فى الأدب المصرى فتحًا جديداً. وظل ذلك رأيى فيها طوال مدة وجودى طالبًا للحصول على دكتوراه الحقوق بباريس.

(٤٣) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٤ مايو سنة ١٩٢٩، (ص٥)

فلما عدت إلى مصر فى منتصف سنة ١٩١٢، ثم لما بدأت أشتغل بالمحاماة فى الشهر الأخير من تلك السنة، بدأت أتردد فى النشر، وكنت كلما مضت الشهور فى عملى الجديد أزداد ترددًا خشية ما قد تجنى صفة الكاتب القصصى على اسم المحامى. ولكن [الفتى] لهذه الثمرة من ثمرات الشباب انتهى بالتغلب على ترددى ودفع بى لأقدم الرواية إلى مطبعة "الجريدة" كى تنشرها، وأرجأت نشر اسم الرواية ومؤلفها وإهدائها إلى ما بعد الفراغ من طبعها، واستغرق الطبع أشهرًا غلبت فيه صفة المحامى ما سواها، وجعلتنى أكتفى بوضع كلمتى "مصرى فلاح" بديلاً من أسمى".

والجوهر فى الحادثتين واحد وإن اختلف الزمن والأشخاص. والعجيب أن يكون واحد من المستخفين بالرواية ممن يقرأون سكوت ودكنز وثاكرى ومريديث وكونراد وتوماس هاردى وجويته ودوستويفسكى وترجنيف وهارتزيباشيف وسرفانتس وإيبانز وأناتول فرانس ومئات غيرهم من الروائيين – ويعجبون بهم ويكبرونهم، بل مما يباهون بقصص ألف ليلة وليلة، وتكون الروايات هى أكثر ما يقرأون وأحب ما يطالعون. منها ينظرون إلى الحياة، وعلى ضوئها يدرسون الدنيا، وفى مزاياها يبصرون أنفسهم وما حولهم، وبها يسدون النقص فى تجاريبهم، وعنها يتلقون آراءهم، وإذا سألتهم من أعظم الناس قالوا فلان أو علان من هؤلاء الروائيين، وتخطوا رجال الحرب والسياسة والعلم والشعر والفنون من تصوير وحفر وموسيقى؛ لأن الروائى يخلق دنيا ويعمرها ويجرى فيها الحوادث ويسلسلها ويعرض النفوس ويكشف عن أخفى خفاياها ويبلغ بك أعمق أعماقها ويريك الحياة من كل جانب ويبيحك أسرارها ويطلعك على قواميسها ويفتح العين على صور من الجمال والجلال والحق والشر والخير كانت تعمى عنها ولا تأخذها. ويتناول المسائل التى يعالجها من نواحيها الخالدة، ويجعل شعورك بكل شىء أدق وإدراكك كله أصح وتقديرك له أوفى وحكمك عليه أسد، ومع ذلك وعلى الرغم من ذلك يستقل لك أن تكون روائيًا؟؟

وتسأله: أأنت تحتقر الحياة؟ فيستعيذ بالله، ويعد ذلك منك إساءة إليه، وكيف يحتقرها وهو بعض مظاهرها؟ ولكنه لا يسأل نفسه كيف أذن لا يجب لك أن تصور جانبًا أو جوانب من هذه الحياة الضخمة الرائعة وأن تقتطع له بعضها وتبرزه وتؤكده وتلونه؟

وتقول له ما الحياة نفسها إذا لم تكن قصة طويلة لا تزال فصولها تتعاقب وتتعقد وتنبسط وينكشف منها جانب بعد جانب؟ وما تاريخ الإنسانية كلها بحروبها وسياساتها وأهوالها وفظائعها وخيرها وشرها؟ أليست رواية وجهود ومغامرات وآمال وحماقات وتطاول من غرور الإنسان على سطوة الأقدار؟ إن الحياة – وهى أكبر من الكون وأسبق أيضًا – هى الرواية الكبرى، من الذى لا يشتاق أن يطالع منها كلمات أو سطوراً من فصولها الضخمة، أين من لا يلح به الحنين إلى نظرة واحدة قصيرة من أضيق ثقب، إلى السر الأهول، يتزود بها بقية العمر ويتعلل وهو يخطو مثقل القدمين زائغ البصر فى فيافى الجهل؟

والعالم روائي، والسياسي روائي، ورجل الحرب كذلك والشاعر والفيلسوف والمصور والمثال والموسيقى، ليس منهم إلا من هو صاحب قصة – هذا يدرسها وذاك يدبرها، وواحد يخوضها، وآخر ينشدها أو يتدبرها، ويغوص على سرها أو يرسمها أو يصوغها أو يلحنها ويغنيها.

* * *

ونرد القلم إلى "زينب" مخافة أن يصبح المقال كله استطراداً عنها، فنقول إن الروح التى كتبت بها الرواية هى التى تنم عنها هذه الفقرة من تقديم الطبعة الثانية، وذلك حيث يقول هيكل (بك):

"ولعل الحنين وحده هو الذى دفعنى إلى كتابة هذه القصة. ولولا هذا الحنين ما خط قلمى فيها حرفًا ولا رأت هى نور الوجود. فلقد كنت فى باريس طالب علم يوم بدأت أكتبها وكنت لا أفتأ أعيد أمام نفسى ذكرى ما خلفت فى مصر مما لا تقع عينى هناك على مثله، فيعاودنى للوطن حنين فيه عذوبة لذاعة لا تخلو من حنان ولا تخلو من لوعة. وكنت ولوعًا يومئذ بالأدب الفرنسى أشد ولع... واختلط فى نفسى ولعى بهذا الأدب الجديد عندى بحنينى العظيم لوطنى وكان من ذلك أن هممت بتصوير ما فى النفس من ذكريات لأماكن وحوادث وصور مصرية، وبعد محاولات غير كثيرة انطلقت أكتب زينب..

ورأيت نفسى أنفسح أمام مجالها، ورأيت مصر، تطوى وتنشر أمام خيالى مناظرها، ورأيتنى أشعر بلذة دونها كل لذة كلما سطرت صورة من صور هذا الوطن الذى أحسن إليه، ثم راجعتها فرأيتها تترجم عن الحقيقة المرتسمة فى نفسى، ولم تمض أسابيع على بدئى الرواية حتى رأيتنى اعتزمت إتمامها كما تمت لأصور فيها حياة الريف المصرى أصدق تصوير كنت أستطيعه. والعجيب أن شهوة ملكتنى لم أكن أستطيع تفسيرها، ذلك أنى كنت أفضل الكتابة ساعة الصبح على أثر يقظتى، وكنت إذا بدأت أقفلت أستار نوافذى فحجبت ضوء النهار وأضأت مصابيح الكهرباء كأنما أريد أن أنقطع عن حياة باريس لأرى فى وحدتى وانقطاعى حياة مصر مرسومة فى ذاكرتى وخيالى. أما حين كنت فى سويسرا فكثيرا ما كنت إذا بهرنى منظر من مناظرها الساحرة أسرع إلى كراسة زينب فأنسى إلى جانبها مناظر الجبال والبحيرة والأشجار... وأستعيد مناظر ريفنا المصرى وجمال خضرته الفاخرة إلخ...".

فالغرض الذى كان له التأليف هو "تصوير حياة الريف المصرى أصدق تصوير" والباعث على ذلك هو هذا الحنين الذى وصفه الدكتور هيكل (بك) بريشة الرسام لا بقلم الكاتب؛ فهل وفق وبلغ الغاية؟ لست أعرف الريف كما ينبغى أن يعرف ولا أدعى أنى خبير به خبرتى بالمدن، إذا صح أن لى خبرة تستحق الذكر، ولكنى أقول إذا لم يكن هذا الذى وصفه الدكتور هيكل هو الريف فما أحقه بأن يكون! وعلى أن صاحبًا لى من الريف قال لى بعد أن اطلع على "زينب" إن القارئ لا يسعه إلا أن يؤمن بأن هيكل (بك) من صميم الريف. ودع صاحبى ورأيه واقرأ الرواية وتأمل وصف "الكاتب" الذى يقيد أسماء العمال وينقدهم أجورهم ومكتبه ومصباحه ومحبرته وسلوكه مع العمال، ومزارع القطن وأيام الحصاد والعمل فى الليل بل فى كل ساعة من ساعات هذا العمل على مدار السنة والصور المختلفة التى تبدو للعيون فى الحقول وفى أزقة القرية وفى البيوت، والحياة والعلاقات والتقاليد والألعاب وبعبارة أخرى وجيزة كل ما فى الريف من حياة نباتًا كانت أو حيوانًا أو إنسانًا، وكل ما تبدو فيه هذه الحيوانات من الصور. خذ هذه الصورة مثلاً:

"بلغا منتصف الطريق فانكشف أمامهما الوجود الذى كانت تحجبه الأشجار ولحا القرية من بعيد تدثرت بضباب أخريات النهار، على السكك القريبة منها سلك ملضوم من الفلاحين رجالاً ونساءً والدواب وأطفال وجواميس وبقر وحمير، ووراء هاته القافلة من أهل القرية وختامها قطيع من الغنم قد زحم السكة يسير بغير انتظام وتجرى حذاءه فى المزارع، الكلاب الحارسة. والأفق أمام الجميع يضيع تحته كل من وصله من الراجعين إلى دورهم...".

ووصفه ظمأ الأرض وما أحدثه تلكؤ المهندس فى إطلاق الماء إليها، ونوم المستأجرين فى الليل على شواطئ الترعة فى انتظار "قضاء الله وقضاء الحكومة فى أرزاقهم" - ولعبة "السيجة" أو "الطاب"، وحين يعتدل الجو أو يميل قليلاً إلى الرطوبة وتبتدئ حياة الفلاح تبشره بمقدم راحته الشتوية، وحين الأشجار العظيمة يتساقط بعض ورقها بعد أن أدى واجبه من كسوتها وإن كانت لا تضن بظلها على من أراده".

وقد جلس المتلاعبان والتف حولهما الباقون، "وأكثرهم كواعب قد أينع صباهن وكساهن الشباب ذاك الجمال الذى لا يضن به على أحد حتى ولا غير الجميل". وأفراح القرويين ومآتمهم وخرافاتهم وهزلهم وجدهم وسذاجتهم وكياستهم وشبابهم وكهولتهم وآراؤهم وأهواؤهم ومطالبهم فى الحياة وآمالهم فى الدنيا وصبرهم على الإقتار والضيق والتعب والنصب ودأبهم على الكد ولو لغير أنفسهم - كل هذا فى زينب مكتوب بقلم الفنان الذى استحوذ على قلبه حب ما يصور والإعجاب به والفخر بأنه ينتسب إليه.

* * *

ومسألة لابد من الإشارة قبل أن أضع القلم، وتلك هى بأية لغة نكتب الحوار فى الروايات، أباللغة العربية أم باللهجات العامية؟ والجواب عندى نكتبها باللغة العربية إلا إذا كانت اللهجة العامية أعون على تصوير الشخصية وعلى إبرازها على حقيقتها. وصحيح أن اللغة قالب تصب فيه المعانى التى يراد العبارة عنها، ولكن من الصحيح أيضًا أن للغة - أى لقوالب التعبير - تأثيراً فى أسلوب التفكير والتفاتات الذهن واتجاهات النفس، فابن الصعيد الصميم والمنوفى أو البحيرى ليس تفكيرهما من نسق

واحد مهما بلغ من تقاربهم، والرجل الذى يجيد اللغة العربية وحدها دون غيرها يختلف أسلوب تفكيره وطريقة تناوله للمسائل والوجهة التى ينظر منها إليها، كما تختلف عبارته، عن أساليب التفكير والتناول والعبارة عند من يتقنون لغة أخرى أو لغات فضلاً عن العربية. وليس بصحيح أن اللغة وعاء فحسب، وأن لا دخل لها فى التفكير والشخصية، وذلك لأن طبيعة اللغة توحى إلى نفس صاحبها، ومع الإيحاء التوجيه، فإذا أسقط الروائى اللهجات العامية جملة، فإنه يسقط معها عاملاً قويًا من عوامل التوجيه النفسى، ويجىء بالصورة ناقصة أول ألوانها وأقدرها على الكشف عن الشخصية. ثم إن فى اللهجات العامية ألفاظًا وعبارات مملوءة قوة أو جمالاً أو قدرة على الإبانة، كثيراً ما يكون من العسير الاهتداء إلى ما يؤدى معناها أو يعادلها فى القوة أو الجمال أو القدرة من اللغة العربية، وهذا على الرغم من أن لغتنا العامية لغات أو لهجات شتى، وأنه ليس بينها واحدة استوفت أوضاعها واستقرت على حد مضبوط، وأسوق للقارئ مثلاً واحداً يغنى عن غيره على الرغم من بساطته: فى سنة ١٩١٧ كنت يومًا عند صديقى الأستاذ العقاد فمر ببيته غلمان يغنون بأبيات منها:

يــا واد أنــا بـــدى أبــوســـك   بــس أبــوســـك !

واطــرب وأحــظــى بــكــؤوســك   رق شـــــويـــه !

فتساءلنا عن "بس أبوسك" كيف تكون العبارة عنها باللغة العربية؟ ولا أدرى كيف حل هو هذه العقدة، ولكن الذى أدريه أنى أنا قد انتهيت إلى اليأس من القدرة على حلها.

غير أن الإفراط فى اتخاذ اللهجات العامية أداة للحوار الروائى بلا موجب يفسد كل شىء. ونحن نقرأ الروايات الروسية أو الألمانية أو الإسبانية مترجمة إلى الإنجليزية بلغة صحيحة من أولها إلى آخرها فلا تحس نقصاً يذكر، ولا نشعر أن اللغة الفصيحة أفسدت الحوار أو ضيعت مزيته، أو أضعفت قدرته على الكشف عن الشخصية التى يراد إبرازها. والخلاصة أن الأمر لا مفر من تركه لتقدير الكاتب وتمييزه.

صور وأخلاق

إيحاء الثياب[٤٤]

فى بعض روايات شكسبير- "كما تحب" - تتنكر الفتاة "روزالند" فى زى غلام وتلحق بحبيبها "أورلندو" فى الغابة حيث أبوها منفى، وتكون معها ابنة عمها فتكايدها، فتقول روزالند معترضة محتجة: أمن أجل أنى ألبس ثياب الرجال تكون الرجولة فى قلبى؟ - أو كلامًا بهذا المعنى - ولكن سلوكها مع ذلك هو سلوك الرجل إذا ذهبت تعتبر المظاهر، فهى تمشى مسرعة وتدب على الأرض وتطوح بذراعيها، وتحادث من يلقاها من الذكور فى غير وجل أو استحياء ولا تتحرج أن تضع كتفها على كتفه وهى تكلمه، أو أن تدفعه بأطراف أصابعها إذا لم يرقها رأيه، أو أن تستلقى إلى جانبه على الأرض من غير أن تنكر ذلك من نفسها، وتخلع قبعتها كما يفعل الرجال تحية واحترامًا، إلى آخر ذلك مما يجرى هذا المجرى، وأدل من ذلك أنها تتخذ لغة الرجال ولهجتهم، وأن حبيبها أورلندو لا ينكر من أمرها شيئًا، ولا يستريب بها ولا يخطر له أنها قد تكون امرأة حتى بعد أن يكاشفها بحبه لروزالند بل حتى بعد أن تغلبها أنوثتها فتلح عليه أن يفرض أنها هى روزالند وأن يغازلها ويداعبها ويبثها حبه على هذا الاعتبار - لا بل حتى بعد أن تقول له تزوجنى على أنى روزالند فيفعل وتقوم لهما ابنة عمها بوظيفة القسيس. كل هذا وأورلندو لا يخامره شك فى أن هذا السلوك راجع إلى رغبة صبيانية فى المزاح، يحلو له أن يجاريها فيه؛ لأنه يحب أن يتكلم عن حبيبته روزالند ولأن هذا المزاح يتيح له أن يناجيها ويفضى إليها بما يجن صدره ويجد قلبه فى شخص هذا الفتى الظريف.

(٤٤) نشرت فى مجلة "الجديد" فى ٦ مايو سنة ١٩٢٩، (ص٤-٥).

وقد قرأت منذ أيام قصة لكاتب حديث هو فاتشيل، اسمها "تجربة المس توربين" وموضوعها أن المس توربين كانت لها أخت توفيت عن غلام وفتاة تولت خالتهما تربيتهما، فكلما كبرا أراد الفتى أن يشتغل بالتمثيل، واتفق أن الخالة والفتاة دعيتا إلى قضاء أيام عند قريب لهما فى إسكتلندة فاقترح جم - الفتى - أن يذهب متنكرًا كأخته وأن تذهب أخته أيضًا على أنها وصيفته، وتكون هذه تجربة فإذا نجحت تركته خالته يشتغل ممثلاً، وتراهنا على ذلك. وفى القصر الذى دعيت هذه الأسرة إليه، رجال ونساء والنساء بطبعهن أسرع إلى التمييز بين المرأة الحقيقية والرجل المتنكر فى ثياب النساء، ومع ذلك جاز الفتى "جم" هذا الامتحان ولم تشك فيه النساء، بل أقبلن عليه كأنه إحداهن وصارحنه بما تتصارح به الفتيات فى خلوتهن، أما الرجال فقد رغب منهم اثنان فى الزواج منه، وعرضا عليه ذلك واحدًا بعد واحد، وقد عنى المؤلف بأن يجعل أحد الخاطبين كهلاً مجربًا، وثانيهما رجلاً فى عنفوان شبابه.

والقصة فى ذاتها تافهة ليس فيها أكثر من حكاية هذه التجربة، وهى لا تعد من أجل ذلك من القصص الجيدة، وعندى أن أقاصيص هذا الكاتب أبرع من قصصه الطويلة، على أن هذا ليس موضوع الكلام ولا هو الذى نكتب من أجله هذا الفصل وإنما أردنا أن نقول للملابس - كما لغيرها - إيحاءها إلى النفس، فالرجل الذى يلبس ثياب المرأة يلقى نفسه يخطو فى مشيته مثلها ويتكلف إشاراتها ولهجتها ويتعمل مثل تطريها ويلبس مع الثياب مقدارًا من روحها يختلف باختلاف نصيبه من الأنوثة والعكس بالعكس، وإذا صح أن فى كل إنسان - رجلاً كان أو أمراة - عناصر من الذكورة والأنوثة، فكلما كان نصيب الرجل من الأنوثة أكبر كانت قدرته على تمثيل المرأة أتم، وكذلك المرأة تكون أقدر على الاسترجال إذا كان حظها من عناصر الرجولة أوفر، فليست تجربة "جم" فى الحياة - بغض النظر عن القصة - بالتى يقدر عليها ويوفق فيها رجل لا يحس بغريزته أنه رزق المقدار الكافى من الأنوثة. ولا كل امرأة يسعها أن تأنس إلى ثياب الرجال إذا كانت أنوثتها هى الغالبة، وليس أصدق من فراسة شكسبير فإنه حين أراد أن يقلب فتاته غلامًا لم يكتف بأن يفعل ذلك بل أنشأ هذا الحوار بين روزالند وابنة عمها:

روزالند – وأين نذهب؟

سيليا – نمضى إلى عمى فى غابة أردن.

روزالند – وا أسفاه، ما أشد الخطر علينا ونحن فتاتان فى هذه الرحلة الطويلة!! إن الجمال يستفز اللصوص بأسرع مما يستفزهم الذهب.

سيليا – سألبس ثيابًا حقيرة وضيعة وأصبغ وجهى لأشوهه – فافعلى مثلى. فإنا خليقان حينئذ ألا نستثير المهاجمين.

روزالند – أليس خيراً – إذا كنت أنا طويلة فى النساء أن أتزيا على نحو ما يفعل الرجال؟ سيف يتدلى على فخذى ورمح فى يدى – وليرقد فى قلبى ما عسى أن يكون ثم من خوف المرأة المخبوء – فيكون لنا من مظهر الجرأة والإقدام مثل حظ الجبناء من الرجال الذين يواجهون الحياة بهذه المظاهر . فهنا امرأتان: واحدة أنوثتها غالبة فهى لا يخطر لها إلا أن تلطخ وجهها لتخفى جماله وتخفف وقعه وتتقى عواقب استثارته لقلوب الرجال، لأنها لا تستطيع أن تتصور نفسها إلا امرأة والأخرى أول ما يجرى فى خاطرها من الوسائل لاتقاء الخطر عليها من الرجال أن تبرز لهم كواحد منهم فلا يعود جمالها يضيرها أو يلقى بها فى المهاوى التى تخشاها المرأة، وهى تنظر إلى نفسها فلا تنكر أن يتدلى السيف الى جانبها ولا تحس بالنفور من تناول الرمح بيدها الغضة الناعمة ولا تعد نفسها دون الكثير ممن لهم مظاهر الرجال وإن كانت قلوبهم ضعيفة ونفوسهم خوارة، والخوف عندها محتمل وهو على كل حال مخبوء، والفرق واضح ودلالة هذه المقابلة التى لجأ إليها شكسبير غير خافية .

فالثوب يوحى إلى النفس ولكن الإيحاء لا يكون قويًا منتجًا إلا مع الاستعداد لتقبله ومع تهيؤ النفس بطبيعتها للتلقى والتأثر.

الأعلام للزركلى[٤٥]

الأستاذ خير الدين الزركلى أديب شاعر، وبحاثة صبور، وسياسى بعيد الغور، ووطنى مجاهد. عرفته فى رحلة الحجاز على ظهر الباخرة [مالودى]، وكان من فضل بطئها وضيقها - علىّ - أن كشفت لىّ منه عن جوانب محببة وأخرى رائعة، فتعلقت به، ولم أكن قد سمعت حتى باسمه، وهذا غريب ولكنه الواقع، فكان سلوكى حياله بعد التعارف سلوك الأديب المشهور حيال واحد من خلق الله والسلام، أعنى - وإن كان الأمر لى يحتاج إلى إيضاح - أنى كنت أنظر إلى نفسى كأنى بطل هذه الرحلة، وإليه كأن وجوده غير مفهوم. ولكننى لم أعنِّ نفسى بالأمر، وقلت إن لى فى البحر متصرفًا عن كل ما لا أفهم أو لا أحب، ولكنى مع هذا توخيت معه الأدب والتواضع - على عادتى!- غير أن حديثه على المائدة أيقظنى ففتحت عينى جدًا وأرهفت له سمعى، وأنا رجل لا يقبل على الجليس حتى يعرف من هو وكيف هو، وقد أتبسط حتى مع الغرباء كراهة منى للتكلف الذى لا موجب له، غير أنى بعد ذلك أنساهم وأطوى صفحتهم طيًا ليس له من نشر فكأنهم ما كانوا. أما الزركلى فقد جذبنى إليه بعنف، ولم أكد أسمع منه كلمات حتى أيقنت أن أمره أكبر مما يبديه تواضعه، وأن شأنه فوق ما توهمت لأول وهلة، وجعلت وكدى بعد ذلك أن أوثق ما بينى وبينه، وأن أغض من كبريائى من غير أن أدعه يفطن إلى انهزامى.

ولما كنا فى وادى فاطمة - فى قلب الصحراء - دنا من الزركلى صبى فى الثانية عشرة من عمره أو حوالى ذلك، وقال له:

---

(٤٥) نشرت فى "السياسة الأسبوعية" فى ٢٤ يناير سنة ١٩٣١ (ص٣).

"أنت الأستاذ الزركلي؟"

قال: "نعم، وكيف عرفتني؟"

قال الصبي: "رأيت صورتك"

فسأله: "وأنت ما اسمك لأعرفك؟"

فقال الصبي: "إني ما زلت صغيراً فلا قيمة لاسمي؛ أما أنت فمشهور معروف."

فسرنا من الفتى هذا الإحساس، ومضينا عنه معجبين به، ورحت أنا أفكر في هذا الزركلي المشهور الذي سار اسمه في الشرق وجاب القفار والفدافد حتى بلغ هذه الواحة النائية؛ ومع ذلك لم أكن أعرفه ولا كنت قد سمعت به! وأحسب هذا من ذنوبي، فإني أسير في هذه الحياة كالذاهل عنها، كثيراً ما يخيل إليّ أني كالجواد المشدود إلى مركبة لا يستطيع أن يبصر إلا ما هو أمامه، أما ما يكون إلى يمينه أو يساره فهذا يحجبه عن عينيه ما ركبه له صاحبه على جانبي وجهه. ذلك أن ما يدور في نفسي يستغرق خواطري ويستبد بانتباهي، ولهذا مزيته ولكن له أيضًا مساوئه، وقد تأخذ عيني الشيء وأنا غير شاعر بذلك، وترتسم الصورة في صدري - أو لا أدري أين ترتسم - من غير أن أفطن إلى ما حدث، ولا أراها أو أحسها أو أتنبه إليها إلا حين أخلو إلى نفسي وأدير عيني في قلبي... وليس هذا بعذر ولكنه الواقع.

وبعد عام من اتصالي بالصديق الزركلي - فقد صار صديقًا أحب إليّ وأعز عليّ وأكرم عندي وأجل من كثيرين من أصدقاء العمر - أهدى إليّ كتابًا له اسمه "الأعلام" في ثلاثة أجزاء[٤٦]، يقع كل منها في أكثر من أربعمائة صفحة من القطع الكبير؛ فلما تصفحته سألته في كم سنة وضع هذا الكتاب، فقال إنه سلخ فيه من عمره خمسة عشر عامًا!

---

(٤٦) يعني الطبعة الأولى التي صدرت في سنة ١٩٢٧ في ثلاثة أجزاء، وكان الزركلي يومئذ في الرابعة والثلاثين من عمره. أما الطبعة الأخيرة (في ثمانية أجزاء) فهي الرابعة، وقد صدرت بعد وفاة الزركلي في القاهرة عام ١٩٧٦ .

وليست خمسة عشر عامًا بالزمن الذى يستكثر على كتاب كهذا هو عبارة عن معجم لتراجم الرجال والنساء من العرب والمستعربين فى الجاهلية والإسلام والعصر الحاضر، مع العناية بضبط الأسماء - وتلك وحدها تستنفد العمر - والتوفيق بين التاريخين الهجرى والميلادى على الرغم من إغفال أكثر المؤرخين ذكر الشهر بل العام الذى ولد فيه أو توفى صاحب الترجمة، وحسبك شاهدًا بما لقى من العناء والبرح فى هذا وحده قوله: "كنت أقف أمام المولود أو المتوفى فى سنة ٤٣٥هـ (مثلاً)؛ فأرى سنة ١٠٤٣ الميلادية تنتهى فى جمادى الأولى، وهو الشهر الخامس من السنة فلا أدرى أكانت الولادة أو الوفاة أول السنة فتطابقها سنة ١٠٤٣م أم فى آخرها فتطابقها سنة ١٠٤٤، فلم يكن أمامى بعد إطالة البحث عن الشهر غير الترجيح مع فقد المرجح، ولم [أغن] عن الإشارة إلى ذلك هنا مخافة أن أتهم بارتجال التاريخ فى عصر كثر فيه مرتجلوه".

وقد نبه فى المقدمة إلى كثرة التحريف فى كتب التراجم وإلى التعارض الذى لا يسهل معه تمييز الصحيح من العليل، فقال: "فاختلاف المؤرخين، وتضارب رواياتهم وتعدد نزعاتهم، واختلاف النسخ من الكتاب الواحد، وكثرة الأغلاط فى المطبوع والمخطوط، وتداخل أخبار القوم بعضها ببعض، وفقدان العدد الأوفر من مصنفات الأقدمين، ومنع بعض الفرق كتبها أن يطلع عليها غير أبنائها - ذلك، وما هو باليسير، كافٍ لأن يجعل تأليف كتاب "الأعلام" عملاً شاقًا تكتنفه المصاعب".

ولذلك دعا أهل العلم إلى نقد ما عسى أن يكون قد وقع فيه من خطأ وبيان ما يبدو لهم من مواطن ضعفه. وقديمًا قال إبراهيم الصولى: "المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه".

وقد آثر أن يجعل "ميزان الاختيار، أن يكون لصاحب الترجمة عِلم تشهد به تصانيفه أو خلافة أو ملك أو إمارة أو منصب رفيع - كوزارة أو قضاء - كان له فيه أثر يحمد، أو رياسة مذهب، أو فن تميز به، أو أثر فى العمران يذكر له، أو شعر؛ أو مكانة يتردد بها اسمه، أو رواية كثيرة، أو أن يكون أصل نسب أو مضرب مثل، وضابط ذلك كله: أن يكون ممن يتردد ذكرهم ويسأل عنهم.

"أما من أغدق عليهم بعض مؤرخينا نعوت التمجيد وصفات الثناء إغداقًا، كما صنع أصحاب "الريحانة" و"اليتيمة" و"السلافة" و"سلك الدر" وعشرات أشباههم، من إطرائهم قائل بيتين واهيين من المنظوم بما لا يطرى به صاحب ديوان من الشعر، ورصهم صفات الإمامة والعلم والهداية والتشريع لراوى حديث أو حديثين، أو لمتفقه لم تسفر حياته عن أكثر من حلقة وعظ تغص المعابد بأمثالها كل يوم - فقد تعمدت إغفال ذكرهم اجتنابًا للإطالة على غير ما جدوى، ورغبة فى الوقوف عند الحد الذى رسمته لنفسى فى وضع هذا الكتاب".

من هذه العبارات التى نقلتها من مقدمة "الأعلام" يرى القارئ الغرض من الكتاب والطريقة التى جرى عليها فى تأليفه والعناء الذى كابده فى جمعه وترتيبه، وضبط مادته. وهذا التيسير يكثر عادة فى مفتتح النهضات القومية لشدة الشعور بالحاجة إليه. والواقع أن درس الأدب العربى والتاريخ الإسلامى يحتاج إلى تيسير كثير. وما أكثر من انصرفوا عنهما، واجترأوا بالإلمام السطحى أو رضوا لأنفسهم الجهل التام به لشدة المشقة التى يعانونها فى تحصيل ذلك وكثرة ما يضيع من العمر فى سبيله بلا جدوى أو عائدة تستحق الذكر، وهذه المشقة هى العلة فيما هو ملحوظ من الجهل الفاشى بالأدب العربى والتاريخ الإسلامى فى الجيل الناشئ، ولا يسع المنصف إلا أن يعذر أبناء هذا الجيل؛ فإن السهولة التى يحصل بها الشاب آداب الغرب وتاريخه وكل ما عنده من علوم وفنون، تجعل صعوبة الأدب العربى والتاريخ الشرقى أبرز وأبعث على الإحجام عن المعاناة، والمرء مفطور على إيثار ما هو أسهل، بل كل شىء فى الحياة يتوخى الطريق الأسهل؛ فالعود النابت إذا صادفته حصاة يدور حولها وينفذ من التربة اللينة ولا يكلف نفسه أن يخترق الحصى، والماء المنحدر يحيد عن الصخور إلى الأرض الدمثة، وهكذا فى كل شىء. ومن هنا كان الجرى على المألوف أيسر من افتزاع الطريق البكر، وكان الابتكار أقل من التقليد، والمحاكاة أكثر شيوعًا وأشد إغراءً للنفوس؛ فالذى صنعه صديقنا الأستاذ الزركلى خدمة جليلة للأدب العربى والتاريخ الشرقى كله لا الإسلامى وحده.

وصديقنا الزركلي شاعر فياض أيضًا، مشرق الديباجة، رقيق الحاشية، محكم الأداء، وهو فوق ذلك من الوطنيين المجاهدين الذين يقاسون وحشة النفى عن وطنهم الذى تتحرق عليه نفوسهم، وإن كان يلقى فى منفاه من الإيناس والتقدير ما يخفف وقع هذه الوحشة، وإن كان غير حقيق أن يمحوها. ومن الظواهر التى تلفت النظر أن الأدباء هم الذين رفعوا راية الحركات الاستقلالية فى الشرق، ولا يزالون يغذونها ويؤرثون نارها ويستحثونها، وليس فى هذا وجه معجب، فإن الأديب بطبيعته أحس من سواه وأدق شعورًا، فمن حقه أن يكون أسبق إلى نشدان الحرية التى هى حياة كل أدب صادق. والتاريخ شاهد بأن كل حركة قومية تسبقها دائمًا نهضة أدبية، وإلا كانت مفتعلة، وهذا هو الذى يطمئننا على النهضة المصرية وأخواتها فى الأقطار الشرقية. وعندى أن لرجل مثل حافظ إبراهيم بك من الفضل على الحركة القومية فى مصر فوق ما لكثير من الزعماء الذين صار قياد هذه الحركة فى أيديهم مهما كان الرأى فى شعره، ومن هنا كان شعر حافظ وثيق الصلة بالتاريخ القومى ملحوظ الأثر على خلاف شعر شوقى الذى نرجو أن نتناوله فى الأسبوع المقبل لمناسبة ظهور الجزء الثانى من ديوانه.

نقد رواية قمبيز
لصاحب العزة أحمد شوقى بك(٤٧)

(١)

قيل لى فى مستهل الخريف إن شوقى بك ألف خمس روايات تمثيلية كل واحدة منها آية، ولكن آيته الكبرى هى قمبيز، وحدثنى من أروى عنه أن رواية قمبيز فى اعتقاده خير ما كتب فى حياته، فأكبرت هذه الهمة من شيخ فانٍ، وأعربت عن إعجابى بما يبديه شوقى بك فى هذه السن العالية من النشاط وما هو دائب عليه من مواصلة الإنتاج، وتمنيت أن يكون الأمر كما وصف محدثى، وكنا نجلس فى تلك الأيام التى كانت فيها "السياسة" معطلة، حلقات نتذاكر الأدب والشعر، وكان من بيننا المعجب بشوقى والمغالى بأدبه، والزارى عليه والعائب له، والمتحفظ فى المدح والذم، ولكنا جميعاً كنا نترقب هذه الروايات الخمس أو الست - لا أدرى - وما منا إلا من يرجو أن يكون الرجل قد وفق فيها، حتى أنا الذى يعرف القراء سوء رأيه فى شعر شوقى على العموم وفى روايتيه - مصرع كليوباترة ومجنون ليلى - على الخصوص، لم يكن رجائى أن يكتب له التوفيق مشوباً بتحفظ لا معلن ولا مكتوم.

ثم ظهرت رواية قمبيز، وجاءنى لفيف من إخوانى يشكون إلىّ أن الصحف لا تأذن بأن ينشر عنها شيء إلا أن يكون ذلك مدحاً؛ فقلت لعل الرواية حسنة، فدفع إلىّ واحد منهم بنسخة منها، وقال: "هذه هى، اقرأها ثم انظر كيف تقول".

(٤٧) نشرت فى جريدة "السياسة" فى ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٣١، (ص٥، ٦).

وقد قرأتها، ولا أحسبنى بعدها أستطيع أن أحمل نفسى على قراءة شىء لشوقى، فما زادتنى هذه الرواية إلا اقتناعًا بأنه ليس بشاعر أصلاً، وليس الذى يبديه نشاطًا ولكنما هو حمى، ولا يعد هذا إنتاجًا، فإنه أشبه بما يصنعه الأطفال بالرمال البليلة وهم يلعبون ويعبثون ولا يعرفون كيف ينفقون ما يحسونه من الحيوية فى خير من هذا، ويقينى أن شوقى لا يكتب لأن فكرة دارت فى نفسه أو شعورًا استولى عليها، بل لأنه يرى الزمن قد سبقه وخلفه وراءه؛ فهو يهرول محاولاً أن يدركه، ولكن هيهات! فما يثقل الزمن رجلاً ولا يتوقف أو يتلفت أو يتلكأ انتظارًا للمتخلفين وإشفاقًا على الضعفاء والعاجزين أو الحائرين أو الذين يلهيهم عن السير ما على جانبى الطريق، والزمن يسير بخطوة الأسرع والأقوى لا بخطوة الذى هو أبطأ أو أضعف، فمن استطاع أن يسايره ووسعه أن يصبر على جهد المسير ولم يدركه الونى والفتور، فهو معه فى الطليعة أو بين الصفوف أو فى آخرها - على قدر طاقته - وإلا فهو متروك وملقى فى حيثما تنضب قوته وينفد جهده، ولن تغنى حمى الجزع شيئًا، لا ولن تجدى الحسرة والتلهف أو ينفع الصراخ والتشوير فى أعقاب الزمن الذى يمضى حثيث الخطى.

وهذه الرواية هذيان حمى وصرخة جزع وتشوير يائس يجاهد أن ينهض ويهرول ليدرك السابقيه وتأبى ساقاه إلا أن تخوناه، وهى تلفيقات ذهن أصابه الخرف لا تصوير عقل يدرك ما هو صانع، وأحسب لو أن شوقى كان قد كتبها نثرًا لكان من المحتمل أن يجىء بشىء يكون أقرب إلى المعقول وأدنى إلى القبول، ولكنه اغتر بما وفقت إليه فرقة السيدة فاطمة رشدى من النجاح فى تمثيل روايته المجنون - مجنون ليلى - وتوهم أن الفضل لشعره وتأليفه، فحبس نفسه فى داره شهورًا، وعكف على النظم، وفى ظنه أن يحل من الأدب العربى بهذا الهراء والتخريف فى المحل الذى ينزله شكسبير - لا سواه ولا أحد دونه - من أدب الغرب!

ودع الرواية وموضوعها ومواقفها واقرأها على أنها شعر فحسب، ولا تجعل بالك إلا لجريان الشعر على لسانك فماذا تحس؟ لا أدرى! ولكن الذى أدريه أنى أنا كنت أحس كأنى اصطدم بعد كل بضع خطوات بجدار، أو كأن قبضة يد معروقة تدفع فى صدرى وتصدنى عن المضى فى القراءة، ذلك أن شوقى ينتقل من بحر إلى بحر ومن

وزن إلى وزن بغير إنذار وعلى غير توقع، ويفاجئ القارئ بهذا التنقل الذى لا يرتقبه فيصدمه، ولو كان يجعل كلام الواحد حين يتكلم، من بحر واحد، لأمكن أن يحتمل الأمر، لكنه كالسكران الذى يترنح ويتمايل ويخالط فى المشى، ولا يجنح إلى اليمين إلا ليعود فيرتمى نحو اليسار، وهذه من شوقى عربدة صريحة. وإذا كان لا يسعه أن يجعل شعر الرواية كله من بحر واحد، ولا كل فصل منها من بحر؛ فلا أقل من أن يسوق كلام الفرد الواحد من وزن واحد. اقرأ هذا مثلاً (ص١٨):

الثانى:

من أمازيس؟ ما الأميرة؟ ... ما مصر؟ أفى الأرض من بقمبيز يهزأ؟

أهذا خبر يروى؟ ... غبى أنت والله!

أتحت القبة الزرقا ... ء من يسخر بالشاه؟

والانتقال هنا غير عنيف والصدمة ليست بالقوية، ولكن اقرأ هذا: (ص٣٥):

ماسو – وما ذنبى؟

نتيتاس – لقد أحسنت ... لكن لى أنا الذنب!

أنا أحببت عابثًا ... سادر القلب جافيًا

وهذا أيضًا (٤١):

أحامس:

كن منصفًا إن رمت يا ... خوفو تكون الحكما

تأمل القصر خوفو ... أفيه من مصر شىء؟

وفى صفحة (٤٤):

حوتيب:

سادتى إنى فى الكف ... وفى الجبهة أقرأ

أنا أقرأ لك خطًا ... أنا أقرأ لك عمرًا

أنا الذى بسحرى المبين ... أستطلع المكتوب فى الجبين

وفى صفحة (٥٧):

تتـا : أقـتـيـل يا بنـت فـرعـون ؟

المـــلـكـة: لـم لا ؟ ليس فى أرض فارس مستحيل

يا تـتـا نحن فى بلد كل قلـب به جـمـد

الحى فـيـه رخـيـص والمـيـت أرخـص مـنـه

هنـا الميت تنفض منه الأكف وتـنـهـى الشـرائع عـن دفـنـه

وفى الصفحة عينها:

الملكة وهى مطلة:

تـتـا هـذا هـو الحـارس هـذا مـن تحـبـيـنـا

كـذوقـك يا تـتـا لم يعـل ذوق أتمـثـال حـبـيـبـك أم إلاه

تتـا : ولو فـوق الإله يحب شيء ويكـرم لم يكـن أحـداً سـواه

تأمـلـى كـتـفـيـه تأمـلى مـنـكـبـيـه

كـأن صـقـرين حطا فـظـلـلا شـاربـيـه

وفى صفحة (٨٧): ودعك من سخافة الانتقال من حيث المعنى:

قمبيز:

كـذبـت علىّ يا ابـنـة ابـريـاس حـذار حـذار من بطشى وفـتـكى

أنا قـمـبـيـز ابن كـسـرى أنـا جـبـار الـوجـود

وأنـا الـنـار أصـولـى وبـنـو الـنـار جـدودى

ويل فـرعـون ومـصـر من جـنـودى وبـنـودى

رباه ويـحـى ويـح لـى رباه مـا لى لا أعـى

رباه ناراه مـا الذى أجـد ؟ كـأنما النار فىّ تتـقـد

يـا نـار كـونـى لـى أورمـا زد كن عـونى

وفى صفحة ١١٠:

نتيتاس:

مـــاذا رأيـت؟ ومـــاذا   سمعت؟ من يدفعونا؟

من ذا إلى النار ساقوا؟   مـن أوردوا الأتـــونــا

تـاس؟ أجـــل هـو تـاس   أتـــوا بـه المجـــنـونـا

قـــسـا الجنـود عليـه   والجند لا يرحـــمـونا

مـا بـاله عـرف الوفـاء   وكيف ثاب إلى الرشاد

ربى! أأشـفـع فـيـه؟ لا   لا. كيف أمنعه الجهاد

لا. لن تحول شفاعتى   بين الضحية و [البلاد]

هـذه مـيـتـة عـز   أمـضـض ناس بسلام

وفى صفحة (١١٩):

قمبيز -

ويلى من الماضى ومن أشباحه   هذى خيالات الزمان الخالى

عجب العجائب ويح لىّ ماذا أرى   شبح، أجل شبح وطيف خيال

شـــبح كـــالملك الـوا   قـى لعينى يلـوح

شـبح كـــالزنبق النا   عـم يغـدو ويروح

ظهـر الحسن عليــه   وسـرى الطيب يفـوح

تمثال نتيتاس حول مذاهبى   أحبب بنتيتاس والتمثال

(وبعد أبيات من هذا البحر):

طاب ورد الحمام يا نفس هيا   خنجرى، خنجرى، إلىّ! إليّا!

وهكذا، وقد أكثرنا من الأمثلة ليعرف القارئ أنها ليست فلتة مفردة، ولكنها طريقة مطردة. وظاهر من هذه الأبيات التى سقناها أن المعانى لا جليلة ولا سامية ولا هى بالتى تتطلب العبارة عنها أوزانًا خاصة تكون أوفق لها وأعون على إبرازها، فتنقل شوقى بين الأوزان لا تدعو إليه حاجة أو ضرورة ملجئة، فليس ثم معنى واحد فيما أوردناه لك يستعصى على الشاعر أن يصبه فى القالب الذى يختاره له، ويجريه مجرى سواه من الكلام السابق واللاحق، ليعفى القارئ من صدمات هذه العربدة، ومتى كان ما يراد العبارة عنه سهلاً لا عسر فيه ولا سمو ولا دقة، فإن هذا التنقل يكون دليل العجز البين عن الأداء والقصور الذى لا شك [فيه]، وإذا كان الشاعر يعييه أن يسوق لك الكلام العادى فى نظام واحد فما ظنك بعجزه إذا أراد أن يتناول المعانى العويصة أو الدقيقة أو غير هذه وتلك مما يتطلب الإحكام والحذق والضبط أو القوة أو البراعة أو التلطف واللياقة، أو الرقة والعذوبة إلى آخر ذلك؟ والشعر ليس مجرد وزن للكلام، ولا الوزن أصعب ما فيه، وقد يشق أمره على المبتدئ، ولكن المران يكسب القدرة عليه والسرعة فيه، وإذا كان كل ما فى الشعر التمثيلى أن تجيء بالكلام موزنًا كيفما اتفق وأن تجريه من أى بحر بلا قيد ولا مراعاة للانسجام أو مبالاة بالروح الموسيقية التى يجب أن تشيع فيه، فإنه يستوى إذن أن تضع الرواية نظمًا أو نثرًا، بل نثر الكلام يكون أولى وأوجب وأصح وأشد موافقة للفن، لأن هذه الصدمات تنتفى ويمتنع تشويهها، وليس فى الدنيا كاتب يعجزه أن ينظم رواية على منوال شوقى، فإن الوزن أيسر ما فى الشعر، ومطلبه سهل جدًا على مريده، وما على المرء حينئذ إلا أن يعمد إلى الألفاظ فينظمها من غير أن يبالى كيف تجيء ولا من أى بحر تجرى، وإذا تعذر عليه النظم من بحر تركه إلى سواه مما يتحدر فيه الكلام بلا عائق، بل النثر يكون فى هذه الحالة أشق وأصعب، فما للناثر عذر من كثرة الحشو إذا أمكن أن يعذر الشاعر المضطر، ولا من العجز عن أحكام الأداء ودقة العبارة إذا تجاوزنا للشاعر المقيد عن بعض ما لا يضير أو يسيء إلى المعانى أو يفسدها، وأحسبنى أعرف السر فى هذه الفوضى التى آثرها شوقى وجنح إليها؛ فهو يريد أن يضع خمس روايات يطمع أن تحمل إليه كذا وكذا من الجنيهات؛ فليفرغ منها إذن بأسرع ما يتسنى له، وليغلق على

نفسه الأبواب شهرين أو ثلاثة ليصوغ هذه الروايات الذهبية، وهذه الفوضى تؤاتيه على ما يبغى من السرعة، فليكن الحكم إذن لها، وهكذا كان.

ولو أن لشوقى ذرة من الشاعرية أو حظًا بالغًا ما بلغ من الضآلة، من الروح الموسيقية لما أمكن أن يرضى لنفسه هذه العربدة، ولتمردت روحه على الطريقة التى جرى عليها، ولأرغمته إما على الإذعان لمطالبها وإما على الكتابة النثرية إذا كان لا بد من بضاعة تذهب إلى السوق وتعود إليه بثمنها المنشود.

كان لى صديق فكه نصف أمى يضحكنا أحيانًا بغناء مختلط يجمع فيه مطالع الأدوار المختلفة جمعًا متنافرًا، وكان يفعل ذلك على سبيل الفكاهة وطلبًا للتسلية؛ وتعمداً لإضحاكنا، ولو كان يفعله جاداً لما صبر عليه أحد، ولكن الذى لا يحتمل فى موقف الجد، كثيراً ما يحلو فى ساعة التبسط واللهو، وهذا عين ما صنعه شوقى فى روايته سوى أن صديقنا ظريف حسن الإدراك لطبيعة الأشياء ولا يغيب عنه أنه يخلط، ولا يدعى أنه يطربنا، ولا ينحل نفسه من أجل ذلك فضلاً، ولا يريد من وراء ما يصنع إلا رضانا وضحكنا، أما شوقى بك الذى يسوؤه ألا يذكر اسمه مقرونًا بلفظ التأمير على الشعراء، فلا يفهم ولا يفطن ولا يحس هذا الذى يعرفه بفطرته السليمة صديقنا الأمى، يجىء بالسخيف ويرقب الإعجاب والثناء، ويعرض المضحك ويستغرب أن لا تحمر الجفون من البكاء، ويمضى وفى وهمه أنه أحكم الحكماء، ويضرب على مندف، ويظن أنه يطرب الأرض والسماء!

دعيت مرة إلى سماع، وشاء الحظ أن يكون المغنى أصم والعواد أخرس؛ فكان الغناء ألحانًا والتوقيع على العود ألحانًا أخرى، فلا توافق ولا تجاوب وضاعف البلاء أن العواد كان كأنما يندف قطنًا، وكذلك شوقى فى روايته كهذا المغنى الأصم والعواد الأخرس مجتمعين أو هذا ما يقع فى النفس من شعر الرواية، وما أظن بشوقى إلا أنه لا يفهم هذا، ولا يدرك أن الشعور ينتظم على النغم، ولما كان لكل بحر وزنه الخاص أى نغمه فإن الانتقال المباغت من وزن إلى وزن يتطلب تحولاً مثله فى الشعور، ويرج الانتظام الذى استقرت عليه النفس، فإذا كثر هذا وقعت سلسلة رجات، فكأن النفس

فى زلزال معنوى من كثرة تلاحق الرجفات وتوالى الهزات، وليس لنفس متعة تستفاد من شعر يكلفها هذا العناء، وما هو إلا تنغيص يضاعفه سبق التوقع للإمتاع ثم خيبة الأمل فيه، وللذى يتوقع التنغيص ويعلم أنه لا محالة ملاقيه أخف مصابًا ممن كان يرتقب المتعة؛ فإذا به لا يفقدها فحسب بل يغشى فوق ذلك.

* * *

ننتقل بعد هذا من تنافر الشعر إلى الرواية أو على الأصح إلى السوق التى أقامها وفى مرجوه أن يفيد منها المال عوضًا عن القطن البائر، والواقع أن شوقى فى روايته هذه تاجر قبل كل شىء ينظر إلى السوق بكلتا عينيه ولا يرى أو يبالى شيئًا آخر، وآية ذلك أنه لا يرخى الستار على منظر إلا وختامه يرجو أن يستغل به الشعور القومى فى مصر؛ فأخر المنظر الأول من الفصل الأول هذا البيت:

وما لى لا أعطى الحياة إذا دعت ... بلادى؛ حياتى للبلاد ومالى؟

وختام المنظر الثالث من نفس الفصل هذا البيت:

ولكن بين جنبى ... هوى أولى به مصر

وختم الفصل الثانى بهذه الصيحة:

"تعيش مصر وتبقى"

وهكذا، وهذا فضلاً عما فى الرواية نفسها من العبارات التى يبغى أن يتملق بها عواطف الجمهور اجتذابًا لعطفها وكسبًا لرضاها، وأحسب أنى لا أحتاج أن أقول إن حب الوطن إذا كان صادقًا طبيعيًا لا يحتاج إلى مثل هذا الإلحاح فى الإعلان، وإنما التكلف هو الذى يغرى بذلك ويدعو إليه، والناس يتعلقون بأديانهم وأربابهم كما يتعلقون بأوطانهم، بل ربما كان التعلق بالدين أقوى وأعمق أحيانًا من التعلق بالوطن، ولقد مرت على الإنسانية أوقات كانت فيها الأديان تُنسى الناس أوطانهم، ومع ذلك

لا يتخذها وسيلة للتجارة إلا المنافقون الذين لا ينطوون على إيمان صحيح، وكلما كان الشعور - الدينى أو الوطنى أو غير ذلك - أعمق وأسلم كان تنزيه المرء له عن التجارة أشد.

على أن شوقى بك لا يقف فى الاتجار بالعواطف الإنسانية عند حد؛ فكلها أداة صالحة لهذا عنده، وهو يصوغ فيها جملاً رنانة لا يبالى أين وقعت من الصدق والحقيقة ولا يحفل إلا أمراً واحداً هو أن يطلقها فيخلب بها بسطاء العقول، ومن أمثلة ذلك قوله على لسان نتيتاس لوصيفتها تتا:

مـــــا هكـــذا الحب تتـــــا مــا الحب إلا التــضـــحـيـــة

كلا يا هذا الذى عاش فى الدنيا أعمى لا يفكر بعقله ولا ينظر بعينه ولا يحس بأعصابه، بل يقلد ويحكى كالببغاوات، ليس بصحيح أن الحب ما هو إلا التضحية، وإنما الصحيح أن الحب ما هو إلا الأثرة مجسمة والأنانية مجسدة، فهل تستطيع أن تفهم هذا؟ لا نظن! فما فى رأسك سوى ألفاظ يحتويها كالصندوق، ولكن القارئ يسعه بأيسر مجهود أن يرى أن شوقى كاذب، وأن الحب قوامه الأنانية، وبحسبه أن يفكر فيما يطلب المحب؟ أليس مبتغاه أن يكون محبوبه له، وأن يختص هو به دون سائر الخلق؟ أليس يغار أن يكون له شريك أو مزاحم؟ نعم يبذل فى سبيل محبوبه، ولكنه بذل فى سبيل نفسه إذا ذهبت تعتبر الحقيقة وترد الأمر إلى أصله، وما بذله أو تضحيته إلا إرضاء لعاطفته هو واستجابة لدواعيها، وما أظن أن شوقى فكر فى هذا أو أتعب ذهنه مرة بالتفكير، وكل ما نظر إليه من وراء بيت كهذا هو أن يسمعه الشبان والكهول يلقى إلقاء حسنًا مؤثرًا؛ فأما الشبان فنفوسهم لا تزال فتية وإحساسهم ما انفك مشبوبًا فهم خلقاء أن يتلقوا قوله "ما الحب إلا التضحية" بالسرور والرضى والارتياح على ما يظنونه مدحًا لا قوى العواطف التى يجدها المرء فى شبابه، وأما الشيوخ فحريون أن يثير هذا الكلام فى نفوسهم الأسف والحسرة على الشباب الزائل والقوة المفقودة والصبوات القديمة التى حالت ذكرًا تسر وتشجو فى آنٍ معًا، وليس من المدح للحب أن يقال إنه التضحية ولا من ذمه أن يكون أنانية، فإن الطبيعة لا تعاب ولا تفتقر إلى مادح.

وقبل أن نختم هذا الفصل الأول لا يسعنا إلا أن ننبه إلى روح شوقى فى شعره وراياته، فإنها فيما أرى أشبه بروح الأرقاء الذين كانوا فيما غبر من الزمن يشرون ويباعون بالمال ويتخذهم سادتهم ملكًا لهم كما يملكون أثاث بيوتهم، يتصرفون فى أمرهم على هواهم ويصنعون بهم ما شاءوا؛ فهو يضع رواية كليوباترة لأنه يجد رجلاً يذوى الحب رجولته وينسيه واجبه ووطنه وكرامته، ثم يقضى عليه، ويكتب رواية مجنون ليلى ويجعل النساء فيها رجالاً بل أقوى من الرجال والرجال نساءً بل أضعف من النساء، ولا يزال يمرغ قيسًا ويشرده حتى يصرعه، وأخيرًا يجيء بقمبيز ويصور لنا عصر ضعف طارئ على مصر وذلة مفروضة عليها وهوان لاحق بها، ولا يختمها قبل أن يجعل المرأة - نتيتاس - أفحل من الرجال وهم بين ملك فاتح وقائد ظافر، وجندى متمرس بالحروب، وليس كل ما فى تاريخ مصر عصر كليوباترة وغزو الفرس، وليس مما يستر هذا النزوع إلى إيثار مواقف الهوان فى الفرد والجماعة، أن ترد على بعض الألسنة فى الرواية كلمات فخر جوفاء وألفاظ إباء فارغة ليس وراءها روح تصدر عنها، بل جرى الألسنة بهذه الألفاظ الخاوية أكشف للحقيقة وأنم عنها، وهى على كل حال لا تقدم ولا تؤخر ولا تمحو الحقيقة الماثلة من ورائها، وقد يكون العبد أفخر ثيابًا من سيده وأبهى بزة وأنق هندامًا، ولكنه مع ذلك العبد، وسيده السيد، وقد يلف الميت فى أغلى من ثياب الأحياء وأثمن من حللهم، وهو خامد الحس لا يشعر بالكسوة ولا يبالى العرى ولا يفرق بين الديباج الحر والخيش الخشن.

ولشوقى عذره واضحًا، فما يسعه أن يفهم ما لا يحس أو يتجه إلى حيث لا تدفعه نفسه، ولو اقترح عليه موضوع غير الذى يوافق ضعف روحه لعجز عن تناوله، ولو مر هو به لما فطن إليه؛ فهو غير متكلف فيما يجنح إليه من إيثار الضعف وهزال النفس وتضعضع الرجولة ومن تصوير ذلك كله بروح العطف، واتخاذه مثلاً أعلى للكمال، وقد صدق الذى قال:

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب فى الماء جذوة نار

نقد رواية قمبيز
لصاحب العزة أحمد شوقي بك[٤٨]

(٢)

موضوع الرواية - بإيجاز - أن قمبيز، ملك الفرس، خطب نفريت بنت أمازيس فرعون مصر، فتأبت وتقدمت نتيتاس - بنت الملك السابق المقتول - وعرضت أن تحل محلها، وأن تزف إلى قمبيز باسم نفريت، وذلك لتقي مصر غارة الفرس، وتفدى وطنها من سيف قمبيز و"ناره" على قول الشاعر!! وتحميه دنس الفتح وعاره، ويكون ما اقترحت، ولكن رجلاً من الإغريق اسمه فانيس كان فى خدمة مصر ثم خانها والتحق بخدمة قمبيز يفشي هذا السر ويطلع الملك على جلية الأمر فيغضب ويسير لغزو مصر فيفتحها؛ وتندم نفريت على أنانيتها وما جرت على بلادها فتلقى بنفسها فى النيل منتحرة، أما قمبيز فإنه بعد فتح مصر يجن من كثرة ما ارتكب من الآثام - ولاسيما قتله أخاه وأخته - فينتحر هو أيضاً.

هذه هى القصة كما ساقها شوقي، فكيف صورها؟ والجواب أنه لم يصورها، وإنما جاء بتخاليط عجيبة ظنها تقيم المعالم، وترسم الخطوط وتصف الحوادث، وتبرز البواعث، وسألخص للقراء كل فصل عسى أن يكون هذا أعون للقارئ على الإحاطة بمبلغ التخليط.

---

(٤٨) نشرت فى جريدة "السياسة" فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٢١، (ص٥، ٦).

فى المنظر الأول تظهر نفريت بنت فرعون وعشيقها تاسو حارس أبيها، وكان قبل ذلك يعشق نتيتاس بنت الملك المقتول، ونفريت حزينة تقول لعشيقها أنها مخطوبة لملك الفرس، وأن هذه الخطبة ستقضى عليها وعلى حبيبها معها، فلا يوافقها ويطمئنها بأنه سيلاقيها ويراها فى قصر قمبيز ويكونان معًا كما هما فى قصرها بمصر:

نفريت:

فى فارس ! فى قصر زوجى نلتقى؟ يا عجبًا ! ماذا تقول يا فتى !

تاسو:

لم لا ؟ أليس فى القصور سعة ؟ نحن هناك مثل ما نحن هنا !

نفريت:

هذا الغباء منك تاسو عجب ليس المكانان على حد سوا
هنا أبى إذا بكيت رق لى وإن شفعت لك عنده عفا

فهذه أول صورة زرية يلقى بها شوقى بك إلى القارئ. صورة قصر الملك الذى يتيسر فيه مثل هذا السلوك الوضيع، ويتسع للفسوق والعربدة، بعلم الملك ورضاه وإغضائه وتسامحه، ولو كانت الفاجرة الفاسقة بنته هو. وما على صاحبة السمو الملكى إذا لم تُعجب الملك سيرتها ولم يُرضه عهرها إلا أن تبكى فيرق قلبه لها، ويدركـ[ـه] العطف عليها، ويطلق لها أن تصنع ما تشاء كما تشاء مع من تشاء، ويعفو عن الحارس الذى يتخذ الأميرة خليلة له!

والصورة الثانية الزرية أن الأميرة تعلن إلى عشيقها عزمها على رفض الخطوبة فيذكرها ما يؤدى إليه هذا من الغزو فتصيح:

ليجر بما شاء تاسو القضاء ليجر بما شاء تاسو القدر
لتخسف بقوم عليها البلاد ليستأخر النيل أو ينفجر
فأنا أنا فسأبقى هنا وإن غضبت فارس والنمر

فهل رأيت؟ ابنة الملك لا تبالى ماذا يصيب ملك أبيها، وهل خسفت بأهلها البلاد، وهل تدفق النيل وروى الأرض أو انحبس عنه الغيث فجف ونضب!! وشوقى مع ذلك يريد أن يفهمنا أن الوطنية المصرية كانت حية متقدة فهلا نزه بنت الملك عن هذه الوهدة من الحقارة وضعة النفس وخلوها من كل إحساس نبيل؟

ثم تدخل نتيتاس الأميرة بنت الملك المقتول؛ فتظنها نفريت جاءت شامتة! ولا ندرى لماذا يعد خطوبة قمبيز لنفريت موجبة للشماتة، وقمبيز ملك عظيم؛ ورقعة ملكه واسعة، وبلاده على حظ كبير من المدنية؛ وهو أقوى من ملك مصر وأضخم شأنا؟؟ ولو جاء الشاعر بسبب لقلنا هناك سبب والسلام، ولكنه لم يفعل وتقول نتيتاس إنها ليست بالشامتة وإنها ما جاءت إلا منقذة، فتسألها الأخرى ما الخبر؟ فتأبى أن تفضى به أمام تاسو أو تقول إلا للملك، ومع ذلك – نعم مع ذلك – يأبى تخليط شوقى وعجزه عن التفطن إلى مقتضيات الموقف إلا أن يجعل نتيتاس تنطق بما أعلنت رفضها النطق به – لنفريت وعلى مسمع من تاسو!! ثم تخرج ويخرج تاسو.

ثم يلى ذلك منظر عجيب – غرفة الملك الخاصة ونفريت مقبلة عليه تشكوه إلى نفسه بعد التحية وتلومه، وتقول له:

فبأى قلب يا مليك	تزفنى للطاغية؟
أدرك فتاتك قد ضعفت	عن احتمال الداهية

وهى التى علمت قبل ذلك أن نتيتاس ستفديها بنفسها، وتحمى مصر عواقب رفض الخطوبة:

"أتيت لأفدى بنفسى البلاد	وأدفع عن مصر شر العجم
فإنك إن ترفضوا يزحفوا	كزحف الذئاب ونحن الغنم؟

وهو صريح لا لبس فيه ولا تأويل له.

وحين تدخل نتيتاس على الملك تخرج بنته نفريت لا ندرى لماذا؟ بل نحن ندرى! وهو أن تتحدث نتيتاس إلى الملك بعزمها أن تحل محل ابنته، ثم تعود نفريت فتدخل فيقول الملك لها "تعالى انبئك الجليل تعالى" - كأنها لم تعلم من نتيتاس نفسها!!

وهذا هو المنظر الأول، وذاك مبلغ الاضطراب فى تأليفه، والضعة فى تصوير الأخلاق والنفوس!

* * *

والمنظر الثانى - أو الثالث كما ينبغى أن يكون لولا أن شوقى مضطرب العقل - يصور وفد الفرس الذى جاء خاطبًا باسم ملكه - ورجال الوفد يتذاكرون ما رأوا "فى بلدة العجل" على حد تعبير الشاعر اللبق! فهلا سماها "أرض فرعون"؟ فاحتفظ بالوزن وتحاشى ذلك الوصف الثقيل الذى لا يدل على فهم ولا يشعر القارئ بأن للشاعر ذوقًا أو إدراكًا؟ وفى مستهل هذا الفصل يلمس القارئ تعمل شوقى ويضع إصبعه على نزوعه إلى التملق والنفاق، فليس فى الحجرة غير وفد الفرس، حتى يحمل النفاق والمغالاة على محمل المجاملة من خاطب لمخطوب، ومع ذلك لا يكاد رئيس الوفد يسأل رجاله ماذا رأوا حتى يندفع واحد فيقول عن المصريين:

لهم مثل ما للأسد بالجنس عزة ... ضوارى الفلا عند الأسود، كلاب
هم الشهب، والناس الجنادل والحصى ... وتبر الثرى، والعالمون تراب
وكل الذى صاغوا من الفن آية ... وكل الذى قالوا، هدى وصواب

ولا يعقل أن يقول الفرس هذا، وأن يحسبوا أنفسهم فى تراب العالم وحصى الأرض وصخورها وهم أمة فتية لها عزة وفيها نهضة، وأدهى من ذلك أن الشاعر المسكين لا يعى ما يفعل؛ فهو بعد هذا الوصف ينطق رئيس الوفد الفارسى بهذين البيتين:

خطبنا إليهم أمس بنت مليكهم ... فما كان إلا الاحتقار جواب
وأشفق آهلوها وقالوا حمامة ... دعاها إلى الوكر السحيق عقاب

وبعد وصف آخر لحاشية فرعون ولروح المصريين، ولحالة الجيش وأنه صورة ليس وراءها قوة يعود فيجعل أعضاء الوفد يتهامسون فيما بينهم بأن الخطوبة مرفوضة، وأن الرغبة غير مجابة!! وينسى أنه جعل رئيس الوفد يعلن أن الخطبة قوبلت باحتقار:

أحدهم - أعلمتم ماذا يردد في القصر ... وماذا يقال همسًا ووحيًا ؟

الثاني - ما يقولون؟ هات . قل :

آخر - كيف صدت ... السر في القصر؟ كيف صدت النجيا؟

هات قل ما بأرض مصر عجيب ... مصر دنيا وسائر الأرض دنيا

الأول - هم يقولون أن بنت أمازيس ... عروس المليك تأبى المضيا ؟

الثاني - هازل أنت؟

الأول - بل سمعت حديثا ... إن يكن مفترى، فماذا عليا ؟

آخر - إنه يهذى - دعوه ... كاذب لا تسمعوه !

آخر - يزعم الملكة نفريت ... ابنة الملك أمازس

ترفض السير مع الو ... فد إلى أقطار فارس

آخر - ما خطبه؟ ما يدعى؟ ... امض بنا لا نسمع

آخر - يقول فرعون مصر ... لم يرض قمبيز صهراً

الثاني - من أمازيس؟ ما الأميرة ... ما مصر! في الأرض من قمبيز يهزا!

أهذا خبر يروى ... غبى أنت والله!

أتحت القبة الزرقا ... ء من يسخر بالشاه؟

الأول - اغربوا ما لكم ومالى ... قللوا الشتم والسخر؟

ما الذى قد أتيته؟ ... ناقل الكفر ما كفر

خبر قيل قد يصح ... وقد يكذب الخبر إلخ . إلخ

فإذا كان هذا كذلك، فلماذا انطلق رئيس الوفد قبل ذلك بإعلان احتقار الخطبة ورفضها وكراهة تسفير الأميرة إلى بلاد فارس؟ وإذا كان لابد من أن تثور ثائرة الفرس للهمس بمثل هذا الخبر؛ فلماذا لم يجعل هذه الثورة حين نادى رئيس الوفد أنه خطب أمس بنت الملك فلقى الاحتقار والإعراض، أترى لو جئنا بصبى من صبيان المدارس الابتدائية ووكلنا إليه ترتيب الكلام أما كان خليقًا أن يرتبه على خير من هذا النحو المشوش!

ومن أبعث الأشياء على الدهشة وثب شوقى من مسألة إلى مسألة؛ فهو بعد البيت الأخير (خبر قيل قد يصح وقد يكذب الخبر) يجعل أحد الفرس ينسى الموضوع كله ويهمل الأمر الذى أحوج إلى الاحتجاج والاستنكار، وينتقل فجأة إلى هذا السؤال:

"يا قوم كيف ترى تقضون ليلكم وكـيف نومكمـو فى هذه الدار !"

وتصور هذه النقلة المباغتة من الغضب لما يقال من رفض الأميرة بنت الملك أن تسافر إلى فارس – وهى مهمة الوفد التى جاء من أجلها وليس له مهمة سواها – إلى السؤال عن الليل كيف يقضيه القوم والأحلام وماذا يرون فيها؟؟ هل يجترئ على هذا الوثب إلا ذهن مشوش عاجز عن الإدراك ضئيل الفطنة لما يجب من مراعاة التناسب والسبك؟

وما هى الأحلام التى يرونها ويصفها أمير الشعراء؟ هى أحلام أطفال يخافون الظلام ويفزعون من النوم فيه، ويتراءى لهم فى منامهم ما أخذته عيونهم فى يقظتهم، لا أحلام رجال دولة وفوارس أمة ورسل ملك عظيم. فواحد يرى "خيال تماسيح وأنوار"، وتبدو له فى حلمه توابيت الموتى ينهضون منها بغير أرجل ولا سيقان، وهذا يذكرنا بما تخيف به المرضعات أطفالهن حين يهمسن فى آذانهم ليحملنهم على النوم "هس. هس. أبو رجل مسلوخة؟" وآخر يرى عصفوراً برأس لسان، وثالث رأى العجل أبيس أتى مضجعه وهزه بقرنه وقلبه. وبعد هذه الأحلام الصبيانية يقبل تاسو حارس فرعون، فإذا الفرس الذين حضروا أمس – أمس فقط. يعرفون أنه نديم الملك وعشيق بنته!

ندمـان فـرعـون وصـا حـبـه وحـارسـه النبـيـل
ويمـيـل فـرعـون إليـه وبـنـتـه أيضًـا تميـل !

والبنت هى التى جاءوا يخطبونها لملكهم!

هذان منظران اثنان من فصل واحد أريناك ما فيهما من سخافة واضطراب وخلط، وذاك حسبنا اليوم.

"للكلام بقية"

نقد رواية قمبيز

لصاحب العزة أحمد شوقى بك[٤٩]

(٣)

من أصعب الأمور أن تجمع على المسرح - فى منظر واحد - أشخاصاً عديدين ممن تسمح لهم منازلهم بالكلام والاشتراك فى الحوار، وأن تنقل الكلام بينهم، بحيث لا تتركهم تماثيل جامدة، ومن غير أن يضطرك ذلك إلى الفضول والهراء، وأشق من ذلك أن تجعل المنظر وليمة كبيرة كل من يشهدها من ذوى المراتب الملحوظة، ولكن هذا الذى يتوقاه الحذاق ويتهيبه أهل البراعة والافتنان، هجم عليه شوقى بك بلا فهم ولا قدرة. فجاءنا فى المنظر الثالث من الفصل الأول من رواية خرفه، بوليمة أقامها ملك مصر لوفد الفرس حضرها كبار رجال الكهنوت والدولة، وقال فى وصف المنظر إن على المائدة أو الموائد "ألوان الطعام المختلفة من خراف مشوية وباردة وبط صيد، ومن سمك النيل ومن الحلوى بأنواعها (أى أنواعها يا مولانا؟) وسلال الفاكهة، ووضعت هنا وهناك أباريق الذهب والفضة المملوءة من عتيق الخمر".

وشوقى يقول فى بعض شعره "ولقد ولدت بباب إسماعيلا" وإنه لصادق، فما عدا بنفسه منزلتها ولا كتب يوماً إلا ما ينم عن هذا الميلاد، وقد كنا نظن أنه وقد دخل قصور الملوك ورأى ولائمها يعرف كيف يدير الكلام على موائدها ويصرفه من ناحية إلى ناحية؛ غير أن الذى يقرأ روايته لا يجرى بخاطره أنه تجاوز عتبة الباب الذى ولد

(٤٩) نشرت فى جريدة "السياسة" فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٣١، (ص٥).

به، فقد جعل الوليمة أشبه بالأخونة التى يخرجها المحسنون فى الموالد والأفراح صدقة لذوى الحاجة من المعوزين والفقراء، وإلا فكيف يتصور عاقل مجرب أن أول ما تجرى به ألسنة الضيوف وفاتحة ما يخوضون فيه من الحديث هو الخراف والبط والأوز كأنهم محرومون لم يذوقوا فى حياتهم طعامًا ولم ينعموا بأكل؟ استهل شوقى منظره بأحد الفرس من أعضاء وفد قمبيز الذين جاءوا رسلاً من قبله يخطبون بنت ملك مصر - يقول صاحبه:

فيروز انظر تر الخرافا　　حمراً لطافًا على الخوان

ذا سمك النيل فى الأوانى　　كأنه معصم الغوانى

وأعين تلك فى جفون　　أم ذاك البط فى الجفان

فهل هؤلاء وفد ملك عظيم أو فريق من الجياع الضياع؟ وأى آداب تلك التى تتيح للضيوف أن يذهبوا يشيرون إلى ألوان الطعام المختلفة ويلهجون بذكرها وحمدها؟ وقد كنا نفهم أن يزج شوقى بك بألفاظ النهم والعبارات المشعرة بالحرمان فى هذا الفصل لو أنه جاء فى وصف الطعام بشىء يمكن أن يعد على أى اعتبار ذا قيمة من القيم، ولكنه لم يزد على أن وصف الخراف بأنها حمراء لطيفة، والبط فى الجفنة كأنه العين فى جفنها! لا لسبب يدعو إلى هذا التشبيه أو يجيزه سوى أن هذه جفنة وهذا جفن!! نستغفر الله! بل قال شيئًا آخر فاسمع أو اقرأ لأمير الشعراء:

هذا الخوان قد كمل　　من كل جانب حمل

هذا شوى - هذا قلى

والبط فى الأطباق　　بطبط فى الرقاق

من رأسه للأرجل

وهذه الأوز　　رجراجة تهتز

قد طيبت بالتابل

أعرفت الآن ماذا بلغ من قدرة أمير الشعراء على وصف الطعام؟ الخوان كامل وعليه المشوى والمقلى والبط والأوز متبلة رجراجة - ولا ندرى كيف تكون الأوز رجراجة تهتز؟ فما ولدنا إلا فى بيوت آبائنا!

والملك الداعى صاحب الوليمة والمحتفى بالضيوف؟ جالس كالصنم على كرسيه لا يخرج من بين شفتيه سوى سؤال واحد يلقيه على رئيس الوفد:

سـيـدى لو تقـول لى   كـيف قـمـبـيـز والقدح؟

حتى إذا أجابه فارسى بأن قمبيز فى شغل عن الخمر"بطول غزوته" لم يفهم الملك الغبى بل عاد يسأل:

"أين ترى يشربها؟"

كأنما الملك فى هذه الدنيا رهن بالخمر كيف يشربها المرء وأين؟ نعم أين؟ فهل ظن أنه يشربها فى الحارة أو تحت بئر السلم، وفيما عدا هذا السؤال السخيف لا يبالى فرعون شيئًا ولا يحتاج حتى أن يفتح فمه!! بل يجلس إلى آخر الوليمة صنمًا كما بدأ ولا يخطر له أن يعرف شيئًا عن شئون فارس التى تهدده وتلجئه إلى التمويه وإرسال أخرى باسم ابنته خوفًا من قمبيز وفرقًا، والأحاديث تدور من حوله بين أعضاء الوفد الفارسى تارة أو بين المصريين تارة أخرى، وهو - الملك - يصنع ماذا يا ترى؟؟ يأكل؟ أم يرخى ذراعيه ويقعد تمثالاً ورئيس الوفد إلى جانب الملك، ومع ذلك يدور هذا الكلام:

أحـدهـم لرئيس الوفـد:

مـولاى ألق السـمع   وابـعـث الـنـظـر

ماذا ترى؟

الرئيس: أرى   "بهـارا" قـد سكـر

الأول: فتاك غنيالرئيس: وما   وفـتـاى قـد شـعـر

الـــــــذى ضـــــــــــــــر؟

الأول: صـــــدقت. لا ضــــرر!

الرئيس: ونحن مـــا نصنع؟

الأول: شــرب وســـــــمــر!

الرئيس: ونحن أيضًـا بشـــر وهـــــم بـــشـــــر

فليــــشـــــربوا من هنا هنـا إلى الســـــحــر!

فهل تعرف أسخف من هذا الحوار على مائدة الملك وعلى مسمع منه؟ نعم ثم ما هو أسخف، وذاك أن نتيتاس الجالسة إلى المائدة تأبى لها سخافة شوقى إلا أن تجعلها تحدث نفسها - نفسها لا أحدًا من الناس - بهذه القصيدة الطويلة التى يسود الصمت أثناء إلقائها، والتى لا يسمعها أحد لأنها نجوى:

مضى الغادر لم يشعر بما حـــمـلنـى القـدر

ولا رق لـــــــه نـــــاب على جـرحى ولا ظفـر

ويا هذا كيف يرق الظفر والناب.. إنما يرق القلب؟

تكلمت فلم يســمع وأنى يسـمع الصخـر؟

لقد غامرت فى تاسو وتاسو فى الهوى غمر

كم استشفيت بالسحر فمـــا عافانى السحر

وكم ناديت آبائى فمـا لبـانى النصر

وكم جئت إلى الصبر فمـا آوانى الصبـر

جـزاء المعرض التيـاه منك الصد والكبـر

هبـيــه نأت الـدار به أو نـزح القـبـر

هبى معرفة الغادر لم يأت بها الدهر
أقلى شغل الفكر فقد أتعبك الفكر
هبيه مرت السن عليه ومشى العمر
فلم يبق له نهى على الغيد ولا أمر
ولم يبق له فى البال تمثال ولا ذكر

ولو عقل شوقى لكانت إحدى اثنين: إما أن يكتفى من تحديثها نفسها بين هذا الجمع ببيت واحد فيه الغناء عن كل هذا اللغو وهو قولها:

هبيه نأت الدار به أو نزح القبر

وأما أن يحتال لإخلاء المسرح فى بعض المواقف ليتيح لها أن تحدث نفسها بهذه الإفاضة إذا كان يرى لها داعيًا أو يظن أن الشعر يستحقها، أما أن يترك عشرات المدعوين صامتين بينما تنشد هى أربعة عشر بيتًا مفروض أنهم لا يسمعونها ولا يحسونها فعمل هو من الخرق بالمكان الأوسع، وكان الله فى عون الممثلين! إن تحديث المرء نفسه نقمة فى وسط الناس لا يكون إلا جملاً قصيرة أو ألفاظًا معدودة حتى لا يطول شقاء الباقين بما يضطرهم إليه ذلك من الصمت الطويل ومن انقطاع تيار الحديث ووقف تدفق الحوار والحاجة إلى استئنافه على نحو جديد ووصله من نقطة غير التى بته الشاعر أو الكاتب عندها، والأصل فى مثل هذا الحشو - ونعنى به تحديث المرء نفسه - أنه لا يمنع استمرار الحوار كأن لم يحدث شىء يقطعه ولم ينطق أحد بكلام يفصله ويصد تحدره، ولكن سخافات شوقى لا تنتهى.

وكما أخطأ شوقى حين جهل وفد الفرس يعرفون بعد ليلة واحدة من حضورهم أن تاسو عشيق الأميرة التى جاءوا يخطبونها لملكهم، كذلك أخطأ مرة أخرى حين جعلهم فى هذه الوليمة يقول أحدهم عن تاسو أيضا:

الحمد لله على أن لم تحزه فارس
إذن لها مت كاعب بحسبه وعانس

ثم ماذا فى هذا المنظر الذى لا تنتهى عجائبه؟ ثم أن نفريت التى صورها لنا الشاعر أقبح صورة، وأظهرها لنا خليلة فاجرة ترغم أباها على الرضى بفجورها ومسامحة خادمه التى اتخذته هى لنفسها شريكًا فى إثمها - لم تكن كما صورها خيال الشاعر المخلط؛ فقد هم تاسو بذم نتيتاس فردته نفريت وأثنت عليها وأكبرت تضحيتها، وقالت:

ألم تصبر عن الوطن المفدى ... وتسمح بالديار وبالشباب؟

والتى تعرف أن الوطن مفدى، وأن للديار حرمة ليست هى التى يعقل أن تقول إنها لا تبالى أخسفت بمصر الأرض أم جف النيل وغزا الفرس مصر وضاع الملك ومع الملك كل ما لها فى هذه الدنيا من عز ومتاع!

ثم يجيء الأقزام فيتوثبون ويتصايحون أن دوروا وارقصوا وكلوا واشربوا، ولا ندرى أين يستطيعون أن يرقصوا والمنظر مكظوظ بالمائدة أو الموائد الملكية.

وأخيراً ينطق الملك ليقول:

يا وجهاء الفرس قالوا لكم ... مصر بلاد السحر والساحر
فربما سركموا أننى ... أجيئكم بالساحر القادر

فيجيء حوتيب ولأمر ما يرتاع القوم وما فعل شيئًا ولا قال سوى:

سادتى إنى فى الكف ... وفى الجبهة أقرأ
أنا أقرأ لك خطًا ... أنا أقرأ لك عمراً
أنا الذى بسحرى المبين ... أستطلع المكتوب فى الجبين

ومن غفلة شوقى أنه جعل قراءة "المكتوب فى الجبين" منوطة بالسحر!! وما هو السحر الذى يعرضه؟ بحث شوقى فى جرابه فلم يلف به سوى المأثور من أيام فرعون وموسى عليه السلام أى انقلاب العصى حيات!! ثم طلب الساحر رأس واحد من

الضيوف يقطعونه عن بدنه ليرده إليه كما رد العصا عصا بعد أن قلبها حية تسعى، ويأبى المسكين شوقي إلا أن يجعل الساحر يتجه بهذا الطلب إلى الوفد:

جيئوني برأس يقطع

فإنني أرده	لجسمه وأرجع
فمن من الوفد برأ	سه إلى أن يدفع؟

وأدعى من هذا الطلب المريب؛ إلى الرثاء لعقل شوقي أن يورط رئيس الوفد في إحراج رجاله فيضع على لسانه هذا البيت:

هل منكم يا معشر الفرس بطل	عن رأسه لساحر النيل نزل؟

فيخافون جميعًا ويقولون:

أحدهم: رأسي غير هين	
ثان:	رأسي عمود بدني
ثالث: رأسي لدى غالي	رأسي كل مالي

فيحكمون على أنفسهم بهذا الكلام الزرى ويكون شوقي هو الذى عرضهم لسخافة هذا الموقف بما ورط رئيسهم فيه من مناشدتهم البطولة أن ينزل واحد منهم عن رأسه، ولمَ لا يتقدم هو - الرئيس مثلاً؟ ويقول فيهم فرعون:

حوتيب ما من أحد	هان عليه رأسه
انظر إليهم كلهم	عزت عليه نفسه

وينقلب الموقف زراية على الفرس الضيفان وتهكمًا بهم بلا أدنى مسوغ سوى سخافة شوقي. وبعد أن فر العازفات والراقصات يخرج الجمع ولا يبقى سوى نتيتاس. ومع أن نتيتاس ما قبلت أن تزف إلى قمبيز في مكان نفريت إلا لتقى بلادها غضبه وتحمي وطنها غزوته إذا ساءه أن تُرد خطبته وتُرفض مصاهرته - ومع ذلك يحدث في

آخر هذه الوليمة العجيبة التى يحتفل فيها ملك مصر بوفد الفرس بعد إعلان قبول الخطبة أن تنفرد نتيتاس؛ فتقول:

أفيقي بنت فرعون	فما يزكو بك السكر
غداً تذرو رياح الفر	س من موتاك ما تذرو
غداً يصبغ من شط	لشط بالدم النهر
غداً يهتك عن أربابك	المحراب والستر

فما هى الحكاية يا هذا المخلط؟ إذا كان ذهاب نتيتاس إلى فارس لا يدفع شر الحرب ولا يحمى مصر مصيبة الغزو؛ فلماذا قبلت أن تسافر بدلاً من بنت الملك وفيم زعمت وكيف صدقوا أن تضحيتها بنفسها إن هى إلا فداء للوطن؟ وإذا كان سفرها كفيلاً بأن يدفع هذا البلاء وكانت هى تعتقد ذلك - وإلا لما أقدمت على التضحية مباهية منتفخة الأوداج - فلماذا جعلها الشاعر فى ختام وليمة التكريم تتنبأ بوقوع الشر وشبوب نار الحرب وصبغ شطوط النيل بالدم وانتهاك الأستار وإزالة حرمة المحاريب والمعابد وخراب البلاد؟ أليس هذا الكلام أجدر بأن يكون بعد أن يقف قمبيز على سر الخديعة فيهم بغزو مصر انتقاماً وتأديباً؟

إلى هنا ينتهى الفصل الأول، وسنحاول فى فصل آخر أن نريك بعض ما حشيت رواية شوقى به من سخف وتخليط وتلفيق.

(للكلام بقية)

نقد رواية قمبيز

لصاحب العزة أحمد شوقى بك[٥٠]

(٤)

الفصل الثانى من رواية قمبيز يقع فى مدينة سوس الفارسية، وفيه يصف الشاعر حياة الأميرة المصرية مع زوجها قمبيز وما كان من افتضاح سرها بسبب خيانة فانيس وهو إغريقى كان فى خدمة مصر ثم خانها والتحق بخدمة فارس، وفى هذا الفصل كان ينبغى أن تظهر البراعة وتتجلى الأستاذية، لو أن لشوقى من هذين حظًا، فيصور لنا حياة الفرس ويغمر المنظر بجوها، ويرينا كيف تشقى أو تسعد نتيتاس وعلى أى حال هى مع زوجها الملك، ثم يرسم لنا الوقع المختلف فى نفس الملك والملكة لإفشاء السر؛ والعوامل المختلفة التى تتجاذبهما، ولو نجح شوقى فى هذا لاغتفرنا له كل ما سبق ولحق من الإخفاق المبين، ولكان هذا فى رأينا حسنة، ولقد قال بعض النقاد - وأظنه هازلت وإن كنت غير واثق - عن جولد سميث، إن بحسبه الثلاثة الفصول الأولى من روايته المشهورة "قسيس ويكفيلد"، وأنه لو لم يكتب غيرها لكانت كفاية وفوق الكفاية فى تخليد اسمه، ولكن شوقى مع الأسف كان فى هذا الفصل الدقيق أخيب منه فى كل ما فشل فيه، ولو أنه كان يعرف نفسه أو يعنى بدرس حدود قوتها والوقوف على مواطن ضعفها لتجنب أن يعالج هذا الموقف وتحاشى أن يحاول رسمه.

---

(٥٠) نشرت فى جريدة "السياسة" فى ٢٥ ديسمبر سنة ١ (ص ٥، ٦).

ليس فى الفصل من جو فارس وروحها إلا هذه العبارة التى صدره بها فى وصف الحجرة - "فى حجرة فارسية فخمة مفروشة بثمين الطنافس ومملوءة بالوسائد من الحرير المختلف الألوان وقد زينت زواياها بالرياحين" أهـ. وهى عبارة مكتوبة للفرقة التى تمثل الرواية والغرض منها إرشادها إلى ما ينبغى أن يلاحظ فى بناء المنظر وتأليفه، ولست أدرى إلى أى حد انتفعت الفرقة بهذا الوصف فإن الحجرة - على ما يؤخذ من الوصف - ليست سوى مخزن!! ألست تراه يقول إنها "مملوءة بالوسائد"؟! وفيما عدا هذا الوصف، لا شىء من جو فارس وحياتها يمكن أن يستفاد من الحوار والحوادث، ولو أن الشاعر حذف اسم المدينة ولم يسمها فى صدر الفصل لما كان هناك أى شىء يحمل القارئ على الظن بأن المكان الذى جرت فيه المناظر السابقة تغير، ولولا أنه قال - واصفًا - إنها حجرة مفروشة بالطنافس لشك القارئ ولخيل إليه أن حوادث الفصل تقع فى الشارع أو فى خيمة!! وما من ريب فى أن هذا فشل كبير؛ لأنه لا فائدة من نقل القارئ إلى سوس بفارس إذا كان الشاعر أو الكاتب لا ينوى أو لا يقدر أن ينقله إلى حياة تلك المدينة وجوها ومدنيتها أو همجيتها، وليس الغرض أن يجرى حوار والسلام؛ فإن هذا ميسور فى أى مكان، والنقلة تستوجب أن تكون هناك صورة، ولست أعنى الصورة التى صدر بها الفصل وصفًا لمكان الحادثة وزمانها؛ فإن هذا يراد به أن يكون معينًا لمخرج الرواية وممثليها على تأليف المنظر وتشييده على المسرح، وإنما أعنى الصورة التى يرسمها الحوار بين أشخاص الرواية والحركات التى يؤدونها والحوادث التى تقع وهذا لا يجىء تعملاً بل عفوًا وكأنه غير مقصود لذاته؛ فلعل شوقى ينتفع بهذه الملاحظات فى رواياته الأخرى إذا كان إلى هذا سبيل أو كان لا يأبى الانتفاع بما يهديه إليه غيره وإن لم يكن هذا الغير أمير شعراء مثله!

وكيف نتيتاس وقمبيز؟ أهما متحابان؟ أم الحب غير متبادل؟ أم متغاضبان؟ لا ندرى، وسيرى القارئ أنه ليس أقل حيرة، وابتداءات شوقى بك دائمًا عجيبة؛ فهذه وصيفة الملكة نتيتاس، تمشط لها شعرها وتقول شعرًا تتغنى فيه بمدح سواده ونعومته ورائحته، ولكن الملكة على ما يظهر لا تحس المشط فى شعرها؛ فإنها

تسأل الوصيفة:

ما تصنعين يا تتى؟

فتجيب "تتى":

أصلح مولاتى!

بل أحسبنى فهمت! فإن شوقى يريد أن يجعل الملكة تنكر الضرورة إلى هذا الإصلاح أو التزين، وتنفى أنها تشعر بموجب له؛ لأن المرأة إنما تعنى بزينتها وتتجمل إذا كانت تبالى الرجل وتحب أن يحسن وقعها فى نفسه، أما إذا كانت تكرهه - وتحب غيره أيضًا - فهى لا تعبأ كيف تبدو له، وإلى هنا يكون القصد حسنًا، ولكن ما أسوأ العبارة فإن الملكة بعد ذلك تعود فتسأل: "لمن؟"

فتقول "تتا":

"للزوج يا سيدتى"

فيجرى لسان الملكة بأفظع ما تصف امرأة زوجًا أرغمت عليه، وتقول:

"لنمر الفرس الخشن؟"

وإلى هنا فهمنا - ولا يمكن إلا أن نفهم - أن نتيتاس لا تطوى أضالعها على ذرة من الحب لقمبيز بل هى تعده وحشًا غادرًا، وتستخشن ملمسه وتستوحش من ناحيته، وقد تشعر العبارة أيضًا - إذا صفيناها - باحتقارها للفرس أو على الأقل بكراهيتها لهم وخوفها منهم، وعلى كل حال لا يجوز أن تصف الزوجة زوجها بأنه "نمر وخشن"، وأن يفيض وصفها بكل هذه المرارة - نقول لا يجوز هذا إذا كانت الزوجة تضمر فى قلبها رقة لزوجها وحبًا له، ونتيتاس وإن كانت لا تحب قمبيز، تعترف بواجبها نحوه، وتقول:

قلت حقا تتى فإن على المر	أة للزوج أن تكون أمينة
وعليها ألا تقصر بشرًا	حيث تلقاه أو تقصر زينة

ولم تلبث الملكة بعد هذا أن تناجى حبيبها الغادر "تاسو" بقصيدة طويلة يعرف منها القارئ أمرين: أنها لا تزال تحب تاسو أقوى حب، وأن ما زعمته باعثًا لها على اقتراح زفافها لملك الفرس بدلاً من نفريت لم يكن صحيحًا، فلا تضحية هناك، ولا وطن يفدى، ولا غزو كانت تخافه وأرادت دفعه، وإنما رأتها فرصة لمهاجرة الوطن؛ لأن تاسو صرف قلبه عنها إلى نفريت!!

يا ظالمًا أحبه ... جهد الهوى وإن غدر

ومن هجرت وطنى ... لأجله حين هجر

قلبك لحم ودم ... مثل القلوب أم حجر

إلى أن تقول:

إن غبت عن عينى فأنت ... فى سوارح الفكر

أراك عما رأيت ... طائرين فى الشجر (كذا)

كأنما عز على شوقى أن يترك الباعث الوطنى الذى عزاه إليها فى الفصل الأول من غير أن ينقضه بلا موجب حتى لكأن له ثأرًا عند العواطف النبيلة؛ فتحاول الوصيفة أن تزجرها عن التفكير فيه، وتقول:

دعى الناس مولاتى ... وخليك من السالى

ولا يخطر لك الناكث ... للعهد على بال

ولكن الملكة تقول:

أنا أفديه يا تتا ... بحياتى وإن قتل

ولا بأس أن يكون الأمر كذلك والحال على ما وصف الشاعر؛ أى أن يكون قلب الملكة مع تاسو لا مع زوجها، ولكن الاضطراب بعد ذلك يعتور الفصل فيختلط الأمر على القارئ، فتسأل الملكة وصيفتها:

أرى قمبيز ذل ورق طبعًا ... بربك هل رأيت عليه حبًا؟

والتفات الملكة إلى هذا فجأة بعد كلام فى وجوب المحاذرة فى فارس من السم المدسوس فى الطعام، وتحليفها الوصيفة هل رأت عليه دلائل الحب لها - هذا بلا شك له معناه ودلالته، وأقل ما يدل عليه: أولاً أن الملكة معنية بأن تطمئن على حب زوجها لها ولا يكون ذلك إذا كانت لا تباليه أصلاً، وكان تاسو هو المستأثر بقلبها كما قالت فى مناجاتها له، وثانيًا أن الملك لم يبد منه شيء قاطع فى الدلالة على الحب؛ فقد يكون ما يظهره لها مجاملة وقد يكون عطفًا أو غير ذلك؛ فتقول الوصيفة ردًا على السؤال:

أجل هو يقصر الخطوات مهلاً وكان يمدها خطفًا ووثبًا

هذا دليل الوصيفة على الحب - أو هو دليل شوقي الذى لا يعرف دليلاً سواه؛ كأن كل مظاهر الحب أن يمشى الإنسان على مهل بعد أن كان يسرع فى الخطو؛ أو كان التمهل فى المشى لا يدل إلا على الحب! ولا يمكن أن يكون لتفكير أو تعب أو غير ذلك ثم تتقدم الوصيفة بعد ذلك بسؤال إلى الملكة:

سأسأل فاحلمى عنى فإنى أموت ولا أراك علىّ غضبى
سؤال ملكتى هل من جواب الملكة: أو دونك يا تتا شيء يخبا
تتا: زعمنا أن قمبيزًا محب فهل تجارينه بالحب حبا؟
الملكة: أحب أنا؟ ضل ما قد ظننت! وإن خلت ظنك لم يكذب

فالملكة تنكر بشدة أن تكون محبة لقمبيز وتعد هذا الظن بها ضلالاً، فاسمع الآن هذا الحوار:

تتا: ولم لا، وقمبيز لا بالقبيح ولا بالدميم ولا بالغبى
ولا هو بالملك البربرى ولا الوحش ذى الناب والمخلب
ولكن فتى خير كالسحاب وضيء البشاشة كالكوكب
يزين السرير إذا احتله وإن سار كان حلى الموكب

فترد الملكة معجبة بقمبيز مباهية به واصفة له بما لا يصدر عن قلب ينكر بسرعة وبشدة أن يظن به الاستعداد للميل إليه:

الملكة:

صـــدقت تتـا هو زين الشبـاب إلـه القنـا ؛ قـــمـر الغــيـــهـب

إذا غلبت في القــتـــال الملـوك وفي الســلـم عـــز فلـم يغـلــب

يســيطـر كــالـشــمـس سلطانه على مـــشـــرق الأرض والمغـــرب

ولـكـن مـــتـى يا تتـــا دلهـت بـنـات الـفــراعن بـالأجـنـبــي ؟

فكل ما تزعمه الملكة مانعًا لها من حب قمبيز أنها مصرية وأنه أجنبي!! وهو عذر غريب لا يقبل، وما أظن بشوقي إلا أنه جرى فيه على ما يتوخى من استغلال العاطفة الوطنية، ثم ينكشف السر فيقول الملك للملكة متهكمًا:

كيف أدعوك يا عـروس؟

فتجيبه الملكة بحدة وتشتمه:

بما شئت، [بشر] الأسماء، والألقاب

بـالـذى أنـت أهــلـه مـن بـــذاء والـذى أنـت أهـلـه من ســبـاب

ثم تطرده من حجرتها وتصيح به:

"بل يخرج من حجرتي ومن محرابي"

ومع ذلك، وعلى الرغم مما يقع بينهما ويدور من الشتم والتهديد والملاحاة لا يكاد يصيبه الصرع حتى يقول شوقي واصفًا:

"الملكة تدنو منه في حنو وعطف وتقول:

يا ويح زوجي ويحـــــه هاج وعـــاده الصــــرع !

يا نار كـــوني حـــولـه أدركــــه يا آمـــون رع

ولو كان بغضها له صادقًا لتمنت له الموت ولاسيما بعد أن أنذرها قومها الهلاك والخراب والدمار، وأن يسيرها هى تحت لواء فانيس الذى هتك سترها وفضح سرها ووشى بها، إذلالاً لها! فهل هى تحبه أو لا تحبه يا شوقى بك؟

قمبيز أيضًا ما خطبه؟ لقد قضت نتيتاس عامًا فى فارس يدل على ذلك قولها:

وليّ فى فـــارس عـــام فـــمـــا فكرت فى ذلك

ومع ذلك احتاجت أن تستخبر وصيفتها لتعرف هل ظهرت عليه أمارات الحب وتقول:

أرى قـــمـــبـــيـــز ذل ورق طبـــعًـــا بربك هل رأيت عليـــه حـــبًـــا؟

ومع ذلك نسمع قمبيز يقول لها فى هذا الفصل معاتبًا مذكرًا بحبه الذى هى به "أدرى"!:

دعى العـــزة بـالجنـس نتيـتـاس، دعى الكـبـرا
ولا تلقى على إحـســانى النســـيـــان والكفــرا
أمــا أحـــبـــتــك الحب الـــذى أنت بـه أدرى؟؟
وفــضـلتك فى القــصـر على البيضـاء والسـمـرا؟
وقـــدمـــتك فى الأزواج قبل الأخت من كسرى؟

فقمبيز هنا يذكرها بحبه ويقول لها إنها عارفة به لا تجهله ويسرد لها آياته ودلائله، نعم إنها آيات سخيفة ولكن هذا ذنب الشاعر لا الملك، فإذا كان هذا كذلك ففيم سؤال الملكة وصيفتها "بربك هل رأيت عليه حبًا" فهل شوقى يكتب وينسى؟ ألا يحاول على الأقل أن يوفق بين أبعاض المنظر الواحد إذا استعصى عليه التوفيق بين ما فى الرواية كلها.

وسنتناول بقية الفصل فى مقال آخر.

نقد رواية قمبيز

لصاحب العزة أحمد شوقي بك[٥١]

(٥)

يخرج القارئ من الفصل الثاني من رواية قمبيز وهو يعتقد أن الملك كان في تلك الأيام مسخرة، وأن سياسة الدول كانت عبث أطفال، وأن قمبيز كان رجلاً مجنونًا لا أكثر، وكان حقه أن يحبس في مستشفى، وأن فرعون مصر كان مغفلاً أبله - هذا هو ما يقع في نفس القارئ من فصلين اثنين من الرواية، والأمر يحتاج إلى إيضاح فلنتوله على قدر ما يسمح المقام.

عرف الوفد الفارسي الذي ذهب إلى مصر يخطب لملكه بنت فرعون، أن نفريت خليلة أحد رجال الحاشية، واستطاع أن يقف على هذا السر بعد ليلة واحدة قضاها في البلاد وعلى الرغم من أن نفريت لم تظهر للوفد ولم يرها أعضاؤه؛ لأنها ظلت محتجبة، والدليل على احتجابها أن نتيتاس لما حلت محلها وذهبت نفسها بنت الملك والخطيبة المنشودة قالت لهذا الوفد معتذرة من احتجابها:

قد تأخرت عنكمو	وأطلت التحجبا
ونهاني مطببي	فسمعت المطببا
خبأوني لوعكة	ومن البر يختبا

(٥١) نشرت في جريدة "السياسة" في ٢٧ ديسمبر سنة ١٩٣١ (ص ٥).

والشاعر قد خبأ نفريت ليتسنى له أن يبرز نتيتاس باسمها، ومع ذلك وقف الوفد على سر الهوى بين بنت الملك ورجل من حاشيته، وليكن قد أقام ذلك أسبوعًا أو شهرًا، وأن هذا السر ما ظهر ولا عرفه الوفد إلا بعد طول الإقامة والاتصال، فما يعنينا طالت المدة أم قصرت، وإنما الذى يعنينا أن السر لم يلبث أن عرفه الضيوف وأحاطوا به أتم إحاطة، ولا يستطيع شوقى أن ينكر أنه فعل ذلك فقد جعل أحد الفرس فى المنظر الثانى من الفصل الأول يسأل زميلاً له عن تاسو:

تاسو؟ ومن تاسو؟

فأجابه الفارس الآخر:

فتى	فى القصر مرموق جميل
ندمان فرعون وصاحبه	وحارسه النبيل
ويميل فرعون إليه	وبنته أيضًا تميل

هذا وما رأوا بنت الملك ولا نتيتاس! فإذا كان هذا هكذا فهل يعقل أن يظل الوفد الفارسى يجهل أن التى زعموها بنت الملك ليست بنته وأن التى خطبوها غير التى قبلت الخطوبة، وأن التى مضت معهم إلى فارس لتزف للملك ليست إلا أميرة أخرى انتحلت اسم نفريت؟ وهذا التدبير الذى اقترحته نتيتاس وقبله الملك يعد ولا شك سرًا خطيرًا يؤدى إفشاؤه إلى شر مما كان يخشى لو رفض فرعون مصاهرة قمبيز. ومع ذلك انظر ماذا صنع الشاعر؟ جمع رجال الدولة المصرية كلهم فى وليمة التكريم التى أقامها للفرس؛ وأجلس نتيتاس على أنها نفريت ورجال الدولة فيهم المصرى وفيهم الأجنبى، وفى هؤلاء وهؤلاء من ليس من الحكمة ائتمانه على سر له كل هذا الخطر، فقد يثرثر أو يكون غير كتوم أو يسكر فينطلق لسانه؛ أو يخون، فأى تدبير هذا؟ وما الفرق بين الأطفال ورجال الدول وساسة الأمم إذا كانوا يلجأون إلى مثل هذه التدابير الصبيانية التى لا يعقل أبدًا أن تجوز على أحد؟ ومع ذلك أقام الوفد الفارسى ما أقام فى مصر وهو جاهل هذه الحقيقة؛ على الرغم من أن الشاعر قال لنا إنه جاس خلال

الديار ودرس أحوالها وعرف مبلغها من القوة وحظها من البأس والسطوة، ثم عاد الوفد وهو يجهل هذا المكشوف الذى يعرفه حتى الخدم، وزفت الأميرة المزورة إلى قمبيز فلبث عامًا لا يسمع بالحقيقة الشائعة ولا يلقيها إليه أحد، ولما خان فانيس مصر والتحق بخدمة فارس، وأفشى السر الذائع، صدقه الملك ولم يحتج إلى دليل يعزز ما ألقى إليه ولم يطلب شاهداً على صحته، واكتفى بأن يسأل الملكة (نتيتاس) فلم تنكر ولو أنكرت لصارت حياتها فى كفة وكلمة فانيس فى كفة أخرى؛ إذ لا مرجع هناك ولكان الملك خليقًا أن يؤثر تصديقها على تصديق رجل يجوب الآفاق ويضرب فى الأرض طلبًا للرزق؛ حيث كان باعترافه (ص٧٢ الفصل الثانى):

أجل مولاتى، الإغريق قومى	أحهموا ويونان بلادى
هجرتهما إلى مصر صبيًا	لكسب معيشة وطلاب زاد

ولكلمة أميرة بنت ملك على كل حال أولى بالتصديق من كلمة مرتزق لا ينكر أنه يخون:

قد خنت مصر وخنت سادتى بها	لكننى ما خنت قط بلادى

وعلى هذا يثور قمبيز ويجن جنونه؛ لأن السر المشهور الشائع الذى يعرفه كل واحد فى مصر والذى كان ينبغى أن يطلع عليه كل فارسى وفد على مصر كما اطلع بسرعة على علاقة خفية - أو على الأقل يجب أن يكون مفروضًا أنها خفية - كالعشق بين نفريت وتاسو خادم أبيها، وصيح قمبيز متوعداً منذراً:

كذبت علىّ يا ابنة ابرياس	حذار حذار من بطشى وفتكى
أنا قمبيز ابن كسرى	أنا جبار الوجود
وأنا النار أصولى	وبنو النار جدودى
ويل فرعون ومصر	من جنودى وبنودى
[رباه] ويحى ويح لى	كأنما النار فىّ تتقد
رباه ناراه ما الذى أجد؟	أورما زد كن عونى

يا نار كوني لي	بنت فرعون
انتظري البطش يا	أنا وحش أنا غول
أنا قمبيز بن كسرى	وعلى النار أبول
لست بالعجل أبالي	رباه ما لي لا أعي

وهكذا يكون تدبير رجال الدول، وتكون سياسة الأمم فيما يعلمنا شوقي بك!

وليلاحظ القارئ أننا لا نتعرض للناحية التاريخية ولا نقابل بها ما كتب شوقي بك، فإن هذا سيجيء في أوانه، وإنما نتناول الرواية كما هي لنريك مبلغ ما في تأليفها من الاضطراب وما في أساسها من الضعف والوهن؛ فإن سرًا شائعًا كهذا ما كان يصح أن يجعل محور الرواية كلها والقطب الذي تدور حوادثها، في دولتين عظيمتين كمصر وفارس لم يكن ثم أقوى منهما في ذلك العهد، وقد كان ينبغي لشوقي بك أن يحتال ليبقى السر في أضيق دائرة، لا أن يكشفه في وليمة عامة يدعى إليها العشرات من الضيوف ورجال الدولة وقوادها من مصريين وأغارقة ليس منهم إلا من يعرف نفريت ونتيتاس كما يعرف نفسه أو أهله.

والحرب التي شن قمبيز غارتها على مصر كان الباعث عليها والداعي إليها أن قمبيز عرف أخيراً أن مصر خدعته وزفت إليه بنت ملك سابق زاعمة أنها بنت الملك الحالي، هكذا قال شوقي، ولو قد بلغ من غضب قمبيز لوقوفه على هذه الخديعة وهياجه بسببها أن أصابه الصرع وهو يكلم الملكة في هذا الشأن في شدة الانفعال:

أنا قمبيز بن كسرى	أنا وحش أنا غول
لست بالعجل أبالي	وعلى النار أبول
قد رجع الصغير لي	يا ليته لم يرجع
ما بال عيني أظلمت	ما بال ساقي جمدت
أين الطبيب ازدشر	

(يغشاه الصرع)

وقبل ذلك يجرى هذا الحوار بينه وبين الملكة فى هذا الصدد أيضًا:

الملك : سترين العقاب

الملكة : إنى تأهبت، فهات العذاب هات المنونا

الملك : لا فما ها هنا العقاب ولكن

الملكة : أين؟ الملك : في حيث شئت - لم تسألينا

مصر أولى بأن أحاسب فيها وأحل العقاب بالخادعينا

فى غد تدخلين مصر مع الجيش إلخ

فلا شك إذن فى أن غزو مصر كان داعية غضب قمبيز بسبب هذه الخديعة، ولكنك تقرأ فى الفصل بعد ذلك ما يدل على سبق التدبير والاستعداد، وأن النية كانت مبيتة والعزم كان معقوداً على فتح مصر على أى حال بغض النظر عن خداع مصر لقمبيز، فإن الملكة تحاول أن تجسم له المصاعب الذى ستعترضه إذا هم بفتح مصر؛ فيقول:

الملك:

لا تراعى، فما على الجيش بأس كل شىء على الحدود تهيا

قد وجدنا الجرار فى مصر والماء ولم نعدم الرجال السقيا

ويضيف فانيس إلى مقال الملك:

واشترينا الخفير بالمال والحا رس والحامى الأمين القويا

وفى هذا الفصل أيضًا، فضلاً عن رشوة الحراس والحماة ما يدل على أن قمبيز عنى عناية خاصة بدرس حالة الجيش المصرى ومبلغ استعداده للدفاع وقدرته عليه، فإنه يدعو القائد ميجا ليصف لنتيتاس [جيش] مصر؛ فيقول:

إن ورد السلم من كثرته نسيت أظفارها فيه الأسود

واختلاف الجند فيما بينهم أخد البأس وإن أبقى الحديد

أصبح الجيش

الملك : تكلم

الملكة : قل – أين

ميجا : كالقطيع اختلفت فيه الجنود

حشر اليونان في رايته وتراغى الزنج واندس العبيد

وغدا كل طريد لم يجد سبب الرزق ؛ أتى الجيش يصيد

فأنت إذ تقرأ الرواية تظل مضطربًا بين نظرتين الأولى أن غزو فارس لمصر كانت نتيجة جِنة أصابت الملك بسبب خديعة مصر له، والثانية أن الملك كان ينوى هذا ويأخذ العدة له وافية كاملة، بغض النظر عن نتيتاس، ومن قبل أن يعرف حقيقتها؛ وشوقى بك يدعك حائرًا لأنه هو على الأرجح حائر، والسبب فى ذلك فساد تأليف الرواية، وإقامتها على فكرة مستحيلة كما أوردها شوقى بك؛ فإنها حيلة لا تليق حتى ولا بأطفال كُتاب فضلاً عن ساسة الأمم.

(للكلام بقية)

نقد رواية قمبيز

لصاحب العزة أحمد شوقي بك[٥٢]

(٦)

كل عاطفة كريمة، كل إحساس شريف، كل باعث نبيل، لابد أن يعدو عليه شوقى بك ويمرغه فى الأوحال ويلوثه، ويبدل صاحبه منه خسة ونذالة ولؤمًا، وقد سبق مثال أو مثالان من هذا، ولكنا فى هذا الفصل سنتقصى ما فى الرواية، ونرفعه قِبل العيون، وليحكم القراء بعد ذلك [على] الروح التى يصدر عنها أمير الشعراء ونوع الوحى الذى ينزل عليه:

نتيتاس فى فاتحة الرواية تباهى مجيبة نفريت بأنها تؤثر الوطن على نفسها وتضحى لتفديه:

أتيت لمصلحة الآخرين	وجئت لشأن جليل العظم
"أتيت لأفدى بنفسى البلاد	وأدفع عن مصر شر العجم
فإنك إن ترفضوا يزحفوا	كزحف الذئاب ونحن الغنم؟

وتقول لفرعون:

جــئـت أفـدى وطنى من	سيــف قمبيز وناره
جــئـت أفـدى وطنى من	دنس الفتــح وعـاره

(٥٢) نشرت فى جريدة "السياسة" فى ٢٨ ديسمبر سنة ١٩٢١ (ص ٥).

ثم تقول مفاخرة:

ومالى لا أعطى الحياة إذا دعت   بلادى؛ حياتى للبلاد ومالى

ولكنها فى الفصل الثانى تناجى بنفسها بما ينقض هذا كله، ومهما يكن ما تظهره فالنجوى أصدق وأدل على ما تبطن؛ وإذا كان الصحيح ما تعلنه وتجرب به لسانها على مسمع من الناس؛ فقد كان الواجب على شوقى بك أن لا يجعلها تحدث نفسها بمثل هذا الكلام:

يا ظالمًا أحبه   جهد الهوى وإن غدر

ومن هجرت وطنى   لأجله حين هجر

وهذا صريح فى أنها ما سافرت إلى فارس وزفت إلى ملكها لتفدى وطنًا أو لتدفع عنه غارة غاز مخوف الغضب، بل لأنها لم تعد تطيق الحياة فى مصر بعد أن حول تاسو قلبه عنها إلى نفريت، ولهذا اغتنمت فرصة الرفض من جانب نفريت فتقدمت، وبديهى بعد ذلك أنها أرادت أن تصيب عصفورين بحجر: تتزوج ملكًا قويًا مرهوب الجانب، وتنأى عن البلد الذى صارت حياتها فيه شقية، وهى بعد ذلك تعاشر زوجًا تبطن له الاحتقار والمقت، وتقول فى وصفه لوصيفتها "النمر الفرس الخشن" وتزدرى أصوله وقومه:

ولكن متى يا تتا دلهت   بنات الفراعن بالأجنبى؟

وما نلتقى فى جلال الجدود   ولا فى العقيدة والمذهب

وتشتمه وتسبه فى وجهه وهى ثائرة:

الملك: كيف أدعوك يا عروس؟

الملكة: بما شئت، بشر الأسماء، والألقاب

بالذى أنت أهله من بذاء   والذى أنت أهله من سباب

وتتملقه فى العادة وتنافق له وتلقاه بتحية العبد للسيد:

الملك فى مقصورتى — يا مرحبًا يا مرحبًا

سلام سيد الأرض — سلام حيدر البيد

ومن دانت له الدنيا — وألقت بالمقاليد

ومع ذلك تضمر فى أثناء ذلك كله حبًا لتاسو الغادر وتقول "فى نفسها" على حد تعبير شوقى بك:

ذنبك لا يغفر إلا — أن قلبى قد غفر

إن غبت عن عينى فأنت — فى سوارح الفكر

يا ليت شعرى كيف أنت — ما تجىء ما تذر

فإخلاصها لوطنها دعوى زائفة ووفاؤها لزوجها رياء ونفاق. ويصف شوقى بك – فى الفصل الأول – أخلاق المصريين على لسان واحد من وفد فارس؛ فيقول:

ولم أر مثل صناعاتهم — سموًا وبعدًا على المنتقد

ولا مثل أخلاقهم مبلغًا — من الفضل أو من خلال الرشد

إذا مر يافعهم فى الطريق — بشيخ تنحى له أو سجد

ولكنه فى الفصل الثالث يجعل لفيفًا من الرجال المصريين يحيطون بعجوز يسخرون منها ويعبثون "تُقبل امرأة مصرية عجوز"؛ فيقول أحدهم:

وهذه دوباره

آخر : — الشيخة الثرثارة

الأول : هلمى يا دوباره — هات اذكرى الأخبارا

دوبارة :

لا تسألونى ما الخبر — مصر ترى اليوم العبر

لكن صه حذار		لا يدرين دار

عارضني الساعة في طريقي		فتى مليح الحسن والبريق

أحدهم: من الجنود؟

العجوز:		لا من القواد

عالي المكان		ظاهر الميلاد

وما أتى! ما فعلا!

العجوز:		عانقني وقبلا

الأول: وأين! فوق		فمك الدرى!

آخر: أو من على جبينك		البدرى

آخر: أو فوق خد		مثل روث البغل

الأول: أو فوق ذقن		مثل كعب النعل

العجوز: أهذه نجدتكم يا فتية		أهكذا تحمى بمصر النسوة

يا أسفًا على القرون الخالية		يا أسفًا على النفوس العالية

وليس فيما تقول العجوز ما يشعر أنه تخيل أو أن الاعتداء عليها وهم أو كذب ولو كان هؤلاء الرجال أطفالاً لعذرناهم؛ فإن الأطفال تعبث بلا كابح، ولكنهم رجال وهم بأعيانهم الذين يجعلهم شوقي بك بعد ذلك مباشرة يتحدثون عن وجوب الثورة والتمرد على الفاتح.

ويصف الفرس في الفصل الأول المصريين؛ فيقول قائلهم:

لهم مثل ما للأسد بالجنس عزة		ضوارى الفلا عند الأسود كلاب

ويجيء شوقى بك فى الفصل الأخير فيجعلهم جبناء لا تخطر لهم الثورة لأن وطنهم غزى واستولى عليه الأجنبى، بل لأن أوزهم طاح وبطهم طار:

أوزى كـــلـــه طـــــاح   وبـــطـــى كـلـه طــــار
وأخـــتى خطفت منى   وزوجى جللت عــــارا

ويجعل ذهاب البط والأوز وسبى الأخت وانتهاك الزوجة فى مستوى واحد!! ويقدم البط والأوز؛ فتقول الجماعة:

إذن لقــــد آن أن نثـورا   لطرد قـمـبـيـز والجنـودا
الغـاب فى شقـوة وبؤس   فما الذى يمسك الأسودا

فيسرع أحدهم محذراً مخوفًا:

خذوا حذركم، أقبل الطاغية   مع الوزراء وفى الحاشـيـة
وذا السيف فى يد جلاده   يسل على الأرؤس العالية
آخر: تلك مصائب وقد   صـبـت عـلـى هـذا الـبـلـد
امـضـوا بنا امـضـوا بنا   لـيـســمـعـنـنا أحــــــد

وينتهى أمر الثورة ووجوب التمرد بهذه الأبيات الستة! ولا يقتصر شوقى على ذلك بل يضع على لسان قواد الفرس أن:

النوب جند بســـامـــا   بل هـم أشـــــد جنوده
وأثـبـت الجـــــيش يـوم   القــــتـــال تحت بنوده

أما المصريون فلا ذكر لشجاعتهم وبلائهم وصبرهم على القتال ومقارعة الأبطال. أما رأى شوقى فى المصريين عامة فقد أجراه على لسان وزير فارس - وهو الرأى الذى يعمل هو به:

من لم يكن كاهنا فى مصر أو ملكا ولا تراه لهذا أو لذا تبعًا

فلا تقيسن فى هذى البلاد به إلا المواشى والأحجار والسلعا ! !

وتنتحر نفريت بنت الملك أمازيس، لتغسل ذنبها فلا يتركها شوقى بك ولا يدع ندمها مبرئًا من الشوائب بل يدس عليها الجبن ويقول على لسان واحد فى الفصل الآخر:

نفريت من مخافة الحساب ألقت نفسها إلى العباب

وقد جعل فى الرواية قواد مصر خونة يشرون بالمال ويتقدمون للأجنبى بذممهم ووطنيتهم ورجولتهم يبيعونها فى السوق لمن يكون عطاؤه أجزل فقال على لسان فانيس فى الفصل الثانى:

واشترينا الخفير بالمال والحا رس والحامى الأمين القويا

والغريب أنه يسمى عديم الذمة أمينًا والخائن وفيًا؟

ومن تمام هذا البحث أن ننبه القارئ إلى أن شوقى لا يعنى بتدنيس البواعث وحطها عن مقام الشرف وتجريدها من النبل إلا إذا كان الموصوف مصريًا، أما الأجنبى فيدعه سليمًا ولا ينال منه، ولا يحاول أن يقلب محاسنه معايب وفضائله رذائل! حتى قمبيز الذى يجعله الشاعر قاسيًا فظًا يقتل أخته وأخاه ولا يبين لنا السبب يعود فى آخر الرواية فيجعله يندم ندمًا صحيحًا وينبه ضميره ولا يعرض لهذا الندم بما يفسده أو يضعفه أو يخرجه إلى تأويل غير محمود كما فعل مع نفريت المصرية.

وعلى ذكر ندم قمبيز واستيقاظ ضميره نقول إن من أغرب المواقف ذلك الموقف الذى وصفه شوقى بك لهذه المناسبة، والموقف هو أن الملك تتراءى له خيالات قتلاه وأشباح فرائسه فيكاد يجن والتصوير ضعيف ولكن ما علينا من ذلك فإن ما يتلوه أدهى:

قائد : هذا ضميره صحا هذا ضميره انتبه

حتى رأى آثامه ولم يكن لها أبه

آخـر: ثار به ضـمـيـره؟ — ومـا الضـمـيـر حـيـدر؟

حـيدر: سـريرة تندم أحيا — نـا وحــيـنـا تـزجـر

ويرجـع الناس لهـا — إلا امـرؤ لا يشـعـر

الأول: وأين منزل الضمير؟ — حيـدر: موضع من الجسد

انظـر. هنا يا رستم — القلب، وها هنا الكبد

وليلاحظ القارئ أن قمبيز ثائر فى وسطهم وقد قتل بعض من حوله وقتل العجل وأنه موشك أن ينتحر فتصور هذه المحاورة فى وسط هذا الهيـاج من الملك). يشير حيدر إلى أعلى الصدر وأسفله وإلى ما بينهما أى المعدة ثم يستمر:

وهـا هنـا الضـمـيـر بـ — ـين القلب والكبد قعد

رستم: هنا الدجاج والحمام — هـا هـنـا بـلا عـدد

حيدر: والبط أيضًا والأوز — والحـمـار والـوتد

وكـل مـا تخـطـف أو — تسـرق من هذا البلد

رستم: حيدر هل يجترع — الضـمـيـر أو هل يزدرد

وهـل لـه حـوصـلة — وهـل لـه رجـل ويـد

وقبل هذا الحوار المدهش فى حضرة ملك ثائر مجنون يضرب بخنجره يمينًا وشمالاً، قبله ببيتين اثنين - لا أكثر - كان القواد يتهامسون فيما بينهم خائفين أن يقتلهم كما قتل غيرهم:

قـائد: ويـح لقـمـبـيـز — آخـر: ويـح لـه جنـا

الأول: من يقـتـل اليـوم — من الشـقـى منـا؟

فهل هذا يعقل يا شوقى بك؟ هل يقبل العقل أن يجن الملك ويثور ويدفن خنجره فى الصدور فيكون كلام من حوله فى هذا الوقت ما قلت عن المعدة والأوز والبط، وما تتفكه به ساخراً من الضمير متسائلاً أهو يجترع أم يبلع وهل له حوصلة، وهل له رجل ويد؟ لا نحب أن نقول شيئاً فى وصف هذا، ولكنا نسأل أنصار شوقى والمعجبين به ما رأيهم وما حكمهم على صاحبهم.

ونكتفى بهذا فى نقد الرواية كما هى مكتوبة، وسنتناول ما صنع شوقى بموضوعها من الناحية التاريخية فى المقال الآتى.

نقد رواية قمبيز
لصاحب العزة أحمد شوقى بك[٥٣]

(٧)

شوقى فى روايته يجارى بغير تفكير، ولو فكر لما أجداه ذلك لأن العلم بالتاريخ المصرى ينقصه، وأغرب ما فى أمره أنه يحاول أن يستر التقليد بالجهل؛ فقد جارى الدكتور جورج إيبرز فى اعتبار نتيتاس - كما سماها - بنت الملك المخلوع؛ وجاراه كذلك فى زفها إلى قمبيز على أنها بنت أمازيس فرعون مصر الغاصب، ثم راح يزعم أن الدكتور إيبرز هو صاحب القول بأن نتيتاس كانت زوجًا لكورش لا لقمبيز ابنه، كما قال شوقى.

"إن الذى قال ذلك هو الدكتور إيبرز وقد كتبها متأثرًا بالحضارة اليونانية شأنه فى ذلك شأن كل المؤرخين الإفرنج الذين يتكئون فيما يؤرخون على الحضارة اليونانية، غير عابئين مطلقًا بالحضارة المصرية فى ذلك العهد، وأنا المصرى ما كان لى أن أسلك الطريق الذى سلكوه فى الكتابة عن هذه الحقبة من الزمن، وإنما كان علىّ أن أعتمد على الحضارة المصرية وأن أسمو بالناحية الوطنية بما يجعلها فى مستوى أرفع من النواحى الأخرى ولقد فعلت".

والدكتور إيبرز ليس بالكاتب المجهول فإنه من أفذاذ العلماء بتاريخ مصر، وقد صوره فى روايات شتى ليجعل الإقبال عليه أشد وفهمه أيسر والصبر على معاناته

---

(٥٣) نشرت فى جريدة "السياسة" فى ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٣١ (ص ٥).

أكبر كما قال وكرر فى مقدمات هذه الروايات، وقد عثر على أوراق من البردى على أعظم جانب من الأهمية ثبت منها أن حضارة مصر بلغت شأوًا بعيداً مدهشًا، واكتشف أنهم كانوا يعرفون الأخصاء في الطب وغيره من العلوم؛ وأن الرمديين كانوا فى عهدهم من الفحول؛ حتى لقد كانوا يجرون أدق العمليات التى يعرفها أطباء الرمد الآن، وقد تناول الدكتور إيبرز فتح قمبيز لمصر فى رواية "الأميرة المصرية" والذى فيها هو أن نتيتاس زفت إلى قمبيز لا إلى كورش أبيه!! فشوقى بك يجاريه ويأخذ عنه ثم يذهب يعزو إليه ما لم يفعل ويفضل أن يرمى بالجهل على أن يقال إنه جارى إيبرز أو سواه.

ولكنه جاراه بغير تفكير كما قلنا، فكانت النتيجة أن أقام بناء روايته على الرمل أو الماء، ذلك أن الدكتور إيبرز جعل أمازيس يتخذ نتيتاس بنتًا له كبنته الحقيقية؛ ويكتم الناس جميعًا أنها بنت الملك المخلوع، فلم يكن أحد يعرف سر مولدها إلا اثنان غير الملك، بسماتيك ابنه وولى عهده وفانيس الإغريقى الذى كان قائد الحرس الملكى والذى كاد يقتل ثم شفع له الملك واكتفى بنفيه لأنه أمر خادمه فقتل بضعة قطط وألقى بها فى النيل وهذه كانت جريمة فى تلك الأيام، اغتنم الكهنة فرصتها، وكانوا هم وبسماتيك يكرهونه فاستغلوها، حتى نتيتاس نفسها – فى رواية إيبرز – لم تكن تعرف سر هذا المولد فسافرت على أنها ابنة الملك القائم، وأن أباها آثرها لقمبيز لأن اختها أضعف منها بنية وأقل صبراً على مشقة السفر والرحيل إلى فارس؛ فلما زفت إلى قمبيز كانت عنده هى الأميرة، ولكن الدسائس أحاطت بها فى القصر وفى خارج القصر، فأما فى القصر فمن زوجات قمبيز وجواريه حتى لقد اتهمت فى أخيه ثم ظهرت براءتها وعفتها، وأما من خارج القصر فمن ناحية فانيس طريد مصر واليونان جميعا والذى التحق بخدمة فارس وهو حاقد على بسماتيك وما لقى منه، فاطلع قمبيز على سر ميلاد زوجته وأيده فى ذلك الطبيب المصرى الذى ذهب إلى فارس ليعالج عينى أم قمبيز وكانت قد عميت، فاعتبر قمبيز نفسه زوجًا لبنت ملك مصر الشرعى، على اعتبار أن أمازيس اغتصب الملك من أبيها، وأن ابنه بسماتيك أقل منه استحقاقًا للملك.

ولما كان هو قد تزوج بنت الملك الشرعى الذى خلعه أمازيس؛ فهو أحق وأولى من بسماتيك وبهذه الحجة غزا مصر وعليها اتكأ؛ وإن كان السبب الحقيقى هو أن ذلك كان عصر التوسع الفارسى وزمن الفتوح، وأن القوة هى التى أغرت بالعدوان.

وأقل ما فى رواية الدكتور إيبرز أنها أقرب إلى النقل وأدنى إلى الحقائق فى جملتها وإن لم تخل من زيادات وحواش استوجبتها الضرورة، فى صوغ القصة وسبكها؛ أما رواية شوقى فليس أغرب منها ولا أبعد عن العقل ولا أولى بعدم التصديق، فقد جعل نتيتاس بنت الملك المخلوع بعيدة عن القصر وجعل المعروف عند كل امرئ كبيراً كان أو صغيراً أنها بنت الملك السابق؛ حتى إن زيارتها للقصر يسوء وقعها فى نفس نفريت:

نفريت: تكلمى واقتصدى

نتيتاس: ولم أزل مقتصده

نفريت: أتيتنى شامتة؟

نتيتاس: لا بل أتيت مسعده

ثم تقول نتيتاس إنها ما جاءت تطلب مالاً منها أو من الملك فتسألها نفريت:

ففيم إذن جئت يا نتيتاس

وفى أى شأن نقلت القدم

كأن حضورها إلى القصر مستغرب، والذى بينها وبين الملك سر فهى حين تدخل عليه تحيى العرش دون الجالس عليه فيسألها:

وسلام الذى على عرش مصر؟

لا تؤدينه؟

نتيتاس: وكيف أؤى

ليس بين ابنة وساقى أبيها

غصة الموت من سلام وود

إن حقدى عليك دين وبر

رب لا يذهب العقوق بحقدى

فرعون: احملى الحقد لى أو اطرحيه

وتمنى على جاهى ورفدى

اسألى تسألى أباك

نتيتاس: معاذ الدم

فرعون ليس دنياك قصدى

فرعون: فيم قد جئتنى إذن؟

فهى مع الملك وابنته على حرف بل حروف، ومع ذلك يسرع شوقى فيجعل الملك يتظاهر فجأة بأن هذه الفتاة التى لا يجهلها أحد فى مصر، ابنته ويقدمها لوفد فارس الذى حضر قبل بضعة أيام وهو يعرف أو من حقه أن يعرف من ابنة الملك - وإلا فمن جاء يخطب؟ - على أنها ابنته، وذلك فى حفلة كبيرة يشهدها الوفد ورجال الدولة جميعاً من كهنة وساسة وقواد... إلخ، ثم يذهب بها الوفد إلى فارس.

وعلى هذا الأساس الواهى الذى ليس بأساس قط يبنى الرواية كلها وعلى مداره تجرى الحوادث؛ وقد صور المصريين فى الرواية على غير حقيقتهم، ويرفع لهم صورة زرية، وقد نقلنا فى مقالاتنا السابقة أبياتاً فى هذا الصدد فلا نغثى أنفسنا وقراءنا بتكريرها، وجعل الشأن كله للأغارقة ولا شأن للمصريين، ولم يكن المصريون كما وصف، ولا كان شأن الأغارقة كما صور، نعم كان الملك أمازيس يستعين بالإغريق لأنه غاصب ولأنه لا يطمئن إلى ولاء المصريين ولا يأمن جانب الكهنة ولكنه كان مع هذا عاجزاً عن التخلص من نفوذ الكهنة، غير مستطيع أن يتحرر من رقابتهم، حتى لقد بلغ من خوفه منهم أنه كان يخشى إذا مات ألا يسمحوا بدفن جثته؛ وكان الشعب كله ناقماً

على استخدام المرتزقة من الأجانب، وعلى رأس الساخطين والمقاومين لهذه السياسة ولى العهد نفسه والكهنة؛ وكان الجيش مصرياً وإن كان الملك قد احتاج أن يتخذ لنفسه حرساً من مرتزقة الإغريق، فليس بصحيح ما يقوله شوقى على لسان أحد الفرس:

أخى ما رأيت بمصر الجنود ... ولم يأخذ العين منهم أحد

سوى فتية من جنود القصور ... وضباطها فى الثياب الجدد

يروحون فى الخوذ اللامعات ... ويغدون فى الذهب المتقد

وعلى لسان آخر:

إذن هو ملك بلا حائط ... رقيق الأواسى ضعيف العمد

خلا الوكر من صرخات العقاب ... ونامت عن الغاب عين الأسد

أولئك لا فى حماة الديار ... ولا فى العديد ولا فى العدد

طواويس فى عرصات القصور ... تروق تهاويلها من شهد

فإن هذا وصف لا ينطبق على حال مصر وجيشها؛ ذلك أن نفس أمازيس الملك الغاصب لم ينتصر إلا بقوة الجيش المصرى على الأغارقة الذين احتمى بهم الملك السابق، وكان قد أرسل أمازيس بقوة مصرية فى حملة من الحملات؛ فأصابها الظمأ فى الطريق وارتابت فى مقاصد الملك، وظنت أنه أراد التخلص منها، وأنه يضحى بها لحساب الأغارقة، فثار الجيش وخلع الملك وتولى أمازيس وانهزم الأغارقة فى كل موقعة، وقد كانت فارس تفكر فى غزو مصر قبل قمبيز ولكنها اشفقت من عواقب ذلك، حتى قمبيز نفسه على كل قوته وعلى كثرة ما جمع من الرجال وعدد الحرب احتاج إلى الحيلة فصدر جيشه بالقطط وما إليها من الحيوانات المقدسة.، فامتنع المصريون عن الضرب اتقاء لإصابتها، فهو لم يغلبها بالقوة، ولكن بالحيلة.

"للكلام بقية"

الشيخ محمد عبده(٥٤)

(تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى ألف ومائة وأربع وثلاثين صفحة من القطع الكبير للسيد محمد رشيد رضا منشئ المنار – مطبعة المنار – الثمن خمسون قرشا)

* * *

علم الشيخ محمد عبده فى كتبه وفى صدور تلاميذه، ولعله لم يكن أعلم أهل زمانه ولا أوسعهم إحاطة أو أكثرهم تحصيلاً أو أعمقهم غوصًا، وعسى أن يكون من بين معاصريه ومن كان أذكى وأبرع؛ فليست قيمة الشيخ محمد عبده أنه كان عالمًا عارفًا بالأصول والفروع واقفًا على الدقائق والجلائل؛ فإن المعرفة تحصيل، وليست المزية أن يكثر تحصيلك – فإن لهذا حدوده – ولكنما هى فى مبلغ القدرة على هضم ما حصلت والانتفاع به والتوليد منه، وقد كان الشيخ محمد عبده ذا اجتهاد؛ لأنه كان ذا نظر مستقل ورأى لا يجرى فيه على التقليد حتى لقد رماه شانئوه بالزندقة، وكان فوق هذا رجلاً بخير معانى هذا اللفظ وأجلها، وكانت له شخصية بارزة وروح قوية، ووجهة يثنى إليها اجتهاده، وغرض يسعى له مصممًا.

وقد رأيته عن كثب مرتين: وكنت فى الأولى صبيًا فى العاشرة من العمر، وكان أبى قد مات قبل ذلك بعام وتولى أخى عن الأيام مهمة إفقارنا وترقيق حالنا،

---

(٥٤) نشرت فى ملحق "السياسة" فى ٢٦ فبراير سنة ١٩٣٢ (ص٦، ص١٧).

وأشهد أنه وفق في ذلك إلى أبعد مما شاءت المقادير الجارية بالنحوس، واحتاج بعد ذلك – أعنى أخى – إلى كسب رزقه، وكان قد تدرب فى حياة أبى على أعمال المحاماة وحذقها بطول المران فى مكتبه بعد أن أخفق فى كل ما وجهه إليه أبوه. فمضى بى يومًا إلى بيت الشيخ محمد عبده وقال ادخل عليه وقل له إن جدتى تقرئك السلام وترجو أن تكون عونًا لحفيدها على الانتظام فى سلك المحاماة؛ وانظر ماذا يقول. ودفع بى، وارتد هو إلى المحطة حتى أعود إليه، وكنت كما قلت طفلاً فقيرًا، لا أسمع بالكبار ولا أراهم؛ ولا أعرف عن الشيخ عبده إلا أنه عالم، وكان منظر العلماء مألوفًا فقد نشأت فى بيئتهم، فلم أتهيب الدخول على الأستاذ الإمام، ولا أدرى كيف وقعت من نفسه سفارتى فقد شغلنى عن التفكير فى هذا – وأنا بعد طفل غرير – استطابه حنوه، وكان مجلسه حافلاً بالمجاورين – كما كان طلاب العلم فى الأزهر يسمون – والعلماء والأفندية، وأقول الأفندية لأنى لم أكن أعلم أنهم بين قاض ووزير ومحام وطبيب، وليس منهم من يستنكف أن يجالس الفقير أو المجاور – ولا من المجاورين من يتهيب الوزير فى مجلس الإمام، فقد سوى بينهم جميعًا وارتضوا هم هذه المساواة ونزلوا على حكمها، وجعلوا الوسيلة إليه الاستحقاق، لا الغنى ولا المنصب. ورجعت إلى أخى موعودًا بالخير. ومضت أيام فجاءت أخى دعوة من المرحوم الشيخ أبى خطوة؛ وكان قاضيًا؛ فمضى إليه فامتحنه أو لا أدرى ماذا صنع به، وإذا بأخى قد أصبح محاميًا. ويحسن أن أذكر هنا أن أبا خطوة هذا كان خصمًا لدودًا لأبى، ولكن الرجولة أبت لأبى خطوة أن يجعل الابن يضرس بالحصرم الذى أكله أبوه، إن كان قد أكل شيئًا. ولم يصنع أبو خطوة هذا الجميل من أجل أخى بل فى سبيل أبناء الرجل الذى كان له فى حياته عدوًا، وظل الشيخ أبو خطوة بعد ذلك زمنًا يزورنا كل شهر مرة ليقف بنفسه على مبلغ عناية أخينا بنا؛ ومقدار تعهده لنا، وليعرف إلى أى حد يقوم فينا مقام أبيه، وكان أخى لا يبالينا كيف نكون؛ ولكنا كنا نخاف أن يعلم الشيخ أبو خطوة هذا فيحل به غضبه، وغضب الإمام.

وإنما رويت هذه القصة لأرفع قبل العيون صورة للرجولة وعلو النفس ومروءتها. فما كان أبو خطوة ملزمًا أن يتفضل بالعون على ابن عدوه؛ ولو أهمل الإمام رجاء

الطفل لما لحقه من ذلك عيب ولا كان عليه في نسيانه أو إهماله عقاب، وما كان يجهل الخصومة التى كانت بين أبى والشيخ أبى خطوة، ومع ذلك لم يوص سواه، ثقة منه بخلوص سريرته وتجافيه برجولته عن اللجاجة فى خصومة ذهب أحد طرفيها، ولا كان الشيخ أبو خطوة مضطراً إلى هذا التعهد شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة، فبحسبه من المعروف ما صنع ومن الجميل ما أولى ابتداء، وفي الاقتصار على ذلك الكفاية ولكنه كان رجلاً، وكان من ورائه الإمام لا ينسى.

ومن أمثلة هذه الرجولة فى سيرة الإمام العامة، ما رواه الأستاذ السيد رشيد رضا فى كتابه "تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده" قال:

"عزم لورد كرومر على قطع أقوى صلة دينية للسلطان عبد الحميد بمصر وهى اختصاصه بتعيين قاضى المحروسة من علماء الترك وهو يعتبر رئيس الأمور الشرعية الذى يولى سائر القضاة الشرعيين فى البلاد، وكان يلقب بقاضى القضاة، ثم سمته الحكومة رئيس المحكمة الشرعية العليا ووضعت نظاماً لاختيار القضاة الشرعيين يناط تنفيذه بلجنة يعينها وزير الحقانية، ولكن القاضى التركى كان عضواً فيها، وتعتبر موافقته على من يختار للقضاء إذناً له فيه من قبل الخليفة...".

"عظم هذا الأمر على سمو الخديوى لما فيه من قطع أقوى الصلات بينه وبين الدولة العثمانية، وهى مستنده الوحيد فى مناهضة الاحتلال، وبقطعها يكون للعميد البريطانى السيطرة على المحاكم الشرعية من طريق الحكومة وهو ما كان أنذره إياه الأستاذ الإمام".

"لجأ سموه إلى الجرائد التى تؤيده وإلى علماء الأزهر، فأنشأوا ينشرون المقالات المؤثرة المستفزة للرأى الإسلامى العام، بأن هذا اعتداء على دين الإسلام وشرعه القويم الذى يستمد سلطته التنفيذية من خليفة المسلمين. وأيد احتجاجهم الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر، ولم تبال الحكومة بذلك كله لأن اللورد كرومر كان إذا جزم بشيء لا يعارضه أحد، وكان بعض كبار فقهاء الحنفية فى الأزهر قد أفتى الحكومة فتوى شفوية بأن هذا العمل جائز شرعاً".

"ولما رأى قاضى مصر الشيخ جمال الدين أفندى أن الأمر جد، ولا يستطيع تلافيه أحد، باع داره وعزم على مغادرة هذه البلاد بعد صدور أمر الخديوى بتعيين قاض من علماء الأزهر لرياسة المحكمة الشرعية العليا وكان ذلك فى شهر المحرم ١٣١٧ (يونيه ١٨٩٩). وفى أواخره قررت الحكومة عقد مجلس النظار برياسة سمو الخديوى فى قصر رأس التين بالإسكندرية لتنفيذ هذا الأمر بعد أن بلغ سموه رئيس النظار أنه ورد على جناب اللورد كرومر برقية من وزير الخارجية بلندن بوجوب تعيين قاض مصرى فى منصب القاضى التركى. عندئذ أظلمت الدنيا فى عينى سموه وضاقت عليه الأرض بما رحبت فاستشار رجاله وكل من له ثقة به فى المخرج من هذا الضيق، فأعوزهم الرأى، وأخيراً اتفق رأيه مع بعضهم على أن هذه المشكلة لا يرجى حل لها إلا عند الشيخ محمد عبده، فأمر حسن باشا عاصم أن يرسل برقية إلى الأستاذ يقول فيها إن أفندينا ينتظرك فى قصر رأس التين صباح غد".

"وصلت البرقية مساء يوم الأربعاء، وهو موعد درس التفسير؛ فقرأ رحمه الله الدرس، وذهب بعده إلى داره فى عين شمس فتعشى وجاء قبل نصف الليل إلى محطة مصر فسافر إلى الإسكندرية فى القطار الذى يسمى قطار الصعيد فصبحها بكرة وذهب من محطتها إلى قصر رأس التين توًا فألفى سمو الخديوى منتظراً له فتلقاه بلهفة قائلاً: إننى وقعت فى مشكلة أو أزمة ليس لها غيرك يا أستاذ، وذكر له أن اللورد كرومر سيحضر إليه فى هذه الساعة ليبلغه برقية وزير خارجيتهم بوجوب إنهاء مسألة قاضى مصر وتعيين عالم مصرى بدل القاضى التركى، وأن مجلس النظار ينعقد بعد خروجه لتقرير ذلك، قال: وأنا ليس من مصلحتى ولا من مصلحة مصر قطع هذه الصلة الدينية بالسلطان والعداوة النهائية للدولة العثمانية".

"قال الأستاذ الإمام: الأمر سهل يا أفندينا".

"قال: سهل! سهل! هيه؟ هيه؟"

"قال الأستاذ: إن الإنجليز أشد شعوب الأرض احتراماً لحرية الضمير والوجدان الدينى، ولاسيما الطبقات الراقية منهم، وقد بلغ من احترامهم له أنهم لما سنوا قانون

التلقيح بمادة الجدرى للوقاية منه وضعوا فيه مادة خلاصتها أنه يجب على كل إنجليزى أن يقبل عملية التلقيح إلا من يقول إن وجدانه الدينى لا يسمح له بذلك؛ فهذا استثناء لم يعهد له نظير فى شىء من قوانين الدول؛ وسببه أن بعض رجال الدين كان يرى أن هذا التلقيح حرام، فإذا جاء لورد كرومر الآن وبلغ أفندينا ما ذكر، وكان هذا اعتقاده فقل له إن وجدانى الدينى لا يسمح لى بأن أعين القاضى ورئيس الأمور الشرعية لأنى أعتقد أن هذا حق السلطان بما له من صفة الخلافة، فإنى لا أشك فى أن اللورد كرومر بما نعرفه من تربيته السكسونية الاستقلالية، ومن أصولها احترام الوجدان، يقبل من أفندينا هذا الجواب ويبلغه لرئيسه وزير الخارجية فيقبله الآخر، ويكن هذا فصل الخطاب.

"قال سموه: كده، كده"

"قال الأستاذ: هكذا أعتقد"

"وحينئذ جاء الحاجب يستأذن الأمير للورد فقام الأستاذ ودخل فى حجرة أخرى ودخل اللورد على الأمير وبعد تبادل التحية بلغ سموه البرقية فأجاب سموه بما لقنه إياه الأستاذ الإمام. فقال اللورد: إذا كانت المسألة مسألة ضمير ووجدان فلا كلام لنا فيها وانصرف".

وحادثة ثانية تشبه هذه، وتلك أن أرمنيًا اسمه ليون فهمى كان الخديوى يستخدمه فى بعض أموره السياسية السرية، فحفظ على سموه أوراقًا وأسرارًا جعل يهدده بها ويبالغ فيما يطلب من الثمن لردها، ثم اختفى فجأة وعلم اللورد كرومر أنه معتقل فى سراى المنتزه أو فى يخت المحروسة وأن الخديوى مزمع أن يأخذه معه إلى الأستانة فأراد اللورد كرومر أن يفتش القصر واليخت فلجأ سموه إلى الشيخ محمد عبده واستقدمه إليه "فقال له الأستاذ إن عندى رأيًا يشترط لنجاحه أن يخرج ليون فهمى من السراى أو من المحروسة إن كان فى أحداهما، وبعد إخراجه يكتب أفندينا بلاغًا إلى معتمدى جميع الدول المعترفة باستقلال مصر تحت سيادة الباب العالى وبخديويته عليها بأن سلطة الاحتلال تريد الاعتداء على استقلاله وإهانته بتهمة إجرام باطلة

ويحتج عليها ويحملها تبعة تفتيش قصره ويخته بهذه التهمة، وأن يبلغ اللورد كرومر أنه سيفعل ذلك إذا اجترأ أحد على محاولة تفتيش السراى، فلما بلغ العميد البريطانى هذا علم أن الخديوى لا يقدم عليه إلا إذا كان عالمًا بأن المفتشين عن الرجل لا يجدونه" فأقصر.

كان هذا إخلاص الأستاذ الإمام لسمو الخديوى السابق فى النصح على الرغم مما كان بينهما من الجفوة بل التباغض بل الحرب، وكان الخديوى يحارب مشروعات الإصلاح التى يضعها أو يقترحها الأستاذ الإمام ويسعى لعزله من منصب الإفتاء ومن إدارة الأزهر ولا يحجم فى سبيل ذلك عن الالتجاء إلى وسائل معيبة، فمن ذلك أن أعوانه من خصوم الأستاذ لفقوا صورة شمسية له مع بعض نساء الإفرنج وأرسلوا هذه الصورة إلى اللورد كرومر، وقالوا له إن هذا إزراء بمنصب الإفتاء، وإن الواجب إخراجه منه مراعاة لشعور المسلمين، فقال لهم اللورد كرومر إن هذه الصورة لا يثبت لها عندى أصل ولكن الأستاذ يزورنا هنا وتحضر مجلسه اللادى كرومر وغيرها من عقائلنا، فهل يصح أن نعد هذا إهانة له أو لنا؟

بل لقد ذهب الخديوى السابق فى محاربة الأستاذ الإمام ومحاولة عزله من الإفتاء وإدارة الأزهر إلى حد التملق للإنجليز وملاينة المحتلين، وكان من عادتهم على عهد اللورد كرومر أن يعرضوا جيشهم فى ميدان عابدين ليذكروا أولى الأمر بوجودهم وبأسهم وسلطانهم، وكان الخديوى الأسبق توفيق باشا يتراءى للجيش من شرفة القصر، فلما خلفه على الخديوية عباس باشا أعرض عن ذلك. ولكن فى سنة ١٩٠٤ جرى هذا العرض - وكان فى أول أيام الصباح فخرج الخديوى بملابسه العسكرية وحضره مع اللورد كرومر ووقف تحت العلم الإنجليزى؛ فثارت الصحف الوطنية لهذا الصنيع وكان من أشدها حملة على سموه جريدة اللواء ومجلة المنار، فدعا الخديوى إليه بطرس باشا غالى ودفع إليه بما كتبه المنار وأمر أن يترجم ويرسل إلى اللورد كرومر ليعرف أن الذى أغرى المنار بهذه الحملة هو الأستاذ الإمام الذى يكره الاتفاق معهم، وكان هذا هو التمهيد السياسى من جانب سموه لإقناعهم بإخراج الأستاذ من الإفتاء وإدارة الأزهر.

ومع ذلك لم يكن حسن علاقته باللورد كرومر وغيره من الإنجليز يمنعه من الإدلاء بواجب النصح للخديوى والإخلاص فى ذلك له، لأن الخديوى كان أمير البلاد الشرعى، ومصر كانت وطنه، وقديمًا كان الأستاذ الإمام يستهجن سيرة عرابى وينعى عليه سلوكه وينذره سوء العاقبة ويحاول أن يصده عن هذا السبيل. فلما وقعت الواقعة، ولم تبق ثم حيلة، وقف إلى جانب عرابى لأنه جانب مصر، فمن رأيه فى عرابى:

"أحمد عرابى بك كان ينظر إلى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو إلى عدوه، وكان يحتقرهم فى نفسه لاعتقاده أنهم دونه فى المعرفة ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التى كانوا يتمتعون برواتبها ونفاذ الكلمة فيها، وربما لم يكن [مخطئًا] فى الكثير منهم، وكان أجرأ إخوانه على القول وأقدرهم على إقامة الحجة؛ فلما شرعت نظارة الجهادية عملها الجديد وبدأت باستيداع عبد العال غلب على ظنه أن ما يصل إلى عبد العال اليوم يصل إليه غدًا، فيحرم مما يرى نفسه أحق بالتمتع به".

وقال فى موضع آخر مما كتبه عن الثورة العرابية: "أما وقد هتك حرمة القانون (يعنى عرابى) وقلب قوة الحكومة وحولها عن وجهتها وجعل الآلة فاعلاً والفاعل آلة، وذلك مما يعد جرمًا فى نظر كل واحد؛ حتى إن سريرته مهما عميت لا يمكن أن تغفل عنه، ثم رأى من الجناب الخديوى تخصيصًا لعلى فهمى بتقاسم اليمين معه – فقد ولت عنه السكرة وآبت إليه الفكرة ومثل له جرمه، وشعر بأن حاكمه لا يسمح له بقوة تعلو قوته، والنظام يقضى بإهلاك هادمه، وخيل له أن المخاطر تهدد روحه بعد وظيفته ولا ريب أن الروح عليه أعز، وأن الشماتة بعدها أدهى وأمر، وأن دخوله فى يمين الخديوى لا يكفى فى وقايته لأنه لم يكن يجهل قيمة الإيمان، ولو كانت اليمين عنده تلزم الحالف بما حلف عليه، لما جاء هو بما نقض الأيمان العسكرية التى حلفها عند استلام علم الإمرة على فرقته، فأخذ يحتاط لنفسه ولمن شاركوه فى الجرم ويلتمس العضد من طرف، ويفر من الموت فى كل سبيل وركب به الجبن طريقًا عمياء، يخبط فيها العشواء، يسوقه الرعب ويقوده الوهم، وضعف الحكومة يمده، والرغائب الخرقاء تساعده إلى أن أودت به وبالبلاد خطيئته".

وقال يعلل طلب عرابى لمجلس نواب: "كان (أى عرابى) يطالع فى الجرائد وفى بعض الكتب المترجمة من اللغات الأوربية ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك الغرب أن مجالس النواب فى تلك الممالك هى القائمة بحفظ أصول النظام، وهى القاضية على كل حاكم بالتزام حدوده، وبها مُحى الاستبداد بالأرواح والأموال، وحفظت الحرية الشخصية فى الأعمال، ولعب بعقله هذا الخيال، وظن أنه لو كانت فى البلاد تلك القوة النيابية، ولو أن حكومتها كانت حكومة شورية لكانت الشورى أو مجالس النيابات عاصمًا لحياته، حافظًا لحقوقه فى وظائفه، ومأمنًا يلجأ إليه، إذا حوم طائر الانتقام عليه، ولم يعلم أنه لو كانت فى مصر حكومة دستورية يقضى فيها القانون، ولا يستبد فيها الرأى، لأوخذ عرابى ومن معه أشد المؤاخذة، ولقضى عليهم بجزاء ما هتكوا من حرمة القانون، وما أدخلوا فى الجند من الميل إلى الفوضى والاستهانة بالسلطة العليا، وإنما الذى استبقى حياتهم بعد ما فعلوا تلك الأفاعيل هو ضعف سلطة القانون وعجزها عن إيقاف الداخلين تحتها عند حدود أحكامه، وميل صاحب الرأى الأعلى فى الحكومة إلى تلافى الأمر بما ظنه أسد وأنجح مما حده النظام، ولو كان ذلك الحاكم مقيداً بدستور أو بآراء نواب أمته، لامتنع عليه أن يذهب إلى ما ذهب إليه، ولقامت الأمة بلسان نوابها تطالبه أن يحل أشد العقوبة بمن اعتدى على حدود ما شرعته لجندها، ولكانت قوة الأمة قد قضت على قوة الجيش وأبادتها لو خالفتها. لكن تلك معارف تعلو أن يتطاول إليها فكر كفكر عرابى، ومن كان معه، وغاية ما توهم أن مجلس النواب هو من أبناء البلاد وهم لا يسمحون بأن يقتل واحد منهم، أو يعزل من وظيفته، وإن تعدى حدود كل نظام، ما دام يطلب طلبًا يظنه هو عادلاً، لهذا أراد أن يستعمل ما بيده من السلطة على الجيش فى المطالبة بإنشاء مجلس نواب يكون له من الحقوق ما لمجالس النيابات فى أوربا، ثم تخيل أنه إذا أنشئ هذا المجلس عرف أعضاؤه ومستنيبوهم فضل من كان السبب فى تشكيله فيهتمون بالمحافظة على حياته وعلى نفوذه بما يستطيعون، بل وثق بأنه يستعمل النواب كما يستعمل ضباط الجند ويسوقهم إلى الغاية التى يريدها منهم، ولم يخطر بباله أنه إذا فعل ذلك فقد سقط بالقوة التى يلجأ إليها إلى هاوية العدم، فإنه إذا لعب بها فقد فتح لغيره باب الاستهانة بأمرها،

فيسهل عدم المبالاة بسيطرتها، وإذا قهرها على أمر مهد السبيل لمن هو أعلى منه سلطانا فى نظر الأمة أن يكرهها على عكسه، فتتقلب عليه بعد أن كانت له، وإذا كان المجلس تحت سيطرة الجند فما الفائدة فى إنشائه مع وجود الجند، فليستغن عنه بالقوة العسكرية ولتكن هى الملجأ دونه؛ فكيف يتصور أن يطلب تشكيله ليكون وافيًا مما لم يقو الجند على الوقاية منه؟".

وقد أطلنا الاقتباس لنعرض على القارئ صورة تامة من سوء رأى الأستاذ الإمام فى عرابى وبواعثه وغاياته، وقد ظل يقاوم الحركة العرابية بالكتابة والخطابة ويحذر مما قدر أن تفضى إليه من الاحتلال الأجنبى حتى تدخلت إنجلترا كما توقع فلم يسعه كمصرى إلا أن يشد أزر الثوار بأقصى ما استطاع لأن هذا واجبه شرعًا ووطنية على حد قول الشاعر:

"بذلت لهم نصحى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد"(٥٥)

والشخصية من أسرار الروح وليس مدارها على العلم ولا غير ذلك مما يستطيع المرء اكتسابه وتحصيله، ولو أن الشيخ محمد عبده لم تثنه المصادفات إلى الدرس ولم يقدر له الاتصال بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى لما أفقده ذلك شيئًا يذكر من بروز شخصيته، ولكان الأرجح أن يكون فى هذه الدائرة الضيقة التى يرسم حدودها الجهل شخصًا ممتازًا، ورجلاً ذا سطوة ونفوذ فى قومه وأهل قريته وما جاورها أيضًا، ولكنه تعلم فرحب المجال واتسع الأفق، واتصل بالسيد جمال الدين فتفتحت نفسه وزاد الأفق رحبًا والمجال سعة وأعده السيد الأفغانى بما هو مستعد للإعداد به، وكان الأستاذ الإمام رجلاً يحترم نفسه لأنه يحترم الحق، أو إذا شئت فقل العكس، فإن النتيجة واحدة، وكل من هذين علة ومعلول، وقد جعله احترامه للحق وتوقيره لنفسه ذا

(٥٥) البيتان من الطويل وهما لدريد بن الصمة (ت. ٦٢٩م) (المحرر).

جرأة ومهابة، ومن أبلغ الأمثلة لذلك أن الخديوى الأسبق توفيق باشا كان يعرف رأى الأستاذ فى التربية الوطنية وفيما يجب أن يكون عليه شكل الحكومة؛ لأن السيد جمال الدين هو الواضع لذلك "وكان الخديوى توفيق قد انتظم فى سلك حزبه الوطنى (أيام ولايته للعهد) الذى أسس لقلب نظام الحكومة فى مصر، وعاهد السيد على تنفيذ النظام الجديد الذى أرشد إليه متى صار الأمر بيده، ولكنه لم يلبث بعد توليته أن نفاه (أى السيد) من القطر المصرى ونفى خليفته الشيخ محمد عبده من القاهرة إلى قريته لعلمه بأنه هو الذى يتم ما بدأه أستاذه".

وبعد أن قامت الثورة العرابية ونفى الأستاذ الإمام ثم عاد وشفع له الأمراء ومختار باشا الغازى عند الخديوى عفا عنه، وقال ما معناه ما عفوت عن أحد عفواً هو أشبه بالاعتذار من هذا؛ لأنه كان يعلم خصومته القوية للثورة العسكرية، ولم يكن ذنبه عنده إلا أنه كان الروح المدبرة لنهضة الإصلاح السياسى والحركة الفكرية وأن الحكم عليه بالنفى لم يكن عادلاً، فولاه القضاء وكان كلاهما كارها لذلك، فأما الأستاذ فكان يريد أن يكون معلمًا فى دار العلوم وكان يقول: "إنى خلقت لأكون معلمًا، وقد جربت نفسى فى التعليم فنجحت، وإنى أعلم أنه لا ارتقاء فى التدريس، وأنى أرتقى فى القضاء إلى أعلى درجة فيه، ولكنى لا أحبه". ولكن الخديوى كره أن يربى الأستاذ تلاميذه على أفكاره وأصر على تعيينه قاضياً فى محكمة بنها أولاً ثم الزقازيق، فكان قاضى العدل والاجتهاد لا القاضى الذى يلتزم حدود القانون الحرفية، وكان يتحرى إظهار الحق وإصابة العدل فإن ساعفه القانون فبها وإلا عمد إلى وسيلة أخرى ولاسيما الصلح، وكان يحكم باجتهاده فى كثير مما يعرض عليه ولاسيما فى الربا؛ "فإنه كان إذا تعذر عليه الصلح يحكم برأس المال دون الربا" وما أكثر ما خالف فيه القانون عمداً لأنه رآه غير عادل حتى وشى به بعضهم إلى المستشار القضائى فسأله عن ذلك فقال الأستاذ: "هل العدل وضع لأجل القانون أو القانون وضع لأجل العدل؟" فقال المستشار: بل القانون وضع لأجل العدل والعدل هو المقصود بالذات. فأنشأ الأستاذ يشرح له تلك القضايا ويبين أنه لم يحكم فيها إلا بالعدل فاقتنع المستر سكوت وساعده على الاقتناع

أن الإنجليز من أبعد خلق الله عن التقيد بالرسوم فى القضاء وأكثرهم اجتهاداً فيه، ومما يحكى عنه أن بعض الأجانب أساء الأدب فى الجلسة فأمر الأستاذ بحبسه وقامت الدنيا وقعدت لذلك من أجل الامتيازات فلم يبال الأستاذ وخوطب فى هذا فلم يقبل الرجوع، وكان الأجانب يتصدرون لمنع تنفيذ الأحكام فيدعى أحدهم مثلاً ملكية الأرض التى عليها الحكم فكان الأستاذ ينفذ عليهم أحكامه بالقوة محتملاً تبعة التنفيذ، واثقًا من أن الأجنبى لا يجرؤ على مقاضاة الحكومة فى دعوى هو فيها مبطل عاجز عن إثبات دعواه، ومن ذلك أنه حكم مرة بنزع أرض من وطنى وردها إلى صاحبها، فقيل له إن فيها إنجليزيا رفع عليها علم دولته وأنه يعترض على تسليمها فأعطى المحضر أمراً بنزع العلم وإخراج هذا المدعي بالقوة فلما رأى الإنجليزى (وكان مستأجراً لمنع التنفيذ) أن الأمر جد لم ير مناصاً من الخروج.

كان يعاقب المزورين وشهود الزور، وكان يتسقط الشاهد من هؤلاء حتى يقر فيحكم عليه، ويخرجه من الجلسة إلى الحبس، وأقرت الحكومة عمله هذا، وأدخلته فى القانون، وطارد الفحش والفجور حتى كادت تطهر الزقازيق من رجس البغايا على عهده، ولم يكن ينتظر ما يعرض عليه من القضايا ليحكم فيه بل كان إذا رأى أو علم أن امرأة من هؤلاء خرجت إلى الشارع متهتكة أو جلست أمام بيتها متبرجة تغازل الرجال وتغريهم، أمر بعض الشرطة بسوقها إلى المحكمة بتهمة إغراء الناس بالفسق المحظور بالقانون وحكم عليها فى الحال، فكان هؤلاء النسوة يقلن "وكيف يعرفنا الناس إذا التزمنا ما يريده هذا القاضى منا من التستر والأدب؟" وبلغ من خوفهن منه أنهن كن فى أول الأمر إذا سئلن عن الصناعة التى يزاولنها يصرحن بفجورهن، فلما عرفنه صرن يغمغمن فإذا أفصحت إحداهن لم تزد على أن تقول "أنت عارف".

والخديوى السابق عباس باشا هو الذى كلفه أن يكتب تاريخ الثورة العرابية، ففعل، ومع ذلك لم يكتم رأيه فى أبيه الخديوى توفيق باشا ولم يتحرج أن يذم لابنه بعض ما صدر عنه، وأن يحمله تبعات جسيمة معينة عن تفاقم الحال وإفضائه إلى الثورة، لأن الحق عنده كان أكبر من الضرورات التى تحوج إلى المجاملة.

وسنتناول رأى الأستاذ فى الثورة العرابية فى مقال آخر، وإنه لمن سوء الحظ أن السيد رشيد لم ينشر مذكرات الأستاذ الإمام كلها وأنه لخص بعضها، ومما هو خليق أن يساعد القارئ على تقدير هذه المذكرات، أن المذكرة التى كتبها الأستاذ وهو مسجون لمحاميه، تضمنت من الحقائق والوثائق ما رأى معه أولو الأمر يومئذ من المحتلين والمصريين أن الأستر اجتناب أى توسع فى الدفاع كائنة ما كانت الدواعى إلى ذلك وإنزال العقوبة من الإعدام على النفى.

الثورة العرابية

على ذكر تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[٥٦]

(١)

عاش الشيخ محمد عبده قبل الثورة العرابية وشهد عهدها وبقي بعدها زمنًا مديدًا، وهو فى رأينا أوثق مصادر تاريخها وحوادثها، وليس يضعف هذه الثقة به أنه كان يعترض على الطريق الذى أخذه عرابى والاتجاه الذى مال إليه، فقد كانت خصومته لعرابى خصومة رأى، وكان لبعد نظره ونفاذ بصيرته يلمح المغبة السيئة التى انتهى إليها أمر العرابيين ويتوقع الاحتلال الإنجليزى الذى أسفرت عنه حركتهم، على أنه لم يسعه حين وقعت الواقعة إلا أن يجعل ضلعه مع الثائرين مخطئين كانوا أو مصيبين، وأن يحتمل نصيبه من النفى والتشريد، ولم يكن هناك خلاف فى الغاية وإنما كان الخلاف على الوسائل، فكان عرابى وزملاؤه يلهجون بالاستبداد والحرية والحكومات المطلقة والدستورية وينادون بأن إنشاء حكومة مقيدة قد آن فى مصر أوانه، ويسعون لذلك بقوة الجيش، وكان الأستاذ الإمام يعارض فى ذلك ويقول إن تربية الأمة أول ما يجب البدء به لإخراج رجال قادرين على الاضطلاع بأعباء الحكومة النيابية "على بصيرة مؤيدة بالعزيمة"، وقد أساء بالعرابيين فهم ما يقصد إليه الأستاذ وحنقوا عليه، ولعلهم كبر عليهم أن يروا رئيس النظار ينزل من ديوانه بأمر عرابى مكرهًا ويسمع منه ومن أتباعه ما يكره، وأن يروا إلى جانب ذلك أن هذا الشيخ لا يخاف بأسهم ولا يبالى قوتهم،

---

(٥٦) نشرت فى ملحق "السياسة" فى ١٩ مارس سنة ١٩٢٢، (ص١٠-١١، ١٩-٢٠).

ولا يحجم عن الجهر بمعارضته لهم فى حفل يضم زعماءهم، فغضبوا وكاشفوا المرحومين السيد أحمد على محمود وإبراهيم أفندى الوكيل - وكانا من خلصاء الأستاذ - بما أضمروا له من السوء، فدخل هذان فى الأمر وأرادا الوساطة وأعدا احتفالاً فى منزل قريب ثانيهما فى قصر الشوق - بيت جدى لأبى - شهده كل ذى جاه ومقام ليصلحا ذات البين، فتوالى الخطباء حتى جاء دور الأستاذ فقام ليفسر مقصده من خطبة سابقة فجاء التفسير أسوأ وقعًا فى نفوس العرابيين.

وهنا يقول السيد رشيد رضا مؤرخ الأستاذ الإمام - وقد أصاب - "ولا يلتبس على القارئ معارضة الأستاذ الإمام للعرابيين فى مشروع مجلس النواب وتقييد السلطة مع أنه كان الداعى الثانى إلى ذلك بعد أستاذه (السيد جمال الدين)؛ فإنه إنما كان يحاول أن يكون ذلك برضى الأمير وحكومته لا بالخروج عليه، وأن يكون فى البداية من قبيل التمرين والتعويد مقرونًا بالتربية والتعليم إلى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها وتصل من طريق الحكمة إلى رشدها، وهو لم يفارق القوم المطالبين بالإصلاح عند مهب الفتنة ولم يلجأ إلى قصر الإمارة أو يتفيأ ظلال العزلة؛ لأنه فى فكره وسط بين الطرفين وفى عمله بين المصلحتين، وقد قال لعرابى مرارًا كثيرة: "عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطلب فى بضع سنين".

وكان الشيخ محمد عبده يعتقد بحق - كما أريناك فى الفصل السابق - أن برلمانًا يجيء بقوة الجيش لا جرم يكون آلة مسخرة فى يد القابضين على أزمة هذا الجيش، وكان أعرف بحال بلاده من أن يرجو خيرًا من برلمان يكون وليد القوة من ناحية والدسائس الأجنبية من ناحية أخرى، ثم كان أدرى بطبائع الناس من أن يقبل عقله أن تجيء المطالبة بتقييد السلطة الحاكمة من ذوى المصلحة فى إطلاقها من القيود، وقد خطب مرة مبينا أن المعهود فى سير الأمم وسنن الاجتماع أن القيام على أن الحكومات الاستبدادية وتقييد سلطتها وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية إنما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا إذا فشا فيها التعليم الصحيح والتربية النافعة وحسن إدراكها لحقوقها وعمق شعورها بسوء ما هى فيه، وصار لها رأى عام، وأنه لم يعهد فى أمة من أمم الأرض أن الخواص والأغنياء، ورجال الحكومة يطلبون مساواتهم

بسائر الناس وإزالة امتيازاتهم ومحو استئثارهم بالجاه والوظائف والتبرع بإشراك الطبقات الدنيا فيما لهم من ذلك، قال مخاطبًا زمرة الأغنياء وأصحاب الجاه: "فهل تغيرت سنة الله في الخلق وانقلب سير العالم الإنساني أم بلغت فيكم الفضيلة حداً لم يبلغ إليه أحد من العالمين حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم وتساووا الصعاليك حبًا بالعدالة والإنسانية؟ أم تسيرون إلى حيث لا تدرون وتعملون ما لا تعلمون؟".

فهو غير متحيز للعرابيين لأنه كان معارضًا لهم في نهجهم ولم يكن عدواً لهم؛ لأنه كان يطلب مثل غايتهم مع خلاف في الوسيلة، وقد انضم إليهم آخر الأمر لما عمت الفتنة وصار الأمر بين مصر ودولة أجنبية فحكمه عليهم حرى بأن يكون عادلاً لا يؤتى من جنيف[٥٧].

على أنه اتهم بكراهته للأسرة المحمدية العلوية ورمى بإضمار العداوة لها، وما أرى هذا إلا ظلماً له وعجزاً عن فهم موقفه حيال أفرادها، فما كان يبغض الأسرة كلها ولكنما كان يدرك مواطن الضعف في رجالها، وكان يعلم قيم رجالها غير أنه لم يكن يجهل أخطاءهم ولم يكن يكتم رأيه في هذه الأخطاء، وكان عيبه أنه بعيد النظر في وقت لم يكن الناس ينظرون فيه إلى ما هو أبعد من أنوفهم، وكان هؤلاء وأولئك يشعرون بمعارضته فلا يفهمون الباعث عليها ولا يستطيعون أن يروا بعينه وتثقل عليهم وطأة هذه المعارضة التي لا يدركون كنهها فيخيلونها على بغض في نفسه لأسرة محمد على، وبحسبنا أن نورد هنا طائفة قليلة من الأمثلة؛ فقد روى الأستاذ الإمام في مذكراته ما حدث مرة من قلق الضباط من تأخر رواتبهم وإحساسهم بانحراف الخديوى عن نظار حكومته، ومهاجمتهم لنظارة المالية وضربهم لناظرها الإنجليزى وإهانتهم لرئيس النظار نوبار باشا وشد أحدهم له من شاربيه حتى جاء الخديوى إسماعيل بنفسه وصرفهم، وكيف أن حركتهم إنما كانت بتحريك منه توسلاً إلى إسقاط وزارة نوبار باشا فتم له ذلك، ولكن لم يمكن إسقاط الناظرين الأوربيين فأدخلا في الوزارة

(٥٧) جائر ظالم (المحرر).

الجديدة التى تألفت برياسة توفيق باشا ولى العهد وزاد تضييقهما على الخديوى فى التصرف فتوسل إلى عزلهما بوسيلة أخرى وهى طلب أعيان البلاد لذلك؛ إذ اجتمعوا فى دار السيد البكرى ووضعوا اللائحة الوطنية المشهورة التى تعهدوا فيها بوفاء ما على مصر لأوربا من الديون وأنهم ضامنون لها.

وقد بين الأستاذ ما فى هذين العمليتين – تحريك الضباط، وجمع الأعيان للتعهد بوفاء الديون – من الخطل وقصر النظر؛ فأما تحريك الضباط فأمره واضح، وأما الالتجاء إلى الأعيان فقد قال فى ذلك: "أنه أحدث فى الناس شعورًا بقوة لم يكونوا يعرفونها من قبل، فقد أيقنوا أن الحاكم القوى السلطان قد صار فى حاجة إليهم، ولا قوام لأمره إلا بالاعتماد عليهم؛ فزادهم ذلك ولوعًا بما كانوا يميلون إليه من وجوب اشتراكهم فى أعمال الحكومة دفعا للمضار التى نشأت من استقلال الحاكم بالرأى وانفراده بالسلطة".

وعد الأستاذ هذا الحادث من التمهيدات للثورة العرابية. وبعد أن بيّن سيرة إسماعيل بعد ذلك، وكيف أنه عاد إلى التصرف فى أموال الدولة وإلى التبذير وما أفضى إليه ذلك من سوء الحالة العامة وذهاب رياض باشا ونوبار باشا إلى أوربا للإقامة فيها وكيف سعى نوبار لإقناع فرنسا وإنجلترا بالسعى لخلع الخديوى إسماعيل، ثم إرسال فرنسا للمسيو تريكو مندوبًا خاصًا فوق العادة ليعمل مع وكيل إنجلترا فى مصر على مطالبة الخديوى بالتنازل لولى عهده، واستشارة الخديوى لحاشيته فى الأمر وإشارة فريق بألا يتنازل ما دام الجيش حاضرًا يؤيده، وإشارة من كان يقال إنه أعلمهم بأن يتنازل – قال الأستاذ إن الرأى الأول كان عين الصواب، وإن الخديوى لو ظهر لمندوبى الدولتين بجلد الأسد الذى كان يلبسه للمصريين وأفهمهما أن دون التنازل الحرب لأمكنه لأن يرضيهما بوسيلة أخرى مع بقائه على العرش.

ومن الأمثلة أيضًا أن السيد جمال الدين كان قد أسس حزبًا فى مصر باسم "الحزب الوطنى الحر"، وكان بينه وبين ولى العهد توفيق باشا محادثات فى هذا الشأن؛ فانحاز ولى العهد إلى هذا الحزب، فلما تولى الخديوية بدأ عهده بما يرضى طلاب

الإصلاح وفى طليعتهم الأستاذ الإمام، فكتب إلى شريف باشا فى اليوم الثانى من ولايته أمراً بتشكيل الوزارة بعد قبول استعفائها صرح فيه برغبته فى تحقيق آمال الأمة فيه، وإخراجها من حالتها السيئة بالاقتصاد فى نفقات الحكومة والاستقامة فى مباشرة الوظائف العامة وإصلاح القضاء والإدارة، ثم كتب فى اليوم الخامس أمراً آخر إلى مجلس النظار فصل فيه ما يحقق الآمال بجعل الحكومة شورى ونظارها مسئولين إلى آخر ذلك، ولكن وكيل فرنسا أخذ يسعى فى إقامة الموانع دون إعطاء النواب حق النظر فى تصحيح الموازين وتقرير الأمور المالية ودعا وكيل إنجلترا لمعاونته على إقناع الخديوى بضرر هذه الإصلاحات وساعدهما بعض المصريين من رجال الحاشية، فتأثر الخديوى بذلك وعدل عما كان قد مال إليه من الإصلاح ورفض لائحة شريف باشا فاستقال فشكل الخديوى وزارة برياسته، ثم ثنى فنفى السيد جمال الدين بعد أن كان يقول له: "أنت موضع أملى فى مصر أيها السيد" ولو مضى الخديوى توفيق فى الإصلاح لما وجد من الأستاذ إلا معيناً ومؤيداً، ولا نحتاج أن نذكر القراء بما رويناه فى الفصل السابق من مظاهر إخلاص الأستاذ فى النصح للخديوى السابق عباس حين كان يلجأ إليه فى الملمات، فليست هناك كراهة لأسرة، ولكنما هناك رجل يقول الحق ولا يرضيه الزيغ عن طريقه أميراً كان المخطئ أم وزيراً.

كتب الأستاذ الإمام تاريخ الثورة العرابية – أو على الأصح بدأه – بطلب من أمير البلاد يومئذ الخديوى السابق عباس حلمى، وكان سموه يومئذ "موادًا للأستاذ الإمام شديد الرغبة فى استفادة الأمة فى معارفه، ولكنه لم يكد يتم القسم الأول من الكتاب، وهو ما تقدم الثورة من المقدمات والأسباب، ففتح لها الطاق والباب، حتى نجمت نواجم التناكر بين الأمير والأستاذ، وانتهت إلى المغاضبة الشديدة المعروفة، وكان مفسدو ذات البين قد ألقوا إلى الأمير أن الأستاذ عدو له ولبيت محمد على، وأنه لا يزال يسعى لسلب الإمارة منهم، وبهذا سار تأليف الكتاب للأمير مشكلاً؛ لأنه قد يعد مؤيداً لتهمة المفسدين بما فيه من إلقاء تبعة الثورة على الخديوى توفيق باشا مباشرة وجعل ما كان من إسراف الخديوى إسماعيل باشا وسوء إدارته للبلاد، أسباباً ممهدة لها".

نقول: هذا وحده ينقض تهمة العداء لبيت محمد على؛ إذ لو كان الإمام يضمر لهذا البيت العداوة ويطوى أضالعه على إرادة السوء بها، لكان حقيقياً أن يمضى فى تأليف الكتاب إلى ختامه غير عابئ برضى الأمير أو غضبه، بل لاغتنم هذا الغضب فرصة لتحرير قلمه من قيد المجاملة فى كتاب يضعه للأمير وبأمره، لكنه آثر الأولى كراهة منه لهذا المعنى.

وقد قال فى الخطاب الذى صدر به كتابه فى الثورة: "مولاى: أرفع إلى سدتك السنية ما وقفت عليه بنفسى غير ناظر فى كتاب ولا راجع إلى مقال سبقنى به غيرى، اللهم إلا بعض الأوامر الرسمية أو شىء من المخابرات السياسية التى أضطر فى بيان الوقائع إلى الإشارة إليها". واستهل كتابه بوصف حالة البلاد وحكومتها لما نزل إسماعيل باشا عن إمارتها ووليها بعده توفيق باشا، وذكر ما كان من تدخل فرنسا وإنجلترا فى الشئون المالية وغيرها وتأثير المحاكم المختلطة فى إضعاف سلطة الحكومة والتصرف فى ثروتها وثروة الأمة، وما كان من سوء أحوال رجال الحكومة وأحوال الجند؛ واستنزاف المرابين لأموال الأمة ومساعدة الحكومة لهم، والاضطراب العام فى البلاد وإشرافها على المجاعة وما كان عليه الناس من الاعتماد على الحكومة فيما جل ودق وكيف أنهم يعدون أنفسهم ملكا لها، ثم انتقل إلى الكلام على بداية النهضة وفضل السيد جمال الدين الأفغانى، وكيف انطلقت الألسنة وتحررت الأفكار وشعرت النفوس بحقوقها وتعلقت بالإصلاح لولا سوء حال الحكومة وفساد رجالها ودسائس الأجانب. وبعد أن أتى بإيجاز على عهد إسماعيل انتقل إلى ولاية توفيق باشا وافتتاحه عهده بالتظاهر بالإصلاح ثم وقوعه تحت تأثير الأجانب وبطانة السوء، فلم تلبث وزارة شريف باشا أن استقالت وتلا استقالتها نفى السيد جمال الدين.

وقبيل استقالة شريف باشا سرح عدد عظيم من الجنود إلى بلادهم وتقرر جعل الجيش اثنى عشر ألفا فقط. فقدم جماعة من الضباط التماساً إلى الخديوى بعزل ناظر الجهادية وبنوا ذلك على أسباب منها رداءة المآكل وضررها بصحة العساكر، ومنها سوء حال المستودعين وعدم النظر فى إصلاح معاشهم، وبعد أيام استقالت

وزارة شريف باشا، ولم يعن أحد بالتفكير فى علاج هذه الفوضى التى ظهرت بوادرها فى الجيش قال الأستاذ: "وإنما قلت إنها فوضوية؛ لأن للضباط حق الشكوى مما يصل إليهم من الأذى أو ما يجدونه من الضرر، ولكن لا حق لهم فى طلب العزل والنصب، فما فعلوا كان خارجًا عن حد النظام ولهذا كان جديرًا بالالتفات".

وكان الخديوى قد تولى رياسة الوزارة نحو شهر فأقنعه القناصل بغير ذلك وانتهى الأمر بدعوة رياض باشا وتعيينه رئيسًا للوزارة، وكانت المسألة المالية هى المهمة، وهنا يحسن أن ننقل من مذكرة الأستاذ قال: "كان معظم الاهتمام منصرفًا إلى إرضاء الأجانب ووضع أساس مكين يضمن لهم وفاء ما كانوا ينالون من فوائد الدين الباهظ. ظهر عجز الحكومة عن تأدية بعض أقساط من دينها فى أوقاتها المحددة سنة ١٨٧٦، وكان الخديوى الأسبق (إسماعيل) يريد أن يكون ذلك العجز معروفًا عند الدول ذات النفوذ، ويجب أن يتداخلن أيضًا فى تحديد وجوه الوفاء وطرق التسديد ظنًا منه بأنه متى ثبت عجز المالية المصرية على أداء الدين ولم يبق من وجوه الوفاء ما يكفى له أعلنت الدول قطع مرتب الأستانة (الجزية) ونادت به ملكًا مستقلاً على مصر، لا يؤدى خراجًا إلى سلطان آخر، وكان يسره أن يكون ملكًا ولو على بلاد خربة ورعية ضئيلة وبين خليط من الأجانب يصرفونه فى داخلية بلاده حسب ما يريدون، ثم لم يكف الخديوى الأسبق عن تصرفه الخفى فى المالية المصرية بما يزيد ارتباكها، وكلما تقدم الزمن ظهر الاختلال فيها فيدعو وكلاء الدول السياسيين للتدخل فى إصلاحها، ثم هم يجيبونه إلى ما يدعوهم إليه تمكينا لحق التدخل فى الشئون المصرية، إلى أن جر الأمر إلى تعيين لجنة التفتيش العليا ولم يكن فيها إلا مصرى واحد".

وبعد أن سرد أدوار التدخل، إلى أن تولى رياض باشا الوزارة، انتقل إلى بيان وجوه الإصلاح التى عالجها هذا الوزير كإلغاء السخرة بنوعيها ومبالغته فى التشديد فى ذلك "حتى إنه آخذ مدير القليوبية مرة على إرسال بعض أشخاص من أهاليها لحفر الترعة التوفيقية التى تصل إلى أراضى القبة لأنها خاصة بالخديوى. ووبخ المدير توبيخًا شديدًا وعرض الأمر على الخديوى فاستحسنه، ولكن ذلك لم يذهب بلا أثر فى نفسه؛ فإن مبالغته فى العدالة إلى هذا الحد مما لا يلتئم مع السلطة العليا فى مصر مهما كانت

منزلة الحاكم من الكمال – فانظر ماذا يكون فى نفوس أكابر رجال الحكومة السابقين بل الحاليين من رياض بعد حرمانهم من منافع أبدان الرعية بغتة بلا تدريج".

وعمل رياض باشا على توزيع ماء النيل بالعدل والقسط، وألغى أكثر من ثلاثين ضريبة من الضرائب الصغيرة التى أضرت بالصناعة والتجارة والزراعة وترك بقاياها، وزاد ضرائب الأطيان تعويضاً لما فات بإلغاء تلك الضرائب، فخفف بذلك عن الفقراء ما ثقل على الأغنياء، فبقى أثر ذلك فى نفوس الفريقين. ونظم الميزانية وسوى بين الأغنياء والفقراء والأجانب فى التحصيل، وكان الأغنياء والأجانب يماطلون عدة سنين ثم يعفون من الأداء، وظهر عند التنفيذ أن بعض الأجانب كان فى ذمته ضرائب سبع سنين فحصلها رياض بقوة الحكومة وهذا ما لم يكن يسمح به من قبل. وأبطل الكرباج فى تحصيل الأموال الأميرية "فقال كثير من الناس: كيف يمكن أن يحصّل مالا من الفلاح بدون ضرب؟ وأنكره كثير من المديرين وظنوا أنه قد هدم ركنًا عظيماً من سلطان الحكومة".

وشدد فى منع الحبس لتحصيل الحقوق سواء أكانت أميرية أم شخصية. قال الأستاذ: "ومن غرائب آثار تعود الظلم ورؤيته ملازمًا للسلطة فى مصر أن الذين حُفظت أبدانهم من الضرب والجلد، وأرواحهم وأجسامهم من الحبس فى سبيل اقتضاء الحقوق – سواء كانت للحكومة أو للأفراد – كانوا يعدون تلك الأوامر مخالفة لما يجب أن يعاملوا به، وأنه لا يفيد إلا الكرباج، وكانوا يهزأون بتلك الرحمة، اللهم إلا الذين لمع فى عقولهم نور الفهم، ووصل إلى أبصارهم شعاع الإحساس بما للإنسان من حق التكرمة التى خصه الله بها".

ثم سعى رياض لتصفية الديون فصدر قانونها وكان حداً فاصلاً بين ماض قلق ومستقبل معروف "وأهم ما غنمته الحكومة من رضى أوربا عن الحالة التى قررها، واطمئنان الأهالى والجناب العالى على مسند الخديوية، وانقطاع المخاوف التى كانت المشاكل المالية تثيرها فى الأوهام عند ما يخطر بالبال حادثة فصل إسماعيل باشا". وأصلح نظام العسكرية فجعل مدة خدمة الجندى خمس سنين يرجع بعدها إلى أهله "تحت الاحتياط" مدة ست سنين، أما الضباط فحصر "تعيينهم فيمن ينال المعارف العسكرية بالتحصيل فى المدارس الحربية".

وهنا يثنى الأستاذ على كل من الخديوى ووزيره، ويقول إن بناء الحكومة لم يكن قائمًا على الأثرة والاستبداد، ويذكر من مناقب الخديوى العفة واللين والتحبب إلى الرعية وتعرف أحوالها بالسياحة وبعده عن الإسراف واكتفائه من النساء بأميرة واحدة، وأثنى على سيرته فى الحكومة، ولاسيما اتفاقه مع وزرائه وسائر كبار رجال الدولة على ما يخفف عن الرعية أثقالها ويرقى عقولها، مع شدة تمسكه بحفظ مسنده وتقوية سلطته وأن هذا رفع من قدره فى عيون الأجانب أيضًا، وأن الناس تناسوا بهذه السيرة ما أتاه فى أول حكومته من النفى بغير محاكمة والمسارعة إلى تعيين المراقبين الأجانب وإعطائهم الحقوق الواسعة، وذكر الأستاذ من سيرة الوزراء الإخلاص فى العمل لخير البلاد "ولم يكن لأحد منهم شهوة الاستبداد بالأمر فى عمله لمحض إعلاء سلطته ووضع من دونه تحت قهره، واستبعاد الرغائب والإرادات لرغبته وإرادته وجمع ما تيسر له أن يجمعه مدة استعلائه على مرسى الوظيفة" واستثنى منهم اثنين: واحدًا قيل إنه كان يمد يده على بعض الحطام فى الأعمال الجزئية التى لا يظهر لها أثر فى كلياتها، وآخر كان يطيع العصبية الجنسية.

قال: "وكان أهل الإصابة فى الرأى يتمنون لو استمر سير الحكومة فى سبيلها تلك عشر سنين على الأقل؛ فيأخذ الشعور بمنافع البلاد مكانه، ويستوى سلطان الإرادة السليمة على عرشه، وترسخ الملكات الحسنة فى نفوس المستبدين، ولكن وا أسفاه! حال دون بلوغ تلك الأمانى أمور منها ما كان منشؤه رياض باشا نفسه وبعض النظار، ومنها ما له علاقة بالجناب الخديوى، ومنها ما سببه امتداد السلطة الأجنبية الجديدة، ومنها نهوض الساخطين لاستعمال ما وعدوا فى ذلك من الوسائل لإثارة الفتنة لقلب وزارة رياض باشا".

فأما رياض باشا فكان من خيرة أهل طبقته – ذكيًا بالفطرة، مجربًا حازمًا قوى العزم صادق النية مخلص السريرة، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها ما تحور إليه وترجع فى الكليات، وكان له نشاط عظيم فى عمله وفيه مزية التفويض للعامل فى عمل ومنحه الحرية إذا وثق به، ولكن ثقته كانت على غير قاعدة، وكان إذا غضب خلط إحساسه الخاص بالعمل العام، وكان يحب المصرية، ولكنه يحب أن يراهم كأرقى ما

يكونون، ولهذا كان يتسخط ويذمهم؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتجردوا مما حملتهم الأيام الظالمة وقد أعجزه هو نفسه التجرد من ذلك ونفض غباره، ولم يكن يرتاب فى سكون المصريين إلى الطاعة حملا لهم على سالف عهدهم والمألوف من طبيعتهم، فكان مطمئنًا من ناحيتهم؛ فلم ير على قول الأستاذ أن "ينظر فيما عساه أن يثيرهم من جهة المقابلة فى تنفيذ السلطة، أو من ناحية الساخطين عليه من الوطنيين والأجانب".

وكان وزير الحربية عثمان رفقى باشا وفيه يقول الأستاذ: "كان رجلاً ساذجًا محدود الإدراك بعيداً عن التبصر فى العواقب، لم يكن يهمه بعد قبض راتبه الشهرى سوى أن يرضى ميله ويروى ظمأه إلى حصر السلطة العسكرية فى بنى جلدته من الجراكسة، وتجريد من ساء حظهم بالولادة فى مصر منها مع معاملتهم بالاحتقار، كان يطيع فى ذلك تلك العصبية الممقوتة التى يبطنها بعض الغفل من الجراكسة المقيمين فى مصر، كأن مصر وأهلها جنوا عليهم جناية مست آباءهم أو تعقبت أدبارهم، أو كأن أهل مصر سلبوهم شيئًا مما كانوا يملكونه أو منعوهم حقا كانوا أهلاً لأن ينالوه".

ومن أعاجيب الدنيا أن تكون الحسنات فى بعض الأحيان مفضية إلى الشر، فقد كان مما أثمرته سيرة رياض باشا على حسنها وعدلها فى الجملة:

أولاً - أن إبطاله السخرة كان عدلاً لا ينكر، ولكنه أحنق عليه جميع الوجهاء الذين كانوا يستغلون أبدان الرعية وأموالها، فشكلوا لمقاومته جمعية تسمى جمعية حلوان، وكان قد اشتد على بعض الجرائد فألغاها لأسباب لم تكن بالقوية فأتاح بذلك فرصة لتهييج الآراء لمقاومته؛ فذهب "أديب إسحاق" أحد محررى تلك الجرائد المعطلة إلى أوربا، وأنشأ هناك جريدة سماها "القاهرة" لم يكن لها موضوع سوى رمى رياض باشا بالظلم والاستبداد والرغبة فى بيع البلاد إلى الأجانب، حتى لكانت تسميه "رياضستون" ويقول الأستاذ الإمام إن الذى كان ينفق على تلك الجريدة الخديوى الأسبق وبعض البشوات من الساخطين.

ثانيًا - زاد حنق الأغنياء عليه لزيادة أموال الأطيان العشورية، فانتهز نوبار باشا الفرصة وألّب عليه الأعيان، وكثر الاجتماع لذلك، فنفى من كان واسطة فى إثارة المتظلمين وهو السيد حسن موسى العقاد وبرح نوبار باشا مصر بأمر يقال إنه صدر إليه.

ثالثًا – أساء بعض المديرين الذين وثق بهم إلى وجوه البلاد، ولم يكنْ يسمع منهم لاعتقاده أن هؤلاء الوجوه هم أصل البلاء وعلة الشقاء، ولهذا وقر فى نفوس الأعيان أن رياض باشا عدوهم، وأنه يريد إسقاطهم ورفع من هم دونهم.

رابعًا – عنى بتوطيد الأمن على عادته فى كل وزارة وخول المديرين سلطة أساءوا استعمالها فأخذوا بالظن، ونالوا من كثير بالشبهة فأزعج ذلك نفوس الباقين.

ولهذه الأسباب وأمثالها راح الناس يتمنون أن تسقط وزارة رياض باشا وكثر الطعن فيها والتنديد بها وهنا يقول الأستاذ الإمام: "تلك الرغبة التى كانت تلعب بالنفوس وتجيش فى الصدور آخر عهد إسماعيل باشا والأيام الأولى من حكومة جناب الخديوى السابق رحمه الله – تلك النزعة إلى تأسيس الحكومة على قاعدة الشورى ومنح بعض منتخبين من الأهلين حق المشاركة فى كليات أعمال الحكومة – ذلك الظمأ وجد مسكنا من مبادئ الإصلاح فاطمأنت النفوس إلى عدل الحكومة فى القضايا العامة وفترت تلك الرغبة كأنها قد وجدت من حسن نية الحاكم عوضًا عن اشتراك الرعية فى الحكم لكن تلك النزعة انبعثت مرة أخرى بعد مدة من الزمان لهذه الأسباب التى سبق ذكرها ولأسباب أخرى سنذكرها فرجع التحدث بين الناس إلى ما كان عليه. وأخذ الناس يقولون "لا صلاح فى الاستبداد بالرأى وإن خلصت النيات، فرأى واحد عرضة للخطأ وإن تحققت نزاهته من الغرض". رياض باشا لم يكن يعرف أن فى البلاد من يطلب هذا الأمر طلبًا صحيحًا؛ لأنه لم يختبر الناس، ولم يصغ حق الإصغاء إلى ما كان يدور بينهم، وكان يعتقد أن فى مجلس الشورى تعويقًا عن الإصلاح المطلوب؛ لأن أعضاءه تعوزهم الخبرة بالأحوال السياسية والإدارية فلا ينتظر منهم إلا المعارضات وإطالة البحث فى أمور يجب فيها السرعة، وكان يوافقه فى هذا الرأى كثير من العقلاء ويتمنون مع ذلك أن يبدأ بشفاء هذا الغليل بعد حل المشاكل المالية ووضع قانون التصفية وتشكيل المراقبة الثنائية وبت أهم المسائل السياسية؛ إذ لم يبق بعد ذلك إلا الشئون الداخلية والقضائية، وكان يمكن تخويل المجلس بعض الحقوق التى منحها الأمر العالى من قبل والتوسع فيها بعد ذلك بالتدريج، وقد خاطبه بعض الوجهاء بذلك فرفض رفضًا باتًا فكان ذلك مما زاد الرغبة، ولو أنه أجاب بالرفق ووضع

المسألة موضع البحث وطاول في بتها سنين لكان قد أرسل الآمال تسرح في فسحة من النظر، ولم يكن قد دعاها للشدة إلى الانضمام إلى من يؤلب عليه ويثير الأحقاد حواليه.

هذا فيما يتعلق برياض باشا أما الخديوي توفيق باشا فإنه بعد قانون التصفية واطمئنانه من ناحية أوربا ومشاكلها وجد فراغًا من الزمن يسمع فيه ويلاحظ ما له مساس بسلطته كخديوي وحاكم أعلى لمصر، وكان للين عريكته أو لرعايته جانب والده أو لحسن ظنه بمن سبقت له أعمال في خدمة عائلته - قد أبقى الكثيرين ممن كانوا في خدمة أبيه، وكان هؤلاء ممن لا يقيمون لمصالح الرعية وزنًا وكانت لهم مطامع لا تفتر ولا تنتهي ولاسيما بعد أن ذاقوا من لذائذها الماضية ما ذاقوا. وقد عز على هؤلاء إبطال السخرة والكرباج وتحول مجرى النفوذ والسلطة عن رجال المعية إلى الوزارات، وكبر عليهم أن يجري عليهم من الأحكام العامة ما يجري على الأهالي فوجدوا على رياض باشا وأضمروا له السوء.

وكان الخديوي يؤثر أن يكون محبوبًا من رعيته؛ فكان هذا يبعثه على إفاضة الإحسان بالرتب والنياشين، ولكن رياض باشا كان يجد في كثير من ذلك دواعي للمعارضة وكان ربما أظهر للخديوي من ذلك ما يسوؤه. بل لقد ذهب رياض باشا إلى حد التهديد بالأجانب ووكلائهم. ورأى رجال السوء المحيطون بالخديوي أمارات الانفعال تظهر مرة بعد أخرى على وجه سموه؛ ففتحوا باب الدس على مصراعيه، وأخذوا يستدرجون الخديوي إلى بث ما في نفسه فيفيض بما كان يجده ويفيضون هم في الشرح والتأويل والاختلاق وتوفيق باشا يسمع ويستريح إلى ما يقولون "وقد انتهى به الأمر رحمه الله إلى أنه كان يسمح لبعضهم بتقليد رياض باشا في كلامه وحركاته أثناء خطابه وهيئة جلوسه وما يبدو في مشيته من دلائل الخيلاء في زعمهم وما شابه ذلك".

وهكذا أخذ غيظ الخديوي يزداد على رياض باشا كلما بدت منه معارضة في أمر صغير أو كبير بفضل هؤلاء المتملقين والدارسين، وكلما رأى رياض باشا دلائل الانفعال اشتد ضجره، وكلما اشتد ضجره وظهر في قوله أو فعله التهب غضب الخديوي عليه

وإن لم يظهره له، فوصل الأمر فى أقل من سنة بعد إمضاء قانون التصفية إلى أن الخديوى لم تكن له أمنية إلا عزل رياض باشا. غير أنه كان يظن أن قناصل الدول - ولاسيما فرنسا وإنجلترا - يعارضون فى عزله فأخذ يلتمس الوسائل إلى التخلص منه على وجه يحمل الدول على الرضى بذلك بدون معارضة، فذكره بعض رجال الحاشية بالطريقة التى تخلص بها الخديوى الأسبق (إسماعيل باشا) من نوبار باشا، وقد أشرنا إليها فيما مر بك، فارتاح إلى ذلك. وهنا نثبت من كلام الأستاذ وصف الطريقة التى لجأ إليها الخديوى توفيق باشا للتخلص من رياض باشا فكانت من أكبر أسباب الثورة فيما بعد، قال:

"أخذ الجناب الخديوى من ذلك العهد يستدنى منه أمير الآلاى الأول[٥٨] الذى كان يحرس السراى، وهو على بك فهمى ويستدعيه إلى مجالسه الخاصة ويمازحه ويزج به فى الحديث على اختلاف شؤونه ويظهر له أمانيه فى الإحسان إليه وعدم وجود السبيل إلى ذلك حتى قال له مرة: "إنى أردت الإنعام عليك بألف جنيه ولم يمكن ذلك لمعارضة رياض باشا" ومرة: "إنى أردت الإحسان عليك برتبة اللواء فلم يقبل رياض باشا" وأمثال ذلك حتى اعتقد على بك فهمى أن الخديوى ساخط على رئيس نظاره، وأن رئيس نظاره عدو منفعته ومنفعة إخوانه. وعلى المألوف عندنا لم يخف شىء من ذلك عن بقية الضباط الكبار بل ولا على كثير من الخاصة ومن يحبون الوقوف على حقائق ما يجرى حولهم. كل هذا والمرحوم عثمان رفقى باشا (وزير الحربية) يشتد فى معاملة الضباط الذين جنى عليهم آباؤهم بولادتهم فى مصر ويهيئ المشروعات لإزاحة القوة العسكرية منهم. فماذا كان يدور من الحديث بين على بك فهمى وإخوانه الضباط الفلاحين؟ وماذا يتصورونه فى منزلة رياض باشا من الخديوى؟ وماذا يتخيلونه فى ميل جنابه إلى فصله؟ وماذا جسمته أوهامهم من معاداة رياض باشا للضباط حتى اقتنعوا بأن كل ما يقع من عثمان رفقى فإنما هو من رئيس النظار؟ ولينظر ماذا يهجسون به من وسائل

---

(٥٨) الآلاى: أى الفرقة من الجيش.

التخلص من رياض باشا ورفقى باشا معًا على ظن أنهم لو فعلوا شيئًا من ذلك فإنما يفعلون ما يرضى خديويهم، ثم نأمل فى الأعاليل التى يمكن أن يتخذوها حجة على أن ما يعملونه فى هذا السبيل موافق للصواب آت على وفاق الشرع".

وكان الضباط قد استراحوا من بعض المظالم فانفسحت آمالهم فى استكمال الخلاص، وفكروا فظهر لهم أن قانون التصفية وضغط الأجانب لمصلحة الأجانب، وأنه حرم البلاد حريتها، وأن الأجانب يتقاضون مرتبات فاحشة من خزانة الدولة فى إدارة المراقبة العمومية وصندوق الدين والدومين والدائرة السنية وسائر المصالح التى وظفوا فيها مع ادعاء خواء الخزانة وفقر البلاد، وأنهم هم أصحاب الكلمة فى الإدارة والمالية، وأن الحكومة الخديوية أصبحت تابعة لحكومات أخرى لا تهتم لسعادتها أو شقائها إلا بمقدار ما تظل قادرة على أداء الديون ودفع المرتبات الضخمة للمندوبين من قبلها، فقسوة الأجانب وشرههم وسوء سيرتهم مما أوقع فى النفوس "أن حقيقة الظلم واحدة، وإنما طورها الجديد أرسخ أساسًا وأضبط نظامًا، وأظهر استعدادًا للخلود فلا محيص عنه، فلو استطال سلطانه وامتد من دائرة إلى أخرى لآل الأمر إلى وقوع البلاد فى شدة منظمة وضيق محكم الحلقات".

ولم يكن الأجانب من ناحيتهم راضين عن رياض باشا؛ لأن ربحهم من البلاد قل بحسن سيرته وقد حصل نزاع بينه وبين البارون درنج قنصل فرنسا الجنرال بشأن قانون المحاكم المختلطة، وكان رياض باشا يريد تخفيف امتيازات الأجانب فيه والبارون درنج يأبى ذلك فأخذ يسعى لإيجاد الوسائل لفصل رياض باشا.

ونعود إلى الضباط فنقول إننا أشرنا فى هذا الفصل إلى أنهم كانوا فى وزارة شريف باشا قد التمسوا عزل ناظر الحربية لتذمرهم من رداءة الطعام وسوء أحوال المستودعين وأرباب المعاشات، وقلنا إن الشكوى أهملت ولم يعن بخطرها وزير الحربية، وكان كل ما عنى به الوزير هو تقريب زيد والتحامل على عمرو وزيادة التفرقة بين المصرى والجركسى وترك الضباط هملاً بلا عمل، من غير أن يحملهم على الأخذ بالأعمال العسكرية وتعاليمها أو يلزمهم آدابها ويخضعهم للنظام السليم فيها،

فلما أريد اختصار الجيش فى أخريات سنة ١٨٨٠، وحصر ترقى الضباط فى المتعلمين فى المدارس الحربية اضطربت نفوس المصريين منهم واعتقدوا لسوء ظنهم بالوزارة أن هذا النظام إنما يريد به ناظر الحربية قضاء شهوة له فاجتمعوا للتشاور، وفى أثناء ذلك أحال عثمان رفقى باشا عبد العال على الاستيداع، وأقام أحمد عرابى مقامه، واتفق فى هذا الوقت أن الخديوى انحرف عن على بك فهمى، فخاف أن يحل به ما حل بعبد العال، وأن يستبدل به جركسى، فانضم إلى من مسهم الظلم، وكشف لهم عن حال الحكومة والحاكم كما سمع وعلم من الخديوى نفسه.

وكان أحمد عرابى يكره الجراكسة ويحتقرهم، وخاف أن يصيبه ما أصاب عبد العال ووجد هو وإخوانه فيما كشف عنه على فهمى من النفرة بين الخديوى رياض باشا باعثًا على الجرأة على مقاومة تلك المشروعات، ففزع إلى رئيس النظار، وشكا إليه ما مس عبد العال فقبل شكواه بعد تردد وأبقى كلا من هؤلاء الضباط فى وظيفته.

وكان هناك ضابط آخر اسمه أحمد عبد الغفار (على الفرسان)، وكان بينه وبين وزير الحربية منافرة "لأمور أهمها تقاربهما فى درجة الفهم وتزاحمهما على هنة واحدة". فكان كل منهما يسعى للخلاص من صاحبه ولا يستطيع، وعرف الخديوى ما بينهما وشكا إليه عثمان رفقى باشا "فكان من ثمرات ذلك أن الخديوى كان يستدعى أحمد عبد الغفار فى طريق منتزه الجزيرة ويستوقفه ويحادثه الزمن الطويل مظهراً ميله إليه ويسمع شكواه من عثمان رفقى ويعده بإشكائه ورفع ظلامته؛ فكان هذا مما شجعه على مناوأة رئيسه وزاد فى حقد رئيسه عليه".

وبعد أيام كان عرابى وبعض زملائه فى وليمة ببيت نجم الدين باشا دعاهم إليها على أثر قدومه من الحج وبينما هم على المائدة قال إسماعيل كامل باشا: إن ناظر الجهادية أتى اليوم عملاً لا يحمد عليه، عزل أحمد عبد الغفار من قائمقامية السوارى وعين بدله محمد شاكر بك؛ فلم يتم أحمد عرابى عشاءه بل انصرف هو ومن كان معه من الضباط على بيته، وكان فيهم على فهمى وعبد العال، ودعوا أحمد عبد الغفار، وكتبوا تقريراً ضمنوه الشكوى من عزل أحمد عبد الغفار بلا محاكمة على خلاف القانون.

وذكرو آخرين عزلوا واستبدل بهم شيوخًا فانون أو جهلة دونهم فى المعارف العسكرية. وطلبوا إحالة القضية على مجلس عسكرى فإن كان لهم حق منحوه وإن استحقوا عقوبة قبلوها، وطلبوا عزل ناظر الجهادية لاختلال أعماله وميله عن النظام ووقعوا نسخة من هذا التقرير إلى الخديوى وأخرى إلى رياض باشا بإمضاء أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمي بالنيابة عن الضباط المصريين جميعًا، فبقى التقرير سبعة عشر يومًا للمداولة بين الخديوى ورئيس نظاره، وكان من رأى رياض باشا أن يجاب طلبهم تشكيل المجلس العسكرى، ولكن الخديوى لم يقبل ذلك.

وليس أبدع ولا أصدق من قول الأستاذ الإمام في بيان الحالة على أثر هذا الحادث قال: "شاع هذا الخبر بين الناس على حسب العادة فى مصر، علم الكثيرون من الأعيان والعلماء والموظفين بإصرار الضباط على طلب ماس بالوزارة، وأحسوا بخلاف بين الخديوى ورئيس نظاره؛ فهب عند ذلك جميع الراغبين فى تغيير الحال من علماء وأعيان وذوات كرام ومقربين من الجناب العالى، واتحدت وجهتهم فى الغاية وإن اختلفت الدواعى والبواعث؛ فطلاب مجلس النواب يؤملون من التغيير أن ينالوا تشكيله، والمتضجرون من استبداد بعض المأمورين والخائفين أن يؤخذوا بالشبهة يرجون التبديل كشفًا لكربتهم وأمنًا على أنفسهم، والواجدون على السلطة الأجنبية يرجون شفاء شىء من وجدهم والذوات الكرام الطامعون فى رجوع سلطتهم على أبدان الرعية وأموالها يطمعون فى إرضاء شرهم، والأجانب الربويون يتطلعون إلى انقلاب تزيد به الشدة المالية حتى تتسع لهم طرق الكسب الماضية، وقنصل فرنسا البارون دونج يسعى فى الانتقام من رياض باشا ويحب أن يأتى خلف له يمكنه مجاراته فى مطالبه، والجناب الخديوى لا يكره أن يتخلى رياض باشا عن رياسة النظار بل تلك أمنية من أمانيه. فأخذت هذه العوامل جميعها تشتغل لتقوية جانب الضباط وتشجيعهم على الإلحاح فى الطلب، وكل من وصل إليهم من أولئك بنفسه أو أمكنه أن يبعث إليهم من يعبر عن أفكاره، يؤيد لهم عدالة الطلب، وموافقته للرغائب الوطنية وأن ما يأتيه ناظر الجهادية لا يمكن الصبر عليه، ثم كانت تأتيهم الأخبار بأن الجناب الخديوى لا يأبى إجابة طلبهم، بل يجب أن يمكن لهم أمنيتهم وإنما رياض باشا هو الذى لا يريد ذلك،

والله أعلم من أين كانت تأتيهم هذه الأخبار مع أن رياض باشا كان يريد تحقيق الأمر حسب ما طلبوا في تقريرهم. زاد هذا كله في جرأة الضباط وكلما طال التردد في حسم المسألة كثرت الإشاعات وقويت عزائم المحركين وغلب الظن بضعف الحكومة، وقد حصلت عدة مقابلات بين رئيس النظار وبينهم قال دولته في إحداها لعرابي ومن كان معه إن ما أودعتموه في تقريركم من طلب عزل الناظر يعد خروجًا عما حدده لكم القانون وتلك مهلكة سياسية فقد يخشى أن يعد الأجانب ذلك سبيلاً لزيادة تداخلهم في الحكومة واشتداد وطأتهم عليها، وأحس بذلك البارون درنج، فأرسل إلى أحمد عرابي وإخوانه يقول لهم إنه يسره ما يراه من صلابتهم في عزيمتهم واشتدادهم في المطالبة بالعدل فيهم، فعليهم أن يثبتوا في مطالبهم ولا يضعفهم ما يُهددون به. فهو بصوت حكومة فرنسا يسند المطالب العادلة، وليس في الإمكان أن حكومة متمدنة تقيم الموانع في سبيل الناهضين بطلب حقوقهم الساعين في الانتصاف لأنفسهم ولأبناء بلادهم".

فلما قال قنصل فرنسا الجنرال لعرابي هذا الكلام "تحول السير - على حد تعبير الأستاذ - من سؤال الخاضع إلى إلحاح المضارع" فأخذ عرابي وزملاؤه يدعون سائر الضباط للاتفاق معهم على مقاومة كل ما سنته نظارة الجهادية من نظام ضار بهم والمطالبة بعزل ناظر الحربية الذى كان مثار هذه المخاوف.

واشتد صخب الضباط واضطرابهم فانعقد مجلس النظار برياسة الخديوى لحل هذا المشكل. وحضر اجتماعه بعض رجال المعية، قال الأستاذ في بيان لعبة رجال المعية: "فكان من رأى رياض باشا أن يحال تحقيق ما في التقرير على مجلس عسكرى وكان من رأى ناظر الجهادية القبض على الضباط الثلاثة عوامل هذه الحركة والحكم عليهم بالعقوبة التى استحقوها بجرأتهم هذه، ووافقه بعض النظار وجميع من حضر من رجال المعية، وكان الجناب الخديوى من هذا الرأى واستمر الجدال ذلك اليوم إلى أن جاء وقت الظهر ولم يتقرر شيء، فقاموا إلى المائدة وبعد الفراغ من الطعام وقبل الرجوع إلى المداولة جاء أحد رجال المعية - طلعت باشا - إلى رياض باشا وأسر إليه أن بعض الناس يتهم دولته بمجاراة الضباط والأخذ بناصرهم طمعًا في أن يملك قلوبهم ثم يستخدمهم في الاستيلاء على الخديوية المصرية!!؟ فلما عادوا إلى الجلسة

لبث رياض باشا ساكتًا وصارت الأغلبية على رأى الجناب العالى، وإنما سأل رياض باشا ناظر الجهادية: "هل تتحمل تبعة هذا الأمر؟" فقال: نعم. وصدر الأمر بالقبض عليهم وسجنهم فى ٣١ يناير سنة ١٨٨١ - هذا ما حدثنى به أحد النظار فى ذلك الوقت ولا أظنه إلا صادقًا".

على أن هذا الأمر لم ينفذ بقوة الحكومة وسطوتها بل بالحيلة والغدر، فجاءت طريقة التنفيذ أدل على الضعف من التسويف كل هذه المدة فى النظر فى الأمر، ذلك أن ناظر الجهادية كتب إلى الضباط الثلاثة يدعوهم إلى الديوان للمذاكرة على ترتيب حفلة زفاف الأميرة جميلة شقيقة الخديوى فى اليوم الثانى ليوم صدور الأمر، بحبسهم، فلما جاءتهم الدعوة دهشوا؛ لأن موضوعها لا يحتاج إلى استشارة ثلاثة من أمراء الآلايات، وليس مثل هذا العمل بالمألوف فأحسوا خيفة وارتابوا فى الأمر، وأيقنوا أن هناك مكيدة ومدبرة، فدعوا إليهم من يثقون بهم من الضباط وأطلعوهم على الدعوة فاقتنعوا بالخطر المتوقع عليهم وعلى من يشايعهم وعلى كل ضابط مصرى، واتفقوا على مقاومة الشر المنتظر بالقوة إذا اقتضت الحال ذلك وتكفل كل من محمد عبيد البكباشى فى الآلاى الأول - آلاى الحرس - وخضر خضر البكباشى فى آلاى السودان بإنقاذ الضباط الثلاثة إذا أصابهم سوء.

وذهب الضباط الثلاثة إلى قصر النيل يتبعهم بعض العيون من جند الآلاى الأول كان الديوان غاصًا بالضباط وأمراء العسكر؛ فلما وصلوا إلى حيث ناظر الحربية تلا عليهم أمر السجن وجردهم من سلاحهم وألقى بهم فى الحبس (وتقاذفت عليهم الشتائم وكان أكثرها وأبلغها فى التحقير كلمة (فلاح) فعاد المقتفون لأثرهم وأبلغوا ضباط الآلاى الأول ما رأوا فنهض محمد عبيد بالعسكر الذى تحت قيادته لإنقاذهم على رغم أنف القائمقام الجركسى وشاهد الخديوى حركتهم فأمر (بروجى الحرس) أن يدعو الضباط إلى السراى فلم يستجب له أحد، وهجم محمد عبيد بعسكره على الديوان فى قصر النيل فشاع الرعب فى قلوب من كانوا فيه، ووثب ناظر الجهادية ووكيلها - كل منهما من نافذة لينجو بنفسه، وفتح الجند محبس الضباط الثلاثة فخرجوا وأرسلوا إلى ضباط آلاى السودان وكان فى طره فحضر الآلاى كله،

وإلى آلاى العباسية كذلك وهو آلاى عرابى والتمسوا العفو عنهم، ثم بلغهم ما حصل فحاروا ووقعوا فى حيص بيص وخطب عرابى العسكر والضباط وأثنى على إخلاصهم لأمرائهم وكان ذرب اللسان جريئًا، ثم أخذ يكتب إلى القناصل ويستعد لمخابرة السراى فأبلغ البارون درنج قنصل فرنسا العام أن الضباط لم يأتوا عملاً إلا ما يقى أرواحهم ويضمن لهم إقامة العدل فيهم وبعث إليه بورقة الدعوة لترتيب الزفاف وبسط له الحيلة وسرد له ما وقع، ورجا منه أن يبلغ قناصل الدول الأخرى حقيقة الأمر، وأن الضباط لا يبغون سوى إجراء العدل وعزل ناظر الجهادية، فجاءه الرد بالثناء على عزيمته والتشجيع على الثبات على مطالبه العادلة وتبشيره بأن لا خوف عليه ما دام الحق فى جانبه فسر عرابى بذلك، أما باقى القناصل فلم يجيبوا بشىء.

وأرسل الخديوى يسأله عن سبب هذه الفتنة فأجاب عرابى بأنه لا يريد إلا عزل ناظر الجهادية فقبل وعرض عليه عدة أسماء فلم يقبل سوى محمود سامى باشا فعينه فى الحال، فبعث عرابى إلى الخديوى يشكره ويطلب العفو عن العساكر والضباط، فعفا عنهم وطلب صرف العسكر فى الحال، فلم يمتثل وأجاب بأنهم ينصرفون فى صباح الغد. وهكذا انتهت حادثة قصر النيل مؤقتًا.

وهنا يقول الأستاذ الإمام: "كان يمكن لعرابى أن يطلب فصل رياض باشا بل وأكبر من ذلك لاستكمال الضعف فى ذلك الوقت وانحصار القوة فيما بيده، ولكن الأمر كان غير مدبر، فإن طلاب التغيير لم تكن لهم ثقة بعرابى ومن معه حتى كانوا يفضون إليه بما يريدون بل كانوا يظنون أن مجرد المقاومة والنزوع إلى نيل مطلب ما بالعنف والوصول إليه بالقوة، يكفى فى أن يقدم رياض باشا استعفاءه ولا حاجة إلى التصريح به لعرابى ومن معه خوف الإخفاق فيزداد عناؤهم إذا انكشف أمرهم، فكانت الوساوس منحصرة فى تزيين ما هم به الضباط من طلب حقوقهم. أما عرابى فلم يكن يخطر بباله أن يطلب إصلاح حكومة أو تغيير رئيسها فذلك مما كان يكبر على وهمه أن يتعالى إليه، وإنما الذى أحاط بفكره وملك جميع مقاصده هو الخوف على مركزه مع شدة البغضاء لمن كان معه من أمراء الجراكسة والمنافرة من عثمان باشا رفقى، فلم يكن له هم إلا الأمن على مقامه والانتقام من ذلك العدو والتغلب على ما كان بيد

الجراكسة من الوظائف العسكرية قصد التمتع بما كانوا يتمتعون به من رواتب أو نفوذ، لأنه هو وإخوانه أبناء البلاد أحق من غيرهم بمزاياها، وجميع المحركين له إنما يأتونه من هذا الباب ولم يستلفتوه إلى أمر آخر؛ فظن أن مقال الأعيان والذوات الفخام وما يأتيه من الجانب الأعلى وما يسمعه العامة ممن بلغهم خبر طلبه من استحسانهم له تصويبهم الثبات عليه إنما هو لعدالة الطلب واعتدال الرغبة؛ فخيل له أنه بعمله هذا يرضى الجناب الخديوى والكافة وقنصل فرنسا أيضًا بتطهير الحربية من ظلم ناظر الجهادية والجراكسة فانحصر طلبه فى عزل عثمان باشا، وما بقى من سلطة الجراكسة تسهل إزالته بعد ذلك فانقضى أرب عرابى ولم يستعف رياض باشا".

أما رياض باشا فاستغرب هذه الجرأة من قوم عهده بهم الاستكانة للسلطة وتنزيه الحاكم عن التطاول عليه بالمقاومة؛ فاعتقد أن البارون درنج هو الذى نفخ فيهم هذه الروح وأقنع الخديوى بطلب استدعائه فقبلت فرنسا وسحبته. ويقول الأستاذ الإمام: "لم يدر فى خلد رياض باشا أن البارون درنج كان العلة المتممة، وأن هناك أسبابًا أخرى سبقت سعيه وهى ظهور النفرة عنه من كل جانب، وأن الفتنة لا تسكن ما دام فى الوزارة غير مرضى عنه من الجناب العالى، مضايقًا لمن يحفون به، آبيًا البحث فى تشكيل مجلس النواب، واثقًا ببعض ضعفاء العقول من الحكام، مناصبًا للذوات الفخام بلا مجاملة، غير ناظر إلا لما يراه حسنًا، وما يعده خيرًا للبلاد بدون التفات إلى ما يخفف مرارة الحق إن كان محضًا، ويجلو جمال النية إن كانت صالحة، ولهذا قد اكتفى بعد إبعاد البارون درنج بالتفويض لناظر الجهادية الجديد فى إزالة أسباب الشقاق المخيم فى المراكز العسكرية والأخذ بزمام هؤلاء الضباط وردهم إلى النظام وتسكين نفوسهم على الطاعة، وأما ما بقى من الأسباب الحقيقية للفتنة وهو ما فى نفوس أهالى البلاد من الميل إلى تغيير شىء من السيرة الحاضرة وما تمكن فى قلب الجناب الخديوى من النفرة منه؛ فلم يلتفت إليه لسقوط ذلك كله عن منزلة الاهتمام من نفس رياض باشا".

ويشرح الأستاذ سياسة الخديوى؛ فيقول: "لم يكن يخطر ببال الجناب الخديوى فى ذلك الوقت أن الأمر يصل إلى هذا الحد، إنما كان يظهر لبعض الضباط انحرافه عن رياض باشا ويلمح إلى أن رئيس النظار هو عدوهم وهو الساعي في تقليل القوة العسكرية وفي إيجاد النظامات التى تحرم كثيراً من أبناء البلاد ثمرة أعمالهم فى الجندية ونحو ذلك، ثم يميل (الخديوى) فى مجلس النظار إلى أخذ الضباط الثلاثة غيلة وتجريدهم من سيوفهم قبل محاكمتهم – كل ذلك حتى يحدث شىء من الإلزام يعز على رياض باشا قبوله فيستعفي. كان الجناب العالى ينتظر أن يستعفى رياض باشا بمجرد الإصرار على صدور الأمر بحبس الضباط الثلاثة على خلاف رأيه فلم يستعف. كان يظن أن غاية ما يؤدى إليه حبس الضباط الثلاثة أن يجتمع جماعة من الضباط ويتجمهروا حول رياسة النظار يطالبون بالإفراج عن إخوانهم ويصرون على ذلك، فيستعفى رياض باشا كما استعفى نوبار باشا فى حادثة الخديوى الأسبق ثم تنتهى الحادثة ويعود النظام إلى [مقره]. وغاب عن الأفكار أن آثار الحركة على وزارة نوبار باشا كانت لم تزل تشاهد فى الجندية، تخفى وتظهر على حسب اقتضاء الأحوال، ثم لو كان الجناب العالى أظهر رغبته فى عزل رياض باشا لهؤلاء الضباط ودبر الأمر معهم وقال لهم إن هذا الرئيس يرتكن على الأجانب وهم يسندونه فلابد من إيجاد سبب يقنع الأجانب ظاهره لكان ما أتاه الضباط صادراً عن أمره ولبقيت هيبة المسند الرفيع فى نفوسهم مع اطمئنانهم على أرواحهم ومراكزهم من ناحية جنابه، ولما وجدت نفوسهم فى الظفر بمطالبهم شيئًا جديداً سوى الامتثال لأوامر الحاكم وإن كانت سرية، ولما شعروا بتلك القوة التى اندفعت بهم إلى خرق ذلك السياج المنيع الذى يحول دائمًا بين النظام والفوضى. نقول إن ذلك كان أقل خطراً فقط أما سوء عاقبة مثل هذه الأفاعيل فمما لا محيد عنه غالبًا".

وهنا نقف اليوم على أن نستأنف الكلام فى العدد التالى.

الثورة العرابية

على ذكر تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده(٥٩)

(٢)

(تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بقلم مؤرخه السيد محمد رشيد رضا فى ألف ومائة وأربع وثلاثين صفحة من القطع الكبير – الثمن خمسون قرشًا)

* * *

أدرك الخديوى بعد حادثة قصر النيل ما تنطوى عليه من المساس بمقامه، وكان يكره رياض باشا كما عرف القراء ويبغى عزله، ولكن خطر الحادثة أنساه رياضاً فبادر إلى اتخاذ الحيطة ودعا إليه على فهمى أمير الآلاى الأول "وذكره بما كان له من الزلفى عنده وأظهر له الرضى عنه وأمره باستدعاء جميع ضباط الآلاى إلى سراى عابدين ليقسموا للجناب الخديوى يمين الطاعة والفداء ويقسم لهم جنابه يمين التأمين من كل عقوبة على ما مضى".

وكانت غايته من ذلك واضحة، وهى أن يتخذ من هذا التفريق قوة له يخيف بها بقية الجيش، غير أن عرابى أحس بذلك فالتمس من الخديوى أن يدخل فيما دخل فيه

---

(٥٩) نشرت فى ملحق "السياسة" فى ٨ أبريل سنة ١٩٢٢ (ص١٣، ٢٠ – ٢١).

على بك فهمى من يمين الأمان فأجابه الخديوى إلى رجائه فى اليوم الرابع من وقوع الحادثة وتبادلا الأيمان، ولكن عرابى لم يكن يجهل مع ذلك أن دخوله فى يمين الخديوى لا يكفى فى وقايته، فقد سبق هو - أى عرابى إلى نقض الأيمان العسكرية التى حلفها فأخذ يحتاط لنفسه ولشركائه وأقام الحراس على بيته وبيوتهم ليلاً ليحموهم "من الغيلة المبتذلة فى أرض مصر" واحتال ليضم الجيش إليه ويخليه ممن يرتاب فيه، فطلب تأليف لجنة من عشرين أميراً من كبار الضباط هو أحدهم للبحث فى أنظمة الجيش والمدارس الحربية وترقية الضباط وتسوية أحوال المستودعين، ولكنه لم يسلك الطريق النظامى، بل كان يكتب العرائض فى بيته أو بيت أحد زملائه، "ثم ترسل إلى الآلايات ليختم عليها الضباط صغاراً وكباراً وبعض الصف ضباط، ثم تقدم من قبل ضباط الآلاى إلى نظارة الجهادية أو إلى رياسة مجلس النظار - فلينظر بما كان يشتغل الضباط والعساكر وفيم يصرفون أوقاتهم؟ وكيف بذلك تموت رغبتهم فى الأعمال العسكرية ويتولد فيهم حب التطاول إلى ما هو خارج عن الحق المخول لهم بمقتضى القانون والنظام".

نقول وهذا حق، ولكن اللوم فيه لا يقع كله على عرابى وزملائه، فقد كانوا يعلمون أنهم أخطأوا وتجاوزوا حدودهم وأنهم جاهروا بالعصيان، وأنزلوا الحكومة على مشيئتهم؛ وليس الذى فعلوه بعد ذلك من كتابة "العرائض" بأشد ولا أدخل فى باب الفوضى والتمرد؛ وطبيعى بعد أن كان منهم فى قصر النيل ما كان أن يحتاطوا لتأمين أنفسهم وضمان ما يكفل لهم الطمأنينة، وقد كان من واجب الحكومة أن تدرك ذلك وتفطن إليه من تلقاء نفسها، وأن تبادر هى إلى إجراء ما يدخل الطمأنينة على نفوس الضباط المتوجسين ويرد النظام والطاعة إلى الجيش، لا أن تدع الضباط يسبقونها إلى ذلك ثم تمثل معهم مهزلة سخيفة هى أن تطمع أن تتخذ من سرور الضباط بإعلاء مرتباتهم وغير ذلك مما منحوه وسيلة لإزالة ما وقر فى نفوسهم وصرفهم عن تحدى الحكومة والاجتراء عليها، ذلك أن الحكومة والضباط كانوا يعلمون أنهم ما منحوا إلا بكره الحكومة لا برضاها واختيارها، فالموقف لم يتغير، والنفوس لم يزايلها القلق والتحفز، وقد احتفل بتلك المنح فى وزارة الحربية وخطب وزيرها الضباط فيما نالته البلاد ووفقت

إليه من الإصلاح بفضل الخديوى وإصلاحه وصدق عزيمة رياض باشا وجده وسائر رجال الحكومة، وبيّن - أى محمود سامى باشا - أن هذه النعم لا تحفظ إلا بالشكر ومظاهر الطاعة والخضوع للأوامر، ثم خطب رياض باشا فبيّن الفرق بين الحالة الحاضرة والحالة السابقة، وذكر الضباط بأنهم قوة الحاكم وآلته فى تنفيذ أوامره، وقام بعدهما عرابى فأمن على ما قاله الوزيران، وقال بلسان الجند إنهم على طاعة الحاكم الذى هو مصدر التقدم وإنهم آلته المنفذة.

وقد عقب الأستاذ على وصف الحفلة بما يدل على اعتقاده أنها كانت - كما نرى نحن - عبثًا فى عبث، قال: "كل مطلع على ما قيل فى ذلك الاحتفال يجد منه أن الحكومة كانت تريد أن تقنع الضباط بوجوب الطاعة، وأن عرابى كان يعدها بذلك بنفسه وبالنيابة عنهم، وهو دليل على أن القلق كان لم يزل مستمرًا إلى ذلك الوقت أى بعد حادثة قصر النيل بثلاثة أشهر، وقد كان يؤخذ من حالة عرابى عندما كان يجيب رياض باشا ومحمود سامى باشا أنه كان ينطق بخلاف ما يضمر، وأن حجاب الطمأنينة كان يشف عن كامن القلق والاضطراب".

ونحن ممن يؤمنون بالإخلاص ويعتقدون أنه معد، وأن له فى النفوس وقعًا عميقًا، وأثرًا عجيبًا، وأنه ليس أكفل منه بإحداث التحول السريع، والإخلاص لا يخفى، ونفوس الناس - بالغًا ما بلغت من السذاجة والغفلة وضعف التقدير - معايير حساسة؛ لأنه - أى الإخلاص - من القلب؛ وما كان من القلب فهو حرى أن يقع فى القلب مباشرة وبغير واسطة فلو أن الحكومة مضت فى إنفاذ ما أعلن فى هذه الحفلة، وانصرفت إلى عملها ولم تشغل نفسها بالكيد للضباط والإيقاع بهم ومحاولة التخلص منهم، لكان ذلك حقيقًا أن يشعر الضباط الطمأنينة التى ينشدونها وأن يعدل بهم عن الطريق الذى انحرفوا إليه، ويردهم شيئًا فشيئًا إلى واجباتهم، ولكن الذى حدث كان على نقيض ذلك إذا صحت رواية الأستاذ الإمام، فإنه يقول فى مذكراته، وهو غريب فى بابه:

"قلنا إن الجناب الخديوى أصبح بعد حادثة قصر النيل يطلب الخلاص من أولئك الضباط وسطوتهم النافذة فى جيشه فشغله ذلك وأخذ يدبر الوسائل، ولكن لا مع وزرائه والمسئولين عن الأمن فى حكومته بل مع حاشيته وبعض رجال معيته، ومن كان

يختصهم من خدمه – وذلك مهب البلاء على كل حاكم ومنبع الشقاء لكل أمير: أن يتخذ لنفسه عمالاً فى الخفية غير الذين أقامهم على الأعمال فى الجهر، نعم للحاكم أن يستشير كل من يراه أهلاً لأن يُشير متى وثق من عقله وأتضح له حسن السابقة فى أعماله، ولكن من المفروض عليه أن يكاشف بذلك رجال حكومته الذين ألقى إليهم مقاليد أموره وفوض إليهم تدبير شئونه فى رعاياه، فإذا أقروه على العمل بما أشير به عليه ورآه حسنًا مضوا فيه بالاتفاق وإلا نبذوه أو ادخروه لوقت آخر، أو عزل من لم ير رأيه وأقام مقامه من هو أقدر منه على تنفيذ أوامره المنطبقة على مصلحة البلاد، بعد التروى فى جميع ذلك والثقة بسلامة العاقبة؛ فإن اختلس لنفسه شيئًا من التدبير بانفراده مع بعض خاصته على غير علم ممن ملكهم زمام الأمر من الحكومة تباينت المسالك واختلفت الغاية وفسد بذلك نظام الأعمال وسقطت البلاد فى الفوضى وهجرتها الطمأنينة وتولاها القلق وظهر ضعف الحاكم وباد سلطانه – عواقب قضت بها السنة الألهية على كل أمة تضاربت فيها القوى وتخالفت النيات واستبد كل من الوازعين فيها برأيه ومضى على ما تزينه له نفسه".

والقارئ يعلم أن الأستاذ الإمام إنما كتب هذه المذكرات إجابة لرغبة الخديوى السابق عباس حلمى باشا، ويخيل إلينا أن الأستاذ تعمد أن يستخلص من أسباب الثورة وحوادثها كل ما يسعه من العبر ليجعل منها للأمير الجديد مزدجراً، وليكون كتابه، لا كتابًا فى الثورة العرابية فحسب، بل فى سياسة الدولة أيضًا، ومن هنا فيما نظن استطراده بعد كل واقعة إلى التعليق عليها وإبراز العظة التى تنطوى عليها.

وعلى رواية الأستاذ الإمام يكون الذى حدث هو أن المرحوم الخديوى توفيق باشا أراد أن يبدأ بعبد العال لظنه أنه أجرأ زملائه وأعظمهم نفوذاً فى الجند وأفضى بهذه الرغبة إلى يوسف باشا كمال ناظر دائرته الخاصة فتكفل بالأمر، وعمد إلى باشجاويش شركسى فدعاه إلى بيته فى أوائل شهر مارس ١٨٨١ وأكرمه وكلفه أن يصرف العساكر عن طاعة الضباط إذا سيروهم إلى مثل حادثة قصر النيل، وأن يقبلوا كل ضابط يعين عليهم بدلاً من ضابطهم إذا نقل إلى آلاى آخر، وكانت هذه حماقة من يوسف باشا ولا شك، فما يغنى فى مثل هذه المواقف باشجاويش شركسى لأن من

كان فى مثل مركزه الصغير جداً، والذى لا يكاد يمتاز عن مركز الجندى، لا تنتظر منه اللباقة والكياسة الواجبتان، ثم إنه شركسى وقد بدأ الشر كله بالنزاع بين الجنسين المصرى والشركسى، وقد ذهب هذا الباشجاويش الأحمق وكتب عريضة ضمنها أن العساكر وصف الضباط لا يحبون ضباطهم ولا يريدون أن يكونوا تحت قيادتهم، وإذا نقل أى واحد منهم إلى أية جهة فهم لا يعارضون أمراً من الأوامر التى تصدر بذلك، وطلب من أفراد الجند أن يختموا عليها زاعماً أنها "عريضة" تشتمل على المطالبة بزيادة المرتبات لهم؛ فختم كثيرون منهم لأنهم أميون، وكانوا قد ألفوا بعد ذلك وعودهم ضباطهم أن تكون مطالب الجند بعرائض، كما رأيت فيما مر بك، غير أن أمين أحد البلوكات اطلع عليها فأخبر بها اليوزباشى سليم أفندى [الريدى] وسلمها إليه، وهذا سلمها إلى عبد العال فقدمها عبد العال إلى نظارة الجهادية فرفعها الناظر إلى الخديوى فأمر بالتحقيق، فصرح الباشجاويش الأحمق بأن يوسف باشا كمال هو الذى أمره؛ فعزل الخديوى يوسف باشا لينفى الشبهة فى أن لسموه يداً فى الأمر، ولكن الضباط كانوا على يقين من أن ناظر الدائرة الخاصة لا يجرؤ أن يقدم على عمل كهذا بغير أمر من مولاه، على أنه ليس من الضرورى أن يكون ما فعله يوسف باشا بأمر من مولاه، فكثيراً ما يستخدم الموظفون نفوذ مناصبهم فيما لا حق لهم فيه، ولعل يوسف باشا أقدم على هذا من تلقاء نفسه لتوهمه أن فى هذا إرضاء للخديو فما كان يجهل سخطه على هؤلاء الضباط وتمنيه الاهتداء إلى وسيلة يستريح بها منهم، فظن أنه إذا وفق كان ذلك سلماً إلى الرقى، وإذا خاب فعسى أن يبقى الأمر مستوراً، وأن لا ترقى الشبهة إليه ولكنه أساء التدبير كما رأيت، ولم يقع إلا على أحمق.

ويظهر أن هناك خلافاً فيما اشتملت عليه العريضة؛ فقد روى بعضهم أنها كانت التماساً من الجنود للعفو عما أتوه من السير إلى ميدان عابدين يوم حادثة قصر النيل، ولكن المعروف أن الخديوى كان قد أصدر عفوه قبل ذلك وانتهى الأمر ثم جاءت الحفلة التى أعلنت فيها المنح وألقيت الخطب. فلا محل لالتماس عفو ممنوح.

ويظهر أن الساعين بالوقيعة بين الجنود وضباطهم كانوا ذوى شغف بالشاويشية والباشجاويشية فقد حدث فى أوائل إبريل فى السنة عينها (١٨٨١) أن رجلاً اسمه فرج بك الزينى من أمراء الآليات المستودعين كان يسكن فى طره قريبًا من معسكر آلاى السودان، وكان هناك رجل اسمه إبراهيم أغا التتونجى من خدم الخديوى الأسبق (توفيق باشا)؛ فكان من رأى إبراهيم أغا هذا أن يلقى الخلاف بين الجنود وبين أمير الآلاى عبد العال بواسطة فرج بك الزينى فاتفق معه على الأمر، وكان لفرج بك صهر يساكنه فاتخذه أداة للدس، ولم يكن أذكى أو أحذق من يوسف باشا كمال فعمد إلى شاويش يسمى "عبدالخير" فدعاه إلى فرج بك فأكرمه، وطلب منه أن يتردد عليه هو وإخوانه، فما كان من عبد الخير إلا أنه أخبر البكباشى خضر بما وقع فسمح له بالتردد وأمره أن يبلغه ما يحدث ففعل. "واجتمع عند فرج بك اثنا عشر من صغار ضباط السودان فى ليلة من ليالى شهر إبريل فأبلغهم فرج بك سلام الجناب الخديوى، وأن جنابه يريد أن يؤمر عليهم أميرًا سودانيًا منهم (وهو فرج بك)، وأنه متى صار الأمير منهم رقى الباشجاويش إلى بكباشى (؟!) والشاويش إلى قول آغاسى، والأونباشى إلى ملازم[٦٠]، ولا يتم ذلك إلا أن تعملوا ما أشير عليكم به وموعدنا للكلام فى ذلك الليلة الآتية بعد العشاء على شاطئ البحر، فتلقوا ذلك منه بالقبول وانصرف عبدالخير وأفضى بالأمر إلى خضر خضر فأذن له بالوفاء بالموعد ومتى ظهر لهم من كلامه ما يشير إلى الفتنة فعليهم أن يحضروه إليه، ثم اجتمعوا فى الموعد فى مزرعة قمح على مقربة من البحر فطلب منهم فرج بك أن يرفعوا على ضباطهم شكاية من تصرفهم إلى الحضرة الخديوية ليبنى عليها ذلك التغيير، فعندما سمعوا منه ذلك قام واحد منهم وقال هذا لا يريد بنا خيرًا وعلينا أن نكرهه على الوقوف بين يدى ضباطنا فى الحال، فاتفقت كلمتهم على ذلك وطلبوا منه أن يسير معهم فأبى فاحتمله عبد الخير وساعده إخوانه حتى أحضروه عند خضر، فكتب الواقعة بالتفصيل إلى أمير الآلاى

---

(٦٠) الباشجاويش (رقيب أول)، والبكباشى (مقدم)، والشاويش (رقيب)، وقول آغاسى (ضابط، وربما أطلق هذا اللقب فى البداية على رئيس الخصيان فى القصر)، والأونباشى (عريف). (المحرر).

فحضر وطلب محاكمة فرج الزينى فحوكم وظهرت معه رسائل من إبراهيم أغا تدل على أنه مصدر هذا الشغب وحكم على فرج بك بإنزاله من رتبة القائمقام إلى رتبة البكباشى وبنفيه إلى السودان". ويقول الأستاذ الإمام إن الجناب الخديوى عفا عنه وأرسله إلى السودان موظفًا فى وظيفة تليق به.

من هذه الحوادث يتضح أنه كانت هناك دسائس تدبرها حاشية الخديوى توفيق باشا وقد يكون ذلك بغير علمه وتوخيًا منهم لمرضاته؛ فإذا كان خوف عرابى وزملائه على أنفسهم قد ألجأهم إلى طلب الدخول فى يمين الأمان أسوة بعلى فهمى ثم إلى التخلص ممن يرتابون فيهم فى الجيش ليستولوا هم على أزمته، فأخلق بهذه الحوادث أن تزيدهم خوفًا وتضاعف اضطرابهم، وأن توقع فى روعهم أن العفو واليمين وما تلا هذه وذاك من المنح والخطب وكل ذلك لم يكن يراد به إلا إلهاؤهم ريثما تهيأ وسائل الانتقام منهم، وأنهم لهذا لا يزالون محتاجين إلى ما يحميهم، ولهذا أخذ عرابى يغربل الجيش ويقصى عنه كبار الضباط الذين لا يثق بهم أو يخشى أن يكونوا عونًا لخصومه على الكيد له، ولجأ إلى أساليب غريبة يروى بعضها الأستاذ الإمام فيقول إنه – أى عرابى "أوحى إلى ضباط آلاى العباسية (آلاى عرابى) أن يخالفوا أوامر البكباشى ألفى أفندى يوسف، وأن يهينوه إذا عرضت الفرصة فتجاوزوا الحد فى سوء المعاملة معه إلى أن كلفوه يومًا تقديم استعفائه؛ فأبى ودافع عنه يوزباشى يسمى خليل أفندى على، وانتهى الأمر إلى عرابى فألزم البكباشى بأن يستعفى وحوكم اليوزباشى فحكم عليه بالسجن مكبلاً بالحديد ثم استودع مع القضاء عليه بأن لا يعود إلى الخدمة العسكرية أبدًا، وكذلك إلى ضباط آلاى القلعة فطلبوا إلى الناظر عزل أميرهم حمد بك صدقى فعزل وعين بدله إبراهيم بك حيدر، وكذلك فعل آلاى الطوبجية، فعزل حاكم الآلاى حسين بك وعين بدله إسماعيل بك صبرى وحصل كثير مما يماثل ذلك ولا فائدة فى الإطالة بذكره".

ومع ذلك بقى عرابى قلقًا لا يطمئن، فإن الجيش كبير وضباطه كثيرون، وسلطان الحكومة فوق سلطان عرابى وإخوانه، وقد ألف هذا الجيش رفع التقارير والاشتكاء بالحق والباطل واعتادوا أن تجاب مطالبهم ويرفع عنهم ما يعدونه مظالم، وليس من

المستحيل أن تلجأ الحكومة أو أمير البلاد إلى نفس الوسائل التى اتخذها عرابى للإيقاع به أو إفساد القلوب عليه وفضها عنه، ولو أن الخديوى اتفق مع حكومته على ذلك لتيسر الأمر، ولكن الأستاذ الإمام يؤكد أن كلا منهما كان فى واد. ففكر عرابى فى التماس قوة تكون أعلى من قوته وقوة الحكومة ولها من الشأن فى مراقبة أعمال الحكومة ومناقشتها الحساب على ما يصدر منها خارجًا عن النظام أو مخالفًا للعدل، ما تخشى عواقبه وتتقى مصائره، "وكان فزع دائم يخيل له العزل والموت فى كل شىء يراه، يلتفت يمينًا وشمالاً فلا يرى إلا سيوفًا مسلولة أو حبالاً منصوبة، ولا يسمع من هواجس نفسه إلا صيحة واحدة: الخلاص الخلاص، الهرب الهرب، ولم يتمثل فى مخيلته مهرب أوفى له من طلب تشكيل مجلس النواب على الصورة التى قدرها فى نفسه".

وقد لا يكون الباعث لعرابى على هذا الطلب الخوف وحده؛ فقد كان أكثر أهل الطبقتين العليا والوسطى يتهامسون بما يشى بالقلق ويشعر بالملل من إدارة رياض باشا لأمور البلاد وسياسته التي انتهجها فيها، وكان تغيير الحال أمنية تضطرب بها الصدور وتجول فى النفوس وتتعلق بها القلوب، والأستاذ الإمام نفسه يصف هذه الأمنية أو الرغبة الشائعة أبلغ وصف وأقواه فيقول: "لو قيل لطلاب التغيير أن لا سبيل إليه إلا باستدعاء جناب الخديوى الأسبق إسماعيل باشا أو استحياء إسماعيل باشا صديق لاستسهلوا طلب ذلك بعدما ذاقوا على عهدهما ما ذاقوا".

وأحسب هذا إنما كان كذلك لأن اشتهاء التغيير كان قويًا، وكان الكثيرون لا يرون علاجًا لسوء الحال وإصلاحا للفساد إلا أن يقوم نظام الشورى، ويجتمع مجلس من نواب الأمة، ومتى كان هذا كذلك فماذا يمنع أن يكون عرابى قد تلقف هذه الرغبة التى تلهج بها الألسنة أو تتهامس على الأصح وتتعلق بها وجاهر بالدعوة إليها ليفوز بمظاهرة الأمة له، ويكسب من العطف والتأييد ما لا سبيل إليه إذا ظل مقتصرًا فى التماسها على الجيش الذى يتسخطه الحكام وينقمون منه سلوكه، بل ماذا يمنع أن تكون هذه الرغبة قد جاشت بصدره كما جاشت بصدور غيره من الناس، خالصة غير مشوبة، ثم زاده إلحاحًا فيها أن رآها مخرجًا ووقاية من المخاوف وبابًا إلى السلطان والقوة؟ وقد صدق ظنه.

على أنه خاف أن يضيف إلى نقمة الخديوى عليه نقمة السلطان العثمانى، فبدأ بكتابة عريضة وقعها هو وفريق كبير من الضباط ختمها بالشكوى من استبداد الحكام فى الأقاليم، وإن هذا الاستبداد قد أفسد الأمن وعرض الأرواح والأموال للعدوان، وزاد نفوذ الأجانب حتى أصبحت مصالح البلاد فى أيديهم وتحت تصرفهم، وكاد اسم "الدولة العثمانية" ينسى وأشرفت علاقتها بمصر على الاندثار والإمحاء، وكان من آثار هذه "العريضة" وحذقه فى إظهار الإشفاق من بت صلة مصر بالدولة العثمانية أوورده من بعض رجال [المابين] أجوبة تحمل إليه تحية الخليفة العثمانى، "وتحكى له أقاصيص رضاه السامى عن كل ما يجرى فى مصر لمقاومة نفوذ الأجانب فى إدارتها ومصالحها"، وكانت سياسة تركيا فى ذلك الوقت ينطبق عليها المثل العامى القائل "لا منها ولا كفاية شرها" فهى لا تستطيع أن تبذل معونة جدية لمصر، حتى مع افتراض خلوص النية وصدق السريرة فى هذه المعونة، ومع ذلك أبى لها سوء التدبير إلا أن تدس على جهل وتشجع عناصر التمرد مع عجزها المعروف، وانتفاء أملها فى استرداد سلطانها دون انتفاء حقدها وموجدتها.

واطمأن عرابى من ناحية الخليفة وتشجع فخاطب رياض باشا فى الأمر؛ فغلظ رياض باشا وأبى إباءً شديداً؛ فمضى عرابى يتملق العلماء ويكاشفهم بما ينبغى من إضعاف النفوذ الأجنبى ورد الأمر كله إلى أهل البلاد، وكان يوهمهم أن الأجانب يضمرون السوء للدين والكيد لأهله، وينحى على رياض باشا ويتهمه بأن سياسته مفضية لا محالة إلى القضاء على الدين، ويستثير شهوات النفوس ويمنيها الأمانى إذا تغيرت الحال فأصغى إليه العلماء فانتقل منهم إلى الأعيان ومشايخ العربان، وجرى معهم على نفس الطريقة، ويظهر أنه كان جريئًا فى التصوير لا يبالى أن يبالغ فى الوعد ولا يتحرج أن يغلو ويغرق فى بيان النعم المنظورة، ولم يكفه ذلك فحرض الضباط على أن يكتبوا عرائض يقيمون فيها الدليل على ضرورة المجلس النيابى بالطعن فى الحكومة القائمة وبيان عدم كفايتها فى كفالة الأمن على الأنفس والأرواح والأعراض. وبينما هو فى ذلك إذ ظهرت مسألة تسمى مسألة الضباط التسعة عشر. وهنا تنقل ما دونه الأستاذ الإمام بحروفه:

"كتب البكباشى عبد الله أفندى الكردى تقريراً أمضاه هو وضابط (قول آغاسى) وستة عشر من اليوزباشية وملازمان وقدمه إلى ناظر الجهادية، ومحصل ما فيه الشكوى من تصرف عرابى ومحالفيه، وتعديهم حدود القانون، واشتغالهم ببث الدسائس بين ضباط الجيش وحملهم على تقديم عرائض للجناب العالى يطلبون منها فصل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس للأمة وزيادة عدد الجيش والتصديق على القانون الجديد، وأن عرابى قد صرح لهم بما معناه "أن القوة فى يدنا والعلماء والأعيان ومشايخ العربان يعضدوننا ولا مندوحة للخديوى عن إجابة طلبنا، فإن لم يفعل خلعناه وأقمنا حكومة جمهورية مستقلة". فلما وقف الناظر على ما فى التقرير أمر بتشكيل مجلس عسكرى لتحقيق ما زعمه الضباط؛ فقالوا إنهم لم يكتبوا إلا ما سمعوا، وزادوا على ذلك أن فى الجيش كثيراً من المظالم والخيانات وطلبوا تحقيقها، ثم قدمت إلى المجلس العسكرى تقارير فى ضباط الآلايات تنسب فيها تهم كثيرة إلى هؤلاء الضباط الواقفين موقف المخاصمة مع عرابى وجماعته، وانتهت المحاكمة بإثبات أنهم كانوا مدفوعين من إبراهيم أغا التتونجى على كتابة ذلك التقرير فحكم عليهم بعقوبات شديدة قابلها جناب الخديوى بعفوه الكريم غير أنهم فصلوا من الجند".

وبديهى أن هذه الخاتمة قوت ساعد عرابى وشدت أزره وزادت مركزه رسوخًا، ولكن هذا لم يفت فى عضد خصومه، ولم يثبط هممهم، أو كما قال الأستاذ الإمام: "لم تفتر عزيمة المخلصين من حاشية الجناب الخديوى فقد قيل إن بقية مما تركه جناب الخديوى الأسبق من الجوارى السود كانت تحت تصرف الخاصة من الخدم فأخذوا يزوجوهن ببعض العساكر والضباط من آلاى السودان، وكان أغوات سراى الإسماعيلية يدعون أولئك العساكر ويمنحون الواحد منهم نقوداً لا تعطى عادة لأمثالهم بحجة أن ذلك مساعدة لهم على معيشتهم مع زوجاتهم عتيقات السراى، ولكن العساكر كانوا يقولون لضباطهم إن الأغوات يغرونهم بقتل رؤسائهم فيهيج غضب الضباط وتضعف ثقتهم فى الأمن على أنفسهم ويشتد الرعب فى قلب عرابى ومن معه، سواء صح قول العسكر أو لم يصح فأثره فى ازدياد القلق والاضطراب لا ريبة فيه، والإشاعات التى تتولد عنه لا تقل قيمتها عن الحقائق الثابتة، وإنما وقود الفتن ما يقال لا ما يفعل".

والحكاية كما ترى عجيبة، ولا ضير مطلقًا من تزويج العساكر السودانية هؤلاء العتيقات بل هو كان حريًا أن يكون أضمن لإخلاصهم وثباتهم على الولاء، ولكن الظرف كان على ما يظهر سيئًا، والجو حافلاً بالإشاعات المتطايرة كما هي العادة في أيام القلق والتوتر، وكان الاضطراب النفسي سائداً والخوف في كل قلب والتوجس في كل صدر، وقل أن يكون تدبير القلق المستعجل حكيمًا، ومن هنا فيما نظن كانت حركات عرابي غير متزنة وأعمال المخلصين للخديوي الذين يبغون أن يسبقوه إلى ما يعلمون أنه يرضيه، غير محبوكة أو محكمة، والأمر كما قال الأستاذ الإمام، فإن للإشاعات في مثل هذه الأحوال مثل قيمة الحقائق، وإليها يرجع أكثر السوء ومعظم الشر.

بعد ذلك وقعت في الإسكندرية حادثة انتهت باستقالة محمود سامي باشا ناظر الجهادية، ذلك أنه في ٢٥ يوليو حدث أن عربة لأحد تجار الإسكندرية يقودها أوربي، كانت تمر في الشارع المؤدي إلى سراي رأس التين فداست جنديًا من الطوبجية فقتلته، فحمله رفاقه إلى السراي بكره رؤسائهم وساروا به في ضجة يطلبون الانتقام من القاتل فكبر الأمر على الخديوي وعده تطاولاً مخالفًا لآداب الجندية وله الحق فيما رآه "فأمر العساكر بالانصراف فانصرفوا ظانين أن شكواهم قبلت، ثم شكل مجلس عسكري فحكم على الجنود بمدد مختلفة يقضونها في السوادن".

وبعد تنفيذ الحكم كتب عبد العال حلمي أمير الفرقة السودانية تقريراً شكا فيه ما أصاب هؤلاء العساكر من قسوة الحكم وأعرب عن قلقه من الحوادث التي تجري في ألايه والفتن التي لا تنقطع واستغرب شدة الحكم في مثل هذه الحادثة مع مقابلة الجانبين بالعفو فيما هو أعظم (كحادثة فرج الزيني).

وقد اشتد غضب الخديوي لما قدم إليه هذا التقرير وعده جرمًا لا يقل عن جرم العساكر، واستدعى الوزراء من القاهرة واجتمعوا في حضرته وتداولوا و"قرر (أي جنابه) ووافقه الأغلب من رجال النظارة على أن بقاء محمود سامي في نظارة الجهادية مع ميله إلى عرابي ومن معه هو منشأ هذه الفوضى، وأنه لا سبيل إلى إيقاف سير هذا الداء ورد المتطاولين إلى السلطة العليا إلى الحد الذي رسمته لهم وظائفهم إلا عزل محمود سامي فقدم استعفاءه فقبل في الحال وعين داود باشا يكن ناظراً للجهادية".

ووجهة نظر الخديوى لها قيمتها، ولكن الواقع أن علة هذا الفساد لم تكن وجود محمود سامى باشا وزيراً للحربية، بل عدم وجود التفاهم والتعاون بين الخديوى والوزارة كلها؛ فكان لابد من إحدى اثنتين: فإما أن يتفاهم الخديوى ووزارته تفاهمًا تامًا صريحًا يشمل أكبر الأمور وأصغرها وظاهرها وخفيها، وإما أن تعتزل الوزارة كلها مناصبها وتجىء وزارة يستطيع الخديوى أن يطمئن إليها ويسعه أن يتعاون معها ويأتمنها على غاياته ويستشيرها فى وسائله ويعتمد عليها فى إدارة الأمور، أما أن يبقى رياض باشا مع نفور الخديوى منه وكتمانه عنه أكبر ما يعنيه فإطالة لمدة الفساد والاضطراب والقلق والتخاذل فلماذا لم يستقل رياض باشا؟

للرد على هذا السؤال ننقل ما يأتى من مذكرات الأستاذ الإمام قال:

"ومع ذلك فقد أظهر جنابه شدة قلقه من رياض باشا وأشيع فى الإسكندرية بل وفى القاهرة أنه قدم استعفاءه لتحققه من عدم رضى مولاه عنه، وعلم رياض باشا بعد انصرافه من سراى رأس التين بضجر الخديوى من بقائه على ما أخبره به بعض الأوربيين فرجع إليه وسأله فى ذلك، فأكد له أن لا صحة لما سمعه، وأنه فى المحل الأعلى من رضاه، فأظهر رئيس النظار اقتناعه بما سمع مع قيام آلاف من الأدلة على من يخالفه".

ولكن لماذا لم يستقل إذن؟ السبب يفصله الأستاذ الإمام وهو من محبى رياض باشا والمعجبين به، ومع ذلك لا يكتم الأستاذ الحق محاباة، بل يقول:

"من العبث أن يقال إن رياض باشا لم يكن يحس بوجد الخديوى عليه، ورغبته فى اعتزاله للسلطة، ولكن لذة المنصب والشغف بالرياسة وثقة دولة الرئيس بنفسه وظنه أن لا صلاح للبلاد إلا إذا كان هو صاحب سياستها والقائم بتدبير شئونها، كل ذلك كان يغالط إحساسه ويدافع وجدانه، ويلتمس له العذر فى البقاء ويصرف نظره عن أدلة الانحراف عنه، على قوتها، ويقبل به على موهمات الركون إليه، على ضعفها، ولو حكم عقله وأنصف نفسه وبلاده لانصرف عن مقام السلطة مختاراً قبل أن ينصرف عنها مكرهًا؛ فقد كان من المحتمل أن لا تبلغ الفوضى بالبلاد مبلغ ما وصلت إليه.

وهذا حق، فإن انطواء الخديوى على البغض لرياض باشا، زهده فى مكاشفته بنياته وغاياته، وصرفه عن استشارته، فبطل التعاون، ومضى الخديوى فى طريق والوزارة فى طريق آخر، وشاع أمر النفور فطمع فى الوزارة المتحفزون والراغبون فى تغيير الحال وأيقنوا أن اجتراءهم على الوزارة وسلطتها لا يسوء وقعه فى نفس الخديوى، ولكن سلطة الوزارة مستمدة من سلطة الخديوى فى الواقع وهيبتها من هيبته، ومقامها مما خلع عليها، فكل ما يمس ذلك يكون له أثره فى مقام الخديوية؛ فلو أن رياض باشا استقال لكان من المحتمل - ولا نقول الأرجح - [أن يتولى] الأمر حكيم عاقل يضع حداً للدسائس ويقر الأمور فى نصابها، وأن تستقيم الأحوال على حدودها.

حل إذن داود باشا محل محمود سامى باشا فماذا فعل؟ وكيف أقام ما اعوج وأصلح ما فسد؟ يقول الأستاذ الإمام فى مذكراته: "أخذ يصدر الأوامر الشديدة إلى الآلايات يلزم بها أمراءها وضباطها كافة أن لا يفارقوا مراكزهم العسكرية، ويحظر بها على جميعهم ما اعتادوا من الاجتماع فى المنازل والتردد على المحافل، ويطالبهم بإيفاء الأعمال العسكرية حقها من الدقة وأمر بإنشاء مكاتب فى مراكز الآلايات لتعليم القوانين العسكرية ظناً منه بأن ذلك يذكر الضباط والعساكر بأحكام النظام فيقبلوا على طاعته وتأخذهم الرهبة من مخالفته، وكان يذهب بنفسه إلى الثكنات العسكرية ليلاً ونهاراً ليراقب تنفيذ تلك الأوامر واهتم سعادة مأمور الضبطية بمعرفة حركات ضباط الجيش خصوصاً الرؤساء منهم وهم عبد العال وعرابى وأحمد عبد الغفار ليخبر ناظر الجهادية بما يكون من أمرهم خطوة بخطوة، فأرسل العيون والجواسيس على بيوت الرؤساء منهم وكبار الضباط، ولم يخف شيء من ذلك على عرابى ورفقائه".

وحسن جداً أن يصدر الناظر هذه الأوامر وأن يطلب تلقيها بالطاعة والإذعان، وإن كان ليس بالحسن أن يعتدى على الحرية الشخصية للضباط بعد الفراغ من أداء واجباتهم، وأن يحاول الحجر عليهم ومنعهم من التزاور والاجتماع فى بيوتهم، وأن يبث عليهم الجواسيس؛ لأن هذا العمل يكسبه عدواة الضباط ويزيد ما فى نفوسهم من الهواجس ويقلب الشكوك التى كانت تساورهم يقيناً جازماً، ولكن ما قيمة هذه الأوامر؟ وعلى أية قوة كان ناظر الجهادية يعتمد فى إلزام الضباط باحترامها وإمضاء مشيئته فيها؟ هذا سؤال بديهى يخطر للمرء، فإن الجيش أغلبه فى قبضة عرابى وزملائه الذين

تستريب بهم الحكومة ويصدر ناظر الجهادية هذه الأوامر ليخضد[٦١] شوكتهم ويقلم أظفارهم؟ فهل كانت لناظر الجهادية قوة أخرى غير الجيش يعدها لليوم الذى فيه تهمل أوامره ويصارحه الضباط بعدم الطاعة؟؟ لم يكن هناك شيء فإن الجيش في أيدى الضباط لا فى يده هو، والأمة لم تكن فى صف الحكومة، ولم تكن راضية عنها ولا غاضبة على عرابى ورفقائه، فقد كان عرابى يطالب بتغيير الحال ويقترح لذلك تأليف مجلس نواب يشرف على أعمال الحكومة وتصدر هى عن إرادته فى كل ما تفعل، وكان هذا الطلب كما أسلفنا أمنية الأعيان والطبقة الوسطى - كائنا ما كان الباعث لكل من هاتين الطبقتين على التعلق بهذه الأمنية - وكان عرابى قد أغرى العلماء ومشايخ العربان وضمهم إلى جانبه، فلم يبق هناك من يطمع ناظر الجهادية فى مظاهرته إذا صار الأمر إلى الجد بينه وبين الضباط، واستعصى الشر على علاج الأوامر التى يصدرها ويلح فى تنفيذها ويراقب ذلك بنفسه، ولو أن الأمة - على نقيض الواقع - كانت إلى جانب الحكومة وكان عرابى يعرف منها السخط على سيرته لكان الأرجح أن يحجم عن الاجتراء وأن يحسب حين ينهض لمناوأة الحكومة حساب هذه القوة المعنوية.

وعلى أنه لم يكن هناك ما نسميه الآن "رأى عام" بالمعنى الذى نفهمه فى هذه الأيام، ولم يكن للأمة متنفسات مأمونة تلتقى فى ملتقى عام، كما تلتقى مياه الفروع فى مجرى النهر وكان هذا الشلل فى الإرادة القومية نتيجة العسف والجهل، ويكفى أن نقرأ للأستاذ الإمام هذا الوصف البارع لتعرف حال الأمة وأثر الاستبداد الطويل فيها فقد قال إن كل فرد كان يصدر حكمه على الحادثة من الحوادث أو الرجل "همساً يرجو أن لا يسمعه ثالث، وقد يبالغ الأغلب (من الناس) فلا يقضى قضاءه إلا فى نفسه، وإن يجهر بالقول لم يبلغ من نفوس السامعين إلا مجرد استحسان قد لا ينطق به لسان، وإن نطق كان على طريقة القائل: فربما اجتمعت أصوات وعلت ضوضاء، ولكن كل فى مكانه لا تتحرك قدماه ولا تمتد يداه، وأول صيحة من مدفع تخرس لها جميع الألسن، وتخفت جميع الأصوات".

---

(٦١) يقال خَضَدَ شوكة فلان أى كسر حدته، وفى القرآن الكريم "فى سدر مخضود". (المحرر).

وهذا الوصف صادق، ولكنا نخشى أن يؤوله بعض القراء بما يفيد معنى الذلة فى الأمة. لذلك يحسن أن نقول إن الأمة لا ذليلة ولا مهينة، ولكن طول عمر الاستبداد من طبيعته أن يؤدى إلى التفكك ويضعف روح التعاون أو الروح العام ويعود النفوس الإيجاس والتحرز وتوقع الشر والتوقى منه بالتكتم وإيثار المساررة على المجاهرة، وطول التفكير والتردد وحساب العواقب قبل الإقدام، ولكنه - أى الاستبداد - لا يلبث أن يستنفد مجهوده وأن تضيق به الصدور فينقلب اليأس منه حافزًا إلى التمرد عليه، والقنوط من روح العدل باعثًا على الإضراب عن ذكر العواقب وتوقى المعاطب، ومن هنا حرص الإنجليز بعد احتلالهم مصر، وعلى الرغم من استبدادهم بالأمر كله فيها أن يدعوا للأمة متنفسًا، وأن يطلقوا لها حرياتها فى الرأى والاجتماع وما إلى ذلك، ليأمنوا انحباس السخط فى النفوس وتجمعه فى الصدور، ويكفوا أنفسهم شر انفجار القلوب بالحفيظة المخنوقة.

ونعود إلى ما استطردنا عنه فنقول إن أوامر ناظر الجهادية لم تجد فتيلا، وما كان ينبغى له أن يتوقع غير ذلك، ولا قوة وراءه؛ فازداد عرابى وأنصاره "تحفظًا مما عساه يقع من الغيلة"، كما يقول الأستاذ ويكرر فى غير موضع فكأن الغيلة كانت فاشية، وكانت أسلوبًا معروفًا للتخلص ممن تثقل وطأتهم على كواهل الصبر، ولم تمنعه الأوامر أن يواصل اجتماعه بإخوانه وبالأعيان والعلماء، وأن يكتب لمن يظنهم على الولاء له فى الأقاليم، وفى كل ذلك "يدعو إلى تشكيل مجلس النواب لتوهمه أنه الوسيلة الباقية لاتقاء شر الحكومة".

والحقيقة أنها كانت أزمة لا تعرف أية وسيلة أخرى كانت هناك للخروج منها. وليكن عرابى غير مخلص فى هذا الطلب، ولتكن الأمة لفشو الجهل وما أحدثه الاستبداد الطويل فى نفوسها غير أهل لقيام هذا النظام بمعناه الصحيح، ولكن ليضع كل امرئ نفسه فى موضع عرابى وزملائه وليحاول أن يبتكر وسيلة أخرى للخلاص والأمان وتقرير الأحوال وإقامتها على حدود العدل؟ يقول الأستاذ الإمام عن نفسه وموقفه من العرابيين:

"كنت معروفًا بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكرى وتسوئة رأى الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه وبتلك الوسائل الحمقى، وكنت أذهب لزيارة سلطان باشا أحيانًا فأرى من لدن الباب عرابى وبعض رفقائه جالسين معه ورؤوسهم بادية من النوافذ؛ فإذا استأذنت للدخول وسمعوا اسمى أسرعوا بالفرار من محل الاستقبال العام إلى محل آخر ليختفوا ثم ينصرفوا. مررت ببيت طلبة ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ورأيت بعضًا من صغار الضباط يجولون من جانب إلى آخر من البيت فدخلت للزيارة فوجدت عرابى وجمعًا غفيرًا من الضباط، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية، وكان من الناقمين على الوزارة لأمر لا يستحق الذكر؛ فجلست واستمر الحديث فى وجهته، وكان موضوعه الاستبداد والحرية وتقييد الحكومة بمجلس النواب، وأن لا سبيل إلى الأمن على الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة إلى مقيدة دستورية، فأخذت طرفًا من البحث فأقمنا على الجدال ثلاث ساعات كان عرابى والأستاذ فى طرف، والكاتب فى طرف، هما يقولان إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شورية، والكاتب (يعنى نفسه) يقول علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الأهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات والمحافظات، ويكون ذلك كله تمهيداً لما يراد من تقييد الحكومة، وليس من اللائق أن تفاجأ البلاد بأمر قبل أن تستعد له فيكون من قبيل تسليم المال للناشئ قبل بلوغ سن الرشد؛ يفسد المال ويفضى إلى التهلكة، وختمت قولى بأنه لو فرض أن البلاد مستعدة لأن تشارك الحكومة فى إدارة شئونها فطلب ذلك بالقوة العسكرية غير مشروع، فلو تم للجند ما يسعى إليه، ونالت البلاد مجلس شورى لكان بناء على أساس غير شرعى فلا يلبث أن يتهدم ويزول، وأرى أن هذا الشغب قد يجر على البلاد احتلالاً أجنبيًا يستدعى تسجيل اللعنة على مسببه إلى يوم القيامة. فتبسم عرابى ابتسام الساخط، وقال أبذل جهدى فى أن لا أكون مورد هذه اللعنة، وليس الجند هو الطالب لتشكيل مجلس النواب، وإنما هو مؤيد لطلب الأعيان ووجوه البلاد؛ فسألته وعلى من تعتمد؟ وممن أخذت الميثاق على ذلك؟ فهمس إلى

بصوت لا يسمعه إلا ثالثنا: أن سلطان باشا قد عاهدنى على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالمطلب متى سقطت وزارة رياض باشا ثم انصرفنا".

وكل ما قاله الأستاذ حق، وقد جاءت الحوادث مؤيدة لنبوءته مصدقة لفراسته، ولكن هذا لا يحيل المسألة عن وضعها، وهو أن هؤلاء الضباط لم يهتدوا إلى وسيلة أخرى للاطمئنان وما كان ثم وسيلة أخرى. وفي العدد المقبل نبين العوامل المختلفة الدامغة إلى طلب مجلس النواب.

الثورة العرابية

على ذكر تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[٦٢]

(٣)

(تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده بقلم مؤرخه السيد محمد رشيد رضا فى ألف ومائة وأربع وثلاثين صفحة من القطع الكبير - الثمن خمسون قرشًا)

* * *

دخلت الحركة العرابية فى طور جديد بعد الحوادث التى سردناها فى الفصول السابقة، فقد عرف القراء مما نقلناه من مذكرات الأستاذ الإمام أن عرابى همس فى أذنه حين سأله الأستاذ "على من تعتمد" فقال "إن سلطان باشا عزم على أن يجمع أعيان القطر من الوجهين ليتقدموا بالطلب متى سقطت وزارة رياض باشا". وهذا الطور هو أن الحركة أوشكت أن تتحول من عصيان عسكرى له أسبابه ودواعيه الخاصة بالجيش إلى حركة شعبية، وكأنا بعرابى قد صار يتخيل بعد أن استوثق من سلطان باشا واطمأن إلى وعده أن يجمع حوله ذوى الكلمة فى البلاد أنه إنما ينفذ رغبة الأمة، وأنه ليس سوى لسان ناطق برغبتها لاهج بأمنيتها، وآلة منفذة لمشيئتها،

---

(٦٢) نشرت فى ملحق "السياسة" فى ٢٩ أبريل سنة ١٩٢٢ (ص١٢-١٣).

وأن الثورة – إذا صار الأمر إليها – ثورة الأمة لا ثورة الجند، وأنها حركة يراد بها إصلاح الفاسد وتقويم المعوج فلا عيب فيها ولا عقاب عليها، وكيف يكون شيء من ذلك والأمة كلها – أو خير عناصرها وأقواها – هي التي تبغي ذلك وتسعى له؟ وعلى من يقع العقاب، وقد تجاوز الأمر الضباط وانداحت الدائرة فشملت الأمة كلها؟ ولكن الأستاذ الإمام يذهب إلى أن عرابي كان دجالاً في هذا، وأن تخيله أنه آلة منفذة لرغبة الأمة ليس أكثر ولا أقل من "حجاب ممزق يسدله على أعين الناظرين إليه، وحجة ساقطة يقيمها للناقمين عليه"؛ أي أنه لم يكن مخلصاً في اتجاهه الجديد. ومن العسير أن نقول أيهما كان عرابي؛ هل كان رجلاً يدور مع الحوادث ويغتنم فرصتها لا لشيء إلا أن يستر نفسه ويوقيها ما كبر في ظنه أنه عرضة له من الانتقام؟ أو كان رجلاً تخيل فخال وانتهى الأمر به إلى الاعتقاد بأن الأمة راغبة، وأنه إنما يصور هذه الرغبة أو هو صوت لها؟ كلا الفرضين جائز محتمل، ولرأي الأستاذ الإمام قيمته فإنه معاصر لعرابي عارف به فاهم لشخصيته محيط بجوانبها واقف على الحقائق، غير أنه ينبغي ألا يغيب عن الأذهان أن الرغبة في التغيير كانت عامة شاملة؛ فالخديوي يريد هذا التغيير – أو على الأقل يبغي أن ينحي رياض باشا عن منصب الوزارة، وأن يكله إلى رجل مثل داود باشا يكن ويكون أقرب إليه وألين في يديه، والأعيان كانوا ينشدون هذا التغيير – وعلى رأسهم سلطان باشا الذي أفادته مناصبه السابقة أيام إسماعيل باشا شهرة وعلو صيت، والذي حافظ على مكانته في النفوس بما امتاز به على أمثاله في الكرم، وكان هؤلاء الأعيان يستثقلون يد رياض باشا ويكرهون استئثاره بالسلطة ويستنكرون ما استحدثه في وزارته أو أبطله مثل القضاء على السلطة الشخصية والضرب على يد الأقوياء والمعتزين بجاههم ومنع استخدام الضعفاء بكرههم ووضع حدود ألزم الأعيان والأغنياء الوقوف عندها؛ فتمنوا أن يزول هذا العهد وأن يعود النفوذ الشخصي لهم في البلاد والسلطان الذي كانوا يتمتعون به على من هم دونه من الأهالي وتوقعوا أن ينجح عرابي ورأوا أن ما دبر للإيقاع به أخفق كله، فآثروا أن يتفقوا معه من أول الأمر وبدا لهم أن هذا ما يقضي به الحزم وتستوجبه مصالحهم، وشجعهم على ذلك ما وقر في نفوسهم من عداوة رياض باشا لهم؛ فقد كان المديرون

يسيئون إليهم وكان رياض باشا لثقته بعماله يأبى أن يصغى إلى الشاكين منهم، وكان سواد الشعب غير راض كذلك لأن عناية رياض باشا بتوطيد الأمن ومبالغته فى ذلك - على عادته - جعلا البلاد كأنها فى حالة حرب، وقد خول المديرين من أجل ذلك سلطة واسعة، ولم يكونوا جميعًا أهلا لهذه الثقة؛ ولا ذوى حزم وحكمة؛ فأساءوا إلى الناس وأزعجوهم وأخذوا بالظن وعاقبوا بالشبهة وشعر الأهالى فضلاً عن ذلك بضجر الأعيان والوجوه وسخطهم على الحكومة؛ فأعداهم ذلك وتأثروا به، وتعاقبت الحوادث التى أسلفنا ذكرها فطارت الإشاعات ورجح احتمال التغيير وراحت النفوس تترقبه وتحولت من الترقب الذى طالت مدته إلى اشتهاء التغيير وطلبه وهذا طبيعى؛ فإن النفوس لا ترتاح إلى القلق، والاضطراب متعب مضن، والنفس تؤثر السكون على الحيرة، ولليأس عندها خير وأروح من الظن والحيرة والتردد، يضاف إلى ذلك أن الاضطراب والحيرة يجران فى كثير من الأحيان ارتباك الأمور وتعطل المصالح ووقف الحال خوفًا من المفاجآت المجهولة.

فلا شك أنه كان هناك؛ شعور أو ميل عام إلى التغيير، ولم يكن عرابى حين تخيل أن الأمة تريد ذلك وتنشده، كاذبًا أو مبالغًا، أو مغالطًا فى تصوير الحقيقة، أما اعتقاده أنه إنما يفعل ما تشاء الأمة فقد يرجع إلى قدرة البعض على مغالطة أنفسهم فى الحقائق، وما من أحد إلا وهو يفعل ذلك إلى حد ما.

وقد أخذ عرابى بعد استيثاقه من سلطان باشا والأعيان يترقب الفرصة لجمع رجاله لإرغام رياض باشا على الاستقالة، وكان لا يفتأ يشاور إخوانه ويقلب وجوه الرأى معهم، وكانوا ينتظرون عود الخديوى من الإسكندرية، وكان انتظارهم له على قلق وخوف فقد بلغهم أن سموه استمال آلاى الحرس وأميره على فهمى وعاهده على أن يكون قوة له تقضى على من يخالف الأوامر من بقية الآلايات، وكانوا معذورين فقد روى الأستاذ الإمام أن هذه الإشاعة لم تكن تخلو من صحة قال: "أخبرنى المرحوم على باشا مبارك يوم مجيئه من الإسكندرية فى معية الجناب العالى أن افتراق آلاى الحرس عن بقية الآلايات واستعداده لتنفيذ ما يصدر إليه من الأوامر مما لا ريبة فيه، وأنه عما قليل سيؤخذ فى تقرير أمر فاصل تنحسم به هذه الفتنة وتباد به جراثيمها".

أما هذا "الأمر الفاصل" الذى أشار إليه على باشا مبارك فقد قال عنه الأستاذ الإمام إنه بعد عودة الخديوى بأيام "تجلى ذلك الأمر الفاصل الذى سمعت خبره من على باشا مبارك، فإذا هو من غرائب التدبير، بل من عجائب الألاعيب، ذلك أن الحضرة الخديوية بعد أن استمالت على فهمى ورجاله، وأعدتهم لمغالبة من يستعصى عليها من سواهم، استمالت أيضا أمير الآلاى الخامس الذى كان مقيمًا فى الإسكندرية فأرادت أن ينقل الآلاى الثالث الذى كان مقيماً بقلعة المعز بالقاهرة إلى الإسكندرية، وأن يؤتى بالآلاى الخامس إلى مصر بدلاً عنه، وبذلك يكون فى مصر آلايان تحت طاعتها، والله أعلم ماذا أرادت الحضرة الخديوية بعد ذلك أن تفعل بهذين الآلايين بعد استقرارهما فى مصر؟ هل كان الخديوى يريد أن يصدر أمراً بالقبض على رؤساء الفتنة فإذا قامت جنودهم لحمايتهم صدر الأمر بالحرب والقتال بين الطائفتين والغاصبين، ما أظن أن ذلك خطر بالبال، ولو مر ذلك بذهن جنابه لسهل عليه حسم الفتنة ثانى يوم واقعة قصر النيل، لكنها هواجس كانت تجول فى الأذهان، ثم تصدر عنها حركات وأعمال لا يدرى صاحبها نفسه ما الغاية التى يريد منها".

أشفق عرابى من عاقبة التردد، وأحس أن الخطر محيق به فكتب هو وجماعة من الضباط عريضة إلى السلطان يشكون فيها من الظلم ويلتمسون إرسال "مأمور خاص" لتحقيق شكواهم، وكان ذلك قبل حادثة عابدين بثلاثة أيام.

ونفذت وزارة الحربية "الأمر الفاصل" الذى شرحه الأستاذ الإمام فأصدر الوزير "أمرين فى يوم واحد أحدهما إلى إبراهيم حيدر بك أمير الآلاى الثالث المقيم فى القلعة بالسفر إلى الإسكندرية، والآخر إلى حسين بك مظهر أمير الآلاى الخامس أن يجىء من الإسكندرية إلى مصر ليحل محل الآلاى الثالث، ثم أمر أمير الآلاى الثانى أن يرسل من ضباطه من يتسلم المخافر مع ضباط آلاى القلعة عند سفرهم؛ فلما وصل الأمر إلى إبراهيم بك حيدر وعرفه الضباط أسرع اثنان منهم إلى عرابى وأخبروه به؛ ففزع هو ومن معه، وبادر عرابى فأمر أن ينادى فى ضباط آلاى القلعة بعدم التسليم وبالإقامة فى مواقعهم، وبأن يمسكوا من يحضر إليهم من الآلاى الثانى للتسلم، ففعلوا واجتمعت كلمتهم على ذلك، وعندما حضر ضباط الآلاى الثانى كتب محمد أفندى الرملاوى ومحمد

أفندى السيد إلى عرابى بما محصله أن أربع بلوكات حضرت لاستلام مواقع الآلاى، وأمتعة أبنائكم قد ربطت فاحضروا بنصف آلايكم وإلا فنحن قائمون، أما النصف الأخر فيبقى تحت قيادة محمد أفندى الزمر إلى العصر ثم يحضر. عند ذلك كتب عرابى إلى نظارة الجهادية ينبئها بأن جمع الآلايات ستكون فى ميدان عابدين فى نهاية الساعة التاسعة من ذلك اليوم وهو يوم الخامس عشر من شهر شوال ١٢٩٩ بعد أن كتب إلى جميع الآلايات أن توافيه فى الموعد، وكتب إلى الجناب الخديوى علماً وإلى قناصل الدول يؤكد لهم أن الغاية من جمهرة الجند داخلية محضة لطلب أمور عادلة، فليكونوا مطمئنين على أرواح رعاياهم وأموالهم وأعراضهم".

وبعث الخديوى من يسأل عرابى عن الباعث على هذا التجمهر فى ساحة عابدين فأجاب عرابى بأن للجند مطالب؛ فأبلغ الرسول الخديوى ذلك؛ فعاد سموه يطلب إلى عرابى التزام السكينة والعدول عن التجمهر، ولكن موعد الاجتماع كان قد أزف؛ فقصد الخديوى نفسه إلى آلاى الحراس (الآلاى الأول) "وأخذ ينصح الضباط ويذكرهم بأنهم أبناؤه وحرسه الخاص وينذرهم عواقب مثل هذه العصبية عصبية الجاهلية فصاحوا جميعًا: "نحن جميعًا فداء لولى نعمتنا"؛ فعند ذلك أمر جنابه أمير الآلاى أن يوزع العساكر داخل السراى، وأن يقيمهم على نوافذها ليقوها من الهاجمين عليها، ثم استصحب رياض باشا وذهب إلى القلعة، وعند وصوله طلب الضباط وسألهم عن الحامل لهم على مخالفة الأمر الصادر إليهم فأنكروا المخالفة، فالتفت إلى أمير الآلاى إبراهيم بك حيدر يستفهم منه؛ فأجابه أن فؤاد بك حسن هو الذى أغرى الضباط بالمخالفة ومنعهم من التسليم، وكان فؤاد بك على القرب من رياض باشا فجذبه من طوقه، وقال له "مثلك يقاوم أوامر الحكومة ويمنع من تنفيذها؟ وبينما هم فى الكلام إذ ضرب أحد البروجية نوبة "سنكى [دنك]"؛ فأسرعت العساكر إلى تركيب الحراب على البنادق وأحاطوا بالخديوى ورئيس النظار وصاحوا "أطلق البكباشى"؛ فأمر الخديوى بتركه، وأخذ يخاطبهم "ألست خديويكم؟ ألست ولى أمركم؟ هل تأخر لأحد منكم راتب؟ أو نقصت له مؤنة؟ أو حرم من حقه فى ملبس أو نحوه؟ فلم جاهرتم بالعصيان وخالفتم أوامرى؟ فأجابوه بقولهم نحن جميعًا مطيعون لأوامر ولى نعمتنا، ولكن قيل لنا إن

الغاية من الأمر بسفرنا هي إغراقنا في البحر عند مرورنا فوق كوبري كفر الزيات، فأسف الخديوي لذلك وانصرف على أن يذهب إلى العباسية لمنع عرابي من المجيء إلى ميدان عابدين، فبلغه وهو في الطريق أن الآلاي قد سبق إلى ساحة السراي، فرجع هو ورياض باشا فوجد الساحة غاصة بالعساكر من كل فريق فدخلا من الباب الشرقي".

وإلى هنا يرى القارئ في وصف الأستاذ الإمام أن الخديوي أبدى نشاطًا كبيرًا وسرعة في رغبته في تسكين خواطر الجند وردهم إلى الطاعة، وقد تختلف الآراء في حكمة ما صنع، وقد يرى البعض أنه كان عليه ألا يخف بنفسه حتى لا يقع في روع الجند أن أمير البلاد قد اضطرب وفزع لمجرد علمه أن الجند سيجتمعون في ساحة قصره، ولكنه من الواضح أن الأمور كانت في ذلك الوقت مضطربة بل فوضى، وأن الجو كان حافلاً بدواعي القلق من كل ناحية، وليس لأحد ثقة بأحد وكل متنمر متحفز ومتحرز متوحش، وظاهر أن غضب رياض باشا كان غير ملائم لطبيعة الموقف، وقد أدى تسرعه إلى إحاطة الجند بالخديوي وبه، وقد شرعوا الحرب في وجهيهما لإطلاق البكباشي فؤاد بك حسن، فكانت هذه في الواقع هزيمة جرها رياض باشا على الخديوي بتسرعه، وعدم قدرته على ضبط نفسه، وظاهر أيضًا أن الخديوي لو كان قد أدرك عرابي في العباسية قبل أن يزحف بفرقته، لاستطاع أن يردع عن السير إلى عابدين.

ويظهر أن علي فهمي لم يكن مخلصًا في ولائه للخديوي، أو أن الخديوي لم يعد يملك ذرة من القدرة على إلزام الجيش طاعته، فإن الأستاذ الإمام يروي أن الآلايات المختلفة اجتمعت في ساحة عابدين، ثم "وصل عرابي يقود آلايه ومعه آلاي الطوبجية تتخلل بطاريات مدافعه فرق العساكر وهو ممتط جواده شاهر سيفه ويحيط به عشيرة من ضباطه شاهري السيوف كحرس له، فأنبأه بعض الضباط أن علي فهمي قد أدخل عساكره في السراي للدفاع عنها إذا دعت الحال، وقد ادخر كمية وافرة مما يحتاج إليه لذلك، فاستدعى علي فهمي واشتد في توبيخه ورماه بالخيانة، فاعتذر بأنه فعل ما فعل مداراة منه للخديوي وتدبيرًا لحيلة سياسية، ثم أمر بالنداء في الآلاي بالنزول، فنزلت العساكر جميعًا واصطفت في الساحة مع بقية الجنود".

وهذا فوز آخر خرج به عرابى على مشهد من الجيش كله، وعندنا أن الخديوى لم يكن موفقًا فى إدخال على فهمى وآلايه فى السراى وتوزيع جنوده على الأبواب والنوافذ للدفاع عن القصر؛ لأن فى هذا العمل إشعاراً لبقية الجيش بخوف الخديوى ويأسه من ولاء الجنود، ومتى أشعرت خصمك بالخوف منه فقد جرأته عليك، ولم يكن الخديوى موفقًا أيضًا فى دخول السراى من باب غير الباب الذى اصطف أمامه الجند، فإن هذا أيضًا كشف لتوجسه وإعلان لإحساسه بالعجز عن مواجهة الجنود، وقد ينبغى أن لا تبقى هذه المواجهة، وأن يتحدى هذا الإنكار للولاء الذى أقسموا له عليه، وأن يزعم أنه ما زال مؤمنًا بروح الإخلاص فيهم وإن سترتها ونكرتها الحوادث والدسائس، وأنه ما انفك خديويهم، وأنهم يعرفون ذلك، ولا يسعهم أن يهربوا من هذه الحقيقة، والشجاعة نصف الظفر، وحسن الإدراك للنفس الإنسانية عون لا يستهان به فى مثل هذه المواقف، وبديهى أن قوام الحكومات هو الهيبة المقررة فى النفوس، لا القوة؛ فإن أقوى حكومات الدنيا أضعف من شعبها إذا اعتبرت الحقيقة، ولكن لعادة الطاعة فعلها، وكل شىء فى هذه الدنيا عادة - حتى الخير والعبادة، كما فطن إلى ذلك أبو نواس الماجن فى بعض شعره، وحسب القارئ أن يفكر فى أن الحكومة لا تحتاج فى تنفيذ أوامرها وقوانينها إلى القوة، بل يكفى مجرد صدور الأمر إذ كان الشعب قد ألف أن يطيع وجرى على هذه العادة، ومن أمثلة ذلك أيضًا طاعة التلاميذ للأساتذة، ومعروف أن الأساتذة قلة إذا قيسوا بالتلاميذ، ولكن التلاميذ يطيعون ويمتثلون الأوامر ويتقون المخالفة على العموم لا؛ لأن القوة ماثلة لأعينهم فى كل حال، بل لأنهم ألفوا احترام الأساتذة، وتقررت هيبتهم فى نفوسهم وجرت عادتهم بأن يطيعوا ويأتمروا، ولو أن الأمر أمر قوة فى كل حال لما وسع التلاميذ قط أن يتخذوا معلمًا لهم هزؤة، ولكن الواقع أن المعلم الضعيف الشخصية لا ينفعه مع التلاميذ كل ما يعرفون أن المدرسة ومن ورائها الوزارة يملكان إنزاله بهم من ضروب العقاب.

وكان قناصل الدول ورجال الحكومة قد حضروا إلى السراى، وكان الجيش كله مجتمعًا ما خلا آلاى القلعة - فقد بقى فيها بأمر عرابى - فأمر - أى عرابى - بإقامة الخفر على أبواب السراى لمنع من يدخل إليها أو يخرج منها.

قال الأستاذ الإمام: "أشرف الجناب الخديوى على العساكر وأمر باحضار عرابى فحضر راكبًا جواده سالاً سيفه محفوفًا بضباط السوارى يحرسونه، فأمره بإغماد سيفه والنزول إلى الأرض وإبعاد الضباط عنه فقبل ثم أخذ يخاطبه "لم أك سيدك ومولاك؟ ألست الذى رقيتك إلى رتبة أميرآلاى؟" فيجيبه عرابى "نعم" ثم سأله: "لم حضرت بالجند إلى هنا؟" فقال: لطلبات عادلة وهى عزل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الإسلام (الشيخ العباسى)؛ فقال الخديوى: كل هذه المطالب ليس من شأن الجند أن يطلبها فسكت عرابى ولم يجب بشىء".

وهذا أيضًا مظهر ضعف لا يليق بالخديوى فى مثل هذا الموقف؛ فقد بدأ كلامه مع عرابى الثائر عليه المتمرد على سلطته، بالعتاب، والعتاب حتى بين الأنداد والنظراء ضعف وعبث؛ وجدواه على كل حال قليلة؛ فما ظنك به بين أمير البلاد الشرعى وبين أمير فرقة من فرق الجيش أقسم حين تقلد رياسة الفرقة على الولاء لمولاه؟ وضعف آخر أظهره الخديوى على الرغم من أنه رأى بعينه أن عرابى لم يستطع أن يخالفه حين أمره بإغماد سيفه وبالترجل وإقصاء الضباط عنه، ولم يجرؤ على المكابرة حين قال له إن هذه المطالب ليست من شأن الجند.

قال الأستاذ الإمام: "ثم أشار القناصل على الخديوى بالرجوع إلى داخل السراى خوفًا مما عساه يعقب هذه المخاطبة مما لا يحمد، ثم تولى المستر كونفى المستشار الإنجليزى فى المراقبة الثنائية وقنصلا إنجلترا والنمسا أمر المخابرة مع عرابى فى مطالبه ومطالب الجند، فقال المستر مالت قنصل إنجلترا لعرابى إن عزل الوزارة من خصائص الخديوى، وطلب تشكيل مجلس النواب من حقوق الأمة لا الجند، ولا ضرورة لزيادة الجيش فإن البلاد آمنة مطمئنة وليس فى الأمم من يريدها بسوء، أما التصديق على قانون العسكرية فسيكون بعد اطلاع الوزراء عليه، وأما عزل شيخ الإسلام فقد يحصل بعد بيان أسبابه".

"أجاب عرابى: يا حضرة القنصل، إن ما يتعلق بالأهالى من هذه المطالب لم أنهض إليه إلا بالنيابة عنهم فقد أقامونى نائبًا عنهم فى طلبه وتنفيذه بواسطة هذه العساكر

الذين هم أبناؤهم وإخوانهم واعلم أننا لا نفارق هذا المكان ما لم تنفذ جميع تلك الرغائب التى أبديتها".

"قال القنصل: تصرح بأنك تريد الوصول إلى ما تطلب بالقوة وهذه هى الهمجية التى تجر الخطر على بلادك وربما تفضى إلى ضياعها. فقال عرابى: وكيف ذلك؟ ومن الذى يعارضنا فى شئوننا الداخلية؟ ولئن تحرش بنا لذلك أحد فاعلم أننا نقاومه بكل ما لدينا من الحول والقوة، ولو أدى ذلك إلى فنائنا عن آخرنا، فقال مالت: وأين تلك القوة التى تكافح بها وتناضل عن بلادك؟ فقال عرابى: أستطيع أن أحشد فى زمن قصير مليونًا من العساكر كلهم يسمعون قولى ويتبعون إشارتى فإن كانت دولة إنجلترا هى التى تستعد لخصامنا، فلتكن على حذر من ثورة عامة فى الهند تقضى على حياتها فيها، فقال القنصل: وماذا تفعل إذا لم تجب إلى طلبك؟ فقال: كلمة واحدة أقولها، فأجاب مالت: ما هى؟ قال عرابى: أقولها عند اليأس والقنوط".

وهذا الحوار وحده كاف فى بيان الضعف الذى استولى على الخديوى وحكومته فما كان ثم أى معنى لأن يحشروا قناصل الدول فى الأمر، بل كان الواجب ألا يخرج الخديوى نفسه فى أول الأمر، وكان أولى من ذلك أن يعرف مطالب عرابى بطريقة غير رسمية، وأن يتخذ قرارًا قبل أن يتصل بعرابى بنفسه أو بالواسطة، ولم يكن خافيًا أن إقالة الوزارة أول مطلب، بل مطلب عام يشارك الخديوى شعبه فيه، ونعتقد أن مما كان خليقًا أن يطفئ هذه الفتنة ويرد الجند من غير مفاوضة أو كلام، أن يوعز إلى رياض باشا بالاستقالة على اعتبار أنه عجز عن ضبط الأمر حتى حدث هذا التجمهر العسكرى، وفى ظننا أن هذا وحده لو وقع قبل أن يطلبه عرابى من الخديوى لحسم الإشكال وأرضى الجند من غير أن يحتمل الخديوى مرارة هذه الهزيمة وكان فى الوسع بعد ذلك اختيار وزيره معروف بأن الجيش لا يعترض عليه أو يسيء به الظن.

وهذا هو الذى وقع بالفعل ولكن بعد أن طلبه عرابى وأصر عليه وتردد الخديوى ورجاله ثم أجابوه إليه وسلموا به، قال الأستاذ الإمام: "ثم انقطعت المخابرات بين الجناب الخديوى وعرابى مدة ثلاث ساعات استولى فيها الضعف على جميع من كانوا داخل السراى من نظار وقناصل وغيرهم، وظنوا أن من وراء هذا الاجتماع نيرانًا تلتهب،

وحربًا تشب، ولذلك أفضت مداولاتهم إلى التسليم والرضى بإجابة عرابى إلى ما يطلب، لكن على شريطة التدريج فى التنفيذ، وأرسلوا إليه يخبروه بذلك فقبل ما عرض عليه، واشترط أن تعزل الوزارة قبل انصراف العساكر، فجاءه الخبر فى الحال بقبول استعفائها فطلب أن يعين شريف باشا رئيسًا للنظار ومحمود سامى باشا ناظرًا للجهادية فقبل شرطه وانصرف العساكر".

وكانت هذه زلة أخرى، فقد كان من المعروف أن شريف باشا من العوامل التى أدت إلى هذه الفتنة، وكان يروج لنفسه بأن يقول إن النفوذ الأجنبى بلغ حدًا لم يكن ليبلغه لو لم يتساهل رياض باشا ويسلم للأجانب بكل ما يطلبون، وأنه إذا تولى هذه الوزارة وقف الأجانب عند حدودهم ونهض بالبلاد نهضة كبيرة، وكان هو والعرابيون يتراسلون ويتواعدون، ولذلك طلبوه رئيسًا للوزارة، وأصروا عليه. ويقول الأستاذ الإمام عن شريف باشا: "كان وجه الرياسة يهش له على بعد، وجمالها يخدعه وهو منها على موعد، حتى إذا دنا منها ألفاها شكسة شرسة".

وهذا صحيح؛ فقد تردد شريف باشا أيامًا فى قبول الرياسة وهو الطالب لها والطامع فيها، وذلك لأنه لم يخف عليه أنه من العسير أن يقوم بأعباء هذا المنصب وإذا استمر الجيش على مناوأة الحكومة والاستبداد بالأمر والتهديد عند الإبطاء عليه فى إجابة طلبه، بإحاطة السراى والوثبة على الأمير. وكان شريف باشا يخشى كذلك أن تكون إنجلترا وفرنسا مؤيدتين لرياض باشا وراغبتين فى بقائه، وخاف إذا هو تولى الرياسة أن تكيدا له وتكظا طريقه بالعقبات، ثم إنه كان عالمًا بما دار بين الضباط والأستانة من المكاتبة وبما كانت تشتمل عليه رسائل الأستانة من الثناء عليه والاعتماد على غيرته لتخليص البلاد من النفوذ الأجنبى، فخاف إذا تولى الوزارة أن تظهر الحوادث عجزه وتخيب الأمل فيه.

لهذا كان يجب أن تسند الوزارة إلى عرابى نفسه دفعة واحدة ليحمل عبئها وينوء به، وليتولى المسئولية ويرزح تحتها.

الثورة العرابية

على ذكر تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[٦٣]

(٤)

(تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده - بقلم مؤرخه السيد محمد رشيد رضا فى ألف ومائة وأربع وثلاثين صفحة من القطع الكبير - الثمن خمسون قرشًا)

* * *

فرغنا فى الفصل السابق من المظاهرة العسكرية التى قام بها عرابى وزملاؤه أمام قصر عابدين والتى أفضت إلى استقالة الوزارة الرياضية نزولاً على إرادة الجيش، وإلى وعد الخديوى بإجابة المطالب الأخرى التى تقدم بها عرابى وألح فيها، وإلى دعوة شريف باشا لتولى الوزارة، وعلى هذا القدر يقتصر التاريخ الذى كتبه الأستاذ الإمام المرحوم الشيخ محمد عبده، ويقول مترجمه الأستاذ السيد محمد رشيد رضا "انتهى ما لخصناه مما كتبه الأستاذ الإمام من كتاب (الثورة العرابية) الذى لم يتمه". ولا شك أن من بواعث الأسف أن تكون الحوائل قد عرضت للأستاذ الإمام فصرفته عن المضى فى هذا الكتاب إلى ختامه، ومن أكبر هذه الحوائل تغير الخديوى السابق

---

(٦٣) نشرت فى ملحق "السياسة" فى ٢٣ مايو سنة ١٩٣٢ (ص٦-٧، ١٧-١٩).

(عباس حلمى باشا) عليه ومناوأته له، ولعله خشى إذا هو مضى فى الكتاب أن يتهم بالحيف، ويرمى بالتحامل بعد الذى عرفه الخاص والعام من العداء بين الأمير وبينه، ولو تم الكتاب وهو متمتع برضى الخديوى لكان ذلك شهادة له؛ فإن الأستاذ الإمام لم يحاب أحدًا ولم يكتم الحق الذى يعلمه ولم يقصر فى اللوم والتخطئة، ولم يحجم عن نقد الخديوى الأسبق (توفيق باشا) كما رأى القراء، فأما وقد غضب الخديوى السابق عباس حلمى باشا على الأستاذ قبل أن يتم الكتاب، فأكبر الظن أن يكون الأستاذ قد أشفق من تهمة التحامل، وهو - كما علمت - الحريص على سمعته ونزاهته، ويخيل إلينا أن السيد محمد رشيد رضا لم ينشر كل ما كتبه الأستاذ الإمام، فقد أورد فصولاً بنصها ولجأ إلى التلخيص فى مواضع شتى، ولعله طوى أشياء وآثر أن يكتمها، ونحسب أن عذره من هذا كعذره فى الامتناع عن إذاعة ترجمة الأستاذ الإمام كل هذه السنين، فإن للظروف حكمها، وعسى أن يكون فيما كتبه الأستاذ ما يتعذر نشره الآن، ولسنا نلوم ولكننا نحن نأسف، فما نعرف مؤرخًا خليقًا بأن يكون أصدق من الأستاذ الإمام رحمه الله، وقد اطلع فى حياته على ما لم يتيسر لغيره الوقوف عليه، وكان مديرًا للمطبوعات ومرخصًا له فى الاطلاع على ما يشاء، وكانت له مذكرات عن الأحداث والوقائع، وقد اطلع مؤرخه السيد رشيد رضا على (دفتر جيب له بخطه من هذه المذكرات كان يكون من مادته لو أتم كتابه هذا فرأيت أنه أثبته فى هذا التاريخ، والظاهر أنه كان تابعًا لدفتر قبله، وفى أوله تقديم وتأخير فى التاريخ، ووجدت ورقة مفردة من هذه المذكرات سابقة التاريخ على ما فى دفتر الجيب المذكور مبدوءة بما يدل على أنها تابعة لشىء قبلها).

هذه المذكرات المبتورة التى أراد الأستاذ الإمام أن يرجع إليها حين يكتب بقية التاريخ هى التى سنعتمد عليها فى سرد حوادث الثورة العرابية كما رآها الأستاذ، ومن وجهة نظره هو، وفى ذلك بعض المشقة؛ لأن الكثير منها غامض، لا يعرف الغرض منه إلا كاتبه، وغير أنها مع ذلك كافية.

قلنا إن الوزارة عرضت على شريف إجابة لطلب عرابى، وكان شريف من أقوى عوامل هذه الحركة التى انقلبت إلى فتنة، وكان فى مجالسه يعد إذا تولى الأمر أن يرد

الأجانب إلى حدودهم ويلزمهم إياها وينهض بالبلاد نهضة قوية، ولكنه لما دعى إلى تأليف الوزارة تردد أيامًا، وقال إنه بعد حادثة عابدين لا يستطيع أن يقبل الوزارة حتى يكون لديه ضمان يكفل له أن لا يعتدى الضباط أو الجند مرة أخرى، وقد كان شريف باشا من العوامل التى أوقدت الفتنة، وكان يطمع فى الوزارة ويتطلع إليها ويرشح لها نفسه، فلما جد الجد، وواجه المسئوليات راحت السكرة وجاءت الفكرة، وأدرك أن الحكم لا يستقيم أمره مع هذه الفوضى، ولهذا قلنا فى الفصل السابق إنه كان ينبغى أن تسند الوزارة إلى عرابى نفسه أو إلى محمود سامى باشا دفعة واحدة، ليواجه العرابيون المسئوليات بلا حجاب، ويحتملوا التبعات مباشرة، وليضطروا إلى الارتداد إلى مقتضيات النظام، وحتى لا تبقى القوة الحقيقية فى البلاد خارج الوزارة ومستقلة عنها فى الواقع ومتحفزة للوثوب عليها عند الحاجة، ولو حدث هذا لما كان ضعفًا من الخديوى، بل إحراجًا منه لخصومه وإكراها لهم على مواجهة الحقائق، وعلى أن الخديوى لم يكن ينقصه أن يعرف خصومه ضعفه فقد أظهر ذلك فى مواقف شتى، وقد اضطر آخر الأمر إلى إسناد الوزارة إلى العسكريين، فماذا كسب هو أو البلاد بإرجاء ما لم يكن منه بد عاجلاً أو آجلاً؟

وبزوال وزارة رياض باشا لم تعد ثم حاجة إلى وسائل التشهير بها، فعاد أديب إسحق من أوربا، وألغيت جريدة (القاهرة)، وكوفئ محررها بتعيينه رئيس قلم ترجمة أولاً ثم سكرتيراً لمجلس النواب بعد تأليفه. ويروى الأستاذ الإمام أن الخديوى (توفيق باشا) "صاح عند إمضاء الأمر بتعيينه من شدة الفرح: "الحمد لله الذى خلصنى من رق شخص كنت أبغضه".

وألف شريف باشا الوزارة فى أواسط سبتمبر، ودخل محمود سامى فيها ناظراً للجهادية، وأعلن عرابى أنه أدى واجبه وأنه سيدع الأمر لزملائه المدنيين، فصدر إليه الأمر بأن يذهب إلى رأس الوادى، ولكنه لم يذهب إلا بعد أن صدر الأمر بتشكيل مجلس النواب على طريقة جديدة، وكان الخديوى قد حاول أن يدعو أعضاءه على مقتضى النظام القديم فأبى عرابى إلا نظامًا جديداً، وقبيل سفره ألقى على مودعيه خطاباً طويلاً "شكا فيه من العقبات التى تصادفها مطالب الشعب من وضع دستور يكفل له

الحرية ويؤمنه من الاستبداد، وصرح فيه بأن الخديوى والنظار ومن هم على شاكلتهم لا يميلون إلى مساعدة الأمة على ما تطلب، وبأن أعداء الأمة هم الدائنون ومعاونوهم من الأجانب، وأن الطبع يدفعهم إلى الاستيلاء على جميع موارد الرزق فى مصر، وأن من الافتراء أن يقال إن البلاد تريد سلب الأموال والاستئثار بالمنافع وسلب حقوق الدائنين، وإنما الحق أن هناك شعبًا يطالب بأن يكون على أثر بقية الشعوب تحت حماية قانون عادل يؤمنه من الاعتداء على الأرواح والأموال".

وسافر عرابى إلى رأس الوادى، وسافر عبد العال إلى دمياط، وأجريت الانتخابات لمجلس النواب ودعى المجلس إلى الاجتماع، وافتتحه الخديوى فى أخريات ديسمبر وعين سلطان باشا رئيسًا، وشرع المجلس ينظم شئونه الداخلية، ويدرس مشروع الدستور الذى وضعته وزارة شريف باشا، وخيل لكل أحد أن الأمور ستجرى فى مجاريها الطبيعية، لكن فرنسا وإنجلترا لم تكونا مرتاحتين ولا راضيتين، وكانتا تتنافسان على مصر وتحاول كل منهما أن تستولى عليها. وكانتا لهذا تكرهان أن تمكنا تركيا من العمل أو تسمحا لها بقمع الثورة، وظاهر مما سيرد عليك أنه لولا تدخل هاتين الدولتين ومناوأتهما لمجلس النواب لاستقامت الأمور فى مصر، ولكن غمبتا تولى الوزارة الفرنسية فى نوفمبر سنة ١٨٨١، وكانت نزعته الاستعمارية عنيفة، وكان يريد أن يلحق مصر بتونس ويبسط عليها حماية دولته، ومما قاله للورد ليون فيما يتعلق بدعوة مجلس النواب المصرى:

"قلبى ممتلئ رعبًا. ليس من الممكن تخمين ما عسى أن يقرره ما يسمى بالحزب الوطنى، ومن الجائز أن يعمد إلى تقرير طريقة تخالف مصالح الأوربيين، ولا أجد وسيلة للاحتياط لمنع نهضة جديدة أفضل من إفهام المصريين أن إنجلترا وفرنسا لا يسعهما أن تحتملا شيئًا من هذه المطالب ولا تلك النزعات".

وليس أشنع من هذا التعصب الذى تكشف عنه هذه الكلمة؛ فقد كانت ديون اليونان وإسبانيا لأوربا أفحش وقدرتهما على الوفاء أقل وأضأل من قدرة مصر.

وكانت إنجلترا تعالج أن تنفرد بالتدخل ولا يعوقها إلا فرنسا، وكان "مالت" يقول: (ديسمبر سنة ١٨٨١) "إذا حاز مجلس النواب حق تقرير الميزانية فقدت المراقبة سطوتها فى الأمور المالية".

وقد أبرق إليه اللورد جرانفيل فى ١٢ يناير سنة ١٨٨٢ يقول: "أخبرنى بالتلغراف ما هى حدود سلطة مجلس النواب فى المالية المصرية على حسب ما قررته الجمعية العمومية والشروط التى تطلبها".

فأجابه فى ١٣ يناير أن سلطته تشمل مرتبات الموظفين الذين لم يكن تعيينهم بعقود مع الحكومة؛ فهذه تكون تحت مراقبة المجلس، وعلى ذلك يمكن أن يلغى مصلحة المساحة مثلاً لأن تشكيلها لم يكن باتفاق دولى، ويمكن الاستغناء عن عدد كبير من الموظفين الأوربين فى الإدارة المصرية.

ولم يكن ثم سوى طريقة واحدة إذا أريد رفع رقابة المجلس النيابى على الشئون المالية وهى التدخل الحربى؛ فقد كان المجلس متشبثًا بهذا الحق مصراً عليه، ولم يجد الإرهاب والتهديد، وهذا ما كان يراه مالت نفسه فقد قال (١١يناير): إنه قد تقرر عنده أن المصريين قد دخلوا بحق أو بغير حق فى طريقة الحكم الدستورى، واللائحة التى يريد المصريون تقريرها لمجلسهم تمثل فى الحقيقة صور حرياتهم، ولما كان هذا المجلس قد وجد بالفعل فلا شىء يمكن أن يبطله ولا أن يلغيه إلا أنه يكون تداخل، وهو آخر ما ينتهى إليه العمل.

وقال ـ مالت – مرة أخرى فى ٢٠ يناير: "إذا تمسكنا بإبائنا على مجلس النواب أن ينظر فى الميزانية كان التدخل العسكرى ضرورة لا مفر منها، فإن إصرار مجلس النواب على رأيه فى ذلك جزء من مشروع تام أعد للثورة".

ولم يكن مجلس النواب يريد أكثر من أن يكون له حق تقرير الميزانية فيما لا علاقة له بالديون، ولكن المراقبين أبيا عليه ذلك ووافقهما الخديوى وضعف أمامهما شريف باشا فقدم مشروعاً آخر للدستور يخرج الميزانية من دائرة اختصاص المجلس فرفضه، ثم أراد حسم النزاع وآثر الجنوح إلى المسالمة، فعرض أن تتولى لجنة من النظار والنواب

تقرير الميزانية بما لا علاقة له بالديون، ولكن المراقبين رفضا هذا، وقدما مذكرة ذهبا فيها إلى أن الأوامر الخديوية السابقة قد ناطت الإدارة المالية بدولتى فرنسا وإنجلترا فإليهما يرجع السماح للمجلس بحق إعطاء رأيه فى الميزانية أو حرمانه هذا الحق، وهما لا تسمحان بذلك لما ظهر من مقاصد المجلس فى تخفيض عدد الموظفين الأوربين.

وضعف شريف باشا فتخلى عنه الوطنيون واضطر إلى الاستقالة فى ٢ فبراير ١٨٨٢، وعين محمود سامى باشا رئيسا للوزارة وعرابى وزيراً للحربية فتم استيلاء الحزب العسكرى على مقاليد الحكم، وعرضت الوزارة على المجلس دستوراً مطابقًا لرغبته، وفحصت الميزانية لجنة مشتركة من الوزراء والنواب، وشرعت الوزارة والمجلس يدرسان حاجات البلاد ويعالجان سدها، ويصلحان أمورها، ثم قرر مجلس النواب تعيين لجنة لتخفيف بعض الشكاوى من مصلحة المساحة، وإدارة الجمارك، وظهرت وجوه الخلل فى أعمال الموظفين الأوربيين، وتحقق ما كانت تخشاه المراقبة الأوربية من مقاصد المجلس فبدأت المناوأة حتى لقد رفض المسيو كاليار مدير الجمارك أن يحضر جلسات التحقيق وعارض فى أعمالها، ووقف المجلس على تقرير قدمه موظف أجنبى فى الدومين إلى المراقبين، وفيه يطلب مراقبة المجلس؛ لأنه أعطى الفلاحين آمالاً فى أن يصلوا بالطفرة إلى حريتهم المزعومة، وشكا من أن المدير لا يحبس فى الحال من يطلب منه حبسهم لتوقفهم عن العمل، ومن أن كل شخص يحبس بغير أمر قضائى، يشكو بالتلغراف إلى نائبه فى بالمجلس فيسأل المدير عن السبب فى الحبس، وهذا اجتراء من الأهالى على التظاهر بحقوقهم فى ظل النظام الجديد الذى يبنون عليه حريتهم وخلاصهم.

ويظهر أن الأمور فى مصر كانت سائرة سيراً حسنًا؛ فقد كتب غوردون باشا إلى التيمس يقول: إن مصر تسرع فى الغنى والسعادة وإنها فرحة مسرورة، ولا أظن أن شيئًا قد تغير عما كان إلا ما كان من ضمان الدين، فإن الوفاء به اليوم أوثق، أما السجون فغاصة بأولئك المساكين من الفلاحين.

والواقع أن حقوق الأجانب وديونهم كانت مكفولة فى ظل هذه الحكومة فقد كانت لا تفتأ تعلن احترامها لالتزامات مصر ورغبتها فى التعاون مع الدول، ولكن التعاون لم يكن مراد إنجلترا وفرنسا وإنما كان مرادهما المناوأة. وقد احتجا بلسان المراقبين على الدستور الجديد، وقالا إنه غير ملائم لحالة البلاد وبشرا مصر بارتباك الأحوال ودسا بين الخديوى ووزرائه والمجلس؛ لأن المجلس اغتصب سلطته وجار على حقوقه، فردت الوزارة بأن حقوق الدائنين مكفولة والمراقبة مرعية، غير أن الدس لم ينقطع والسعاية لم تقف عند حد، فمال الخديوى إلى الدولتين وجعل يصغي إليهما، وراحت مسافة الخلف بين الخديوى ووزارته تتسع وتطول، وظهر ذلك كأجلى ما يكون فى حادثة مؤامرة الشراكسة. وحكايتها بإيجاز أن بعض الضباط الشراكسة تآمروا على قتل عرابى وزملائه لقلب النظام الجديد، واتصل الخبر بالوزارة فقبضت عليهم وحاكمتهم عسكرياً فحكم عليهم بالنفى إلى السودان، وقدم عرابى الحكم إلى الخديوى ويقال إنه - أى عرابى - طلب العفو بتخفيف العقوبة ولكن القنصلين - الإنجليزى والفرنسى - أشارا على الخديوى بمراجعة السلطان فى الأمر، ففعل وأرسل الحكم إلى الأستانة، فطلب السلطان الأوراق، فساء الوزارة ذلك واشتد الخلاف ودعى المجلس، وكانت دورته قد انقضت فجاء النواب وسعوا للتوفيق بين الخديوى والوزارة غير أن القنصلين أشارا على الخديوى بالإصرار وطلب استعفاء الوزارة، وتحرج الموقف، واتصلت القنصلية الفرنسية بعرابى كان من قول عرابى: إن المجلس الآن هو الحاكم وهو أول خاضع له، فتحولت القنصلية إلى المجلس أو على الأصح رئيسه سلطان باشا.

وفى ٢٥ مايو أرسلت إنجلترا وفرنسا مذكرة جديدة طلبتا فيها استقالة الوزارة ونفى عرابى من القطر المصرى وإبعاد زميليه عبد العال وفهمي إلى الأرياف؛ فقبل الخديوى المذكرة فاستعفت الوزارة بعد أن أقامت الحجة على كل ما جاء فيها، ولم يقبل أحد أن يتولى رياسة الوزارة فبقى عرابى ناظراً للجهادية؛ لأن واجبه البقاء للدفاع عن بلاده وأحيلت أعمال بقية النظارات على وكلائها.

وكان بقاء عرابى فى وزارة الحربية بعد استعفاء الوزارة بناء على رغبة الأمة، فقد أرسلت الدولتان أسطولين فهاج الرأى العام واضطرب وقامت مظاهرات الاحتجاج

وشرع كثير من الأجانب يهاجرون، وكانت إنجلترا تتعمد إحداث أزمة، فقد كتب مالت قبل وصول السفن الحربية يقول لحكومته: "ليس من الممكن الوصول إلى أى حل للمسألة المصرية قبل أن تحصل أزمة شديدة فى البلاد".

وكانت تركيا قد أرسلت المشير درويش باشا مندوباً عن السلطان، وكان غرضها فى ذلك أن تطيل زمن المخابرات، وأن تطمئن المراقبة الأجنبية وتوفيق باشا على سلطة الخديوى، وأن تستميل عرابى وإخوانه إلى زيارة الأستانة، وتقرر سلطة الباب العالى بمصر، ومن رأى الأستاذ الإمام أنه كان من السهل إدراك ذلك كله لو أرسلت تركيا من هو أحصف وأقوى من درويش باشا الذى كان فى أحاديثه يذكر سلطة السلطان ويثنى على الخديوى وينصح بالخضوع للنظام؛ فإذا جاء الكلام فى النهضة المصرية اقتصد فى القول واقتصر على أن السلطان مولانا وأبونا وهو الذى سينظر فى ذلك، وقد أوفد الخديوى لاستقباله ذوالفقار باشا، وأرسل عرابى من قبله يعقوب سامى، فاختلف الرسولان على الباخرة، واستاء ذوالفقار باشا غير أن درويش باشا استقبل كليهما بالبشاشة، وكان وصوله إلى الإسكندرية فى ٦ يونيه، وبعد يومين كان فى القاهرة، واتصل بالعلماء فصارحوا برأيهم ونصحوا له بما ينبغى له أن يفعل فأغضبه ذلك. ويقول الأستاذ الإمام إن درويش باشا فى ذلك الوقت مال إلى الخديوى فلما عرف الخديوى ذلك أرسل إليه ما يزيده ميلاً، ويروى السيد محمد رشيد فى هامش بكتابه أن الخديوى أرسل إليه خمسين ألف جنيه وحلياً تقدر بخمسة وعشرين ألف جنيه.

وفى ١٠ يونيه قابل درويش باشا محمود سامى باشا وعرابى باشا لأول مرة فجرى الحديث بينهما على نحو ما يأتى:

درويش: "نحن جميعاً رجال جند يحترم بعضنا بعضاً، وأنتم أولادى لمكانى من السن، وقد أرسلنى مولانا السلطان لتقرير الاتفاق بين عائلته المصرية العزيزة وستسهلون علىَّ هذا العمل. أنا أعلم شكواكم، ستشكون (أى ستقبل شكواكم) صبراً قليلاً. سيكون هذا العمل بعد رحيل هاتين الدونانمتين (الإنجليزية والرنسية) اللتين تضايقاننا جداً؛ فقبل كل شىء يلزمنا إبعادهما، هذا ما أتكفل به لو عضدتمونى فيه،

وأنا أرى جيداً أن الخطأ ليس من قبلكم، ولكن يجب التوسل إلى المطلوب بالحزم والبصيرة".

ثم التفت إلى عرابى باشا وقال له: "أنت. أنت وحدك الآمر الناهى فى مصر. أنت مع كونك لست إلا ناظراً للجهادية بيدك السلطة العليا بأسرها، هذا ما أغضب الدول المتحدة، يلزم أن يرين المساهلة معهن، وما بقى بعد ذلك عملنا فيه بيننا وحدنا، استعف من وظيفتك العسكرية بحجة حضورى حيث إنى مشير مرسل من قبل السلطان، وكن نائبًا عنى مأموراً تحت قيادتى، لكى تسهل علىَّ المخابرة مع الأجانب. وعليك أن تذهب مع الضباط الكبار من إخوانك إلى الأستانة حيث إن مولانا الخليفة العادل يرى الخير فى مفاوضته معكم".

فترجم محمود سامى باشا هذا الكلام إلى عرابى فقال عرابى: "مشروعكم هذا فى غاية الحسن وإنا نختاره مع الشكر. لست حريصًا على السلطة التى تريد أن تنسبها إلىّ. هى سلطة غير مغتصبة، الأمة هى التى أفضت إلىَّ بها، فالواجب أن ينظر إلى الأمة ويفكر فى شكواها. وأعترف أن يديك أبرع من يدى فى العمل لتذليل المصاعب التى أمامنا الآن. سيفى ووظيفتى تحت تصرفك أنا مستعد للانسحاب واتباع نصيحتك، إنما أشترط شرطًا واحداً. أعطنى باسم السلطان واسم الخديوى واسمك كتابًا تصرح فيه ببراءة ذمتنا من التبعات جميعًا فى كل ما جرى إلى الآن كائنًا ما كان، وسواء أكان ذلك منى أم من إخوانى، وحيث إنى تعهدت للقناصل بحفظ الأمن فى الديار المصرية وتحملت ثقل ذلك على كاهلى، فأرجو أن تعفينى من ذلك بطريقة رسمية معروفة. أطلب ذلك لأن الأحوال إن جرت على وجه حسن لم يعرف لنا فيها صنيع وإن جرت على العكس من ذلك كنا الجانين. مالت وكولفنى وسندويش عاملونا معاملة الخارجين على النظام وذلك فى بلادنا وهم الأجانب الذين لا يحترمون لنا شيئًا ونحن نحترم لهم كل شىء".

فوعده درويش باشا بإنالة مطالبه يوم ١٢ يوليه، وهو اليوم المحدد لجلسة يحضرها درويش باشا تحت رياسة الخديوى، وطلب درويش باشا أن يعلن هذا الحديث الذى جرى

بينهما من قبلهما جميعًا وطلب من عرابى أن يكتب إلى الإسكندرية بالتلغراف؛ فأبى عرابى أن يعلن شيئًا إلا بعد أن ينال هذا الأمر الذى يخلصه من كل تبعة.

ولكن مذبحة الإسكندرية حدثت قبل ذلك، وكانت فرنسا قد نفضت يدها من الأمر ولم تر أن تمضى فى التهديد، وآثرت أن تقبل الواقع من الأمر فأعلن المسيو فريسنيه فى مجلس نوابها أن حكومة فرنسا لن تتدخل فى مصر تدخلاً حربيًا فى أى حال، وبذلك خلا الجو لإنجلترا، وأصبحت لا ينقصها إلا حجة تتذرع بها للتدخل، وكان الجو حافلاً بالإشاعات وبواعث القلق، فالصحف فى مصر تنشر ما يفزع الأوربيين ويخيفهم من المصريين ويدعوهم أن يطلبوا من مديريهم ورؤسائهم فى أعمالهم أن يأذنوا لهم فى التسلح، فمنهم من أبى ومنهم أذن، فمن هؤلاء موظفو شركة تلغراف الايسترن، طلبوا التسلح فأبى رئيسهم فكتبوا بذلك إليه فرفع ما كتبوا إلى مدير الشركة فى لندن فأذن بذلك وسمح بثمانية وثلاثين مسدسًا، أما عائلاتهم فأرسلت إلى قبرص على نفقة الشركة، ويمكن أن يقال على وجه الإجمال إن الأوربيين تحققوا من عداوة الشعب وسخطه عليهم لإحساسهم فى أنفسهم وفى أعماق ضمائرهم بإساءتهم إليه، وكانت أشد الجرائد المصرية تهيجًا جريدة "الطائف" التى كان يصدرها السيد عبد الله نديم المهيج الشهير، وكانت قد اكتسبت صبغة رسمية جعلت لكلامها من القيمة فوق ما هى جديرة به، وذلك أن سلطان باشا كان قد كتب قبل ذلك رسميًا إلى إدارة المطبوعات يطلب منها أن تعترف بأن جريدة الطائف هى لسان النواب المعبر عن أفكارهم، فاعترفت الإدارة بذلك إجابة لطلبه، ونشر هذا رسميًا بأمر وزير الداخلية، وذلك قبل استقالة وزارة سامى باشا، ومما هو خليق أن يعطى القارئ فكرة عن هذه الجريدة وأسلوب صاحبها فى الكتابة ما رواه المرحوم فتحى باشا زغلول قال: "كنت فى عهد الثورة تلميذًا فى مدرسة رأس التين فى الإسكندرية فبلغنا أن السيد عبد الله نديم سيخطب الجمهور فحضرت خطبته مع كثيرين من الطلبة وغيرهم؛ فكان مما قاله ما خلاصته أن طوابى الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها على البحر يبلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب، وطوابى الأستانة إذا أطلقت تبلغ هذه الجزيرة من الجانب الآخر؛ فكيفما جالت الأساطيل الإنجليزية فهى تحت رحمة مدافعنا؛ فعلا هتاف الناس وتصفيقهم له.

وعلى الرغم من اعتراف إدارة المطبوعات بالطائف، وأنها لسان النواب فقد عطلها الأستاذ الإمام شهرًا لتهييجها؛ وأخطأ سلطان باشا فلم يكتب ما ينقض ما كتبه أولاً.

ولكن الصحف الإنجليزية كانت شرًا ألف مرة من الصحف المصرية فقد لجت فى الإرجاف والتهويل والكذب على عرابى وزملائه ولفقت ما شاء لها الخيال حالة البلاد وصورتها فى صورة الفتنة العمياء؛ فمن مذابح موهومة يقوم بها البدو وعصابات الأشقياء فى الأقاليم، إلى الزعم بأن المصريين امتنعوا عن دفع الضرائب، إلى الادعاء بأن نية العرابيين مبيتة على خلع الخديوى توفيق وتولية الأمير حليم مكانه، وكان المستر كوكسن قنصل إنجلترا فى الإسكندرية فضل كبير فى إذاعة هذه الأوهام مما جعل حدوث الحوادث متوقعًا من ساعة لساعة، ومن أمثلة التهويل العجيب أن "مالت" أخبر حكومته نقلاً عن السكرتير الأوربى للخديوى (كوادر بك) أن محمود سامى وعرابى دخلا فى اليوم الثانى لاستعفاء وزارة سامى والسيف فى يد كل منهما وهددا الخديوى بالقتل.

وقد دبرت فتنة فى القاهرة وبذل المال للأعراب ليدخلوا المدينة فى يوم معين ويحدثوا فيها الشغب وينهبوا ويسلبوا ويقتلوا، ولكن الأعراب أخذوا المال وخافوا فأحجموا.

ولكن التدبير فى الإسكندرية كان موفقًا، ففى ١١ يونيه سنة ١٨٨٢ – وكان يوم أحد والقهاوى غاصة بطالبى الراحة من الأعمال وبغاة التسلية واللهو، حدثت مشاجرة على مقربة من قهوة القزاز فى آخر شارع البنات حوالى الساعة الأولى بعد الظهر وكان الزحام شديداً. وشرح ذلك أن مالطيًا يقال إنه خادم المستر كوكسن قنصل إنجلترا فى الإسكندرية ركب عربة وطاف بها من محل إلى محل يشرب ويتنزه إلى أن وصل إلى خمارة لأحد مواطنيه وهو سكران فطلب السائق الوطنى أجرته فأعطاه قرشًا واحدًا ودخل الخمارة فتبعه السائق معترضًا على ضآلة الأجر، فتناول المالطى سكينًا معدة لقطع الجبن الرومى وطعن بها السائق فسقط قتيلاً على المكان، فاجتمع بعض الوطنيين وواحد من أقارب السائق وأرادوا القبض على القاتل فجاء

يونانى خباز مجاورة للخمارة ومعه بعض مواطنيه يحملون السكاكين والطبنجات وأخذوا يضربون يمينًا وشمالاً ومضى نصف ساعة قبل أن تصل الشرطة من مركز اللبان. فقتل أول من جاء منهم مع المعاون، وحضر آخرون، وكانت المعركة قد صارت عامة، غير أن العسكر لم يتدخلوا للقبض على الجناة فتمكن هؤلاء الأروام والمالطية من الفرار وكان يكفى لحسم المعركة ورد النظام ومنع الشر من الاستفحال أن يتدخل المحافظ.

وبعد نصف ساعة أو نحو ذلك قام نزاع بين العامة وعساكر المستحفظين وذلك لأن هؤلاء العساكر لم يقبضوا على الجناة ولم يتدخلوا لحفظ النظام، وقد اشتد سخط العامة على العساكر حتى لقد نسوا مسألة الجناة من الأروام والمالطية ولم يبق لها ذكر عندهم، وإنما بقى السخط على العساكر والمنازعة معهم، ويقال إن العساكر بدا منهم ما يدل على التواطؤ مع المعتدين على المصريين و[المتآمرين] عليهم، وأخذ الأروام والمالطيون يطلقون الرصاص من أعلى البيوت ومن النوافذ وإن كانوا فى مأمن من وصول الشر إليهم، وعلى إثر ذلك أقبل المسلمون ووفدوا من كل جانب مسلحين بعضهم بالعصى والبعض بأرجل الموائد أو قطع الكراسى والبعض بالنبابيت اشتروها من المخازن القريبة خصوصًا من السوق الجديدة.

ورؤى المستر كوكسن نازلاً من بيت أحد المالطيين بلباس مدنى ومعه قواصه فتبعه المتشاجرون وضربوه ضربًا خفيفًا وهو يهم بأن يركب عربته، ففر ونجا منهم وصحبه عمر لطفى المحافظ فى أثناء الطريق، وقتل عدد ليس بالكبير من العساكر المستحفظين، وعلى القرب من شارع الميدان جاء جماعة من الأروام المسلحين طبقًا للأوامر الصادرة إليهم وأخذوا يطلقون الرصاص على الجموع بلا تمييز، ولم يأت أحد من الجند ولا من الشرطة ولا المحافظ لإطفاء هذه الفتنة وقد وجد بالقرب من تمثال محمد على - حيث لم تدر معركة ما - اثنا عشر قتيلاً ليس فيهم سوى أوربى واحد.

ورأى أحدهم عمر لطفى المحافظ قرب زيزينيا فسأله كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك؟ فقال: لست بقائد وهذا لا يعنينى.

فسأله السائل: لم لم تحضر بلباسك الرسمى على جوادك شاهراً سيفك فى خمسين من الجنود وبذلك كان ينتهى الأمر؟

فأجابه: انصرف ليس هذا من شأنك، وهل أنت محافظ البلد.

وبعد ذلك مر أحد موظفى المحافظة فسئل: ماذا يفعل الضابط؟ فقال: إنه مريض وقد طلب من المحافظ مراراً أن يرسل العساكر فلم يفعل.

وكان سليمان سامى مستعداً لإرسال العساكر إذا ورد له الأمر من نظارة الجهادية ولكن لم يكتب بذلك أحد إلى النظارة لأن الأمر بيد المحافظ، وقد بدأ فى المخابرة التلغرافية مع القاهرة منذ بدء الحركة ولكنه لم يتلق جواباً على أن هذا لا يخليه من تبعة التقصير، فما كان ينبغى له فى إبان فتنة وبيلة كهذه أن يقيد نفسه بنية المحافظ أو حقوقه، ولاسيما بعد أن بدا له منه ما يدل على تعمد الإهمال.

وقد سمع قنصل روسيا من ["نينه"][٦٤] ما رآه من المحافظ مما سردناه لك فعجب واتصل بزملائه القناصل وبعد ذلك كتب إلى الخديوى ودرويش باشا وعرابى باشا، وكانت الساعة قد بلغت الرابعة بعد الظهر وفى نحو الساعة الخامسة قابل من أخبره أن عرابى أرسل الأوامر مشددة لإعادة النظام، وكانت الشوارع غاصة بالرعاع والأوباش يحملون الأسلاب ويصيحون ويشتمون وبعد نصف ساعة عاد النظام، وكانت الفتنة غير مقصورة على شارع البنات، بل امتدت إلى جهة الجمرك وشارع رأس التين وأبى العباس، واتفق مع ذلك أن بعض المسلمين على الرغم من فورة عواطفهم خلصوا نساء أوربيات وأوصلوهن إلى بيوتهن، وظهر فى اليوم التالى أن عدد القتلى الوطنيين كان مائة وثلاثة وستين غير من أخفاهم المتشاجرون وحملوهم سراً من وسط المعركة أما جملة من وجد قتيلا من المسيحيين أوربيين وغيرهم فكانت خمسة وسبعين كثيرون منهم مصابون برصاص فى قمم رؤوسهم مما يدل على أنهم قتلوا بالرصاص الذى كان يطلقه الأروام والمالطية من أعلى البيوت بلا حساب.

---

(٦٤) يعنى جون نينيه Ninet (المحرر).

والمحقق أن خبر هذه الفتنة لم يبلغ عرابى إلا فى الساعة الرابعة والربع بعد الظهر، لأن القليلين الذين يشتغلون من موظفى التلغراف بعد الظهر لم يكونوا يعملون إلا فى تلغرافات المحافظ حتى أن رسالتين مهمتين من أحد أمراء الآلايات فى الإسكندرية لم تقبلا لأن آلة التلغراف مشغولة بتلغرافات المحافظ!

وعلى رأس هذا كله يجب أن يروى أن عمر لطفى باشا هذا، محافظ الإسكندرية، طلب إنزال جنود إنجليزية لعجز عرابى عن حفظ الأمن!

ومما له دلالة خاصة ويستحق أن يروى من أجل ذلك ويسجل أن المسيو كليكن كويسكى القائم بأعمال القنصلية الفرنسية رجع إليه عقله فألح فى طلب التحقيق والبحث عن أسباب الحادثة، فصدر الأمر بذلك فى الحال، ولكن الأعضاء الأوربيين امتنعوا عن العمل، وألح الوطنيون فى التحقيق مع حبس كل من تحوم عليه شبهة من الأوربيين، فاعترض على ذلك مندوبا اليونان وانجلترا وأبى مندوب فرنسا الحضور. وطلب بعض وكلاء الدول شنق عشرين شخصاً من المدنيين وبهذا تنتهى المسألة فى رأيه.

وحادثة أخرى تستحق التسجيل - تلك أن القناصل - بعد الحادثة - نبهوا على رعاياهم بأن يهاجروا وطلبوا من كل منهم أن يكتب ما عنده؛ فكتبوا ما شاءوا وزادوا من عندهم ما أرادوا، وإنما فعل القناصل ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن المدينة ستضرب فأرادوا أن يربح رعاياهم كل ما يستطاع ربحه على سبيل التعويض.

ورواية أخرى تستحق أن نثبتها هنا - وتلك أنه فى الأسبوع التالى للفتنة أشيع أن الأميرال سيمور قائد الأسطول الإنجليزى لا يعتقد أن للحزب الوطنى دخلاً فى إثارة الاضطراب، ويقول الأستاذ الإمام أن الخديوى اهتم للأمر وأمر عمر لطفى باشا أن يخبر الأميرال سيمور أن تعهد عرابى باشا بالمحافظة على الأمن أصبح لا يعتد به وأنه يخشى من مذبحة أخرى، ففعل عمر لطفى باشا ما أمر به، ولكنه لم ينل جواباً شافياً - فما هو يا ترى الجواب الشافى الذى كان منتظراً؟ إنزال الجنود الإنجليزية؟ وقد خبّر "نينه" عرابى بذلك وطلب منه عزل عمر لطفى ولكن عزله لم يتيسر.

وفى ١٩ يونيه طلب قنصلا ألمانيا والنمسا من الخديوى إقامة وزارة من الوطنيين المعتدلين إتقاء لتدخل إنجلترا، فعينت وزارة راغب باشا وظل فيها عرابى وزيراً للحربية؛ وأصدرت عفواً عن الجرائم السياسية غير أن العجيب أن القناصل لم يعترفوا بها متابعة منهم لقنصلى إنجلترا وفرنسا؟!

وفى هذه الأثناء عرف قائد الأسطول الإنجليزى حقيقة حال الطوابى فى الإسكندرية بالاختبار وتحقق من عجزها عن ضرب بوارج الأسطول؛ وكان جنود المدفعية فى بلادهم إيثاراً للاقتصاد، وكان فى الطوابى مائة مدفع ومدفع منها تسعة وستون فى مواضعها الحربية والباقى كان ملقى بعضه بجانب بعض؛ وكانت تلك حالها منذ اثنتين وثلاثين سنة قبل الواقعة أما القذائف والقنابل فلم تفارق مخازن الترسانة وقبل ضرب الإسكندرية بيوم واحد لم يكن مدفع واحد قد نظف وأعد وجهز بما يلزمه للاستعمال.

وفى أثناء ذلك عقد مؤتمر الأستانة فى ٢٣ يونيه بدعوة فرنسا التى أرادت أن تمنع إنجلترا بهذه الوسيلة من الانفراد بالعمل، وقد أبت تركيا أن تشارك فى المؤتمر لأنها صاحبة الحق وحدها فى شئون مصر، وقد قرر المؤتمر ألا تنفرد دولة بعمل أو امتياز دون سائر الدول، وأن ليس لدولة ما أن تقوم بعمل ما دام المؤتمر منعقداً، والغرض من هذين القرارين واضح، وفى ٦ يوليه قرر المؤتمر دعوة تركيا إلى إرسال جيش إلى مصر فبادرت إنجلترا إلى العمل.

ومن المحقق أن إنجلترا كانت معتزمة أن تغتنم أية فرصة للتدخل الحربى، فإن من الثابت أن اللورد نورثبروك أرسل الأستاذ بالمر ليغوى قبائل العربان فى غزة، وكان إرساله له فى شهر يونيه وقد قابله "نينه" متنكراً، وقال له يوماً قبل ضرب الإسكندرية بمدة طويلة: هاجر فإن المدينة ستضرب.

وقبل أن تضرب الإسكندرية بمدة طويلة كذلك صدر أمر من مدير شركة التلغرافات الإنجليزية بإجراء تعديل فى بعض خطوطها، فطلب وكيلها فى مصر أن يرخص للشركة فى مد خطوط إلى بورسعيد والسويس تحت الماء فأذن له عرابى ولكن العمل لم يتم فى ذلك الوقت.

بل فى شهر مايو - أى قبل ضرب الإسكندرية بأكثر من شهرين - طلب مدير هذه الشركة فى لندن، من وكيلها فى مصر أن يرحل فى إجازة إلى أن تنتهى الحوادث لأن ميل الوكيل إلى الوطنيين قد يضر به عند الغالبين إذا أرادت الحرب.

وقد أكد قنصل الروسية "لنينه" أن الإسكندرية ستضرب ورجا منه أن يسعى على الأقل لعزل عمر لطفى باشا المحافظ.

ومن هذا يتبين أن النية كانت معقودة على التحرش والحرب، فلا عجب إذا رأينا الأميرال سيمور قائد الأسطول الإنجليزى يكتب إلى طلبه باشا فى ٩ يوليه محتجًا على إقامة المدافع وتجهيز الطوابى وإعدادها للعمل ومهددًا بأن يضربها بمدافع أسطوله، ولم يكن تم شىء من ذلك فقد أسلفنا وصف هذه الطوابى وسوء استعدادها للدفاع.

وفى اليوم التالى (١٠ يوليه) كرر سيمور شكواه واحتجاجه وتحرشه، وقال إنه سينفذ ما هدد به إذا لم يسلمه طلبه باشا طابية رأس التين لتجريدها من السلاح، ولم يكن هناك طابية مجهزة بأدوات الدفاع فى ذلك اليوم، فأرسل إليه قرارا من مجلس النظار الذى عقد تحت رياسة الخديوى وحضره كثير من الأعيان خلاصته أن مصر لا تستطيع أن تسلم موقعًا من مواقعها إلا قهراً، وأن شيئًا مما يدعيه الأميرال لم يحصل من اليوم الذى صدر فيه أمر السلطان بمنع ذلك، وكل ما حصل هو ما يجرى عادة كل سنة من الترميمات، وأن مدافع القلاع لم تزل على حالها منذ سنين عديدة.

وحمل أحد الضباط هذا الجواب إلى الأميرال وطلب منه إذا شاء أن يزور الطوابى بنفسه ليتحقق أن الأمر على ما يصف الرد، ولكن الحقيقة لم تكن بغية الأميرال فأجاب بأنه مصر على وعيده. ويروى الأستاذ الإمام أن أمير آلاى فى معية الخديوى سأل جنابه:

"ما مصير الإسكندرية إذا ضربها الإنجليز؟"

فأجاب الخديوى: "ستين سنة" وهز كتفه.

فألح الضابط على سموه قائلاً: "ولكن السكان سيحرقونها فأرجو أن تتوسطوا لدى الأميرال والوقت لم يزل يسمح بذلك، واستدع ذا الفقار (وكان قد عُين) ومره أن يحافظ على المدينة فإن عنده من الرجال الكفاية".

فأجاب الخديوى: "فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة، حرب بحرب. كل ذلك يقع على رأس عرابى وعلى رؤوس أولاد الكلب الفلاحين وسيذوق الأوربيون الملاعين عاقبة هروبهم مثل الأرانب".

وقد انتقل الخديوى من سراى رأس التين إلى الرمل، أما المحافظ وموظفو المحافظة فانسحبوا واختفوا.

وهذه الرواية التى يوردها الأستاذ الإمام تاريخها فى مذكراته ١١ يوليه، والمحقق أن ضرب الأسطول للإسكندرية بدأ فى الساعة السابعة صباحًا من هذا اليوم نفسه، والحديث المروى عن الضابط والخديوى يفهم من فاتحته أن الإسكندرية لم تكن قد ضربت بعد؛ فلا ندرى هل جاء التاريخ خطأ، أو الرواية نفسها هى التى يعتورها الخطأ.

وكان عرابى قد أوصى ضباطه ألا يجيبوا الأسطول إلا بعد خامس طلقة يصبها عليهم، إيثارًا منه لاتخاذ موقف الدفاع، واتقاء لتهمة العدوان، ولسنا نحمد لعرابى هذه الخطة؛ فقد كانت نية العدوان من جانب الأسطول واضحة لا شك فيها، وليس بعد أن يدعو الضابط أميرال الأسطول لزيارة الطوابى بنفسه فيرفض، محل للتردد أو إحسان الظن، وعلى أنه لم يكن للأسطول حق فى الاعتراض على تسليح الطوابى وإعدادها لو أن شيئًا من هذا حدث، وما دام من المحقق أن إنجلترا مصممة على العدوان، فقد كان من الخطأ أن يدع عرابى الأسطول يخرج من الميناء ويصطف فى عرض البحر استعدادًا للحرب. وكان ينبغى على الأقل أن يقابل الوعيد بمثله وأن ينذر الأسطول بالضرب وهو داخل الميناء إذا أصر على موقفه، وأن لا يدعه يفلت من الجحر الذى كان فيه إلا باتفاق يكفل لمصر السلامة، وإذا كان لابد من الحرب فليضربه وهو محصور داخل الميناء وتحت أفواه المدافع مباشرة، لا يتيسر له من الحركة والقدرة على التسديد وعلى اتقاء الخطر ما يتيسر له فى عرض البحر، ولو فعل لكلف إنجلترا خسارة ما كانت لتعوضها بسهولة أو تقدر بعدها على ما قدرت عليه بالسرعة التى حدثت.

وفى الساعة السابعة صباحًا ضرب الأسطول المدينة بعد أن خرج من الميناء ووقف بعيداً عن مرمى الطوابى، فقتل كثير من النساء وهن حاملات أطفالهن على أيديهن ومات الأطفال أيضًا وحمل الأطفال والنساء وهن على هذه الحالة وهدم المسجد الذى فى طابية قائد بك عمداً وصبت عليه النار قصداً، وكان فى المدينة أروام لبسوا لباس الأعراب وأشعلوا النار فى المدينة وقد رؤيت جثثهم وهم فى تلك الثياب أثناء الحريق، ومن الذين حرقوها أيضًا عربان من أولاد على ولفيف من أهالى الإسكندرية وأوربيون رغبة منهم فى المبالغة فى التعويضات التى سيطلبونها وذلك بعد أن أخليت الإسكندرية ممن يخشون عليهم.

وشرع الناس يهاجرون فخرج نحو مائة وخمسين ألفًا من السكان مجردين من كل شىء وراحوا يسيرون على غير هدى لا يعرفون لأنفسهم مأوى وقد شاع فى نفوسهم الفزع وأخذوا شاطىء المحمودية إلى دمنهور وجسر السكك الحديدية من دمنهور إلى مصر، وكان المهاجرون يبدون خطوطًا سوداء كثيفة عريضة فى مواضع، رقيقة نحيلة فى مواضع أخرى، متحركة فى كل جهة كأنها سلسلة إنسانية طويلة، يمشون ببطء هنا، وينزلون هناك ولا وقاية لهم ولا طعام معهم، والسماء من فوقهم صافية والأرض حولهم خضراء نضيرة.

وفى اليوم الثانى (الثانى عشر من يوليه) عادت سفن الأسطول إلى إطلاق مدافعها على المدينة وظلت تضربها إلى الساعة الحادية عشرة وأصابت المستشفى فهجره المرضى والجرحى وفروا منه – فتصور هذه المدنية! – وكان العلم الأبيض بالهلال الأحمر مرفوعًا عليه فليس لضاربيه عذر.

ورفع طلبه باشا العلم الأبيض على وزارة البحرية ثم ذهب إلى الأميرال ليسأله عن السبب فى ضرب المدينة بالمدافع فى اليوم الثانى، فأجابه أحد ضباط الأسطول بالنيابة عن الأميرال أنه يطلب تسليم الطوابى و [...] أيضًا، فلم يسع طلبه باشا إلا أن يرجع ليبلغ مجلس النظار، وذاع الخبر فى المدينة، وشرع الجنود فى إخلائها، وفزع الناس وعادوا إلى الهرب ودخل العربان من أولاد على وكانوا فى اليوم السابق قد اشتركوا

فى إحـراق المدينة، أمـا اليـوم فكانت غـايتـهم النهب، وسلم سليـمـان سـامى ضـابط المحـافظة مـحلة الأوربيين لعسـاكـر الرديف ولكن هؤلاء لم يكونوا خـيـراً من العـربان فانضـموا إليـهم واشـتـغلوا فى آخـر النهـار بالنهب والسلب، وشبت النار فى المدينة قبل الظهر فتضاعف البلاء.

ويجب أن يذكـر مع الإعـجـاب لأهالى الإسكندرية - رجـالاً ونسـاءً - أنـهم كـانوا تحت وابل القنابل ونيـران المدافع، وعلى الرغم من الفـزع والنيـران والنهب هـم الذين ينقلون الذخـائر ويقـدمـونهـا إلى البـقـيـة من رجـال المدفـعـيـة الذين كـانوا يردون على الأسطول، وكـانت سلوتـهم - وهم يقـومـون بهـذه المهـمـة الخطيـرة - أن يتـغنوا بلعن الأميرال ومن أرسله.

أما المهاجـرة فكانت مناظرهـا بشعة، وكان هنـاك مـاء محبوس تقوض سده فاندفع يتدفق، وكـان النـاس يصطدم بعضـهم ببعض وهم يتسابقون من كل ناحيـة إلى الطرق، ويتـدافعون ويتزاحـمون ويتراكمـون، وليس منهم من يملك عقله، وأمامـهم أشيـاؤهم على الدواب، وعلى أكتافـهم أو ظهورهـم ما خف حمله من أمتعتـهم، فهنـاك الرجال والنسـاء والأطفال مـحـمـولين، والدواب وصنـوف شتى من ضـئيـل الأثاث ومن الثيـاب الـرثة، ولم يكن يخلو هذا المنظر من غرابة فقد كان البـعض يأبى إلا أن يحـمل مـعه فى فراره ما لا خير فيه ولا قيمة من المفروشات على حين ترك فى بيته ما لعله أنفس وأثمن.

وكان جـمـهـور الفـارين كـأنه شـعب طرد من بيتـه، بل هذا هـو الواقـع، وكـان الحـر شديداً، والغبـار يسـد الأفق ويزهق الأنفـاس، وأظلم الجـو، وعـلا الصـخب وراح النسـاء يبـحثن عن أولادهن، ويتشـاجرن ويتـلاعن بعضـهن مع بعض، ويتضـاربن أيضـاً، وصـار الاختـلاط شنيعـاً لا سبيل إلى وصفه وتصويره، واسـتعملت العربات التى انكسـرت أو خلعت عـجلاتـهـا، مسـاكن، وسقطت فى المحمودية عجـلات من كل نوع، بعضـهـا مقلوبـاً، والبعض لا تزال خيلها مشدودة إليه، والبعض بلا خيل، والتجارة تكون فى حيثما يكون الناس، فمضى بعض الملهمين وذوى الاستعداد يشوون اللحم على العربات، ويبيعونه والبعض الآخر يتخلل الصفوف ويصيح فى المهاجرين "الخبز الخبز".

وفى ١٣ يوليه انتقل الخديوى من الرمل إلى رأس التين أو عاد إليها على الأصح بعد يومين من مغادرتها صبيحة يوم الضرب، أما عرابى فانسحب إلى كفر الدوار فوصل إليها فى الرابع عشر ولم يكد يبلغها حتى اجتمع عليه الرجال والنساء وأخذوا يلعنون العالم ويلحون في طلب الخبز، فوعدهم بالقوت وبأن يحملهم إلى الأقاليم، ولم يكذب، وما كان يسعه أن يخلفهم ما وعد، فأرسلهم إلى المديرين وأوصاهم أن يطعموهم وأن يكلوا إليهم الأعمال التى تناسبهم على قدر الطاقة.

وفى مساء ذلك اليوم (١٤ يوليه)، وبينما كان عرابى يواصل استعداده للمقاومة، ورده خطاب من الخديوى نثبته هنا لغرابته:

"سعادة عرابى باشا ناظر الحربية فى معسكر كفر الدوار.

إنك تعلم أن الأميرال الإنجليزى لم يرد حرب مصر وإنما أطلق المدافع على الطوابى بسبب ما كان جاريًا من التجهيزات كما أنذر به (فتأمل!) وقد أعلنا أنه يجب إعادة العلائق معنا، وأنه مستعد لتسليم الإسكندرية لجيش منظم مطيع، فإن لم يكن فإلى جيش عثمانى، وقد قرر مؤتمر الأستانة أن للسلطان وحده حق المداخلة بقوة السلاح فى المسألة المصرية، فعليك أن تحضر مع رفاقك إلى رأس التين، للمداولة فى ذلك، وآمرك بالكف عن التجهيزات التى لا فائدة منها بعد الآن".

* * *

وبديهى أن هذا الخطاب أملى على الخديوى وأن الغرض منه تسويغ فعلة إنجلترا وهى لا تقتصر على الاعتداء على بلاد مسالمة بل تجاوزت ذلك إلى ضرب المساكن والمساجد والمستشفيات وإحراق المنازل، ومن غايات الخطاب كذلك إحراج عرابى حتى إذا رفض عزل فسقطت الصفة الرسمية، فإذا استمر بعد ذلك على المقاومة كان عاصيًا متمردًا، وزعيم عصابة، وتسنى للإنجليز أن يزعموا أولاً أنهم كانوا معترفين بحق السلطان صاحب الحق الشرعى وزاهدين فى تجاوز ما حدث؛ إذ كانت غايتهم

مقصورة على منع المضى فى تسليح الطوابى بلا ضرورة، وثانيًا أنهم ما حاربوا عرابى إلا لأنه خارج على مولاه الشرعى وأنهم فى هذا إنما يمكنون للخديوى صاحب الإمارة على البلاد ويساعدونه على استرداد سلطته.

وقد أجاب عرابى باشا على هذا الخطاب بما يأتى - بعد الاستهلال - :

"إن الأميرال إنما أطلق المدافع بعد التأكيدات من الوزارة ومن سموكم بأنه لا تجهيز ولا تحضير، وقد عددنا جميعًا - وسموكم معنا - أن إنذاره بالضرب إهانة لمصر وإعلان بحربها بلا سبب، ومع ذلك لم يقتصر الضرب على الطوابى كما قال بل قذف قنابل مفرقعة على الأملاك حتى قتلت ودمرت كثيرًا، وأن عسكركم المنظم مستعد لأن يأتى المدينة عند الاقتضاء، وأنا لا أرفض أية مخابرة فى الصلح، لكن يلزم أن يتذكر أن التعدى وخرق سياج السلم وتدمير المدينة إنما جاء من المراكب الإنجليزية، وأن الطوابى لم تجاوب إلا بعد خامس ضربة من المراكب حسب القرار الصادر من المجلس المرءوس بسموكم وحضور درويش باشا".

"ومن المعلوم أن إنجلترا أصبحت بذلك محاربة لمصر؛ إذ بعد إطلاق النيران اثنتى عشر ساعة واضطرار العساكر المصرية لإخلاء المدينة وإشغالها بعساكر إنجليزية لا يمكن أن يقال إن البلد فى غير حرب".

"وسموكم يعلم أنه فى هذه الحالة لا يمكن أن تكون مداولة حرة ما دامت المراكب الإنجليزية فى مياه الإسكندرية بل يجب أن تبعد عنها، فإذا حصل ذلك فإنى مستعد لإجابة الدعوة حالاً. أما التجهيزات فيجب أن تستمر إلى أن تبعد المراكب عن الإسكندرية - تلك التجهيزات التى يشير إليها سموكم وهى جمع خمسة وعشرين ألف مقاتل، وهى التى أمرتم بها وما أنا إلا منفذ لأمركم".

وقد جاء رد عرابى كما كان متوقعًا، وما كان يسعه هو ولا أى إنسان يشعر بالمسئولية ويعرف الحقائق إلا أن يجيب بمثل هذا على الأقل، وقد تلا هذه الدعوة ورفضها ما كان متوقعًا أيضًا، فقد صدر الأمر بعزل عرابى من نظارة الجهادية ووزعت بذلك منشورات قيل فيها إنه كان ناظرًا للحربية إلى تاريخ الدعوة إلى رأس التين؛

وتم للإنجليز ما أرادوه من وضع عرابى فى مركز الثائر على الخديوى العاصى لأوامره المستحق للمطاردة والعقاب وكانوا يرجون أن يحرموه بهذه الوسيلة أسباب القدرة على مواصلة الاستعداد للحرب، أو يضعفوا هذه القدرة على الأقل، ويحملوا الكثيرين من نصرائه على خذلانه والتخلى عنه، وقد طبعت آلاف النسخ من هذه المخاطبات وزعت فى البلاد وأذيعت على القاصى والدانى، ولكن وفود كبار المصريين جاءوا إلى عرابى طالبين بقاءه ملحين عليه أن يستمر فى الاستعداد راجين منه أن لا يتخلى عن بلادهم وقومه، وأخذت الهدايا ترد عليه من حيث يعلم ولا يعلم، ولم تكن هدايا شخصية ولكنها كانت مؤونة لجيشه وأدوية ومالاً يستعين به على التجهيز؛ فشرع فى بناء الاستحكامات ولم يجعل باله إلى قرار العزل، وأغرق الجانبين من جهة الملاحات، وانتهى بناء القلاع فى أوجز زمن، فقد كان الناس من غير الجنود يتطوعون ويتبرعون بالمعونة، وساعد على إنجاز العمل أن العدو كان فى الإسكندرية ولم يكن يعمل شيئًا بعد إنزال الجنود بها.

وكان الجيش المصرى لذلك العهد مؤلفًا من ثمانية آلاف جندى نظامى وثمانين مدفعًا من مدافع كروب، وكان يوجد فى أبى قير ثلاثة آلاف وخمسمائة جندى، وفى رشيد ألفان وخمسمائة، وفى دمياط خمسة آلاف، فمجموع الجند فى الثغور أحد عشر ألفًا، إذا أضيفت إلى الثمانية الآلاف التى مع عرابى بلغت الجملة تسعة عشر ألفًا.

وكانت السفن الإنجليزية العارفة بالقوات التى فى الثغور ولاسيما بعد احتلال الإسكندرية والاتصال بالخديوى، لا تفتأ تهدد بحركاتها هذه الثغور لتمنع أن يأخذ منها عرابى قليلاً أو كثيراً. فأخطأ عرابى وأدخل العربان فى الجيش وهو عالم بمضرة دخولهم مدرك لقلة صلاحهم، وشرع فى جمع عساكر الرديف وكانوا لا يكادون يصلحون لشىء، وكان رؤساء الجيش الوطنيون يعلمون ذلك ولهذا طالبوا مراراً بزيادة قوة الجيش وإعادة تنظيمه، ثم شرع فى جمع غير هؤلاء وأولئك فدخل كثير من المتطوعين؛ ولكن هؤلاء لم يكن يكفى لجعلهم جيشًا صالحًا للدفاع وراء الأسوار والجدران أقل من ثمانية أشهر مع الاجتهاد، أما فى الفلا فلا أقل من عام أو عام ونصف.

يقابل هذا أن التيمس روت حينئذ أن الحكومة البريطانية أرسلت ٢٥ ألفا وستبلغها ثلاثين ألفًا لمقاتلة الجيش المصرى. فمن هذا ترى أن مهمة عرابى كانت فادحة.

ومما يستحق الإثبات هنا والتنويه به أن كثيرين من الضباط الإيطاليين والألمان والسويسريين عرضوا أنفسهم للتطوع فى الجيش المصرى ومعهم عدد غير قليل من أبناء جنسهم وكان بعضهم يطلب وسيلة للنقل، والبعض (الألمان) لم يكن يطلب شيئًا إلا أن يعين الضابط الأكبر باسم رفيع في الجيش، أما الفرنسيون فجاء من بعض المفلسين منهم شيء لا يلتفت إليه، غير أن البحر كان تحت الرقابة البريطانية بفضل الأسطول الرابض في مياه الإسكندرية فكانت المواصلات بين مصر وأوربا مقطوعة ولم يكن ثم سبيل إلي ورود مدد ما من أى نوع.

ولم يكن يخفى على عرابى حرج مركزه؛ نعم إن المعونة التى بذلها المصريون له أغنته عن الحكومة فلم يحتج إلى مليم واحد من خزانتها، ولم يكن يبالى أن الخديوى عزله؛ فإن كبار المصريين اجتمعوا فى القاهرة وأبدوا رأيًا سيئًا فيما صنع الخديوى، وعهدوا إلى عرابى أن يبقى فى مركزه وأن يدافع عن البلاد، فهو يحمل وكالة من الأمة إذا كان لا يحمل مثلها من غيرها ولم يكن يعبأ بما تصفه به الصحف الفرنسية والإنجليزية من التمرد والعصيان، وإنما كان يخاف أن يصدر السلطان أمرًا بذلك، وكانت له ثقة بالسلطان، وإن كان قد ظل يخشى أن تكرهه الدول أو إنجلترا على الأقل، وكان يذكر البارون درنج ويلومه على عدم مساعدته له عند حكومته مع أنه كان موظفًا فى خارجيتها ثم اشتد سخطه على الفرنسيين فجعل يذكر مصائب احتلالهم لبلاده أيام نابليون ويروى لجلسائه حيل نابليون والجنرال منو وأكاذيبهما التى خدعا بها المصريين؛ ويصف ما فعل ويفعل الفرنسيون فى تونس، وكان آخر الأمر يقول إنه لا يمكن الاعتماد على فرنسى فى شىء ما.

ومع ذلك انخدع لدلسبس!

ذلك أنه اعتمد عليه فى حماية القناة على الرغم مما انتهى إليه من سوء الرأى فى الفرنسيين وعدم جواز الاعتماد على أحد منهم فى شىء، وكان عذره أنه يعتقد أن مس القناة يهيج على المعتدى على حرمتها وحيدتها الأمم قاطبة، ولهذا ترك تلك الناحية مكشوفة، ولما توالت هزائم الطلائع الإنجليزية التى كانت تناوش عرابى بين الإسكندرية وكفر الدوار، وتعجم عوده وتخبر ما عنده، تحول الإنجليز إلى الشرق، وأحس دلسبس بأن الجيش المصرى يوشك أن يتحرك إلى هذه الناحية، فأبرق إلى عرابى يؤكد له أن من المستحيل أن تمر العساكر الإنجليزية من القناة.

ودارت واقعة مهمة جهة كفر الدوار انهزم فيها الإنجليز، وجاءت الأخبار عقب ذلك بأن اثنتين وثلاثين سفينة اتجهت إلى القناة، فورد تلغراف من دلسبس يقول "لا تشرع فى شىء يمس القناة. لا يمر عسكرى إنجليزى إلا ومعه جندى فرنسى. أنا مسئول عن كل ما يحصل". فأجيب بأن هذا غير كاف، والحق أنه لم يكن يكفى؛ إذ ما قيمة هذه التبعة التى يحملها دلسبس؟ وتقرر إرسال جيش إلى الشرق، وقبل أن يتحرك عسكرى إلى ناحية القناة، كان الجيش الإنجليزى قد احتله، وذلك لتأخير الجيش خمس عشرة ساعة فى مخابرة دلسبس، ويظهر أنه كان بين القائمين بالمخابرة خونة حملوا الأخبار وأبطأوا فى إبلاغها.

ويؤثر عن ولسلى القائد الإنجليزى أنه قال لو قطع عرابى القناة كما قرر لما بقى أمامنا إلا أن نحصر مصر.

وكان أغلب الجيش الشرقى – لسوء الحظ – من العساكر المجموعين حديثًا، والذين لا يساوون شيئًا، وقد خسر الجيش قبل ذلك محمود فهمى باشا فى واقعة [نفيشه] وأسره الإنجليز فخف محمود سامى باشا بنفسه إلى عرابى وطلب منه أن يذهب إلى ناحية الوادى، وكانت خسارة محمود فهمى جسيمة لا تعوض، وقد شعر الضباط جميعًا – وفى مقدمتهم محمود سامى وعرابى – بالضعف والوهن بعد أسره.

وتشاور رؤساء الجيش وقرروا إغراق المنطقة الشرقية مما يلى الزقازيق، ولكن عرابى استهول ذلك فلم ينفذ القرار، وتقرر سحب بعض الضباط من دمياط

ورشيد وإرسال مثل عبد العال إلى جهة الوادى فنفذ بعض القرار وأهمل بعضه ولم يحضر عبد العال وكان لحضوره مزيته وفضله.

وذهب عرابى إلى الوادى حزينًا كاسف البال، وقد اعترف بأنه فى الستة الأسابيع الماضية لم يستطع على كل اجتهاده أن ينظم قوة من المشاة يمكن الاعتماد عليها، فأرسل عرابى إلى الوادى عساكر من كفر الدوار وجاء إلى كفر الدوار بعساكر الرديف والذين أدركهم الهرم وأصيبوا بالآفات والعاهات فلا طاقة لهم على عمل.

ولكن الجيش مع كثرة حركاته وتوالى تنقله، وعلى الرغم من دهشة الحرب وجسامة المسئولية وعظم الشعور بها، كان حسن النظام خاضعًا طائعًا، ولكن الدسائس والخيانات كانت حافة به، فمن ذلك أنه فى ٢٧ أغسطس جاء خبر بأن فارسين خرجا من الإسكندرية وسارا من الناحية الشرقية من البحيرة وهما بدويان من قبيلة أولاد على التى مر ذكرها فى ضرب الإسكندرية، فقبض عليهما عند مرورهما على مقربة من معسكر كفر الدوار ووجدت معهما منشورات من بعض الباشاوات الذين كانوا يؤيدون عرابى، ورسائل من هذا الباشا إلى رؤساء القبائل وبعض الضباط يدعوهم فيها إلى ترك عرابى والالتحاق بالجيش العثمانى - وأين هو؟! - الذى جاء لإخضاع العصاة - وهذا تغرير من الباشا فما كان ثم جيش عثمانى آتيًا ولا هو يمكن أن يجىء، ولكنها وسيلة لتسويغ العصيان.

وقد سئل الفارسان فاعترفا بكل شىء، وذكرا أن جنديًا بحريًا إنجليزيًا يسمى (جيل) حمل ثلاثين ألف جنيه من سيمور أميرال الأسطول ليلحق بالأستاذ بالمر الذى مر ذكره أيضًا وليستميل معه عربان غزة، وحمل معه رسائل من الخديوى ومن بعض الأعيان إلى رؤساء العربان فى الشرقية، وأن مبلغًا لا يقل عن المبلغ السابق سيصحب القائد الإنجليزى إلى الزقازيق وبعد أن سلم الضابط أوراق المرور إلى القائد ذهب إلى السويس لمقابلة بالمر، وقد قطع سلك التلغراف الذى يصل بين مصر والأستانة، وكان هذا الشطر على الأقل صحيحًا، فإن قائد الفرقة البحرية فى القناة، أخذ المبلغ من (جيل) وسلم منه أربعة آلاف جنيه إلى بالمر وحجز الباقى وأرسل معه جيل وضابطًا آخر فقتلوا جميعًا بين العربان.

وكان مركز الدسائس فى الإسكندرية فى مكتب يسمى "قسم المخابرات العسكرية" وكان يجتمع فيه كثير من الإنجليز من موظفى الحكومة المصرية ومن المقيمين بمصر.

ثم أدرك العاملون على ضعضعة الجيش بالخيانة والدس أن توزيع النقود باسم الإنجليز لا يفيد وعرفوا مبلغ فعل المال فى النفوس فأخذوا فى توزيعه باسم الخديوى والسلطان واختير لبث روح الخيأنة من يسمى الحاوى الطحاوى وكان أحد ثقاة عرابى، فكان الحاوى يعظ إخوانه العربان وينصح لهم بعصيان عرابى ويهول عليهم قوة الجيش الإنجليزى وكانت القيم التى تدفع للأفراد تتفاوت من جنيهين إلى ثلاثة، وكان عرابى لا يقتنع بخيانة العربان وكان الحاوى يحتفظ بثقة عرابى فيخبره ببعض حركات العدو على وجه الصدق وكان عرابى يأتمنه ويفضى إليه بما عنده.

ولما كانت واقعة القصاصين كانت الخطة كما ينبغى، وكان يجب أن تزحف الجنود المصرية فى الساعة الثانية بعد منتصف الليل على الجيش الإنجليزى، فما راع القواد المصريين إلا وجود الفرق الإنجليزية زاحفة عليهم وآخذة جميع الطرق فى الساعة الأولى وقد جرح على فهمى باشا وراشد باشا وانهزم الجيش، وكان سبب هذا الفشل جواسيس العربان الذين أطلعوا الإنجليز على سر الخطة المصرية، وكانت الخيانة قد نفذت فضلاً من ذلك إلى قلوب كثير من الضباط بسعى بعض الأعيان ورسل العربان؛ ولله كما قالوا جنود من الجنيهات الإنجليزية.

وبلغ من غفلة عرابى وإصراره على الثقة بالعربان أن جاءه فى ١١ سبتمبر من ينبئه بخيانة العربان فأبى أن يصدق قائلاً: إنهم مسلمون.

وفى اليوم التالى (١٢سبتمبر) أنبئ عرابى بأن الإنجليز سيضربون التل الكبير ويزحفون إلى بلبيس - وكان الفرنسيون قد حصنوها من قبل - ليأخذوا هذا الموقع ويقتحموا الطريق إلى القاهرة فإنه مفتاحها، فاقتنع عرابى بصحة الخبر وأرسل إلى طلبه باشا يطلب منه إرسال فرقة من الجنود لتكون فى التل الكبير صباح الثالث عشر من سبتمبر فجاءت الفرقة ماشية ووصلت إلى الزقازيق فى صباح اليوم المذكور ولكن بعد الهزيمة!

ويقول أحد الضباط الذين شهدوا معركة التل الكبير إنه فى الساعة الثانية بعد نصف الليل لم يشعروا إلا والعربان يصيحون ويصرخون والنار تضربهم من كل ناحية، فلم يعرف أحد من معه ومن عليه، وعم الاضطراب وانهزمت الجنود الحديثة فكان الإنجليز يقتلونهم كأنهم فى الصيد، وثبت ثلاثة آلاف جندى وقاوموا واستبسلوا ففنى نحو نصفهم، وكان بعض الضباط الفارين يعجز عن المشى وهو فار لثقل النقود التى كان يحملها وقد نهب السودانيون كثيرين منهم، فباءوا بالخزى والفقر.

وكان عرابى يرى أن يطيل زمن الحرب على رجاء أن تتدخل الدول فى الأمر ولكن أولى الرأى نصحوه بغير ذلك بعد عودته إلى القاهرة فسلم.

قال الأستاذ الإمام فى مذكرته لمحاميه بعد اعتقاله: "وفى أثناء ذلك - أى أثناء الحرب - طفق العلماء يقرأون البخارى فى الأزهر ومسجد سيدنا الحسين ويدعون بالنصر لعساكر عرابى وبالهزيمة للإنجليز، وكان إمام الخديوى الشيخ صالح العالم الإبيارى فى طليعة الملتهبين غيرة ووطنية فنشر قصيدة فى غارة التتار على بغداد فى أيام الخليفة العباسى المعتصم، وهى عبارة عن دعاء وابتهال، وقد أضاف إليها أبياتًا من نظمه، فكان من الناس من يقرؤها ويتلوها بعد قراءة البخارى وقد طلب إلىّ أن أنشرها فى الجريدة الرسمية حتى يطلع عليها الجيش أيضًا، وكان عمله هذا مشروعًا وقد تبرع الأمراء والأعيان والعلماء وسائر أفراد الحاشية الخديوية - حتى النساء - بالخيل والحبوب والنقود والميرة اللازمة للجيش وأظهر المديرون والموظفون على اختلاف مراتبهم غيرة ووطنية وحمية فى جمع الميرة المطلوبة وحشد المتطوعة للجيش ولسائر الأشغال العسكرية.

وقد أرسل عثمان باشا غالب مدير أسيوط فى ذلك الزمن بضعة ألوف من أرادب الحبوب من مديريته ما عدا الخيول وغيرها من الحيوانات وقام بأمر التجنيد بهمة ونشاط استحق عليهما ثناء وزارة الحربية، وها هو ذا الآن رئيس بوليس العاصمة بأمر الخديوى. وكذلك خليل بك عفت الذى عين مديرًا بأمر وزير الحربية فأظهر غيرة ونشاطًا استحق عليهما الشكر الجزيل فى الجريدة الرسمية وهو الآن مدير المنيا بأمر الخديوى.

وقد بذل من أذكر أسماءهم فيما يلي أموالهم بسخاء فى سبيل الحرب إما مباشرة وإما بواسطة دوائرهم وهم:

البرنسيس جميلة أخت الخديوى وحرم المرحوم سعيد باشا.

خيرى باشا الأمين الأول.

على باشا مبارك وزير الأشغال الآن.

يوسف باشا جدوى أحد أعضاء لجنة التموين.

محمود بك كاتب وأمين أسرار الخديوى.

على حيدر باشا وزير المالية.

وأسماء هؤلاء وردت فى أعداد الجريدة الرسمية، وإذا كانت سجلات المديريات لا تزال موجودة فيمكن استقراء ما تبرع به كل واحد منهم بالتحديد.

وقد رأيت الناس من فلاحين وبدو ذاهبين إلى الحرب برضاهم واختيارهم متشوقين لمقاتلة الإنجليز، وقد شمل هذا الحماس الأقباط وكان يشجعهم على ذلك رؤساؤهم، وكان شبان القاهرة يمرحون فى المدينة ليلاً يتغنون بمديح عرابى، وفى أى اجتماع ذكرت فيه الحرب كان الناس يبتهلون إلى الله طالبين النصر لجيوشنا".

يريد الأستاذ الإمام أن يقول فلماذا تختصنى الحكومة بالمحاكمة وحدى؟!

حاشية: لمناسبة ما نكتبه عن الثورة العرابية بعث إلينا الأستاذ فخرى أبو السعود برسالة قيمة عنوانها "الثورة العرابية - خلاصة تاريخها ومكانها من النهضة القومية المصرية". وقد قرأناها بعناية فألفيناها وافية جداً على صغرها، ملمة بالحقائق التاريخية، محيطة بدقائقها مع الإيجاز، جديرة بعناية القراء، وهى فى ست وتسعين صفحة؛ فنشكر للأستاذ هديته، ونثنى على دقته. (المازنى)

"فى الصيف" للدكتور طه حسين[٦٥]

(١)

قال بعض النقاد عن قصة "قسيس ويكفيلد" إنه لو لم يكن فيها سوى الفصول الثلاثة أو الأربعة الأولى لكانت حَرية بالتخليد بين قصص العالم عالية على الزمن، ولست أذكر اسم القائل لأرويه، ولكن الكلمة ظلت عالقة بذهنى مذ قرأتها - منذ كم! لا أدرى! قل عشرين سنة أو أكثر أو أقل، وهل للسنين فى عمر الواحد منا حساب؟ ليست كل سنة ككل سنة ولا كل يوم ككل يوم وإن كانت كلها فى حساب الزمن سنين واياماً إذا كان هناك شىء مستقل عن حياتنا اسمه الزمن، أو كان للسنين والأيام عنده حساب، ويا رُبَّ يوم هو أحفل من عام؛ لكثرة ما يحشد فيه من زمر الخوالج بأنواعها وألوانها، وعلى كثرة ما عشت أو قلته - فما أدرى أأستكثره أم استقله - أرانى أحياناً أحس كأنى وليد وابن أيام، وأحياناً أخرى يثقل على نفسى عبء التجاريب والإحساسات والخواطر فيخيل إلىّ أنى أخو موح أو صنو آدم، وأنى شىء قديم - قديم - كالجبال، وأنه قد آن جداً أن تخسف بى الأرض، ولا يحسب القارئ أن هذا مجرد خيال أو شعور خفيف يلم بالنفس ثم ينقشع، كلا، فإن أثره يبدو فى لون الخواطر وفى أسلوب التفكير وفى النظرة إلى الدنيا والناس، وفى لبسى للحياة بل حتى فى المشية والتحية فأنا أنا - فيما أحس - صبى يعدو ويطفر ويضحك لدنيا لا يفهمها ويعبث بما يتناوله حسه أو عقله؛ ولا ينقصه ليكون صبياً فى رأى الناس، إلا كرة يلعب بها فى الطريق وإلا أن تكون يداه وثيابه ملوثة. وطوراً أرانى شاباً تتدفق

---

(٦٥) نشرت فى "السياسة" فى ٧ فبراير سنة ١٩٢٢ (ص٣).

الدماء في عروقه حارة فأقبل على الحياة وأسوم سحر اللهو وأفعل ما يفعل المرء بشبابه غير مكترث للعواقب أو جاعل بالى إلى الخير والشر والفضيلة والرزيلة، وما احتفال الشباب الجامح بخير أو شر؟؟ وتارة أخرى أرانى فى حاشية طويلة عريضة من الذكريات - النفسية والعقلية - فأحس أنى قد أمسيت شيخًا هرمًا ويبدو لى كأن قناتى تقوست وكأن عودى قد جف وزايلته النضارة والمرونة، ويبلغ من شدة إحساسى بذلك أن أزر جفونى وأنا أنظر كأنما قد ضعف بصرى، ويخيل إلىّ أن فى رأسى ذخيرة من حكمة التجارب التى يفيدها طول العمر والنظر، وأصدف عن الملهيات وأروح أخفف عن النفس وأتقى أن أحمل عليها فما تطيق الشيخوخة الإرهاق كإطاقة الصبى، وأجعل وكدى أن أدخر قوتى ونشاطى وحيويتى لأن الإنفاق منها يكون انفاقًا من القليل الباقى من رأس المال. وهكذا.

كذلك قلت حين قرأت كتاب صديقى الدكتور طه "فى الصيف" فلو لم يكن فيه إلا هذه الصفحات الحية المفرقة بين دفتى الكتاب؛ لكانت حسبه مخلداً لاسمه بين أكبر الكتّاب، ولست ممن يعنيهم - الآن - فرق ما بين الثقافتين السكسونية واللاتينية، وإن كان لى فى هذا رأى أشرت إليه فى كتابى "قبض الريح"؛ وصحيح أنى بطبيعة تربيتى وتعليمى واطلاعى أوثر الثقافة السكسونية وأفضلها على اللاتينية، وأراها أصح وأقوم - وأعمق وأصدق وأسلم أيضًا - ولكنى برمت من زمان طويل بهذه المباحث وانصرفت عن تعنية نفسى بها، لأنى اقتنعت بأنى لا أحسنها، وعرفت من نفسى قلة الصبر عليها وقصر الباع فيها، وصرت أقرأ الكتاب أو الديوان، بالروح التى وهبتنيها الحياة وهذبها أو صقلها التحصيل الخاص، فإذا أعجبنى فبها وإلا ألقيته ولم أعد إليه، وليس معنى هذا أن هذه البحوث لا قيمة لها، كلا فإنها لازمة للهداية، والذين انتهوا منها إلى نتائج خليقون أن يفضوا بما وصلوا إليه ليرشدوا الذين يحبون أن يسيروا على الدرب، ثم إنها لازمة أيضًا لإصلاح الأدب وإمداده بعناصر القوة والصحة وتنقيته من شوائب الضعف بضروبه المختلفة، غير أنى لا أعرف لى طاقة على هذا كما أسلفنا فليعذرنى صديقاى الأستاذ العقاد والدكتور طه إذا أحجمت عن النزول إلى حلبة لن يطرب قلبى فيها أن ألمح ابتسام الناس وهم ينظرون إلى ظلى.

إنما [تعنيني] من كتاب الدكتور طه "في الصيف" صفحات حية؛ ولست أبالي رأيه في شيوخ الأزهر وقساوسة النصارى؛ فما لهؤلاء وأولئك قيمة عندي، وأنا أديب لا مصلح، ولم يوكلني الله بالدنيا ولسطر واحد جميل أو قوي خير عندي من ألف سنة قضاها الأزهر والكنائس في الدنيا، فليقل الدكتور طه في ذلك ما شاء وليكتب فيه ثلاثين أو أربعين أو مائة صفحة، وليصدح بحب باريس وليتغن بأهل باريس ولذاته ومتعه الذهنية في باريس فلست أحبها أو أحب مادحيها، وقد عبرت ما كتب في ذلك بسرعة وقلبت صفحات منه دون أن أقرأها، حتى بلغت قوله في آخر الكتاب يصف أوبته إلى مصر وبيته ويقول مخاطبًا ابنه:

"فلم تكد تبلغ الدار حتى هششت لها واندفعت إليها فرحًا مرحًا يملؤك الجذل وتشرق في وجهك البهجة والسرور، وتأبى أن تصعد معنا إلى حيث تزيل عنك وعثاء السفر الطويل حتى تدور في الحديقة دورة أو دورتين لترى هل نما الشجر وأورق؛ وهل ازدهى الزهر وتألق مذ فارقت هذه الدار حتى إذا بلغت من ذلك ما تريد فوجدت شيئًا وفقدت أشياء وأحسست رضى وأحسست سخطًا صعدت فلم تلتفت إلينا ولم تسأل عما نحن فيه وإنما أسرعت إلى حجرتك لتربح هذا الدب الذي رافقك في رحلتك.. وعاد معك إلى مصر وأنت لا تشك في أنه قد وجد من اللذة في هذه الرحلة مثل ما وجدت... إلخ".

هذه صورة جميلة ترجح عندي بما قال في الأزهر وشيوخه والكنائس وقساوستها، وباريس وفنونها، ثم أقرأ هذه "الصورة" الحية أيضًا:

"أتذكر (يريد ابنه) يوم ذهبنا إلى فونتنبلو لنزور القصر وكنت قد اصطحبت دبك هذا، فلما بلغنا المحطة تقدمت إليك أمك في أن تدعه مع ما كان معنا من متاع حتى لا يشق عليك ولا يصرفك عن جمال القصر وما فيه؛ فأذعنت كارهًا، ولكنك أظهرت تجلدًا واحتمالاً لهذا الفراق حتى إذا مضينا وبعدنا عن المحطة أجهشت بالبكاء وأغرقت فيه؛ فلما سألناك عما يبكيك أجبت أن الدب لن يرى القصر فعدنا أدراجنا وزار الدب معك هذا الأثر العظيم؟".

ثم أقرأ هذه "الصورة" أيضًا:

"أتذكر (يريد ابنه أيضًا) يوم كنا في جرارمير وكنت أحدثك بحديث أنكرته لغرابته وإغراقه في الخيال، فأبيت أن تصدقه أو تطمئن إليه، فألححت عليك، في ذلك فلم يزدك الإلحاح إلا إغراقًا في الإنكار وخاصمتك حينئذ وأعلنت إليك أني لن أداعبك منذ اليوم ولن أتحدث إليك إلا جادًا، وأنت صلب الرأي كأبيك، لا تذعن للوعيد ولا يخيفك النذير، فأعرضت عنك وأعرضت عني وقضينا في ذلك يومًا وبعض يوم لم أقل لك شيئًا ولم تقل لي شيئًا، ولكن أختك أقبلت محزونة فأنبأت أمها بأنك ضيق بإعراضي عنك لا تنشط للعب لأني لا أداعبك ولا أدعوك باسمك الذي كنا نحب أن ندعوك به. فتوسطت حينئذ أمك فأصلحت بيننا وأعادت إلى ثغرك الابتسام وأعادتك إلى ما كنت تحب في لعب ومرح؟ سل أمك يا بني فستنبئك بأني لم أكن أقل منك شقاءً بهذا الإعراض وبأني كنت أشكو إليها بينما كنت تشكو أنت إلى أختك".

ثم قوله في عقب هذا – وما أبرعه ختامًا للكتاب:

"أتذكر هذه القصة؟؟ إنها تصور ما بينك وبيني من حب قد علمك أن تقبل مني كل ما كنت أتحدث به إليك بما فيه من خيال وما فيه من إحالة. لقد تعودت ألا تراني إلا باسمًا لك، ولكنك ستنمو وترى أن ابتسام الآباء لأبنائهم الصغار كثيرًا ما يخفي اكتئابًا وحزنًا، وسترى في هذه الفصول نفسي يا بني فتعلم أن ما كنت أمنحك من ابتسام ورضى، وما كنت آتي معك من ضروب اللعب والدعابة لم يكن خالصًا كابتسامك ورضاك، ولا صفوًا كلعبك ودعابتك، وإنما كان يخفي من ورائه حزنًا واكتئابًا ما كان لك أن تراهما صبيًا وما ينبغي لك أن تجهلهما رجلاً وما أسعد الأب يثق بأن ابنه يحبه محزونًا مظلم النفس كما يحبه مسرورًا مشرق الفؤاد".

وفي الكتاب صفحات كثيرة من هذا الطراز الإنساني الحي، وليس ما أوردناه فلتة مفردة، فهل يأذن لي صديقي الدكتور أن أقولها له في صراحة سأقولها وأجري على الله وأمري إليه أيضًا، ذلك أن الدكتور طه قصصي بارع وأديب روائي من الطبقة الرفيعة،

وعلى سمو المـنزلة التى ارتقى إليها بين طبقة العلماء الأدباء والأدباء العلماء؛ فإن خيراً للأدب المصرى – فى رأيى – أن ينضو عنه بردة العلم ويتناول قلم القصاص؛ وأحسبه يوافقنى على أن كتابه "الأيام" سيبقى على حين قد يبقى أو لا يبقى "حديث الأربعاء" أو "فى الأدب الجاهلى". وأرجو ألا يرى فى هذا تنقصاً للكتابين ولرأيى هذا أسبابه عندى وسأحاول أن أسوقها فى كلمة أخرى وعسى أن يسعفنى البيان.

"فى الصيف" للدكتور طه[٦٦]

(٢)

قد تكون معرفة النفس - أو لا تكون - رأس الحكمة وجماع الفلسفة، ولكنها على الحالين أشق المعارف، والطريق إليها تيه مضل، لا معالم له، ولا نجوم فى سمائه، ولا آيات ولا سمات ولا شيات ولا شىء على الإطلاق، وعلى كثرة ما تنفع المرء معرفته بالناس ودرسه لهم - إذا وسعه أن يعرفهم - فقلما يجديه ذلك فى معرفة نفسه؛ لأن الطبيعة لا تلتزم فى الناس ما يلتزم الشعراء من الوزن والقافية والروى، وليس للحياة قوالب ولكن لها قوانين وسننا، أعنى أن الناس لا يجيئون على طراز واحد ولا يكون بعضهم صوراً معادة من البعض الآخر، كما تخرج المطبعة آلاف النسخ من الكتاب الواحد، ولو كان الأمر كذلك لكان توالى الأجيال عبثًا ولكانت الحياة نفسها عقيمة، بل لكان فرد واحد حسب الدنيا من خلق يتكرر ولا يتغير! وفى هذا يقول كذلك الأطباء إن كل مريض كتاب وحده، يعنون بذلك أن لكل واحد مزاجه وبنيته واستعداده وأنه فى هذا لا يشبه سواه. ومن أجل هذا كان أعرف الأطباء بك أقدرهم على مداواتك إذا قدر أحد على ذلك. وأحسب أن أسعد الناس وأرخاهم [لببا] الذين يغمضون عيونهم عما فى نفوسهم ولا يفتحونها إلا على سواهم. من هؤلاء البلداء والثقلاء، والسعداء على العموم، أما الذين لا يفتأون يديرون عيونهم فى نفوسهم، ليجسوها ويختبروها ويقفوا على ما فيها ويطلعوا على أغوارها ويمتحنوا قوتها ويعرفوا ضعفها ويقيسوا قدرتها إلى آمالها - هؤلاء هم الأشقياء حقًا! ودرس النفس [يكوى] الغرور؛ فإما أفاد التواضع

(٦٦) نشرت فى "السياسة" فى ٩ فبراير سنة ١٩٢٣ (ص١).

وإما أفاد التمرد، وقد يفيدهما معًا؛ والتواضع والتمرد درجات متفاوتة تقع بين طرفي النكوص أو الانخذال أمام فرط الإحساس بالضعف وإرباء ذلك على الإحساس بالقوة والتقحم على الخلق ومحاولة العصف بالدنيا. فمن الناس من يفضي به درس نفسه إلى نفض يده مما كان يهم به أو الزهد في المساعي أو إلى غير ذلك مما هو منه بسبيل، أي إلى الهزيمة قبل أن يمد يدًا أو ينقل رجلاً، ومنهم من يمضه ويثيره ما يعرفه من نفسه ويلهبه بأحمى من السياط فيتمرد وينطلق كالإعصار - وبين هؤلاء وأولئك طبقات شتى لا حصر لها.

مرت ببالي هذه الخواطر وأنا أقرأ كتاب الدكتور طه حسين "في الصيف"، وقلت لنفسي هذا رجل يحاول - مثلي - أن يعرف نفسه وأقول يحاول؛ لأن الإنسان كثيرًا ما يجيل عينه في ضمير الفؤاد فلا يرى إلا ما يحب أن يرى، وكلنا هذا المخادع نفسه، وقد أثمر درس الدكتور طه لنفسه هذا التواضع الممزوج بالتمرد؛ وهو عندي - وفيما يبدو لي - زوبعة ولكن من نسيم رخاء!! إذا صح هذا التعبير أو أمكن أن تكون من النسيم زوابع، وقد كان قبل أن يسافر إلى فرنسا ويتلقى فيها ما شاء أن يدرس، كالعاصفة الهوجاء، فصقله الأدب الفرنسي ورققه ورده إلى مصر ألين وأنعم وآنق مما ذهب، وإن لم يفقده روح الثورة ولم يصده عن الوثوب، والحق أقول إني ما قرأت للدكتور طه شيئًا إلا شعرت كأنه يكتب وهو جالس على مثل الشوك، فلولا أنه يكبح نفسه ويردها على مكروهها ويلزمها الأناة والسكينة، لجاء ما يكتب صيحات مزعجة كنفخ إسرافيل - حين ينفخ بإذن الله - في الصور.

ففي نفس الدكتور طه ثورة كامنة لا يأذن لها أن تنفجر، ولكنه لا يملك أن يمنع دخانها المتصاعد أو يحجبه عن العيون، وحسنًا يصنع، فإن الانفجار يزلزل النفس كما يزلزل ما حولها، وليس المتفجر بأقل شقاء بنفسه من الناس به، والكبح - على صعوبته وعذابه ومرارته - ليس أعون على اعتدال الميزان وأكفل بالصحة والإصابة فقط، بل هو رحمة مزدوجة.

ومن معرفة طه بنفسه صار عالمًا ومؤرخًا، ونحن نريده أن يتجاوز ذلك إلى ما بعده فيكون القصصى الروائى المفطور، والعلم رواية، وكذلك التاريخ قصة، وليست القصة بأرفع مقامًا من التاريخ أو غيره من أبواب الأدب، ولكن لكل نفس ملكة، وقد أوتى طه ملكة القصاص المطبوع، وإنه لروائى بارع حتى فى أجف كتبه وأنشفها - إذا كانت له كتب جافة - وهل "ذكرى أبى العلاء" و"ابن خلدون" و"حديث الأربعاء" إلا قصص طلية؟ و"فى الأدب الجاهلى" بحث علمى صرف، ولكنه على هذا رواية ممتعة، ولست أقول هذا، اليوم فقط، فقد قلته لما صدر كتابه "فى الشعر الجاهلى" وثار به الحمقى والدساساون والمشعوذون والحاقدون.

وتمتاز لغة الدكتور طه بالسهولة وعدم التكلف وهو مرن الأسلوب متدفقه، ولست أعرف أسلوبًا يكثر مقلدوه ويندر مجيدوه كأسلوب الدكتور طه، ذلك أنه - لفرط سهولته وسلاسته واختفاء كل جهد فى إرساله، مع وضوح الأثر الذى يتركه - يغرى بالمحاكاة، غير أن مقلديه يجعلون بالهم إلى ظاهره البسيط ويغيب عنهم ما فيه من الفن، فإذا ذهبوا يحاكونه لم يجيئوا بشىء وليس أشد عبثًا من حكاية الأساليب، لأن الأسلوب صورة من النفس؛ والمرء يصدر فيه عن مزاجه وطريقة تفكيره والوجهة التى يتناول منها المسائل، وعن وحى الروح، أما الألفاظ فلا قيمة لها فإنها ملك مشاع ومتاع عام. وكل خصائص الأسلوب الذى انفرد به الدكتور طه لها أسبابها الطبيعية المفهومة، وقد بينت هذه الأسباب فى "قبض الريح" فلا حاجة بى إلى تكريرها أو العود إليها.

ولأسلوبه هذا كل المزايا التى يتطلبها فن القصة، وإذا كانت بأحد حاجة إلى دليل فالدليل كتاب "الأيام" فإنه صورة رائعة لم يخرج الدكتور طه أرفع منها إلى الآن، وماذا تريد من القصصى أكثر من البساطة وقرب المتناول وسهولة المنحى وحسن العرض وإجادة التصوير والتحليل والقدرة على التأثير؟؟ وقد خلق الدكتور طه محاضرًا أى محدثًا أى قصاصًا، وشاء الله أن يكون أسلوبه فى الكتابة هو أسلوب المحاضر، وعلمه بالحياة والدنيا والناس واسع، وقد عودته مباحثه الأدبية أن يلح [بالجوانب] المتعددة للموضوع الواحد؛ فليست تنقصه روح الإنصاف أو العطف، وصحيح أن فى أسلوبه

سخراً ومرارة، ولكنه معتدل فى ذلك عظيم الاتزان، وعلى أن السخر لا ينافى فن القصة، كما أن فن القصة لا ينافى صفة العلم، فقد كان ماكس نورداو عالمًا كبيراً ومفكراً ضخمًا وكان إلى هذا روائيًا، وكذلك جورج إيبر العالم الأثرى، وكان كنجسلى أستاذاً للتاريخ فى إحدى الجامعات، ولكنه يذكر برواياته لا بدروسه فى التاريخ، وحسبه أنه الذى كتب رواية "هيبيشيا" التى صدر عنها أناتول فرانس واستمد منها موضوع (تاييس) جملة وتفصيلاً.

ولست أحاول أن أقنع صديقى الدكتور طه بأن يقبل على كتابة القصص فإنه روائى على الرغم منه، وهو يدرك ذلك، وينساق مع اتجاه فطرته شيئًا فشيئًا، ولذلك يخرج كل ما يكتبه جميلاً مقبولاً حتى ولو خالفته فى رأيه.

"شــوقـى"(٦٧)

للأستاذ أنطون الجميل بك(٦٨)

فى أخريات ١٩١٢، أو أوليات ١٩١٣ - لا أذكر على وجه الدقة - كنت لا أزال مفتونًا بنفسى، وكنت أقول الشعر، غير أن غيمة من الشك جمدت فى سماء حياتى وأظلتنى فنظمت قصيدة أثبتها هنا لا لأنها جيدة أو رصينة، بل لأنها تطلع القارئ على مبادئ ذلك الشك الذى انتهيت منه إلى اليقين بأنى لا أحسن الشعر، وأن خيرًا لى أن أنفض يدى منه، وعنوان القصيدة "أنشودة الشتاء":

* * *

قد ذهب الحول بالربيع وبالصحو ... وجاء الشتاء مرهوبا

فأى أصواتك القدائم يا قلب ... أناجى بها الشآبيبا؟

وما انتفاعى باللحن أبعثه ... وليس من يسمع التطاريبا؟

أين - وهل ينفع اللهيف أسى ... يزيد وجه الحياة تقطيبا؟ -

غلائل قد نشرتها بيدى ... عن نور عيشى وعدت مسلوبا؟

أنا الذى كنت - لو تصدقنى - ... أكون شيئًا فى الدهر محسوبا

فصيرتنى الخطوب زافرة ... كما أثار الزمان أنبوبا

---

(٦٧) خمس وتسعون صفحة من القطع المتوسط على ورق صقيل مع الشكل ويطلب من مطبعة المعارف (المازنى).

(٦٨) نشرت فى "السياسة" فى ١١ فبراير سنة ١٩٢٣ (ص١).

أعجب للحظ هل مقسمه أراده - ويحنا - أعاجيبا ؟

أجزل من سهمة الرجاء لنا فكل شيء تراه مطلوبا

لكنه قد أخس قدرتنا يا ليت ما شاء كان مقلوبا !

غنى أمانٍ، وفقر مقدرة، فلن ينال الفؤاد مرغوبا

* * *

ولكن هذا الشك فى القدرة بالقياس إلى الأمل، لم يكن فى ذلك الوقت أكثر من هاجس ولم يلبث أن زال عنى وعاودنى الافتتان بنفسى والإيمان بشاعريتى، فأردت نشر القصيدة، وكنت إذ ذاك مدرساً فى مدرسة دار العلوم، وكنت أنشر مقطوعاتى فى "الجريدة" و"اللواء"، ولكن مجلة "الزهور" كانت قد ظهرت، وراقنى طبعها المتقن، وعنايتها بالشعر على الخصوص، فقلت أبعث بالقصيدة إلى صاحبها ومحررها الأستاذ أنطون الجميل، ولكنى خفت ألا يعنى بها أو يكترث لها عنايته بشعر المشاهير المقررين، فنسخت له القصيدة وكتبت إليه رسالة رجوت فيها منه أن ينشرها، وسألته عن قيمة "الاشتراك" وابتسمت وأنا أقول لنفسى: هذا السؤال "طعم" السمكة، وستغرى صاحبنا الرغبة فى "قيمة الاشتراك" فينشر القصيدة.

ولكن الأستاذ الجميل لم يغره "الطعم" فبعث لى برسالة يعتذر فيها ويرجو ألا أحمل عدم النشر على محمل سيئ، وينبئنى أن قيمة الاشتراك - إذا كانت ذاكرتى لم تخنى - خمسون قرشا. فاحتملت هذه الصدمة، ولم أبعث إليه بالاشتراك - لا، ولم أقرأ مجلته بعد ذلك!

هذه الحادثة من الأسباب التى زادت شكى فى قيمة شعرى، ولهذا لم أنسها؛ فكففت عن النشر زمناً وإن لم أكف عن النظم؛ لأن الغرور يجمح بمطيته أعنى بالشباب، وتظل المطية تركض وتخب وتوضع وتلهث حتى تسقط من فرط الإعياء، ولا يعود يجدى فى احتثاثها سوط الغرور الملهب. وطبعت الجزء الأول من ديوانى

ولكنى حرصت على طى هذه القصيدة التى أبى أن ينشرها الأستاذ الجميل فلم تظهر إلا فى الجزء الثانى أى بعد ثلاثة أعوام طوال تنازعنى فيها الإيمان بنفسى - والإيمان بالنفس حبيب إليها - واليأس منها، وهو عذاب يظل المرء يرجئه ويهرب منه ويشيح بوجهه عنه حتى لا يبقى مفر من مواجهته، وفى خلال ذلك احتجبت مجلة "الزهور". واتفق أن ظهر الجزءان الثانيان من ديوان العقاد وديوانى فى شهر واحد، وكانت الدنيا تزلزلها الحرب، وكان الناس مشغولين بأنبائها مصروفين بها عما عداها، فكتب عنا الأستاذ الجميل مقالاً طويلاً فى الأهرام أثنى فيه علينا أجمل ثناء وأكرمه وأنداه على القلب، هذا ولا معرفة بيننا ولا صلة إلا ما نقرأ له أو يقرأ لنا؛ فأكبرت فى الرجل روح الإنصاف وتقدير الواجب تقديراً يدفعه إلى أدائه متبرعًا، غير أن ثناءه العلنى المنشور لم ينسنى الدرس الذى استخلصته من رسالته الخاصة، ولعله لم يعنه ولم يقصد إليه غير أن رسالته صادفت حالة نفسية موافقة فعظم وقعها فى نفسى، وجاء ثناؤه بعد ذلك فجعل المعنى الذى ينطوى عليه إهمال النشر أبرز وأوكد.

ودارت الأيام واتصلت الأسباب بينى وبين الأستاذ أنطون بك الجميل، فلم أزدد به معرفة؛ فقد عرفت منه ما أريد وبحسبى هذا، ويكفيك من الصديق أن يكون عونًا لك على درس نفسك، وهذا كتابه أمامى وضعه بعد أن توفى شوقى وزالت أسباب المحاباة وانمحت دواعى المصانعة والمداجاة، ومن عساه يحابى الآن؟ فالكتاب ثمرة الشعور بالواجب وروح الإنصاف، كما كان ذلك المقال الذى كتبه عن العقاد وعنى، وقد ترضيك أو لا ترضيك جملة رأيه فى شوقى، وقد توافقه أو تخالفه فى بعض التفاصيل المبثوثة فى الكتاب، وقد تروقك أو لا تروقك طريقة البحث وأسلوب التناول والناحية التى ينظر منها إلى الموضوع ولكنى لا أبالى هذا ولا أحفله، فإن لكل أحد أن يذهب فى شعر شوقى مذهبه؛ والإلحاح فى إيجاب الذم أو المدح منفر ومثير، ولقد كان من أغلاط شوقى رحمه الله ولعه بالمدح ولجاجته فى طلبه وضيق صدره بالمزاحمة؛ فأثار ذلك عليه ما يثير، وحب المرء للمدح طبيعى، ولكن غير الطبيعى، والذى لا سبيل إليه، أن يحاول الإنسان أن يجعله وقفًا عليه، وأن يحرم غيره نصيبه الذى يستحقه، فليس يضير رأينا فى شوقى - أعنى رأى العقاد ورأيى - أن يخالفنا الأستاذ الجميل بك فيه،

وعلى أنه يوافقنا على كثير ويلتقى معنا فى مواضع، ولكنه رجل يؤثر الحسنى ويجنب اللفظ الخشن إذا أسعفته الكلمة اللينة، وأحسب ذلك لأنه لم يحتج أن يخوض الحرب التى خضنا فى صدر أيامنا، ولم يضطر أن يضرب ويتلقى الضربات، وأن يصيب ويصاب، وكل حرب عنيفة، لا رفق فيها ولا هوادة، وعزيز أن تضربنى بالسيف، وأن تتوقع منى أن ألثم خده.

فهو يقول مثلاً: "لم يشد إلى قيثارة الشعر وترًا جديدًا" ثم يستدرك للتخفيف والتهوين فيزيد أنه "عرف أن ينطق الأوتار القديمة بنغمات جديدة مستعذبة".

ويقول فيما اتهم به من أنه مداح السلطة أيا كانت "ونعتقد أنه لابد من شجاعة فى النفس للإقدام على ذلك، كما أنه لابد من كثير من البراعة والمرونة واللباقة لهذا التغيير فى الشكل دون التغيير فى الجوهر، حتى يتم ذلك بلا تبجح ولا تعصب للمبدأ الجديد. والتعصب – كما هو معروف ملازم عادة لمن يذهب مذهبًا جديدًا فى السياسة أو فى الدين وهذا ما عرف شوقى أن يتجنبه". ويقـول أيضًا: "وعلى ذلك يمكن القول إن مدائح شوقى صور واستعارات شعرية لا عقيدة سياسية".

وقال عن حكمته أو فلسفته: "امتازت حكمه واجتماعياته بسهولة معناها ورواء مبناها فجمعت على أبهة الحكمة وجلالتها عذوبة الحياة وطلاوتها. فلسفته فى الحياة فلسفة باسمة لا عبوس فيها ولا تجهم فهى الحكمة تحمل زهرًا، وهى فلسفة هينة سهلة لا تصعيب فيها ولا تعقيد بل تبدو وضاحة المذهب سهلة المطلب".

وأحسب أن معنى هذا أن لا فلسفة هناك ولا حكمة ولا عمق وإنما هى حكمة رجل الشارع وفلسفة العوام.

ويقول أيضًا: "وهناك وتر خامس فى قيثارة شوقى متنوع الأنغام أسميه من باب التعميم وتر الشاعر الخاص المشدود إلى نياط قلبه.." ثم ذكر رأى النقاد فى أن هذا النوع فى شعر شوقى قليل مطروق وقال: "أما قلته فقلة نسبية أى بالمقارنة بكثرة ما نظم، ولكن هذا القليل النسبى فى الحقيقة كثير يؤلف وحده ديوانًا كاملاً، وأما رميه بالابتذال فقد يكون مرجعه إلى أن شوقى لم يعمد إلى تحليل عواطف النفس وميولها

وأهوائها تحليلاً دقيقًا؛ فقد رأينا أن فلسفته في اجتماعياته فلسفة سهلة خالية من التعقيد، وكذلك جاء وصفه لتلك العواطف والأهواء وصفًا طبيعيًا خاليًا من الإيغال في التفصيل والتعمق في التحليل".

ويقول في غزله: "وهو في غزله على وجه الإجمال، لا يخرج عن المألوف قديمًا عند الشعراء من وصف طول الليل ونواح الطير والدمع والزفرات والشباب والمشيب والعيون والقلوب والخدود والقدود والكناية بالدر عن الثغور وبحلوكة الليل عن سواد الشعور.. تشابيه واستعارات وكنايات قديمة ولكنه يكسوها شيئًا من الجدة بالقالب الذي يفرغها فيه".

ولا أدري ما حاجة الدنيا والناس إلى من لا يزيد وترًا على الأوتار القديمة ولا يجيء بأكثر من حكمة العامة ولا يتجاوز تقليد القدماء فيما خلفوه ولا يغوص في النفس أو في الحياة على حقائقها؟؟

ثم يختم الأستاذ الجميل بك بحثه بقوله: "وليس من الحكمة والمنطق في شيء أن نندب الشعر والأدب بعد فقد ذينك الشاعرين".

فكأنه قال.. ولكن ما الحاجة على الشرح؟؟

وبعد، فإن كتاب صديقنا الأستاذ الجميل بك ينقد ولا يذم، ويقول كل ما قلناه بأعذب لفظة وأرق عبارة، وأبعدها عن الجرح والإيلام، وتلك مزيته وهذا أسلوبه أبدًا، فهنيئًا له هذه الروح الطيبة واليد المترفقة والقلب العطوف والدقة في التمييز.

أهل الكهف

رواية تمثيلية للأستاذ توفيق الحكيم(٦٩)

ماذا ترى يكون إحساس الرجل إذا نام مائة سنة أو مائتين أو ثلاثمائة – أو ماتها – ثم أفاق وعاد إليه الشعور بما حوله، أو رُد إلى الحياة؟ ويستوى أن ينام المرء أو يموت، هذه المائة أو المئات من السنين – كلتاهما رقدة ينقطع فيها عن الدنيا ويتخلف عن ركبها الذى لا يتلبث أو يتوقف فى ليل أو نهار، ولا يحس فيها بنفسه وبتيار الحياة الزاخر من حوله، وليس يكفى أن تكون الغيبوبة بضع سنوات، فإن الدنيا لا تتغير فى رأى العين وإحساس النفس فى سنوات قليلة، أو هى تتغير ولكن الحاضر يبقى – ويبدو – قريب الشبه بالماضى ظاهر النسب إليه، فلا يصدم ولا يدهش ولا يجد المرء ما ينكر. ويجب أن يكون الذى ينام أو يموت هذه الحقبة الطويلة رجلاً لا طفلاً؛ لأن الطفل يستوى أن يولد الآن أو بعد عصور وعصور، ولا اعتداد ببضعة أعوام يجرى فيها على الأرض ويلعب، فإنها إذا اتسعت للعب والعبث لا تتسع لتكوين العقل والإحساس ونشوء الصلات بين المرء والناس، وتقرر العادات.

ماذا ترى يكون إحساسه حين يقوم وينظر فإذا كل ما حوله مغاير لكل ما ألف؟ لا اللغة كما كانت على عهده وإن بقيت قواعدها وأصولها واحدة، وظل نحوها وصرفها على ما تعلم، ولكن اللغة ليس كل ما فيها الصرف والنحو وما إليهما، وهى تتغير كما يتغير كل شىء فى هذه الدنيا التى لا يثبت فيها شىء على حال، وتفقد وتكسب،

(٦٩) نشرت فى "البلاغ" فى ٧ مايو سنة ١٩٣٣ (ص٢).

وتلين أو تصلب وتجمد، حتى الألفاظ تخلع من المعانى والدلالات قديماً وتستجد غيره، كالشجر يسقط عنه الذاوى ويثبت فيه الجديد الرفاف، وحتى تعليق الكلام بعضه ببعض على معاني النحو يختلف بعد فترات من الزمن، تبعًا لأسلوب التفكير ووجهة النظر، ومن ذا الذى يجرؤ أن يزعم أن العربية التى نستعملها الآن ونكتبها ونقرؤها هى العربية التى كانت أداة التعبير والتفاهم فى صدر الإسلام، أو عربية مصر الإسلامية أو العربية التى كتب بها الناس منذ عشرين سنة لا أكثر؟؟ أو أن عربية مصر هى عربية الشام أو المغرب؟

ولا الثياب يجدها كما كانت، ولا هندسة البناء، ولا تخطيط المدن، ولا نظام الحكومة والاجتماع والمعيشة، ولا العادات، ولا الفضائل والرذائل، حتى الآكال و[الأشربات] لا يعدم صاحبنا حين يكر إلى الدنيا أو يقذف به عليها من الماضى المنسوخ، ما ينكر ولا يعرف، والمرأة لم تعد هى المرأة التى كان – مثلاً – يحجبها فى البيت ويضن على العيون بلحظها، ويسعى ويغدو عليها بالكسوة والطعام والنفقة لها ولأولادها، ولعلها فى هذه القرون قد خلعت الحرائر الموشاة واتخذت زى الرجال وخرجت تعمل وتتصرف، وعسى أن تكون قد زاحمت الرجال وغلبتهم على ما كان لهم وفى أيديهم.

أيكون إحساسه شبيهًا بما يحس الذى ينتقل من مصر إلى الصين أو أمريكا مثلاً؟ لا نظن، وصحيح أن بين أقطار الأرض اختلافًا شديداً وتباينًا عظيمًا، ولكن وحدة الزمن موجودة، والدنيا موصول بعضها ببعض على الرغم من اتساع رقعها وبعد ما بينها، والمرء حين يتنقل يعلم أنه لا بد ملاق غير ما ألف فيعد نفسه ويهيئ أعصابه لتلقى غير المعهود وشهود ما لم يعرف، وهذا التهيؤ السالف يخفف الصدمة ويسلبها العنف ويجردها من القدرة على الرج، ثم إن المنتقل يعرف مما قرأ أو سمع بعض ما سيرى، وأخلق بدهشته على كل حال أن تكون مقطبة بلذة المشاهدة للجديد الذى خرج من بلاده يبغيه وينشد الاطلاع عليه.

وليس كذلك الذى غاب عن الدنيا قرونا ثم بُعث فيها كرة أخرى، فإن المفاجأة تكون تامة والمباغتة من كل ناحية، فأخلق أن تكون الصدمة كأعنف ما يستطيع العقل

أن يتصور، وأحر بأن تكون الرجة فيما يحس من التغير الشامل المفاجئ بلا تمهيد، أشبه بالزلزال لنفسه، وأنت قد تعلم أن الذين طالت أعمارهم وعلت أسنانهم لا يزالون ينكرون الكثير من عادات الجيل الذى جاءوا هم به، ومن أساليب حياته وتفكيره ومن آرائه ونزعاته، هذا وإن كانت صلتهم بالحياة لم تنقطع، فلا مفاجأة ولا مصادمة، ومع ذلك يعز التفاهم فى كثير من الأمور بين الشيوخ والشبان، ويقع الخلاف، ويهب الشيوخ ينكرون من الجيل الناشئ التفاتات ذهنه واتجاهات تفكيره وألوان إحساسه وأسلوب تناوله للحياة، وينكر الجيل الناشيء من الشيوخ تحجرهم وجمودهم ونظرتهم القديمة وهذه القوالب التى صبوا فيها آراءهم وإحساساتهم والتى يريدون أن يفرغوا فيها حياة الدنيا الجديدة. فإذا كان هذا هكذا فكيف يكون فى ظنك مبلغ الإنكار الذى يشعر به المبعوث من نيمة أو ميتة طويلة تراخت عليها قرون طويلات المدد؟؟ أحسبه لا يستطيع أن يتلقى هذه الحياة ويتقبلها ويروض نفسه على غرائبها بسهولة؛ لأنه ارتفع عن سن الطفولة المتهيئة لمثل هذا التقبل.

ولا يسعه أن ينضوى عن نفسه كل ما درج عليه من أساليب التفكير والنظر ومن الإحساسات والعادات؛ لأن هذا كله لا يخلع ويلبس غيره كما تغير الثياب، وقد يتيسر له على الأيام أن يألف ما ينكر فيسكن إليه إذا جاءت الصدمات شيئًا فشيئًا وبينها فترات كافية، أما إذا تلاحقت فى عنف وعند كل خطوة ومع كل لفتة فأحر بالعقل حينئذ أن يطير وأن تعجز المرونة الطبيعية فى الإنسان عن مطاوعة هذا الانقلاب الشامل، والشعور بالغربة كرب عظيم وبلاء شديد لا يقوى على احتماله المرء إلا بجهد قاس، فكيف إذا نظرت فإذا أنت من عالم آخر، يستغربك الناس وتستغربهم، وينكرونك وتنكرهم، وتنظر فلا تجد لك فى الدنيا قريبًا أو نسيبًا أو صاحبًا أو عدوًا ولا تعرف لك معاهد، وتفكر فلا ترى حاضرك موصولاً بماضيك ويختلط عليك أمر الزمن، فالليلة فيما أحسست قرون فيما عرف الناس. وتصور عقلك كيف يعصف به أن يتفق لك أن تعلم أن ابنك مات منذ مائتى سنة وهو فى السبعين من عمره على حين أنك ما زلت فى العقد الثالث أو الرابع من حياتك؟ أى أن ابنك أكبر منك سنًا؟ أيسعك أن تزدرد هذا بغير عناء؟ أيسهل عليك أن تفهمه وتقبله بابتسامة الحكيم الذى رأى من غرائب الدنيا

ما صرفه عن الاستغراب؟ أيكون عجيباً أن يبلغ من عنف الرجة أن يزهد المرء في عالم تغيرت فيه الحياة ومن عليها وأن يؤثر الكرة إلى ما كان فيه والرجعة إلى ظلمة الماضي الذي خرج منه؟

* * *

في هذا الموضوع كتب الأستاذ "توفيق الحكيم" رواية تمثيلية جعل اسمها "أهل الكهف"، وأدارها على قصتهم المشهورة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وفي وسع القارئ أن يدرك بسهولة أنه موضوع يصلح أن يتناوله الكاتب جاداً أو متفكهاً، وقد آثر الأستاذ توفيق الحكيم جانب الجد، وكسر روايته على أربعة فصول صور في الأول منها إفاقة أهل الكهف من هذا الرقاد الطويل، وفي الفصلين الثاني والثالث كيف تلقاهم الناس وتلقوا هم الدنيا الجديدة وعجزوا عن رياضة أنفسهم على غرائبها ومناقضتها لمألوفهم. وصور في الفصل الأخير فرارهم من الحياة وأوبتهم إلى الكهف ولياذهم بظلمته مما لم يطيقوه ثم موتهم فيه آخر الأمر، وأشهد أنه أحسن التصوير، وأجاد رسم الخطوط الدالة.

وإلى القارئ قطعة من الفصل الأخير في الكهف؛ حيث يعودون ويستلقون ليموتوا:

مشلينا (كأنما يخاطب نفسه): الزمن؟ ما هو الزمن؟

مرنوش (يحتضر): مشلينا.. ضع.. يدي.. اليسرى في يد يمليخا (مشلينا واجم) مات المسكين.. ولم.. يعرف الحقيقة.. ومع ذلك.. هل عرفناها.. نحن؟!

مشلينا: ماذا تعني.. يا مرنوش؟

مرنوش: أحلام.. نحن أحلام الزمن.

مشلينا: الزمن يا مرنوش؟

مرنوش: نعم... الزمن يحلمنا.

مشلينا: كى يمحونا بعد ذلك؟

مرنوش: إلا من استحق الذكر فيبقى فى ذاكرته.

مشلينا: التاريخ؟

مرنوش: نعم

مشلينا (فى قلق): أهذا كل ما ترتجيه بعد الموت؟ هو كل تلك الحياة الأخرى؟

مرنوش: نعم

مشلينا (فى قلق): مرنوش. أنت إذن لا تؤمن بالبعث؟

مرنوش: أحمق! أو لم نر بأعيننا إفلاس البعث؟

مشلينا: استغفر الله! أنت الذى عشت كمسيحى تموت الآن كوثنى؟

مرنوش "بصوت خافت": نعم... أموت... الآن.

مشلينا: مجرداً من الإيمان..

مرنوش: مجرداً.. من كل شىء.. عارياً كما ظهرت.. لا أفكار ولا عواطف.. ولا عقائد..

مشلينا: رحمة لك أيها التعس.

مرنوش: مشلينا.. (مشلينا ينظر إليه ولا يجيب) حينا تلحق بى.. ضع يدك.. فى يدى.. اليمين.

مشلينا: حاشا أن أضع يدى فى يد وثنى.

مرنوش: إذن (مشلينا ينظر إليه صامتاً وهو يموت).. الوداع.

(حشرجة ثم صمت).

مشلينا (بعد لحظة): مرنوش (لا يجيب) مرنوش! صديقى! أخى! (لا جواب) مات.. مرنوش. (لينظر إلى ناحية السماء) اللهم ارحمه رحمة واسعة! إنه قانط فقد قلبه ولا يعى ما يقول! (صمت عميق) لم يبق سواى أنا وكلب الراعى. ذهب يمليخا ولم يذكر كلبه (ينادى) قطمير! قطمير! (لا يجيبه سوى الصدى) لعله مات كذلك وهو رابض فلم ينتبه إليه أحد! ولم يستطع المسكين مقاومة الجوع. (لحظة صمت) هو أيضا عاش حياته وذهب كأنه ظل كلب مرَّ فوق حائط! (لحظة) ما الفرق بين قطمير وظله؟ (لحظة تأمل) رباه! أخشى أن يكون مرنوش قد أصاب! (لحظة تأمل أخرى) كلا. كلا. لقد فقد مرنوش البصيرة! إنا لسنا حلمًا. لا. بل الزمن هو الحلم! أما نحن فحقيقة. هو الظل الزائل ونحن الباقون. بل هو حلمنا. نحن نحلم الزمن. هو وليد خيالنا وقريحتنا ولا وجود له بدوننا. إن عقلنا المادى المحدود منظم جسمنا المادى المحدود. آلة المقاييس والأبعاد المحدودة هو الذى اخترع مقياس الزمن. أولم نعش ثلاثمائة عام فى ليلة واحدة فحطمنا بذلك هذا المقياس؟ نعم لقد استطعنا أن نمحو الزمن. تغلبنا عليه" (لحظة) لكن – وا أسفاه! بريسكا – ماذا يحول بينى وبينها الآن؟ الزمن؟ نعم محوناه. ولكن ها هو يمحونا. الزمن ينتقم. إنه يطردنا الآن كأشباح مخيفة، ويعلن أنه لا يعرفنا، ويحكم علينا بالنفى بعيداً عن مملكته. ربى؟ هذه المبارزة الهائلة بيننا وبين الزمن أتراها انتهت بالنصر له؟ (بعد لحظة منهوكًا) آه... لقد تعبت.. تعبت من الكلام ومن التفكير.. ومن الحياة بل من.. الحلم.. هذه ليست الحياة.. بل هى حلم مشوش مضطرب.. يزيده الزمن تنغيصاً وتكديراً.. إلى الحقيقة الصافية الجميلة إذن.. نعم إن الحقيقة لا يمكن أن تكون بهذا الاضطراب.. ولا يمكن كذلك ألا تكون هناك حقيقة.. (لحظة) أشهد الله.. أنى أموت مؤمنًا.. أشهد المسيح أنى أؤمن بالبعث! لأن.. لى.. قلبًا.. يحب (صمت).

* * *

والرواية حسنة الانسجام جيدة الحبك وقارئها يشعر أن وراءها عقلاً مفكراً واسع الاطلاع، ولو عنى بتنقيتها من الأغلاط اللغوية وتهذيب بعض عباراتها لتم له التوفيق. وعلى أني لا أرى هذا يعيبها أو يمنع إكبار كاتبها والشهادة له بالفضل وبمزايا الجد والغوص.

كتاب النثر الفنى للدكتور زكى مبارك[٧٠]

(١)

١ – بين الدكتور طه حسين وبينى

٢ – بين كتابى (الأدب الجاهلى) و (النثر الفنى)

* * *

لم أكن أحسب أن مقالاً كتبته مازحًا مداعبًا، يثير كل هذه الضجة، ويغرى بى الكتاب والقراء جميعًا، ويحرك الأقلام ويطلق الألسنة، ويهيج الدكتور طه حسين علىّ، ولو قدرت شيئًا من ذلك لكنت خليقًا أن أخاف وأحجم عن دعابة جرّت علىّ كل هذا الحرج، بل لطارت من رأسى هذه العصافير المزقزقة التى أزعجت وقوقتها الفارغة سكينة العلماء وأهل الجد الصارم من أمثال صديقىّ الدكتور طه والأستاذ أحمد أمين – إذا كان لهزّال مثلى أن يطمع فى صداقة مثليهما بعد أن ضيع حقه عندهما بالدعاية والاستخفاف بكرامة العلم، ولكن عذرى والله أنى رجل جاهل – على خلافهما – وإنى أحب جهلى، وأسأل الله كل ليلة قبل أن أنام أن يسبغ على ردائه ولا يحرمنى نعمته، أما هما فعالمان جليلان، وقد صار العلم فيهما فطرة وطباعًا وسهل مورده عليهما، وساغت شرعته لديهما، فحسبا الناس كلهم كذلك. وصارا يستغربان أن لا يكون لمثلى

(٧٠) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٨ إبريل سنة ١٩٢٤ (ص٣، ٧، ٩).

فهم وقدرة على الضرب فى هذه الزحمات الشديدة، ولهما العذر، ولكن لى أيضًا عذرى، فإن ما هو في فم أحدهما ماء هو فى فمى حجر أمضغه وفى معدتى حديد أهضمه، ورحم الله أمرأ عرف قدر نفسه.

وقد زعم المشاؤون بالدس والوقيعة أن الدكتور طه حسين حمل عليّ وهاجمنى فى فصل قوى نشرته له الرسالة، فعجبت أن يسعر الدكتور طه حربًا ولا أحس لها هيجًا ولا نفعًا، وقلت كذب الدساسون وصدق ظنى بوقار العلماء وأناتهم وحلمهم، ولكنهم ألحوا فى الزعم وأكدوا وأقسموا فقلت: "يا ناس، حرام عليكم".

قالوا: "والله ما كذبنا، ولا ادعينا، فإن شئت فاقرأ الرسالة".

وكنت قد قرأت الرسالة ووقعت فيها على مقالة الدكتور طه عنوانها "النقد والطربوش وزجاج النافذة" فمططت شفتى وقلت لنفسى: "أمعمعم ما هذا؟ وما علاقة النقد بالطرابيش وزجاج النوافذ؟ أم ترى هو يتفكه؟. لا أظن. فإن الفكاهة لا تشاكل حال العلم ولا توائم ما ينبغى له من الاحتشام والوقار - عند أصحابنا على الأقل".

وانصرفت - لحسن الحظ - عن الفصل، فلما أنبأنى إخوانى الدساسون أن هذا الفصل بعينه هو الحملة عليّ قلت: الحمد لله! لقد نجوت ولما أكد!، والآن وقد مر الأسبوع بسلام وبردت نار المقال وخمدت وقدته فإنى أستطيع أن أقرأه وأنا آمن، وقد كان - قرأت المقال الذى زعموه هجومًا وحملة شديدة - بعد أن فترت حرارته - فلم يصبنى سوء، ولم يتحطم رأسى ولا ورمت لى عين ولا نزف أنف، وما أشك فى أن المقال كان - ساعة خرج من فرن غضب الدكتور - حاميًا، ولو كنت قرأته وهو سخن [لتفصحت][(٧١)] عرقًا من شدة كربه ولوحوحت من كيه، ولكن الله لطف بى ورحم عيالى.

وهكذا أعانتنى بلادتى أو كسلى على استدامة حسن الظن بالدكتور، والنجاة من علقة كنت حقيقًا أن أحقدها عليه، فإن الإنسان إنسان، والحقد فى طباعه، وأين عن

(٧١) كذا فى الأصل وربما يعنى: لتفصدت (المحرر).

طينتنا نعدى، كما يقول ابن الرومى، وماذا كان يجدينى الحقد أو تنفعنى الموجدة. وأنا رجل مسالم مكفوف الأذى لا سيف له ولا رمح؟ نعم كنت فى شرة الشباب وجهالات الصبا شرسًا مشاكسًا، ولكنى الآن ندمان سدمان(٧٢)، ضعيف وديع، أكفر عن سيئاتى بالاحتمال وأستغفر الله بالصبر، ولو ضربنى الدكتور على خدى الأيمن لأدرت له خدى الأيسر، لأنى عرفت أن التنزى(٧٣) إلى السوء أقبح القباحة وألأم اللؤم، وما أكثر ما أقول لنفسى الآن: "يا مازنى مالك والناس.. دعهم يعيشون كما تعيش فإن فى الدنيا متسعا لك ولهم، وبها استغناء عنك وعنهم، وليس أحمق ولا أقل عقلاً ممن يضيق صدره بالناس، ويكره زحامهم له فى الحياة وينسى أنه يزاحمهم كما يزاحمونه، وأنهم يحتملونه على حين يتبرم بهم ويضجر منهم".

ومن كرهى لما تغرى به وتحمل عليه طبيعة المنافسة، تركت كل ما أشارك فيه غيرى عاجزًا يائسًا، وأخليت لهم الميدان أو الجو ليبيضوا ويصفروا وينقروا على هواهم، غير محسودين ولا مزحومين، ومضيت على وجهى فى طريق آخر، إذا كان يتبعنى فيه غير واحد، فإن ذلك آنس للقلب وأنفى للوحشة وأجلب للاطمئنان والأمن والثقة، وعلى أن فى وسعى - إذا مللت صحبتهم، وكرهت جيرتهم - أن أقول لهم: "اسمحوا لى أن أستأذن، فإن لى وجهة أخرى، وأستودعكم الله الذى لا تضيع عنده الودائع، وما كان أشد إمتاعى بكم، ولكن [...](٧٤) قد آذننى بالطلوع من هنا، فأنا إليه ماض، كتب الله لى ولكم السلامة والتوفيق".

وهكذا أفترق عنهم حامدًا صحبتهم شاكرًا عهدهم، داعيًا لهم، فإنى على كل عيوبى رجل عاقل حصيف، ولم أعادى الناس فى غير موجب للخصومة؟ إن الدنيا واسعة بحمد الله، وفيها عند كل خطوة ألف ألف متحول لمن رام اتقاء الخصومات المفتعلة، والمنافسات التى لا ضرورة لها، وقد صرت أعتقد أن اشتغالى بالأدب

---

(٧٢) أى يلهج بالندم (المحرر).

(٧٣) أى الاندفاع إليه (المحرر).

(٧٤) كلمة غير واضحة فى الأصل (المحرر).

إنما كان اتفاقًا، وليس عن طبع وسليقة، ولم أعد أرى فرقًا بين أن يكون الإنسان أديبًا وأن يكون ما شئت غير ذلك - سائق سيارة، أو بائع فجل وكرات، أو عاملاً فى مصبغة، أو تاجرًا أو صانعًا أو حفار قبور، ولست أكتم القراء - إذا كان يعنيهم أن يعرفوا ذلك - أنى أفكر جادًا فى الانصراف عن هذا العبث الذى أزاوله وأزعمه ويزعمه إخوانى أدبًا، والاشتغال بما هو أجدى، فلا يستغربوا ذلك حين يسمعون به فقد بلغتهم، وما ينقصنى إلا المال الكافى للشروع فيما يقترحه على الملل من جو الأدب، وإن كان لا يخفى علىّ أنى فى هذا كالصعلوك الذى زعموا أنه أعزم أن يتزوج بنت السلطان، فلما سألوه: وكيف كان ذلك؟ قال: لقد رضيت أمي ولم يبق إلا أن يرضى أبوها، وهكذا أنا - رضيت بتطليق الأدب ومفارقة الأدباء، ولم يبق إلا أن يرضى الحظ أو الحذق الذى يؤتينى المال، فانتظروا فإنى منتظر، وما أعرفكم حينئذ إلا راضين مثل رضاى، مغتبطين كاغتباطى، وهل أترك الأدب - حين أتركه - إلا لأرضيكم، ولو كنت ذا أثرة لظللت أتعبكم ولا أعفيكم، ولكن الإيثار فى طباعى لا الأثرة، ولهذا أحب أن أرضى الدكتور طه وأنصفه من نفسى، كما سترون، ومن الدكتور زكى مبارك كذلك.

وقاتل الله الصراحة، ولست فى العادة أحبها أو أرتاح إليها، فإنها محرجة، وما أكثر ما تكون من سوء الأدب، فإذا كانت صراحتى من هذا النوع، فإن عذرى أن الأدب لا يعنينى - وأعنى بالأدب الأدب - وأحسب أن هذا تعريف لا يكفى، فيحسن أن أقول - زيادة فى البيان - إنى أعنى هذه المهنة التى قلت إنى أريد أن أنصرف عنها، وأن أتركها للذين يقتتلون على النحس الملازم لها، ويدوس بعضهم بعضًا لعله يخنقه ويستأثر بالنحس دونه، ووالله إنى لمستعد أن أداس وأخنق، وأكتب بخطى أنى منتحر، حتى لا يقاد بدمى زميل مخدوع، يحلم بخلود الذكر ثم لا يستيقظ إلا على ظلام القبر.

وأعود إلى الصراحة، فأسأل الدكتور: "ألم يكن أولى به - وهو الذى ساءه أن أهرب بالمزاح من واجب الكتابة عن كتاب الدكتور زكى مبارك - أن يتحاشى تقليدى، وأن يجتنب أن يهرب مثل هروبى؟؟ إذا كان همه أن ينصف الدكتور زكى مبارك،

وكـان يرى كتـابه حـقـيقًـا بالعناية، فلمـاذا شـغل نفسـه بى وأهمل هـذا الكتـاب الذى أغضبه إهماله، حتى لقد اجتنب أن يسميه، واكتفى من التعريف به بأن يقول إنه كتاب من الكتب وضعه كاتب من الكتاب؟

إن عقلى ضيق، وهو لضيقه وسخافته مقتنع بأن الخط المستقيم أقصر الخطوط بين نقطتين معلومتين، وقد لا يكون الأمر كذلك، ولكن الذين علمونى، أكدوا لى أن الأمر كذلك، وأعطونى خيطًا وقالوا لى عين نقطتين، وقس كل مسافة بينهما، فإنك لا محالة واجد أقصر الخطوط هو المستقيم، وما زلت إلى الآن أقيس الأبعاد بهذا الخيط، ولو كان لى عقل أينشتين، لاهتديت إلى الخطأ فى هذا الذى يزعمونه حقيقة ثابتة، ولكنى لست إلا المازنى، وهذا عذرى.

وأنا – اقتناعًا منى بهذا الذى حفظته فى صغرى وانتقش على "حجر" صدرى – أرى أن الدكتور طه تلوى وتعرج ولف ودار، وطار وحط، وكلف نفسه جهدًا لا موجب له، لأن فيه إسرافًا فى النشاط، ولو كان مثلى اقتناعًا بهذا الذى تعلمناه فى حداثتنا، لآثر الخط المستقيم، والخط المستقيم هو هنا أن الدكتور زكى مبارك أخرج كتابًا اسمه "النثر الفنى فى القرن الرابع"، وأن واجب الأديب الذى ينتظر الناس رأيه أن ينقده ليهتدى القراء بهديه، والدكتور طه أديب فحل، والناس جميعًا ينتظرون رأيه، فواجبه أن يبديه وينشره، أما المازنى فما له؟ إذا كان يريد أن يعد أديبًا له رأى ينتظر، فلينقد الكتاب، فإذا تخلف، فذاك شأنه، وليس من حق هذا الخلف من جانب المازنى أن يصرف الدكتور طه عن واجبه، فما هو بمسئول عن تقصير سواه، وإذا كان المازنى قد هرب فإن اشتد منه إمعانًا فى الهرب ذاك الذى يتبعه ويعدو وراءه وهو يصيح "يا هذا إنك هارب، فلماذا أنت هارب، وهل يجوز أن تهرب، وهو لا يتخلف ولا يكف عن المتابعة والجرى والملاحقة كأنه شرطى! وما أظن أن وظيفة العالم المحقق أن يقلد الشرطى وينتحل عمله ويقوم مقامه فى القبض على الهاربين، إذا شاءوا أن يهربوا، وإنما وظيفته أن يرشد ويهدى؛ فهل يستطيع الدكتور طه أن يبين للناس لماذا ترك كتاب الدكتور زكى وتعلق بأذيال المازنى؟ وهل له أن يقنعهم بأن إهماله ذكر الكتاب والاقتصار على وصفه بأنه "كتاب من الكتب وضعه كاتب من الكتاب" وعدوه وراء المازنى وصياحه

خلفه "إن جريك بديع وعدوك ممتع، وأنت فى هذا لا يلحقك أحد، ولكنا نحب أن تتريث قليلاً لتقول لنا رأيك فإنا نحرص عليه ونبغيه" - هل له أن يقنع الناس بأن هذا ليس فراراً وإنما هو الوفاء للعلم والإخلاص لأمانته التى يحملها دون المازنى الذى يقول إنه ليس من حملة العلم، ولم يسبق أن كان عميداً لكلية الآداب، وأستاذاً لتاريخها! ولا أدرى ماذا أيضاً؟!

ومع ذلك لا يبخل المازنى برأيه، ولا يضن على الدكتور طه بالإنصاف، على قدر ما يدخل هذا فى وسعه المحدود.

* * *

"النثر الفنى فى القرن الرابع" كتاب كما لا أحتاج أن أؤكد، فتحته وأنا جاهل كعادتى، وخرجت منه نصف عالم على الأقل، ففى وسعى الآن أن أصاول الدكتور طه، إذا نزل إلى الميدان، فقد حفظت منه أسماء كثيرة، وألمت بمسائل شتى، وأحسست أن هذا العلم لم يعد احتكاراً للدكتور طه والأستاذ أحمد أمين وأضرابهما، فلن يجدانى بعد اليوم [أعتزل].

والدكتور طه بلا شك أسبق إلى البحث فى الأدب الجاهلى وما يتصل به من الدكتور زكى مبارك، ومن آراء الدكتور طه التى شرحها فى كتابه "الأدب الجاهلى" أن مرآة الحياة الجاهلية يجب أن تلتمس فى القرآن لا فى الأدب الجاهلى، وهذا أساس كتابه، وفيه يقول:

"قلت إن القرآن أصدق مرآة للحياة الجاهلية،... فليس من اليسير أن نفهم أن الناس قد أعجبوا بالقرآن حين تليت عليهم آياته، إلا أن تكون بينهم وبينه صلة هى هذه الصلة التى توجد بين الأثر الفنى البديع وبين الذين يعجبون به، حين يسمعونه أو ينظرون إليه، وليس من اليسير أن نفهم أن العرب قد قاوموا القرآن وناهضوه وجادلوا النبى فيه إلا أن يكونوا قد فهموه ووقفوا على أسراره ودقائقه، وليس من اليسير بل

ليس من الممكن أن نصدق أن القرآن كان جديداً كله على العرب؛ فلو كان كذلك لما فهموه ولا وعوه، ولا آمن به بعضهم ولا ناهضه ولا جادل فيه بعضهم الآخر، إنما كان القرآن جديداً فى أسلوبه، جديداً فيما يدعو إليه، جديداً فيما شرع للناس من دين وقانون، ولكنه كان كتاباً عربياً، لغته هى اللغة العربية الأدبية التى كان يصطنعها الناس في عصره، أى فى العصر الجاهلى".. (ثم يقول) فالقرآن إذن أصدق تمثيلاً للحياة الدينية عند العرب من هذا الشعر الذى يسمونه الجاهلى، ولكن القرآن لا يمثل الحياة الدينية وحدها، وإنما يمثل شيئاً آخر غيرها لا تجده فى هذا الشعر الجاهلى، يمثل حياة عقلية قوية، يمثل قدرة على الجدال والخصام أنفق القرآن فى جهادها حظاً عظيماً... إلخ".

والدكتور زكى مبارك يقول فى كتابه (ص٣٨): "ولا ينبغى الاندهاش من عد القرآن أثراً جاهلياً، فإنه من صور العصر الجاهلى؛ إذ جاء بلغته وتصوراته، وتقاليده وتعابيره، وهو – بالرغم مما أجمع عليه المسلمون من تفرده بصفات أدبية لم تكن معروفة فى ظنهم عند العرب – يعطينا صورة للنثر الجاهلى، وإن لم يكن الحكم بأن هذه الصورة كانت مماثلة تمام المماثلة للصور النثرية عند غير النبى من الكتاب والخطباء"!.

وفى (صفحة ٣٩) يقول: "وفى القرآن نص صريح على أن الرسول لا يرسل (إلا بلسان قومه ليبين لهم) وتلك إشارة نلوح بها لمن لا يكفيهم المنطق".

ثم يقول فى الصفحة عينها: "وقد نزل القرآن بلغة العرب ففهموه أصدق فهم، ووصل إلى قرارة نفوس المؤمنين فملأها روحاً وإيماناً، واستثار الدقائق من صدور المشركين فأعلنوا ما فى قلوبهم من غيظ وما فى رؤوسهم من عناد، أفكان شىء من ذلك يقع لو نزل القرآن بأساليب لا يفقهها الجاهلية؟".

وفى (صفحة ٩١) يعود إلى الاحتجاج لهذا الرأى فيقول: "ولنوجه نظر القارئ إلى حقيقتين فى كلام الخفاجى: أولاهما حكمه بأن القرآن "أنزل بلغة العرب وعلى عرفهم وعاداتهم، فإن لهذه الحقيقة عندنا أهمية خاصة إذا كانت تؤيد رأينا فى أن القرآن من جنس كلام العرب وعلى أساليبهم ولا يمتاز إلا بقوة المعنى وبقوة الروح".

وواضح من الفقرات التى اقتبسناها من كتابى الدكتورين طه حسين وزكى مبارك، أن الفكرة واحدة في جوهرها، وأن الاتجاه فيها لا يختلف، وقد كان الدكتور طه أسبق إليها وإلى القول بأن القرآن هو الصورة الصحيحة التى لا شك فيها للحياة الجاهلية من جميع نواحيها، وكان ينبغى أن يشير الدكتور زكى مبارك إلى هذا السبق ليقبل منه ذلك التجريح الشديد للدكتور طه فى كتابه فإنه يشكو فى هامش (صفحة ٦٠) من الدكتور طه ويقول:

"ومن ظريف ما يحسن تقييده أن المستشرقين كانوا يرتابون فى شخصية عبدالحميد بن يحيى فلم يهتموا به اهتمامًا يذكر، فى دائرة المعارف الإسلامية، ورأى الدكتور طه أن يقلدهم فزعم أن شخصية عبدالحميد خرافية كشخصية امرئ القيس، وتحدانا أن نثبت أن الجاحظ ذكره فى كتبه، فهالنا هذا التحدى، وعدنا إلى كتب الجاحظ نسألها أخبار عبدالحميد، فرأينا الجاحظ تحدث عنه فى رسائله وكتبه غير مرة، وأقبلنا على الدكتور طه نخبره بنتيجة هذا البحث، فعاد فتحدث إلى تلاميذه بأن عبدالحميد بن يحيى كان يعرف اليونانية!! ثم أثبت ذلك فى بحث قدمه إلى مؤتمر المستشرقين، ويظهر أن الدكتور طه نسى أن يحدث تلاميذه وقراءه عمن دله على مكان عبدالحميد فى كتب الجاحظ، فليسمح لنا أن نحفظ لأنفسنا هذا الحق، ورحم الله ابن الرومى؛ إذ قال:

وعزيزٌ على مدحى لنفسى	غير أنى جشمته للدلاله
وهو عيبٌ يكادُ يسقط فيه	كل حر يُريدُ يظهر حاله"[٧٥]

وإذا صحت الحكاية فهو معذور فيما تجشم من تزكية نفسه وإظهار حاله، ولكننا نظن أن للدكتور طه أن يحفظ لنفسه مثل هذا الحق؛ لأن الدكتور زكى مبارك نسى أن يدل الناس على الذى سبقه إلى اتخاذ القرآن صورة صحيحة للحياة الجاهلية من جميع نواحيها. وما كنا لنعنى بالإشارة على ذلك لولا أمرين: الأول أن هذه الفكرة

(٧٥) فى رواية أخرى: "يريد إظهار آله" (المحرر).

هى أساس البحث فى كتاب "الأدب الجاهلى" وهى كذلك أس فى كتاب "النثر الفنى"، والثانى ما فى كتاب "النثر الفنى" من قسوة التحدى المستمر للدكتور طه، والمباهاة الظاهرة [بـ..][٧٦] رأيه فى التوافه والغض منه فى كل موضع يعرض فيه ذكره، والمرء يخطئ ويصيب، والدكتور طه ليس معصوماً، وليس يعيب المرء أن تكون له زلات وأخطاء، ولا هو يستحق من أجل ذلك أن يركبه مخالفه بالكلام الجارح، وإذا كنت قد لمت الدكتور طه على كتمان اسم كتاب "النثر الفنى" فى معرض كان ينبغى فيه ذكره والتنويه به، فليس يسعنى إلا أن ألوم الدكتور زكى على ما تناول به الدكتور طه، فى هذا الكتاب، وهو مدين له على الأقل بهذا الذى أشرنا إليه، والإنصاف إما أن يكون متبادلاً، وإلا فلا محل للعتب والشكوى، وليس يقبل منك أن تطالبنى بالإنصاف وتشنع على إذا أبطأت به عليك على حين تغمطنى وتعلن سخرك منى وزرايتك علىّ، فيما يتطلب إنصافى لك فيه، ولعل هذا هو عذر الدكتور طه، من إهماله ذكر الكتاب، وإن كنت أعرفه أكرم من ذلك وأوسع صدراً، فإذا كان الأمر كذلك فما أدرى كيف يلام!

ولا يسوء صديقى الدكتور زكى هذا القول منى، فإن طه – فى مصر على الأقل – يعز مكان نده، وهو حقيق بالتجلة لا بالتحقير، واختلاف الآراء – حين تختلف – لا يستوجب السلاطة والتشهير والتشنيع، وعلى أنى لا أعرف فى هذه الدنيا حقيقة يمكن أن تعد مطلقة، حتى ولا الحقائق الرياضية، وقد صرت من طول ما فكرت فى هذا، مستعداً أن أشك حتى فى وجودى الشخصى؛ فإذا غشيتنى من الشك غاشية لم أعد أدرى أكائن أنا كينونة مادية مستقلة أم لست إلا حلماً طائفاً برأس نائم غيرى؟

ولو خلا كتاب "النثر الفنى" من هذه الجفوة والعنف فى نقد آراء المخالفين، لما نقص شيئاً، وهو لا يزيد بهما وزناً ولا ترتفع بهما له قيمة وأخشى أن أقول إن هذه اللهجة السليطة تكاد تصد القارئ عن المضى فى القراءة، فقد كنت أحس كلما وقعت على عبارة من هذه العبارات النابية التى يتناول بها زملاءه العلماء والباحثين كأن

(٧٦) كلمة غير واضحة فى الأصل (المحرر).

حجراً وجهى، ولو اقتصر على مدح نفسه لما كان على أحد من بأس؛ فما يضير قارئًا أن يثنى المؤلف على ذكائه وفطنته وبراعته ونفاذ بصيرته، بل قد يكون هذا الذى يستثقل فى العادة ملطفًا لجفاف البحث، ولعل من بهاء الكتاب أن مؤلفه لم يجر على توقى المتزمتين وتحرج المتعففين ورحم الله ماكس نوردار، وغفر له؛ فقد مزح مزحة فى كتابه "النقائض" وقال لطلاب النجاح وبغاة الظهور السريع امدحوا أنفسكم تنجحوا، وألحوا فى ذلك تفوزوا، فما أكثر من صدقوه، ويظهر أن الدكتور زكى أحدهم! غير أن هذا – على غثاثته أحيانًا – محتمل، وضرره لا يلحق غير الكاتب نفسه، فإذا هو شاء أن يستهدف لامتعاض القراء أو اشمئزازهم، فذاك شأنه.

ويظهر أن الدكتور زكى محتاج لرياضة نفسه على الكبح، فإنه يقحم فى كتابه أشياء ليس من الكياسة ولا من الذوق ولا من الرعاية لمصالح الناس دسها فيه، مثال ذلك قوله، وهو يتكلم عن النابغة الجعدى وزعم من زعم أنه كان سيداً فى قومه ولكن قول الشعر نقصه وحط رتبته "وقد تحادثت مرة مع الأستاذ إبراهيم مصطفى فى مثل هذا الموضوع، وكنا نتكلم عن شخصية الأستاذ محمد نجيب الغرابلى باشا، وكان الأستاذ إبراهيم مصطفى يرى أن اهتمام الغرابلى باشا بقرض الشعر يحط من قيمته كزعيم سياسى، ولم أفلح فى إقناع صديقى إبراهيم بأن الشعر قد يكون من مميزات كبار الرجال".

فالحق أن هذا شىء يسخط! فما لهذه الحكاية أدنى قيمة، وهى لا تقدم أو تؤخر فى موضوع البحث، وكل ما يمكن أن يفوز به الدكتور زكى من إيرادها هو أن القراء خليقون أن يتهمه بعضهم فى ذوقه وأن يظنوه قصد إلى المصانعة، وقد كان حريًا به على كل حال – إذا كان لابد له من سوق هذه الحكاية التافهة – أن يكتم اسم صديقه.

وفى هامش يقول: "وقد تصاولت مرة مع الأستاذ عبد العزيز البشرى بمناسبة ما كنت أثرته فى جريدته البلاغ عن شرح نهج البردة فقال الأستاذ وهو غاضب: "إن أبى أجل قدراً من أن يشرح قصيدة شاعر". وهذا شاهد جديد على فهم العلماء لقيمة الشعر.

فقد يظهر من هذا أن الدكتور زكى يحشر فى كتبه كل ما يسمعه من الناس، فى مواطن الجد أو الهزل، ولا يعنيه أنه قد يسوءهم أن يروى عنهم ما يزجون به الفراغ فى مجالس السمر أو اللهو أو غير ذلك، من الكلام الذى لعله غير صادر عن روية، أو احتياط، فهل يأذن الدكتور زكى لصديق مثلى أن يرجو منه الكف عن ذلك؟ ليس كل ما يقال يجوز أن يروى، والمجالس أحاديثها للسمر وقتل الوقت لا للإذاعة، ولو علم الناس أن هناك من يقيد عليهم كلامهم لوضعوا على أفواههم أقفالاً، وإذا كان لا بد من النشر فلا أقل من الاستئذان لينتفى الحرج.

* * *

وبعد فيحسن بى أن أنبه القراء إلى أنى لا أتهم الدكتور زكى بالسطو على الدكتور طه حسين فى اتخاذ القرآن صورة صحيحة للحياة والأدب فى العصر الجاهلى، فليس هناك سطو أو إغارة، والعرب أنفسهم قد اتخذوا القرآن مرجعًا فى كل ما احتاجوا إليه من الشواهد. وما كان يسعهم أن يفعلوا غير ذلك، أو يعولوا فى النهاية إلا عليه، بعد أن ضاعت الآثار التى سبقته، وأكثر الآثار التى عاصرته، حتى لقد كان القرآن نفسه مهدداً بالضياع، لموت جمهور كبير من الحفاظ فى بعض الوقائع، كما بين الدكتور زكى فى كتابه، ولكن الدكتور طه، وإن لم يكن مبتكراً، هو أول من جعل القرآن قاعدة البحث ومعتمده، لانتفاء الشك فيه، وإمكان الثقة التامة به، ولدقته الشديدة فى تصوير أساليب التفكير وألوان الحياة فى ذلك العصر، وقد تابعه الدكتور زكى فى هذا، ورجع إلى القرآن رجوع طه، وعول عليه تعويله، ولطه فى هذا فضل لا ينبغى أن يجحد أو يغمط، فقد فتح به بابًا للبحث المجدى على قاعدة وطيدة، ولجه الدكتور زكى بشجاعة وذكاء، كذلك لم يبتكر الدكتور طه شيئًا حين جنح إلى الشك فى أكثر ما يروى من أدب الجاهلية، فإن كتب العرب ناطقة بهذا الشك حافلة بأدلة النحل والاختراع، ولكنه نظم ذلك على طريقة عملية، وساقه مساق الحقائق المؤيدة يثبتها، وفى هذا أيضًا تابعه الدكتور زكى، وإن لم يغل غلوه ولم يذهب مثله إلى الرفض جملة، ولم يعد إلى منزلة الشاك الذى يميل إلى الرفض ولكنه يخشى أن يتورط فيه.

ولا نكران أن موضوع الكتاب "النثر الفنى فى القرن الرابع" لا "الأدب الجاهلى"، ولكن هذا هو الأساس والمبتدأ، وما يتلوه يقوم عليه ويرتد إليه، فكان حقيقًا بالدكتور زكى أن يعترف للدكتور طه بهذا السبق، فما فيه غضاضة.

والآن وقد فرغنا من هذه الملاحظات، فسنتناول الكتاب بالتلخيص والنقد، وموعدنا بذلك الأحد المقبل إن شاء الله.

الشقى أبو جلدة

قبل الدكتور زكى مبارك[٧٧]

أستأذن صديقى الدكتور طه حسين فى حيدان جديد عن محجة الواجب الذى تفرضه الأمانة التى يحملها العلماء - غيرى - فما للأطفال الكبار، من أمثالى، صبر على الجد الصارم، ولا للجهال المساكين، من أمثالى أيضاً، طاقة على الوعور والحزون، والحفر والنقر، التى يعانيها السائر على درب العلماء، كان الله فى عونهم، وحمانا مزالق البحث ولا ورطنا فى مآزق التحقيق ولا كتب علينا الغرق فى هذه اللجج الراغية! وهبنا لا نغرق فى هذا البحر العظيم؛ فهل يدخل فى طوق سمكة صغيرة أن تغالط حوتاً مهولاً؟ وماذا يكون من أمرى إذا بلعنى الحوت وألقانى فى جوفه المظلم؟ لقد كان يونس عليه السلام قوياً متين الأسر فوسعه أن يقاوم ويناضل وينافح فى بطن الحوت، حتى أنجاه الله سبحانه بفضله وكرمه وقدرته، فخرج سالماً غير مهضوم، أما أنا فلست بنبى ولا أعرف لى كرامة، وهب لى كرامة فى بعض قومى، فأى كرامة لى عند الحيتان؟ وآه من معدتها حين تقبل على وتقلبنى كما يقلب الخروف على نار الشواء، وتذيب جلدى الرقيق وتطحن عظامى الهشة، وتفنى منى طبقة بعد طبقة، فأرتد غير شىء كما كنت قبل أن يستدرجنى أبواى عفا الله عنهما، إلى هذه الدنيا التى تغص بحارها بالحيتان التى تبلع الأنبياء، وأجمها بالسباع الجائعة، وبقيتها بالكلاب النابحة والحمير الناهقة.

---

(٧٧) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٥ إبريل سنة ١٩٣٤ (ص٣).

وفى مرجوى أن لا يتبعنى الدكتور طه فى هذه المرة، فقد جشمنى تعقبه لى مشقة وعناء، وحملنى نصباً كثيراً وبلاءً عظيماً، وأخجلنى فقرأت كتاباً طويلاً عريضاً فورمت عينى ونحل جسمى ونشف دمى وتحطم رأسى، فأنا بالراحة خليق وبأن أستجم حقيق، وقد ضمنت حلم الدكتور زكى مبارك ووثقت من إمهاله لى، حتى تثوب روحى التى كادت تزهق، وتنتظم أنفاسى التى بهرها الجرى وراءه فى هذه الفيافى والموامى[٧٨]، ويا ما أقدره على العدو وأبرعه فى الوثب، وأعرفه بالمسالك والمخارم والدروب والمضايق، ويا ما أثبت رجله فوق الصخور المشرفة على المهاوى، وأحذق قدمه فى مواطن الزلل، وقاتل الله العرج، فإن لى رجلاً واحدة أطلع بها، وله رجلان سليمتان يستقيم عليهما ويضرب بهما وتسند كل واحدة منهما أختها، وما عسى صبر ذى العرج على جرى السليم!! فهو خليق أن ينظرنى حتى أبلع ريقى وأفيق، وأحب أن أضمن من الدكتور طه إغضاءه عن توثبى، وانجرافى عن الطريق الذى يحتم علىّ أن أضرب فى حزونه بعرجى وضعفى.

ثم إنى مُزمع أن أطير – فى هذا المقال – إلى فلسطين فقد ورد علىّ منها أن "أبا جلدة" قبض عليه الشرطى هناك وهو نائم فى كهف فى جبل أشم، من جبال نابلس، فحزنت عليه وأسيت له، ولم يبق لى عقل لزكى مبارك أو "النثر الفنى"، وكيف يسعنى أن أفكر فى "النثر الفنى" و"أبو جلدة" عانٍ أسير!! و"النثر الفنى" حر طليق، ينعم بالهواء والقبول والرضى والحمد، وقد أثنينا عليه ببعض ما هو أهل له، فلا بأس عليه إذا تركناه يجتر الثناء إلى مثل اليوم من الأسبوع القادم، وذاك أصح له، فإنى أخاف عليه التخمة وأشفق عليه من عواقب الكظة، أما أبو جلدة ففى الوثاق. فهو إلى الغوث أحوج، وبالنجدة أولى، ولو كان الدكتور زكى مبارك يعرفه كما عرفته لصاح بى من كرم النفس: "اذهب إليه فما هذا بيوم الكتب"، ولو كان الدكتور طه يعرفه معرفتى لتمنى أن يكونه ولا يكون أوحد العلماء، ولو كنت أنا فى فلسطين حين كبلوه، لتسللت فدخلت فى وثاقه وحللته عنه.

(٧٨) جمع مفرده المَوْمَاء وهى الصحراء الواسعة المهلكة (المحرر).

أى والله يا ناس، أبو جلدة خسارة! وإنى لأكـاد أنقم عليه من فـرط الجزع، فقد كنت أرجو أن يطول خروجه على حكومته لتكثر المادة عندى لرواية أكتبها عنه! ولكنه وثق واطمـأن فـأتى من مـأمنه، وأبى إلا أن ينام!! سبحان الله العظيم! وهل هذا وقت النوم يا سيدى!! وماذا أصنع أنا الآن وكيف أتم روايتى! ويقول النبأ الذى جاءنى إنه كان نائمًا نومًا عميقًا هادئًا، ولكنى أشك فى ذلك، وأكاد أوقن أنه كان يغط ويشخر شخيرًا عاليًا سمعه الشرطة والجند فأقبلوا على أنغامه، لتفسد روايتى ويحبط سعيى ويضيع علىّ جهدى. وإذا لم يكن الأمر على ما أتصور، فأين ذهب الكلب الذى لم يكن يفارقه؟

فقد كان لأبى جلدة كلب صغير، ولم يكن يتركه يغيب عنه لحظه، وكان إذا نام ربطه إلى رسغه بخيط أو سير، فإذا لمح الكلب قادمًا تحرك، فيستيقظ النائم ويتناول بندقيته، ويتربص وراء صخرة، حتى يتبين، فإذا كان الطارئ من الأولياء، لم يصنع شيئًا، وإلا سدد البندقية إلى قلبه وشد الزناد، فيتطرح الواغل الثقيل إلى أقرب صخرة فتدفعه عنها كارهة له، إلى أخرى تحتها، فترده الثانية عنها بصكة فى صدره تنطبق لها أضلاعه، وتتلقاه الثالثة بلكمة فى رأسه تفتت عظمه وتتناول الرابعة قدمه وتدليه منها وتقول له ملاطفة معزية: "استرح يا صاحبى عندى لحظة، فقد أجهدك اللعب بين الصخور، وتمل بالنظر إلى هذه الهاوية السحيقة، فإنها تبدو جميلة من هذا المرقب العالى". وبعد أن يأخذ حظه من الراحة، يشيع فى نفسه الإحساس بجمال الوادى فيحن إلى قربه، وتشعر الصخرة العطوف بوجيب قلبه وصبوة فؤاده، فتخلى رجله فيهوى إلى قاع الوادى، ويبقى هناك ناعمًا بالقرب والوصل، وأبو جلدة يرنو معجبًا ويتأمل مغتبطًا بما أعانه الله عليه من التوفيق.

وأبو جلدة رجل حذر، فكيف تأتى أن ينام هذه النيمة العميقة التى لم يفتح منها عينه إلا على القيد؟ ومن حذره ما حكوه من أن نفرًا من الشبان أعجب به، وافتتن بشجاعته وحسن بلائه وحلاوة فكاهته، فأرادوا أن يلحقوا به ويخرجوا معه، فأبى وردهم ردًا جميلاً؛ لأنه خشى أن يفشو عليه الأمر إذا كثر أتباعه، وأن يذيع سره فلا يبقى له أمن أو دعة.

ومن حذره أيضًا أنه اشتهى يومًا أن يأكل "الكنافة" وهى معروفة مشهورة، وأهل نابلس حذاق فى صنعتها، ونحن فى مصر نصنعها ونتقنها، وأعنى أهل بيتى أنا، وقد بلغ من إتقانهم - أى أهل بيتى - لها وبراعتهم فيها، أن الناس يكونون مارين فى الطريق فتسطع أنوفهم رائحتها المغرية فيتريث المعجل ويقف المتمهل، ويذهل المكروب عن همه، وينسى الواجد وجده، ويَشْدَه الذى فقد ماله عما صار إليه من الفقر، وتتسلى التى ثكلت واحدها، وتراهم جميعًا قد اصطفوا وحولوا أنوفهم إلى نوافذ بيتنا وجعلوا ينفخون صدورهم من قوة الشم وعظمه، ويقولون بعد أن يفرغوا صدورهم من الهواء استعدادًا لشمة أخرى أعظم وأقوى:

"الله!"

وأكون أنا ناظرًا إليهم من النافذة - فما أقوى على ترك الدار فى يوم الكنافة مخافة الهجوم والسطو - وأرى نشوتهم بأرج كنافتنا فأهز رأسى مسرورًا، وأقول:

"معذورون والله فكيف لو ذقتموها يا محرومون؟"

وأمضى إلى الباب فأحكم الرتاج!

ولسنا نصنعها الآن فقد مات أبى وأنا طفل وماتت أمى منذ عامين وبعض عام، ومات صهرى وحماتى، أيضًا، فكل من فى البيت حزين يلبس السواد ولا يطعم الحلواء، وسيموت لى جيران ثقلاء بإذن الله وأمره ولا نصنعها فلا يطمع أحد فى أكلها عندنا.

ولكن كنافة نابلس فوق هذا كله. فتأمل! ولا قبل لى بوصفها، ولكنى أقول إن كل جارحة فيك تنقلب معدة حين تجىء الكنافة النابلسية، بل مسام الجلد نفسها تتسع وترحب وتصبح أفواها، فإذا أقبلت من بعيد محمولة فى الصحفة الكبيرة، على أيدى الخدم، وثب الجالسون إلى أقدامهم ورفعوا أيديهم و[كبروا]، ثم عكفوا عليها وهم كما يقول ابن الرومى[٧٩]:

---

(٧٩) من بحر السريع (المحرر).

... ... "كلُّ مُـغـذٍّ سـاغـبٌ لاغـبُ

من كل شَحذان الخشا لهسم[٨٠] يأكلُ ما لا يحسبُ الحاسبُ

فكَأَه كالعصرين من دهره كلاهما في شأنه دائبُ

ذي معدةٍ ثعلبُها لاحس وتارةً أرنبُها ضاغبُ

تعلوهُ حُمى شرهٍ نافض لكن حُمى هضمه صالبُ"

والعداوات تستعر والخصومات تتفاقم على موائد الكنافة النابلسية، وما رأيت في فلسطين عامة ونابلس خاصة قومًا متحابين جلسوا إليها إلا قاموا وهم ألد الأعداء، والكلام على مائدتها قلة أدب وضعف ونقص في المروءة، وحماقة لا دواء لها، وبلاهة وقلة عقل، وعند أهل الغرب مثل يقول: "زر روما ولتمت بعد ذلك"، ولكن أهل فلسطين يقولون: "كل كنافة نابلس، ولتمت إذا شئت بعد ذلك" يعني أن الذي يأكلها يذوق لذات الحياة كلها فلا زيادة بعد ذلك لمستزيد.

وأعود إلى أبي جلدة، فأقول إنه اشتهاها مرة – ومن ذا الذي لا يشتهيها! – وهو معتصم بجبال نابلس، فلقي في بعض الطريق رجلاً يعرفه ومعه ابنته، فكلفه أن يجيئه بصينية منها، واستبقى الفتاة، وقال لصاحبه:

"هذه فتاتك معي وسأكون على رأس الجبل أنظر، فإذا عدت ومعك أحد، أو بدا لي منك ما يريبني، فسأذبحها تحت عينك".

وعاد الرجل بالكنافة، فقال له أبو جلدة:

"دونك يا صاحبي. كل نصفها".

وامتنع هو حتى أتى الرجل على النصف، وانتظر ساعة؛ فلما لم تظهر على الرجل أعراض التسمم، دفع يده فالتهم الباقي.

---

(٨٠) اللهسم الذي يأكل جميع ما على المائدة (المازني).

وباعة الصحف فى فلسطين يسمونه "الملك أبو جلدة" لأن الحكومة عجزت عنه، وقد سيرت عليه قوات شتى كبيرة فما صنعت شيئًا ولا نالت منه منالاً؛ لأن منطقة نابلس جبلية وعرة، والطريق يكون على جانب الجبل، والجبال الأخرى تشرف عليه، ففى وسع فئة قليلة أن ترد جيشًا لجبًا، وكنا نرى الجنود والشرطة يرابطون عند مداخل المنطقة ولا يجرؤون أن يتوغلوا فيها، وكانوا لما وقع فى قلوبهم من رهبة أبى جلدة، يفزعهم كل صوت مباغت، وما أكثر ما كنا نراهم مختبئين وراء الصخور - حتى عند المداخل - وخيلهم مشدودة على جانب الطريق، فما يدرون ما يصيبهم من أبى جلدة إذا تعرضوا وانكشفوا له. ولم يكن أبو جلدة يسىء إلى الأهالى، وإنما كان خروجه على الحكومة، وكان الأهالى لهذا يعطفون عليه ويكتمون ما يعلمون من أمرة، وكان هو يركب الشرطة بالدعابة العملية، فيبعث بالكتب إلى رؤساء الشرطة يتحداهم أن يخرجوا للقبض عليه، وحدث مرة أن كان نفر من الشرطة عليهم ضابط مرابطين فى مخفر، وكان الضابط جالسًا إلى مكتبه فى الغرفة، والرجال بسلاحهم على الطريق، فما راعهم إلا ظهور أبى جلدة وصاحبه لهم فقال:

"لا تخافوا فأنتم فى حماى، هاتوا هذا السلاح".

وناول صاحبه السلاح وتركه معهم ودخل على الضابط وقال وهو يسدد إليه البندقية:

"ارفع يديك"

وجرده وأوثقه وتناول السماعة، وطلب رئيس الشرطة فجرى بينهما حديث كهذا:

- السلام عليكم

- عليكم السلام. من؟

- مخفر البوليس

- هل جد شىء؟

- نعم

- ماذا؟

- أبو جلدة فى المخفر

- إيه...؟ تقول إيه...؟

- أبو جلدة فى المخفر

- قبضتم عليه؟! سأحضر حالاً.

- لا لم نقبض عليه

- سأحضر حالاً بقوة كبيرة

- هو قبض علينا

- إيه..؟؟ ماذا تقول؟؟

- أقول إن أبا جلدة قبض على المخفر.

- كيف؟ أنت مجنون...

- لا، بل أنا أبو جلدة

- يا خبر أسود...

- السلام عليكم

وكان كفه الأذى عن الناس، واقتصاره على مناوأة الحكومة، وفكاهته، وشجاعته وحسن تدبيره، كل ذلك كان يحببه إلى أهل فلسطين، ويجعله فى نظرهم أشبه "بروبين هود" ذلك الخارج العظيم الذى اشتهر فى القرون الوسطى فى إنجلترا، ولو طال عهد خروجه ولم يقبض عليه، لتحول شيئًا فشيئًا، من شقى هارب من القانون إلى وطنى متمرد على حكم أجنبى، وكانت عناية الصحف به وتلوينها أخباره بهذا اللون، كفيلة بأن تحدث هذا التحول، لأنه كان مواظباً على قراءتها، لا يفوته منها شىء، ولو تم هذا التحول لكان حادثًا يذكر فى تاريخ الحركة الوطنية فى فلسطين وهذا ما كنت أتطلع إليه وأترقبه، من أجل روايتى، ولكنه شاء أن ينام، ولو أنه مات أو قتل لعذرته، ولكنه نام!!

تصور هذا!! فأنا لذلك عاتب عليه متعجب له، ولولا حبى له وأنسى بالتفكير فى شخصيته لنقمت عليه وسخطت ولعنت. وقد كنت أفكر فى زيارة أخرى لفلسطين لعلى أستطيع أن ألقاه وأجالسه وأحادثه فالآن لا لقاء ولا حديث؛ لأنه نام، بففف!

والاعتقال خاتمة لا أكتم أبا جلدة أنها لا تعجبنى، ولا تليق به، ولا تصلح لروايتى، فليعذرنى إذا رفضت هذا المصير، ولم أعترف به فى الرواية، وإذا كان لا يروقه اختراعى فالذنب له. ومن قال له إن النوم يجمل به؟

كتاب النثر الفنى[٨١]

سامح الله الدكتور طه، وكان فى عونى - أعنى الله سبحانه لا الدكتور - فقد شمت بى ولا شك لأنى لم أكتب فى الأسبوع الماضى شيئًا، وفرك كفيه و [..] رأسه، وابتسم وهو يقول - لنفسه -: "صدق ظنى - وهل كان يمكن أن يكذب؟- وأعيتك الحيل يا مازنى، ولم يسعك - بعد الجهد والعناء - إلا الهرب الصريح والفرار علانية، فيالك من مغرور مسكين! وتالله ما كان أغناك عن هذه المآزق التى تورطت فيها، ولم تحسن الخروج منها إلا بذيلك فى أسنانك، والزحاليق التى لا تثبت فيها قدم جاهل! وانظر ماذا صنعت الأوحال بوجهك ويديك وثيابك! وقديمًا جنى الجهل والغرور على أصحابهما، ولو كنت تتعظ لوعظك مقالتى، فى "النقد والطربوش وزجاج النافذة" ولو كنت ترعوى أو تزدجر لصدك هذا المقال عن ركوب رأسك اللين، فالآن فبؤ بخزى وثوب ملطخ ووجه أسود، ولا تلم - إن لمت - إلا نفسك!".

وما أعرفنى أستحق هذه الشماتة وهذا التعيير، من الدكتور طه، فما هربت، كما توهم، ولو اهتديت إلى مهرب لما ترددت، ولو وجدت وجه خلاص لما أحجمت، والهرب أستر فى بعض الأحيان من الثبات، ومن عاب امرءًا بهروب فقد دل على أمل كان له فيه لو ثبت، والذى يهرب على أعين الخلق أشجع ممن يقف اتقاء لعار الفرار، وإيثاراً لأخف الشرين، وأنا لم أهرب لجبنى وقلة حيلتى، ولم أصنع شيئًا حين ثبت لجهلى وقصور باعى، وما زلت حائراً، أهم بالكر ثم أرتد، وأتلفت ذات اليمين وذات اليسار، وبصرى زائغ ورأسى دائر، والأرض الراسخة تتحرك بى فيما أحس حركة الموج،

(٨١) نشرت فى جريدة البلاغ فى ٢٩ إبريل سنة ١٩٣٤ (ص٣، ٩).

فأنطرح كالمخمور، وأنحنى وأمد ذراعى وأفسح ما بين قدمى، ولا ينفعنى ذلك فأرتمى على الأرض، ثم أجلس وأمسح العرق البارد وأنفخ من الكرب.

ولو أنصف الدكتور طه لعادنى ولم يشمت بى، فقد مرضت، وكان المرض مفاجئًا فاستغربت، وكنت قبل ذلك - بدقائق - قد تأبطت هذا "النثر الفنى"، وحملته معى من البيت إلى "البلاغ" حتى كادت ذراعى تشل، فإنه جزآن ضخمان، وورقه كبير وغليظ ثقيل، وإن كان فى رأى العين مصقولاً جميلاً حتى لتستطيع أن تبصر فيه خيالك مرسومًا على صفحاته، ولكن ما يروق العين كثيرًا ما يثقل على اليد، وقد تسحرك المرأة الجميلة وتكاد عينك تخرج من شدة التحديق فيها، ولكنك لا تحب أن تحملها على ظهرك كما يحمل السقاء القربة مهما بلغ من حبك لها وافتتانك بحسنها، وقد يروقك منظر البحر ويطربك صوت أمواجه، وتشتهى أن تركبه ولو على لوح من الخشب، ولكنى لا أظنك ترتاح على الاستقرار فى قعره وفوق رأسك وفى جوفك كل هذه الملايين المضطربة من أطنان الماء، وقد تعجبك الشجرة الحالية المغروسة فى الأرض لا فى قرنك، كذلك هذا الكتاب: يحلو لى أن أقرأ فيه ولا يطيب لى أن أحمله، فإنى ضعيف مسكين، وهو كصاحبه - أعنى أنه [...][٨٢] من يبدأ بذكر الله، وتوكلت على الله وأسلمت أمرى إليه تعالى، وقلت يا رب إنى فى وديعتك، وأبنائى صغار مساكين، فارحم ضعفى وضعفهم ولا تسود وجهى مع زوجتى فإنى أخشى عتبها إذا مت فى سبيل هذا الكتاب.

وصفقت - أعنى دققت الجرس - فجاء ذلك الذى يأبى إلا أن يجىء كلما صفقت - أعنى... ولكنك تعرف ما أعنى - كأنما ليس هناك غيره فى هذا البلاغ الطويل العريض الفسيح الرحيب، فقلت وأنا لا أنظر إليه:

"قهوة"

---

(٨٢) جزء ساقط بسبب تمزق الأصل المتاح (المحرر).

وشربتها – أعنى القهوة – وأقمت سن القلم على الورقة وكتبت:

"النثر الفنى كتاب يقرأه الجاهل – مثلى – فيصير به عالمًا بأزهى عصور الأدب العربى، وخيرها إنتاجًا. ولا ينبئك مثل مجرب، فقد كنت جاهلاً وكان الدكتور طه يكايدنى ويخرج لى لسانه ويصحن لى بجمع يمناه على راحة يسراه، فلما قرأته إذا بى أتحداه".

فقالت لى يمينى: "ألا تريحنى هنيهة فإن بى كلالاً".

قلت: "يا هذه إنها ثلاثة سطور كيف تدعين الكلال؟".

قالت: "ألا تصدق؟ لا بأس! امض بى وسترى كيف يتلكأ القلم وتعوج السطور".

فمضيت بها وأنا أقول لنفسى إن العاجز من لا يستبد، وإن من الرحمة أن يقسو المرء أحيانًا، فإنى أخشى إذا أنا لنت أن تستمرئ طعم الراحة، فيقطع رزقى، ومن أين أجىء إذن بقوت عيالى؟ فكتبت:

"وأحسب هذا ثناءً طيبًا لايهون أن يجود به المرء فى غير موضعه وعلى غير مستحقه"

فقال رأسى: "أوه!"

قلت: "ما لك؟"

قال: "كأن فأسًا تفلق عظامى"

قلت: "يا شيخ!"

قال: "ألا تسمع؟ إن صوت قرعها يرن فى فضاء جمجمتى"

فسألت أذنى: "هل سمعت شيئًا؟

قالت: "إنى مسدودة"

فقلت: "كيف؟" ودسست أصبعى فيها "إنك... إ. إ... لست مسدودة"

قالت: "إن اللغط شديد، وهناك دوى هو المجد عند [...][٨٣] ولكنه الوجع فيما أعلم".

فقلت: "كلام فارغ"

وتناولت القلم وأقبلت به على الورقة فقالت ساقى:

"آه!"

قلت: "آه؟"

قالت: "آه!"

قلت :"ما خطبك أنت أيضًا؟"

قالت: "لو كان هنا سرير؟"

قلت: "يا هذه أين تظنين نفسك؟"

قالت: أليس عندك شىء ثقيل الوزن تضعه على ركبتي لعله يكتم الألم أو يخفضه؟"

فلم أجد غير "النثر الفنى" فأثقلت به ركبتي وهممت أن أعود إلى الكتابة فقال أنفى:

"أطس"

فصحت به: "أيه؟"

قال: "إطش. إطش. إطش"

فاضطجعت ذاهلاً فصرخ ظهرى: "أوخ!"

قلت عاتبًا كما قال يوليوس قيصر لبروتوس: "وأنت أيضًا؟"

وجال دمع الغيظ فى عينى، فقلت: "هذه مؤامـرة، ولا شك! فيحسن أن أقمعها فى البداية"

فقال رأسى: "يا هذا لا تكن أحمق، إنك مريض وكل عضو فى بدنك يألم فقم بنا إلى البيت".

---

(٨٣) كلمة مشوهة فى الأصل المتاح (المحرر).

قلت: "أهو ذاك؟ ولكن ماذا يقول عنى الدكتور طه إذا لم أكتب؟"

قال رأسي: "إذا قال شيئًا فسله لماذا لم يكتب هو؟"

قلت: "صدقت ولكن يحسن أن أكتب شيئًا والسلام... ولو قليلاً".

قال: "جرب... وسترى... ذنبك على جنبك.."

فكتبت: "ولو كان فى الناس قناعة أو عقل لوجب أن يكون هذا (أى الثناء السالف) كافيًا ولاستغنيت عن مقال طويل وأنا مريض، أى والله فإن فى بدنى تفتيراً، وفى عظامى تكسيرا، وفى صدرى ضيقًا، وفى رأسى فراغا، وإن كان هذا - أعنى الفراغ - شيئًا لا غرابة فيه ولا عجب منه".

فصاح بى رأسي: "هيه.. ماذا تقول؟"

قلت "الحقيقة" واستأنفت الكتابة: "فلو كنت أمتح من المحيط الأعظم لنضب زاخره، وجفت بطنًا به، ولوسع القارئ أن يمشى فى [قعره] بالحذاء الأبيض وهو ضامن أن لا يبتل أو يتسخ. ولكنى لا أمتح من بحر ولا من بركة، وإنما أستخرج هواء فى جمجمتى لا أراه ينفد، فلابد أن فيها خرقًا أو ثقبًا يدخل منه، وكل شيء يفرغ إلا الكلام والهواء، فهما من معدن واحد".

وهنا ثارت بى أعضائى وأوسعتنى إيجاعًا، فانهزمت ووليت عائدًا إلى البيت.

* * *

وأنا فى هذا الأسبوع أصح، ولكن بى بعض الفتور من أثر الجهد الذى بذلته فى إخماد الفتنة، وأخشى إذا حملت على نفسى أن ينتقض النظام وتخرج أعضائى عن الطاعة مرة أخرى، ثم تألف هذا التمرد فيصبح عادة، فلابد من الترفق ولا معدى عنه والأمر لله.

* * *

قرأت كتاب "النثر الفني" كله مرة، وعدت إلى فصول فيه أكثر من مرة، وكنت أستكثر أن يقضى فى تأليفه سبع سنين، فصرت أستقل هذا الزمن، وشر ما فيه فاتحته، فإنها أشبه بالخندق العظيم الذى يصد عن القصر المنيف، ولا يكاد يجتازها القارئ حتى يستولى عليه الكتاب شيئًا فشيئًا، ويأسره ويضربه بسحره، كما تغلبك الخمر بعد الكأس الأول فأنت بعدها تعبُّ بلا حساب أو تقية أو حذر، وليس كل ما فيه جديداً، فإنه لم يخلق الأدب الذى يصفه ويبين لك خصائصه، ولكن الجديد فيه جديد بأدق معانى اللفظ، ومهما بلغ من علم القارئ وسعة إطلاعه فإنه واجد فى هذا الكتاب مسائل لم يكن يعرفها، والكاتب يعرضها عرضا حسنًا، ويسوقها سوقًا مقنعًا، فمن ملاحظاته القيمة أن الذى يستخلص من وضع الكلام على ألسنة الكهان هو "اطمئنان الرواة إلى أن لغة الكهان كانت مسجوعة، وأنه كان من المألوف أن يتبع النثر بشىء من الشعر، ولهذا قيمته فى تصور حالة النثر الفنى فى العصر الجاهلى وإن لم يصل بنا إلى تحديد ما كان عليه من قوة أو ضعف ووضوح أو غموض" (ص٣٥).

وهذا يصدق على كل ما وضع من الكلام.

ومن التعليل المقبول لضياع صورة الحياة العقلية فى عهد النبى قوله (ص٥٠):

"**أولاً** - إن ضياع آثار حزب المعارضة معقول؛ لأنه انهزم ولم يعد فى الإمكان تدوين الرسائل الجارحة والخطب المقذعة والرسائل اللاذعة التى هوجم بها النبى وأنصاره خصوصًا إذا لاحظنا أن الذين نقلوا آثار ذلك العصر كلهم من المسلمين الذين يرون من الإثم والحرج أن يعيدوا الشتائم والقذائف التى رمى بها النبى وجرح بها الإسلام. ولو بقيت آثار حزب المعارضة لاستطعنا أن نفهم إلى أى حد كان خصوم النبى يفهمون آراءه الاجتماعية و [المنزلية] ولرأينا كذلك صورة من الأدب الذى كان يستبيح مهاجمة النبى ورسالته فى عنف وإقذاع.

"**ثانيًا** - ضياع آثار النبى وأصحابه معقول أيضًا، فقد شعر المسلمون بأن واقعة اليمامة أضاعت جمهور الحفاظ بحيث أصبح القرآن نفسه مهدداً بالضياع، ولولا ما فعله أبو بكر وعمر لتبدد القرآن وعدنا لا نجد منه إلا شذرات مختلفة لا تطمئن إليها النفس، كما هو الحال فى الأحاديث التى دونت أخيراً بعد أن مات الحفاظ الأولون".

ومن الملاحظات الحسنة أن تسمية العصر الجاهلى "دينية صرفة فإن العرب لم يصفوا ذلك العصر بالجهل إلا فيما يختص بالمعتقدات الدينية، ولكنهم فيما يرجع إلى الأدب كانوا يرونه من أرقى العصور، وكانوا يتأثرون بشعرائه وخطبائه وحكمائه فى كثير من أبواب القول".

ومن خير فصول الكتاب فصل عن المبتذل والطريف، وتبرئته اللغة العربية من أن تكون عبارة عن مبتذلات أو كلشيهات لا تتغير فى التعبير، ولو زاد على ذلك أن "الكليشيهات" فى كل لغة لما عدا الحقيقة، فما شذت العربية عن النسق العام".

والباب الثالث – وهو نصف الجزء الأول – كله جديد، وهو أجود وأقوى ما فى الكتاب، وتوفيق المؤلف فيه ليس بعده توفيق، وفيه أثبت بالحجة أن ابن دريد هو مبتكر فن المقامات، وإن كان قد سماها أحاديث لا مقامات وأن بديع الزمان ليس هو المنشئ الأول لهذا الفن، ولم يبخس الكاتب بديع الزمان، بل أعطاه حقه وافيا.

وأبرع ما اشتمل عليه هذا الباب إثباته أن أبا العلاء المعرى قلد فى "رسالة الغفران"، أبا عامر ابن شهيد الأندلسى فى رسالته المسماة "التوابع والزوابع" وكان بعض أساتذة الجامعة القديمة، يعتقدون العكس، أى أن ابن شهيد هو الذى قلد أبا العلاء، وقد أثبت الدكتور زكى مبارك أن رسالة الغفران كتبت بعد رسالة التوابع والزوابع، بنحو عشرين سنة، وقد لخص الدكتور زكى هذه الرسالة المجهولة تلخيصاً بديعًا على الرغم من أنه لم يبق منها سوى شذرات قليلة فى كتاب مخطوط هو الذخيرة.

وطريقة الإثبات بارعة فقد استخلص من قول الجن لابن شهيد فى الرسالة: "قد بلغنا أنك لا تجارى فى أبناء جنسك، ولا يُملّ من الطعن عليك، والاعتراض لك، فمن أشدهم عليك؟"

وأنه أجاب: جاران دارهما صقب، وثالث نابته نوب، فامتطى ظهر النوى، وألقت به فى سرقسطه العصى، انتضى علىّ لسانه عند المستعين، وساعدته زرافة من الحاسدين... إلخ.

– نقول استخلص أن الرسالة كتبت فى عهد المستعين، وهو سليمان بن عبد الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الأموى، الذى بويع بقرطبة منتصف ربيع الأول سنة ٤٠٠ بعد مقتل عمه هشام بن سليمان، وجددت له البيعة سنة ٤٠٣، ثم مات مقتولاً سنة ٤٠٧".

فرجح أن تكون رسالة التوابع والزوابع كتبت بين سنتى ٤٠٣ و ٤٠٧ . أما رسالة الغفران فلا تاريخ لها فى كتب التراجم، ولكنها كتبت رداً على رسالة ابن القارح، وابن القارح يقول فى رسالة "وكيف أشكو مَن قاتنى وعالنى نيفًا وسبعين سنة" فكأنه وضعها بعد أن جاوز السبعين، وهو قد ولد فى سنة ٣٥١؛ فإذا أضفنا إلى ذلك سبعين يكون ابن القارح قد كتب الرسالة حوالى سنة ٤٢١، وتكون [...][٨٤].

وكل عالم علم بتاريخ الأدب العربى، لا يكون إلا ناقصاً بغير هذا الكتاب، وقد تخالف مؤلفه فى بعض الآراء التى يذهب إليها حين يعلل أو يفسر، أو ترى أنه ترك الرأى ناقصاً من بعض النواحى، ولكنك لا تستطيع أن تخالفه فى الحقائق التى اهتدى إليها وكشف عنها، وأثبتها بالدليل الناقض والبرهان اللائح، إلا إذا كان علمك فوق علمه، وبحثك أدق وأتم من بحثه، وما أدرى والله كيف يمكن ذلك؟ وأنى لا أشهد على نفسى أن كتابه راعنى، وأنى أعده كنزاً، وأراه مفخرة كافية لأى عالم محقق، وباحث مدقق.

وعسير أن يلخص المرء كتاباً كهذا، فما يغنى فى التعريف بالبحر أن تغرف منه ملء كوز، ولا فى تصوير الصحراء المهولة أن تعرض حفنة من رمالها. فليعذرنى القراء، وعليهم بالكتاب ليدرسوه.

(٨٤) فقرة ساقطة بسبب تمزق الأصل، ولفهم السياق راجع كتاب زكى مبارك: النثر الفنى فى القرن الرابع. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت.، ج١/ ص٣٢٠ (المحرر).

الملاح التائه أيضًا[٨٥]

عود على بدء

سمعت أن الأستاذ على محمود طه المهندس ساءه ما كتبته عن ديوانه "الملاح التائه" وقيل لى إنه غضب وثار وأرغى وأزبد، وجعل يسب ويتوعد، وأخبرنى من لا أشك فى صدقه أن مهندسنا الشاعر يتهمنى بالتحامل، ويتوهم أن هناك كيدًا مدبرًا، وأنى عسى أن أكون مدسوسًا عليه، فأضحكنى هذا الغرور، وآسفنى أن أرى هذه الروح.

لقد دفع إلىّ الأستاذ على محمود طه المهندس، ديوانه هذا، فشكرته، وخلوت به ليلة؛ فلم أرتح إلى أكثر ما فيه، فسكت وتركت الأيام تمضى، وآثرت أن أعفيه من سوء رأيى، وأن أكف عن أذاى، وقلت إذا كنت لا يسعنى الثناء فإن فى الصمت مخرجًا، وكتب عنه غيرى فى "البلاغ" مادحًا مقرظًا، فوالله لقد سرنى هذا، وقلت لعل صاحبنا يقنع بما ظفر به، وكفى الله المؤمنين القتال، وليكن شاعرًا أو غير شاعر، وليكن مرجوًا أو ميؤوسًا منه، فإن هذا شأنه، لا يعنينى منه شىء، ولست موكلاً بالشعر أحمى حقيقته وأذود عن حوضه، ولقد نفضت يدى منه إلى غير رجعة، والحمد لله على الهدى بعد الضلال، والمعرفة بعد الجهل، ولو استطعت لتركت النثر أيضًا، ولكنه مرتزقى وقوت عيالى، وإنى لأكتب ولكن للخبز لا للأدب، ولا يحمل القراء قولى هذا على محمل المزاح فإنى اليوم جاد، وأنا بالأدب أعلى عينا وهو عندى اسمى وأرفع من أن أحشر فيه هذا الهراء الذى أجرى به القلم فى سبيل الرزق، وقد تمثلت صورة لما ينبغى وأعيانى أن

---

(٨٥) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٠ يونيه سنة ١٩٢٤، (ص٣).

أقاربها فقنطت ووددت لو وسعني أن أقصر، ولكن الحياة تلهب ظهري بالسياط فلا بد من العدو، سواء أبلغت غاية وأوفيت على أمد أم وقعت دونه.

ولم يقنع مهندسنا الشاعر بما قرظه به الإخوان في "البلاغ" وعزم عليّ إلا ما كتبت، وزارني وأخبرني أنه يريد رأيي كائنًا ما كان، فقلت لنفسي لعل في ذلك مصلحة، وسرني منه أن يطلب الرأي ولا يستجدي الثناء، وقلت إن من كان هكذا فهو خليق أن يحتمل النقد ويتشدد له ويصبر على ما عسى أن يناله منه، وما كان لي أن أتردد وأحجم بعد أن دعا وكرر، وليس للنقد قيمة إذا جرى مجرى النفاق، والمرء لا يلام على رأي يدلي به فإن الارتياء حق لكل إنسان. وإنما يكون اللوم على سوء النية وخبث الطوية. والمرء ينشر على الناس. وللناس أن يرضوا أو يسخطوا. ولا حيلة للكاتب أو الشاعر، ومن كان يجزع من النقد فأولى به ألا ينشر شيئًا، وعسير أن تلجم الأفواه فلا تقول إلا خيرًا، وأن تعقل الألسنة فلا تجري إلا بحمد، ومن كان يتوهم القدرة على ذلك فإنه امرؤ لا أمل فيه. وخير له - إذن - وللجماعة أن يقمع ويرد إلى حدود يلزمها ولا يعدوها. فما من الممكن أن يكون في عالم الأدب هذا التحكم إذا أمكن أن يكون في عالم السياسة أو غيرها من عوالم الزيف والفساد.

والنقد تربية، وإصلاح وتقويم، ولكن بعض الناس يتعجل الغاية ويشق عليه أن يعوقه النقد عنها، ويصد خطاه بعض الصد، لظنه أن الثناء هو الذي يدنيه، ولو عقل لعلم أن الثناء الجزاف يفسد عليه السعي، وأن النقد هو الذي يقويه ويشد أزره، لأنه يفتح عينه على ما يخفى عليه، ويتناول أصبعه ويضعه على مواطن الضعف والنقص، وسواء أعقل المرء أم لم يعقل، فلا مفر من هذا النقد البغيض، ومن ظن ممن يكتب أو يقول الشعر أنه ناج منه، فقد ظن عجزًا كما يقول الشاعر القديم[٨٦].

---

(٨٦) ربما يعني "الشاعرة القديمة"؛ لأنني لم أقع في الشعر العربي القديم إلا على قول الخنساء (من المتقارب):

ومن ظنَّ ممن يُلاقي الحروب   بأن لا يُصاب فقد ظنَّ عجزا

(المحرر).

وقد غضب صاحبنا ومهندسنا الشاعر وسخط، ولا أدرى ما حيلتى أو ذنبى؟ وما لى أنا إذا كان شعره لا يبلغ به حيث يريد؟ أأنا المقصر أم هو؟ وقد كنت أنا أقول الشعر، أو أعالج قوله، فما جئت بشيء، ومزيتى أنى فطنت إلى هذا فكففت فى غير أسف أو سخط، وكيف يأسف عاقل على ترك ما لا يُحسن؟ وقد سمعت أن مهندسنا يذكر شعرى أو ما كنت أزعمه شعراً لى، بالسوء، ولا أعلم ماذا يفيده هذا، فلأكن أنا أسخف خلق الله وأعجزهم عن مقال، فكيف ينهض هذا عذراً لغيرى، ويصلح أن يكون مسوغًا لضعف سواى؟ أترانى صرت مقياساً عامًا فمن كان مثلى فهذا شفيع [له، كان] خيراً من هذا وأجدى على مهندسنا أن ينفض الغرور عنه وأن يعالج شعره بالتقويم والتهذيب ليصح، فلن ينفع أحداً أن يسخط مغتراً، وإنما ينفعه أن يجعل وكده بعد الآن أن يجيل هو فى شعره عين ناقد فاحص، وأن يتعهده بالغربلة والنخل والتفلية، وأن لا يعبأ شيئًا بثناء الإخوان والأوداء، فإن فى مقدوره أن يستغنى عنه إذا جاء بالمحكم السديد والمضبوط القويم الذى لا عوج فيه، وما من إنسان إلا وله إخوان يثنون عليه، ولكن العبرة بسواهم لا بهم، وبحكم الزمن لا بحكمهم، والزمن لا يميل به الهوى ولا يؤثر فيه تقريظ الإخوان ولو ملأوا الأرض والسماء طبلاً وزمراً.

وماذا قلت عن مهندسنا الشاعر مما يغضب؟ ما قلت إلا أنه لا يحسن الأداء وسقت أمثلة ناطقة بذلك، فعز عليه أن يقال إنه سيئ الأداء، وروى لى صديق أن مهندسنا مواظب على قراءة الشعر العربى منذ خمسة عشر سنة، فقلت إذا كان هذا أداؤه بعد المثابرة الطويلة على الدرس فما أرى إلا أنه سيئ الاستعداد، ولا ملكة له، وقد كان لى فيه أمل فنسخته بهذا الخبر. وفتحت "الملاح التائه" فوقعت على هذه القصيدة وتلوتها عليه واسمها "الملاح التائه" وأنا أثبتها هنا للقراء ليروا إلى أى حد يثقل النظم وتستنكره القوافى:

أيها الملاح قم واطو الشراعا ... لم نطو لجة الليل سراعا
جدف الآن بنا فى هينة ... وجهة الشاطئ سيرا واتباعا
فغدا يا صاحبى تأخذنا ... موجة الأيام قذفا واندفاعا

عبثًا تقفو خطا الماضى الذى خلت أن البحر واراه ابتلاعا

لم تكن غير أويقات هوى وقفت عن دورة الدهر انقطاعا

فتمهل تسعد الروح بما وهمت، أو تطرب النفس سماعا

ودع الليلة تمضى إنها لم تكن أول ما ولى وضاعا

سوف يبدو الفجر فى آثارها ثم يمضى، ودواليك تباعا

هذه الأرض انتشت مما بها فغفت تحلم بالخلد خداعا

قد طواها الليل حتى أوشكت من عميق الصمت فيه أن تراعا

إنه الصمت الذى فى طيه أسفر المجهول، والمستور ذاعا

سمعت فيه هتاف المنتهى من وراء الغيب يقريها الوداعا

أيها الأحياء غنوا واطربوا وانتبهوا من غفلات الدهر ساعا

إلخ إلخ..

وليعذرنى القارئ إذا أعيانى بيان ما يعنيه الشاعر بهذه المعميات، فما فهمتها، وكيف تريد أن أفهم أن هذه الأرض أسكرها ما بها وأنها لسكرها نامت وراحت تحلم بالخلد وتغالط نفسها فيه؟؟ فكيف سكرت أرضنا المسكينة وما آية سكرها؟ ولماذا تنام وتحلم بالخلد أو غيره؟ على أن الشاعر لا يكفيه هذا، فهو يأبى للأرض إلا أن يطويها الليل طيًا كادت ترتاع من عمق صمته؛ فهى سكرى أولاً ونائمة ثانيًا، وحالمة ثالثًا بالخلد أو بجهنم فما عدت أدرى، ثم هى مزؤودة فزعة من صمت الليل الذى طواها، فإذا كانت هذه الصورة تبدو مفهومة، وواضحة معقولة، فأنا امرؤ ليس له عقل.

وهذا الصمت الذى يذعر الأرض ويروعها، فى طيه "أسفر المجهول" وذاع المستور، فافهم هذا إن استطعت وما أرى الشاعر نفسه مستطيعه، وأدهى من ذلك وأبعد عن الفهم قوله فى عقبه:

سمعت فيه هتاف المنتهي ... من وراء الغيب يقريها الوداعا

وقد نبهنا إلى ما فى القوافى من نبو وقلق وتعسف، وحسبنا هذا، وبقى أن ننبه إلى أن هذه القصيدة هى التى رضى عنها الشاعر وأطلق عنوانها "الملاح التائه" على الديوان كله.

وقد قلت إنه لا يحسن الأداء؛ لأنه يضم الألفاظ بعضها إلى بعض ويفرح برنتها ولا ينظر أى معنى يكون لها، وأوردت شواهد، وهأنذا أورد غيرها قال، وهو يريد القطب:

هو ليل من الغياهب ضاف ... وأديم فى لجة الثلج طاف

فما معنى الأديم الطافى فى لجة الثلج؟ وقال:

عندما ظللنى الوادى مساء ... كان طيف فى الدجى يجلس قربى

فى يديه زهرة تقطر ماء ... عرفت عينى بها أدمع قلبى

والبيت الأول مبتذل اللفظ وفيه حشو، ولا أعرف كيف تقطر الزهرة ماء، ولا أفهم الشطر الأخير، وقال:

قلت يا طيف أثرت النفس شكا ... كيف أقبلت؟ وقل لى من دعاكا؟

وقوله "أثرت النفس شكا" تعبير لا يجرى به قلم رجل له ذوق فى اللغة، وقال - يعنى قلبه -:

يتمنى فيك لو يفنى كما ... يتفانى الغيم فى البحر العباب

أو يلاشى فيك حيا مثلما ... يتلاشى فى الضحى لمح الشهاب

وليس أثقل من "فيك" فى موضعها هذا ولا أشد منها قلقًا، وأما تفانى الغيم فى البحر فليقل لى من يعرف كيف يكون؟ وهو لا يعرف معنى العباب، ولهذا جعله وصفًا للبحر، والبيت الثانى كما ترى، لو نظمه تلميذ فى السنة الأولى الثانوية لطردته عقابًا له عليه.

وقال فى قصيدة "غرفة الشاعر":

وفم ناضب بـه حـر أنفـاسك   يطغى على ضـعيف أنينك

فماذا يعنى بالنضوب هنا؟ وهل يكون الفم بئراً؟ والأنفاس تطغى على الأنين كيف بالله؟ وقال منها:

أنت أذبلت بالأسى قلبك الغض   وحطمت من رقيق كيـانك

فما مكان (من) هنا وما عملها ولماذا تجىء إلا للوزن؟ وانظر الركة فى تأليف هذا البيت:

فأعدتنى طلق الجناح وخلت بى   للنـور جنة عاشق مفتون

وقد أخطأ فى استعمال (طلق) هنا.

وهذا بيت آخر:

دعنى أرو القلب من خمر الرضى   وأنم على خمر الحنان عيونى

فمن كان يعرف فجر الحنان وكيف ينام عليه فإنى أنا لا أعرف، أما العيون فحسب كل امرئ منها اثنتان: وهكذا... إلخ.

وبعد فينبغى أن يكون الكلام مفهوماً قبل أن يكون شعراً، أو حتى نظماً، ولا مفر لمن يريد أن يكتب أو ينظم أن يسأل نفسه عما يريد أن يقول، وبعد أن يجلو المعنى لنفسه ويستوثق من وضوحه ينظمه، وعليه حينئذ أن يسأل كل لفظة وكل عبارة من كلامه أهى تؤدى المعنى المروم أو تعى به وتعجز عنه. وهذه أولى مراتب الكتابة التى يراد بها الإفهام، وتجىء بعد ذلك مرتبة الأدب وهى عليا المراتب، ولا بد فيها - فضلا عن صحة الأداء - من القوة أو الجمال، وهذا من البداية.

ويحسن بمهندسنا أن يروض نفسه على التدقيق فى الإبانة، ولقصيدة واحدة محكمة خير وأبقى من ألف ديوان، وإذا كان هناك من يريد أن يتخذ من مهندسنا أداة

لغاية له، فيثنى عليه ويغره ويوهمه أنه الشاعر الفذ الذى يعى الزمان مكان نده، فإنا نحن لا غاية لنا ونقدنا لخيره وصلاحه، ولا شك أن النقد ثقيل، ولكن الإخلاص يشفع له، وما نبغى إلا التقويم، وقد دللناه على الطريق، فإذا أخذه فهو الرابح ونحن أيضًا رابحون، وإذا أبى واستكبر فما هو بأول مغرور، ولن يكون آخر هذه الجماعة.

فى عالم الكتب: نقد وعرض[٨٧]

(١)

رسائل سائر
من بلاد العرب إلى بلاد اليونان

(بقلم الأستاذ الشيخ محمد سليمان فى ٢٦٤ صفحة من القطع الكبيرة – نشره على محمد ندا بسكرتيرية مجلس الشيوخ).

"رسائل سائر عن فلسطين، ورسائل الحج عن الحجاز، أغذى روحى بقراءتهما وأجد لذة فيهما تعلق بقرارة النفس؛ لأن القدس والحرم أثرهما عالق بالقلب والعقيدة، فما هز فيهما من إحساس، فإنما يهزه بإيقاع الراحة والارتياح والسكون إلى مبعث ذلك النور الذى نستضىء به فى حياتنا ليكون بصيرة لنا وهداية إلى سبيل السعادة الدائمة والنعيم المقيم (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)"[٨٨].

"وبهذا الشعور – شعور قارئ التاريخ والأدب، وشعور العربى القرشى وشعور المسلم الأخوى انتقلت إلى بلاد الشام، ولا أقول سافرت، لأن السفر لا يكون إلا للخارج، وأنت فى الشام لا تخرج من مصر اللهم إلا أن ترى ما كنت تسمع عنه، ومن رأى كمن سمعا".

* * *

(٨٧) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٦ يونيه سنة ١٩٣٤، (ص٤).

(٨٨) سورة الشعراء، آية: ٨٨، ٨٩ .

بهذه الروح التي يكشف عنها ما اقتبسناه لك في صدر هذا المقال، كتب الأستاذ الشيخ محمد سليمان كتابه (رسائل سائر، من بلاد العرب إلى بلاد اليونان) والشيخ سلمان عالم جليل، ودارس حافظ للتاريخ والآداب، وكاتب جذل العبارة متين الأسلوب، فياض القريحة، وكتابه كتاب علم وتاريخ وأدب ونظر ومزيته هذا الجمع بين القديم والجديد، والمقابلة بين الماضي والحاضر، والعمل على إحياء الذكريات السالفة، ذكريات المجد الغابر، فليس كتابه وصفًا لما شاهد، وإنما هو وصف يتخلله بحث، أو هو بحث أغرت به المشاهد.

ففي دمشق يقف على قبر معاوية "أول من نوه باسمها، وأزهى في الإسلام قدرها، وجعلها بحق أول عاصمة للخلافة الملكية" ويروح يستغرب أن لا تحفل هذه المدينة التاريخية العظيمة بالآثار وأن لا يكون فيها "من صدور التاريخ ما يتلاقى وهذا القدم" وسر عجبه وداعية استغرابه، ليس أن دمشق خالية من الآثار غير غاصة بها، فليست أخلى من عواصم أخرى غيرها على هذه الأرض، وإنما السر أنه ابن مصر بلد الآثار الخالدة من أقدم العصور إلى أحدثها، ولولا مصريته لما عظم استغرابه. وفي حمص يذكر "خالد الخالد" – يعني ابن الوليد – فيفيض في الكتابة عنه والتنويه به، وأنه لجدير بأضعاف ذلك، وما نبغ من العرب أبرع منه في فنون الحرب ولا أعرف بها ولا أكثر ابتكارًا فيها وافتنانًا في أساليبها والذين درسوا سيرته الحربية ممن يفهمون هذا الفن يرفعونه إلى أسمى مقام ولا يرونه دون أحد من قواد العالم أمثال الإسكندر المقدوني، وهنيبال، وقيصر، ونابليون، بل يذهبون إلى أنه وضع أسس الفنون الحربية الحديثة بما ابتكر وأدخل عليها مما لم يكن معروفًا إلى زمانه لا عند العرب ولا عند سواهم، وحديث خالد مغر، فإنه من أعاظم رجالات العالم، لا العرب وحدهم، ولولا أننا نكتب عن "رسائل سائر" لا عن خالد، لقلنا فيه، ولم يستطع الأستاذ الشيخ سلمان أن يقاوم هذا الإغراء، فأفاض في الكلام على خالد وحسنًا صنع، فإن كل كلمة إنصاف تقال فيه ربح للتاريخ والأدب، وما أعرف في الكتاب خيرًا ولا أقوى أو أبرع مما كتبه عن خالد، جزاه الله خيرًا.

وفى الأستاذ المؤلف فكاهة خفيفة بريئة ومن أمثلتها هذه النادرة الظريفة: "أما حكاية الكنافة فهى تريك كيف قسم الخالق الرزق بين عباده وتصور لك مثلنا التالى، "تبقى فى يدك وتقسم لغيرك" فحلب الشهباء اشتهرت بأكلة "الكفتة" ولا نظير لها فى الشام. واشتهرت بصنع الكنافة المحشوة بالقشدة فعزمنا أن نأكل الشهيرتين وجىء لنا بهما فى الفندق ولكن بطيخ حلب وحلاوته كفتنى عن تناول الكنافة فحفظ رفيقى الأخ الأستاذ الشيخ محمد رزق صقر نصيبى من الكنافة، ثم سافرنا ونسيه وأنسيته حتى جئنا الإسكندرية بعد خمسة أيام فلما فتح سَّفَطُه[89] رأى نصيبى ملفوفًا محفوظًا فجاءنى به فى الغرفة فدفعته إلى الخادم فقال: "ما هذا يا سيدى؟ قلت له: "يا سيدى أنت. هذا كنافة حلب المشهورة، حملها من مكانها قاضيان حفظاها، وحرم أحدهما نفسه منها لتأكلها أنت يا صاحب القسمة فيها كما أراد خالقها مقسم الأرزاق".

ويشتمل الكتاب على وصف رحلاته فى سوريا وفلسطين واليونان وقد ألحق به تحقيقًا لمناسبة زيارته مدينة قوله وضريح والد محمد على باشا فقص فيه القصة القائلة إن أباه توفى وسنه هو (أى محمد على) أربع سنين فكفله عمه طوسون ثم حاكم قوله، وهو المشهور والذى يدرس فى المدارس.

(٢)

وراء الغمام

(ديوان الدكتور إبراهيم ناجى فى ٢٠٢ ص. من القطع الصغير)

الدكتور ناجى شاعر مكثر لا يغوص على معنى ولا يحتفل بنظم، وإنما حسبه أن يقول فى الأغراض التى تعن له، فكأن الشعر عنده حاجة من حاجات النفس، وكأن أعصابه لا تستريح وتهدأ إلا إذا أجرى إحساسه هذا المجرى، وهو لا يتكلف ولا يتعمل، وإنما يرمى بالكلام كما يجىء بلا كد، ولهذا يكثر فى شعره الغث ويندر المستحسن المقبول،

---

(٨٩) وعاء من القش أو أغصان الشجر توضع فيه الفاكهة وما إليها.

وقد يتوهم بعض القراء أن هذا من إرسال النفس على سجيتها، وأن [تجاقى] التكلف مزية، وهذا خطأ، فإن الشعر فن، كما قلنا ألف مرة، وتلك من البدائه التى لا تحتاج إلى شرح أو بيان، ولا بد فى كل فن من استكمال الأداة، ولا يكون إرسال النفس على السجية إلا بعد هذا الاستكمال أى بعد التمكن من الأداة، أما قبل ذلك فهو قصور وعجز، ومن الأغلاط الشائعة أن التكلف قبيح، والصحيح أن القبيح المرذول هو التحذلق، أما الاحتفال والعناية بأن يجيء الكلام مؤدياً للمعانى والصور أدق أداء وأوفاه وأجمله وأقواه فليس تكلفاً وإنما هو واجب لا منصرف عنه ولا مفر منه، فإذا سمعت أحداً يذم التكلف بمعنى الحرص على دقة الأداء وقوته ووفائه، فأعلم أنه عاجز ضعيف، وأنه ما ذم إلا ما عرف من نفسه استعصاءه عليه.

وقد أسلفنا مرات أن الغرض من الكلام هو الإفهام، ونقل الصورة أو المعنى أو الإحساس من نفس إلى نفس، ولكن الأدب من غاياته التأثير، والتأثير لا يكفى فيه ما يكفى للإفهام، فلا بد من عناصر جديدة تؤدى إلى هذه الغاية، وهذه العناصر هى الجمال والقوة، وليس هذا من التزيد الذى يدعو إليه، والزينة التى يغرى بها الترف، فإن الإنسان لا نعرفه يقنع بسد الحاجات الأولى، ولو كان يفعل لكفته غرفة واحدة يأكل وينام ويستقبل الناس فيها، ولكان حسبه من الثياب ما يقيه البرد أو الحر، ومن الطعام ما أسد الرمق، ومن الأثاث والأدوات ما يقضى الحاجة، ولكنه لا يجزئ بشىء من ذلك لأنه بطبيعته ينزع إلى التأثير ويتوخى أسبابه فى سعة المسكن وتعدد حجراته وحسن أثاثه وجمال تنسيقه، وفى كثرة الثياب واختلاف ألوانها وطيب مظهرها وفى كل شىء بلا استثناء.

ولا عذر لمن يعالج الشعر إذا جاء كلامه أحط مما يتطلبه مجرد الإفهام، ولو كان الإفهام هو المطلب لا ستغنى الإنسان عن كثير من الكلام بضروبه، فما أكثر ما تغنى الإشارة أو النظرة أو حتى الإيماءة الخفيفة السريعة أو الخفية، وعلى أن الفهم لا يكون إلا إذا جاءت الرموز - من ألفاظ أو إشارات - مؤدية لما اتخذت له، ولو أنك خاطبت أخرس بغير ما اعتاد أن يشير به أو يشار به إليه من الإيماءات للمعانى المقصودة، لما فهم عنك، وكذلك فى الكلام.

فمما يدعو إلى الأسف أن نرى فى هذه الأيام فريقًا من الناس يثب إلى الشعر بغير أداة، ويعالجه متوهمًا أنه أسهل من سواه وأدنى مثالاً وأسهل مأتى ثم يستغرب ويتألم ويغضب إذا قيل له إن الأمر على نقيض ذلك، والحال على خلافه، وإن عليه أن يتجهز ويتهيأ ويستوفى العدة، كما لا بد أن يفعل طالب الموسيقى أو طالب التصوير بل حتى كما يفعل من يريد أن يكون نجارًا أو حدادًا أو براداً، أو صانع أحذية إلخ.. إلخ.

وأمامى وأنا أكتب هذا مجموعة من القصائد للدكتور إبراهيم ناجى تخيرها من بين مئات أخرى، ولم يحسن الاختيار على ما يظهر، ومن الحسن فى شعره قوله من قصيدة اسمها "فى يوم الشباب":

قل للبناة المصلحين ألا أخلقوا ... شمم الذرى ورواسخ الأوطاد

جيلاً من النشئ القوى إذا مشوا ... رفعوا الرؤوس بعزة وعناد

لا خير فى الأرواح تسكن منزلاً ... متهدمًا رثًا من الأجساد

لا خير فى الأرواح تسكن موطنًا ... متخاذلاً لا يرجى لجلاد

أبكت عيونكم الضعيف يصير فى ... ناب القوى فريسة استعباد

فتبينوا أذن الحقيقة واعلموا ... أن الطبيعة هكذا - من عاد

الجو ملك النسر يغشاه على ... ما يشتهى، والغاب للأساد

مهلاً بنى قومى أتيت مذكراً ... فى سماحة مجموعة الأشهاد

وا خجلتا مما يقدمه إذا ... حان الحساب وجاء يوم معاد

أى الصحائف فى غد، وحسابكم ... فى ذمة الأبناء والأحفاد

أى البلاد هو السعيد، وأهله ... يتنابذون تنابذ الأضداد

كل يعيش لنفسه فى أمة ... شقيت بطول تفرق الأفراد

ألخ.

ونحن نقول مثل قوله إنه لا خير في شعر يصب في قالب متداع مفكك كما في قوله:

لا تكتمي في الصدر أسرارًا　　وتحدثي كيف الهوى شاءا

أنا لا أرى إثمًا ولا عارًا　　لكن أرى امرأة وبأساءا

أو قوله:

عجبًا لنا! في لحظة صرنا　　متفاهمين بغير ما آمد

عجبًا لقلب كان مطمعه　　طربًا، فجاء الأمر بالعكس

أو قوله:

وهذه السيارة العاتية　　وربها الجبار كالبرق سار

والسيارة هي التي تسير لا ربها، أو قوله:

يمشي شديد العجب في قربها　　إذ راح يوليها ذراع الحبيب

أو قوله:

ويعبث الدهر بحلو الجنى　　وتستر الصبغة إثم السنين

والسنون لا إثم لها، والخضاب لا يستر إلا فعل الشيخوخة، أو قوله:

تسائلني عيناك عن سالف الهوى　　بقلبي، وتستقضي قديم ديون

وهو خطأ صريح، ومثله قوله:

إذا كنت في شك سلي القبلة التي　　أذاعت من الأسرار كل دفين

على أن في ديوانه له أبياتًا حسانًا كثيرة مثل قوله:

كل شيء صار مرًا في فمي　　بعد أن أصبحت بالدنيا عليما

آه من يأخذ عمري كله　　ويعيد الطفل والجهل القديما

وأحسن من هذين بقوله:

هات أسعدنى ودعنى أسعدك ... قد دنا بعد التنائى موردك

فأذقنيه فإنى ذاهب ... لا غدى يرجى، ولا يرجى غدك

وأبلائى من ليالىّ التى ... قربت حينى وراحت تبعدك

لا تكلنى لليالى فغداً ... تجرح الفرقة ما تأسو يدك

فإذا كان يحسن أن يقول هذا – فلماذا لا يحافظ على هذه الطبقة؟ وكثيراً ما يفسد المعانى بسوء الأداء والغلط، انظر إلى قوله:

هجرت فلم تجد ظلاً يقينا ... أحلماً كان عطفك أم يقينا؟

أهجراً فى الصبابة بعد هجر ... أرى أيامه لا ينتهينا؟

لقد أسرفت فيه وجرت حتى ... على الرمق الذى أبقيت فينا

كأن قلوبنا خلقت لأمر ... فمذ أبصرن من نهوى، نسينا

شغلن عن الحياة ونحن عنها ... وبتن بمن نحب موكلينا (كذا)

وانظر ما صنع الأداء بهذه الأبيات:

يا من أحب وأفتدى ... ويلذ لى فيه الألم

لو كنت تسمع لاسترحت ... من الشكاية للظلم

إن الكواكب ضقن بى ... ذرعاً، وآسيها سئم

ومن العجائب فى الليالى ... والحوادث تستجم (كذا)

شكوى الحيارى فى الحياة ... إلى حيارى فى السدم

ومن التخليط قوله:

إن لـم يـكـــن لـى رجـــــــاء ولا لحـظـى مـــــــغــنــم

أو لـم يـعـد لـى نـصـــيـب دعـنـى بـحـــسـنـك أحـلـم

ونغض عن الخطأ ونسأله ماذا يمنعه أن يحلم كما يشاء بما يشاء؟

وبعد فإن عيب الديوان أن الشاعر لم يحسن الاختيار من شعره الكثير فعسى أن يكون فى المستقبل أشد توفيقًا.

(٣)

تحضير الميزانية المصرية

(للدكتور محمد توفيق يونس)

فى ٢٠٠ صفحة من القطع الكبير

الأصل فى نشوء النظام الدستورى فى كل أمة هو الرغبة فى تقييد رئيس الدولة فى المسائل المالية، فقد كان هؤلاء الرؤساء - من ملوك وأمراء - مطلقى الأيدى ولا رقابة لأحد عليهم، ولم يكن للشعوب حقوق قبلهم يعترفون لهم بها، فكانوا يقبضون على أزمة الحكم ويصرفون الأمور على هواهم، ويفرضون ما شاءوا من الضرائب، ويجبونها وينفقون منها على المصالح العامة ويختصون أنفسهم بما يحبون بلا حسيب. وقد أدى هذا إلى ظلم كثير وإرهاق شديد، حتى تم الاعتراف للأمم - واحدة بعد واحدة، وفى أزمنة متباعدة - بحقها فى الإشراف على المصروفات والإذن بها، وبإجازة جباية الأموال اللازمة لهذه النفقات، وقد تم الاعتراف بهذا المبدأ فى إنجلترا سنة ١٦٨٨، وفى فرنسا سنة ١٧٨٩. أما فى مصر فلم يتقرر هذا المبدأ على وجه صحيح إلا فى سنة ١٩٢٣ لما صدر الدستور لأول مرة.

وقد عانت مصر متاعب جسيمة ونزلت بها نكبات عظيمة بسبب الارتباك المالى الذى جره انفراد ولاة الأمر فيها بالتصرف فى شئونها من مالية وغير مالية، وحسبنا من هذه البلايا ما ركب مصر من الدين وما أصابها من الاحتلال البريطانى، وقد ظلت حكومتها إلى سنة ١٨٨٠ بلا ميزانية، ولم تكن البيانات التى كانت تطبعها الحكومة عن إيراداتها ومصروفاتها من حين إلى حين بالتى يمكن الاعتماد عليها أو الثقة بها، ولم يكن من شأن هذه البيانات أن تساعد المرء على تكوين أى فكرة صحيحة عن موارد الدولة ونفقاتها نعم كانت لكل مصلحة تقديراتها الخاصة ولكنها كانت معيبة وناقصة وأبعد ما تكون عن الدقة والضبط، ولم تكن للحكومة خطة أو سياسة مالية عامة تراعيها هذه المصالح أو تتقيد بها، بل كانت كل مصلحة تستقل بتقديراتها، أو تقدر لها نفقاتها وحدها. وكان الأغلب أن أرقام هذه التقديرات غير صحيحة. وكان يرخص لبعض المصالح بأن تخصم مصروفاتها من إيراداتها ولا تذكر فى ميزانياتها - إذا صح إطلاق هذا اللفظ على أمثال هذه التقديرات - إلا قيمة الإيرادات الصافية ليس إلا، وكان لبعض المصالح خزانات خاصة تغذيها موارد خارجة عن الميزانية خصصت لمقابلة مصروفات لم تكن فى الميزانية، ولم يكن ثم أى نظام أو ترتيب. وكانت الأعمال المتباينة المتباعدة تدخل فى حساب واحد، مثال ذلك أن يشتمل حساب واحد على عوائد "الأغنام" وعوائد أملاك المدن، أو أن يشمل حساب الإيرادات الواحد إيرادات فعلية وإيرادات اسمية.

وقد جرت هذه الفوضى ما يعرفه المصريون من الارتباك المالى وما حملته مصر من الديون وما انتهى به الأمر من الثورة العرابية والاحتلال الإنجليزى، وفى سنة ١٨٨٣ أنشئ مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية وكانت سلطتها محدودة جداً واستشارية، وكان للمجلس حق فى إبداء رأيه فى ميزانية الدولة ولكن الحكومة كانت حرة فى الأخذ بهذا الرأى أو رفضه، وامتازت الجمعية العمومية بوجوب الحصول على إقرارها قبل فرض أية ضريبة مباشرة أو عقارية أو شخصية، وفى سنة ١٩١٣ أنشئت الجمعية التشريعية، وامتازت من الوجهة المالية على مجلس الشورى بالحق فى الأسباب التى تدعو الحكومة إلى رفض ما تبديه الجمعية من الآراء والملاحظات، وفى ١٩٢٣ صدر الدستور وصار واجباً أن تعرض الميزانية على البرلمان، وأن يقرها.

ويجد القارئ بحثًا طريفًا وافيًا فى "تحضير الميزانية المصرية" وهى رسالة وضعها الدكتور محمد توفيق يونس وحصل بها على الدكتوراه (بعد أن نوقش فيها أمام كلية الحقوق فى ١٢ مايو من هذا العام فنال برسالته الدرجة العليا وهى جيد جداً، مع شرف الامتياز بتبادلها مع الجامعات الأجنبية.

وقد رجع فى رسالته هذه إلى المصادر الأصلية كالتقارير والمذكرات الرسمية ومضابط مجلس شورى القوانين والجمعية التشريعية ومجلس الشيوخ والنواب، ومجموعات القوانين والمراسيم والأوامر الملكية، والوثائق الرسمية، والميزانيات والحسابات الختامية ومذكرات اللجنة المالية والمستشار المالى، وبنى الرسالة على هذا الأساس الواقعى ليرى القارئ كيف نحضر الميزانية، وكيف تصبح مجموعة من التقديرات الأولية المبعثرة مجلداً ضخماً منسقًا يصور لك سياسة البلاد الاقتصادية وأحوال مواردها؟

وقد يتوهم القارئ أن رسالة كهذه لا شك تكون مملة، ولكن الواقع أن الأمر على نقيض ذلك، وأنها من أمتع ما يقرأ؛ لأن صاحبها قد تحرى فيها أن [يصور] الميزانية المصرية على اعتبار أنها كائن حى لا مجموعة أرقام جافة.

(٤)

دائرة المعارف الإسلامية

صدر العدد الخامس من المجلد الأول من دائرة المعارف الإسلامية التى ينقلها إلى العربية الأساتذة محمد ثابت الفندى (ليسانس وماجستير فى الفلسفة)، وأحمد الشنتناوى (ليسانس فى التاريخ وليسانس فى الفلسفة)، وإبراهيم زكى خورشيد (ليسانس فى التاريخ)، وعبدالحميد يونس. وهذا العدد يبدأ بتكملة ابن مالك وينتهى بأبى الخير سلطان الأزابكة ومؤسس دولتها. وهو كالأعداد الأدبية السابقة دقة وضبطًا وإحكامًا.

ونحن نعرف أنهم يترجمون ولا يضعون، وإنما يكتفون بالتعليق إذا دعت إليه حاجة من شطط أو غلط فى الأصل، وهذا واجبهم، ومن حقهم أن يقتصروا عليه ويلتزموه التزامًا دقيقًا غير أنا نرجو - بعد أن يفرغوا من الترجمة - أن يضيفوا إلى الأصل ملحقًا يسدون به ما فى الأصل من نقص؛ فقد لاحظنا مثلاً أن واضعى دائرة المعارف اقتصروا على الترجمة لابن الهيثم أبى على الحسن بن الحسن (أو الحسين) بن الهيثم وهو الذى يعرفه الغربيون فى العصور الوسطى باسم (الهازن) **Alhazen** وكان من أعلام العرب فى الرياضة والطبيعيات وله مشاركة فى الطب وفى العلوم الأخرى، وخاصة فى فلسفة أرسطو، وابن الهيثم هذا رجل بصرى نزح فى كهولته إلى مصر.

ولكنا نعرف أن هناك عالمًا عربيًا آخر عرفه علماء الغرب فى القرون الوسطى باسم الهازن أيضًا - أو الخازن أو لا تدرى - وهذا كان عالمًا بالبصريات وله فيها اهتداءات عجيبة حتى ليعد واضع هذا العلم على قواعده الصحيحة بعد أن ظل الأمر فيه إلى أيامه مقلوبًا، ونحن نكتب الآن من الذاكرة وليس أمامنا شىء من المراجع، فإذا كانت الذاكرة لم تعابثنا ولم تخنا فهذا الرجل هو أول من صحح خطأ الظن بأن العين ترسل نورًا فترى الأشياء وهو أول من اخترع النظارات لمساعدة العين على حسن الإبصار وللمحافظة على قوتها وهو فيما نذكر أندلسى على أنا لا نجزم، فإن وسائل المراجعة متعذرة علينا ونحن نكتب هذا وقد يتاح لنا أن نبحث هذا الموضوع فى فصل على حدة. وحسبنا الآن أن نوجه إليه نظر اللجنة التى تترجم دائرة المعارف الإسلامية لعلها تكون فى مراجعتها قد اهتدت إلى حقيقة فتلحق بالدائرة بعد تمامها ملحقًا تستدرك فيه ما فات واضعيها.

في عالم الكتب: نقد وعرض[٩٠]

(١)

مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل

(تعريب الأستاذ على أحمد شكرى

فى ٦٠٨ صفحات من القطع الكبير).

اسم هذا الكتاب "تاريخ مصر من عهد المماليك إلى نهاية حكم إسماعيل تأليف "المستر جورج يانج" وتعريب "على أحمد شكرى" أما حقيقته فتختلف عن ذلك اختلافًا عظيمًا، فقد اكتفى زميلنا الأستاذ على شكرى بأن يترجم جانبا من الكتاب - فصلين أو نحو ذلك - ثم ذهب يعلق على القليل الذى ترجم، بما ملأ حوالى خمسمائة صفحة على الأقل. وفى هذا يقول: "ومن هنا اتجهت نيتنا إلى ترجمة كتاب المستر يانج الذى، وإن كان قد توخى إنصاف المصريين كأمة، إلا أنه قد أثار غبار الجدل حول عدة مسائل بعضها دينى وبعضها سياسى وكان فى كلا الحالين يصدر عن رأى غير ناضج يتأثر بظواهر الأشياء وقشورها دون العناية باللباب، أو تحرى بواطن الأمور".

ولك أن تسأل: إذا كان كتاب المستر يانج هذه صفته؛ فلماذا يجشم صديقنا نفسه عناء ترجمته؟ ولماذا لم يختر كتابًا غيره خاليًا من هذه العيوب بريئًا من مثل هذه المآخذ؟ وهو سؤال نلقيه ولا نعرف له جوابًا، وما نظن صديقنا إلا أنه مثلنا لا يسعه أن يجيبنا جوابًا شافيًا يستريح إليه العقل.

---

(٩٠) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢١ يونيه سنة ١٩٣٤ (ص٤).

ويمضي الأستاذ شكرى فى نقد الكتاب، ويبين أن من الخطأ أن يحاول المرء وضع تاريخ لقوم لا يزالون على قيد الحياة، فيقول: "ولكن صاحبنا المستر يانج حاول لسوء الحظ تخطى ما اصطلح عليه جمهرة المؤرخين، وأن يكتب تاريخ مصر فى أثناء حياة أبطال الرواية، ولذا لم يأمن الشطط والوقوع فى الخطأ فى أكثر من موضع، وبخاصة فى تاريخ مصر منذ نشوب الحرب العالمية".

وبهذا يحوجك إلى سؤاله مرة أخرى لماذا عنى إذن بنقل هذا الكتاب الذى يحفل بالغلط والشطط؟

ثم يقول: "ولقد كانت النية متجهة فى بداية الأمر إلى إخراج ترجمة كتابه جملة واحدة، ولكنا عندما رأينا أن معظم ما كتبه فى السنوات التى تلت نشوب الحرب فضلاً عن أنه حديث العهد وحاضر فى الأذهان، فهو مشوش وينقصه الائتناس بالمستندات والشواهد التى لم تكن فى متناول المؤلف عندما وضع كتابه، لهذا رأينا أن نكتفى بذكر ما أورده عن أمراء مصر إلى نهاية عهد ساكن الجنان إسماعيل باشا. لكن لما كان ما أورده خاصاً بعهد منشئ مصر الحديثة الحاج محمد على باشا وعهد حفيده إسماعيل باشا فى حاجة إلى شىء من الإسهاب، رأينا أن نضيف إليه من الحواشى المتضمنة من المعلومات القيمة ما هو كفيل بأن يملأ كل مصرى فخراً ويجعله يتيه إعجاباً بتاريخ هذه الأسرة العلوية المجيدة التى اصطفتها العناية الإلهية لنقل مصر من مجرد ولاية عثمانية خاملة إلى دولة مستقلة ذات سيادة".

فالحق أن هذا عمل غير مفهوم: كتاب يصفه الأستاذ شكرى بأنه محشو بالخطأ والغلط والشطط، وأنه فى جملته غير منصف، وفى تفصيله غير واف، وأن فيه تشويشاً شديداً وأنه ينقصه التثبت ويعوزه التحقيق، وليس هو بالكتاب الوحيد الذى ظهر بالإنجليزية فى هذه الدنيا عن هذا العهد، فيعمد إليه صديقنا ويختاره من بين مئات الكتب على الرغم من هذه العيوب، وينقل منه فصلين، أو قريباً من ذلك، فى نحو ثلاثين أو أربعين صفحة، ثم يروح يشهر بالمؤلف ويعيبه ويذمه فى المقدمة، ويعلق عليه فى أكثر من خمسمائة صفحة!، فإذا كان أحد يفهم هذا الصنيع فإنى أنا ليس عندى له

غير العجب، ذلك أن صديقنا كان له ألف مندوحة عن ترجمة هذا الكتاب المعيب الناقص فى رأيه، وكان يسعه أن يستغنى عن الترجمة جملة وأن يضع هو تاريخًا صحيحًا لهذا العهد أو أن يعمد إلى مؤلف آخر برىء من هذه العيوب التى يبينها، وينقله، أما ما آثر أن يفعل فلا مسوغ له عندى.

ولا تعليل عندى لهذا السلوك الغريب، إلا أن صديقنا الأستاذ على أحمد شكرى ألف أن يترجم، ولم يعتد أن يؤلف، وقد تقرر فى ذهنه على ما يظهر أن مجاله الترجمة وأن التأليف عمل مستعصٍ عليه، لطول ما زاول الترجمة وقلة ما كتب أو صنف.

وهو شديد الولوع بالضخامة فى الكتب، وما أعرفه أخرج كتابًا إلا رأيت صفحاته على الأربعمائة، وهذا الكتاب يقع فى أكثر من ستمائة صفحة من القطع الكبير، وفيه ما يقرب من ثلاثمائة صورة تاريخية نادرة فهو من هذه الناحية على الأقل كنز نفيس، وقد اعتمد فى تعليقاته وحواشيه وهوامشه على طائفة صالحة من التواريخ العربية والإفرنجية، ففى وسع القارئ أن يطمئن إلى الهوامش ويثق بالدقة والصحة فيها إذا كان لا يستطيع أن يطمئن إلى الأصل الذى ترجمه الزميل عن المستر يانج.

وأستأذن صدقى فى سؤال أرجو أن يغتفره لى، وهو ما قيمة تاريخ لا يضيف إلى معارفنا شيئًا، ولا يزيد كلمة أو حقيقة على ما هو موجود فى الكتب الأخرى؟؟ وأجيب أنا فأقول إن القيمة قد تكون فى حسن العرض وجمال الترتيب، وفى تيسير الأسباب وتقريب المنال، وهذه التعليقات الواسعة التى عنى بكتابتها والتى لا شك فى وفائها كانت خليقة بأن تكون أنفع لو رتبت على غير هذه الصور، ولم تكتب على أنها هوامش.

وليعذرنى الصديق فليس أعرف منى بفضله ومقدرته ومواهبه، ولكن عجبى من صنيعه فى هذا الكتاب لن ينقضى.

(٢)

الحياة والبيت

(بقلم الأستاذ أحمد عبد الحليم العسكرى
فى ١٩٢ صفحة من القطع الصغير)

"الحياة والبيت" كتاب ممتع نافع فيه اثنتان وخمسون قصة لخصها الكاتب من قضايا فصلت فيها المحاكم الشرعية وقال فى المقدمة: "لست أحب أن أعرف ما جاء فى هذا الكتاب، ولا أن أضيف إليه صفة جديدة؛ فالناس جميعًا قد قرأوا فصوله متفرقة فى جريدة "الأهرام" وأعجب بها بعضهم على أنها حوادث اجتماعية خطيرة يجب أن تكون موضع النفع والفائدة وقدرها البعض الآخر على أنها دروس فى علم الأخلاق وإن لبست لباس الحوادث فى مختلف الأوضاع والأشكال".

وقد يسأل سائل: إذا كانت هذه القصص نشرت فى جريدة كبيرة سيارة كالأهرام، فلماذا تجمع فى كتاب؟ والجواب أن الجمع أكفل بالفائدة لأنه أقوى لفتًا وأشد إبرازًا وقد قرأت هذه القصص - أو أكثرها - فى الأهرام فكان أثر كل واحدة يذهب قبل أن تجىء التالية ولم يعلق بنفسى منها شىء ونسيتها جملة وتفصيلاً، أما الآن وهى مجموعة بين جلدتى كتاب فإنى أرى أن معانى جديدة وأخلص منها إلى نتائج لم تكن تخطر لى وأنا أقرؤها مفرقة والوقع هنا لمجموع قوى متساندة كانت قبل ذلك اشتاتًا مبعثرة. وفرق ولا شك بين ما يؤثر فيك بمجموع معروضه، وما يؤثرنا [بعروضه] المتناثرة كل على حدة.

ومن هذه القصص التى أحسن الأستاذ العسكرى تلخيصها ما يرفع لعينك صورة خلقة شاذة، ومنها ما يبين لك كيف يكون تسخير الأديان للشهوات، وماذا يؤدى إليه التناقض بين الأحكام ومسائل الأحوال الشخصية، وماذا يجر الزواج بالأجنبيات من المتاعب، وكيف يتفق أن تكون الفتاة زوجة ولا يدخل بها الرجل؟ وتظل هكذا معلقة سنوات وسنوات لا تتمتع بحقوق الزوجية ولا تطلق وتسرح، ويطول النزاع ويتشعب

وهى على هذا التعليق، وكيف تتزوج امرأة من رجلين ولا تستطيع أن تثبت لابنها نسبه؟ وماذا تفعل الشعوذة؟ وكيف تخرب البيوت العامرة؟ وماذا يبلغ أحيانا من أثر الاختلاف بين المذاهب السياسية فى الحياة الزوجية؛ فيطلق الرجل زوجته ويهدم بيته لأنه غير رأيه فى السياسة والأحزاب، وكيف أنه لا يزال فى هذه البلاد شبان أقوياء مفتولو السواعد أصحاء الأبدان، يرفعون الدعاوى على آبائهم ويطلبون من المحاكم أن تلزم هؤلاء الآباء بنفقة شهرية لهم لأنهم لا يعملون عملاً ولا يزاولون مهنة ولا يصح لهم أن يشتغلوا بغير الأكل والنوم، إذ كانوا أبناء أشراف؟ وما هى علاقة مكاتب التخديم بالحياة الزوجية؟... إلى آخر ذلك.

فالكتاب كما ترى مباحث اجتماعية خليقة بالدرس جديرة بالعناية، وقد ساقها الكاتب بأسلوب قصصى حسن لا يعيبه إلا أمران: لهجة التهكم والزراية التى يفيض بها قلمه، وضعف العبارة فى أكثر المواطن، ولسنا نعلم أن هذه الحوادث تستوجب السخرية، وإنا لننكرها ونستقبحها منه، وقد يزعمها فكاهة لا سخرية، فإن كان يحسبها كذلك أو يدعى هذا لها، فهى فكاهة ثقيلة، وليس أثقل من تناول المنكوبين بالعبث والتهكم، ولا أبعد عن المروءة من أن تركب الناس بالسخرية فى محنتهم، ولقد قرأت الكتاب فأرضانى الاختيار والتلخيص، ونفرتنى اللغة، وأسخطتنى هذه اللهجة الجافية.

وليس يليق بكاتب فى جريدة كبيرة كالأهرام، أن يقع فيما وقع فيه الشيخ العسكرى من الأغلاط، ومن أمثلة أخطائه قوله "يحوطها بمظاهر الجزع والفزع والصراخ والأسى والأنين" وليس للصراخ والأنين وما إليها مظاهر؛ لأنها هى مظاهر لسواها من الجزع أو الفزع أو الألم أو الحزن أو غير ذلك، وقوله "معدمة بعض الشىء" وبعض الشىء هنا لا تستقيم، وقوله "وكان من دواعى هذه الهموم وتلك الأحمال أن تخرج بها عن دائرة التفكير فى ذاتها من حيث ما يحوطها من مظاهر الجمال المروع إلى الذهول والإطراق" وهو تخليط لا معنى له. وقوله "وعللوه بتعلات شتى" والتعلة غير العلة، وقوله "وقد تدلت إليها معانى الجمال" وهو تعبير سمج لا معنى له. وقوله "وملأت قلبه وتملكت من عاطفته" والتملك هنا خطأ وإتباعه بهذا الحرف خطأ أفحش، وقوله "واستلموا تلك الوثيقة" والاستلام غير التسلم، وقوله "ويتروض وإياها" وهما كلمتان

فيهما غلطتان، حرفية ونحوية، وقوله "الضابط الغطريف الرشيق" ولا محل للغطريف هنا، وقوله "فما زال يضرع إليها ويجثم أمامها" والجثوم شيء آخر. وقوله "ويصف لها كذا وكذا مما يعتلجه ويختلج فيه" فأخطأ في استعمال اللفظين، إلى آخر ذلك إذا كان له آخر، فإن صاحبنا قليل المحصول ضعيف المادة على ما يظهر، ويعز علينا أن نقول فيه هذا، فإنه زميل، ولكن أمر اللغة في هذا البلد قد صار إلى الفوضى، فلا مفر من قيامة نقيمها على المستهينين بها والمهملين التاركين، ونار نوقدها ونرمي فيها كل فاسد وضعيف.

والمصيبة أن التحصيل غير عسير، وأن قليلاً من العناية فيه الكفاية، ولكن أصحابنا هؤلاء يريدون أن يكونوا أكتب الكتاب وأشعر الشعراء بلا عناء، ولا والله ما إلى هذا من سبيل، وإنها لغواية، فليسرفوا هذا وليقبلوا على الدرس، فما يكون المرء كاتباً إلا بعد أن يكون قارئاً.

(٣)

سعادة الأسرة

لتولستوي الروائي الروسي

(ترجمها الأديب مختار أفندي الوكيل

في ١٧٤ صفحة من القطع المتوسط)

مختار أفندي الوكيل من الأدباء الشبان، ولست أعرفه، ولكني قرأت له ما ينشر في بعض المجلات من شعر وأقاصيص، وشممت منه الخير وآنست سمة الرشد، وسرتني منه عنايته بالاطلاع وتحرز في العبارة وتواضع في اللهجة، يفسح مجال الأمل فليس أضر من الغرور في فاتحة العمر، ويظهر أن له ولعاً بالقصة فإنه يقول:

"شغفت بالقصص منذ الحداثة، وما زلت أذكر كيف كنت أرهف الأذن إلى الحكايات الوهمية التى كانت تلقيها جدتى على مسامعى... ولقد كان لهـذه القصص الخرافية أثرها القوى فى مخيلتى الساذجة... وهكذا شـببت والقصة موضع عنـايتى فكتبت - أول ما كتبت - قصصاً قصيرة حاولت فيها رسم الريف المصرى الوديع الذى ترعرعت فى أحضانه، وتفتحت عواطفى بين جداوله الصافية وطيوره الصادحة وزهوره الباسمة، والحق أقول إنى لم أوفق التوفيق كله فى رسم ذلك الريف الحبيب على حقيقته فيما كتبت عنه من قصص، وما أحسب سواى وفق إلى ذلك حتى اليوم، وأسباب هذا القصور عديدة فى مقدمتها حداثة فن القصة وطرافته فى هذه اللغة. ومن ثم وجهت نظرى إلى الأدب الأوربى فألفيت القصة هنالك عظيمة القدر عزيزة الجانب بعيدة مدى النفوذ فطرقت بابها عند الإنجليز والفرنسيس والروس فرأيت العجب العجاب... لقد ملك على فن القصة عند الروس جماع مشاعرى حتى لقد كنت أحس بذهول روحى عجيب لدى تلاوة قصة من قصص تولستوى وتشيكوف وسواهما من أعلام القصص الروسى، ولعل تفضيلى للقصة الروسية على سواها يرجع إلى أمر واحد هو البساطة والإخلاص فى التعبير، وأشهد أنى ما تلوت قصة لهؤلاء القوم إلا رأيت الحياة تشع من ثنايا السطور وإلا ألفيت الأشخاص تنهض فتروح وتجيء وتتحدث، ولمحت الأماكن المختلفة مرتسمة أمامى فى جلاء ووضوح".

ولعل لهذا السحر أسباباً أخرى غير الدقة والإحكام، فإن فى غير الروسيين أيضاً دقة وإحكاماً فى التصوير والتعبير، ويخيل إلينا أن بين الروسيا ومصر تشابهاً، فإن كليهما بلد زراعى، وقد عانت روسيا ظلم الحكم القيصرى، وعانينا الحكم المطلق ثم الحكم الأجنبى، وترك هذا وذاك أثراً فى مزاجنا العام جعله قريباً من المزاج الروسى. وروسيا بعد أمة شرقية مثلنا، وهى أقرب إلينا من حيث المزاج والروح ومن حيث أثر الزراعة فيهما. والقصة الروسية تصور حالات نحس لها صدى فى نفوسنا، وتصف ما ليس بالغريب عنا إلى آخر هذه الأسباب التى تدنى ما بين النفس المصرية والنفس الروسية.

ويسرنا أن يكون فى وسعنا أن نثنى على هذه الترجمة عن الإنجليزية للكاتب الإنجليزى "دف" وأن نشارك الأستاذ الشاعر الدكتور زكى أبو شادى فى وصفه لها بأنها بديعة.

فـى عـالـم الـكـتـب: نـقـد وعـرض[٩١]

(١)

مفتاح كنوز السُّنة

(وضعه بالإنجليزية الدكتور فنسنك،
ونقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى،
وأصدرته لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.
فى ٥٤٤ صفحة من القطع الكبير)

خير ما نقدم به هذا الكتاب إلى القراء أن ننقل لهم بعض ما كتبه عنه العالم الجليل الأستاذ السيد محمد رشيد رضا قال:

"إن خير ما أعرف به هذا الكتاب لقراء العربية، أن أبين لهم وجه الحاجة إليه وطريق الانتفاع به، وعدم استغناء أعلم علماء الحديث عنه، بل هم أشد حاجة إليه من غيرهم، ويتلوهم من دونهم من العلماء، فمن دونهم من دهماء القراء الذين يقتنون شيئًا من كتب الحديث المشهورة وغيرها مما يراه القراء فى طرته، وإنى أستمد هذا البيان من تجربتى واختبارى فى السنين الطوال. إننى وفقت لطلب العلم من طريق الدليل، ثم وفقت لنشره بالدليل، ووفقت للمناظرة والإفتاء بالدليل، واشتغلت بعلم الحديث من أول العهد بالطلب وارتقيت فيه بالتدريج، وتمرنت على مراجعة كتبه وكتب الجرح والتعديل

---

(٩١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٢٤ (ص٣).

لتخريج الأحاديث ونقدها وسرعة الوصول إليها من أقرب طرقها، واشتهرت عند من يعرفنى من أهل العلم والذكاء، كان الأستاذ اللوذعى الشيخ محمد توفيق البكرى يظن أن عندى فهارس لأوائل الأحاديث كلها ومعجمًا لمفرداتها كهذا الكتاب يبين عند كل كلمة مواضع كل حديث وردت فيه من كتبها، ثم علم أنه ما ثم إلا مفتاح الصحيحين المطبوع المشهور وهو خاص بأوائل أحاديث الصحيحين القولية والمسندة، وبيان مواضعها من المتن وشروح الحافظ العسقلانى والقسطلانى والعينى لصحيح البخارى (فى طبعاتها الأولى) وشرح النووى لصحيح مسلم المطبوع على هامش شرح القسطلانى للبخارى. ولو وجد بين يدى مثل هذا المفتاح لسائر كتب الحديث لوفر علىّ أكثر من نصف عمرى الذى أنفقته فى المراجعة ولكنه لم يكن ليغنينى عن هذا الكتاب (مفتاح كنوز السنة) فإن ذلك إنما يهديك إلى مواضع الأحاديث القولية التى تعرف أوائلها، وهذا يهديك إلى جميع السنن القولية والعملية وما فى معناهما كالشمائل والتقريرات والمناقب والمغازى وغيرها، فلو كان بيدى هو أو مثله من أول عهدى بالاشتغال بكتب السنة، لوفر على ثلاثة أرباع عمرى الذى صرفته فيها ولكننى من الاستجابة لمن اقترحوا على أن أضع كتابًا جامعًا للمعتمد منها، وكتابًا آخر للمشكل منها، فى نظر علوم هذا العصر وفلسفته والجواب المقنع عنه".

وحسبك بهذه الشهادة من عالم جليل مثل السيد رشيد يعد حجة فى هذا الزمن ومرجعًا يعز نظيره، وهذا الكتاب من تأليف المسيو فنسنك المستشرق الشهير الذى أهملته وزارة المعارف بعد أن عينته عضوًا فى المجمع الملكى للغة العربية؛ لأنه فيما زعم بعضهم، طعن على الإسلام فى كلمات فى بعض كتبه، وهو - أى مفتاح كنوز السنة - عبارة عن فهرس دقيق واف لثلاثة عشر كتابًا من أمهات كتب الحديث وهى: مسند الإمام أحمد بن حنبل، وصحيح البخارى، وصحيح مسلم، وسنن الدارمى، وسنن أبى داود السجستانى، وسنن الترمذى، وسنن النسائى، وسنن ابن ماجه، وموطأ الإمام مالك، ومسند أبى داود الطيالسى، وسيرة ابن هشام، وكتاب المغازى للواقدى، وكتاب الطبقات الكبير للإمام محمد بن سعد.

وقد رتب الأستاذ فنسنك فهرسه هذا على المعانى والمسائل العلمية والأعلام التاريخية، وقسم كلا إلى الموضوعات التفصيلية المتعلقة به، ورتب عناوين الكتاب على حروف المعجم، وجمع كل ما يتعلق بكل مسألة من الأحاديث والآثار الواردة فى هذه الكتب.

وقد نقل الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى هذا الفهرس إلى اللغة العربية، ووضع جداول مفصلة للكتب والأبواب والأحاديث فى كل كتاب من الكتب الثمانية التى تعد أصول السنة ومصادرها الصحيحة الموثوق بها، ولا شك أن إظهار هذا الكتاب باللغة العربية أجل ما يخدم به علم الحديث وأكبر عون لمن يريد – من غير العلماء – أن يستفيد من هذه الكنوز التى لا يفوز طالبها بما ينبغى منها إلا بعد العناء الجم والمشقة التى يتعذر الصبر عليها فى أحوال كثيرة.

ولسنا نحتاج أن نقول كلمة فى قيمة الأحاديث النبوية، فإنها أرفع من ذلك، ونحن أضعف وأضأل من أن ندعى القدرة على بيان هذه القيمة. فحسبنا أن نشكر للأستاذ فؤاد عبد الباقى هذا العمل الجليل، وأن نحيى الأستاذ فنسنك الذى سلخ فى وضع هذا الفهرس حوالى أربعين عامًا، وجاءت وزارة المعارف فزعمته طعن على الإسلام فلعلها تكفر عن زلتها هذه ببذل المعونة الواجبة للأستاذ المترجم على ما أنفق فى نقل الكتاب وطبعه، فإنه كتاب ضخم لا يقتنيه كل قارئ، ولا ربح من ورائه، ولا شبهة على الإطلاق فى نفعه الجزيل، وعسى أن يهدى الله مشيخة الأزهر، فتولى هذا الكتاب العناية التى هو بها حقيق، ومن ترى أجدر منها بذلك؟!

(٢)

أسـاطـيـر ألـف يـوم

(تأليف كامل أفندى كيلانى

فى ٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط)

* * *

كامل أفندى كيلانى شاب مدهش يخرج فى شهر كتابًا أو كتابين، فكأنه مصنع لتأليف الكتب لا إنسان من لحم ودم وأعصاب. وما لقيته مرة إلا قال لى إن كتابًا جديدًا اسمه كذا أو كذا، سيصدر بعد بضعة أيام، وأنا أقرأ الكتاب من هذه الكتب فى أطول من الوقت الذى يستنفده هو فى تأليفه وطبعه، وأنا مع ذلك من أسرع الناس قراءة – وأقلهم لهذا، استفادة منها – ومع ذلك أراه يصدر الكتب – الضخمة – فى أقصر من الوقت الذى أقرأه فيها؛ فكيف يكون هذا ممكنًا ميسورًا؟ إن الله قادر على كل شىء، وهو ولا شك قادر على أن يهب كامل كيلانى قدرة مصنع آلى على الإنتاج السريع، ولكن المسألة مع ذلك لا يحل لغزها أن نحيلها على قدرة الله. فما هى الحكاية؟ وكيف يتيسر لكامل أفندى ما لا يتيسر لإنسان؟ ولست أنكر عليه أن يخرج الكتب بهذه السرعة التى تدير الرأس ولكنى أحسده وأتساءل لماذا لا يسعنى ما يسعه؟؟ ولست أعنى نفسى على وجه التخصيص، وإنما أتخذ منها رمزًا لسواى من السلاحف.

وهذا الكتاب الأخير – إن كان هو الأخير! – "أساطير ألف يوم" فى كم ساعة يا ترى ألفه؟؟ وهو فى خمسين ومائتى صفحة لا تنقص واحدة، فلو أنى أردت أن أنسخها بالقلم لاحتجت إلى شهر كامل. ولكنه هو يؤلفه فى بضع ساعات، وينذرنا فى ختامه بجزء ثان له يتلوه، وما يدرينى ويدريكم أيها القراء؟ لعل الجزء الثانى قد صدر ونحن لا ندرى، قبل أن نفرغ من الكتابة عنه والإشارة إليه! وأحسب أن كامل كيلانى أفندى لا يدعو المرء له بالقوة، فإنه أحوج إلى الضعف والفتور.

وأنا أشم الخير من هذا الكتاب، وأعنى بذلك أنى صحفى - كما لا أحتاج أن أقول - وأن الصحفى تعنيه الأخبار والحوادث أكثر مما يعنيه سواها، وهو لفرط حرصه على تعقبها واصطيادها يكاد "يشمها" قبل أن تقع، وكأنى بكامل كيلانى أفندى قد أثار كتابه هذا (أساطير ألف يوم) لغطًا لا ينتهى إلا بحل اللغز وجلاء المشكل والكشف عن السر المغيب، والله الذى خلق كامل كيلانى قادر على أن يرميه "بدليلة" جديدة تستدرجه إلى الإفضاء إليها بسر قوته وموطنها كما استدرجت أختها القديمة شمشون الجبار فعرفت منه أن السر فى شعر رأسه.

بعد ذلك أقول إن هذا الكتاب لم يعجبنى على خلاف الكتب الأخرى التى وردتنى منه، وقد قرأته من الجلدة إلى الجلدة فلم أفهم أى شىء هو؟ وهل هو جاد فيما زعمه فى المقدمة أم هو يهزل ويركب القراء بالدعابة؟ فإنه يقول "إنك لن تظفر من أساطير ألف يوم فى اللغة العربية إلا ببضع أقاصيص متناثرة لا تكاد تعثر عليها فى المكتبات لنفاد طبعتها. وهى تجمع إلى رداءة الطبع انحطاط الأسلوب، فعبارتها عامية مفككة لا يعدلها فى اضطرابها وفسادها إلا فساد أسلوبها القصصى وإسفافه. وقد ظفرنا بمجموعة عربية تحوى بعض هذه القصص وتمتاز عن تلك القصص المبعثرة بجودة الطبع - بالقياس إليها - وإن لم يَسم أسلوبها عنها. أما الطبعات الغربية فقد ظفرنا منها بمجموعات ثلاث يختلف بعضها عن بعض - فأضفنا قصص المجموعة الأولى، وهى أكثرها عددًا، إلى القصص التى وجدناها فى المجموعتين الأخريين ثم أضفنا ما عثرنا عليه من القصص العربى والغربى الذى وجدناه مبعثرًا بين طيات الكتب القصصية الأخرى من أشباه هذه الأساطير. وقد عنينا جهد الطاقة بتهذيب الأسلوب القصصى فى ما ترجمناه عن اللغات الغربية أو تخيرناه من الأقاصيص العربية إلخ إلخ".

هذا كل ما يذكره من حكاية هذه الأساطير فى مقدمة طويلة مضطربة حشر فيها خرافات وحشاها بنماذج وأمثلة من ألف ليلة ومن رسالة الغفران وغيرهما وترك القارئ فى آخرها حائرًا ضالاً لا يعرف أى شىء هذا الكتاب؟ وثم كلام آخر عن مقدمة ما سماه (الطبعة الفرنسية المهذبة من كتاب ألف يوم) وأنه فارسى الأصل، لا تخرج منه بمحصول ولا تلقى بعد قراءته بدأ من التساؤل مرة أخرى أى شىء هذا الكتاب؟

ومن غريب أمر الكتاب أن أساليبه متفاوتة تفاوتًا ظاهرًا، ولا يخطئ القارئ أو كيلانى أفندى فيتوهم أنا ندخل بين الأساليب المتفاوتة القصص المنقولة من الكتب القديمة، فإن ملاحظتنا مقصورة على ما كتب بلغة (عصرية) حتى لقد خيل إلينا أن عدة أقلام جرت فى هذا الكتاب.

والقصص ضعيفة مضطربة التأليف مهلهلة النسج، ومن غرائب ما فيها أنك تجد جارية تغنى بهذه الأبيات أمام الرشيد:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم	ربَّ ذكرى قربت من نزحا
وارحموا صبًا إذا غنى بكم	شرب الدمع وعاف القدحا

وهما لمهيار الديلمى(٩٢)، وأين عصر الرشيد من عصر مهيار(٩٣)؟! ثم بهذه الأبيات:

بالله يا منزل الكرخ الذى دَرَست	آثارُهُ وعفت مُذ بنتُ أربُعُهُ
هل الزمانُ معيدٌ فيك لذتنا	أم الليالى التى أمضتهُ تُرجعُهُ؟

وهى لابن زريق(٩٤) وهو متأخر(٩٥)، ثم بهذه الأبيات:

ولقد مررتُ على ديارهمُ	وطُلولُها بيد البلى نَهبُ
فوقفتُ حتى ضَجَّ من لَغبٍ	نضوى وَلجَّ بعُذلى الركبُ
وتَلفتَت عَينى فَمُذ خَفيَت	عنى الطُلولُ تلفت القَلبُ

---

(٩٢) من الرمل (المحرر).

(٩٣) توفى مهيار عام (٤٢٨هـ/١٠٣٧م) بينما توفى الرشيد عام (١٩٣هـ/٨٠٩م) (المحرر).

(٩٤) من البسيط (المحرر).

(٩٥) توفى ابن زريق عام (٤٢٠هـ/١٠٢٩م) (المحرر).

وهى للشريف الرضى[٩٦] وهو أيضًا متأخر[٩٧]. وتجد فى القصص من يتمثل فى عصر الرشيد بقول ابن الرومى[٩٨]:

أعانقها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ ... إليها وهل بعد العناق تدان؟
وألثمُ فاها كى تزولَ حرارتى ... فيشتد ما ألقى من الهيمان
وما كان مقدار الذى بى منه ... ليطفئهُ ما تلثمُ الشفتان
كان فؤادى ليس يشفى غليله ... سوى أن يرى الروحين يمتزجان

بل يغنى المغنون فى أيام الرشيد بشعر ابن الفارض أيضًا!! فلم يكن ناقصًا إلا أن يجعلهم المؤلف أو الكيلانى – أو واضع هذه القصص والسلام – يغنون بشعر العقاد أو شوقى أو شعرى؟! أفلم يكن ثم شعر معروف أو مروى فى زمن الرشيد يغنى به الناس ويتمثلون حتى يحتاج الأمر إلى الاستمداد من أزمنة لم يدركها الرشيد؟؟

وفى الكتاب قصة صينية كل الأسماء فيها عربية، والظريف أن الأمير خلف ابن الملك "تيمور طاش" – وهو الاسم الأعجمى الوحيد – يتمثل وهو سائر إلى إمبراطور الصين ليخطب بنته بأبيات ابن الرومى[٩٩] التى يقول فيها:

يتنازعنى رغبٌ ورهبٌ كلاهما ... قوى، وأعيانى اطلاعُ المغايبِ
فقدمتُ رجلاً راغبًا فى رغيبةٍ ... وأخرتُ أخرى رهبةً فى المعاطبِ
أخافُ على نفسى وأرجو مفازها ... وأستارُ غيبِ الله دون العواقبِ
إلا من يرينى غايتى قبل مذهبى؟ ... ومن أين؟ والغاياتُ بعد المذاهبِ؟

(٩٦) من الكامل (المحرر).
(٩٧) توفى الشريف الرضى عام (٤٠٦هـ/١٠١٥م) (المحرر).
(٩٨) من الطويل، وقد توفى ابن الرومى عام (٢٨٣هـ/٨٩٦م) (المحرر).
(٩٩) من الطويل (المحرر).

والأبيات من خير ما يتمثل به فى هــذا الموقف، ولكن موافقــة معناها لا تصلح أن تكون مسوغًا لجرها إلى الصين وإجرائها على ألسنة التتار فى زمن سابق لزمن ابن الرومى، وهذا كله خلط واضطراب، فما كان يعدم واضع القصة - كائنًا من كان - أبياتًا غيرها.

وإنا لنرجو أن يكون صديقنا كيلانى أفندى أكثر توفيقًا فى الكتب الكثيرة التى لم يكتبها، ولكنه سيفعل بأسرع مما نستطيع نحن أن نقرأ.

مجلة المجمع

ملاحظات سريعة على الألفاظ الموضوعة[١٠٠]

قرأت البارحة "مجلة المجمع اللغوى" - أو مجمع اللغة العربية الملكى - وهى شيء عظيم ومجلد ضخم فى أربعمائة صفحة كبيرة حوت كل ما فعل المجمع فى دورته الماضية، وأكثر ما وضع الأعضاء من البحوث الخاصة بعد تفرقهم، وأثر الأستاذ الشيخ أحمد الإسكندرى فى المجلة كبير، وجهده فى المجمع عظيم، ولا عجب فإنى أعرفه - فقد كان أستاذى - من أعظم الناس جلداً وأدقهم بحثًا وأشدهم غوصاً، ولعلى لحبى له أراه فى كل شيء وألمح أصبعه حتى حيث لم يضعه.

وقد كشفت هذه المجلة عن عيب فى طريقة تأليف المجمع والأسلوب الذى يجرى عليه فى العمل، فإنه لا يلتئم إلا شهراً أو شهرين فى العام ثم تتفرق أعضاؤه ويرجعون إلى بلادهم وأعمالهم، ومن هنا قلة ما أثمر اجتماعه السابق، وخير من ذلك وأجدى أن تؤلف من أعضاء المجمع لجنة دائمة تواصل العمل على مدار العام، وإذا كان هذا لا يتيسر للأعضاء الغرباء، فيحسن أن يقصر الاختيار لهذه اللجنة على المصريين، ثم تجيء دورة الانعقاد العام فتطرح على المجمع البحوث لتمحيصها ودرسها والانتهاء إلى رأى فيها، ولسنا ندرى كيف يتسنى للمجمع بغير ذلك أن ينهض بالعبء الذى ألقى على عاتقه وينفذ فى المهمة التى وكلت إليه.

وقد وضعت إحدى اللجان - وهى مؤلفة من الأساتذة الإسكندرى والعوامرى والجارم - أسماء لمسميات شتى، والتعبير هنا بلفظ الوضع غير دقيق، فما استحدثت

---

(١٠٠) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٣ فبراير سنة ١٩٣٥ (ص٣).

اللجنة شيئًا، وإنما رجعت إلى المعاجم المختلفة - أو المعجمات كما تشاء أن تسميها لحكمة خفيت علينا - فانتقت ما عدته موافقًا - وفي اختيارها توفيق وسداد، وكثير منه شائع معروف، ولكن بعضه لا يمكن استعماله، ولا يرجى شيوعه لنبوه ومجافاته للذوق مثل "الطربال" (بتشديد الطاء المكسورة) للعمارة الكبيرة، والعمارة لفظة صحيحة، وفيها الكفاية لمن شاء، وقد شاعت كلمة "الشرفة" للبلكون، فنقلتها اللجنة إلى ما نجد وضرس على جافة سطح البناء، واختارت لفظًا آخر هو "الروشن" للبلكون، وكان أولى أن تترك "الشرفة" لما استعملت له، فما بها عيب، وآثرت لفظ "الشق" لما نسميه "الشقة" أى الجانب من البيت، ومجاراة الناس فى تأنيث اللفظ خير لموافقة ذلك للذوق العام وانتفاء المانع من التأنيث، ووضعت لمنديل السفرة كلمة "المشوش" هي صحيحة ولكنها نابية لا تألف، وخير منها "الفوطة" وجمعها "فوط"، بضم ففتح، فإنها صحيحة، ووضعت "السوملة" للفنجانة الصغيرة التى نشرب فيها القهوة، وجعلت الفنجانة لما هو أكبر - مما يشرب به الشاى مثلا، وكلمة "السوملة" ثقيلة، فلو قصرت الفنجانة على ما يستعمل للقهوة، واتخذ الفنجان للشاى، لكان خيرًا، فإن اللفظ يستعمل مذكرًا ومؤنثًا، ولا معنى لقصر لفظ "المداد" على غير الأسود من أنواع الحبر فإن هذا لا يستقيم، والحبر يوصف بألوانه في كل لغة، فيقال الحبر الأحمر والحبر الأزرق وغير ذلك، ومن التكلف الذى لا موجب له أن تحرص على أن يكون لكل شيء لفظ واحد، فإن هذا مطلب لا سبيل إليه؛ إذ كانت الألوان لا آخر لها، ولن يغنينا اتخاذ لفظ "المداد" لما عدا الأسود، عن وصفه بلونه، فماذا صنعنا إذن؟

و"القاطرة" للآلة التى تجر القطار خير من "الهادية" التى اختارتها اللجنة، و"الهادية" أشبه بالقاطرة التي تسبق لتستكشف وتستطلع للاطمئنان على سلامة الطريق وخلوه من المخاطر، وقد استعمل الناس لها "الكشاف" وشاع اللفظ وهو أحسن من "الهادية".

أما ألفاظ "الجهيز" للقطار السريع و"الزفوف" للاكسبريس و"الوقاف" لقطار الركاب فغير مقبولة، ولعل "الوقاف" أصلحها وأقدرها على السيرورة.

ووضعت "لجنة الآداب والفنون الجميلة" طائفة من الأسماء لبعض المسميات العامة، وقد أسرفت فى التماس الفصيح فجاءت مثلا "بالدراعة" و"المدرعة" و"المدرع" وقالت نقلاً عن "اللسان": ضرب من الثياب التى تلبس وقيل جبة مشقوقة المقدم، فإن كان اللفظ لا يفيد إلا ضربًا من الثياب فلا خير فيه ولا غناء به، وإذا كان هو الجبة، فالجبة أولى بالاستعمال، وكفى الله الناس ثقل اللفظ، على أن اللجنة عادت فخصصت "الدراعة" "للشمازيت" من ثياب النساء، و"المدرعة" للجاكتة و"المدرع" للبالطو، وذلك كله غير سائغ. ومن غريب ما صنعت اللجنة أنها اختارت "التحذيف" لتطرير الشعر وتسويته ولا ندرى لماذا تتكلف البحث عن لفظ يضاف إلى ألفاظ موجودة وكلها صحيح مستعمل؟ أليس هذا عناءً باطلاً؟؟ ثم إن هذا توسع يرجع الأمر فيه إلى الكاتب، ومبلغ علمه باللغة وحظه من الاطلاع عليها، وما لهذا أنشئ المجمع، ولا بالمترادف ينبغى أن تكون عنايته.

ومن أبعد ما اختارته هذه اللجنة لفظ "الجماز" بتشديد الميم للترام، و"النُّبخة" (بتشديد النون وضمها) لعود الكبريت، أو الثقاب، وهما لفظان مستحيلان ولا أمل فى استعمالهما وجرى الألسنة أو الأقلام بهما، ووضعت اللجنة "الفدام" لمصفاة الشاى، و"المصفاة" ما عيبها، و"الطشت" ما له حتى نعتاض منه "الاجانة"؟ و"الراشن" للبقشيش، ولا حاجة إلى هذا اللفظ الغريب فإن البقشيش تسهل العبارة عنه ولا ضرورة إلى هذا الإغراب من أجله.

وقد كانت "لجنة علوم الحياة والطب" أعظم توفيقًا، وفى المجلة بيان واف يحسن أن يطلع عليه من يعنيهم هذا الباب فإن نفعه جزيل، والاختيار فيه سديد. ويلى هذا الباب فى المجلة بحوث الأعضاء، وسنفرد لها مقالاً خاصًا.

وبعد فهذه أمثلة مما لاحظناه على اختيار اللجان، وغرضنا منها أن نقول إنه ينبغى أن يراعى فى الوضع أن تكون الألفاظ مأنوسة ومما يسهل جريه على الألسنة، ويرتضيه الذوق العام، فما تموت الألفاظ أو تصبح مهجورة إلا لحوشيتها وثقلها،

ولا خير فى إحياء هذا الضرب من الألفاظ، ولهذا ينبغى أن يضم إلى المجمع فريق ممن عانوا الكتابة والنقل من اللغات الأجنبية إلى العربية، فإن هؤلاء أعرف بما يوافق الذوق ووجودهم أعون على حسن الاختيار، وخليق بالاقتصار فى تأليف المجمع على علماء اللغة والباحثين فيها أن ينأى به الجمهور والذوق العام فلا تتحقق الغاية المرجوة منه. ونحن ممن يكبرون المجمع ويستجزلون فائدته، ولا يجحدون فضله على الرغم من هذه الملاحظات، ولهذا نقترح على وزارة المعارف أن توسعه، وأن تضم إليه أعضاء أدباء، وأن تغير تأليفه وطريقة عمله فنجعله يجتمع السنة كلها على هيئة لجنة دائمة من الأعضاء المصريين، كما أسلفنا الإشارة إلى ذلك.

حياة محمد

للدكتور محمد حسين هيكل بك(١٠١)

أصبحت يومًا على صوت يقول – أو يصيح – "يا جدى يا رسول الله!".

وكان الصوت أشبه بصرخة الاستغاثة فألفيت شفتى تتحركان بالصلاة عليه، وخواطرى تنثنى كلها إليه وكنت مريضًا لا أقوم ولا أقرأ ولا أكتب، ولا أكاد أتكلم، ادخارًا لقوتى وقصرًا لها على مكافحة الوعك، فلم أدر من الصارخ؟ ولم أعرف من أى بيت أو شقة هو؟ وكنت أكثر الوقت وحدى لا يدخل على أحد، ولا يزعجنى زائر إلا فى الندرة القليلة، والفلتات المفردة، فإنى أكره أن يرانى الناس طريحًا، وأحس بأعصابى تتلف وتتمزق من سؤال العواد: كيف أنت؟ وماذا بك؟ وكيف كان ذلك؟ وتوقعهم منى أن أقف فيهم خطيبًا أبين لهم كيف أصابتنى الحمى، ولماذا أكابد منها، وأى دواء آخذ لها، وأى طبيب استشرت وما قوله، وهل هو مطمئن أو يائس، وإذا كانت منيتى قد دنت فبماذا أوصيهم وأين أحب أن أدفن، وهل أرى أن يقتصر المأتم على ليلة أو يكون ثلاث ليال، وهل أطمع أن أدخل الجنة أم سيقذف بى على جهنم، وماذا ترانى أعددت لنار الجحيم إذا كانت هى المصير، وهل تذكرت أو نسيت أن أتفق مع أحد مصانع الثلج على إمدادى بما أحتاج إليه هناك، احتياطًا لما عسى أن يكون، فما يدرى ميت ماذا يكون مآله؟ فإذا لم ألق عليهم هذه الخطبة، ولم أفض إليهم بهذا البيان، نظر بعضهم إلى بعض، وتغامزوا ثم نهضوا وهم يتنهدون، وخرجوا يتهامسون! حتى إذا ساروا إلى غرفة بعيدة قال أحدهم:

---

(١٠١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٣٠ مارس سنة ١٩٣٥ (ص٣).

"ماله ساكتًا. هكذا؟"

فيقول ثان: "أيه. الله يلطف به!"

فيعود الأول إلى الكلام ويقول: "لا لا لا – الواجب أن يتكلم ويتحدث مع الناس ليتسلى وينسى المرض – السكوت هكذا غير حميد، أنا والله ما جئت إلا لأسرّى عنه قليلاً، ولكن... ماذا أصنع؟ لقد خجلت والله، وقمت من عنده وأنا أتصبب عرقًا"

فيسأله الثاني: "لماذا يا أخي؟"

فيقول: "لماذا؟ لهذا الصمت يا أخي؟ لقد شعرت أنه لا يريد أن نبقى عنده، ونحن ما جئنا إلا لنعوده ونطمئن على صحته... شيء بارد".

ولا أسمع أنا هذا الحوار، ولكنى أعلم علم اليقين أنه يدور بين كل جماعة من الأقارب يتفضلون بعيادتى، ولهذا صرت كلما مرضت آمر أهل بيتى أن يقولوا للعواد إنى نائم وإنى لا أنوى أن أستيقظ، فأما الأغراب فيمضون خفافًا لطافًا، داعين مشكورين، وأما ذوو القربى فيقولون:

"لا بأس، نلقى عليه نظرة وهو نائم لنطمئن".

وأعرف أنهم داخلون، وأنهم لن يصدهم عنى شىء، فأدير وجهى إلى الحائط وأتناوم، وأسأل الله فى سرى – أن يسترنى ولا يفضحنى معهم وأن أملك نفسى فلا أثور ولا أضحك.

وبرئت بعد أيام، كانت خواطرى خلالها لا تدور إلا على النبى صلوات الله وسلامه عليه، وسيرته ورسالته وجهاده الطويل، حتى أحلامى لم يكن يبدو لى فيها غير هذا، ثم تلقيت كتاب صديقى الدكتور هيكل بك فى "حياة محمد"، ولم يكد رسوله إلىَّ ينصرف عنى مشكوراً حتى عكفت عليه، حتى لقد طلع الفجر والكتاب بين يدى، وبعد أيام أخرى وقع لى كتاب "محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم" للأستاذ محمد رضا بمكتبة الجامعة المصرية، فأقبلت عليه أيضًا، ولكن إقبال الذى شبع وارتوى؛ فهو يتناول برفق ويصيب بقدر.

والحقيقة أن لا محل للمقارنة أو المفاضلة، فإن كتاب هيكل بك كتاب رجل درس وغاص وحقق، وغربل ونخل، وفكر بعقله ونظر بعينه وكان فى ذلك موفقًا، أما كتاب الأستاذ محمد رضا فيخيل إلىّ أنه قرأ الفصول التى كان الدكتور هيكل بك قد نشرها فى "السياسة الأسبوعية"، ورأى استحسان الناس لها وإقبالهم عليها ورغبتهم فيها، فأحب أن يقلده أو يجاريه. فعمد إلى كتب السيرة وما إليها وجمع منها وأخرج كتابه، بلا تحقيق أو تفلية، وفى كتاب الأستاذ رضا زيادات ولكنها لا تكاد تقدم أو تؤخر، ولا تجعل القارئ أحسن فهمًا لسيرة الرسول وما رأيت له تعليقًا أو رأيًا إلا كان الدكتور هيكل بك قد سبقه إليه فيما نشره فى "السياسة الأسبوعية"، وهيكل بك رجل قرأ وفكر ثم تناول القلم وراح يكتب ويسرد التاريخ بأسلوبه هو، وعلى الترتيب الذى رآه أفضل، ويقف عند كل مسألة وحادثة شارحًا محللاً مبينًا رأيه معالجًا جلاء الحقيقة ورفعها قبل العيون بعد تنقيتها مما علق بها من الحواشى والمبالغات أو الأباطيل. وكان توفيقه عظيمًا فى بيان اتجاهات الرسول عليه الصلاة والسلام فى سياسته الدينية والمدنية إذا صح هذا التعبير. أما الأستاذ محمد رضا فجمع ولم يزد، ولم يفرق بين الحقيقة والخيال، وأورد ما قيل عن معجزاته عليه الصلاة والسلام - غير القرآن الكريم - على أنه حقيقة لا خلاف عليها ولا شك فيها، وسرد الحوادث فى كتابه مضطرب حتى إنى لما قرأت وصفه لغزوة أحد، لم أخرج منه بشىء، واختلط الأمر علىَّ، واحتجت أن أرجع إلى كتب أخرى.

وليس فى هذا غمط للأستاذ محمد رضا، ولولا كتاب الدكتور هيكل بك لكان كتابه حسنًا فى ذاته، ووافيًا، على ما فيه من الحشو، ولكن كتاب هيكل بك ظهر فاختلف الأمر، فليس يسعنا إلا أن نقول إنه هو خير الاثنين، وأنه يغنى عن الآخر، وأن الآخر لا يزيد به التاريخ شيئًا.

ولا يسع القارئ لكتاب "حياة محمد" للدكتور هيكل بك إلا أن يقتنع بأن فتح العرب للشام والعراق وفارس ومصر، كان نتيجة للاتجاه الذى عينه النبى عليه الصلاة والسلام، وهو اتجاه كان واضحًا من سيرته صلى الله عليه وسلم على الرغم من تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام بمكة، ومن اشتغاله بأمر القبائل التى كانت

تأتمر به أو تتألب عليه أو تنقض عهدها له، وتفكيره الدائم فى قريش ومكة وضرورة الاستيلاء عليها وتأمين الحج وتنظيم أمر المسلمين وتبليغهم رسالة ربه تعالى، ومعالجة اليهود حتى أجلاهم، ويدل على هذا الاتجاه حتى قبل خلوه من هذه المشاكل الكثيرة كتبه إلى هرقل وكسرى وغيرهما. ولم يكد يعود من مكة تنفيذاً لعهد الحديبية حتى التفت إلى الشام صراحة فوجه ثلاثة آلاف لغزوها وعقد لواءهم لزيد بن حارثة والتقوا بجيش الروم فى مؤتة، ثم رجعوا، وبعد أن فتح مكة وقبل أن يخضع الطائف ويسلم أهلها، اتصل به أن الروم يتهيؤون للكر فخرج للقائهم فى جيش كبير حتى بلغ تبوك، فآثر الروم الانسحاب وتحصنوا داخل بلاد الشام، فلم ير أن يتعقبهم واكتفى بكفالة الحدود، وبعد أن عاد صلى الله عليه وسلم من حجة الوداع، أمر بتجهيز جيش كبير آخر إلى الشام أمّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وجعل فيه المهاجرين الأولين، ومنهم أبو بكر وعمر، ولكنه صلى الله عليه وسلم مرض ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى، وبويع أبو بكر رضى الله عنه، فكان أول ما عمل أن أنفذ جيش أسامة فأغار على البلقاء وعاد ظافراً، ولولا حروب الردة لتقدم فتح الأمصار الشمالية بضعة أعوام.

فهذه سياسة رسمها الرسول واتجاه عينه، ومضى فيه الخلفاء بعده، وتيار أزخره عليه الصلاة والسلام، فتدفق عبابه ولم تقو أمة على صده.

* * *

يقول الدكتور هيكل فى خاتمة كلامه إنه يرجو أن يكون قد وفق إلى تحقيق ما قصد إليه من تأليف كتابه، وإن هذا الكتاب ليس إلا بداية البحث من ناحية علمية إسلامية فى هذا الموضوع الجليل، ونحن نقول إنه ما من قارئ يستطيع أن ينكر توفيقه، أو يجحده، وإن هذه إذا كانت بداية فما أضخمها وأجلها، وما قرأت كتاب تاريخ وتمنيت أن أكون أنا واضعه إلا هذا الكتاب. وأعظم ما كان فيه التوفيق أنه استطاع أن يسرد السيرة النبوية على اعتبار أنها "حياة إنسانية بحتة بلغت أسمى ما يستطيع الإنسان أن يبلغ... وبلغت هذا السمو فى نواحى الحياة جميعاً... واتصلت بحياة الكون كله من

أوله إلى آبده"، ولقد كان من حظى أنى كنت قريباً من الدكتور هيكل أكثر من عام وهو يدرس ويبحث وينقب ويفكر ويدون ويكتب، ثم جرت المقادير بأن أذهب أنا فى ناحية وأن يبقى هو حيث كان، فأنا من أعرف الناس بما بذل من الجهد وما عانى من النصب، وما أنفق من وقته ونفسه وروحه فى هذا العمل الجليل، ثم قرأت كتابه وعرفت ما أضاف إليه وزاد عليه وهو شيء كثير يكاد يكون نصف الكتاب، ولو رجل غير هيكل بك لما كفاه ضعف هذا الزمن، ولكنه سريع التحصيل والتفكير، عظيم الدأب والمثابرة، طويل الصبر، مستقيم النظر نافذه، وتلك مزايا لا يؤتاها إلا القليلون، فهنيئًا له ما وهبه الله وأنعم عليه به، ووفقه إليه.

الإنجليز في بلادهم

للدكتور حافظ عفيفي باشا[١٠٢]

صار لنا وزراء أدباء! ولكنهم يكرهون أن ينسبوا إلى الأدب، مخافة أن تدركهم حرفته، ولأن الأدب ما زال مقروناً في أذهانهم برقة الحال وشذوذ السلوك، وهم حكام، والأدب صناعة الرعية، ومن بلغ رتبة الوزارة فقد بلغ رتبة الاستغناء والترفع، ودخل في زمرة الذين يحق لهم - ويجب عليهم - أن يتجافوا بأنفسهم عن مخالطة الشعب أو الاتصال به، وينبغي لمن صار وزيراً أن ينسى عشراءه، فإذا لقيهم فالأصل ألا يراهم، وأن تتخطاهم عينه أو أن تنظر من خلالهم كأنهم هواء، فإذا لم يسعه ذلك فحسبه من تحيتهم أن يحرك بنانه، وليجعل كلامه معهم بالنظرة والإشارة، فإن لم يستطع فبالكلمة والكلمتين ينطقهما في تثاقل كأنه يهم بالتثاؤب، ويلوى بهما لسانه كأنما يتكلم بلغة غريبة لم يألفها. وعليه إذا جالس الناس أن يضطجع وينظر إلى السقف لا إليهم، ويمد ساقيه إلى حيث يبلغان، وإذا وضع ساقاً فوق ساق، وجعل إحدى قدميه - أعنى أحد حذائيه - في وجه جليسه، فهذا أفضل. ولا يليق به أن ينهض لداخل، ويكفي أن يخرج يده من جيبه ويميل كالذى يريد أن يتكئ على ذراعه لينهض. وإذا كان واقفاً ودخل عليه داخل فليتشاغل بتقليب كتاب أو مجلة أو إشعال سيجارة أو إطفائها، فإذا لم يكن من ذلك شيء فليخرج منديلاً، وليعالج به أنفه اتقاء للمصافحة، وليبق واقفاً ليمتنع أن يجلس الزائر ولتقصر الزيارة وليظل مقام الوزارة محفوظاً. ولا يجوز للوزير - أو لمن كان وزيراً - أن يغشى مجالس الشعب أو يختلف إلى أنديته، فإن فعل - ولو مرة -

---

(١٠٢) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٦ أبريل سنة ١٩٢٥ (ص٢).

فهو ديمقراطى. ولا ضير من المشى أحياناً ليتحدث الناس بتواضع الوزير ويلهجوا فيما بينهم بذلك ويدهشوا له ويقول قائلهم: "شىء غريب يا إخوانى! لقد رأيت اليوم فلاناً باشا الذى كان وزيراً لكذا أو كذا، يمشى على قدميه - مثلى ومثلك تماماً! شىء غريب!" وإذا دعى إلى عرس من أعراس الشعب فالحذر من إجابة الدعوة ومن أثر المجاملة لضرورة تقضى بها، فليجتزئ ببرقية تهنئة على أن تخلو من الاعتذار، وإذا مات ميت فإن كان لمن يرجى أو يخشى، وجبت المشاركة فى تشييع الجنازة أو التعزية ليلاً فى سرادق المأتم، أو كلتيهما تبعاً لدرجة الرجاء ومدى الخشية، وإن كان لصديق قديم ممن لم يرتفعوا عن طبقة الشعب، فينبغى الاكتفاء بكلمة عزاء يحملها البرق، وتكون طويلة أو قصيرة تبعاً لدرجة الصداقة القديمة وقرب الرجل أو بعده من مرتبة الوزارة، وإن كان لمن لا يرتجى خيره أو يتقى شره، فليس إلا الإهمال.

والأصل أن يكون الوزير باشا، ومن هنا جاز لمن هو باشا وليس بوزير أن يحذو فى سيرته حذو الوزراء وأن يتقيلهم ويمشى على آثارهم، ويسقط اسمه ويقتصر على "باشا"، فيقول هو ويقال عنه: "الباشا حضر، والباشا ذهب، والباشا أكل، والباشا نام" إلى آخر ذلك، ويصبح "الباشا" هو الاسم واللقب، ولا يعود يعرف أو يدعى أو ينادى أو يذكر بغير ذلك.

لهذا كان اشتغال وزير أو باشا بالكتابة والتأليف عجيبة تحتاج إلى تفسير وتأويل، والأمر أحوج إلى البيان إذا كان المؤلف وزيراً وباشا فوق أنه وزير، ولا تفسير عندى أعرفه إلا أن هذه الطبقة من سراة الناس يجب أن يكون لها ملهاة تنصرف إليها فى وقت الفراغ لتزجيته أو قتله، فمنهم من يتخذ الخيل للسباق - إذا أسعفته الموارد - ومنهم من يقتنى الثعابين أو العصافير، أو يجمع الطوابع أو السجاجيد، ومنهم كذلك من يتخذ المكاتب، ومنهم أخيراً من يتسلى بالكتابة، كما يتسلى غيره بالنرد أو الشطرنج.

ولكن الدكتور حافظ عفيفى باشا ليس من هؤلاء، على الرغم من أنه كان وزيراً، وأنه صار باشا، وهو طبيب ولكنه واسع الاطلاع على ما يحسن بالرجل المثقف أن يحيط به،

وهو لا يعنى بما يسمى الأدب الصرف من شعر ونثر، فلا يقرأ شعر ابن الرومى أو الشريف الرضى أو ابن هانئ أو غيرهم ولا يكاد يفتح كتاباً للجاحظ أو رسالة لأبى إسحق الصابئ؛ لأن هذا ليس فنه ولا بابه، ولكنه يقرأ - أو كان يقرأ - قصائد شوقى بك أو رواياته كلما ظهر منها شىء، ولا يكاد يفوته الاطلاع على ما ينشره الأدباء المعاصرون؛ لأنه يكره لنفسه أن يكون جاهلاً بعصره وبلده، وأكبر الظن أنه لم يقرأ شيئًا لتوماس هاردى أو جالزورذى ولكنى على يقين من أنه لابد أن يكون قرأ شيئًا لبرنارد شو وهـ.ج. ويلز، وأناتول فرانس، لأن هؤلاء المشاهير جداً لا يغتفر الجهل بهم، ومن حديثه - أو من زيارة قصيرة لبيته الأنيق - تعرف أن له عناية بالفنون الجميلة والسياسة والاجتماع، وأن له نظراً سديداً فى ذلك كله، وذوقًا وفطنة كبيرة، ولكن مفتاح ذلك أنه رجل الدنيا المثقف، ورجل السياسة المهذب، وعلمه واطلاعه، علم الرجل الذى يكرم نفسه، ويأبى لها الجهل، واطلاع ذى الأعصاب الحية والإحساس الدقيق والنشاط الجم، ولا شك أنه لو لم يكن طبيباً يصرفه فنه - وإن كف عن مزاولته - عن التخلى لفن آخر، لبرع فى غيره وبرز فيه بروزاً عظيماً.

وكتابه "الإنجليز فى مصر" آية تشهد بذلك، وأدل ما فيه على مواهب الدكتور حافظ عفيفى، وما أوتيه من صفاء النفس ونفاذ النظر ودقة الملاحظة وسداد الرأى، مقدمته فى وصف طبقات الأمة الإنجليزية وأثر تاريخها فى تكوين طباعها ومزاجها وروحها وما يسمى عقليتها، وهو فصل بارع لا يكتبه إلا رجل مثله.

وقد أقام الدكتور حافظ عفيفى باشا فى إنجلترا بضع سنوات، لم يضيع فيها وقته فاطلع ودرس وفكر بعقله ونظر بعينه، وهذا الكتاب ثمرة الاطلاع والدرس والنظر، لا الاطلاع وحده ولا النظر بمجرده، وما كان ليخرج كما خرج، لو كان الاعتماد كله على الاطلاع، أو كان المعول كله على المشاهدة. ولعله كان خليقًا أن يكون أمتع القارئ لو كان وصفًا لمشاهدته وآرائه ولما وقع فى نفسه من الإنجليز وأساليبهم فى الحياة، ولو كان أديبًا لكانت هذه سبيله ولكن الكتاب هكذا أوفى وأنفع، وقد اختزل فيه بغير إخلال - كل ما يعنى المرء أن يعرفه عن الأمة البريطانية، ومزج التاريخ الحاضر

الواقع أبدع مزج وأبرعه، ولم يرجع إلى الماضى استطراداً أو على سبيل المزيد أو التظاهر بالمعرفة، بل ليشرح مراحل النشوء الطبيعى وكيف انتهى إلى الحاضر وأفضى إليه، حتى ليصح أن يعد الكتاب وصفًا للتطور الطبيعى للنظم البريطانية جميعًا من سياسية وتعليمية وقضائية ومالية، وأخلاقية أيضاً.

ومن أظهر مزاياه أنه يغنى عن المراجع التى اعتمد عليها المؤلف الحاذق.

أما لغة الكتاب فسليمة بريئة من التكلف والحشو، والعبارة دقيقة تنقل المراد بلا زيادة ولا نقص، كما ينبغى أن تكون.

وقد كنت أحب أن أقرأ له شيئًا عن المستشفيات فى إنجلترا والنظم الصحية على العموم، ومن أثر الإذاعة اللاسلكية فى الصحافة، ولكن هذا وما إليه توسع لا تزيد به قيمة الكتاب.

"الإسلام والتجديد فى مصر" للدكتور تشارلز أدمس، ترجمة الأستاذ عباس محمود[١٠٣]

"الإسلام والتجديد فى مصر" كتاب صالح وضعه بالإنجليزية الدكتور تشارلز أدمس، وكان أولى أن يضعه واحد من تلاميذ الإمام الشيخ محمد عبده رحمه الله، ونقله إلى العربية شاب جاد من خريجى كلية الآداب بالجامعة المصرية هو عباس أفندى محمود، وقدم له الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق أستاذ الفلسفة الإسلامية بالجامعة، وأخرجته لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، وهو ثانى كتاب فى موضوع إسلامى تصدره هذه اللجنة الموفقة، فقد أخرجت من قبل "مفتاح كنوز السنة" أو معجم الأحاديث النبوية المدونة فى صحيح البخارى، وسنن أبو داود، والترمذى، والنسائى، وابن ماجة، والدارمى، وصحيح مسلم، وموطأ مالك، ومسند زيد بن على، وأبى داود الطيالسى، ومسند أحمد بن حنبل، وطبقات ابن سعد، وسيرة ابن هشام، ومغازى الواقدى، وقد أنفق العمر فى وضع هذا المعجم المستشرق الأستاذ فنسنك الذى أقصوه عن مجمع اللغة العربية الملكى؛ لأن بعضهم أرسل صيحة حمقاء، وزعم أن فنسنك قال فى الإسلام ما يخالف قول المسلمين، فعاقبته وزارة المعارف المصرية بمنع الانتفاع بعلمه! وفى المجمع أعضاء غير مسلمين، وعقيدتهم الدينية تخالف عقيدة المسلمين، والمجمع للغة لا للدين، ولكننا حرمنا - أو حرم المجمع وحده - فنسنك من جراء تلك الصيحة الخرقاء! وفى هذا المعجم يقول السيد محمد رشيد رضا - وهو من تعرف علماً وتقوى - ما معناه أنه لو كان اطلع عليه فى صدر حياته لاقتصد من عمره نصف ما أنفق فى

---

(١٠٣) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٣ أبريل سنة ١٩٣٥ (ص٣).

الطلب والدرس، وقد نقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي، وطبعته لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، والمسلمون الآن - وفى جملتهم هذا الصائح المحتج على فنسنك - ينتفعون بهذا "المفتاح" العظيم، ويحمدون الله الذى سخر لخدمتهم فنسنك النصرانى!

أذكر هذا لأثنى على المستشرقين النصارى، وأذم هؤلاء المسلمين البلداء الذين لا يحسنون إلا الصراخ والعويل والندب واللطم، وهذا منهم إما جنون، فلا ينبغى أن يعبأ بهم عاقل، وإما تكلف للغيرة فيحسن زجرهم وتأديبهم وإراحة العاملين من نعيقهم المزعج، وحماية الجهال من تغريرهم.

والكتاب الذى بين أيدينا اسمه "الإسلام والتجديد فى مصر"، ولكن حقيقته أنه بيان دقيق لما عالجه الإمام الشيخ محمد عبده من الإصلاح، وما أزخره من التيارات المختلفة فى مصر على الخصوص. وفى غيرها من البلدان الإسلامية على العموم، وليس هو ترجمة للإمام الشيخ محمد عبده، ولو كان كذلك لا غنى عنها فى العربية - على الأقل - التاريخ الضخم الذى نشره السيد محمد رشيد رضا فى أكثر من ألف صفحة، ولكنه يبرز تعاليم الأستاذ الإمام وأثره "فى صورة أوفى ويتفرد" - كما يقول المؤلف - "بوصف الحركة فى تطوراتها الأخيرة"، ويتواضع المؤلف فيقول "ومهما يكن من شىء، فإن هذا الكتاب يفى بحاجة الباحث فى هذا الموضوع فى اللغة الإنجليزية" ولو عمم لما كان عندنا مسرفًا.

ولا يمكن أن يخلو كلام عن الشيخ محمد عبده من ذكر السيد جمال الدين الأفغانى؛ لأنه هو المعلم الذى أيقظ نفسه ووجهها وألهمها آراءها الأولى، فى الأعوام الثمانية التى لازمه فيها حتى نفاه الخديوى توفيق من مصر، ولهذا مهد المؤلف للكلام على الشيخ محمد عبده بترجمة السيد جمال الدين الأفغانى فى الفصل الأول وقد أنصف الأستاذ وتلميذه فقال:

"كان أقدر تلاميذ جمال، وأقربهم إليه، وأعطفهم على آرائه، فكان طبيعيًا - وقد اضطر جمال بحكم الظروف القاهرة إلى التنحى عن العمل الذى بدأه فى مصر -

أن يتجه نظره إلى الشيخ محمد عبده ليواصله ويتمه. ولما استخلف فى مصر خليفته هذا خلف لها وللإسلام تراثًا لم يكن أحد يتوسم فيه مثل هذه الكفاية التامة، حتى ولا جمال الدين نفسه. كان مجرى الإصلاح المصرى - وإن نبع كالنيل من منابع جاوزت حدود البلاد - قد قدر له أن يتم فيضانه الأكمل فى قنوات مصرية، فقد كان الشيخ محمد عبده مصريًا خالصًا انحدر من أسرة تنتمى إلى طبقة الفلاحين فى الوجه البحرى".

وهذا صحيح على الجملة وإن كان غير صحيح أن جمال الدين هو الذى أحدث النهضة المصرية. ولكن بين الأستاذ والتلميذ اختلافًا فى الوسائل وإن كانت الغاية واحدة، ذلك أن السيد جمال الدين جعل الثورة السياسية وسيلته إلى تحقيق غاياته "فقد خيل إليه أنها أسرع الطرق وأكدها فى تحرير الشعوب الإسلامية وتغذيتها بالحرية الضرورية لتنظيم شئونها. أما وسائل الإصلاح التدريجى والتعليم فكان يرى أنها بطيئة جدًا غير محققة العاقبة" (ص١٥) فكان حيثما يذهب يثير الناس ويدفعهم إلى طلب الحرية ويهزهم هزًا عنيفًا، وهو الذى أوحى بالثورة الفارسية التى بدأت الهياج ضد احتكار التنباك فى سنة ١٨١٧ وانتهت بوضع دستور ٥ أغسطس سنة ١٩٠٩". "ولما أقام فى الأستانة مهد تهيجه المتواصل للحركة التركية [الموفقة] التى قامت فى سنة ١٩٠٨". "وكان الدافع الأول للحركة الوطنية المصرية التى ساء ختامها بفشل الحركة العرابية". يقول ميشيل فى ترجمته لمحمد عبده: "أيان ذهب، كان يترك وراءه ثورة تغلى مراجلها، ولسنا نعدوا الحق أو نكون مبالغين إذا قررنا أن جميع الحركات الوطنية الحرة وحركات الانتقاض على المشاريع الأوربية التى نشاهدها فى الشرق منذ عشرين عامًا ترد أصولها مباشرة إلى دعوته".

وذكر الدكتور أدمس فى كتابه أنه كان يرى جواز خلع أمراء المسلمين وقتلهم إذا شجعوا الاعتداء الأوربى، أو رضوا عنه، وأقاموا بذلك الحوائل بين الناس وبين خلاصهم. وروى الأستاذ براون أن السيد جمال الدين قال له مرة فى حديث: "لا أمل فى الإصلاح قبل قطع ستة أو سبعة رؤوس" وسمى بالاسم شاه العجم وكبير وزرائه،

وكلاهما قتل بعد ذلك. وروى السير ولفريد اسكاون بلنت فى تاريخه السرى للاحتلال البريطانى لمصر أنه فى ربيع عام ١٨٧٩ كثرت المناقشة بين أنصار جمال الدين فى الوسائل التى يمكن بها خلع الخديوى إسماعيل أو فى اغتياله إذا استعصى خلعه وروى عن كرومر أن الشيخ محمد عبده قال إن الكلام دار فى خطة معينة لاغتياله لم تنفذ لعدم وجود الشخص الذى يتكفل بذلك.

ويختلف الشيخ محمد عبده عنه فى أنه كان رجلاً مصلحًا على الرغم من نزوعه إلى الثورة. قال الدكتور أدمس (س٥٠):

"وفى الحق أنه كان، كما قال اللورد كرومر، روحًا مدبرًا للحركة (يعنى العرابية) فى أدوارها الأولى، وقبل أن يلجأ الزعماء العسكريون إلى مقابض سيوفهم، للوصول إلى أغراضهم، يظهر أنه كان يظن أن الوقت قد حان للبدء فى تنفيذ خططه الإصلاحية الواسعة، وأن يجعل من تلك الحركة خطوة إلى الأمام لتخليص البلاد من رق الأجانب، وكان يظن عند ذاك أن الزعماء بعيدون عن الغرض الشخصى، وأنهم ينهجون نهج الإصلاح وينشدون العدل والمساواة فحاول مخلصاً بكل قواه أن يدير دفة الحركة ولم يبخل قط بنصيحته على الزعماء حتى ولو لم يريدوها منه، وانتهز الفرصة التى أتيحت له فى تحرير الوقائع المصرية والإشراف على صحافة البلاد لينشئ رأيًا عامًا متحداً، وليشجع الأغراض المعقولة التى كان يرجو تحقيقها. وكان زعماء الحزب الذين التفوا حول عرابى باشا ينظرون إلى الشيخ محمد عبده كمعلمهم وقائد أفكارهم، ويحلفون بين يديه يمين الطاعة للوطن وما فيه نفعه حتى إنه اعتبر زعيمًا من زعماء الثورة. على أنه وإن كان لا شك فيما كان له من زعامة فى الحركة بوجه عام، ونفوذ قوى فيها، إلا أنه ينبغى علينا أن ننصفه وأن نقرر ما ألح فيه محمد رشيد رضا وأكده مراراً، من أن آراءه فى كثير من الأمور المهمة كانت تختلف عن آراء الزعماء العسكريين، وأن الخلاف ازداد بينهما لما تقدمت الحركة حتى اضطر إلى نقد كثير من أعمالهم فى كتاباته وخطبه وفى جداله معهم، وكان لا يوافق على وسائلهم ولاسيما التجاؤهم إلى القوة ولم يكن مثلهم يتفاءل بحسن الخاتمة لما يفعلون. وقد وصف محمد رشيد رضا موقفه فى دقة وإيجاز فقال: "كان خصمًا للثورة العسكرية وإن كان الروح المحركة للحركة العقلية" ثم إن الشيخ عبده كان فى أول هذه الثورة كارهًا لها، منددأ بزعمائها

وهو بينهم؛ لأنه كان يعلم أنها تحبط عمله الذى مضى فيه، وكل إصلاح تعمله الحكومة أو تنويه، وأنها تمهد للأجانب سبيل الاستيلاء على البلاد، وكان ينتقد زعماء الثورة جهاراً حتى أخذوه بالوعيد وهددوه باستعمال العنف معه إذا لم يكف عن معارضته وينطوى تحت لوائهم".

والحقيقة فى ذلك، أنه كان راغباً فى الثورة وكان يريد أن يوجهها وجهة الإصلاح ويستخدمها لتحقيق ذلك، فلما تطورت على كره منه، خشى أن تفضى إلى احتلال إنجلترا للبلاد، فحذر من ذلك، وحاول أن يصد الثوار عن هذا الطريق المخوف، وكان أبعد منهم نظراً، فكان يرى ما لا يرون، ثم تفاقم الأمر فصار الشيخ محمد عبده بين إحدى اثنتين: أن يضم إلى الثوار، أو أن يقف فى صف الخديوى وكان هذا معناه فى ذلك الظرف الوقوف فى صف الاحتلال الأجنبى، فاختار الانحياز إلى الثوار وإن كان موقناً من وخامة العاقبة.

ولما نفى، أقام فى بيروت ثم دعاه السيد جمال الدين إلى باريس، وهناك نظما جمعية العروة الوثقى، وهى جمعية سياسية سرية ثورية وأصدرا جريدة "العروة الوثقى"، وكانت متطرفة عنيفة فخافها الحكام المستبدون فى البلاد الإسلامية ومنعوا دخولها، ويذكر بلنت أن الشيخ محمد عبده وافق مرة على القتل كوسيلة لإنقاذ البلاد من حاكم متعب، وقد دخل الشيخ عبده مصر متنكراً ليتهيأ للسفر إلى السودان على أن يلحق به جمال الدين الأفغانى إذا نجحت الأعمال التمهيدية، وكان الغرض أن يعملا سراً على تنظيم قوات المهدى ثم يزحفان بها على مصر لتحريرها وطرد المحتلين منها.

ولكن الشيخ عبده فى هذه الفترة من حياته كان لا يزال متأثراً بأستاذه السيد جمال الدين، غير أن مزاجه تغلب آخر الأمر، وأضعفت الحوادث أمله فى العمل السياسى، فوجه التفاته إلى الإصلاح القومى بالتربية والتعليم "وصارح جمال الدين فى أوربا بأنه يرى أن الوسائل السياسية لن يرجى منها خير؛ لأن تأسيس حكومة إسلامية عادلة مصلحة لا يتوقف على إزالة الموانع الأجنبية فقط، وأنه خير لهما لو عكفا على تربية أفراد على ما يحبون، فى مكان هادئ بعيد لا سلطان للسياسة فيه، ثم يذهب هؤلاء الرجال بدورهم إلى الأقطار المختلفة لتربية مثلهم على ما ربوا عليه فيكون

لهما في زمن قريب قوة هائلة من الرجال العاملين" (ص٦٠)، وكان يقول إن الرجال هم الذين يعملون كل شيء، ولكن جمال الدين رفض هذا الرأي، وقال إنهم شرعوا في عمل فلا بد من المضي فيه حتى يتم أو يعجزوا".

ورجع الشيخ إلى بيروت، وترك السيد جمال الدين يتم وحده العمل الذي لج فيه إلى آخر أيامه، وعاد هو إلى التدريس، وظل يجاهد ويسعى للإصلاح والترقية والتعليم إلى أن مات.

ويلاحظ أن تلاميذ الإمام ثوار كلهم، ولكنهم ثوار مصلحون، ونذكر من هؤلاء الشيخ المراغي الذي استقال من مشيخة الأزهر لما لقيت إصلاحاته من المعارضة، والشيخ شاويش على الرغم من أنه كان في حياته السياسية أقرب إلى جمال الدين، وإبراهيم بك اللقاني وهو من رجال المحاماة والأدب المعدودين في عصره، وإبراهيم بك الهلباوي وهو معروف، وخدمته للجمعية الخيرية الإسلامية مشهورة مشكورة، وقد كان من القليلين الذين آزروا قاسم أمين في دعوته إلى تحرير المرأة، ولا يزال من أقوى أنصار الحرية القومية، وحسن باشا عاصم الذي عاون الإمام على تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية، وعلى إصلاح المحاكم الشرعية، وحفني بك ناصف الذي يؤثر عنه قوله عن الإمام: "كنا نجد في أنفسنا من سماع خطبة له أن الواحد منا جدير بإصلاح مديرية أو إصلاح مملكة" (ص٢٠٢) وأحمد فتحي زغلول باشا وفضله على النهضة الأدبية معروف وجهوده في الإصلاح مشهورة، والأمير شكيب إرسلان وأمره لاخفاء به، والمنفلوطي وهو أيضًا من دعاة الإصلاح فوق أنه أديب كبير، وحافظ إبراهيم الشاعر ولا نحتاج أن نقول فيه شيئًا، وقاسم أمين أصغر تلاميذ الإمام، وصاحب الدعوة المشهورة إلى إصلاح حال المرأة وترقيتها. ومن تلاميذ الإمام أو ممن تأثروا به في السياسة، رجال حزب الأمة، وسعد زغلول باشا الذي كتب له أن يكون هو زعيم الثورة المصرية الحديثة. أما في علوم الدين فيكفي أن نذكر من تلاميذه السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار.

* * *

من مزايا هذا الكتاب - "الإسلام والتجديد فى مصر" - أنه يشرح آراء الشيخ محمد عبده وتعاليمه أوفى شرح مع الإيجاز والترتيب، ويكشف عن مساعيه المختلفة وما عالجه من الإصلاح فى كل باب، ويبرز حقيقة يجهلها الكثيرون من أبناء هذا الجيل وهى - كما يقول الدكتور أدمس - "أن المدرسة الحديثة مدينة بوجودها نفسه للأستاذ الإمام، وأنها فى كثير من الأمور الجوهرية مشتقة منه وصادرة عنه".

وقد أحسن الأستاذ عباس محمود ترجمة الكتاب، واستحق كل ما أثنى به عليه الأستاذ مصطفى عبد الرازق فى مقدمته النفيسة.

فى أصول الأدب

للأستاذ أحمد حسن الزيات[١٠٤]

استطردت فى الأسبوع الماضى عن كتاب "فى أصول الأدب"، فلم أكد أذكر اسمه حتى ذهلت عنه، وأخذت فى كلام آخر[١٠٥]؛ لأنى كالأطفال يشغلهم فى الطريق ما تقع عليه عيونهم فيه، ويفتنهم ويستغرقهم حتى لينسى الواحد منهم أنه كانت له غاية أخرى أو مقصد غير ذلك، ثم إنى أحب أن أرسل نفسى على سجيتها، وأن أقول ما أقول غير محتفل - لا غير محتشم كما كان الشاعر العربى القديم يفعل - وعلى أنى قل أن أعرف ماذا أريد أن أقول قبل أن يجرى به لسانى، والكلام عندى كالامتحان لعقلى، ولسانى - أو قلمى - "حنفية" أفتحها لأرى ما هنالك وأعرف أفى رأسى شىء أم ليس فيه شىء، وما أكثر ما أدير الحنفية - أعنى أفتح فمى - فلا أجد قطرة، فأطبق شفتى وأسكت، ولهذا تطول فترات صمتى، سترًا للخواء الذى فى رأسى، فإذا أحسست أنه امتلأ عظم فرحى بذلك وأطلقت لسانى حتى تفرغ الذخيرة وينضب المعين فلا تسمع غير صوتى فى المجلس حين أتكلم، ثم ترانى ولا تسمع منى حرفًا، ويبصرنى الناس ساكتًا، فيحسبون أنى أفكر، ويتكرر ذلك ويكثر، فيقولون فيلسوف غواص، وأنى لهم أن يعرفوا أن الحوض فارغ وراء اللسان؟! وكذلك شأنى فى كل شىء - فالمال أنفق منه الموجود - كثر أم قل - ولا أطيق أن يبقى منه شىء، كأنما يتعبنى حمله، أو أجد له وخزًا، بل أنا أحس له فى كفى حكاكًا يذهب متى أفنيته، ثم أقعد كاسف البال،

---

(١٠٤) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١١ مايو سنة ١٩٣٥، (ص٣).

(١٠٥) راجع المقال المعنى فى المجلد الأول من أعمال المازنى غير المنشورة (المحرر).

والكتب أقرؤها وهمي أن أفرغ منها وأطويها لا أن أعي ما فيها، فإذا رأيت موضوعها يمسكني ويرغمني على التمهل، غالطت نفسي، ووثبت إلى آخر صفحة، وقلت معزيًا نفسي: "ستنسى ما قرأت على كل حال، فقد ابتلاك الله بذاكرة ليس أخون منها ولا أغدر، فأفترض أنك قرأت وأزعم أنك نسيت". وأرمي الكتاب أو أضعه على رفه، ولكنى أظل بعدها أرمقه مجذوبًا إليه كلما مررت بمكانه، حتى يضجرنى هذا الحنين المخامر، فأتوكل على الله، وأسأله الصبر، وأتناول الكتاب مرة أخرى.

ولكنى أوشك أن استطرد مرة أخرى، فيحسن أن أكبح نفسى وأردها إلى كتاب الأستاذ الزيات، وهو كتاب فيه محاضرات ومقالات فى الأدب العربى، فأما المحاضرات فألقى أكثرها فى بغداد لما كان أستاذًا فى مدرسة المعلمين هناك، وقد حدثنى كثيرون من العراقيين وغيرهم ممن زاروا بغداد أن الأستاذ الزيات واحد من المصريين القليلين الذين اجتمعت القلوب على محبتهم واحترامهم، وأما المقالات فكتبها فى مصر بعد أوبته، ونشرها قبل ذلك فى مجلته "الرسالة" – وهى جميعًا "فى أصول الأدب" بالمعنى الدقيق، وأبرعها عندى بحثه فى "تاريخ ألف ليلة وليلة" اسمع ما يقوله فى وصف الأثر التاريخى للقصاصين الذين خلفوا لنا ألف ليلة وليلة:

"وفى ليلة من هذه الليالى الساهرة تجدون هذه القهوة ذات الضوء الشاحب والصمت الحالم والمنظر الكئيب، قد حففت فوقها الرايات، وأشرقت فى جوها الثريات، وتلألأت في جوها المصابيح، وأخذت زخرفها بالسامرين، وقد جلسوا متقابلين على الدكك العالية يطوف عليهم غلمان بأكواب من ذوب السكر المعطر بماء الورد، وصاحبنا المحدث قد خرج يتهادى فى عمته المكورة، وجبته [المعفرة] وقفطانه الأنيق الأصفر، وقد تدلت من حزامه الحريرى [ذلاذل] [...] على بطنه المنتفخ الضخم، فإذا استوى على عرشه [النجد]، توهج البخور من جانب وتضوعت العطور من جانب، ثم خشعت الأصوات، ورنت إليه العيون، وأنشأ يحدث. فإذا بدا لإنسان أن يسأل بعض الجالسين عن سبب هذا المهرجان عجب أولاً من أنه لا يعرفه ثم أجابه بلهجة الفخور المزهو: هذه ليلة زفاف عبلة إلى عنترة... فإذا كانت القصة قصة بن هلال وجدتم هذا الهوى الجميل قد استحال إلى عصبية شنيعة، ورأيتم إخوان الأمس قد أصبحوا أعداء اليوم!

فطائفة تتعصب لبنى هلال، وطائفة تتعصب لبنى زناتة، وهؤلاء يريدون الشاعر على أن يقص واقعة، وأولئك يسألونه أن يقص أخرى، والشاعر لا يجيب إلا من يجزل له العطاء، فإذا رجحت كفة وشالت كفة، أخذ يروى من ذاكرته وغيبه على هوى الفئة الغالبة ما لم يسجله تاريخ ولم يدونه كتاب، فيزور الغرائب ويختلق الوقائع، ويقمش مما خزنه فى حافظته من مختلف الأسمار ورقائق الأشعار ليحوك منها للبطل حلة تهز العجب فى قلوب أشياعه وتلهب الغيرة فى صدور خصومه، فإما نفحة أخرى تميل به إلى الجهة الثانية، وإما معركة بين الحزبين تكون هى القاضية.

"هذا الرجل الذى صورته لكم هذه الصورة المتقاربة، هذا الرجل الذى ينام النهار ويجلس الليل يحدث أربع ساعات متعاقبة. هذا الرجل الفكه اللبق الحافظ الواعظ، هو الأثر التاريخى والنموذج الحقيقى لذلك القصاص البارع الذى خلف لنا كتابنا العالمى الخالد - ألف ليلة وليلة".

ثم يسرد تاريخ القصاص فى الأدب العربى ويشرح لك كيف نشأ، فرده إلى صدر الإسلام، وإلى القرآن الكريم، وبين كيف كان يجلس المحدثون فى المساجد يفصلون ما فى كتاب الله من قصص الأنبياء، ويسرف بعضهم فى تهويل هذه الأنباء ابتغاء للعبرة، فأقبل الناس على هذا الفن وكثر إفك القصاص فيه حتى طردهم على بن أبى طالب من المسجد ما خلا الحسن البصرى، وعرف رجال السياسة بعد ذلك أثر هذا الفن فى توجيه الميول فاتخذوه للدعاية، وبدأ بذلك معاوية فولى رجلاً على القصص فسار هذا الفن فى ركاب السياسة، وانتشر القصاص فى العواصم حتى صاروا ظاهرة من ظواهر اجتماعها، وتولى القصص الرسمى فى مصر سليمان بن عنتر التجيبى سنة ٣٨ مع القضاء ثم أفرد به وتعاقب القصاص من بعده، وكانوا أبواقًا للسياسة ولاسيما فى عهد الفاطميين. ثم بين الفرق بين القصص فى بغداد والقصص فى القاهرة، وكيف كان فى مصر تلفيقًا من الكتب وتلقفا من الأفواه، وكيف انتهى بأن اتخذ شكلاً لا عهد للأدب العربى به، أى شكل القصة بالمعنى المفهوم من كلمة "رومان" الفرنسية، وكيف كان القصاص المصرى يعتمد فى مادته على ما يصدر عن بغداد من الأقاصيص الموضوعة والمنقولة، والروايات القديمة الصحيحة والمدخولة، ويضيف إليها

ما تنوقل في مصر وما تجمع من الأخبار من التجار والرحالين والبحارة ويؤلف من هذه الأخلاط والأشتات قصة طويلة الفصول كثيرة الفضول، واستطرد على ذكر قصة عنترة وكيف أخذ القصاص ختامها البارع؛ إذ يصاب عنترة بسهم مسموم فيحس دبيب الموت ويخشى على قومه الهزيمة فيقف ممتطيًا جواده متكئًا على رمحه ويأمر جيشه بالتقهقر ويظل هو واقفًا يصد الأعداء بهيبته، فطال الأمر على أعدائه، واسترابوا فهاجوا فرسه فخر الفارس الميت - أخذ هذا الختام من مصرع سليمان بن داود أمام عماله المسخرين من الجن وقد جاء عنه في القرآن الكريم ﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴾[١٠٦].

وقد ظهرت هذه القصة في عصر كانت فيه مصر عزيزة الجانب، فلما تعاقبت الأعاصير على الدول الإسلامية، وعبثت العجمة بتراث العرب، وعدا الصليبيون على الشام ومصر، "اتسع خيال (القصاص المصرى) بقدر ما ضاق علمه، فهو يخلق بلادًا لم توجد، ويتصور حوادث لم تقع، ويعتمد في العمل على الجن والسحر والخوارق" فظهرت بين القرنين السادس والثامن من الهجرة قصص سيف بن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة، وفيروز شاه، وكتابتها في مصر دليلها أماكن وقائعها وأسماء أشخاصها "فالمهلهل بن ربيعة كان الوجه البحرى ميدان حروبه، وسيف بن ذي يزن هو الذي أجرى النيل من جبال القمر بكتابه السحرى الذي دفنه في جزيرة الروضة بالقاهرة، وهو الذي خطط مدن مصر، فالجيزة اسم من أسماء زوجاته وسبك الثلاث، ودمنهور الوحش قائدان من قواده، والنيل تفرع إلى فرعى رشيد ودمياط؛ لأن الملك (سيفا) وقف وهو قادم به من السودان يقاتل الكفار الذين اعترضوه في رأس الدلتا، فوقف النيل بوقوفه، ولكن الماء وراءه قد عب عبابه وطفحت أواذيه، فاندفق شطر منه إلى الشمال، واتجه الملك بالشطر الآخر إلى اليمين. ومدينة سمنود أصلها سماء نود لأن الحكيم (نودا)

---

(١٠٦) سورة سبأ/١٤ .

صاحبها عقد عليها سماء بالسحر توقعًا لغارات الملك سيف وهو ذاهب بالنيل إلى مصبه، ثم دفنه المؤلف أخيرًا فوق جبل المقطم وقال إن قبره هو الذى يعرف الآن بالجيوشى!"

وبيّن الأستاذ الزيات أثر الحروب الصليبية فى نسج هذه القصص، وشرح كيف انحط القصص فى مصر بسبب فساد المماليك واستبداد الأتراك وفساد المجتمع تبعًا لذلك، "فظهر حينئذ ذلك القصص الوضيع الذى يمثل هذه الحال بحقارتها وسفالتها، ويصور تلك البيئة بخرافاتها وجهالتها، كالقصص الذى يدور على (على الزيبق) و(أحمد الدنف) و(حسن شومان) و(دليلة المحتالة) أو (دالة المحتالة) كما يسميها المسعودى. وأصبح أسلوب القصاص فى هذا الدور دائرًا بين الجهالة والقحة فهو يستعمل فى قصصه لغة مبتذلة أو تراكيب فاحشة، وجملاً محفوظة ووقائع واحدة يرددها فى كل قصة ويكررها فى كل مناسبة. وكانت شهوة السهر والسمر قد بلغت مداها فى ذلك الحين لتغلب البطالة على أهل القاهرة، واعتماد الناس فى جمع الثروة على الحيلة والشعوذة والسحر والقدر، فتكدسوا فى أسوار حول القصاص، وقد تجمع هؤلاء من خلال القرون ذخيرة وفيرة من الأساطير والأسمار، فهبوا يدونونها كما دونت تلك السير من قبل، فكان مما دون فى تلك الحقبة الغريبة "ألف ليلة وليلة".

وعلى هذا النسق الدقيق البارع يكشف بعد ذلك عن حقيقة "ألف ليلة وليلة" ويردها إلى أصولها الفارسية والهندية، ويبين ما تجمع حول [...] فى مصر وفى أى عصر كتبت وطريقة تأليفها وأسلوبها وماذا عسى أن يكون لها من الدلالات والمرامى. ولو لم يكن فى "أصول الأدب" غير هذا البحث لكان حسبه، وقد رأى القراء نماذج من الأسلوب الجذل الذى يكتب به الأستاذ الزيات فلا أحتاج أن أقول فيه كلامًا.

تفصيل آيات القرآن(١٠٧)

المستشرقون قوم من الغرب فيهم إخلاص العلم والبحث يندر مثيله فى الشرق الآن، وهم، على كونهم مسيحيين، قد خدموا الإسلام وتاريخه وعلومه كما لم يستطع المسلمون فى هذه القرون الأخيرة أن يخدموا، ولو أن المقادير جرت بأن يمتد عمر الدولة العربية حقبة أخرى لكان الأرجح أن ينهض أبناؤها بأعباء الجمع والترتيب والتنسيق والتيسير، لما أنتجته مدنيتهم من العلوم والمعارف والآداب والفنون، وقد بدأ عصر الجمع بالفعل فظهرت التواريخ الشاملة والمعاجم الواسعة والتواليف المحيطة فى الأدب وغيره، ولكن الدولة تمزقت ودالت ونكبها الترك ومن إليهم من هذه الأجناس المخربة، فالآن يقوم المستشرقون بما كان العرب خلقاء أن يفعلوه لو أنسأ الله فى أجل دولتهم.

وفى يدى من آثارهم كتاب "تفصيل آيات القرآن الحكيم" وضعه المستشرق الأستاذ جول لابوم، ونقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى الذى نقل قبل ذلك كتاب "مفتاح كنوز السنة" وهذا الكتاب يرتب آيات القرآن الكريم على المعانى والموضوعات، وفيه ثمانية عشر بابًا فى التاريخ ومحمد - عليه الصلاة والسلام - والتبليغ وبنو إسرائيل والتوراة والنصارى وما بعد الطبيعة والتوحيد والقرآن والدين والعقائد والعبادات والشريعة والنظام الاجتماعى والعلوم والفنون والتجارة والأخلاق والنجاح، وتحت كل باب فروع تبلغ عدتها خمسون وثلاثمائة وتحت كل فرع ما ورد من آيات التنزيل، وأمام كل آية رقم السورة واسم السورة ورقم الآية، فليس على من يريد أن يرجع إلى ما نزل من آيات الكتاب فى موضوع ما، إلا أن يطلب ذلك فى بابه،

(١٠٧) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ (ص١٠، ١١).

وهو تيسير كبير يرفع مؤونات كثيرة، ويغرى بالمراجعة والبحث ويساعد على التحقيق الدقيق من أهون سبيل وفى أقصر وقت وأوجزه.

وقد رد الأستاذ فؤاد عبد الباقى الآيات إلى أصلها، ووضع للكتاب الفهارس اللازمة، وأخرجته له مطبعة عيسى البابى الحلبى فى ٧١٥ صفحة من القطع الكبير على ورق جيد وبالشكل الكامل.

* * *

وقد يسبق إلى وهم القارئ أن هذا كتاب لا ينتفع به إلا العلماء ورجال الدين، ولكن الواقع أنه كتاب لا يستغنى عنه أحد، بل هو أحد هذه الكتب النادرة التى تخلق طلابها وتحدث بوجودها حاجة إليها، والقرآن كتاب منزل ووحى من الله، ولكنه فضلاً عن ذلك قوام هذه اللغة وآدابها، وليس بأديب من لا يقرأه ويعرفه قبل أن يعرف غيره.

المصطلحات العسكرية
وما اختارته لجنة المجمع من الألفاظ(١٠٨)

اطلعت فى "الأهرام" الغراء على نبذة عن المصطلحات العسكرية التى تقترحها لجنة المجمع اللغوى. وتقول الأهرام فى سياق الخبر إن اللجنة قد فرغت من دراسة ألقاب رجال العسكرية واستقر الرأى على كثير منها، ونذكر على سبيل المثال أنها قررت تسمية "الأونباشى" "عونًا"، و"الملازم" "مناجدًا"، و"اليوزباشى" عميدًا و"الصاغ" عريفًا و"البكباشى" زاجلاً، و"القائمقام" بديلاً ثانيًا، و"الأمير آلاى" بديلاً أول، و"اللواء" أمير لواء، و"الفريق" أمير جيوش، و"سردار الجيش أو رئيس أركان الحرب" حامى الحمى و"البولك" السرية، و"الأرطة" الطوف أ هـ.

ولا أدرى أتمـزح لجنـة المصطلحات العسكرية أم تجـد، وإنمـا الذى أدريه أنها - إذا كانت إلى المزاح تقصد - لا تستطيع أن تجىء بأبرع من هذا فى بابه. ويخيل إلينا أنها عمدت إلى الألفاظ التركية وراحت تترجمها، من غير أن تجعل بالها إلى أن بعض هذه الألفاظ يمكن أن يبقى مستعملاً كما هو لأنه عربى صحيح مثال ذلك "الملازم" ما عيب لفظه؟ ومـاذا يمنع أن يترك على حاله وأن يظل وصفًا للرتبـة التى يدل عليها؟ ولفظ "اللواء" لماذا يجب حتمًا أن يضاف إلى "أمير"، وأن يسمى صاحب هذه الرتبة "أمير لواء"؟ ولا بأس من "أمير لواء" ولكن الاقتصار على "اللواء" أخف وأسهل فى الاستعمال وعند إرادة الجمع وغير ذلك. ومثل هذا يقال عن لقب "الفريق" واللفظ عربى

---

(١٠٨) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٨ فبراير سنة ١٩٢٧ (ص١٠).

فى ذاته وبغض النظر عما يدل عليه الآن، وقد نقله الاستعمال وحوله عن الأصل، فصار كل امرئ يفهم أن "الفريق" هو صاحب رتبة معينة رفيعة فى الجيش. وصحيح أن الاستعمال غلط، ولكن اللفظ عربى، ومن الممكن التسامح والإغضاء عن نقله وتحميله هذا المعنى العسكرى مراعاة للشيوع. ولا ندرى ما عيب "أركان الحرب"؟ فإنا نراها صحيحة اللفظ والدلالة.

وقد اختارت الجنة ألفاظًا لا نراها صالحة منها "الزاجل" للبكباشى، ومعنى الزاجل قائد العسكر، فاللفظ صحيح ولكنه ثقيل لا يقبل ولا يسيغه الذوق. وقد لا ترى اللجنة أن تجعل بالها إلى ما يقبله أو يمجه الذوق اكتفاء بالصحة، ولكن الذوق هو الذى عليه المعول فى الاستعمال. وفى اللغة – كل لغة – آلاف من الألفاظ ماتت وهجرها الناس لأنها لا توافق الذوق العام.

واختارت "المناجد" للملازم، وقد أسلفنا أن الملازم صحيح اللفظ، فلا موجب لإبداله واعتياض سواه منه. ولا أدرى من أين جاءت الجنة بالمناجد. وترجمت كلمة "قائمقام" بكلمة بديل، وهو ترجمة فيها خطأ، ولا داعى إليها فضلاً عن ذلك، أما الخطأ فذاك أن الذى يقوم مقام غيره ليس بديلاً منه، ففى لفظ البديل توسع، وأما أنه لا داعى لهذه الترجمة فذاك لأن كلمة "قائمقام" لا ينقصها إلا أداة التعريف تحشر بين اللفظين اللذين ركبت منهما، فتصح، فيقال "قائم المقام" ويسقط عنها وجه الاعتراض عليها، ولا بأس مع ذلك من بقائها كما هى بغير زيادة أداة التعريف، فإنها مقبولة سائغة وليس من المتعذر تأويل تركيبها على هذا النحو، والاحتجاج له.

ولا داعى لترك المستعمل إذا كان له وجه، مثل الملازم وأركان الحرب والفريق والقائمقام، وما إلى ذلك. ولا خير فى لفظ يصلح لكل رتبة، مثل الزاجل فإنه كما أسلفنا قائد العسكر، وكل ضابط فى الجيش قائد عسكر، فقصر اللفظ على البكباشى غير مفهوم، ومثل البديل فإنه يصلح إطلاقه على كل ضابط دون القائد الأعلى. أما "حامى الحمى" فمضحك، وما عيب لفظ القائد أو رئيس أركان الحرب حتى نعدل إلى "حامى الحمى"؟

أعتقد أن هذه الألفاظ وما إليها ترهق الجيش إذا اتخذت أو فرضت عليه، فيقضي في التدرب على استعمالها وفي رياضة النفس على احتمالها وإساغتها مثل ما يقضيه في التدرب على أساليب الحرب وفنونها. فيحسن بلجنة المجمع أن تعدل عن هذا العناء الباطل الذي تتجشمه، وأن تترفق بالذوق العام فلا تطالبه باحتمال ما لا يطيق، وعندنا أنه ينبغي الإبقاء على كل لفظ أو تعبير له وجه ولو بشيء من التجوز، أما ما ليس له وجه، فيجب أن تختار له ألفاظًا أو عبارات يسهل جريها على اللسان ولا ينفر منها الذوق، فإنه لا معنى للتقعر والحذلقة في هذا الباب. ولو كان كل رجال الجيش – من جنود وقادة – من طراز صاحب القاموس أو من طبقة أعضاء المجمع، لكان هذا التقعر أو الحرص على انتقاء المهجور والحوشي من الألفاظ، في محله أو لا ضير منه.

وليعذرنا أعضاء لجنة المجمع، وإنا لنعرف لهم أقدارهم ونكبرهم، ولكن المسألة هنا مرجعها إلى الذوق لا إلى العلم، والأمر أمر اختيار ألفاظ تصلح ويسهل استعمالها لا أمر بحث لغوي، وما أظن أن أحدًا من رجال الصدر الأول في الإسلام، أو من أهل الجاهلية، كان يمكن أن يقبل ذوقه وصف رجل من رجال الحرب بالزاجل أو المناجد؟

اللورد كتشنر

كما يصوره صاحب "المشرقيات"(١٠٩)

راقتنى من كتاب "المشرقيات" للسير رونالد ستورس، على الخصوص، طائفة من الصور الوصفية لجماعة من مواطنيه الإنجليز الذين كان يعمل تحت رياستهم. وكان السير رونالد هو السكرتير الشرقى لدار المعتمد البريطانى فى مصر، أو قصر الدوبارة كما كانت تسمى قبل الحرب، وقد ظل يعمل تسع عشرة سنة فى مصر وفلسطين بعد فتحها وجلاء الترك عنها، ويقوم بأثقل الأعباء وأخطر المهمات، وهو يعد - فى اصطلاح الوظائف - "ظهورات"، والمراد بذلك أنه غير"مُثبت" ولا يحسب له معاش، ولا يمنح شيئًا سوى الشكر والثناء إذا ترك الوظيفة أو استغنت عنه حكومته. ولم ينتظم فى سلك الموظفين الدائمين إلا بعد أن تخلى الجيش البريطانى عن إدارة فلسطين وأسلم الأزمة إلى حكومة مدنية برياسة مندوب سام.

فهذه واحدة قد تكون فيها عبرة للمصريين.

ومن أشهر المعتمدين البريطانيين الذين تعاقبوا على مصر قبل الحرب وبعدها اللورد كتشنر، وقد قص عنه السير رونالد بضع نوادر تصوره أبرع تصوير. منها أنه على أثر مقدمه، سبقه السير رونالد - وكان لا يزال المستر ستورس - إلى قصر الدوبارة، وجلس إلى مكتبه ينتظر أن يقرع له الجرس. وكانت حكومته قد أنبأته أنه سيكون مع اللورد كتشنر "تحت الاختبار" فإذا رضى عنه فبها، وإلا فهو مفصول لا محالة.

---

(١٠٩) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٢٨ فبراير سنة ١٩٣٨ (ص٣٢٣-٣٢٤).

ولم يكن المستر ستورس يرجو خيراً، أو يطمع في رضى رئيسه، فراح يحسب ما ادخره ليرى هل يكفي لنفقات السفر على الدرجة الأولى وهو عائد إلى بلاده. وإذا بالجرس يدق، فنهض ودخل على كتشنر يحمل إليه آلافًا من برقيات التهنئة التي تلقتها الدار.

قال ستورس: "وكان الفيلد مارشال يحدق في مكتبه وهو يسأل عن هذه الأوراق ما هي. فأخبرته، فسألني ماذا أنوي أن أصنع بها؟ فقلت: إن رأيي هو أن التهنئات الواردة من أعضاء الأسرة المالكة ومن الوزراء الحاليين والسابقين يكون الرد عليها بضمير المتكلم إذا كانت هناك معرفة شخصية، أو بضمير الغائب إذا لم تكن ثم معرفة كهذه بينه وبين مهنئيه، وأن غير هؤلاء من الأفراد المعروفين أو الجديرين بالاحترام يتولى السكرتير الشرقي شكرهم، وأن الباقين يكون جوابهم الصمت.

"فأدهشني وأفزعني أن أتلقى منه أمراً بالمساواة بينهم جميعًا. وقد تعود الفيلد مارشال الطاعة السريعة التي لا تعرف التردد أو المناقشة، ولعل اللورد كتشنر أصرمهم في هذا. وقد بدا لي وأنا واقف أمامه أن المجادلة لا محل لها، وخاصة ممن كان مثلي مدنيًا لا عسكريًا؛ ولكنه لم يسعني ما دمت في وظيفتي، إلا أن أكون مستحقًا للأجر الذي أتقاضاه عليها، ولذلك تشددت وأنا على مقربة من الباب، وأجريت لساني بما يفيد الطاعة، وزدت على ذلك أن في وسعنا على كل حال أن نهمل النتائج. وكنت كأني في حلم، وكأني أحس – لا أسمع – سؤاله "أي نتائج؟".

فقلت بلهجة اليائس: إن أهل الطبقة الأولى سيرون أنهم أهينوا لأنهم عوملوا كأهل الطبقة الثانية، وإن أهل الطبقة الثانية سيعدون هذه سابقة، وينتظرون في كل حال أن يُسووا بمن فوقهم، وإن أهل الطبقة الثالثة سيستخدمون اسم سعادته (يعني كتشنر) في ابتزاز المال من الجهلاء والأميين من أبناء الريف.

"وساد سكون مزعج سألت نفسي فيه – بسرعة البرق – إذا طردت هل يسعني أن أسافر على الدرجة الأولى، ولو بطريق البحر الطويل؟ وسمعت كما يسمع الحالم صوتًا يقول: "اصنع ما بدا لك" واستيقظت في غرفتي حيث عجلت بإرسال ردود الشكر قبل أن يغير رئيسي رأيه.

وفى الأسبوع الأول من عهد كتشنر، سمع المستر ستورس أن طائفة من الموظفين الإنجليز ينوون أن يستقيلوا، بعضهم لكراهتهم له، والبعض الآخر لأنهم يتوقعون منه أن يقيلهم. فرأى المستر ستورس من واجبه أن يبلغه ذلك من غير أن يذكر له أسماء. فقال له كتشنر :"اذهب إلى النادى (تيرف كلوب) وأعلن هناك أن عندى هنا فى هذا الدرج استمارات مطبوعة بقبول الاستقالات". فأذاع المستر ستورس هذا الخبر، فلم ترد استقالة واحدة!

ويقول المستر ستورس إنه اشتاق إلى الاطلاع على هذه الاستمارات العجيبة، ففتح الدرج فألفى فيه صندوقًا فيه سجائر!

وتغدى سلاتين باشا مرة مع كتشنر، فقال على الطعام، تمهيداً للكلام فى أمر "معاشه":

"إن من دواعى أسفى أنى لم أوفق فى حسن تدبير الجانب المالى من حياتى".

فقال كتشنر:"إن من يعرفك يا عزيزى سلاتين لا يخطر له غير ذلك".

ولم يكن هذا بالرد المشجع على الاسترسال ولكن سلاتين باشا لم ينهزم فقال:

"هأنذا ظللت فى أسر المهدى اثنتى عشرة سنة، عارياً مكبلاً أكثر الوقت، وقد وقعت فى الأسر وأنا فى الخدمة، ومع ذلك لم آخذ قرشاً واحداً طول هذه المدة".

فكان رد كتشنر :"صحيح يا سلاتين، ولكنك لا تستطيع أن تزعم أنك أنفقت شيئاً فى هذه المدة!"

وبعد هذا الجواب انتقل الحديث فجأة إلى الطيران ومحصول القطن!

ولما جاء إلى مصر كامل باشا الذى تولى الصدارة العظمى فى تركيا أربع مرات، زاره اللورد كتشنر فى فندق سميراميس، فتذكر كامل باشا أنه لما كان واليًا فى الأناضول كان كتشنر قنصلاً لدولته هناك، فقال كتشنر:

"نعم، ولكنك تنقلت فى معارج الرقى بسرعة، أما أنا فكنت يومئذ قنصلاً، وقد احتجت إلى ثلاثين سنة لأصبح قنصلاً عامًا"!

وكان إذا جاءه البريد من لندن، يفتح منه أول ما يفتح، كتاب وكيله الذى يصف له فيه مبلغ التقدم فى إعداد بيته هناك وإصلاحه. ويقول ستورس: إن العمل فى بيت كتشنر استغرق سنوات وسنوات، لأنه كان ينفق عليه مما يستطيع أن يدخره من مرتبه. وكان هذا البيت هو كل ما يعنيه من أموره الخاصة، وشاء القدر ألا يسكنه قط؛ لأنه غرق قبل أن ينتقل إليه.

ولم يكن يحسن الكتابة أو يقبل على القراءة ويعنى بالاطلاع مثل كرومر. وكان قلما يلعب غير الشطرنج فى القطار أو على الباخرة، ولم يكن له ذوق غورست وفهمه للموسيقى والعلوم الطبيعية، أو ولع اللنبى بالألعاب الرياضية والشعر، ولكنه كان مشغوفًا بالعاديات وفنون الزينة.

وقد قامت الحرب، وهو فى إجازته فى إنجلترا، فأراد أن يعجل بالعودة إلى مصر لأنه كان يخشى أن تكل إليه حكومته وظيفة استشارية. فلما صار على ظهر الباخرة تلقى برقية من رئيس الوزارة يطلب بقاءه، فعاد إلى لندن ومعه السير رونالد ستورس وفى نيته ألا يقبل شيئًا دون وزارة الحربية مع إطلاق يده فيها، فأعطوه ما طلب، فأراد أن يتخذ السير رونالد سكرتيرًا خاصًا له وأمره أن يستأجر له بيتًا، ويجيئه بسيارة من طراز "رولز رويس" وأن يذهب إلى الخارجية للاتفاق معها على الانتقال مع كتشنر إلى الحربية. وكان السير رونالد لا يريد هذا الانتقال؛ لأنه ليس من رجال الحرب ولا دراية له بشئونها، ولكن كتشنر كان رئيسه - لأنه لم يستقل من وظيفته فى مصر - فأطاع. فأبى رجال [الحربية][١١٠] أن يسمحوا بهذا النقل، ولكنهم كرهوا أن يعارضوا كتشنر، فكلفوا ستورس نفسه أن يتولى هو عنهم إقناعه وإبلاغه أنهم محتاجون إليه فى مصر.

---

(١١٠) ربما يعنى هنا (الخارجية) (المحرر).

فلمـا عـاد إلى وزارة الحـربيـة ألفى كتـشنر يغسـل وجـهـه، وهو نصف عـار، ووراءه عدد من القواد الفرنسيين، فانتظر حتى فرغ مما هو فيه، ثم أخبره الخبر، فاقتنع كتشنر، وقال: إن رجال الخارجية على حق. وكان من مزاياه - على ما يروى السير رونالد ستورس - أنه لا يتردد فى الرجـوع إلى الحق، ولا يخجل أو يستنكف من ذلك.

مجمعنا اللغوى

ماذا يصنع... وماذا أثمر؟[١١١]

عرفت الدكتور أحمد عيسى بك لا من طبه - لا جُعلت حاجتى إليه، على حذقه وأستاذيته فيه - بل من أدبه وعلمه. وقد كانت له مشاركة فى سياسة الأحزاب جنت عليه فيما أعلم ولم يستفد منها إلا العناء الباطل، وإلا الاضطهاد بعد أن دالت دولة الحزب الذى دخل فيه. وما كان له قط عمل فى السياسة وإن كان قد حسب من رجالها - وحوسب على ذلك - فى وقت من الأوقات. وإنما كان همه العلم والبحث فى اللغة، وما زال هذا همه ووكده. وقد زارنى مرة منذ بضعة شهور أيام كان الكلام يدور فى تخليد ذكرى المرحوم الملك فؤاد، وقال لى: إنه يرى غير ما يرى الناس فى وسيلة هذا التخليد، فإنهم يرومون إقامة تمثال هنا وهناك، ولكن الملك فؤادًا كان عالمًا محبًا للعلم والعلماء، فالأولى أن يخصصوا المال الذى يجمع لنشر الكنوز العربية التى لا تجد لها ناشرًا كما فعلت أم المستشرق جيب الكبير. وأرانى ديوان شعر عربى طبع فى أوربا وعلى الصفحة الأولى منه أنه مطبوع من المال المجعول لتخليد ذكرى هذا العالم المستشرق. وهذا الاقتراح من الدكتور عيسى بك يريك نزعته.

ومن أغرب ما سمعت منه فى ذلك اليوم أنه رد نحو ألفى كلمة من اللغة العامية إلى أصولها العربية، ورتبها وبوبها وعرضها على مجمعنا اللغوى ليطلع عليها ويطبعها وينشرها إذا وافق، ولكن المجمع آثر أن يهمل الأمر ولم ير أن يصنع شيئًا - على عادته.

---

(١١١) نشرت فى مجلة "الرسالة" فى ٤ سبتمبر سنة ١٩٣٩ (ص١٧١٩-١٧٢١).

وقد عنيت بهذا الخبر لأنى أنا أيضًا جمعت طائفة من الألفاظ التى يظنها الكثيرون عامية وهى صحيحة وردت فى كتب اللغة وكتب الأدب. وكان الباعث لى على العناية بهذا أنى أوثر أن أستعمل اللفظ المأنوس وأستثقل الحوشى والمهجور، فغايتى شخصية وغايته علمية بحت. وأتيحت لى فرصة فأذعت حديثًا عن العامية والفصحى أشرت فيه إلى بحث الدكتور عيسى بك، ورجوت أن ينفض المجمع عنه هذا الغبار الكثيف، وأن يولى بحث الدكتور عيسى بك شيئًا من العناية التى يستحقها، ولكنى أحسبنى ناديت غير سميع فما عبأ المجمع بالرجل أو كتابه شيئًا.

وقد دافعت مرات عن هذا المجمع بمقالات شتى لى فى "البلاغ" وفى المجالس وفى لجان شهدت اجتماعها وسمعت فيها حملات شديدة عليه، فلست أتهم باللدد فى خصومته حين أتساءل عن هذا المجمع. ماذا تراه يصنع... إن كل ما أراه يصنعه هو إجازة صيغ لا يحتاج جوازها إلى إذن خاص منه، ووضع ألفاظ لمصطلحات العلوم والفنون سبقه الكتاب والمترجمون والمعلمون إلى خيرها ولا خير فى باقيها، ونشر مجلة لا انتفاع لأحد بها، وطبع معجم الدكتور فيشر أو هو يطبعه ولا فضل للمجمع فى هذا. وقد سألت مرة أحد أعضاء المجمع عن هذا المعجم هل اطلعتم عليه وراجعتموه واقتنعتم بصحته؟ فكان الجواب السريع: "لا".

قلت: "ولكن المجمع ينشره فهو يعد مسئولاً عما فيه، وعسى أن يكون فيه خطأ أو اعتساف أو شطط فمن يحمل تبعة هذا غير المجمع الذى ينشره، والذى يعتقد الناس – ولهم العذر – أنه أقره".

فكان جواب عضو المجمع أن ترحم على الأستاذ السكندرى؛ لأنه كان هو الوحيد الذى اجترأ على الاعتراض على نشر هذا المعجم بغير مراجعة أو بحث كاف.

ولست أحاول أن أغض من قدر الدكتور فيشر أو أن أنتقص من قيمة معجمه الذى يقال إنه قضى أربعين عامًا فى وضعه فما اطلعت عليه – كما لم يطلع المجمع – وإنما قرأت وصفًا له فى الصحف ورأيت أمثلة لما يقال إنه فيه وهى أقل وأضأل من أن تجيز لى الحكم عليه أو الذهاب فيه إلى رأى معين، وإنما ذكرت هذا الحديث على سبيل التمثيل لطريقة المجمع فى العمل ومبلغ تقديره لتبعته.

وقد قيل لى إن خير ما ينتظر من المجمع هو وضع معجم حديث لهذه اللغة وإن هذا عمله الأكبر، وقال لى غير واحد من أعضائه ومن غيرهم إنه معنى بدرس اللهجات العامية فى أقطار العربية مثل عنايته بوضع الألفاظ لما لا لفظ له فى العربية، وإن هذا وذاك بسبيل مما يجب أن يضطلع به من وضع المعجم العربى. ولكنى لا أراه يضع معجماً بل أراه يطبع معجماً تاريخياً للألفاظ وضعه الدكتور فيشر المستشرق. ولا أراه يصنع شيئًا يذكر فى وضع الألفاظ للجديد من المعانى والتعابير، ولو أراد كاتب أو مترجم أو مؤلف فى علم أو فن أو أدب أن ينتظر حتى يعد له المجمع ما عسى أن يحتاج إليه لما جنى سوى طول الرياضة على الصبر. ولا أراه يدرس اللهجات العامية بل أراه يرفض أن ينشر بحثًا للدكتور عيسى بك فى العامية رد به آلافًا من ألفاظها إلى أصولها؛ فهل كان ينبغى أن يكون الدكتور عيسى بك مستشرقًا أولاً وعضواً فى المجمع ثانيًا ليجامله الأعضاء بنشر كتابه بلا بحث أو نظر أو تفلية...

ورحم الله الفيروزآبادى وابن منظور وابن سيده وأمثالهم، فما كان أحدهم مجمعًا طويلاً عريضًا ذا أعضاء من الغرب والشرق ومال تكلفه له الدولة.

وعسى أن يتوهم البعض أنى أحاول أن أحمل المجمع على نشر هذا البحث للدكتور عيسى بك، ولهذا أقول إن هذا ظن لا محل له فقد نشر الدكتور كتابه وانتهى الأمر ولا حاجة به إلى معونة المجمع. وأقول أيضًا إن الدكتور الفاضل ما كان يبغى أجرًا على عمله أو منفعة أخرى يصيبها من وراء ذلك وإنما رأى أن المجمع أليق جهة بنشر كتابه لأن بحثه يعد بعض عمله.

سمعت مرة من رجل مسئول – أو كان من المسئولين يومئذ – وقد قال لمسئول آخر إنه يرى إنشاء مجمع أدبى لخدمة الأدب لا اللغة وحدها كما يصنع المجمع القائم، فقيل له إن التريث واجب فى إنشاء هذه المجامع؛ فقد أنشأت الدولة مجمعًا للغة العربية وكان الأمل فيه كبيراً فمضت سنوات طوال وهو لا يصنع شيئًا يستحق الذكر أو يستحق به ما أنفق عليه من مال الدولة، وهذه تجربة لا تشجع على المضى فى إنشاء المجامع.

فأما إنشاء مجمع حكومي للأدب فقد كنت لا أرى رأى صاحب الاقتراح فيه؛ لأنى على شعورى بحاجة الأدب إلى التشجيع وحاجة الأدباء إلى التفرغ للإنتاج أكره أن يكون للحكومة دخل فى ذلك وأخشى أن يجنى دخولها فى هذا الأمر على الأدب. فما يرجى للأدب خير إلا فى ظل الحرية، والحكومات بطبيعتها نزاعة إلى السيطرة والتحكم وتسخير الأقلام لها.

كان هذا هو اعتراضى على ما اقترح من إنشاء مجمع أدبى على مثال المجمع اللغوى. أما المسئولون فكانوا ينظرون إلى الأمر من ناحية التجربة المخفقة وما تشير به من ضرورة التريث اتقاء لبعثرة المال فى غير غرض صالح، ولست أروى هذا إلا ليعرف المجمع رأى الحكومة نفسها فيه لعل هذا يستحثه قليلاً إذا كان رأى غير الحكوميين من أمثال لا يعنيه.

"أشواق" للشاعر محمود أبو الوفا[١١٢]

الأستاذ محمود أبو الوفا شاعر بنفسه كما هو شاعر بنظمه. وقد اشتهر بشعره الرقيق وأناشيده العديدة، من دينية وعسكرية - فى العهد الأخير - وهو فى شعره أميل إلى الكآبة، ونغمة الحزن تترقرق فى كلامه وتفيض عليه، حتى العناوين والأسماء التى يطلقها على ما ينشر من شعره تشعرك بذلك، فقد أصدر مجموعة من القصائد سماها "أنفاس محترقة". والأنفاس لا تحترق، ولكنه أراد أنها حارة صادرة عن قلب يتلظى، وله مجموعة أخرى سماها "الأعشاب" وفى الاسم تواضع ودعة لا يخلوان من أسى كامن. وآخر مجموعاته اسمها "أشواق" وهى كلمة تشعر باللهفة والحرقة. ولا تكاد تخلو قصيدة له من هذه النغمة الحزينة إلا أن تكون من الشعر الذى قاله فى المناسبات العامة، وشعره الذى قاله بوحى من جيشان نفسه والذى بث فيه خواطره وآماله وآلامه، أشجى وأرق وأجود وهذا طبيعى، ومن حسن الحظ أن معظم شعره من هذا القبيل وقد شاع كثير من هذا الشعر الرقيق وصنعت فيه الأصوات وأصبح مما يتغنى به، مثل قصيدته المشهورة "عندما يأتى المساء" ولا عجب فإن له لموسيقية تغرى بغنائه.

حتى طبع الشعر أنيق رقيق كصاحبه وشعره وجميل كروحه وخفيف كظله، بارك الله فيه وزاده من نعمائه.

أ.م.

---

(١١٢) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٦ إبريل سنة ١٩٤١، (ص٣)، (بإمضاء ا.م. وقد رد عليه فى ٢٢ أبريل سنة ١٩٤١ أحمد صبرى تحت عنوان "كتاب "أشواق" بين الحزن المصنوع والحزن المطبوع"، وأشار فى بدايتها وثناياها إلى المازنى ككاتب للمقالة) (المحرر).

حديث الأحد :

شاعر فلسطين المرحوم إبراهيم طوقان[113]

أقطع الحديث الذى كنت فيه لأنعى إلى القراء شاعر فلسطين الأستاذ إبراهيم عبد الفتاح طوقان ولا أعلم متى وأين أدركه الحين، وكل ما أعلمه أنى تلقيت دعوة فى البريد من الأستاذ "أديب مهيار" فى نابلس إلى المشاركة فى تأبين هذا الصديق العزيز يقول فيها الأستاذ "مهيار" إن الحفلة ستقام فى الثالث عشر من شهر يونيه، ويسألنى أن أبعث "بقصيدتى" فى رثاء الفقيد العزيز ليلقيها عنى من أنيبه من الإخوان إذا كان لا يتيسر لى الحضور. ولا شىء غير ذلك. وقد أذكرتنى هذه الرسالة قول الشاعر:

"طَوى الجزيرَةَ حتى جاءَنى نبأٌ   فَزِعتُ فيه بآمالى إلى الكذِبِ"[114]

ولكنى أعرف أن القوم فى فلسطين وغيرها من بلاد العرب لا يمزحون هذا المزح الثقيل.

وكان آخر عهدى به لما كنت فى فلسطين فى الصيف الماضى لإذاعة حديثين من محطتها اللاسلكية، وكنت أعرف أنه يعمل فى المحطة ويتولى إدارة قسم المحاضرات وما إليها فيها، فسرنى أنى سألقاه وأنعم بمجلسه وآنس به وأقرأ أو أسمع آخر ما قال من الشعر مما فاتنى وأنا فى مصر، فلما سألت عنه فى المحطة أذهلنى أن قيل لى إنه

---

(113) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى 1 يونيه سنة 1941، (ص2).

(114) البيت للمتنبى وهو من البسيط! (المحرر).

لم يعد له فيها عمل فهل تركها أم عزل.. ولماذا كان هذا .. وشعرت بالرغبة فى اجتناب الخوض فى هذا الموضوع، ولكنى كنت أشد عناية بمعرفة الحقيقة منى بمراعاة الإخوان فألححت في السؤال حتى تبينت أن خلافًا وقع بينه وبين بعض المسئولين، وكان المختلفان من الصلابة والعناد بحيث لا يتيسر لهما العمل معًا، فتغلب الذى هو أقوى على الذى هو أضعف فأقيل صديقنا طوقان بجرة قلم ومن غير كلمة شكر على ما بذل من وقته في خمس سنوات طوال. وعلم قنصل العراق فى القدس الخبر فأبرق إلى وزارة المعارف العراقية به فجاءه منها رد سريع بأنها ترحب بالأستاذ طوقان، فدعى إلى السفر للتعليم فى بغداد فقبل وتم الأمر كله في ساعات، ولقيته فى دار العالم الجليل الأستاذ إسعاف النشاشيبى فتحدثنا فى كل أمر من تافه وجليل إلا فى حكايته وأصبح في الطريق إلى بغداد. وكان كل من يعرفه يقول لى إنه لن يقوى على احتمال حر بغداد في الصيف، ولكنا كنا نقول إنه يستطيع أن يقضى الصيف فى مصايف العراق أو الشام ثم انقطعت أخباره إلى أن تلقيت هذه الرسالة المشئومة.

ولو أن الأستاذ طوقان كان أقل أنفة وكبرياء وعزة نفس لما احتاج أن يجشم نفسه مشقة العمل كائنًا ما كان، فإن والده من سراة فلسطين وأغنيائها، ولكن إبراهيم كان يستنكف أن يتلقى معونة حتى من [أبيه]، وكان يعلم أن العمل يقتله فقد كان به مرض فى العظام يقتضى الراحة وخلو الذرع وأخذ الحياة مأخذًا سهلاً هينًا، وكان فى وسعه أن يريح نفسه ويجنبها المتاعب ولكن كبرياءه أبت عليه ذلك.

وقد تعلم إبراهيم فى الجامعة الأمريكية في بيروت وعكف على الأدبين العربى والإنجليزى يحصلهما ويدرسهما وكان من أحسن الناس اطلاعًا وأوسعهم علمًا وأعظمهم تبحرًا وأدقهم فهمًا وأصحهم إدراكًا للأدب ووظيفته. وكان فى الذروة بين شعراء فلسطين ولم يكن هناك من يقاربه أو يضارعه إلا صديقنا الشاعر "أبو سلمى"، وكانت بينهما مساجلات عديدة ولكن أكثرها لم ينشر ولم يعرفه إلا خلصاؤهما.

وقد أطلعنى إبراهيم مرة على دفتر دون فيه ما قال من الشعر فأعجبت به وأثنيت له عليه مخلصًا وألححت عليه أن ينشره فى كتاب أو ديوان ليطلع عليه المصريون وغيرهم

من أبناء العربية الذين لا تصل إليهم صحف فلسطين ومجلاتها، فإن مما يؤسف له أن أبناء الأقطار العربية الأخرى يعرفون كل شيء عن أدباء مصر ويتتبعون حركة الأدب فيها وتياراتها المختلفة تتبعاً دقيقاً وقلما يعرف المصريون عن إخوانهم أدباء العربية فى الأقطار الشقيقة شيئاً يستحق الذكر ولا أحب أن أقول إن هذا من الغرور، ولكنى أقول إنه من التقصير المعيب. وليس يسع المصرى حين يزور الشام أو العراق أو الحجاز أو فلسطين أو المغرب إلا أن يتعجب لعظم إحاطة القوم فيها بأخبار الأدباء المصريين وآثارهم على حين يلقى نفسه من أجهل خلق الله بأدبهم وأدبائهم وما أبرئ نفسى أو إستثنيها فقد كنت واحداً من هؤلاء الجهلاء، وأخجلنى أنى كذلك فعنيت بعدها بالتقصى والتتبع.

وكان المرحوم إبراهيم طوقان وديعًا ساكن الطائر متواضعًا جم الأدب عظيم مروءة النفس، وكانت فيه دعابة ظريفة، وله جانب من المرح يشاركه فيه معظم أدباء الشرق العربى وهم من هذه الناحية يشبهون أدباء الجيل الماضى من أمثال حافظ ومعاصريه ولكنهم أبناء زمانهم فهم يعيشون فيه لا فى الماضى، وهم أقل من المصريين ميلاً إلى التقليد والمحاكاة وأشد نزوعًا إلى التجديد وإقبالاً عليه وإن كان بعضهم ربما أخطأ الجوهر وتعلق بالمظهر. ولعلهم على العموم أشبه بالجدول الرقراق منهم بالبحر البعيد الأغوار على أن مما يمتازون به أنهم أحرص على تحصيل الآداب القديمة من جمهرة الأدباء الناشئين فى مصر، فإن هؤلاء لا صبر لهم على مشقات التحصيل ومتاعب الدرس وأنا أقول هذا وبنفسى غصة فما تستطيع أن تقيم بناء وتعليه وتوطده بغير أساس والأساس هذه الكنوز التى خلفها لنا الأدباء والعلماء من أبناء الأمم جميعًا لا العرب وحدهم وبمجردهم.

وقد فوجئت بنعى الصديق طوقان فلم يتسع الوقت لمراجعة ما عندى من آثاره وجمعها وتخير بعضها للنشر، وإنى لأرجو أن يتاح لى ذلك فى فرصة قريبة وعسى أن يعنى أخوه الأستاذ أحمد طوقان بالكتابة عن شقيقه والترجمة له وجمع شعره وطبعه فإن حرامًا أن يضيع هذا الشعر النفيس.

* * *

منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً قلت قصيدة لا أذكرها، ولكنى أذكر معناها أو فكرتها، وكنت فى تلك الأيام عظيم التطير من الحياة، وقد تخيلت أن حياتى شجرة تذبل أوراقها وزهراتها واحدة بعد واحده فتتساقط جافة ذاوية. ولم أكن لقيت فى حياتى من البلاء والامتحان ما يغرى بهذا التصور، ولكنه كان جموحاً منى وإغراقاً فى التشاؤم على أنى صرت بعد ذلك كلما مات أحد من أهلى أو ممن لهم عندى مكان بين العين والقلب - أذكر هذه القصيدة القديمة وأشعر أن ورقة أخرى من شجرة حياتى جفت وذبلت وهوت إلى الأرض وداستها الأقدام العابرة فى ركب الحياة. فأتأمل شجرتى التى تتعرى شيئًا فشيئًا حتى ليوشك أن تصبح أعواداً جافة عاطلة لا ورقة عليها ولا زهرة نابتة منها، وتدور الأيام وتتهاوى الورقات فيدور بنفسى أن الاجتثاث [الوحى] أرحم وأهون من وحشة التجرد البطىء، عفا الله عنا وأعاننا ورحم من سبقونا، وما أظن بهم إلا أنهم أحسن من الأحياء حالاً فليست الوحشة وإنما الوحشة لمن يجيل عينه فى جوانب حياته فيلقى نفسه يصبح شيئًا فشيئًا مستفرداً وحداً.

وهذا هو التغرب وما بارح المرء سكنه، وهذا هو نفس الشعور الذى عبر عنه الشاعر حين طلب الرحمة للغريب ذى البلد النازح الذى:

فـارقَ أحبَـابَهُ فـمـا انتَـفَـعـوا ... بالعيشِ من بَعده ولا انتفَعا[١١٥]

سوى أن الأحباب هم الذين يفارقون المقيم، والنتيجة واحدة، والشعور لا يختلف.

(١١٥) البيت من المنسرح وهو للشاعر العباسى على بن الجهم (١٨٨هـ-٢٤٩هـ).

حديث الأحد[116]

(١) سوء تفاهم للدكتور بشر فارس

الدكتور بشر فارس صديق عزيز عليّ، أثير عندى، وأنا على وده حريص، وبإخائه ضنين، ولكنى لا أحابيه، ولا أغرر بالقارئ، حين أقول إن كتابه الجديد "سوء تفاهم" تحفة أدبية.

وأصفه أولاً، فأقول إنه – وأعنى الكاتب لا كتابه – رجل بيته أنيق مرتب، وعقله منظم، ودراسته – على سعتها – مبوبة كأنها، وهى فى رأسه، على رفوف لا تكلفه إلا مد اليد للتناول من قريب، وهو كريم يعطى ما يجاوز حد الكفاية، ولكن فى طباعه حكمة تأبى عليه الإسراف، وتصده عن البعثرة، وتحميه أن يجمح به التمرد بغير عنان، وفى جبينه وضوح، وفى عينه سعة، ولكن النظرة فاحصة، والحزم يطالعك من هذه الديباجة السهلة والوجه الأبيض الناعم.

وما رأيت كتاباً يدل على صاحبه، ويصوره كهذا الكتاب، ولو كان كل قارئ يعرف الدكتور بشر كما أعرفه، ويخالطه، لشهد لى بالصدق، ولشعر أن الكتاب لا ينقصه أن تنشر فيه لصاحبه صورة، أو ترجمة.

هذه الأناقة فى "الطبع"، هى أناقة الدكتور بشر فى الملبس والمطعم والمسكن فى غير تكلف يثقل أو شطط ينفر. وهذا "الذوق" فى محلى الكتاب وخط عنواناته، وفى فهرسه، كأنه عروس محتشمة تجهز بما يجملها يوم تمضى إلى وجهتها –

(١١٦) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٥ مارس سنة ١٩٤٢، (ص٢).

هو "ذوق" الدكتور بشر. وهذه الوجازة فى الأقاصيص التى اشتمل عليها الكتاب، والقصد فى العبارة بعض آيات الحكمة التى بنى عليها الدكتور بشر وصرفته عن تكلف ما لا غناء له ولا محصول وراءه، والدكتور بشر مفطور على الإيجاز، لا الاقتضاب، ففى حيث تكفى الإشارة لا يعدوها إلى الكلمة، وإذا أغنت الكلمة المفردة اجتزأ بها عن الجملة، وإذا وجبت الجملة اجتنب المط واللت والعجن، وهو هكذا أبداً - فى حياته، وفى كتابته. ومن هنا ما تراه فى أسلوبه من التدقيق والإحكام ومتانة البناء والاستغناء عن الحشو والزهد فى الاسهاب، كأنما يزن ألفاظه بميزان صيدلانى، أو يكتب بأسلوب طبيب يخط وصفة.

وللدكتور بشر أسلوبه الخاص الذى ينفرد به، ويتميز، وقد قلت فيه من قبل - يوم تناولت كتابه "مباحث عربية" إنه "أسلوب العالم الأديب، فكل كلمة فى موضعها وكل جملة تؤدى المراد بلا زيادة أو نقص، وعبارته مفصلة على قدود معانيه، تفصيلاً ليس أدق منه ولا أحكم مع الوضوح وإشراق الديباجة ولطف التخير وحسن التصرف، ومع اجتراء العالم الواثق على الاستحداث حين يقصر الموجود عن حاجة التعبير".

بهذا وصفت أسلوبه فى كتاب نهجه علمى، وإن كانت مباحثه أدبية، وما زال هذا وصفى لأسلوبه فى كتابه الجديد وإن كان مجموعة من الأقاصيص القصار، والأقصوصة - كالقصة - تحوج إلى رسم الشخصيات، بإيجاز أو إطناب، وإلى الحوار والوصف.

ولا معدى عن قدر من التفاوت بين الأسلوب فى القصة والأسلوب فى البحث، ولكن الدكتور بشر احتفظ بخصائص أسلوبه كلها، وأبرزت معالجته للقصة خصائص أخرى لم يكن إلى بروزها من سبيل وهو يتناول مسألة البحث.

ويمكننا أن نقول إن الأداء عربى مبين، ولكنه - على علو اللسان وقوة البيان - يؤثر المنهج الغربى فى تقطيع الكلام وتركه جملاً كل منها قائم بنفسه غير موصول بما يليه أو يسبقه إلا من حيث المعنى. وهو فى هذا يشبه إخواننا وزملاءنا أدباء العربية فى المهجر الأمريكى، ولكنه يمتاز بالصحة والسلامة والقوة والمتانة.

وكل أقاصيصه على نحو ما وصف فى المقدمة: "يجب أن تكون القصة برقًا لماحًا على سحب سود، والسحب السود هى الحياة الجياشة، ويجب أن تنطوى القصة على الشاعرية فى الأداء وفى التصوير خاصة، حتى تفلت من جفوة الواقع. وأما قوامها فرهافة فى تحسس القيم الإنسانية، بمعالجة كأنها هينة، مادتها حادث تفه، عبارة سانحة، شعور قد ومض، مع اجتناب التبيين المنطقى".

وأحسب أن هذا من أصدق ما يقال فى الأقصوصة، أما القصة الطويلة فلا غنى فيها ولا معدى عن مقدار من الإفاضة فى التبيين المنطقى، والتحليل المطرد، والغوص المتتابع.

ويقول أيضًا فى وصف القصة فيجيد: "فالقصة ليست للتسلية - عليها أن تثير القارئ وأن تشغل باله"، وهذا من أصدق ما يقال فى وظيفة الأدب على العموم.

وأشهد أن قد أثارتنى وشغلت بالى اثنتان من أقاصيص هذه المجموعة، على الخصوص،"طبق فول" و"مبروك". بارك الله فى أديبنا، وزاده من نعمة هذه القدرة التى لا يؤتاها إلا الأقلون.

أما موضوع الأقاصيص فمنتزع من صميم الحياة، وهى على قصرها، ترسم لك صورًا "مثيرة" يرفعها الكاتب قبل العيون، متلطفًا، مترفقًا، وأحيانًا ساخرًا متهكمًا، ولكنه فى الحالين عطوف مخلص وسخره مصدره للفن، وليس من غطرسة الزراية على الضعف، أو احتقاره، وأحسب أن روح العطف ستقوى فى قصصه على الأيام، وتزداد وضوحًا، والعطف من سعة الروح ومروءة القلب، وقصة "مبروك" تشهد وحدها وبمجردها للدكتور بشر، أنه رجل عطوف، وأنه خليق أن يخلو سخره من المرارة والنقمة، وهو خال ولله الحمد والمنة.

(٢) سعد زغلول فى أقضيته

كتاب نفيس لصديقنا الأستاذ عبده حسن الزيات المحامى، والناس يعرفون سعداً زعيماً وطنياً، ورجل سياسة وكفاح، ولكنهم قلما يذكرون أنه كان قاضياً وكان له فى القضاء شأن، وأثر عظيم، ولم يرد الأستاذ الزيات بكتابه أن يدل على هذا الأثر وإنما أراد، على ما استخلصنا من كتابه، أن يصور جانباً من شخصيته ونفسيته كما تبدو لمن يتدبر قضيته، والكاتب من عشاق هذه الشخصية، والمعجبين، بل المفتونين بها، وليس هذا مما يعيب الكتاب، بل مما يزينه ويزيد فى قيمته، ولأن الإعجاب أدعى إلى الإنصاف والمبالغة فى الإنصاف خير ألف مرة من المبالغة فى الغمط، والجماعة الإنسانية تكسب بإنصاف رجالها وزعمائها، حتى مع الغلو فى ذلك، ولا تخسر، ولكنها تخسر على التحقيق بغمط أقدار هؤلاء الرجال، وقد يكون من النقائض أن الرجل كلما علا شأنه وعظم قدره، وضخم أمره يكون أشد افتقاراً إلى الإنصاف من سواه لأن الشهرة تظلمه بما تبرز مما يخفى فى العادة، وتجسم كل ما له وفيه، ومن خير وشر، وقوة وضعف ومحاسن ومعايب، ويجعل لهذا كله أكثر من نسبته الصحيحة وقيمته الحقيقية، والإنسان من طين، والطين لا يخلو من ضعف، والضعف يجب اغتفاره للطين، فإنه هو الأصل العام وما صيغ أحد من سواه حتى يزدرى عنصره فى غيره، فالعدل يتطلب رد الميزان إلى الاعتدال، ورده يحتاج إلى جهد، ومن هنا يجيء ما نعده مبالغة فى الإنصاف، وما هى بمبالغة وإنما هى محاولة لرفع الظلم الذى تجره الشهرة.

ولا نحاول أن نصف الكتاب، فإن هذا عسير، ولكنا نقول، ونعتقد أننا لا نعدو الحق، إنه سفر نفيس، مكتوب بقلم رجل محقق، لا ينقصه الخيال، ولا تعوزه الذمة والأمانة، ولا يفتقر إلى قوة الأداء وحسن البيان، فإنه أديب، وما زلنا نعود، كلما ظمئنا، لننقع الغلة من كتابه "حكايات من الهند".

اعـــتـــذار

قصة نفسين

أعتذر إلى القراء من الكف عن نشر ما بقى من "قصة نفسين"، فقد بدا لى فيها رأى دعا إلى تغيير وتبديل، وحذف وإضافة، فصار ما بقى منها لا يطرد ولا يتسق مع ما سبق نشره، ولحقه التغيير أيضاً، وعسى أن يأذن الله بنشرها فى كتاب.

(المـازنى)

حديث الأحد: تحضير الأرواح[١١٧]

(حول كتاب للأستاذ أبو الخير)

لم أشتغل قط بما يسمى "تحضير الأرواح" وكل ما قرأته في موضوعه كان للتسلية لا للدرس، فقد خفت أن يغمرني منه بحر لجب، ولست من الجاحدين أو المنكرين، وإني لأوثر أن أؤمن - بإرادتي - حتى وإن كان عقلي لا يطمئن أحيانًا، أو يسكن، وفي الإيمان راحة، وإرضاء لشعور المرء بذاته، وتلطيف وتخفيف لما يثقل على النفس من فكرة الفناء والعدم، وإذ كان الأدب أداتي وشغلاني، فقد بدا لي أن الأوفق أن لا أعني نفسي بهذه الأمور والأشكال، وسيجيء نبأ ذلك كله بعد حين، حين ندرج في التراب، أو يصنع بنا الأحياء ما يبدو لهم أن يصنعوا، ففيم العجلة إذن؟ وإني لأعلم أنه لو فعل كل إنسان ما أنا فاعل، وآثر نفض اليد مما يجشمه العناء، وصد عن البحث طلبا للعافية أو الراحة، لوقفت معارف الإنسان عند حد لا تعدوها، ولكن لكل بحث وسائله وكل امرئ ميسر لما خلق له ولا وسيلة عندي أعالج بها هذا البحث ولا استعداد فيما أحس وأعلم من نفسي، لمعاناته، وأنا بعد قليل الصبر، سريع الملل.

ويخيل إليّ من جملة ما قرأت أن الذين عالجوا هذا الموضوع، لم يصلوا إلى شيء قاطع، ولا نكران أنهم يقولون إنهم استطاعوا أن يتصلوا بأرواح الموتى بوسائل شتى، وعلى صور مختلفة، بل سجلوا أصوات بعض الأرواح على أسطوانات، وقارنوها بما يذكرون من أصوات أصحابها في حياتهم فألفوها لا تختلف، وفعلوا غير ذلك،

---

(١١٧) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٢٢ مارس سنة ١٩٤٢ (ص٢).

ولكن هذا ليس سوى بداية لا يمكن الاكتفاء بها والوقوف عندها. فما نعرف مثلاً ماهية هذه الأرواح التى تنطلق وتتجرد بعد فراق الأبدان، ولا كيف أو أين تحيا بعد فراقها وعلى أية صورة من صور الحياة تكون فى ذلك العالم المحجوب، وهل تبقى لها علاقة بدنيانا الأرضية وأثر فيها، أو تنبت الصلات، وينعدم الأثر، وهل يظل "نوع" إحساسها بعالمنا الأرضى كما كان أو يختلف، وهل تأسى وتفرح لأحزاننا ومسراتنا، وتشاطرنا شعورنا على نحو ما كانت تفعل، ولم أجد فيما قرأت - على قلته باعترافى - جواب واحد من هذه الأسئلة، أو جوابًا يمكن أن يستريح إليه العقل المتشوف، وتقنع به النفس المتلهفة على المعرفة.

وأحسب أن هذا البحث الروحانى ينبغى أن يجرى على نسق علمى بحت، وإلا أفسده الانخداع، إذا لم يفسده الخداع المعتمد، ولكنى - وعذرى جهلى - لا أدرى لماذا يحتاج إلى الظلام أو الأضواء البرتقالية وغيرها، ولا يجرى فى وضح النهار، كما يجرى كل بحث علمى، ليست له علاقة بالضوء خاصة، ومن غير أن تكون هناك هذه الأجهزة والأدوات المريبة، وبدون ذلك الاستعداد الذى لا يخلو من تأثير فى الأعصاب؟ ولا أدرى كذلك لماذا لا تخاطبنا الأرواح بلغاتنا، حين يتيسر الاتصال بها، وتلجأ إلى معونة الأصوات والنقر والرموز وغير ذلك مما يصفه لنا بعض الذين يشتغلون بهذا الشأن؟ ولم أقرأ فيما روى لنا من أحاديث الأرواح ما يعد ذا قيمة، أو ما يعدو أن [يكون مما] يمكن أن يعزى إليهم، ولا يستغرب منهم. وقد يكون هذا هو الطبيعى، أعنى أن تتكلم الروح كما كان صاحبها يتكلم فى حياته، ولكن المرء لا يسعه مع ذلك إلا أن يتوقع من الروح، بعد التجرد عن المادة وخلع طينتها، والتحرر من قيودها أن تكون أرحب أفقًا، وأعمق غوصًا وأنفذ نظرًا.

أقرأ مثلاً ما قالته روح "أديسون" المخترع الأمريكى العظيم، عن فشله هو وماركونى فى اختراع جهاز للاتصال بعالم الروح:

"لعلكم تكونون قد سمعتم عن الجهود الكثيرة التى بذلتها فى هذه السبيل، ولعلكم تكونون قد سمعتم أيضًا عن جهود ماركونى، والفرق بين ما وفقتم إليه أنتم وبين ما كنا اعتزمنا إنفاذه، هو أنكم نجحتم فيما فشلنا فيه نحن".

ثم قالت: "وقد كان يكتب لنا النجاح لو أنه كانت لدينا محطة لتوليد القوة" - يريد وسأطة روحية راقية - وقالت: "سيروا إلى الأمام لقد أجريت هنا بنفسى عصر اليوم بعض التجارب، وإنى لأحس بأننا سنتمكن قريبًا من أن نقدم لكم ما يشد أزركم فى العمل وما يقضى على تلك الآراء المستقرة فى الأدمغة المتمادية فى عنادها. إنكم تعرفون ما قالوه عنى لما اخترعت الفونوغراف. ألم يقولوا إن صوته خارج من بطنى؟ وهذا هو ما يقولونه عنكم الآن".

وهذا كله كلام تافه، يستطيع كل إنسان سمع بأديسون واختراعاته وجهوده أن ينحله إياه، ويشبهه على الناس، وعليه طابع الدعاية، ولا حاجة بنا إلى عناء إحضار روحه لنسمعه منها.

ولست أحاول أن أثير الشك فى إخلاص المشتغلين بهذا الشأن، أو فيما يرون ويصفون، فإن بينهم نفرًا علماء مخلصين صادقى السرائر بلا نزاع، وكثيرًا ما تلقى الناس بالشك، بل بالرفض نتائج بحث تبين بعد زمن طويل أو قصير أنها صحيحة، وأن الناس كانوا مخطئين فى شكهم! متعجلين فى رفضهم، ولكن مئات من المخترعين والعلماء والباحثين ذهبوا إلى عالم الأرواح من زمان طويل، فإذا كان يتاح لهم أن يواصلوا بحثهم فى عالم الروح كما يتاح لأديسون - على ما عزى إلى روحه - فإنه يكون للمرء العذر إذا تعجب لدنيانا الفانية لماذا لم يتسن لها أن تنتفع بما اهتدت إليه الأرواح فى عالمهم من اختراعات وثمار بحث وثيقة الصلة بما تركوا على الأرض؟ أم ترى كان لابد أن يستحدث أهل الأرض جهازًا يصلهم بعالم الأرواح؟ وإذا كان عالم الروح يخترع ويستحدث، فلماذا لم يخترع هو هذا الجهاز اللازم لوصله بالأرض وأبنائها؟ وعالمه أصفى، ولعل وسائله أيسر وأقرب؟

خطر لى هذا وما يجرى مجراه وأنا أقرأ كتاب "ظواهر حجرة تحضير الأرواح" الذى نقله إلى العربية الأستاذ أحمد فهمى أبو الخير وهو من المتوفرين على هذا البحث، وقد خدمه بما ألف وترجم. وأنا كما أسلفت أؤمن بالروح. ولكن الإيمان بالروح شىء

والإيمان بإحضارها شيء آخر. وقد وقفت في كتابه الجديد على كثير مما كنت أجهل. ولكني لم أقترب به من الإيمان بصحة ما روى فيه من الاتصال فلا يزال شكّي باقيًا، وإن كنت لا أرفض شيئًا ولا أجزم بشيء. فإن شكوكًا كثيرة تساورني لها وجهها ولا سبيل مع ذلك إلى القطع برأى في أمرها. وغاية ما أستطيع أن أقوله في هذا الشأن إن ذهني خال؛ فلا أنا مقتنع ولا أنا رافض. فأنا أتلقى ما يوصف لي في هذا الكتاب وأمثاله وأتدبره بعقلي ولكني لا أتلقاه بروح المستعد سلفًا للاقتناع. على أن هذا لا يمنع أن يستفيد المرء متعًا من هذا البحث. ولا ينفي أن الاطلاع عليه يوسع الأفق ويحول دون قصر النظر إلى الحياة على جانب واحد.

"روزفلت" للأستاذ فؤاد صروف[118]

لِن يوتانج[119]، أديب صيني حديث أو هذا ما يؤثر أن يتسمى به فيما يكتبه باللغة الإنجليزية، فيه عمق وحكمة وفكاهة، وهو من مفاخر قومه في هذا العصر، ومن حق القراء عليّ أن أفرد له فصلاً أو بضعة فصول لأزيدهم تعريفًا به، ولكني اليوم أجتزئ بأن أقول إن أشهر كتبه، وخيرها أيضًا فيما أعلم، كتاب اسمه "أهمية الحياة" وقد نهج في أحد فصوله نهج الكيميائيين جادًا متفكهًا في آنٍ معًا، فزعم أنه كثيرًا ما تخطر له تراكيب يؤلفها ويصور بها التقدم الإنساني والتطور التاريخي، وقد اختار لهذا الغرض أربع نزعات هي: مواجهة الحقائق أو الواقعية، والأحلام والفكاهة والإحساس أو الشعور، وعنده مثلاً أن الواقعية بغير أحلام أو مني تعادل - ولا تعدو - الوجود الحيواني. وإنهما معًا يفضيان إلى وجع القلب أو "المثالية"، وأن الأحلام بغير فكاهة مؤداها "التعصب" وأن الواقعية إذا أضيفت إليها الفكاهة والأحلام، كانت هي الحكمة بعينها وهكذا إلى آخر ذلك، وقد أهمل المنطق في هذه التراكيب لأنه يرى أن أثره في الحياة لا يستحق الذكر ومن هذه العناصر الأربعة، ألف تراكيب تجمع في رأيه ما عرفه أو استخلصه من طبائع الأمم.

---

(118) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٢ (ص٤).

(119) لِن يوتانج Lin Yutang (١٨٩٥-١٩٧٦): أديب صيني دَرَسَ في هارفارد ولايبزج، ودرَّس الأدب الإنجليزي في جامعة بكين ما بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٦، ثم انتقل منذ عام ١٩٢٨ للعيش في الولايات المتحدة، وقد اشتهر عالميًا بكتابيه: "وطني وشعبي" My Country and My People (١٩٣٥)، ثم "أهمية الحياة" The Importance of Living (١٩٣٧)، وهو الكتاب الذي يهتم به المازني هنا. (المحرر).

فالشخصية الإنجليزية مثلاً تتألف عنده من ثلاث حبات من الواقعية، وحبتين من الأحلام، وحبتين من الفكاهة، وحبة واحدة من الإحساس.

والشخصية الألمانية قوامها في رأيه ثلاث حبات من الواقعية، وأربع من الأحلام، وواحدة فقط من الفكاهة، واثنتان من الإحساس.

أما الشخصية الأمريكية فالنسب فيها أكثر تقاربًا لأنها تتألف من ثلاث حبات من الواقعية، وثلاث من الأحلام، واثنتان من كل من الفكاهة والإحساس.

وأما الصين قومه فشخصيتهم مركبة من أربع حبات من الواقعية وحبة مفردة من الأحلام، وثلاث من الفكاهة، وثلاث من الإحساس.

ويقول عن الإنجليز إنه جعل لهم في تركيب مزاجهم حبة واحدة من الإحساس، والذنب في ذلك للإنجليز أنفسهم "إذ من أدراني أن الإنجليز يحسون شيئًا - سروراً أو سعادة أو غضبًا أو رضى - إذا كانوا يأبون إلا أن يصبوا وجوههم في قوالب لا يبدو عليها أثر لما يدور في نفوسهم؟".

ذكرت هذا الصيني الأديب الحكيم وتراكيبه العجيبة وأنا أقرأ كتاب "روزفلت" الذي أخرجه صديقي الأستاذ فؤاد صروف، وتولت نشره مكتبة المعارف. وقلت لنفسي إذا كان "روزفلت" يمثل الأمريكي الصميم، فإن لن - يونانج يكون قد صدق فيما ذهب إليه من تأليف الشخصية الأمريكية على نحو ما ألفها منه - ثلاث حبات من الواقعية، ومثلها من الأحلام، وحبتان من كل من الفكاهة والإحساس. فهذا هو روزفلت - كما يبدو لنا نحن الشرقيين - من خطبه وسيرته وعمله وما وقفنا عليه من وسائله وغاياته.

وأحسب أننا نحن المصريين أولى أمم الشرق الأوسط بأن نعنى بفهم أمريكا وإفهامها حقيقة مصر، فقد ظلمنا اثنان من رؤساء جمهوريتها العظيمة التي تنفر من الظلم، وتثور عليه، فأما الأول فالرئيس الأسبق تيودور روزفلت، وكان قد زار مصر في جملة ما زار، قبل الحرب العظمى الماضية وفي أخريات العقد الأول من هذا القرن العشرين

وكانت الحركة الوطنية قد عادت إلى الاضطرام بفضل الزعيم الشاب المرحوم مصطفى كامل، فما راعنا إلا أن وقف الرئيس الأمريكى يخطب ويقول للإنجليز "إما أن تحكموا وإلا فاخرجوا" فثارت يومئذ ثائرة الوطنية المصرية على هذا الغمط لحق مصر فى الحرية والاستقلال.

وأما الثانى فالرئيس ولسون صاحب المبادئ الأربعة عشر، ومن بينها مبدأ حق الأمم فى تقرير مصيرها، وكانت مبادئه هذه من أقوى ما حرك المصريين وشجعهم بزعامة سعد على المطالبة بحق بلادهم فى الاستقلال، ولكن رؤساء الوفود من الأمم المتحالفة المنتصرة ما كادوا يجتمعون فى فرساى ليضعوا قواعد الصلح حتى صدمنا الرئيس ولسون بالاعتراف بالحماية البريطانية على مصر، وكانت قد تمردت على هذه الحماية. وقد احتاج الوفد المصرى، بعد أن سافر إلى باريس، إلى إيفاد المغفور له محمد محمود باشا إلى واشنطن لإقناع أمريكا ببطلان الحماية فوفق فيما ذهب له، وأقرت لجنة الشؤون الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى وجهة النظر المصرية.

والآن صارت أمريكا ولا غنى بالدنيا عنها فى حرب أو سلم، وخرجت هى من عزلتها التى كانت قد ارتدت إليها بعد الحرب الماضية، وآلت أن تقضى على العدوان ودواعيه، وأن تجعل من الديمقراطية حارساً للسلام، وأن تقرر الحرية للصغار والكبار، فى الأمم على السواء، وقد محت الحرب ما كان بين الأمم من أبعاد، وقضت على إمكان العود إلى العزلة مرة أخرى، فصار من حق بلادنا ومستقبلها علينا أن نفهم أمريكا هذه أصح فهم ميسور، وأن نعرفها بنا أتم تعريف.

وعندى أن كتاب الأستاذ صروف عن روزفلت من أعون الوسائل على هذا الفهم الذى تدعو الحاجة إليه، وهو ليس ترجمة جافة وإنما هو درس لشخصية رجل عظيم وللمجتمع الأمريكى، والنظم الأمريكية، والسياسة الأمريكية، والمساعى والغايات التى يرمى إليها هذا العالم الجديد.

وقد لا يكون روزفلت مثالاً للأمريكى عامة وعسير أن يكون كذلك، فإن المتفوقين والعظماء لا يجيئون إلا شذوذاً عن القاعدة العامة، ولكنهم يجذبون شعوبهم،

ويفيضون عليها من روحهم، ويبثون فيها آمالهم فتأخذ عنهم، وتنهض آخر الأمر فتمضي وراءهم، إلى حيث وجهوها.

وسواء أكانت أم لم تكن بنا حاجة خاصة إلى فهم أمريكا، فإن درس سير العظماء لا يخلو من فائدة، فإن العظماء هم الذين جعلوا دنيانا كما هي، في كل باب.

ويحسن هنا أن أحذر القراء من أن يتوهموا أن كتاب "روزفلت" من كتب الدعاية، فليس كون روزفلت رئيس دولة محاربة بمستوجب أن يكون كل ما يكتب عنه من قبيل الدعاية، والواقع على كل حال أن كتاب الأستاذ صروف بحث مسهب على الطريقة العلمية التي ألفها القراء منه في "المقتطف"، وقد تحرى فيه الحقائق بدقة، والتزمها بأمانة وأحاط بموضوعه إحاطة تامة، وقد شرح المؤلف في خاتمة كتابه البواعث له على تأليفه، وهي ترجع إلى زمن بعيد، ومدارها على أن روزفلت كان وما زال رجل نضال وكفاح، وجلد عليهما، وقد اتسع ميدان نضاله حتى شمل العالم كله الآن.

لِن يوتانغ، الأديب الصيني[١٢٠]

وعدت القراء أن أعرفهم بالكاتب الصيني المبدع الذى يسمى نفسه "لِن يوتانج" وبكتابه "أهمية الحياة". وهو خير ما له فيما أعلم، وأشهر ما أخرج، فإن الطبعة التى أمامى هى الحادية عشرة، وقد ظهرت فى يوليه فى سنة ١٩٤١ والأرجح أن يكون قد أعيد طبعه بعد ذلك غير مرة.

وهو صينى صميم يصدق عليه ما قاله فى وصف قومه من أن مزاجهم القومى قوامه أربع حبات من الواقعية وحبة مفردة من الأحلام، وثلاث حبات من الفكاهة ومثلها من الإحساس. ويستفاد من هذا التركيب أن حظ الصينى من الإحساس جزيل، وهذا فى رأى يوتانج هو تعليل أن الصينى يحب الحياة حبًا جمًا وأن نظرته الفلسفية إلى الحياة هى نظرة الشاعر، والفلسفة فى الصين، على قوله، "زوجة الشعر" لا العلم، كما هى فى الغرب، ولكن حظ الصينى من "الواقعية" أجزل ومن أجل هذا يتقبل الحياة كما هى، ويرى أن عصفوراً واحداً فى اليد خير من عصفورين أو أكثر على الشجرة، فإذا قال الخيالى إن الحياة حلم، قال له الصينى "هذا صحيح، وعلينا إذن أن نحيا هذا الحلم على أجمل صورة ميسورة"، ولكنها واقعية الرجل الذى فتح عينيه واستيقظ، لا واقعية التاجر أو "رجل الأعمال". والصينى يحلم، ولكنه يعلم وهو يحلم أنه يحلم، ولا يخلط حلمه بالحقيقة، وإن كان يزيدها به جمالاً، ومن أجل هذا يحب السلم لأنه ما من أحد يقاتل بعنف من أجل ما يعلم أنه ليس سوى حلم.

---

(١٢٠) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢ مايو ١٩٤٣ (ص٤).

وخير ما تثمره هذه الواقعية أنها تنقى فلسفة الحياة وتصفيها، وتخليها من التوافه والحواشى وما ليس له قيمة جوهرية، وتجعل الغاية من الحياة أن تحيا.

والصينى يحيا حياة أقرب إلى الطبيعة وإلى الطفولة وهى حياة يقول يوتانج إنها تكسب الغرائز والعواطف حرية لا تباح لها فى الغرب؛ لأن الصينى يسىء الظن بالمنطق والعقل نفسه، ولا يحب أن يكد خاطره بلا موجب، ومن المأثور عن كنفشيوس أن رجلاً قال له إنه يفكر ثلاث مرات قبل أن يعمل فقال الحكيم الصينى: "التفكير مرتين كاف جداً". والحياة الصينية مزيج عجيب من الجسد والروح ومن عمق الحكمة وخفة المرح، ومن السفسطة وبراءة الطفولة وغرارتها. ويمكن أن يقال إن فلسفة الصين تتميز بالقدرة على النظرة إلى الحياة جملة فى الفن، وبالعود إلى البساطة فى الفلسفة وبحكمة العيش، ومن ثمار ذلك إكبار الشاعر والزارع والمتشرد.

ويقول لِن يوتانج إنه لا عميق ولا واسع الاطلاع، وإنه لم يقرأ كتب لوك، وهيوم، وبيركلى، ولم يدرس الفلسفة فى جامعة، وإنه لا يقرأ الفلسفة وإنما يقرأ الحياة، وإن المصادر التى استقى منها ما فى كتابه هى: السيدة هوانج، وهى المرأة فى بيته لا ينقصها من الآراء ما يجعل تربية المرأة فى الصين صالحة، وسائق سيارة فى شوارع شانجهاى، وشبل أسد فى حديقة الحيوان، وعصفور فى حديقة بنيويورك وكل كاتب لم يخنق إحساس القراء بالحياة إلخ..

وأحسب أن هذا القدر كاف للتعريف بلِن يوتانج.

ومن أمتع فصول الكتاب وأكشفها عن أسلوب يوتانج، فصل له عن "المعدة" يذهب فيه إلى أن الأذن والعين والأنف واللسان واليدين والرجلين إلخ – كل هذا له عمله ووظيفته، ولكن الفم والمعدة لم يكن لهما داع، وهما علة ما عاناه، ويعانيه البشر من المتاعب؛ لأنهما استدعيا السعى وراء الرزق فعقدا الحياة، وأوجدا المكر السيئ، والكذب، وقلة الذمة فاحتاج الأمر إلى القوانين للردع والزجر.

وقد اختصر كنفشيوس شهوات الإنسان، فحصرها فى اثنتين – الطعام والنسل، ويقول الكاتب إن كثيرين وسعهم أن يستغنوا عن المرأة، ولكنه لا من أحد، ولو كان نبياً،

وسعه لا يستغنى عن الطعام والشراب، والسؤال الأبدى الذى لا ينفك يدور فى نفوسنا كل بضع ساعات هو "متى آكل، أو ماذا آكل؟" وأعظم المؤتمرات الدولية تضطر إلى رفع جلساتها ليتسنى لأعضائها أن يغدوا، والبرلمانات تنظم جلساتها وفق مطالب المعدة، ولو طالت حفلة تتويج أكثر من خمس ساعات أو ست، وحالت دون تناول الجمهور غداءه لعدت إساءة عامة، وخير ما يكرم به بعضنا بعضًا أن يقيم مأدبة والذين يجتمعون حول مائدة يجتمعون فى سلام ووئام، ولو التقى صديقان حميمان على جوع، ولم يطفئا ما يلتهب فى جوفهما لانتهى بهما الأمر إلى الشجار، ومن الصعب أن تحمل على كتاب يطعمك صاحبه مرتين أو ثلاثًا فى الشهر. ولهذا يفض الصينيون ما بينهم من نزاع حول موائد الطعام لا فى المحاكم. والمآدب أهدى سبيل إلى النجاح فى السياسة. وقد خدمت "المكرونة" إيطاليا كما لم يستطع موسولينى أن يخدمها، بل إن الخير الذى أسدته المكرونة إلى إيطاليا، قد أفسد وضيعه موسولينى.

ويمزح الكاتب فيقول إن السبب فى أن علم الحيوان لم يتقدم فى الصين هو أن الطالب الصينى لا يستطيع أن يرى سمكة من غير أن يتصور طعمها على لسانه وأن يشتهى أن يأكلها. ويزعم الكاتب أنه يسىء الظن بالجراحين الصينيين؛ لأنه يخشى إذا شق أحدهم كليته عن "حصوة" أن ينسى الحصوة، وينزع الكلية فيضعها فى المقلاة!

ويحمد الكاتب ربه؛ لأن جوع المعدة لا يحاط بما يحاط به "الجوع الجنسى" من التستر والكتمان ! فلا حياء ولا خجل، ومن أجل ذلك كانت الجرائم الاجتماعية التى ترجع إلى الطعام أندر من الجرائم التى ترجع فى مرد أمرها إلى الشعور الجنسى، وليس فى قوانين العقوبات أحكام خاصة بالأكل غير المشروع أو غير الأدبى أو الذى ينطوى على خيانة أو غيرها مما يجرى مجراها، ولكنه ما من قانون عقوبات يخلو من فصل طويل أو فصول فى الزنا والطلاق، والأعمال الفاضحة... إلخ.

والجهل بمسائل الطعام نادر، وفى حكم المعدوم، ولكنه بمسائل الجنس، شائع، وموضوع الطعام يستمتع بشمس المعرفة، أما موضوع الجنس فمحوط بالخرافات والأساطير.

ويذهب الكاتب إلى أنه لو كان الإنسان نباتيًا لكان السلام فى العالم أبقى وأدوم؛ فإن من المشاهد أن الحيوان النباتى مسالم، أما الذى يأكل اللحم كالذئب والأسد والنمر والفهد فمحارب. وقد أثر عن بعض الشعوب القديمة أنها كانت من أكلة اللحوم البشرية، ولا يزال بعضنا يأكل لحم بعض - فرديًا واجتماعيًا ودوليًا - والفرق بيننا وبين المتوحشين من أجدادنا أننا نقتل أعداءنا ثم ندفنهم ونصلى على أرواحهم، أما أجدادنا فكانوا يأكلون ما يقتلون، وهذا معقول، وإلا فيم كان القتل.

ولا استقرار للسلام على الأرض ما بقى الإنسان يأكل اللحم، فالتطور السديد الذى يفضى إلى السلام فى العالم هو الذى يجعل النباتيين كثرة، وفصيلة أكلة اللحوم قلة. أما فى زماننا هذا فإن الدنيا تحكمها هذه الفصيلة ولا حيلة فى هذا فى رأى الكاتب ما دامت لنا هذه المعدة، وما دمنا نؤمن بالعضلات القوية.

لن يوتانغ وقوله فى الأحلام(١٢١)

يقول لِن يوتانج إن القرد أول حيوان عرف الاكتئاب والحزن، وإنه ما رأى وجه حيوان حزين إلا وجه الشمبانزى، وما أكثر ما توهمه فيلسوفًا، فإن الحزن والتفكر صنوان، والوجه الحزين يخيل إليك أن صاحبة يفكر. فالبقرة مثلاً لا يبدو عليها أنها تفكر، أو هى على الأقل لا تتفلسف، لأنها راضية. وقد ينطوى الفيل على غضب شديد، ولكن هزه أبدًا خرطومه، ينوب عنده على ما يظهر عن التفكير، ويعفيه من الضجر.

وعسى أن تكون الفلسفة وليدة الضجر، ومهما يكن من ذاك فإن من خصائص الإنسان أنه يتطلع إلى غير ما هو فيه، فيحيا فى عالم حقيقى ويحلم بعالم آخر. وقد يكون الفرق بين الإنسان والقرد أن القرد لا يعدو الضجر. أما الإنسان فيضجر ويتخيل. وقلما يرضى إنسان عن حاله، والدنيا تشبه مطعمًا يتوهم كل من فيه أن الطعام الذى على المائدة الأخرى أطيب وأشهى، ومن قول أحد الظرفاء الصينيين: "إن امرأة غيرك أجمل وأفتن، أما كتابتك أنت فخير ما جرى به قلم". ويقول يوتانج إن الأمر راجع إلى قدرتنا على التخيل والأحلام. وكلما كانت هذه القدرة أعظم كان المرء أكثر تذمرًا، ومن هنا كان الطفل المغرى بالتخيل أعسر من غيره، وأشبه بالقرد منه بالبقرة. ويرجح يوتانج أن يكون الطلاق أشيع بين من نسميهم الخياليين؛ لأن الضعيفى الخيال يكونون فى الأغلب أبلد إحساسًا وأخلق بأن يرضوا عما هم فيه. وقد تضل الإنسانية، كما ترتقى، بفضل القدرة على التخيل، ولكن الرقى بغير هذه الموهبة مستحيل.

---

(١٢١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٩ مايو ١٩٤٣ (ص٤).

ويشبه يوتانج التكوين الإنسانى بالجهاز الذى يتلقى موجات اللاسلكى ويقول إن التفاوت بين إنسان وإنسان، كالتفاوت بين جهاز وآخر، فهذا جهاز دقيق يلتقط الموجات القصيرة وهذا آخر تفوته، لأنه ليس معداً لتلقيها، وقد لا تكون الأصوات الآتية من مسافة بعيدة، ذات قيمة، ولا تكون مزيتها إلا أنها بعيدة وأصعب منالاً.

وليست أحلام طفولتنا أضغاثًا، فإنها تبقى معنا، على نحو ما، وقد كان توماس أديسون، وروبرت لويز سيتفنسون، وولتر سكوت، يحلمون وهم أحداث، ثم نسجوا من أحلامهم السحرية هذه بعض ما جمل الحياة وزادها طيبًا، على أنه ما من طفل إلا وهو يحن إلى شىء، فكأنه يحمل فى حجره، وينام به ويرجو أن يلفيه قد تحقق حين يستيقظ، وقلما يطلع أحداً على أحلامه أو يكاشف بها غيره ومن أجل هذا تظل جزءًا من أخفى خفايا نفسه النامية، وبعض هذه الأحلام الصبيانية أوضح من بعض، وألح على النفس، وقد ننسى بعضها مع ارتفاع السن، على أننا جميعًا نحاول طول حياتنا أن نعبر عن أحلام طفولتنا وقد يوافينا الأجل قبل أن نهتدى إلى اللغة التى تصلح للتعبير.

والأمم أيضًا تحلم، وتظل "ذكرى" أحلامها باقية على الأجيال والقرون، وبعض أحلامها جليل وبعضها شر، ومن هذه أحلام الفتح والسطوة والصولة، ولكن هناك أحلامًا هى خير من هذه وأفضل – بعالم أصلح، وبالسلام بين الناس، وبمحو القسوة والظلم والفقر والألم، ولا تزال أحلام السوء تحاول أن تخنق أحلام الخير فتتنازل الطائفتان وتحتربان. والإنسان يقاتل فى سبيل أحلامه كما يقاتل فى سبيل ما يملك، وهكذا تخرج الأحلام من عالم الرؤى وتدخل فى عالم الحقيقة، وتصبح قوة حقيقية فى حياتنا، فإن من دأب الأحلام ووكدها أنها مهما بلغ من غموضها لا تدع لنا راحة حتى نحاول ترجمتها إلى الحقائق، كالبذرة فى التربة لا تزال تحاول أن تبعث فى جوف الأرض ما يخرج ويتلقى ضوء الشمس.

ومن الأحلام ما هو مهرب، أى أن يحلم الإنسان ليهرب من العالم الذى هو فيه.

والإنسان ينزع إلى غير معهوده، فكل ما يخالف مألوفه يطيبه ويسبيه.

ويمزح يونانج - جاداً - فيقول إن الحرب تستهوى النفوس، لأن الرجل العادى تتاح له فرصة فيلبس بذلة عسكرية ويضع على كتفيه أو ذراعيه شارة، ويسافر إلى بلاد أخرى "بالمجان". وبعد ثلاثة أعوام في عيشة الخنادق وكربها يشتاق المرء إلى السلم لأن السلام يتيح له أن يعود إلى بيته، ويرتدى بذلة مدنية. فإذا أريد اتقاء الحرب فيحسن بالحكومات أن تجند الشبان بين سنى العشرين والخامسة والأربعين، وتبعث بهم فى رحلات إلى بلاد أخرى ليروا المعارض أو غيرها، كل عشر سنوات مرة!! ويقول إن الحكومة البريطانية تنفق خمسة بلايين من الجنيهات على التسلح، وهو مبلغ يكفى لإرسال كل إنجليزى فى رحلة إلى الريفيرا!! ويخالف الكاتب قول القائلين إن الحرب ضرورة، أما الأسفار والرحلات فترف، ويقول إن الأسفار ضرورة أما الحرب فهو الترف بعينه.

وهناك أحلام من ضرب آخر - بعالم فاضل، وبالخلود. والحلم بالخلود إنسانى محض، وكفى دليلاً أنه عام، وإن كان غامضًا كغيره، وقلَّ من يدرى ماذا عسى أن يصنع حين يصبح الأبد كله عمره، على أن الرغبة فى الخلود صنو الحالة النفسية التى تدفع إلى الانتحار. وإن كان هذا نقيض ذاك فإن الرغبة فى الخلود، مثل الرغبة فى الانتحار، مصدرها أننا لا نرى دنيانا الحاضرة جديرة بنا، فلماذا نراها كذلك؟ قد يكون السؤال أدعى إلى الدهشة من جوابه إذا خرجنا فى نزهة إلى الريف فى يوم من أيام الربيع.

ومثل هذا يقال عن أحلامنا بعالم فاضل، فإن المثالية ليست سوى حالة تحملنا على الإيمان بنظام عالمى آخر، فالمثالى من الأحرار هو الذى يعتقد أن بلده شر بلد، والمجتمع فيه أسوأ مجتمع، فهو هو ذلك الجالس فى مطعم وفى ظنه أن الطعام الذى على المائدة الأخرى أطيب وأشهى من الذى على مائدته.

وليس للإسراف والشطط من علاج سوى روح الفكاهة.

كتابان عن الصدِّيق

لهيكل باشا والأستاذ العقاد[١٢٢]

لما أخرج الدكتور هيكل باشا كتابه "الصديق أبو بكر"، وتلقيت منه نسخه "ممتازة" على ورق نفيس يعد في أيامنا هذه تحفة نادرة، دار في نفسي للصديق ما يشبه الحسد. فلو كنت حاسداً من الناس أحداً لحسدته يومئذ! وأعددت بعض المراجع، وعكفت على الكتاب حتى أتيت عليه في ليلة وبعض ليلة، وصح عزمي على أن أقول فيه كلمة أؤدى بها حق التاريخ وحق الصديق المتفضل، ولكنى أردت شيئًا وأراد الله غيره، فمضت الأيام، والعزم على حاله من الصحة، ولكن الكلمة لا تكتب حتى ذهبت الفرصة، وصار أن أكتب شيئًا، عملاً حريًا أن يعد غير لائق لأنه يجيء بعد أوانه بزمان طويل، فانصرفت آسفًا وفي مرجوى أن يمهد لي الصديق العذر ولا يحوجني إلى الاعتذار.

ثم أخرج الأستاذ العقاد كتابه الجديد في "عبقرية الصديق"، وتفضل عليّ بنسخة منه فأقبلت عليه، كما أقبلت على ذاك، مغتبطًا متلهفًا ونويت بإذن الله إذا أصبحت أن أكتب عنه، ولكن وعكًا هينًا حال دون ذلك أسبوعًا كاملاً، فخطر لي أن لعل هذه فرصة تغتنم لاستدراك ما فات. وماذا يمنع أن أتناول الكتابين في كلمة واحدة ما دام أن كليهما يدور على أبي بكر الصديق، وصحيح أن النهجين مختلفان جداً، وأن الطريقين شتى، ولكن هذا أحرى أن يفيد القارئ متعة عقلية يعز نظيرها.

---

(١٢٢) نشرت في جريدة "البلاغ" في ٢٣ مايو ١٩٤٣ (ص٤).

والواقع أن الكاتبين مختلفان أشد الاختلاف - في الموضوع وفي أسلوب التناول - وإن اتفقا في بعض العنوان، ولقد خطر لي بعد أن فرغت من "عبقرية الصديق" أنه يخيل إليّ أن صديقي الأستاذ العقاد قد تعمد أن يجتنب ويتحامى ما خاض فيه الدكتور هيكل باشا أو استشهد به أو نقله من الأخبار والأقوال المأثورة، وكأني به قد قال لنفسه إن الحلبة فسيحة والمادة غزيرة؛ ففي الوسع بلا كلفة أو مشقة أن أصول وأجول حيث شئت من رقعتها العظيمة من غير أن أحتاج إلى الركض في حيث اختار هيكل باشا أن يركض. وقد وسعه أن يجتنب هذا التلاقي، فلست تجد في كتاب العقاد كلمة أو خبراً مما في كتاب هيكل.

وأرى أنه يحسن أن أنبه هنا - إنصافًا للصديقين - أن تأليفهما في موضوع واحد، مصادفة محض، فالعقاد لم يكتب "عبقرية محمد"؛ لأن هيكل كتب "حياة محمد"، بل لأن هذا الموضوع كان يدور في نفسه من ثلاثين سنة، كما روى في مقدمته، وأنا من الشاهدين، وقد أخرج "عبقرية عمر" وما يعرف أحد هل ينوي هيكل أن يؤرخ لعهد عمر أو لا يؤرخ، وفي نية العقاد أن يخرج حلقات أخرى من سلسلة هذه "العبقريات" الجليلة.

والنهجان، بعد، كما أسلفت، مختلفان. فهيكل معنى بالحوادث، والعقاد معنى بالرجل، وتقرأ كتاب هيكل في أبي بكر فإذا هو تاريخ لعصره، وللإسلام في عهده، وليس بترجمة لأبي بكر على وجه الخصوص، بل ليس حظ أبي بكر في كتابه بأجزل من حظ عمر، أو خالد بن الوليد، أو غيرهم من أبطال الإسلام الذين كان لهم شأن في هذه الفترة القصيرة الحافلة من عهد أبي بكر في الخلافة، بل إنك لتقرأ الكتاب كله، وموضوعه "الصديق أبو بكر" فلا تعثر على اسم أبيه ولا يأتي له ذكر إلا في آخر الكتاب. وأقول الحق إن كتاب هيكل باشا لا يزيد قارئ التاريخ الإسلامي تعريفًا بأبي بكر الرجل، وأحسب أني لا أحتاج أن أقول إن هذا لا ينبغي أن يغض من فضل هيكل باشا، فكل ما أعنيه أن الكتاب تاريخ لما وقع في عهد أبي بكر، وليس بترجمة لأبي بكر على الخصوص، وأن المؤلف مشغول بالحوادث عن العناية بأمر الرجال إلا بمقدار اتصالهم بهذه الحوادث يستوي في هذا أبو بكر وغيره.

وقد يؤخذ عليه أنه أسهب فى وصف لا يكاد يصف شيئًا، وأنه أبى أن يقطع برأى فى بعض المسائل على خلاف ما كان ينتظر أو ينبغى، مثال ذلك وصفه لخطط خالد فى بعض معاركه، فما عدا أن نقل لنا، بأسلوبه هو، ما قاله المؤرخون القدماء فى وصف هذه المعارك، وليست لهذا فائدة تذكر، ولو كان استعان ببعض من درس هذه المعارك دراسة عسكرية فنية - مثل الفريق طه الهاشمى (العراقى) أو لو كان رجع إلى ما كتبه هذا الرجل الفاضل، لجاء بما هو أنفع، وأوضح.

ومن أمثلة ما اجتنب فيه البت برأى، موقف علىّ من بيعة أبى بكر، وإنى لأعلم أن هذا لا يخلو من عسر، بل من اعتساف، ولكنه كان يستطيع على الأقل أن ينفى بغير تردد أن عليًا حمل فاطمة على دابة وخرج بها يطوف على الناس - هو مكتف بجر الدابة، وهى تناشد الرجال وتتوسل إليهم أن ينصفوا بعلها، وهم يعتذرون آسفين، فإن المرء لا يحتاج إلى ذكاء أو علم ليدرك أنها مختلقة من أولها إلى آخرها.

على أن هذه وأمثالها ليست سوى هنات يسيرة يسهل التجاوز عنها؛ لأنها لا تغض من قيمة الكتاب، وسيذكر هيكل باشا بأنه الرجل الذى يسر التاريخ الإسلامى على طلابه وقرب منهم مناله وأعفاهم من مشقة الرجوع إلى الكتب القديمة.

أما الأستاذ العقاد فسبيله غير هذه. ليس قصده إلى الحوادث، بل إلى الرجل ظاهره وباطنه، وهو يصوره لك كما ارتسمت شخصيته فى ذهنه من مطالعاته الطويلة فى التاريخ الإسلامى والأدب العربى، ولا غنى عن الإشارة إلى الحوادث، ولكن العقاد يعنى من الحادثة بدلالتها، وبأثر الرجل فيها، أو تأثره بها، وببواعثه على موقفه منها، وقد نص على هذا فى المقدمة ونبه إليه فقال:

"إننى لا أكتب ترجمة للصديق رضى الله عنه، ولا أكتب تاريخًا لخلافته وحوادث عصره، ولا أعنى بالوقائع من حيث هى وقائع، ولا بالأخبار من حيث هى أخبار، فهذه موضوعات أقصدها،.. ولكنى قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين. فلا تعنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدى أداءها فى هذا المقصد الذى لا مقصد لنا غيره،

وهى قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبر أو الصغر إلا بذلك المقدار، ولعل حادثًا صغيرًا يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته، ولمحة مصورة أظهر من لمحته. بل لعله كلمة من الكلمات الموجزة التى تجىء عرضًا فى بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها فى مقياس التاريخ".

وصحيح أنه لم يقصد أن يكتب ترجمة بالمعنى المألوف للصديق، أو تاريخا لخلافته، ولكن القارئ يخرج بترجمة وافية لأبى بكر، وبتاريخ لا ينقصه التفصيل لخلافته، وما كان فيها، بل يخرج بخير من ذلك – بفهم أصح وأقوم لهذا التاريخ فإن الوقائع موجودة فى بطون الكتب ولن يخلقها أحد أو يزيد عليها، وفى وسع من شاء أن يتخلى لذلك أن يجمعها ويرتبها ويسردها، ولكن فهمها على الوجه الصحيح، لا يتأتى إلا بدرس النفوس التى كان لها فيها عمل، وهذه هى الزيادة التى يستطيع أن يضيفها رجل حديث إلى تاريخ قديم إذا أوتى القدرة على ذلك، كما أوتيها الأستاذ العقاد، ورزق الملكة المؤاتية.

وهذه مزية العقاد، لا يكتب تاريخًا أو ترجمة، وإنما يرسم صورة، أو يحلل لك العناصر التى تتألف منها شخصية خاصة فإذا التاريخ مكتوب من تلقاء نفسه، وإذا الترجمة مسرودة بغير تكلف لها، وإذا الوقائع قد صارت أوضح وأبين؛ لأنه فتح لك الكوة التى ينبغى أن تنظر منها أو دفع إليك مفتاح الشخصية التى يتناولها، فإذا استوقفتك حادثة فليس عليك إلا أن تتناول المفتاح وتديره فإذا الغامض مجلو.

ولعبقريات العقاد مزية أخرى، هى أنها تعلم القارئ كيف يدرس التاريخ فهى نماذج يقاس عليها، فإذا وسع القارئ أن يدرس كما درس الأستاذ العقاد، وأن يفكر، وينعم النظر، فإنه خليق أن يستطيع السير على الدرب، وما وهب كل امرئ ما وهب الأستاذ العقاد، ولكن نهجه هو النهج. وإذا كان غيره لا يطمع أن يبلغ مبلغه، فإنه يستطيع أن يكون على ثقة أنه على الأقل ينهج الطريق الأقوم، وعلى الله التوفيق.

وأحسب أن القارئ قد استخلص أنى أوثر كتاب العقاد على كتاب هيكل وهذا صحيح، وليس يضير هيكل باشا قولى هذا وأرجو أن لا يظن أحد أنى أحاول الغض منه، فما يعد الإخلاص فى إبداء الرأى طعنًا أو تجريحًا إلا بين قوم منافقين على أن

إيثارى لكتاب العقاد يرجع أيضًا إلى إيثارى لنهجه، وهو نهج يتيح لمواهب الكاتب أن تتبدى، فيمتع القارئ بما لا مطمع فيه من نهج التاريخ العادى، ويوسع، آفاق النفوس ويمد النظر، ويعمقه أيضًا، ويجعل المرء أقدر على فهم الحياة وأصح إدراكًا لما يقع فيها، وأولى من أجل ذلك أن يكون أنفذ بصيرة وأهدى سبيلاً، وما خير التاريخ إذا لم يكن هذا ما يستفاد منه؟ أكل خيره ومزيته أن تعلم أن كذا وكذا كان فى سالف العصر والأوان؟ والإنسان أين مكانه من هذه الوقائع وأثره فيها؟ وأنى لك أن تعرف هذا إذا لم تعرف الإنسان نفسه، ولماذا كان منه هذا، ولم يكن ذاك؟

لهذا قلت إنى أوثر نهج العقاد وسبيله. وسبب آخر هو أن كتبه تظل بفضل هذا النهج فى صميم الأدب، ولك أن تقول غير متحرج أو متردد فى الذروة العليا منه، وما هو الأدب إذا لم يكن ترجمة عن النفس؟ وإن العقاد ليتناول عباقرة العرب فيرسم لك صورهم ويجلو لعينيك ظاهرها وباطنها جميعًا، ولكنه وهو يفعل ذلك يرسم لك أيضًا صورة لنفسه هو، ويجلو لك عبقريته هو فى أروع مجلى. أترى سيقول قوم أنى مفتون أو أنى أصانع العقاد؟ أى والله قالها بعضهم وقد عرف رأيى، ومن نعم الله على المازنى أنه يستطيع أن لا يبالى الناس، خيارهم وشرارهم، فما يعبد إلا الله، ولا يرجو أو يخاف سواه، وأنه لأعرف بالناس وأخبر بهم من أن يحفلهم أو يعبأ بهم شيئًا، أو يجعل أحدًا منهم مناط أمل، أو موضع خشية، وإنى لأكره لنفسى أن أكون لئيمًا فأكتم أنه يفتننى ما يفتن الرجل المحس المدرك ولا أزيد، وإذا كان مصانعة أن أشهد بالحق فأنا راض ومغتبط، وهل كون العقاد صديقى يوجب أن أغمطه لئلا يقال مصانع؟ إذن خير من ذلك عداوة لا تخشى "عار" الإنصاف. وعلى أن من العبث وقلة العقل أن تحاول غمط رجل يأخذ حقه بفضله كرهت أم رضيت! وإن أحدنا ليرى المنظر أبدعته الطبيعة فيسحره جماله أو يروعه جلاله ولا يكتم ما يقع فى نفسه منه فلماذا يكتم كلمة الحق فيما أبدع إنسان. أيصده ويغريه بالكفران أن الإنسان يحس ويدرك ويعى كما لا تحس أو تدرك أو تعى الطبيعة التى لا فضل لها فيما بدا منها؟ إن هذا ليكون ألأم اللؤم وأخس الخسة وإنى لشاكر لربى أن أخرجنى "بالمصانعة" من زمرة اللئام.

المرأة وفتنتها فى نظر لن يوتانغ[١٢٣]

كان العزم أن أكتب غير هذا الفصل، ولكن المرء يدبر، والله يقدر، ولا أرى لى حيلة فيما يعرض فيغير النية، ويصرف عما كان القلم يوشك أن يجرى به بعد أن تهيأت النفس له.

وقد رأيت أن أعود إلى "لِن يوتانج" لأن آراءه الصينية "صحية" وهو يرسل نفسه على سجيتها. ويقول ما يقول غير متكلف، أو مجامل للغربيين الذين يكتب بلغة بعضهم - الإنجليزية - ولا يخجله أن ينظر إلى الحياة نظرة "صينية" لم يؤثر فيها طول مقامه فى الغرب.

وفى كتابه "أهمية الحياة" الذى لخصت منه ما لخصت، فصل عن "فتنة المرأة" يقول فيه: إنها أحلى وأرشق، فى شف من الحرير منها فى سترة مما يلبس الرجال، وإن المرأة فى بيتها تكون كالسمكة فى الماء، فالبيت هو مملكتها، فإذا كسوت المرأة ما يكتسى الرجل، كان الرجل خليقًا أن ينظر إليها نظره إلى زميل له عامل مثله، منافس له فينقدها ويزاحمها ولكنها حين تنساب فى سكب، لا يسع الرجل إلا أن ينسى هذه المزاحمة ويذهل عنها، وإلا أن يحدق معجبًا.

وعنده أن ظهور المرأة فى الحياة قد جعلها [أظرف]، وأن ذلك كان لخير الرجل فصارت الأصوات أخفت، والألوان أزهى، والمكاتب أنظف، ولم يتغير شىء من فتنة الجنس، ولا فترت الرغبة فى هذه الفتنة، ولكنه يلاحظ أن المرأة فى أمريكا أشد عناية

---

(١٢٣) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٦ يونيه سنة ١٩٤٣ (ص٤).

بإرضاء الرجل من المرأة الصينية إذا اعتبرنا الالتفات إلى الجاذبية الجنسية، ومن رأيه أن تفكير الرجل فى الغرب فى هذه الجاذبية أكثر مما ينبغى وأن تفكيره فى المرأة أقل مما ينبغى.

وتستنفذ المرأة الغربية فى العناية بشعرها من الوقت مثل ما "كانت" المرأة الصينية تستنفذه. وهى - أى الغربية - تعنى بزينتها صراحة وعلانية وباستمرار وتؤثر الطعام الذى يعتدل به القوام، وتزاول الرياضة، ولا تهمل الدلك وتقبل على الإعلانات التى تصف ما يكفل الهيف والمرونة، وتراها تصبغ شعرها فى سن لا يخطر للصينية أن تفعل مثل ذلك فيها، وتسرف فيما تنفقه على المساحيق والأصباغ والزيوت والعطور، وعسى أن يكون ذلك لأن وقتها أفسح ومالها أوفر، وفراغها أكثر، ولعلها تكتسى لتسر الرجل، وتتجرد لتسر نفسها، أو لعل الأمر على العكس، أو لعل المرأة الصينية لا يتوفر عندها ما يتوفر للأمريكية من وسائل التجميل، فإن المرء لا يسعه إلا أن يتردد ويحجم عن الجزم فى أمر مرجعه إلى رغبة المرأة، فى اجتذاب الرجل إليها.

وقد ظلت المرأة الصينية إلى ما قبل نصف قرن تحاول أن تسر الرجل بصب قدمها فى قالب، وهى الآن تتخذ الأحذية العالية الكعوب، وسيجىء وقت تقلد فيه أختها الأمريكية فى غير ذلك.

والواقع على كل حال أن المرأة الأمريكية فى الوقت الحاضر، شديدة العناية بإرضاء الرجل، وبجاذبية جسمها، وهى تتخذ من الثياب ما يدل على أنها أصح فهمًا لهذه الجاذبية وإدراكًا لمقتضياتها، ومن أجل ذلك صارت أقوم قدًا وأجمل ثيابًا بفضل هذا الجهد اليومى للاحتفاظ برشاقة القوام، ولكن لهذا تأثيره فى الأعصاب لا محالة.

وينبه الكاتب إلى أنه حين يذكر فتنة الجنس أو جاذبيته، يعنى بذلك شيئًا آخر غير فتنة الأمومة أو فتنة المرأة على العموم، ويقول إن هذا الطور من المدنية الحديثة قد طبع الحب والزواج بطابعه.

ومن المظاهر التى تلفت النظر هذا الاستغلال التجارى لجسم المرأة فى الإعلان من فرعها إلى قدمها، بل إلى أظافرها، ولا مثيل لهذا فى زمن سابق، ويقول يوتانج إن من الصعب على الرجل الشرقى أن يوفق بين هذا الاستغلال التجارى لجسم المرأة وبين احترامها، ولما كان الرجل هو صاحب السلطان فى الجماعة الإنسانية الحاضرة فإن المرأة هى التى تتعرى أو تكاد للأغراض التجارية، أما الرجل فيحتفظ بملابسه إذا استثنينا بعض البهلوانات. ولو صارت المرأة صاحبة السلطان لكان من المحقق أن نرى الرجل نصف عار على حين تبقى على المرأة ثيابها.

وقد كان من جراء ذلك أن المرأة نزلت على هذا الحكم، فهى تجيع نفسها وتتحمل متاعب التدليك والرياضة وغير ذلك لتجعل الدنيا أجمل فى نظر الرجل.

ويذهب يوتانج إلى أن هذا الإلحاح على الرجل والمرأة بفكرة الجنس يفسد الرأى الصحيح فى طبيعة المرأة ولا يخلو من أثر فى الحب والزواج غير صالح. لأن المرأة تصبح أداة متعة، وينسى كلاهما أنها ينبغى أن تكون زوجة وأمًا، وأنها لا تبلغ غاية الاكتمال إلا حين تصبح أمًا، والمرأة التى تؤثر أن تستغنى عن الأمومة، تفقد قيمتها وحقيقتها وتصبح ملهاة. وعند يوتانج، أن الزوجة بغير ولد لا تعدو أن تكون خليلة، وأن الخليلة مع الولد زوجة ولو لم يكن هناك عقد، ومن دواعى الأسف أن الكثيرات فى زماننا يأبين الحمل، ضنًا بقوامهن أن يفسد.

والحب له قيمته فى جعل الحياة أسعد وأرغد ولكن الإسراف فى استثارة الشهوة ضار بالمرأة نفسها، ومتلف لأعصاب المرأة والرجل جميعًا، ثم إنه ينطوى على مجافاة للإنصاف، لأنه يغالى بقيمة الشباب والجمال. وماذا يكون حظ المرأة التى تجاوز الشباب وتشيب؟ إن من الظلم – ومن الشطط فيه – تكليفها المحافظة على ما لا بقاء له، والشاعر الصينى يقول: إنك لا تستطيع أن تربط الشمس بخيط وتعوقها عن السير.

ثم إن هذا التكليف غير طبيعى، وسخيف، فوق أنه ظالم، لأن المخلوق يهرم ويخلى مكانه لمن هو أصغر منه وأصبى، ولأن للمرأة مزية غير مزية الخليلة.

وقد صارت المرأة المثالية عبارة عن شابة جميلة القد رشيقة الحركة تحسن التقبيل والرقص. وعندى أن المرأة أجمل ما تكون حين تنحنى على المهد، وأنها أجل ما تكون حين ترفع طفلها إلى ثديها، أو تأخذ بيده وهو يمشى، وأسعد ما تكون حين ترقد وتدنى رضيعها من صدرها.

قصة الأدب فى العالم[١٢٤]

(للأستاذين أحمد أمين بك وزكى نجيب محمود)

الأستاذ أحمد أمين بك، رجل موفق، في نفسه، وفي عمله، وفي طموحه، وفي إرادة الخير. حصّل كل ما يحصل من علوم الدين واللغة، ولو شاء أن يبقى في القضاء لبلغ فيه أعلى مراتبه، بعلمه وفضله وأخلاقه، ولكنه آثر الأدب، وكان من توفيق الله له أن أدرك أن صاحب الأدب لا يستغنى عن لغة أجنبية فى هذا الزمان، فعكف على الإنجليزية يدرسها حتى تمكن من ناصيتها، وأعانه على ذلك جلد عجيب لا يؤتاه إلا الأقلون، وأحسب أن فترة التحصيل التى قضاها فى الأزهر، وفي مدرسة القضاء الشرعى، أكسبته هذه المزية أو قوتها وما أظن إلا أنه استفاد من تولى القضاء مزية الاتزان والهدوء وسعة الصدر والأناة ودقة الوزن والحكم واجتناب التحيز. وقد برز فى الجامعة كما برز فيما تولاه قبل ذلك.

وهو من القليلين الذين تبدو إرادة الخير فيما يتطلع إليه، وينشد. وإرادة الخير هذه هى التى أغرته بالسعى لنقل طائفة من عيون الأدب الغربى إلى اللغة العربية، وكل ترجمتها إلى من اختارهم لهذه، وإلى لجنة التأليف والترجمة والنشر إخراج ما نقلوا، وهذه اللجنة إحدى حسناته أو توفيقاته.

وتتجلى إرادة الخير أيضًا فى هذا العمل الجليل الذى اضطلع به وأنجز جانبًا قيمًا منه، وأعنى به "قصة الأدب فى العالم" انظر إلى قوله فى المقدمة:

---

(١٢٤) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٧ يونيه سنة ١٩٤٣ (ص٤).

"أملت ألا تقع نهضتنا الحديثة فى الخطأ الذى وقعت فيه نهضتنا القديمة، وتمنيت أن تنقل إلينا الآداب الأخرى كاملة، فيكون لنا كتاب بل كتب فى الأدب اليونانى، ومثلها فى الأدب الرومانى ومثلها فى الأدب الهندى، وكتاب فى الأدب الإنجليزى الحديث، ومثله فى الأدب الفرنسى، ومثله فى الألمانى، ويقوم بوضع كل كتاب المتخصصون فى موضوعه وأشرف على هذا العمل وأوجه إليه، ولكنى رأيت هذا العمل مع كماله وقيمته يتطلب السنين الطوال، والمجهود المحفوف بالعقبات والصعاب - ومع هذا فقد لا يكون هذا العمل أوجب شىء الآن، ولابد أن يبدأ بألف باء قبل قراءة الجمل، ورأيت أن ربما كان من الخير أن نبدأ بعرض الآداب المشهورة عرضًا قريبًا، حتى إذا استساغه القراء وتفتحت نفوسهم لمادة أوسع وغذاء أوفى، كان ذلك الخطوة الثانية بعد الخطوة الأولى وقام بها من يأتى بعدنا، ويكون أوسع فى الأدب والعلم حظًا منا - سنة التطور الطبيعى".

ولا يخالجنى شك فى أن القارئ يوافقنى على أن هذا الكلام عالم مخلص، وتفكير رجل طموح يصدر عن إرادة صريحة للخير، وما كان ليبعد المرمى هذا الإبعاد لولا ما يعهده فى نفسه من الجلد النادر والثقة الوافية بالمقدرة على الاضطلاع بهذا العبء الثقيل.

وتصور ضخامة هذا الأمل!! رجل يريد أن يعبئ جيشًا من خيرة المترجمين لنقل آداب الأمم الأخرى، أو صفوتها لتغذية الأدب العربى بها ليهتدى ويستقيم على الطريق الأرشد ويتقى [العِشوة] القديمة[١٢٥].

ولو كان صاحب هذا الأمل يكتفى بالتمنى لما كان هناك ما يستحق الذكر، ولكنه يقيس قوته إلى ما يقتضيه هذا العمل، ويزن الجهد المطلوب، ويقيس الزمن اللازم، فلا يروعه الأمر، بل يشرع فى الإنجاز، ويبدأ بألف باء كما يقول، ويخرج الجزء الأول من هذا الكتاب القيم، بمعاونة الأستاذ زكى نجيب محمود.

---

(١٢٥) العِشوة أو العَشوة ركوب الأمر على غير بيان (المحرر).

وقد نبه الأستاذ أحمد أمين إلى أنه عرض فصولاً من هذا الجزء على المتخصصين في موضوعاتها فعرض فصل الأدب العبرى على الدكتور فؤاد حسنين، والأستاذ عطية الإبراشى، وعرض فصل الأدب اليونانى على الدكتور محمد مندور "فأفادنا فيه فوائد كثيرة، ولم يوافقنا على وجهة نظرنا فى فصل التاريخ فكتبه من جديد كما نشر فى هذا الكتاب، وعرضنا فصل "دانتى" على الدكتور حسن عثمان، وعرضنا الأدب الفارسى القديم على الدكتور عبد الوهاب عزام فزاد فيه وكتب فصل الأدب الفارسى فى العصور الوسطى".

وهذا التنبيه مصدر للأمانة العلمية التى توخاها الأستاذ أحمد أمين.

وفى هذا الجزء يتناول الأستاذ وزميله قصة الكتابة، ونشأة الأدب، والأدب المصرى القديم والأدب الصينى والأدب الهندى، والفارسى القديم، والعبرى، واليونانى والرومانى، والأدب الإنجليزى فى العصور الوسطى، والفرنسى والأسبانى والألمانى والإيطالى، والأدب العربى فى الجاهلية إلى آخر العصر العباسى، والأدب الفارسى الإسلامى فى العصور الوسطى.

وقد قرأت الكتاب بعناية، وأقول غير محاب إنه كتاب نفيس لازم، وسيجد فيه الذين لم يتيسر لهم الاطلاع على آداب الأمم الأخرى مادة نافعة، وقد استطاع الأستاذان أن يكتباه بأسلوب مشوق غير مضجر، يثير الرغبة فى التوسع فى الاطلاع على هذه الآداب.

ولى عليه ملاحظات لا تبلغ مبلغ المؤاخذات لأنها أشبه بالاقتراحات التى ترمى إلى الاستيفاء والإشباع، ولست أرى أن أجملها فى هذا المقال مخافة أن تحمل على غير محملها، أو يساء تأويلها. ومن أجل هذا أوثر أن أفرد لها فصلاً أرجو أن تكون له فائدة حين يُعاد طبع هذا الكتاب النفيس.

قصة الأدب فى العالم[١٢٦]

(للأستاذين أحمد أمين بك وزكى نجيب محمود)

لا أدرى هل ينوى المؤلفان الفاضلان أو لا ينويان أن يذيلا كتابهما بفهرس للمراجع، حين يخرجان الجزء الثالث منه، ولكن الذى أدريه أن هذا لازم، لتتم به الفائدة، على أني أقترح عليهما أن يضعا فهرساً آخر بأسماء الكتب التى يشيران بقراءتها على من يريد التوسع، ونبذة وجيزة عن كل كتاب.

وقد توسعا فى الكلام على الآداب التى تناولاها فيما عدا الأدبين الصينى والمصرى فإنى أرى ما كتباه فيهما لا غناء له، ولا يجوز الاكتفاء به، ولم يكن بالعسير أن يوفيا هذين البحثين حقهما.

وسأبدأ بالأدب الصينى فأقول إنهما اقتصرا على "كونفوشيوس"، ولا شك أنه أشهر الصينيين وأذيعهم ذكراً، ولكنه وحده لا يمثل روح الصين، والمؤلفان الفاضلان يعترفان بأن الأدب الصينى القديم "بلغ من التنوع والجودة حداً بعيداً حتى لا يكاد يضيف إليه أدبهم الحديث شيئًا جديداً". ولست أوافقهم على هذا الحكم على الأدب الصينى الحديث، فإنه هو الذى عرفنا بالصين القديمة وكشف للعالم عن روحها، ولكن هذا مبحث آخر فلنقصر، ولنعد إلى موضوع الكتاب.

وعندى أن من تمام التعريف بالأدب الصينى القديم - بل من تمام التعريف بكونفوشيوس نفسه أن يذكر "تاوس" فإنه صاحب فلسفة سلبية تقابل فلسفة "كونفوشيوس"،

---

(١٢٦) نشرت فى "البلاغ" فى ٤ يوليه سنة ١٩٤٣ (ص٤).

وقد نعدها عقيمة لأنها فرار من الجماعة الإنسانية وهرب من معاناة الحياة والاضطلاع بتكاليفها وفرائضها. وأحسب أن المثل الأعلى للفكر الصينى ليس بالراهب الذى يفر من الجماعة الإنسانية بل الراهب "فى المدينة" أى الذى يخوض الحياة غير متهيب أو مشفق من الفتنة والغواية.

وبين هذين النقيضين يجىء تسيس "Tsesse" مؤلف كتاب "The Golden Mear" وهو حفيد كونفوشيوس، وفلسفته هى فلسفة القصد والاعتدال، أو التوسط فى الأمور، أو التوازن، وعنده أن المرء ينبغى أن لا يسرف على نفسه فى كل عمل، ولا أن يخلد إلى الكسل والدعة، فيعمل ولكن بكسل، ويكسل ولكن مع قليل من النشاط، ولا يبلغ من فقره أن يعجز عن كراء البيت، ولا من غناه أن يستغنى عن العمل، ويعزف ولكن لإخوانه ولنفسه، ويقرأ ولكن فى غير عكوف أو إفراط، ويتعلم ولا يتخصص. ويمكن أن نقول إن الصورة التى يرسمها هى صورة المثل الأعلى لحياة الإنسان من الطبقة الوسطى، أو الإنسان الذى يعيش - كما يقول كاتب صينى آخر، بين الأرض الحقيقية والسماء الخيالية.

وممن ينبغى أن يذكروا من رجال الأدب الصينى القديم "شوانجتسى" (٢٧٥ قبل الميلاد) وفلسفته تلخص فى كلمتين "اعرف نفسك". ولعل المسألة التى عالجها كل فلاسفة الصين أو أدبائهم هى: كيف نستمتع بالحياة؟ وأى الناس أقدر على طيب التمتع بها؟ ولكن "شوانجتسى" أقصر فى منتصف الطريق واعتزل الناس وقال إنه ضل وفقد نفسه، فهو يريد أن يجدها ويهتدى إليها ويستردها، وقد ترجم آثاره الأستاذ جايلز "Prof. H. A. Giles".

وكان "شوانجتسى" تلميذ "لاوتسى" كما كان "منشياس" تلميذ "كونفوشيوس"، وإن كان كلاهما يفصله عن أستاذه نحو قرن. وكلا الرجلين قال إنه فقد شيئًا، فأما "شوانجتسى" ففقد نفسه، كما عرفت، وأما "منشياس" فيقول إن الذى يفقده الإنسان هو "روح الطفولة" وإن الرجل العظيم هو الذى لم يفقد "قلب الطفل"، ويرى أن تأثير المدنية وما تغرى به أو تحمل عليه من التكلف شبيه بتأثير تجريد الجبال من الأشجار والغابات. وعنده أن الفضائل الناضجة ثلاثة "الرحمة، والحكمة، والشجاعة".

ومِمن يجب أن يذكروا "لاوتسى" وهو يدعو إلى السلام وسعة الصدر والحلم والبساطة والرضا ويعلم - فى جملة ما يعلم - حكمة الجنون، ومزية الستر - ستر الذكاء والعلم -، وقوة الضعف، وبساطة التكلف. وله قصيدة يقول فيها: "إن أحكم الحكمة تشبه الغباء، وإن أفصح الفصاحة تبدو كالتأتأة والفأفأة، وإن الحركة تطرد البرد، ولكن السكون يعفي من الحر". وقد ترجمه إلى الإنجليزية Arthur Watey واسم الكتاب "The way and its power" .

ومن قوله أيضًا: "إن خير المركبات ما لا ينطلق مندفعًا، وخير المقاتلين الذى لا يحتدم غيظًا، وأعظم الفاتحين الذى ينتصر وما خاض حربًا، وأقدر الناس على استخدام الناس من يبدو كأنه دونهم".

ومن قوله أيضًا: "إن الذى ينقبض لابد أن ينبسط أولاً، والذى يجب إضعافه لابد أن يكون قويًا، والذى يُهدم ينبغى أن يُرفع أولاً، والذى يريد أن يأخذ لابد أن يبدأ بأن يعطى، وهذا هو ما يسمى "إخفات ضوء الإنسان" وبهذا يغلب اللّيّنُ الصلبَ، والضعيفُ القوى".

وعنده أن الماء خير رمز لقوة الضعف فإنه لا يزال يقطر برفق حتى يثقب الصخرة ومن حكمة الماء أنه يؤثر المستوى الأدنى.

أما ستر الذكاء فخير سلاح فى رأيه لمعركة الحياة.

ولا يتم كلام عن الأدب الصينى القديم إلا بذكر "تاو يوانهنج" "محب الحياة" وهو فى رأى البعض أكبر شعرائهم، وأنضج ثمرة للثقافة الصينية وشعره قليل ولكنه رائع فى بساطته، وهو يمثل [الروحانية] بغير تقشف، والمادية بغير شهوانية، فالحواس والروح على وفاق. والحكمة عنده مشوبة بتهكم المتسامح، ومن قوله لبنيه وقد بعث إليهم برجل يساعدهم فى شأن لهم: "عاملوه بالرفق والحسنى، فإنه هو أيضًا ابن بعضهم".

وقد أسرف في معاقرة الخمر وقضى الشطر الأخير من عمره في عزلة.

وأظن أن هذا القدر يكفي، وسنبين في الأسبوع المقبل مواضع النقص فيما كتبه الأستاذان الفاضلان عن الأدب المصري القديم.

قصة الأدب فى العالم[١٢٧]

(للأستاذين أحمد أمين بك وزكى نجيب محمود)

وعدت فى المقال السابق أن أبين كيف جاء الفصل الذى عقده المؤلفان الفاضلان على الأدب المصرى القديم ناقصًا غير واف بالحاجة. والحقيقة أنه بعض فصل، أو فصل موجز جدًا إذا قيس إلى ما كتباه عن الأدب العبرى أو الأدب اليونانى الذى استغرق من الكتاب أكثر من مائة صفحة، وأرى أنهما ظلما الأدب المصرى القديم وكان حقه منها خاصة الإنصاف فإن هؤلاء المصريين القدماء من أمجد شعوب الأرض، ولك أن تقول إنهم أنبغ الأمم ولا تكون فى هذا مبالغًا أو مغرقًا، أو متهمًا بالعصبية الجنسية، فقد قاله غير واحد من علماء الغرب الذين كان لهم فضل الكشف عن آثارهم الخالدة. ولقد فتح المصريون عيونهم على الدنيا، ونهضوا، وسعوا، وبنوا، ووطدوا، وأثلوا[١٢٨]، وابتكروا، واخترعوا، فى كل باب، على حين كانت الأمم الأخرى راقدة تغط فى النوم. وكانت نظرتهم إلى الحياة فاحصة، ناقدة جريئة كنظرة الإغريق الذين ظهروا ونبغوا بعد بضعة الآف من السنين فلم يكن من المستغرب – بل غير ذلك كان هو الخليق أن يُستغرب – أن يكون لهذا الشعب الموهوب أدب غنى، وأن تكون لهم حياة عقلية ناضجة، وعالم يتجاوز فيه العقل نطاقى الحياة اليومية والحياة الدينية أيضًا، ولاسيما بعد أن ابتكروا طريقة للكتابة واتخذوا ضروبًا من الورق.

---

(١٢٧) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١١ يوليه سنة ١٩٤٣ (ص٤).

(١٢٨) تأصلوا أو كثر مالهم (المحرر).

ولست أعرف شيئًا من هذه اللغة القديمة ولكن علماءها يقولون إنها لغة غنية بالمجاز والاستعارة ويصفونها بأنها "لغة مثقفة" بل يذهب بعضهم فى وصفها إلى حد القول بأنها "تؤلف وتفكر" لمن يكتب بها.

ويقول هؤلاء العلماء أن الأدب المصرى القديم بلغ الذروة فى الفترة الحالكة الواقعة بين الدولة القديمة والدولة الوسطى، وفى عهد الأسرة الثانية عشرة (١٩٩٥- ١٧٩٠ ق. م) وقد تناول الكتاب كل موضوع، ولم يتهيبوا مسألة من المسائل. فى هذا العهد خلا الأدب من الصبغة الدينية، ومن كل ذكر للآلهة، حتى ليمكن أن يقال إن الدين صار وراثة يعنى الرجل المثقف بطقوسه ورسومه ولكنه فى عالمه الفكرى الخاص لا يكاد يعبأ شيئًا بذلك كله أو يلقى باله إليه.

وكانت الكتابة فى هذا العهد كله بما يصح أن نسميه "اللغة الفصحى" التى لا يعرفها إلا المتعلمون والمثقفون. وقد جاء بعد ذلك عهد آخر فى أخريات الدولة الحديثة (حوالى سنة ١٣٥٠ (ق.م) عظم فيه التفاوت بين الفصحى والعامية حتى صارت الأولى مما لا يفهمه الشعب، فلما كان الانقلاب أو الثورة فى آخر الأسرة الثامنة عشرة صدعت هذه القيود وبدأ الناس يكتبون وينظمون الشعر باللغة التى يتكلمها الناس، أى بلغة العصر، وبهذه اللغة نظمت قصيدة "الشمس" المشهورة التى يصفها بعضهم بأنها بلاغ إلى الناس بالدين الجديد. وفى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين ازدهر الأدب ازدهارًا عظيمًا وهو مكتوب بهذه اللغة التى يسمونها اللغة المصرية الجديدة، ثم عاد الأمر سيرته الأولى فصار المثقفون يعنون بطلاوة العبارة، والمحسنات ويتكلفون ويتعملون، حتى صارت اللغة بعد خمسة قرون، ميتة، لا يعرفها إلا الذين يتعلمونها فى المدارس. فانحطت الحياة الأدبية، ولم يظهر أدب جديد له قيمة إلا بعد عدة قرون، وهو الذى يسمى الأدب الديموطيقى.

ومما لاحظه العلماء أن المصريين فى أخريات الدولة استعملوا ألفاظًا أجنبية كثيرة استعاروها - أو معظمها - من فلسطين وهم يعدون ذلك مظهرًا لتأثر كنعان بمصر، فى الأدب وغيره من الفنون. على أن أكبر أثر ملحوظ للمصريين كان فى الأدب العبرى، وخاصة فى المزامير ونشيد الأناشيد، وكتاب الأمثال، وسفر الجامعة.

وقد كان المرحوم عبد القادر حمزة باشا ينوى أن يكتب بحثًا يقارن فيه بين الأدب العبرى والأدب المصرى ويثبت فيه فضل الأدب المصرى على الأدب العبرى. كما بيّن مبلغ اعتماد الأدب اليونانى على الأدب المصرى واستمداده منه وأخذه عنه فى كتابه الجليل "على هامش التاريخ المصرى القديم"، وكان عليه رحمة الله لا ينفك يدير هذا فى نفسه ويحدثنى به، وأنا أستعجله وأحضه على الكتابة، وهو يرجئ، حتى أقعده المرض، والقلم فى يده يخط به آخر فصول الجزء الثانى، ثم وافاه الأجل فذهب الأمل. على أنى أحسبه كتب شيئًا، أو دون مذكرات، وأعتقد صديقنا الأستاذ سليم بك حسن يستطيع أن يجلو لنا هذا الغموض، فقد كان حدثنى بشىء فى هذا الموضوع.

وأحب أن أنصف المؤلفين الفاضلين فأقول إنهما قالا فى كتابهما "كل هذا جعل آدابهم تؤثر - كعلومهم وفنونهم - فى الأمم حولهم، إما من طريق مباشر كتأثر العبرانيين واليونانيين بالمصريين أو غير مباشر كتأثر الآداب الأخرى بالعبرية المتأثرة بالمصرية، أو تأثر الرومانيين باليونانيين المتأثرين بالمصريين".

ولكنى أحسبهما يوافقان على أن هذه العبارة المجملة الوجيزة على وضوحها لا تكفى للتعريف بفضل المصريين على الأمم حولهم. وكان من السهل أن يفصلا هذا الإجمال قليلاً، بإضافة بضع صفحات، لتجىء الصورة العامة أوضح وليكون الفضل بها أبين.

ولا نكران أن معظم الأدب المصرى ضاع، ولكن الذى بقى منه كاف لحسن التعريف به، ولوصل حياة المصريين القديمة بحياتهم فى عصرهم الحاضر، فقد ورثنا الكثير الذى بقى على الزمن، وما زال لعاداتنا وتقاليدنا وأساليب حياتنا، أصل قديم تحور إليه وترجع، حتى أغانى الفلاحين والعمال لها نظير فى الأدب الشعبى فى مصر القديمة.

حتى "الشاعر الشعبى" الذى كان يتخذ مجلسه فى المقاهى البلدية إلى عهد قريب، على دكه عالية وفى يده الربابة ويروح يقص على الناس قصة "سيف بن ذى يزن" و"عنترة" و"السلطان بيبرس" و"الخليفة هارون" وغير ذلك، كان له ند فى حياة مصر

القديمة فعندنا من العصر المسيحى قصة "قمبيز" ومن العصر اليونانى قصة "نكتانيبوس"، وقد حفظ لنا هيرودوت قصة "رامبسينيتوس" ووُجدت بين أوراق البردى من العهد الديموطيقى قصة الملك "بيتوباستيس" والكاهن "خاموس". ومن الدولة الجديدة عثر المنقبون على قصتى الملك تحتموس وملك الهكسوس أبوفيس، ومن عهد الدولة الوسطى على قصة "خوفو".

ويبدو لى أيضاً أن هناك وجوهاً للمقارنة الجدية بين الأدب المصرى القديم والأدب العربى، ولاسيما فى الشعر من حيث القوالب اللفظية، والأوزان والبحور، والولع بالمجاز والاستعارة والمحسنات اللفظية وهذا بحث يحتاج إلى خبير باللغة المصرية القديمة، فلست أستطيع أن أدخل فيه. ولكنه يخيل إلىّ من وصف أسلوب التأليف، وطول الأبيات أن هناك تشابهاً يسهل أن يعرف مداه بالمقارنة إذا تولاها أهلها الذين توفروا على درس هذه اللغة القديمة، ويزيد اقتناعى بهذا ما حدثنى به بعض علمائنا من أن هناك تشابهاً بين اللغتين فى طريقة تأليف الكلام على معانى النحو، وفى الاشتقاق وفى نوع الاستعارة، وألوان المجاز. وقد تكون فى هذا مبالغة ولكن العهدة على غيرى.

وهذا على كل حال بحث ألفت إليه نظر الذين يقدرون عليه، وهم كثر ولله الحمد.

وسأجمل فى الأسبوع الآتى بإذن الله ما بقى من ملاحظات على بقية فصول الكتاب والله المعين.

قصة الأدب فى العالم[١٢٩]

(للأستاذين أحمد أمين بك وزكى نجيب بك)

ليس لى سوى ملاحظات يسيرة على ما بقى من فصول هذا الكتاب النفيس التى لم أتناولها من قبل، وأكثر ما أريد أن أقوله ثناء، على الجلد وتحرى الدقة والضبط فى العبارة على الرغم من الاضطرار إلى الإيجاز، وهى شهادة لا يجوز أن يبخل بها باخل على مؤلفى الكتاب، وخاصة على هذا الرجل الفاضل الذى لا يزال معنياً بتغذية الثقافة الأدبية فى هذا الجيل بخير ما يسعه أن يغذيها به، بجهده وبما يعبئه ويحشده من جهود إخوانه وزملائه، وأعنى به - كما لا أحتاج أن أقول - الأستاذ أحمد أمين بك الذى أحسبه سيعرف فى تاريخ الحركة الثقافية الحديثة "بمعلم الجيل". فإن روح المعلم وإخلاصه هى الطابع الذى يتميز به، ولست أظن أنه كان من المصادفات التى لا تعليل لها أنه آثر التعليم على القضاء، فإنه مطبوع على التعليم، وأحسبه خلق ليكون معلماً وأستاذاً وهادياً ومرشداً، يأخذ باليد، ويسدد الخطى، وينبه ويوجه، ويبسط وييسر.

وكان طبيعياً أن يعنى المؤلفان الفاضلان بقصة الأدب العربى، فحصاه بنحو مائة صفحة.

وجاء ما كتباه فى هذا الفصل غاية فى الإحكام وحسن الإحاطة، وأذكر على سبيل التمثيل لعنايتهما بالإحاطة، أنهما لم يغفلا أحدث ما ظهر من الآراء، من ذلك

---

(١٢٩) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٨ يوليه سنة ١٩٤٣ (ص٤).

أنهما لما ذكرا شعراء الحب من مثل جميل وقيس وكُثير قالا: "وكل هؤلاء اقتصروا على محبوبة واحدة قالوا فيها شعرهم، وإن سموها أحيانًا أسماء متعددة، أما عمر بن أبى ربيعة فقد تشبب بالنساء ولم يقتصر على واحدة، وتبع الحسن أنى كان" - وهذا تفريق سبق إليه الأستاذ العقاد فى كتابه "شاعر الغزل" وقد بسطه بسطًا وافيًا، وتوسع فى بيانه. ولست أقول إن المؤلفين الفاضلين أخذا هذا التفريق عنه، فليس ثم ما يمنع أن يتنبها إليه، ولكنى أقول إن الأستاذ العقاد سبقهما إليه، فمن الإنصاف أن يذكر له فضل السبق ويسجل، وأحب أن أنبه بعد ذلك إلى أنى لا أرى غضاضة على مؤرخ إذا هو انتفع بما ينشر من الآراء والأحكام السديدة. وما ذكرت هذا لأرد حقًا مغصوبًا بل لأبين شدة عناية المؤلفين بالإحاطة وتحريهما الدقة فى بيان ما يتميز به شعراء مختلفون يبدو لأول وهلة أنهم طراز واحد.

ومن ملاحظاتهم فى دفاعهم عن الأدب العربى قولهم: "وإذا قال كثير من المستشرقين إنهم لم يتذوقوا أكثر ما ترجم من الشعر الجاهلى العربى إلى اللغات الأوربية، وإنهم يرونه واقعيًا لا مثاليًا، وماديًا لا روحانية فيه، فعلة ذلك أنهم لا يستطيعون تذوقه إلا إذا عاشوا بمطالعتهم وكثرة قراءتهم فى الجو العربى وفهموا عاداتهم وتقاليدهم وعيشتهم الاجتماعية ثم عرفوا كيف اشتق العرب من حياتهم هذه أدبًا وشعرًا، وحتى هذا نفسه شرط أساسى لفهم أبناء العرب أنفسهم - من المعاصرين المتحضرين - الشعر الجاهلى".

وأنا أشهد أن هذا صحيح، فقد كنت أعتقد أنى أفهم الشعر الجاهلى على وجهه، ولا أحتاج إلى زيادة فى فهمه، فلما قسم لى أن أزور بلاد العرب، والحجاز خاصة، وجدت أنى أصبحت أحسن فهمًا لهذا الشعر؛ لأنى أصبحت أصح إدراكًا للحياة التى كان يحياها هؤلاء الأقدمون. وقد ذكرت هذا للدكتور هيكل باشا، وكنا يومئذ نعمل معًا فى "السياسة"، وكان هو ينشر "حياة محمد" فصولاً متتابعة فى "السياسة الأسبوعية"، وحثثته على زيارة الحجاز قبل أن يجمع الفصول وينشرها كتابًا لاعتقادى أن هذا لازم لتجىء الصور الحاصلة فى الذهن أصح وأوثق، وقد فعل بعد ظهور الطبعة الأولى من كتاب "حياة محمد" لا عملاً بالنصيحة، فإنى أحسبه نسيها، بل بدافع من رغبته الخاصة

بعد أن امتلأت نفسه بجلال السيرة، ومن شاء أن يعرف أثر زيارة الدكتور هيكل للحجاز فليراجع كتابه الذى ظهر بعدها "فى منزل الوحى".

وأعجبنى من هذا الفصل أيضًا محاولتهما أن يعللا عدم ظهور الملاحم فى الشعر العربى كما ظهرت فى شعر الهند والفرس واليونان والرومان والإنجليز، كما حاولا أن يعللا انصراف العرب عن ترجمة الشعر اليونانى مع عنايتهم بترجمة الفلسفة اليونانية، ولست أخالفهما فيما ذهبا إليه من التعليل، فقد ذهبت إلى مثله فى سلسلة من الأحاديث سجلت فى مصر وأذيعت من محطة لندن، وفيها قارنت بين الأدبين العربى والإنجليزى، بإيجاز لا يسمح الوقت المحدود للإذاعة بغيره، وزدت على ما أورده المؤلفان الفاضلان من الأسباب المحتملة، أنه لم يظهر فى الجاهلية البطل "القومى" الذى يصلح أن تدور عليه قصة الملحمة وفى هذا قلت:

"وقد حرمت العربية هذا الفن فى الشعر، أو لعل الأصح أن نقول إنه لم يتجاوز فيها المراحل الأولى أو مراحل التمهيد، فإن شعر الحماسة والبطولة والفخر كثير فى الأدب العربى، وبابه واسع، ولا يكاد يخلو شعر لشاعر من أبيات أو قصائد فى الفخر وما يجرى مجراه... ولكن الأمر لم يتعد هذا القدر... فلم يحاول العرب - على ما نعلم - أن ينظموا الملاحم على غرار "إلياذة" هومر وما شابهها فى الآداب الأخرى لا على سبيل التقليد والمحاكاة، ولا بحكم التطور الطبيعى للشعر، نعم نظمت فى عصور متأخرة "أراجيز" طوال تبلغ الألف وزيادة فى التاريخ وغيره، ولكن هذه لا تستحق أن تسمى شعرًا، فلما خرج العرب من البداوة، وترقوا فى سلم الحضارة، وصارت لهم دولة عريضة وملك واسع ومدنية غنية، وعلوم وفلسفات وفنون، صار من غير الممكن أن يظهر شعر الفروسية فى ملاحم ظهورًا طبيعيًا أى من غير طريق المحاكاة والتقليد؛ لأن مادة شعر الملاحم إنما تستمد من حياة الأمة فى المراحل الأولية، وقد حال دون المحاكاة أن الشعر اليونانى لم ينقل إلى العربية للأسباب التى أسلفنا القول عليها".

"وشعر الملاحم يدور على فعال الأبطال وما كللوا به هاماتهم من نصر، والصبغة فيه قومية ولا فردية، والبطل يمثل شعبًا أو قومًا أو قضية، فنصره نصر لقومه أو لقضيتهم،

وهذا هو الفرق بين شعر الفروسية وشعر المآسى، فليس يصلح لشعر الفروسية مرزوء لا تزال تحل به الهزائم وتنزل بساحته المصائب والنكبات، أما المآسى فلا ضير فيها من سوء المآل، والعاطفة التى تثيرها إنسانية تتحرك فى نفس أى إنسان من أى قوم أو من أى عصر، أما المصيبة [التى] تدرك البطل فى شعر الفروسية فإنها تكون فى منزلة الكارثة القومية".

"وقد ظهر الأبطال فى الجاهلية ولكن من بقيت أخبارهم كانوا أبطالاً محليين، محدودى القيمة، أو قل إنهم أبطال بمعنى أنهم فرسان بواسل مغاوير وأحلاس حروب، فلم يظهر بينهم بطل يستحق أن يكون قومياً بالمعنى الصحيح، فلما ظهر النبى صلى الله عليه وسلم ولما شمل العرب ووجههم وجهته كانت دعوته دينية إصلاحية عمرانية، وقد دفع الأمة فى طريق الدولة والسلطان الممدود فشغلت بالفتوح وإقامة القواعد وتنظيم الدولة وتدبير أمورها والواقع على كل حال أن الشعر عراه فتور فى فترة قصيرة تلت انتشار الدين".

"ويظهر أن التزام العرب قافية واحدة فى القصيدة الواحدة – فيما عدا الرجز– جعل من العسير أن يتوسعوا فى شعر القصص أو الفروسية وأن يبلغوا فيه ما بلغ غيرهم إلخ إلخ"(١٣٠).

وقد زاد الأستاذان الفاضلان وجهًا من وجوه التعليل يرجع إلى طبيعة الحياة التى كان يحياها العرب قبائل متفرقة فقالا: "أو السبب أن العربى فى الجاهلية اعتاد أن ينظر إلى المسائل نظرة جزئية لا كلية، فرأى حرب البسوس، ولكن لم ير الحروب متتابعة كوحدة، وشعر فى الواقعة الواحدة المعنية، ولكن لم يشعر فى الوقائع [كلها] متلاحقة يأخذ بعضها بناصية بعض، ونتج عن ذلك أنه قال الشعر فى أجزاء ملاحم، ولكنه لم يقله فى ملحمة، وأنه قصر شعره على اعتزازه بفعال قبيلته ونكايتها بالقبيلة المعادية، ولم تسمح له أنفته وإباؤه وعصبته أن ينظم فى فعال القبائل الأخرى غير قبيلته".

---

(١٣٠) يمثل هذا النص جزءًا من الحديث الرابع الذى دار حول "شعر الفروسية والملاحم" (المحرر).

وهو تعليل مقبول، ويمكن رده في النهاية إلى ما بينته من أنه لم يظهر في الجاهلية فيما نعلم بطل "قومي" بالمعنى الصحيح.

وأستأذن الأستاذين في أن أخالفهما في رأي، فقد قالا في معرض كلامهما على ما ظهر من أنواع الشعر عند العرب: "ولهم بعض شعر تعليمي كأبيات زهير، ومن ومن..". ويبدو من هذه العبارة أنهما يستقلان هذا الضرب من الشعر أو يهونان من أمره، وأنا على العكس أرى أن شعر الحكم والأمثال والوعظ، أو ما يسميانه الشعر التعليمي، مما حفل به الشعر العربي وتميز به من غيره، ولست أفضله على ضروب الشعر الأخرى ولكني أقول إنه في العربية أكثر منه في الآداب الأخرى، وما زال الشاعر العربي من أقدم العصور إلى عصرنا الحاضر يؤثر أن يسوق المعنى الذي يعن له مساق الحكمة أو المثل وليس أبعث على سرور الشاعر العربي من أن يقال عنه إنه يأتي في شعره بالحكمة والمثل السائر وما زال للمتنبي بعد ألف عام وزيادة - وسيظل له على الأرجح - مقلدون - عفوًا أو عمدًا - لا حصر لهم. هذا وإن كان العرب أنفسهم لم يفتهم التمييز بين الحكيم والشاعر، وقد سئل بعضهم عن أبي تمام والبحتري والمتنبي، أيهم أشعر، فقال: "أبو تمام والمتنبي حكيمان، والشاعر البحتري"، ولكن هذه الفطنة إلى فرق بين الروحين لا تنفي أن كل شاعر عربي يسره أن يوصف بالحكمة.

ويخطر لي في تعليل ذلك أن الشرق مهبط الوحي، وأن الأديان الكبرى صدرت عنه وخرجت منه، فالموسوية والمسيحية والإسلام ظهرت كلها في بلاد العرب شمالاً وجنوبًا ولا داعي للإيغال شرقًا إلى الهند والصين فإننا هنا معنيون بالعرب وأدبهم وأحسب أن لا حاجة بي إلى القول إن الأديان كلها تتفق من حيث إنها أخلاق وآداب وسيرة فاضلة وإن تفاوتت فيما عدا ذلك، مما تنتظم به حياة الجماعة على سنة الهدى. والأصل في الأديان أنها هداية وإرشاد إلى ما فيه الخير والصلاح، ومن هنا نستطيع أن نقول إن روح الوعظ عريقة في الشرق وإنها في الشعب العربي عميقة الجذور، وليس العرب ببدع في هذا، فإنها نزعة إنسانية عامة، ولكنها في العرب أبرز وأوضح وأعمق، ومن شواهد ذلك كثرة ظهور الكهان والوعاظ في الجاهلية، وإن كان لم يبق من كلامهم

سوى قدر يسير لا يدرى أحد أهو صحيح النسبة أو منحول مدخول على المشهور من طريقة بعض الرواة فى اختراع الكلام ونسبته إلى القدماء ليكون أوضح فى النفس ولتكون به الحجة أقوى وأنهض.

ومن شواهده الطريفة أيضًا أن العرب لم يكتفوا بالحكمة ينطقون بها والمثل يضربونه والعظة يلقونها بل صنعوا أيضًا كلامًا كثيرًا فى هذا الباب حشوا به كتبهم وعزوه إلى فلاسفة الإغريق ليزيدوا قيمة ما ألفوا أو ليزينوه به.

ومن الشواهد الجدية كثرة الشعر الصوفى فى الأدب العربى كثرة جعلته بابًا قائمًا بذاته له شعراؤه المنقطعون له والمتميزون به.

وعلى ذكر ذلك أسأل الأستاذين الفاضلين ألا يريان أن من تمام البحث أن يضيفا شيئًا إلى هذا الفصل يتناولان فيه الشعر الصوفى فإنى أراهما أغفلا ذكره كل الإغفال.

وأرى كذلك أنهما لم ينصفا الأدب الأندلسى، فقد مرا به خطفًا واكتفيا ببيان وجيز عن نشأة التوشيح ثم الزجل. وليس هذا بكاف. ولا شك أن الأدب العربى الشرقى أعمق وأجل، ولكن أدب الأندلس فيه نضارة لا تستحق الإهمال، وهو يشبه الأدب الأمريكى إذا قيس إلى الأدب الإنجليزى فى بلاده، والأدب الإنجليزى أعمق وأجل، والأدب الأمريكى أنضر وأنق ألوانًا، كالأندلسى. فلعلهما يستدركان ذلك فى الطبعة الثانية. وأكرر لهما الحمد، ولشد ما كنت أتمنى لو كان يسعنى أكثر من الثناء المخلص. زادهما الله توفيقًا.

أنات حائرة[١٣١]

للأستاذ عزيز أباظة بك

طال ترددى قبل أن أكتب هذه الكلمة، لسبب لا يخلو بيانه من فائدة؛ فقد تلقيت الكتاب مع البريد، فلما فضضت الغلاف وقعت عينى أول ما وقعت على عنوانه "أنات حائرة"، ولم تأخذ اسم صاحبه، ولو فعلت لاختلف الحال فإنه صديق كريم. ونفرنى العنوان لأنى أكره أن تكون الكتب أنيناً، وأرى أن الحزين أو الموجع أو الباكى يحسن أن يستر ما به عن الناس، وأن يتقى فضولهم.

وردنى إلى الكتاب ما لا أعلم، فإذا صاحبه "عزيز أباظة بك" فسررت واستغربت، فأما السرور فلأن للرجل فى نفسى موضعاً لم يزحزحه عنه شىء مذ عرفته، وإن كانت مشاغل الحياة والعمل قد باعدت بيننا وأما الاستغراب فلأنى أعرف أنه يحتفل بالأدب ولا أعرفه يكتب أو يجد من وقته فسحة لذلك. وقرأت كلمة الإهداء التى خطها فخجلت، وحدثت نفسى أنه رجل يسرف فى العبارة عن وده. ونظرت فى الفهرس فما جرى بخاطرى إلا أنها فصول تسلى بكتابتها فى الفراغ القليل من وقته، والأرجح أن لا تكون لها قيمة تذكر، فيستوى أن أقرأها ولا أقرأها، ويحسن أن أكتفى بكلمة شكر أبعث بها إليه، وكان الله يحب المحسنين.

وعدت إلى الكتاب على الرغم من ذلك، فإن القراءة آفة، ونحن نقرأ كل شىء حتى الغث، فلماذا لا نقرأ هذا الكتاب الأنيق الجيد الطبع والورق؟ وتوكلت على الله

---

(١٣١) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٥ يوليه سنة ١٩٤٣ (ص٤).

فقرأت التصدير الذى كتبه الدكتور طه حسين بك، فقلت لنفسى لا حول ولا قوة إلا بالله! هذا طه حسين يخسره الأدب، ولا تكسبه الحكومة فما خلق لها بل للأدب، وإنه ليضيع نفسه فى هذه المناصب التى تشغله وتستنفد جهده ووقته، فإذا كتب جاء بماذا؟ بمثل هذا الكلام الذى لا محصول وراءه ولا أعرف له رأسًا من ذنب، فلماذا لا يستقيل ويريح نفسه من هذا العناء الباطل، ويتفرغ للأدب؟ ماذا يفتنه من هذا العرض الزائل، والذى أهمل أو ترك أبقى؟ كيف يستطيع بالله أن يواظب على التحصيل وتغذية عقله ونفسه - وهو ما لا غنى بأديب عنه - وكيف يتسنى له التجويد حين يكتب وهو مشغول فى ليله ونهاره بهذا الذى لا آخر له من شئون الوظيفة، واللجان وما إليها؟ لقد أسفت يوم تولى هيكل باشا ومصطفى عبد الرازق باشا الوزارة، وقلت إن الأدب والعلم يخسرهما، وأنا اليوم أشد أسفًا؛ لأن الوظائف أطول عمرًا من الوزارة، وأكثر استغراقًا للجهد، وطه يتولى أعمالاً كل واحد منها كاف للإرهاق، فمن جامعة فاروق إلى منصب المستشار الفنى لوزارة المعارف، إلى عشرات من اللجان يشارك فيها وتأبى له كرامته أن يكون فيها صفرًا، ولو اقتصر على الجامعة لكان خيرًا، ولو نفض يده من هذا كله لكان أفضل.

حملت على طه لأنى لم أفهم تصديره، لا لأنه غير مفهوم أو لا يفهم، بل لأنى أنا كنت ذاهلاً شارد اللب، وآية ذلك أنى لم أعرف من هذا التصدير أن الكتاب شعر لا نثر وإن كان قد ذكر هذا فى غير موضع. ورجعت إلى الكتاب بعد أيام فأدهشنى أنه شعر، وأنه فوق هذا جيد عامر، وقرأت الإهداء بعناية ففهمت كل شىء.

هى فجيعة فى أحوال قاسية لو وصف مثلها كاتب فى قصة لقال القارئ إنه شطط فى التخيل وإغراق فى الإبعاد. وما بعجيب أن يحب رجل زوجته كل هذا الحب، وأن ينطوى لها على مثل هذا الوفاء، وليس الموت ببدع، ولا هو أفجع الفواجع، فإنه عادى مألوف، ومصير لا معدى عنه ولامهرب منه، وكثيرًا ما ينزل بالمرء ما هو أقسى منه، ولكن الموت حاسم، وهذا شر ما فيه. وقد فجع الشاعر فى زوجته بعد أن فجعت زوجته، وهى تكابد تباريح المرض، فى أخواتها جميعًا، فصارت لأبنائهم أمًا وهى المحتاجة إلى الرعاية والتعهد، ولم تزل صابرة متجلدة حتى وافاها الأجل.

وكان شهر يونيه أحفل شهور العام بالذكريات السعيدة لهذه الأسرة الكريمة، وكانت تتبادل التهنئات والهدايا والألطاف المرفهة فى هذه المناسبات السارة، فأبى الموت إلا أن يعدو على هذه الزوجة البارة الكريمة فى شهر يونيه.

ودارت الأيام، كما لا تفتأ تفعل، ودنا شهر يونيه، فرأى الزوج الوفى أن يجعل هديته إلى بنيه هذه المجموعة من الشعر. ويقول الشاعر فى ختام كلمة الإهداء: "ستسألوننى لمَ أنشر هذا الكتيب على الناس، وليس فيه ما يعنى أحداً غيرنا من الناس، وأود أن أسرع فأجيبكم أننى مذ صح عندى أن أنشره حزمت أمرى رعاية لحرمته علينا أن أسمو به ما استطعت فلن يراه الناس سلعة معروضة، ولن يقتنيه من الناس من ينقدنى فيه دراهم معدودة، وإنما سيقتنيه منهم إن شاء الله من يعنينى أن أهديه إليهم، أو من يعنيه لمعنى من المعانى أن يستهديه فيهداه".

وهذا من أصدق ما عبر به إنسان عن حرصه على تكريم ذكرى عزيزة عليه، وإنى لأذكر أنى لما ماتت أمى، وكانت كل ما يعنينى من هذه الدنيا، ومن أكرمه وأحبه فيها، نزهتها عن الرثاء، وكنت لا أزال أقول الشعر، مخافة أن يتناوله أحد بذم أو نقد لا يتحرز كاتبه فيمسها من بعيد أو ضمناً وإن كنت أنا أو شعرى المقصود بالذم أو النقد.

وهذا هو الذى حملنى على التردد، كما أسلفت، فى مستهل هذا الفصل، فإنه شعر لا ينشره صاحبه للجمهور، وقد كنت وأنا أقرؤه أحس كأنى متطفل على صاحبه فى خلوته بنفسه وأساه. ثم قرأت كلمة فى "المصور" لصديقى الأستاذ فكرى أباظة، فلم أر بعد ذلك بأساً من ترك هذا التحرج على أن تكون كلمتى عن الكتاب تحية لصاحبه.

وأحب بعد ذلك أن أعرف القراء بهذا الشاعر العزيز، فإن هذا القلب الكبير جدير بالكرامة. وقد صدق الدكتور طه فى قوله إن "هذه الصور الشعرية التى إن لم تبلغ من الروعة ما يبلغه فحول الشعراء، فقد بلغت من السماحة والنفاذ إلى القلوب ما يبلغه الشعر الصادق الذى يصور عواطف صادقة ويترجم عن نفس صادقة".

والشعر كله جزل مأنوس فياض بالعاطفة ومن أحلى ما فيه توقيعاته فى كراسات بنيه ولكبرى بنتيه يقول:

اســـألـى ربك يلهـــمـ ـك مع الـصـــبـــر هداك
واثبـــتى للخطب واســ ـتـعلى عليـه بصـــبـاك
واذكـرى أمك وابكيـهـا ومــن يـبـكـــى ســـواك
واحــملى عبء أشـقـاك ولا تــنـســـى أبــــاك

وقد صدق، فإن الصبا ترياق الهموم والأحزان، وخير ما يعين على احتمالها.

وكتب للصغرى:

كنا بعـــيش مــونق الـ مظهــر غض الخــبـــر
تـضــــمنـــا أمك فــى هـــالة بــدر نــيـــــر
فــى نــســق منـضــد ومــــنزل مـطـهـــر
حــتى هوت كــالشــمس فى مــغــرب يوم أغــبـــر
تـغـيــــر الـدهـــر بـنـا والـدهــر ذو تـغـيـــــر
يا قطعـــة من كــبـــدى تـذكــريـهـا واصــبـــرى

وكتب لابنه أبياتًا منها:

ذقــت فى سنك مــا قــد ذقـتــه فـحــملنـا اليـتم طفلـين مــعــا
لــذت بـالـصــبـــر فـلـذ أنـت بـه وتمـاسـك رب صــبـــر نـفــعــا
واقطع العـمــر إذا اسـطعت رضى وابـتـــســـامًـــا قـبـل أن ينـقطعــا
دانـت الـدنـيـــا ورفـــت ودنـت لفــتى كـافـح فــيــهـا وسـعـى

واختلاف القول راجع إلى اختلاف الجنسين. ويقول لابنته وقد لامته:

تقول ابنتي أسرفت في البث والبكى ... وأنت لنا اليوم الرجاء المخلف

فقلت وهل باكٍ على عدل نفسه ... وقرة عينيه من المهد مسرف؟

والمجموعة كلها على هذا النسق الحزين الحلو. وأسلوبه في شعره يذكرك مرة بعمر بن أبي ربيعة، ومرة بالبحتري وأخرى بكُثير وابن الأحنف ومن إليهما، ولكن محاكاة الأساليب أو التأثر بها لا تمتد إلى المعاني فهذه ينفرد بها الشاعر؛ لأنها من وحي العاطفة الصادقة. أما الأسلوب فأحسب أن المحاكاة فيه جاءت من جراء العكوف على المطالعة.

وبعد فإني أشكر لعزيز بك هديته، وأرحب بها وأعتز، وأبعث إليه بتحيتي وأدعو له الله أن يمسح على قلبه.

بين مصر ولبنان(١٣٢)

تصدر فى بيروت من عدة سنوات صحيفة أدب واجتماع وسياسة باسم "الجمهور" وهى من خيرة الصحف فى القطر الشقيق، ومن أغزرها مادة، ويحررها الأديب الكبير الأستاذ ميشال أبو شهلا، ويعاونه لفيف من صفوة الأدباء والشعراء. وفى كل أسبوع تنشر حديثًا فى الأدب والسياسة يكتبه الأستاذ إلياس أبو شبكة، وقد قرأت له فى أحد الأعداد الأخيرة التى تلقيتها عتابًا هو من [المقة] والحب، ومرجعه إلى الرغبة فى التواصل وتوثيق الروابط.

والداعى إلى العتاب هو أن مجلة الرسالة الغراء نشرت كلمة للأستاذ محمد عبدالغنى حسن قال فيها:

"نشرت البرقيات الخاصة أسماء الفائزين الأول فى مسابقة الشعر العربى التى نظمتها محطة الإذاعة اللاسلكية فى لندن. واسم الفائز الأول فى موضوع نهضة الشباب هو "ابن العرائش". وليس "ابن العرائش" هذا اسمًا، ولكنه كنية اتخذها الشاعر الحقيقى. أما اسمه الكامل فهو "نجيب إليان" من أهالى زحلة التى خلدها المرحوم شوقى الشاعر بقصيدته الفاتنة. والأستاذ نجيب إليان يشغل الآن منصب مدير قلم المطبوعات اللبنانى. ولم أعثر له على ترجمة أو "لوحة أدبية فنية" فى كتاب "الرسوم" الذى ألفه الأديب اللبنانى المشهور إلياس أبو شبكة فلعل الأستاذ أبا شبكة يصور لنا صديقه الشاعر نجيب إليان فى صورة طريفة لمجلة "الرسالة" الغراء".

---

(١٣٢) نشرت فى "البلاغ" فى ١٢ سبتمبر سنة ١٩٤٣ (ص٤).

وقد علق الأستاذ أبو شبكة على هذه الكلمة بقوله إنه قد يكتب الترجمة المطلوبة ولكن ليس لمجلة الرسالة التي يجل صاحبها ويقدر أدبه ويعرف مكانته، كما يجله جميع أدباء لبنان الذين لا يعرفون للأدب حدوداً ولا مناطق. قال: "فالأديب اللبنانى أو بالأحرى الأديب الذى يعيش تحت سماء هذه البقعة الجميلة من الشرق ينظر إلى أخيه الأديب الذى يعيش فى مصر أو فى العراق أو فى فلسطين أو فى أية بقعة تنطق باللسان العربى نظرته إلى أخ تربطه به روابط اللغة والروح والمودة والعرف – روابط شعور واحد وهدف واحد. على أن الأديب المصرى لا يشعر نحو أخيه اللبنانى بمثل هذا الشعور. وهذه الحقيقة الموجعة يثبتها إهمال الصحافة المصرية بالإجمال للحركة الأدبية القائمة فيما يلى مصر من الأقطار العربية ولبنان منها بوجه خاص.. وقد لا أبالغ إذا قلت إنى لا أقع فى الصحف المصرية إلا فى القليل النادر على ذكر كتاب أصدره لبنانى فى لبنان".

هذا عتاب زميلنا الأستاذ أبو شبكة وليس يسع منصفًا إلا أن يعترف أنه على حق فيه، وأنه ما عدا الواقع ولا بالغ فيما قال. وقد يسره أن يعرف أن من الأدباء "الذين يعيشون فى مصر" – وأنا منهم – من يعتب هذا العتب على المصريين، ولست ألومه إذا كان يجهل ذلك فإن المسئول غيره. وآخر ما قلته فى هذا المعنى للمصريين، ولم يسمعه، أو لم يسمع به أحد، أحاديث ثلاثة سجلت فى مصر لتذاع من محطة الشرق الأدنى، تناولت فيها الأدب العربى فى مصر وفلسطين ولبنان، وكان العزم إذا أتيحت لى فرصة أخرى أن أتناول الأدب العربى فى سوريا والعراق والحجاز وبلاد المغرب، وقد قلت لمواطنى فى الحديث الأول ما معناه إن بلاد الشرق العربى لا تحتاج إلى تعريف بالأدب والأدباء فى مصر، ولكن مصر هى التى تحتاج إلى التعريف بالأدب فى البلدان العربية الأخرى.

وهذا هو الواقع، وإنى لأشهد أنى وجدت فى فلسطين ولبنان وسوريا والعراق والحجاز من يعرف عنى أكثر مما أعرف عن نفسى ومن يذكر بعض ما أنستنيه الأيام مما كنت نشرته قديمًا، ولو قلت إن بلاد الشرق العربى أعرف برجال مصر فى كل باب،

من المصريين أنفسهم، وأعلى بهم عيناً، وأشد تعظيماً لهم، لما جاوزت الصواب، ولا يصدق من يقول إن المصريين على العموم يتبعون الحركة الأدبية أو غيرها فى البلدان العربية الأخرى مثل هذا التتبع الدقيق.

على أنى أحسب أن أخانا الأستاذ أبو شبكة يوافقنا على أن التتبع الدقيق للحركات الأدبية مقصور فى كل أمة على الأدباء والمعنيين بالأدب ودرسه، فليس بمستغرب أن نجد مصريين من غير هؤلاء وأولئك يجهلون الأدب الحديث فى أقطار عربية أخرى. وقد يكون التفاوت الملحوظ فى مبلغ الإحاطة مسألة نسبية لا أكثر ولا أقل.

وأحسب كذلك أن أخانا الأستاذ أبو شبكة يوافقنا أيضاً على أن الحالة فى مصر تغيرت فى السنوات الأخيرة، وأن مصر اتجهت الوجهة التى ترضى إخواننا العرب جميعاً، وأن هذا الاتجاه الذى أعانت الأحوال عليه، وأشارت الحكمة به والذى جاء استجابة لهواتف الدم والميراث التاريخى المشترك، هذا الاتجاه سيفضى لا محالة إلى ما يبغى إخواننا الأدباء فى لبنان وغيره.

وقد سرنى قول الأستاذ أبو شبكة إن الأديب اللبنانى ينظر إلى الأديب المصرى أو العراقى أو الفلسطينى إلخ نظره إلى أخ تربطه به روابط اللغة والروح والمودة والعرف، ولا شك أن هذا هكذا، ولكنها على صدقها كلمة تستحق التسجيل، وعسى أن تكون هذه نظرة كل واحد - لا نظرة الأديب وحده - فى مصر ولبنان جميعاً.

وما أظن بأخينا الأستاذ أبو شبكة إلا أنه يأذن لى فى إنصاف قومى وبلادى بعد أن طال وكثر عتبى عليهم وعليها، فإن مصر الآن - حكومة وصحافة وشعباً - ترفع صوتها بمعنى هذه الكلمة التى جرى بها قلم الزميل الأديب، والتى لا يخالجنى شك فى أننا سنسمع مثلها قريباً فى لبنان كله، حكومة وصحافة وشعباً، ويومئذ يذكر للأستاذ أبو شبكة فضل جديد يضاف إلى فضله السابق الذى لا ينكره أو يجحده عارف به فيقال عنه إنه أول مثوب وأسبق مؤذن فى قومه بهذه الدعوة الصالحة الموفقة إن شاء الله.

أبو ذر الغفارى[١٣٣]

للأستاذ عبد الحميد السحار

(١)

أكتب هذا الفصل الوجيز من مكان ما، على ساحل بحر الروم، وكان العزم أن لا أتناول قلمًا أو أخط حرفًا أو أقرأ فى كتاب، فلما كان اليوم الثانى من مقامى فى هذا الموضع القصى الذى لا يختلف إليه أو يغشاه أحد من غير أهله الوادعين، ضجرت، ولم أعد أطيق هذا الجمود، وإن كان راحة إلى حين، فاستخرت الله وقطعت الراحة ومضيت فاشتريت طائفة صالحة من الكتب لولا الظلام المفروض ليلاً ولا حيلة فيه ولا مفر منه، لكانت حسبى عشرة أيام وزيادة. ولكن القراءة ليلاً والنوافذ مغلقة ليست مما يطاق على أنى عودت نفسى أن أرى الخيرة فى الواقع، وما دام مطلبى الراحة فليكن الليل وقتها، وفى هذا الكفاية والحمد لله.

ومن الكتب التى اشتريتها كتاب صغير فى مائتى صفحة أو تزيد ألفه الأستاذ عبد الحميد جودة السحار وأخرجته "لجنة النشر للجامعيين"، وهو ترجمة للصحابى المشهور أبى ذر الغفارى رضى الله عنه، وقد سماه "الاشتراكى الزاهد أبو ذر الغفارى صاحب رسول الله" ولجنة النشر للجامعيين لا تحتاج إلى تعريف بها فإن اسمها يدل عليها، وهى تخرج كل شهر كتابًا - بحثًا أو قصة أو غير ذلك - وبعض ما تنشر، لأعضائها،

---

(١٣٣) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ١٩ سبتمبر سنة ١٩٤٣ (ص٤).

والبعض لغيرهم، وليس مطلبها الربح. وإن كان من لا ينشد الربح يخشى أن يمنى بخسارة.

وهذه اللجنة ظاهرة أخرى من ظواهر ما يمكن أن نسميه "عصر الإحياء" ونعنى به عصرنا فى فترة هذه الحرب. ومن العسير علىّ، وليس تحت يدى شىء من المراجع فى هذه البقعة المنعزلة أن أحصى ما أخرجته المطابع حتى فى هذه السنة من الحرب. ولكنى أحسبنى غير مبالغ حين أقول إن الأقلام نشطت فى سنى الحرب. كما لم تنشط قلبها، أو على غير ما كان متوقعاً وعلى الرغم من ندرة الورق، وتعذر الحصول عليه إلا بأسعار خرج بها طلاب الربح الفاحش إلى الشطط والإعجاز، وهذا أثر من آثار الحرب، كان المنتظر خلافه، وكنت أحد الذين يقولون فى بداية الحرب إنه لا داعى للنشر الآن، فإنه عناء وكلفة باهظة، وكان ظنى أن القراء لن يقبلوا على اقتناء الكتب بالأثمان العالية التى تقتيضها كثرة التكاليف ولم أكن وحدى فى القول بإرجاء النشر إلى ما بعد الحرب، فإنى أعرف أن الدكتور زكى مبارك يذهب إلى هذا أيضاً، ولعل كثيرين غيره كانوا على هذا الرأى، ولم أكن أرجئ النشر وحده، بل كنت أقول إنه يحسن إرجاء الكتابة والتأليف كذلك، وكان باعثى على هذا أن هذه الحرب نار سبك فيها العالم سبكًا جديداً، ولا يستطيع أحد أن يدعى أنه يعرف على أية صورة جديدة سيخرج معدن العالم بعد هذا السبك الطويل، وكنت أقول للذين يحضوننى على الكتابة والتأليف إنى ضال لا يهتدى فقد قلبت هذه الحرب كل شىء وأورثتنى شكًا كبيراً فى كل رأى ومذهب، وكل ما نشأت عليه، وما ألفت أن آخذ به وأنا الآن أحس كأنى مخمور مدار به، ولا خير فيما يكتبه سكران مخلط، وإنما الخير أن ينتظر حتى يفيق، ولست أحب أن أتخلف عن زمنى، أو أن أتلكأ وراء الركب الذى يخب ويوضع، وأخشى إذا أنا كتبت الآن شيئًا أن يجىء وكأنه مكتوب قبل الطوفان، لفرط ما غيرت الدنيا من دنيانا، أو ما تؤذن بالتغيير فيها.

كان هذا ما أقول، وإذا بالتيار يجرفنى معه، ولكنه لم يحملنى على متنه بكرهى، فقد أدركت خطئى، وعرفت أن الحرب قد غيرت ما بنفسى وهى تغير ما بالدنيا، وإن كنت لم أفطن من قبل إلى ذلك، وكان خطأى أنى توهمت، لما شعرت برجة الحرب

وزلزلتها، إنى واقف أتفرج على الدنيا وأنظر إلى ما يجرى بها، وإن كل ما علىّ هو أن أراقب الأحداث والغير وافتح عينى على الاتجاهات الجديدة للآراء والمذاهب وما تجده الحرب للناس، وتؤدى إليه من تبدل فى التقاليد والعادات والنظم الاجتماعية وغير ذلك، ولم أكن أدرك أنى أيضًا أتغير شيئًا فشيئًا وإن كنت غير دار أو شاعر بما يحصل فى نفسى. ولولا أنى اعتدت أن أراجع نفسى وأقيم لها الميزان، وأدير عينى فى قلبى ورأسى - مجازًا كما لا أحتاج أن أقول - وأغوص وأنقب وأتقصى - أقول لولا أنى اعتدت ذلك لكان الأرجح أن أظل أتوهم أنى ما زلت كما كنت، وأنى لا أعدو موقف المتفرج المترقب لها لما عسى أن يكون، المتهيئ للحاق بالركب فى حيثما اتجه. فلما فطنت إلى خطئى شرعت القلم وذهبت أكتب، وتناولت ما كنت كتبت من قبل، وعالجته بالتغيير والتبديل حتى صار موافقًا لرأيى الحاضر.

على أن نشاط الأقلام فى هذا العهد ليس كله مما جاءت به أودعت إليه الحرب فقد بدأت مظاهره قبلها، أو لعل الأصح والأدق أن نقول إن الاتجاهات الحديثة فى التأليف بدأت قبل الحرب، ثم برزت وتأكدت فى أثنائها، وعسى أن يكون مما يغلطنا فى هذا الباب استغرابنا التوسع فى النشر فى إبان الحرب مع ندرة الورق وغلائه، ومن أجل هذا نتوهم أن النشر الآن فاق ما كان فى أيام السلم، ولعل الأمر على خلاف ذلك، أو لعل كل ما هناك أنه استمر على الرغم من العوائق والمصاعب، فكان العجب منه مدعاة للتهويل فى أمره.

وإنى أرجو بمشيئة الله أن أتناول كتاب أبى ذر فى الأسبوع المقبل بالبحث، فليس بين يدى هنا ما أرجع إليه الآن، ثم بعد ذلك أشرع بمعونة الله وتوفيقه فى بيان ما كان للحرب إلى الآن من أثر فى الأدب، على قدر ما أستطيع أن أتبين.

أبو ذر الغفاری[١٣٤]

للأستاذ عبد الحميد السحار

(٢)

هو كتاب نفيس على صغره، يعرف القارئ بشخصية صحابى زاهد جرىء لا يبالى فيما عرفه من الحق لومة لائم، وقد كفر بالأصنام قبل أن يؤمن بالنبى، وعرف الله بعقله قبل أن يعرفه من وحى الرسالة، ولازم النبى فى مجلسه وغزواته واقتدى به فى تقشفه وتقواه، وصار بعده يزجر الناس عن الكنز ويذمه، ويدعوهم إلى بذل المعروف ووصل ذوى القربى والإحسان إلى الجيرة والإخوان واتقاء الله فى كل حال، ويحمل على معاوية وهو على الشام حتى ضاق به صدراً فبعث به إلى عثمان فأخرجه إلى الربذة وأجرى عليه فيها عطاءً كافيًا فابتنى له مسجداً وظل يتعبد فيه ويعظ الناس حتى وافاه الأجل وصدق فيه قوله عليه الصلاة والسلام "يرحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده" أو كما قال.

وقد مهد الأستاذ عبد الحميد السحار مؤلف الكتاب لترجمة أبى ذر بفصل طويل فى الاشتراكية فى الإسلام تناول فيها بإيجاز شديد مذاهب الاقتصاد الحديث فى أوربا، واستطرد من هذا إلى بيان الفرق بين الاشتراكية فى الإسلام والاشتراكية الحديثة فى صورها المختلفة وتكلم على موارد بيت المال من خراج وجزية وزكاة وفىء وغنيمة وعشور، وكيف كانت تنفق الأموال، وبين أعطيات المسنين والمواليد من المرضى

---

(١٣٤) نشرت فى جريدة "البلاغ" فى ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٤٣ (ص٤).

والمتعطلين أو المتبطلين وغيرهم، وهو بحث أحسب أن القراء يوافقوننى على القول بأنه يجيء فى أوانه وهو لا يغنى عن سواه ولكنه يفتح الباب لاستيفاء الدرس وينبه الأذهان إلى إمكان الانتفاع بهذا النظام الحكيم الذى أوجده الإسلام.

أما القسم الأكبر من الكتاب فترجمته لأبى ذر، وهى قصة ممتعة وإن كان ينقصها الإشباع، وأكبر الظن أن الاضطرار إلى الاقتصار على عدد معين من الصفحات هو الذى جر هذا النقص.

وأستأذن المؤلف الفاضل فى ملاحظة: وتلك أنه كان يحسن أن يخلى كتابه من روايات غير صحيحة، مثال ذلك ما أورده من أن النبى عليه الصلاة والسلام أمر أبا ذر ذات ليلة أن يدعو إليه أصحابه ففعل ودخلوا على الرسول، وكانوا قرابة ثلاثين رجلاً فوضع لهم الرسول صحفة فيها صنيع من شعير ووضع يده عليها ودعاهم أن يأخذوا باسم الله، فأكلوا منها ما شاءوا ثم رفعوا أيديهم فكانت الصفحة حين فرغوا مثلها حين وضعت إلا أن فيها أثر أصابع – أى أنها لم تنقص شيئًا وظلت ممتلئة.

ولا أحتاج أن أقول إن النبى لم يكن نبيًا بمعجزات كهذه، وإنما كان نبيًا رسولاً بما بعثه به الله من دين الحق. والله تعالى يقول فى سورة الإسراء: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴾[١٣٥]. وفى سورة العنكبوت: ﴿ وَقَالُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[١٣٦]. وفى سورة الرعد: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾[١٣٧]. وفى سورة الإسراء أيضًا: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[١٣٨].

---

(١٣٥) الإسراء، ٥٩ .

(١٣٦) العنكبوت، ٥٠ .

(١٣٧) الرعد، ٧ .

(١٣٨) الإسراء، ٩٣ .

وفى الكتاب أيضًا أقوال معـزوة إلى النبى عليه الصلاة والسلام تروى، ولكنها غير ثابتة، والأرجح أنها غير صحيحة، مثل عدد الأنبياء وعدد الرسل الذين بعثوا وعدد الكتب التى أنزلت وما يجرى هذا المجرى والله تعالى يقول "ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل، ورسلاً لم نقصصهم عليك". وعندى أنه لو خلا الكتاب من هذه الروايات لما نقص شيئًا، بل لكان أحرى أن تزيد بذلك قيمته.

وفيما عدا ذلك أود أن أثنى على المؤلف الفاضل وكتابه وأحض على اقتنائه، فليس الخلفاء والولاة والقواد والملوك هم وحدهم الجديرين بالترجمة. ومما يضاعف فضل المؤلف أنه كما أسلفت، أثار بحثًا يحسن التوسع فيه لإمكان الانتفاع بما تخرج به منه فى هذا العصر التى تصطرع فيه المذاهب ويضطرب العالم اضطرابًا لم يسبق له نظير فى التاريخ، وقد أحوجت الحرب كل أمة إلى النظر فى شؤونها ومحاولة تنظيمها على نحو جديد يكون أعدل وأكفل بإزالة الفوارق الكبيرة بين الطبقات وتحرير الخلق من رق الفاقة والمرض والبطالة وما إلى ذلك.

وقد أخطأت فى الفصل السابق حين قلت إن لجنة النشر للجامعيين تخرج كل شهر كتابًا، والصواب أنها تنشر كل شهرين كتابًا، وقد أصدرت إلى الآن "أحمس" للأستاذ السحار أيضًا، و"رادوبيس" للأستاذ نجيب محفوظ، و"أبو ذر" رضى الله عنه وأرضاه.

وفقها الله وجزاها خيرًا.

فى عالم الكتب[١٣٩]

(١)

"سلامة القس"

للأستاذ على أحمد باكثير

(أخرجته لجنة النشر للجامعيين)

"سلامة" - بتشديد اللام - جارية مغنية كانت لرجل من أهل الورع فى مكة كره منها ولوعها بالغناء، فباعها على حب زوجته لها حبًا بلغ مرتبة التبنى وعزاها عن فقد بنيها، ففجعها ذلك فماتت، واشترى الجارية رجل ثرى كريم يحب الغناء والعزف، ويجتمع عنده الأدباء والشعراء من طلاب اللهو والشراب الذين ينتهبون العيش ويغتنمون فرص الحياة. فعلمها وأكرمها وأولاها عطفه ووده بل حبه، فبرعت فى الغناء، وأحبها وهى عنده القس، وبادلته هى حبًا بحب، وعرف الرجل ذلك فأراد أن يهبها له، فأبى القس ذلك. والجود يفقر كما يقول المتنبى[١٤٠]، فأخفق الرجل وأعسر بعد يسر فبيع ماله وفى جملته الجارية، قضاء لديونه التى ركبته. فاشتراها رجل من المدينة تاجر مولع بالغناء والعزف اتخذ من بصره بالغناء سببًا من أسباب التجارة،

(١٣٩) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٠ مارس سنة ١٩٤٤ (ص٤).

(١٤٠) يعنى قوله من "البسيط":

لولا المشقةُ سادَ الناسُ كلهُمُ   الجودُ يُفقرُ والإقدامُ قتالُ

فكان يبتاع الجوارى فيعلمهن الغناء حتى يبرعن فيه فيبيعهن بأثمان كبيرة ويربح فى ذلك ربحاً جزيلاً. وقد باع سلامة للخليفة الأموى فانقطع أمل القس.

والقس هو عبد الرحمن بن عبد الله بن أبى عمار، وهو شاب فقيه تقى ورع رقيق القلب دقيق الحس منقطع للعبادة عاكف على التحصيل حتى لقبه أهل مكة القس فغلب عليه هذا اللقب وأشتهر به، وصار له شأن على صغر سنه فكان الشيوخ لا يأنفون أن يرووا عنه أو يستفتونه، واتفق أن سمع غناء الجارية فصبا إلى الصوت وصاحبته، وقاوم صبوته ما استطاع فلم يفلح، ويسر له ابن سهيل الغنى الذى اشترى سلامة من الفقيه، رؤيتها وسماع غنائها، عطفًا منه وإيثارًا، فازداد القس شغفًا بالجارية وقامت بين نفسه الزاهدة ونفسه المتفتحة للحياة حرب ضروس شقى بها وسعد واشتهر خبره، ولهج به الجوارى والغلمان فى أزقة مكة، وأنطقه الحب بالشعر فكان يرسله على السجية غير متكلف فيقول:

قالوا أحب القس سلامة	وهو التقى الناسك الطاهر
كأنما لم يدر، قبلى، الهوى	إلا الغوى الفاتك الفاجر
يا قوم إنى بشر مثلكم	وفاطرى ربكم الفاطر
لى كبد تهفو كأكبادكم	ولى فؤاد مثلكم شاعر

وكان يقول فيها بشجوه وينشدها ما يقول فتصنع فيه صوتًا وتغنيه:

هواك يقارع التقوى بقلبى	فأشهد فيه حربهما سجالا
إلى تقواه جنبنى الضلالا	ألا يا ليت ربى إذ هدانى
وإلا فليرحنى من صلاحى	فإنى قد لقيت به النكالا

وأراد أن يشتريها فباع أرضًا له وعمل فى السوق ليربح ويدخر مالاً، فلما اجتمع عنده ما ظنه كافيًا، تقدم به إلى ابن سهيل، ولكن الجارية كانت قد بيعت لتاجر المدينة، فكاد ييأس، غير أنه مضى فى التجارة وفى مرجوه أن يربح منها ما يشترى به الجارية من ذلك التاجر، وقال يودعها أعذب شعر:

أقـول لقلبـي كلمـا زاد خـفـقـه	إلام يعـنيك الآسـى والتـذكـر ؟
تصبر ، فصاح القلب هبنى احتملته	بصبر ، فما يجدى على التصبر ؟
خذا الزاد، يا عينى، من حسن وجهها	فما لكما فيه سوى اليوم منظر
غـداً تتعبان الجيد طـول تلفت	فـيعيى ويطغى المدمع المتفجر
تريدان في وجه الحبيبة نظرة	ومن دون مـثـواها نجود وأغـور

وقد عرفت البقية – جمع مالاً، وقصد إلى المدينة فإذا بها قد صارت ملكًا لخليفة بنى أمية! فصار عزاؤه أنها له إن شاء الله فى الآخرة!

والقصة مكتوبة بلغة رفيعة، تتدفق تدفقًا سلسًا فى متانة أسر، وحسن بيان وإشراق ديباجة، وسهولة نادرة. وكاتبها هو الشاعر الأديب الأستاذ على أحمد باكثير، وقد نالت قصته هذه قبل نشرها فى كتاب، جائزة السيدة قوت القلوب الدمرداشية، وكان فوزها بالجائزة عدلاً وحقًا.

والأستاذ على أحمد باكثير جم التواضع دمث الأخلاق، سهل الطباع، هادئ ساكن، وكذلك شعره ونثره – كالجدول الرقراق الصافى العذب، وهو لا يتكلف لا فى حياته ولا فى شعره أو نثره، فكل ما يجرى به قلمه وصورة من نفسه، وقد نشر من قبل ديوان شعر، وترجم لشكسبير، وتوخى فى الترجمة بحراً مأنوسًا سلس الجرى. وهو طويل الصبر على القراءة والاطلاع والتحصيل، فى الأدبين العربى والغربى، ومن حقه أن يعرف له أهل الأدب حقه وفضله وأن ينزلوه منزلته وإنها لكبيرة، وإنه هو لأوسع أفقًا وأكبر همة وأخصب نفسًا من أن يغره الثناء، زاده الله فضلاً على فضل.

(٢)

الشوامخ: امرؤ القيس

للدكتور محمد صبرى

الدكتور محمد صبرى مؤرخ محقق، وقد انقطع للتاريخ زمنًا، ثم عاد إلى الأدب "يقف فى ظله ساعة وقفة السائح المهجر"، وكانت ثمرة إحدى هذه الوقفات رسالة فى نيف ومائة صفحة تناول فيها امرأ القيس بالبحث والدرس والتحليل، حاول فيها إظهار شخصيته على نحو يكشف "عن الصلة التى تربط بينه وبين صحراء العرب وجاهليتها وشعرها، والصلة التى تربط بينه وبين شعراء الإفرنج الذين ملأوا الدنيا تغريدًا، وهفوا على كل أيكة وفنن، وأصبح تطريبهم سلوة المحزون وعزاء الإنسانية البائسة وراحة المتعب، ونفثة المصدور".

فأما الصلة بينه وبين الصحراء التى أنجبته فقد بينها بشرحه لشعره فى مواضع شتى وللصور فيه خاصة، وأما الصلة بينه وبين شعراء الإفرنج، فلا ندرى لماذا خص الإفرنج بالذكر دون غيرهم من شعراء الغرب، وعلى أنا لم نجد فى كتابه القيم ما يجلو هذه الصلة التى آثرها بالنص عليها ولعله تركها تستبين من تلقاء نفسها للعارفين بالشعر الإفرنجى، عن طريق البيان الذى ساقه فى معارض كلامه على الشاعر.

وقد اشتمل الكتاب على فصول، منها فصل فى حياة الشاعر وشخصيته، وآخر فى رأى المتقدمين فيه، وثالث فى التمثيل والتصوير فى شعره، ورابع فى الحب والتشبب، ثم خامس فى الصناعة والبيان.

ومن هذا الإجمال لفصول الكتاب تعرف نهج الكاتب. ولم يكن له بد من الاعتماد على أخبار الشاعر التى بقيت لنا فى الكتب القديمة. وهى قليلة لا تكفى من يحاول أن يترجم له ترجمة دقيقة أو وافية، وقد ساقها الدكتور صبرى على وجهها مع بعض تحقيقات هنا وهنا مثل نفيه أن جبل عسيب الذى أشر إليه الشاعر فى قوله (وإنى مقيم ما أقام عسيب) بالقرب من أنقره، وتصحيحه ذلك بقوله إنه جبل فى نجد.

وخير ما فى الكتاب أنه عنى بإبراز ملكة امرئ القيس التصويرية ودقة ملاحظته لكل ما جل ودق مما تأخذه العين، وقوة انطباع الصورة فى ذهنه وأثر ذلك فى شعره، وقد أورد لذلك أمثلة كثيرة وشواهد عدة، جعلت الفصل الذى عقده لها من خير ما كتب فى هذا الباب وأجمعه.

ولكنا نستأذنه فى القول إنه لا يقتصد فى تقرير الآراء والأحكام، وإنه يغلو بعض الشىء، مثال ذلك قوله: "إن معلقة امرئ القيس تقف بين المعلقات الأخرى وقوف البناء المشمخر بين الأبنية الصغرى" وقد أنصف امرأ القيس، ولكنه غمط زملاءه غمطًا شديداً.

ومثال ذلك أيضاً أنه يورد أبياتًا منحولة لامرئ القيس ثم يقرر أنها له حقًا وصدقًا، وكل دليله على ذلك "أنه من تذكر الطفولة وبلهنية العيش، شأنه فى ذلك شأن الإفرنج وبعض المعاصرين" وليس هذا بدليل كما هو ظاهر.

ومثاله أيضًا، وقد عرض ذكر كتاب "الأيام" للدكتور طه حسين "فسيبقى هذا الكتاب مفخرة الجيل"، وقد يكون هذا أو لا يكون، ولكن ماذا يمنع أن يكتب طه ما هو خير منه وأولى بأن يكون مفخرة لصاحبه أو للجيل؟ ولماذا يحكم على الكاتب بالعقم من الآن أو بعد هذا الكتاب؟

ومن أحكامه التى لا تخلو من شطط أو قلة تدقيق قوله: "لا نرى بدأ من القول إن الأدب العربى منذ نشأته إلى اليوم كان يتنازعه عاملان: عامل الحقيقة وعامل الخيال". وما نظن إلا أن هذا من البدائه وإلا أنه شأن كل أدب عربيًا كان أو غير عربى.

ثم يقول فى عقب هذه البديهة وقد كان انتصار الثانى على الأول (أى انتصار الخيال) من أكبر الأسباب التى حالت دون بلوغه الدرجة التى كان خليقًا بها، فإذا رثى الشاعر رجلاً جعل الجبال تميد جزعًا، والسماء تضطرب حزنًا، وإذا مدح إنسانًا أو وصفه كان وصفه كله على سبيل المبالغة والتعميم بحيث يصبح كالثوب المأجور يصلح لكل أحد، ورثاء البكرى لنابليون فى صهاريجه لا يخرج عن هذا النوع". وظاهر جداً أنه كان، وهو يقول ذلك، يفكر فى شعر المتأخرين والمقلدين والعابثين، دون الفحول المخلصين

من الشعراء، وعلى أنا لا ندرى كيف كان يمكن أن يبلغ الأدب العربى (الدرجة التى كان خليقًا بها) بغير الخيال؟؟

وقد سلم الكاتب الفاضل بكل ما رواه العرب - من أخبار امرئ القيس فى بلاده وفى بلاد الروم وما كان من أمره مع القيصر، وما نظن إلا أن فى هذه الروايات مواضع للنظر وأنها كانت تستحق شيئًا من الغربلة والنخل.

وخلاصة القول إن هذا الكتاب لا جديد فيه عن حياة امرئ القيس وأخباره المروية فى كتب العرب، وإنه يغبن غير امرئ القيس من الشعراء الجاهليين مثل تأبط شرًا والشنفرى وزهير والنابغة والأعشى ولكل من هؤلاء وغيرهم مزيته وأثره فى الشعر العربى بعد ذلك ولكنه ينصف امرأ القيس وملكة الوصف والتصوير عنده.

(٣)

الفلاحون

للدكتور الأب عيروط اليسوعى

نقله إلى العربية الدكتور محمد غلاب

هو كتاب من أنفس ما قرأنا وموضوعه الفلاحون المصريون، وقد كتبه مؤلفه الفاضل الدكتور هنرى عيروط بالفرنسية فلقى استحسانًا عظيمًا فى أوربا كلها وأمريكا ولبنان، ثم فى مصر، ووصف هناك بأنه "كتاب أساسى"، وبأنه "لا غنى بمصرى عن مطالعته"، وبأنه "يجب أن يذاع فى كل مكان كالبذرة الطيبة"، وتوقع الناقدون أن تكون له "نتيجة عظيمة تلفت الأنظار".

والحقيقة أنه جدير بكل هذا الثناء، وقد أحسن الدكتور غلاب بترجمته واستحق على ذلك الشكر.

وقد وصف الدكتور عيروط فيه، بعد المقدمات التى لابد منها فى مثل هذا البحث، عمل الفلاح وأنواع عمله وكيف يجنى ثمار الأرض، وحالات العمل وحياة الفلاح ومسكنه ومطعمه وملبسه، والقرية والجماعة فيها والأسرة والتقاليد الريفية ونفس الفلاح وتطوره وبؤسه، والعادات والأخلاق فى المسرات والأحزان. فهو كتاب جامع تجىء ترجمته فى أوانها فإن معظم أهل مصر فلاحون، ولكن أهل المدن الكبرى قلما يعرفون الأحوال الحقيقية فى الريف فهذا كتاب يعرفهم بها على أصح وجه وأدق صورة بروح علمية نزيهة وبقلم يؤثر القصد ويتوخى الحق. ومن حقه على كل مصرى بعيد النظر أن يقرأه ويشكر لصاحبه جهده.

ولا يسعنا إلا أن نلاحظ أن الترجمة لا تخلو من ركاكة مستغربة من مثل الدكتور غلاب وغموض فى مواضع. ولعل ذلك راجع إلى شدة الحرص على الأمانة فى النقل والمحافظة على الأصل، والله أعلم.

فى عالم الكتب[١٤١]

(١)

أعلام الإسلام
ابن العاص للأستاذ عباس محمود العقاد

شرعت لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية فى إصدار سلسلة شهرية من الكتب عن "أعلام الإسلام" مساهمة منها، كما قالت، فى تجديد شباب النهضة العربية ، وبعث مجدها وربط صلاتها فى الزمان والمكان، وافتتحتها بكتاب جليل فى "ابن العاص" لصديقنا الأستاذ العقاد ، فكانت فاتحة موفقة تربط تاريخ مصر الإسلامية بسير هؤلاء الأعلام.

وكتاب الأستاذ العقاد فى عمرو بن العاص، على نسق العبقريات التى أخرج منها إلى الآن طائفة كبيرة صالحة، وإن كان لم يلحقه بها فى العنوان، كما لم يلحق بها كتابه فى "الصديقة بنت الصديق" ، وليس معنى ذلك أنه لا يرى له عبقرية، فقد وصفه بها فى غير موضع من الكتاب فقال مثلاً: "ونظن أن لو تكلم العرب باصطلاح هذه الأيام لقالوا إن حيلة عمرو هى حيلة العبقرية المطاعة التى تتفق له من حيث يعلم ولا يعلم، ورأيتها أنها عبقرية معبرة تلهم الخاطر السريع، وتلهم التعبير عنه فى كلم وجيز،

(١٤١) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٧ مارس سنة ١٩٤٤ (ص٤).

وهذه هى العبقرية التى يختلط أمرها أحيانًا على من يراقبونها فيتهمونها بالطياشة ويرمونها بدفعة التهور لأنهم يسلسلون أسبابهم فى بطء وتثاقل وهى تسلسل أسبابها فى سرعة وخفة فيبدو لها ما يظل خافيًا عليهم ملتبسًا فى أعينهم ولولا أنها واضحة عند صاحبها كل الوضوح لما تسنى له التعبير عنها بأسلوب يلائم ومضاتها فى السرعة والنفاذ". وما نظن أنه اتقى وصفه بالعبقرى فى العنوان إلا لأن هذه سلسلة يخرجها سواه وإن كانت قد جاءت بسبيل من أبحاثه.

وقد بيَّن فى هذا الكتاب نشأة عمرو، وألم بصفاته وطباعه وتتبع الأعمال الصادرة عنها، ووصف حياته فى الجاهلية والإسلام، وما قام به مما عهد فيه إليه، من الفتوح الإسلامية، وموقفه من الخلاف بين على ومعاوية، ثم اتفاقه مع معاوية وفتحه مصر مرة ثانية وتقلده ولايتها إلى أن وافاه حينه. وختم الكتاب بطرف من كلامه الذى يدل عليه، ويشبه ما أثر عن خلقه ونسق تفكيره.

والعقاد فى كتابه الجديد هو العقاد فى كل ما يجرى به قلمه، نصاعة بيان، وعلو لسان، وقوة حجة، وعمق غوص، ودقة تحليل، وإصابة محز، وسعة أفق. يقول فى وصف الحكومة التى كانت لبنى سهم فى الجاهلية بعد أن قاسها لى بعض ما ندب إليه ابن العاص:

"ليست حكومة القهر والإكراه على أية حال بالحكومة التى كان العرب يرتضونها ويسعون إليها، فهم إذا لجأوا على الحكم لم يلجأوا إليه ؛ لأنهم ينتظرون منه أن يقهرهم على سماع حكمه ويلزمهم أن يتبعوه فى قوله وفعله، بل لعلهم يتعمدون أن يختاروا لحكومتهم رجلاً لا يخشى ولا يهاب ولا يقع العار على من يخضع له بالخوف والإذعان، فإذا أطاعوه قيل إنهم يطيعون كلمتهم وينزلون باختيارهم على الحكم الذى ارتضوه، ولم يقل قائل إنهم مطيعون عن ذلة ومستمعون لأمرهم مسوقون إلى استماعه. فالحكم الذى يختارونه - على هذا - إنما يكون على خصلة من خصلتين: رجل يأنسون إلى عدله وإنصافه أو رجل يأنسون إلى لباقته وحيلته وحسن بصره بمواقع الأهواء، وذرائع الإرضاء".

ويقول عن "عمرو" إن فى أخلاقه "عقدة نفسية لا تفتأ تصادفنا عند المقابلة بين نقائضه". ويمضى فيبين كيف أن حذره الشديد واندفاعه الشديد أو ضبط نفسه كأنه لا يعرف جمحات الشعور، ومجازفته كأنه لا يعرف الروية لا تناقض بينهما إلا فى الظاهر لأن قوة الطموح تفسر هذا التناقض، وترده إلى ينبوع واحد ؛ "إذ إن هذه القوة الطامحة لا تزال محضرة له الأمل شاخصًا باهرًا نصب عينيه ، فيهون عليه أن يكبح شعوره الجامح فى سبيل الوصول إلى أمله العظيم، أو فى سبيل المحافظة عليه بعد الوصول إليه، ثم يثقل الكبح على هذا الطماح – لقوته – فيلتمس الروح منه والمنفس من قيده بالمجازفة كما يتوق الصائم إلى العيد، والفرس الملجم إلى المراح. فساعة المجازفة هى ساعة التسريح من القيد، وهى ألزم له من حالة التوسط التى لا قيد فيها ولا انطلاق".

وقال فى وصف الصلة بين عمرو ومعاوية: "ولكنهما رجلان طموحان أريبان، مثلهما لا يعادى إذا كان له فى الصداقة نفع، ولا يصادق إذا لم يكن له فى الصداقة أرب، وإن أقرب الناس عندهما لوشيك أن يقصى إذا أقصته المنفعة، وإن أقصاهم لوشيك أن يستدنى إذا كان فى بعده ضرر، فهما ملتقيان على تفاهم صريح بلسان المقال أو صريح بلسان الحال". "وقد أعانت على هذا الاتفاق (بين عمرو ومعاوية) أمور كثيرة أهمها أمران: وهما أن عمرًا لم يكن على أمل فى ناحية أخرى ، فإذا فسد الأمر على معاوية فسد الأمر عليه. وأن معاوية كان يعلم أنه يساوم شيخًا يدلف إلى الثمانين ويوشك أن يودع دنياه، فما ربحه منه فهو دائم له، وما خسره فى مرضاته صائر إليه".

وقد اقتطفنا هذه العبارات على سبيل التمثيل لنهج الأستاذ العقاد فى النظر، وفيما سقناه الكفاية لهذا الغرض ، ولست أجد ما أقوله فى الكتاب غير الثناء ، وإنى ما أسفت إلا حين فرغت منه وطويته، فليته ما كان له آخر.

(٢)

فيض الخاطر للأستاذ أحمد أمين بك

هو الجزء الخامس من مجموع مقالاته في الأدب والاجتماع. ويقع في ٣٣٠ صفحة من القطع الكبير على ما يصح أن نسميه "ورق الحرب" ولكن حسن بطبع يعوض ذلك وقد قرأته كله في ليلة واحدة فما زدت إلا اقتناعاً بأن الأستاذ أحمد أمين بك هو أحق من يقال فيه إنه "معلم الجيل"، ولا يحسب أحد أني أعني أنه يتناول موضوعات مدرسية، أو تعليمية، وإنما أعني أن روحه روح المعلم وغايته الإفادة والتثقيف ، وأن سبيله التيسير والتقريب والتبسيط، وأن إرادة الخير في نفسه قوية ، وأنه إلى هذا جم التواضع، سمح النفس رضى الطبع طويل الأناة واسع الحلم لا يحمل حقداً ولا يطوى أضلاعه على ضغينة، ولا تسوده المنافسة، ومن كان هكذا فهو المعلم الحق ولو لم يلق في حياته درساً واحداً.

وفي هذا الجزء الضخم من "فيض الخاطر" سحائب منه "أعقبت بسحائب" ، فمن خطرات في اللغة إلى تساؤل عن الغاية في الحياة، ومن فصل في الحياة الروحية إلى آخر في صعلكة عروة بن الورد، ومن نظرة في الإنسان الكامل أو السوبرمان إلى أخرى في أخلاق الطفولة وأخلاق الرجولة ثم طائفة من الدراسات القيمة لزعماء الاصلاح الإسلامي في العصر الحديث مثل محمد بن عبد الوهاب ومدحت باشا والسيد جمال الدين الأفغاني والسيد أحمد خان والسيد أمير علي.

وذلك كله بأسلوب سلس ينحدر كالجدول الرقراق، وبيان مشرق، وديباجة صافية لا يشوهها التكلف أو التظاهر، ولغة غايتها الإفهام والتوضيح والتسهيل، لا التعقيد والتصعيب، لأنها لغة رجل يرسل نفسه على السجية، وتأبى له صحة إدراكه وإرادة الخير والنفع أن يتعمل ويغرب، ولو شاء لفعل، فما عن عجز يؤثر السهولة، بل عن فهم صحيح لوظيفة اللغة.

"رسالة الغفران" منقولة إلى الإنجليزية[١٤٢]

بقلم G. Brackenbury

(١٥٩ص، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، ١٩٤٣)[١٤٣]

قرأت هذه "الرسالة" فذهبت أفكر فى ترجمة الأدب من لغة إلى لغة كيف ينبغى أن تكون؟ أنجعلها حرفية دقيقة بغير نظر إلى ما بين اللغات من فرق فى الذوق، وطريقة تأليف الكلام "على المعانى النحو" كما يقول الجرجانى، وما بين أبنائها من اختلاف فى أساليب التفكير والتناول؟ إن الأمانة تقتضى هذا، ولكن الأمانة لا تهون فى كل حال، ولاسيما إذا عظم الاختلاف بين لغتين كالعربية والإنجليزية، وبعدت مسافة الزمن بين العصر الذى ننقل منه والعصر الذى ننقل إليه، فكان لهذا أثره حتى فى الأجيال المتعاقبة من أمة واحدة، فما ظنك بأمتين، غربية حديثة، وشرقية قديمة؟ أم نتصرف كما تصرف فتزجرلد حين نقل "رباعيات الخيام" من الفارسية إلى الإنكليزية فطرح الثوب وتحفظ بالروح ونظم معانيها شعراً انجليزيًا سلسًا يطيب وروده على الأذن ولا تنفر منه أذواق قومه؟ وليس لى علم بالفارسية، غير أنى قرأت ترجمات عربية شتى لهذه الرباعيات عن الفارسية، بعضها منثور والبعض منظوم، قيل فى وصفها إنها حرفية، وأنا أفضل ترجمة فتزجرلد ولا أعدل بها شيئًا، لأنها شعر استطاع قائله - ولا أقول مترجمه - أن يكسبه جمالاً ويجعل له سحراً. ولكن هذه لا تعد ترجمة بالمعنى الصحيح، وأصدق ما يقال فيها - فى رأيى - إن فتزجرلد استوحى معانيها من الخيام، ولم يتقيد بالأصل، بل أرسل نفسه وهو ينظمها على سجيته وسجية قومه.

---

(١٤٢) نشرت فى "المقتطف" فى إبريل سنة ١٩٤٤ (ص ٤٠١ - ٤٠٤).

(١٤٣) رتبت أسامى الكتب على حروف الهجاء (المقتطف أو المازنى).

ويقول بيتس E.S.B.Bates في كتابه "دراسات فى الترجمة"(١٤٤) ما معناه أن الترجمة الأدبية لا ينبغى أن تقتصر على أداء المعنى فحسب، بل يجب أيضًا أن تنقل روحه إلى القارئ، وأن لا تكون فى ثوبها المستعار أقل روعة أو جمالاً أو قوة منها فى ثوبها الأصلى.

ويذهب تتلر A.F.Tytler(١٤٥) إلى أن الترجمة ينبغى أولاً أن تكون دقيقة الأداء للمعانى التى فى الأصل، وثانيًا أن يكون للأسلوب وطريقة الأداء الطابع نفسه الذى للأصل، وثالثًا أن يكون للترجمة كل ما للأصل من سهولة التأليف وسلاسة الإنشاء، ولكنه يجيز بعض التصرف فى الشعر، لأن روح الشعر ألطف من أن يحتمل الالتزام الدقيق للأصل، وأخلق به أن "يتبخر" إذا بالغ المترجم بالتقيد.

وأحسب أن من العسير فرض قانون يلتزمه كل مترجم فى كل حال، أو وضع قاعدة لا يتزحزح عنها مقدار شعرة، ولكن من المسلم فيما أرى أن الأمانة شرط لا معدى عنه، وليست الأمانة أن تؤدى المعنى وحده، بل ينبغى كذلك أن تحرص على "شخصية" الكاتب. وإذا قلت الشخصية فقد قلت الأسلوب، وطريقة تناول الموضوع، وعرضه، والنهج الخاص فى تأليف الكلام، فإن المعنى الواحد يكتبه رجلان، فيكون بينهما تفاوت، ويوجهه كل منهما وجهته له ينظر له من ناحية غير صاحبه، ويخلطه فى نفسه بغير ما يخلطه ذاك، ويزاوج بينه وبين ما عنده، ويولد من هذا التزاوج آخر قد يجىء مختلفًا جدًا على الرغم من التشابه العام، كما يتشابه الشقيقان، وهما بعدُ اثنان متميزان.

* * *

"ورسالة الغفران" التى ساقتنا إلى هذا الحديث، هى، كما يعرف القارئ لأبى

---

(١٤٤) "Intertraffic, Studies in Translation" .

العلاء المعرى. وسبب كتابتها أن ابن القارح حُمِّل رسالة إليه، فأضاعها، فكتب إليه يعتذر ، وتكلف في اعتذاره أن يُظهر علمه وفضله وأدبه، فرد عليه أبو العلاء برسالة الغفران وقابل ما تكلف من العلم بمثله فأغرقه في بحر من علمه بالأدب ونقده الشعر، وأحاط ذلك بإطار من الفكاهة، وتخيل ابن القارح في الجنة يطوف بها ويرى ويسمع إلى آخر ذلك.

وكان الأستاذ كامل الكيلانى قد نشر "مختصراً" لهذه الرسالة. احتفظ فيه بإطار القصة، ولم يستبق من غيرها إلا ما لا غنى عنه للسياق، فيسر قراءَتها للقارئ العادى الذى لا يعنيه التوفر على الدرس والتحصيل.

وقد نقل المستر ج. براكنبرى هذا المختصر إلى اللغة الإنجليزية، نقلاً حرفياً فى الأغلب، ولم ينبه إلى أن هذه ترجمة المختصر لا الأصل، فالقارئ الإنجليزى الذى لا يعرف ذلك قد يذهب إلى رأى فى المعرى لا مسوغ له فى الحقيقة ؛ لأن ما حذف من العناصر الأدبية واللغوية فى المختصر كثير والباقى لا يكفى للتعريف بما قصد إليه أبو العلاء.

ومما يلاحظ أيضًا أن المترجم استعمل الفعل الماضى من البداية إلى النهاية كأنما كانت الرسالة رواية لما كان، على حين حرص أبو العلاء على أن يعرض على القارئ صورة تهكمية لرحلة متخيلة لابن القارح فى الآخرة.

والترجمة، كما قلنا، حرفية على العموم، وصحيحة أيضًا. وقد تصرف الأستاذ فى بعض المواضع - ولاسيما فى ترجمة الشعر - تصرفًا لا يعاب، ولكنه وقع فى طائفة من الهنات يحسن التنبيه إليها. فقد ترجم هذا البيت:

وإن صخراً لتأتمّ الهداة به   كأنهُ علم فى رأسه نار

هكذا:

Let Sakhr be a guide and a leader outstanding!

أى "فليكن صخراً ... "

ثم ترجم:

أفنى تلادى وما جمعت من نشب   قرعُ القوازيز أفواهُ الأباريق

بقوله:

All the wealth I have hoarded up
Is nought to the clink of the brimning cup
That rings on the edge of the wine-jar's lip

ومعنى ترجمته: "إن كل ما جمعت من ثروة لا يعدل قرع..."

ثم ترجم:

إن الثراء هو الخلود، وإن   المرء يكرب يومه العُدمُ

بقوله:

The only wealth is the life to come
She says "though man be near his end"

فترجم "الخلود" "بالحياة الآخرة"، وحسب العُدم - وهو الفقر - العَدَم أى الفناء فغير المعنى كله.

ثم ترجم:

كأنَّ المدام وصوب الغمام   وريحَ الخزامى ونشر القطر
يُعل به بردُ أنيابها   إذا غرد الطائر المستحر

Like wine and rain and perfumed flow'rs
And scented sap - as healing balm
Flows out the nectar from her mouth
The while the bird in tones its lay

And fills the air with magic sound

وفيه قلبٌ لمعنى "يعل به برد أنيابها"

ثم ترجم البيت الثانى على لسان جنّى:

فتــارة أنا صـــــل فى نكـــارته   وربما أبصـــرتنى العـين عصفـــورا

نلوح للأنس حُولاً أو ذوى عَورٍ   ولم تكـــن قـط لا حــولاً ولا عـورا

فقال:

I look at times a horrid serpent's form
Or now a bird's - or did a man deform

or losse one seeing eye،To make him squint

والمعنى هنا مقلوب ، فإن الجنى يقول إنه هو الذى يبدو لبنى آدم أحيانًا أحول أو أعور، ولكن الناس صاروا هم الحول أو العور فى الترجمة. أما الشطر الثانى من البيت الثانى فقد حذف كله. وفى ترتيب أبيات الجنى خطأ (ص١١١-١١٣) وهو مطبعى على الأرجح، لم نجد ترجمة الأبيات الثلاثة الأخيرة منها.

وهذه كلها هنات وقليلة، لا تغض من قيمة الترجمة ومجهود المستر براكنبرى فيها. وليس لنا، أن نقول شيئًا فى لغته فإن الرأى فيها لقومه دوننا، فهم أعرف بها وأقدر على الحكم عليها وتذوقها.

وما أظن إلا أن القارئ قد أدرك أنا كنا نؤثر أن يترجم النص الكامل للرسالة لا المختصر، وإن كنا لا يسعنا إلا أن نعترف بأن النص الكامل كان خليقًا أن ينفر القارئ الإنجليزى ويتعبه. ولكن التعب الحاصل على الحالين، فإن المختصر نفسه لا يوائم ذوق الغربى، ولا يجرى على ما ألف، ولما كان الغرض من الترجمة أن يطلع الإنجليز على مثال من الأدب العربى، فقد كان الانصاف يقتضى أن يُعرض على أصله وحقيقته، غير مبتور أو منقوص. وليس الحذف من عمل المستر براكنبرى، فما عدا أن

نقل المختصر المنشور، بأمانة ودقة، فلا لوم عليه، وإنهُ لمشكور على مجهوده الذى لا نشك فى أنه سيفوز من قومه بحقه من التقدير.

الأدب والسينما:

"رصاصة فى القلب" للأستاذ توفيق الحكيم[١٤٦]

صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم أديب له موضعه بين زملائه غير مدافع عنه ولا مستكثر عليه، وفنه القصة.. القصة المروية وتلك التى تساق حواراً بين أشخاصها وتسمى المسرحية أو التمثيلية حتى ولو كانت مما لا يسهل تمثيله. وله فيها ملكة لا تنكر، ولكنه إلى الضرب الثانى منها أميل، وعليه أقدر، وإن كان لا يعبأ بالضرب الآخر. ولعل إيثاره للمسرحية راجع إلى أنه يحسن أن يجعل أشخاص القصة يعرضون أنفسهم بسلوكهم دون أن يحتاج هو إلى بيان أو وصف أو تحليل وكل امرئ ميسر لما خلق له، فتوفيق الحكيم كاتب مسرحى أولاً ثم قاص ثانيًا وليس هذا بالذى يغض من قدره، فما يطالب أحد بأن يحسن كل فن، وأن يدخل دخولاً ثابتًا فى كل باب. ولمن يجيد فنًا واحداً خير ممن يعالج كل فن بغير إجادة فى واحد منها. وليست العبرة بكثرة التناول بل بحسنه والحذق فيه.

وليس لصديقى الحكيم عيب، فيما أرى سوى قلة عنايته بالتوفر على درس الأدب العربى، ولست أزعم أنه لا يقرأ من الأدب العربى شيئًا، والعياذ بالله، فإن هذا يكون شططًا لا يغتفر ولا يقبل ولا يعقل، وإنما أقول إنه لا يعنى به كعنايته بالأدب الغربى من فرنسى على الخصوص، وإنجليزى وألمانى وروسى على العموم. وتجالسه وتحادثه فيفيض فى كلامه عن الأدب الغربى ورجاله إفاضة عالم راسخ، ولكنه لا يسعه إذا دار الكلام على الأدب العربى إلا حسن الإصغاء والاستعداد الجميل للموافقة. وليعذرنى

---

(١٤٦) نشرت فى "البلاغ" فى ٢ إبريل سنة ١٩٤٤ (ص ٤).

صديقي فما أريد أن أغمره أو أبسط فيه لساني أو أشهر به، وإنما أبغي له منزلة أسمى وأرفع وأثبت من التي بلغها على سموها، ولو كان يكتب بغير العربية لما كان لنا عليه من سبيل، ولكن العربية لغته وأداته، ومن أولى من الأديب بأن يحيط أوفى إحاطة بأدب لغته؟ وإنه لخليق إذا عكف عليها كعكوفه على الأدب الغربي أن يقع فيها على كثير مما يصلح أن يكون مادة لفنه البارع. وهنا موضع [للتحرز]من خطأ قد يقع فيه القارئ، أو وهم يركبه، فلست أقول إن صديقي الحكيم لا يحسن العربية، أو أن لغته ركيكة أو واهية البناء، فما إلى شيء من هذا أقصد، وإنما أنا أستزيد من الاطلاع على أدب لغتنا. وإنه ليقرأ، ولكن ما يقرأ لا يبلغ في رأيي الحد الكافي أو الواجب، ولا يعادل ما يقرأ باللغة الفرنسية.

وأحسب أن علة ذلك أن الاطلاع على الأدب الغربي أيسر مطلبًا وأسهل منالاً، وعسير على من يسبق درسه للأدب الغربي [...][١٤٧] أن يروض نفسه على الصبر الكافي على أدبنا القديم، وقد يكون الأرشد أن يبدأ المرء منا بالأدب العربي فيتعلم الصبر ويستفيد الجلد ويعتاد ذلك فلا يزهده فيه ما يعانيه من مشقة المغاص في لججه المضطربة. وقد كان رأيي وما زال أن أسلوب التعليم العتيق في الأزهر - على سوئه - كان يكسب الطلبة جلداً واحتمالاً لا يستفيدهما طالب العلم في الأزهر أو غيره من معاهدنا من أساليب التعليم التي يراعى فيها الترفق والتهوين. ولهذا كان الأزهريون السابقون أصلب عوداً، وألح، وألج، وأكثر مثابرة، ولست أريد أن أفضل الأساليب العتيقة، ولكن هذه كانت مزيتها، وما من شيء إلا وله مزية وفيه خير.

وأخالف صديقي الحكيم في أمر آخر - هو أنه يكتب بعض قصصه باللغة العامية، وأنا لا أدري لهذه اللغة العامية فضلاً أو مزية أو ثباتًا، أو ضابطًا أو استقراراً، وكل مزيتها أنها أشيع، وأن الناس عنها أفهم، ولكنا نرى العامة يستمعون إلى القرآن الكريم فيفهمون منه ما يكفي، وما لا يفهم أكثر منه إلا العلماء، وهم قلة على كل حال، ونراهم يسمعون الخطب باللغة الفصحى، ويشهدون تمثيل الروايات المكتوبة بها، فلا يفوتهم شيء منها، وتقرأ على الأميين منهم الصحف والمجلات

(١٤٧) كلمة غير واضحة في الأصل (المحرر).

فيفهمون المراد، ولو كان للعامية جمال تنفرد به دون الفصحى، لقلنا حبًا وكرامة، ولو كنا نفكر بهذه العامية لقلنا إن من يفكر بها معذور إذا هو يكتب بها. ولو كانت الكتابة بلغة صحيحة سهلة، لا تتأتى ولا تتيسر لكان للعامية ما يسوغ الالتجاء إليها. على أنى أرى أن الصديق قد كف فى السنوات الأخيرة على اتخاذ العامية أداة لفنه، وحسنًا فعل. فإن لأسلوبه العربى لجمالاً ورشاقة وحلاوة وطلاوة.

ومن قصصه التى كتبها بالعامية "رصاصة فى القلب" وفيها تتمثل براعته المألوفة وحذقه المعهود، وموهبته التى لا ينكرها إلا مكابر، وقد استطاع الأستاذ محمد عبد الوهاب أن يقنعه بتحويلها إلى قصة سينمائية وأن يكتب له الحوار الذى يتطلبه ذلك.

وهذه فيما أعلم أول قصة أدبية - وإن كانت بالعامية - تتخذ للسينما. والأستاذ الحكيم أول أديب مصرى تعرض قصة له على هذا النحو، وهذا مألوف فى الغرب، وما زال الأدباء هناك - كبارهم وأوساطهم، والمحدثون منهم والقدماء - تحول قصصهم إلى أفلام، وتلك خير ما أخرجت شركات السينما هناك. ولكن هذا فى مصر يعد حادثًا له قيمته لأنه الأول من نوعه. والفضل فيه لعبد الوهاب الذى أراد أن يرفع من قدر السينما فى مصر ويدنيها من مرتبة الأدب وقد أحسن الاختيار، وكان من السهل أن يسيئه، فإن لقصة الحكيم قيمتها الفنية، وهى إلى هذا خالية من التكلف الثقيل فى سوق الحوادث، ومن الخطب الغثة التى تحشى بها القصص طلبًا لاستثارة عواطف الجمهور والتماسًا لتصفيقه ورضاه، فهى ضرب جديد كل الجدة، وخليق إذا احتذى مثاله أن يمحو الأثر السيئ الذى أحدثته القصص السخيفة، وأن يساعد على التهذيب العام ويرفع مستوى الجمهور.

ومما يحمد للأستاذ عبد الوهاب أيضًا أنه عبأ لهذه القصة طائفة من صفوة الممثلين والممثلات، المشهورين بالإجادة والاقتدار وقد وزعت عليهم أدوارهم أحسن توزيع، فاختير لكل منهم ما هو أصلح له وأولى به، وبلغ من العناية بذلك والحرص عليه أن أسند دورا فى غاية القصر إلى ممثل كبير. أما أغانى عبد الوهاب فلا تحتاج منا إلى شهادة.

ومن الجديد أيضًا أن في هذه القصة قصيدة للشاعر إيليا أبو ماضي، وهو من أشعر شعراء لبنان فى المهجر، وقد صنع فيها عبد الوهاب صوتًا متساوى الأدوار ذا عودات متوالية.

وافتن محمد كريم فى إخراجها، وحاكى أفلام الغرب محاكاة رشيدة، لا جموح فيها ولا إحجام، ولا عجب فإنه من أقدر خبرائنا بهذا الفن الجديد.

وقد شهدت هذه القصة فخرجت وأنا أقول إنها خطت بالسينما فى مصر خطوة غير قصيرة ، وأن من حق الذين كانت لهم فى ذلك يد ما، وأن نحمد لهم ما صنعوا، وأن ننصفهم بالاعتراف لهم بفضلهم، وأن نسأل الله أن يحذو غيرهم هذا المثال الحميد ومن سار على الدرب وصل.

دراسات عن ابن خلدون[148]
للأستاذ ساطع الحصرى

عرفت الأستاذ ساطع الحصرى - أبا خلدون - فى بغداد، لما زرتها أول مرة، وكان يومئذ هو المشرف على شؤون التعليم والفنون والموكل بها وقد زرت بصحبته دار الآثار وبعض ما كشف عنه البحث والتنقيب، في العاصمة وحولها. ومما أذكره لدلالته - ولا يسعنى إلا أن أبتسم كلما تذكرته - أننا زرنا قصراً منيفًا من العصر العباسى يزعم البعض أنه كان من قصور الخليفة المأمون، وهو غير صحيح، وكان الأتراك أيام حكمهم للعراق يتخذونه إسطبلاً!!

وقد خرج الأستاذ أبو خلدون من العراق إلى الشام ولبنان، ولعله آثر الإقامة فى بيروت فقد جاءنى كتابه منها - وأعفى نفسه - أو أُعفى - من الأعباء الرسمية التى كان يضطلع بها فى بغداد بعد أن أسدى إلى هذا البلد الطيب يداً ينبغى أن تذكر ولا تكفر، وأحسن الارتياد فيها لمواضع البغية، بحسين تثبته فى أوائل الأمور، ودقة استشفافه بعقله الكبير ونظره البعيد لما تجىء به العواقب. ولم أر يومئذ إلا ظواهر أموره المحمودة، غير أن الذين يعرفون بواطن أحواله زادونى إكباراً له فما كان وهو ببغداد يمت إلى أهلها بغير حرمة العلم وذمام الإخلاص حتى لقد أفضى من ذلك إلى ما يجوز الأمنية ويفوت الأمل. وقد تبينت من حديثه أنه بموضع رفيع من جمع الكتب ودراستها والنظر فيها والعكوف على تصفح عقول أصحابها من جميع الأمم، وأن الله قسم له من العقل والفهم حظًا جزيلاً، وأنه لا يكتفى بذلك ولا يزال دأبه ووكده أن يزيد فى عقله عقل غيره.

(١٤٨) نشرت فى "البلاغ" فى ٩ إبريل سنة ١٩٤٤ (ص ٤).

ومن كان كذلك، فتصور محنته وحسرته حين تقضى الأحوال بإقصائه عن كتبه وأوراقه، وتحرمه - كما يقول - "وسائل تحقيق أمنيتى (وهى دراسة مفصلة لمقدمة ابن خلدون) بالإحاطة التى كنت أستعد لها والدقة التى كنت أتوخاها".

ومع ذلك أبى أن تلحقه إضاعة أو يفدحه الحرمان، أو أن يستقبل حاله الجديد بالتضجع. فراض نفسه على تقاضى الزيادة من النقص. وتثمير الذاكرة. وارتاد لها مغرساً تنمو فيه فروعها وتزكو ثمرتها، أو كما يقول "ومع هذا رأيت أن أشغل أوقاتى بكتابة بعض الدراسات عن مقدمة ابن خلدون بقدر ما تسمح لى الذاكرة من جهة، وبقدر ما تساعدنى المراجع التى أستطيع الحصول عليها فى ظروفى الحالية من جهة أخرى، آملاً أن تكون هذه الدراسات ممهدة للدراسة التامة التى لا أزال أمنى النفس بها".

وهو لا يرى أن ما كتبه الدكتور طه حسين بك والأستاذ عبدالله عنان وغيرهما يغنى عن دراسة جديدة لهذه المقدمة الجديدة ؛ "لأنى أعتقد - كما يقول - أن الطرافة فى الدراسات لا تتأتى من جدة الموضوع وحده، بل قد تتولد من طرافة الطريقة والاتجاه أيضاً".

وله ملاحظة غاية فى السداد، قال "إن الذين يطالعون مقدمة ابن خلدون يقرأونها عادة كما تقرأ الكتب الحديثة وينتقدونها بوجه عام كما تنتقد المؤلفات العصرية، ومعظم الذين يكتبون عن المقدمة ينحون هذا المنحى نفسه، ويميلون إلى وزن الآراء الواردة فيها بموازين المكتسبات العلمية الحديثة، دون أن يلتفتوا إلى عدد القرون التى تفصل بيننا وبين تاريخ كتابة المقدمة، على حين أن قيمة المؤلفات القديمة، ومنزلة المفكرين القدماء - فى تاريخ العلوم والأفكار - لا يمكن أن تقدر على هذه الطريقة. ذلك لأن كل عالم ومفكر يشترك - بوجه عام - مع معاصريه فى معظم آرائهم فيشاطرهم أكثر أخطائهم، ولا يمتاز عليهم إلا فى "بعض الآراء" التى يوفق إلى ابتكارها و"بعض المعلومات" التى يستطيع اكتشافها. ولهذا السبب نرى أن منزلة الباحث والمفكر فى "تاريخ العلوم والأفكار" لا تتعين بملاحظة "جميع الآراء الصائبة والخاطئة" المنبثة فى

كتاباته ومؤلفاته المختلفة، بل تتقرر بملاحظة "الآراء المبتكرة" التى يسمو بها على معاصريه"، و"الحقائق الجديدة" التى يضيفها إلى المكتسبات الفكرية البشرية والخدمات التى يقوم بها بهذه الصورة فى سبيل تقدم الأفكار والعلوم، كل ذلك بغض النظر عن الآراء الخاطئة التى يبقى فيها مشتركًا مع معاصريه بطبيعة الحال".

وهذا هو دستوره فى دراسة مقدمة ابن خلدون: أن لا ينسى أن ابن خلدون من رجال القرن الرابع عشر بعد الميلاد. وأن يرجع إلى تاريخ "العلوم والأفكار" وهو يقرأ كل فصل من فصول المقدمة ويتأمل كل رأى من آرائه ويعرض ما كان يقول به المفكرون" فى هذا الصدد فى العصر الذى عاش فيه وفى العصور التى أتت بعده.

وقد ضرب مثلاً: أرسطو "المعلم الأول" وما وقع فيه من أغلاط وأخطاء كثيرة جسيمة فى علوم الطبيعة وعلم الحياة والاجتماع ، ثم قال "وما قلته عن أرسطو يصح فى غيره من العلماء والمفكرين. وليس من بين هؤلاء - من سقراط إلى كانت ومن بقراط إلى فرويد - من يعد عظيمًا لأنه لم يخطئ فى آرائه قط، بل إنهم يعدون عظماء على الرغم من الأخطاء التى وقعوا فيها".

وملاحظة أخرى لا تقل عن هذه سدادًا وتوفيقًا. وتلك أن الأكثرين لا يطلعون على آراء القدماء من الغربيين إلا من خلال بعض المقتطفات والدراسات" فيتوهمون "أن كل ما قاله هؤلاء وكتبوه كان من ذلك الطراز. مع أن تلك المقتطفات والدراسات يراد بها بوجه عام إظهار نزعتهم العلمية ؛ فهى لا تحتوى إلا على الجوهر المهم والزبدة المنتقاة من آرائهم وكتاباتهم الأصلية ، بينما نحن نطلع على ما قاله ابن خلدون من قراءة مقدمته مباشرة. ونحيط علمًا بكل ما فيها من غث وسمين، فالمقارنة التى قد تحدث فى أذهاننا بين ابن خلدون وأمثاله الغربيين تكون بعيدة عن الحق. إن مثلنا فى هذه المقارنات كمثل من يريد أن يقوم بمقارنة بين المناجم المختلفة فيقدم على الموازنة بين العنصر الطبيعى الموجود فى أحدها، وبين المعادن الصافية والجواهر اللماعة المستخرجة من غيرها، من غير أن يذكر أن تلك المعادن والجواهر كانت ممزوجة ومخلوطة بمواد ترابية وحجرية خسيسة ، وأنها لم تظهر بمظهرها الحالى إلا بعد

تصفيتها من النفايات، كما أن العنصر الطبيعي الموجود فى المنجم الأول يحتوى على جوهر ثمين قد يبهر الأبصار مثل تلك الجواهر إذا ما عولج وصفى مثلها".

وعلى مقتضى هذا الدستور المنصف كتب دراساته القيمة وأخرجها في جزأين ضخمين، ومهد لها بجولة فى التاريخ والكهانة والنجامة والسحر وما إلى ذلك ، ورأى ابن خلدون فى هذه الأمور، ثم تناول حياة المؤلف وتاريخ كتابة المقدمة ولغتها ومكانتها من تاريخ فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع، وآراء الرجل ونظرياته فى طبيعة الاجتماع ومنشأ الحكم، والقسر الاجتماعى والتقليد وطبائع الأمم والدولة وعلم النفس والتربية، ونظرية التطور، والحرب والدين واللغة والأدب إلى آخر ذلك.

وحسبنا هذا الوصف الإجمالى لتعريف القراء بالكتاب وقيمته على أن من حق الأستاذ أبى خلدون علينا أن نشهد بأنه ما ترك موضعًا إلا أقام فيه بإزاء كل شبهة دليلاً ومع كل خفى حجة ظاهرة، وأنه ما رضى بالأصول حتى تقصى الفروع، وأقام كل أمر على حدوده ونزله منازله بلغة سهلة متدفقة، وإن كانت لا تخلو من مصطلحات غريبة أدى بها معانى مألوفة فى اللغات الأجنبية، ولا نظن أنه كان يعييه أن يهتدى إلى خير منها. على أن هذه قليلة لا تغض من قيمة الكتاب، ولعل عدم الإشارة إليها كان أولى، فليس من العدل المحض والإنصاف الصحيح أن ندع الهنات اليسيرة تتجسم فى رأى القارئ. ولهذا وجب التحذير من حمل هذه الملاحظة على غير محملها.

بلال مؤذن الرسول[١٤٩]
للأستاذ عبد الحميد جودة السحار

أخرجت لجنة النشر للجامعيين كتاباً جديداً للأستاذ عبد الحميد جودة السحار، في "بلال - مؤذن الرسول" وهو ثاني كتاب له في التراجم الإسلامية، أما الأول فكان موضوعه "أبو ذر الغفاري" ، وقد كتبنا عنه في حينه ونوهنا به وناقشنا بعض ما جاء فيه.

وقد جرى الأستاذ السحار في كتابه الجديد على نهجه في كتابه الأول، فهو لا يسرد الترجمة سرداً كأنما يتحدث عن مادة جامدة لا تحس ولا تدرك، بل يحاول أن يصور حياة المترجم له، ويفيض عليها الحركة والشعور والإدراك، ويرسم ما يحدث من التفاعل بين صاحبها وما يحيط به.

وقد صور حياة بلال مذ كان في جاهليته لا أكثر من عبد "أسود اللون ، طويل نحيل، خفيف العارضين، ضامر الوجه، كثيف الشعر" يعمل في تجارة مولاه أمية بن خلف، ويقدم القرابين إلى هبل في الكعبة، ويتقبل ما يخرج من ضرب القداح إلى أن أسلم في فحمة الليل على يد الصديق أبي بكر، وكيف ثبت على الإسلام على الرغم من التعذيب الذي صبه عليه سيده، حتى اشتراه أبو بكر لينقذه وأطلقه، ثم كانت الهجرة، والأذان يتولاه بلال بأمر رسول الله، وهكذا إلى النهاية، أو ختام ترجمة الرجل.

ولهذه الطريقة مزيتها الواضحة فليس كل الناس سواء في طلب التاريخ والرغبة في الإطلاع عليه، وكثيرون يزهدون في كتب التراجم، ولكنها إذا سيقت على نحو ما تساق القصة وطبعت بالطابع الإنساني صارت أخف محملاً وأسهل مطلباً على القارئ، وأبعد وأخلى مما يستثقل أو لا يطيب له أن يقرأه فإن الناس شكول. ولكن

---

(١٤٩) نشرت في "البلاغ" في ١٨ إبريل سنة ١٩٤٤ (ص ٤).

هذه الطريقة ليست بالسهلة الهينة على الكاتب ؛ لأنه يحتاج أولاً إلى ملء فراغ كبير بخياله، إذ كانت كتب التراجم العربية قلما تفيض أو تسهب، وحتى حين تفيض تترك كثيراً مما يشتهي ابن زماننا هذا أن يقف عليه من تفاصيل الحياة، وما أقل ما كتب عن بلال بالقياس إلى غيره، ولم يكن هذا عن ظلم له أو استخفاف به، ولكن أعطى كل امرئ حقه.

ثم إن الكاتب يحتاج وهو يجرى على هذا النهج أن يحيط بسير الكثيرين ممن عاصروا المترجم له واتصلوا به وكان لهم شأن أو أثر فى حياته، ويحتاج أيضًا أن يتصور الحياة فى ذلك العصر على نحو أوضح مما يستفاد لأول وهلة من التراجم القديمة ليتسنى له أن يجرى حياة المترجم له مجراها الطبيعى أو القريب من الطبيعى. ويحتاج أخيراً إلى تحرز كثير حتى لا يدفعه إلى عمل أو يقوّله قولاً ينافى المأثور أو يخرج عما ينتظر منه، إذا كان لا يكتب قصة يؤلفها أو يتخيلها، وإنما يرسم صورة حياة بألوان هى أقرب ما تكون إلى الألوان الحقيقية.

فالمشقة التى يتكلفها الكاتب غير هينة على خلاف القارئ فإنه يقرأ ما يشبه القصة، ويخرج منها بفوائد جزيلة، وترتسم فى ذهنه للمترجم له ولعصره صورة حية، ويتأثر، حتى من غير أن يفطن إلى ذلك، بالروح التى بثها الكاتب فى كتابه وهو يسوق الحوادث.

ومن الغريب أن الأستاذ السحار من خريجي كلية التجارة ، ولكنه مع ذلك معنى عناية شديدة بالأدب والتاريخ، قراءة ودرساً، وتأليفًا، فهو مؤلف قصصى وكاتب تراجم على نحو ما وصفنا، وقد آثر إلى الآن أن يكون من يترجم لهم من رجال الصدر الأول من الإسلام، ويدل اختياره لأبى ذر أولاً ثم لبلال ثانيًا على أن أهل الورع والتقوى أوقع فى نفسه وأقرب إلى روحه من غيرهم من رجال العمل الذين ساسوا أمور الأمة أو قادوا جيوشها، أو تولوا الأعمال لها فى دولتها التى اتسعت رقعتها بسرعة خاطفة، وإن كان هؤلاء لا يقلون تقوى عن أولئك.

ولسنا نحب أن يفهم القارئ أنا نفضل نهجًا على نهج فى كتابة التاريخ أو التراجم، أو نرى أحدها أولى بالاتباع، فلسنا نذهب إلى شىء من هذا والتاريخ يكتب

على صور شتى وأساليب مختلفة ولكل أسلوب قيمته ومزيته، ونفعه، ولزومه أيضًا، فإن القراء يختلفون، ويتفاوتون، وليس هواهم جميعًا واحدًا، ولا الذى يوافق بعضهم يوافق البقية فاختلاف الأساليب يتيح لكل فريق ما يوافقه ويجرى مع هواه، والشرط هو الصحة والسداد، وتحرى الحقيقة والتزامها كائنًا ما كان الأسلوب الذى تروى به.

القاهرة، مؤلفان عنها[١٥٠]

للبكباشى عبد الرحمن زكى - والأستاذ فؤاد فرج

أمامى كتابان - أو جزءان من كتابين - كلاهما يقول إن القاهرة موضوعه. فأما الأول والأسبق فللبكباشى عبد الرحمن زكى مدير المتحف الحربى وخريج الكلية الحربية، ومعهد الآثار الإسلامية وقد أخرج قبل ذلك جزأين سرد فيهما تاريخ القاهرة مذ أنشئت إلى عصر الأسرة العلوية ، وفى الجزء الثالث تناول تطورها من أيام محمد على الكبير إلى وقتنا الحاضر بعد أن تكلم بإيجاز عن عواصم مصر الإسلامية التى قامت قبل أن تبنى القاهرة ، واستطرد إلى الفتح الفاطمى وتأسيس هذه العاصمة التى كتب لها البقاء على الزمن، ومن أشق ما تكلفه - ووفق فيه - فصول نفيسة عن القاهرة فى عصر المماليك، والعصر العثمانى، والعصر الحديث. والجديد فيها غير قليل، على الأقل فى اللغة العربية. والكتاب كله يمتاز بالدقة والتقصى، وحسن العرض، ولا ينقصه إلا بعض العناية بالعبارة.

وأما الكتاب الآخر فللأستاذ فؤاد فرج، وهو مهندس "بالبلديات" وعنوانه الخاص "القاهرة" وعنوانه العام مزدوج أحد شقيه "المدن المصرية وتطوراتها مع العصور - مجموعة فنية تاريخية" ، والشق الثانى "تاريخ المدن القديمة ودليل المدينة الحديثة" ولست أدرى أى العنوانين أولى بالكتاب وما انطوى عليه. ويقول المؤلف فى المقدمة: "أما الجزء الثانى، وهو موضوع كتابنا الحالى فقد خصصناه، كما قلنا فى مقدمة الجزء الأول، لدراسة العواصم القديمة التى قامت فى هذه المنطقة قبل القاهرة مع ذكر ما امتازت به حضارات تلك العواصم وثقافتها من ظواهر كان لها أثرها الاجتماعى الواضح فى حياة عاصمتنا الجديدة".

---

(١٥٠) نشرت فى "البلاغ" فى ٧ مايو سنة ١٩٤٤ (ص ٤).

ومن الجلى أن هذا مطلب عسير، فليس من الميسور أن تبين الأثر الاجتماعى الذى يقول المؤلف أنه "واضح" فى حياة القاهرة، لحضارات العواصم القديمة التى "قامت فى هذه المنطقة" ومن أجل هذا لم نستغرب أن لا نخرج من الكتاب بتبين هذا "الأثر الاجتماعى الواضح" ولسنا نقول إن المؤلف أخفق ، وإنما نقول إنه طلب ما لا ينال، فلا عجب إذا كان لم ينله.

وقد ساق المؤلف ستة وثمانين مرجعًا عربيًا، وثمانية وستين مرجعًا ما بين إنجليزى وفرنسى. وهى حسب من شاء التدقيق والتقصى، ولكن القارئ لا يسعه إلا أن يشعر أن الأمر فشا على المؤلف، وأن المؤلف يسوق الكلام جزافًا. وإليك هذه الفقرة من (صفحة ٢٨٣):

"هنا فى جامعة أو معبد "رع" العظيم بمدينة أون القديمة تمت مراسم حفلة زواج يوسف الصديق، بعد أن صار وزير مصر الأكبر، بابنة الكاهن الأكبر لمعبد عين شمس. هنا فى جامعة عين شمس تلقى موسى الكليم عليه السلام حكمة المصريين وعلومهم على أيدى كهنة معبد "رع". هنا فى هذه الجامعة تلقى أفلاطون علومه، ودرس أدوكسيس الرياضى الحكمة والفلسفة وعلم الفلك، وتخرج كلود بطليموس الجغرافى الخالد الذكر. هنا رأى استرابون المنازل التى كان يقيم بها هؤلاء العلماء فى العصر اليونانى".

وبعد أن يفرغ من هذه "الهنات" - ولك أن تنطقها كما تشاء - يقول:

"والآن تفكر وزارة المعارف العمومية فى إنشاء جامعة جديدة بمدينة القاهرة. فما أجمل إحياء ذكرى جامعة عين شمس القديمة! وما أروع هذه الفكرة وأسماها! لو أنشئت هذه الجامعة الجديدة فى نفس الموقع الذى كانت تقوم فيه جامعة عين شمس القديمة أو بالقرب منها. وجدير برجل المعارف ووزيرها الجليل أحمد نجيب الهلالى باشا أن يعيد إحياء ذكرى جامعة عين شمس فى عهد وزارة الشعب تحت رئاسة

صاحب المقام الرفيع الزعيم الجليل مصطفى النحاس باشا وتحت كنف حضرة صاحب الجلالة مليك النيل المفدى فاروق الأول حفظه الله!!".

ويحسن أن ننبه إلى أن علامات التعجب مما وضع هو لا مما دسنا عليه. وقد اقتطفنا هذه الفقرات لنريك أسلوبه فى الكتابة، وفى تناول الموضوع ووثبه من هنا إلى هنا. ولا نحتاج أن نقول إن ما جزم المؤلف بأنه حدث "هنا" لم يجزم علماء التاريخ والآثار مثل جزمه به ، ونعترف بأننا لم نطلع على كل هذه المصادر الكثيرة التى رجع إليها المؤلف واعتمد عليها على الأقل الفرنسية منها؛ لأنا لا نعرف من اللغات الأجنبية غير الإنجليزية، ولكن النزر القليل الذى قرأناه يحملنا على الشك فى صحة بعض ما ساقه على أنه الخبر اليقين مثل زواج يوسف الصديق بابنة الكاهن الأكبر لمعبد عين شمس، ومثل تلقى موسى عليه السلام علومه هناك، فما نعرف ولا نظن أحداً يعرف على وجه التحقيق، متى وفى أى عهد جاء يوسف إلى مصر، أو ظهر موسى، عليهما السلام. ومن الاتفاق الغريب أنى كنت أراجع منذ بضعة أيام كتاب سجمند فرويد فى "موسى والتوحيد" وهو آخر مؤلفاته، والرجل أحق الناس بالعلم بتاريخ نبيه، فإذا به يقول فى الصفحة الأولى من الكتاب إن الرجل موسى، محرر شعبه، الذى جاءه بدينه وشريعته، ينتمى إلى عصر موغل فى القدم حتى ليحتاج المرء أن يسأل أول ما يسأل: أترى موسى شخصاً حقيقياً تاريخياً، أم هو ليس إلا أسطورة؟ فإذا كان قد عاش حقاً فإن زمنه يكون القرن الثالث عشر أو الرابع عشر قبل الميلاد. فما نسمع عنه إلا من الكتب المقدسة وما خلفه إليهود من الآثار المكتوبة، ومع أن الأمر ينقصه أن يثبت إلا أن معظم المؤرخين قد ذهبوا إلى أن موسى كان حقاً ، وأن الخروج من مصر - بقيادته - وقع فعلاً، وقيل بحق إن تاريخ بنى إسرائيل بعد ذلك لا يمكن أن يكون مفهوماً إلا إذا سلمنا بهذا. وقد صار العلم فى هذه الأيام أكثر تحرزاً واحتياطاً إلخ.

فهذا فرويد الإسرائيلى العالم الثبت المحقق، مهما كان الرأى فى مذهبه النفسانى يتساءل أكان موسى شخصاً حقيقياً أم من الأساطير ، ثم يسلم بأنه كان حقاً. ويذهب بعد ذلك إلى أنه كان مصرياً ، وأنه لعله كان من الأسرة المالكة أو من حكام الأقاليم.

وأنه اعتنق دين أخناتون. واتخذ إليهود شعبًا له وقادهم وخرج بهم وفقههم فى دينه. وفرض عليهم الختان الذى كان من عادات المصريين، ثم تمردوا عليه وقتلوه – ولا يذهب إلى هذا كله إلا على سبيل الاستنتاج، لا بلهجة الجزم.

ويجيء الأستاذ فؤاد فرج فيقول – بلهجة قاطعة – إن موسى الكليم "تلقى حكمة المصريين وعلومهم على أيدى كهنة معبد رع" فمن أين جاء بهذا؟ وما سنده؟ نحسب أننا على حق حين نقول إنه ما هكذا يكتب التاريخ.

وعلى كثرة ما سرد من المراجع، أغفل مصدراً، أخذ منه دون أن يعزو إليه، أو يشير بحرف، وهو كتاب "على هامش التاريخ المصرى القديم" للمرحوم عبد القادر حمزة باشا. وحسنًا فعل ، فإن المرحوم عبد القادر حمزة باشا يتحرى الدقة والإحكام ولا ينسى حذره قط، ولا يرسل الكلام على عواهنه، ولا يقول إلا بما يعلم ، ولا يقرر أمرًا إلا بسنده.

ومن الإنصاف للمؤلف، وللناشر، أن نثنى على الصور، فإنها تحفة نفيسة. ومن خير ما فى الكتاب أن فيه جدولاً بأسماء الولاة الذين حكموا مصر من قبل العباسيين، إلى منتصف القرن الثالث الهجرى، وصحيح أنه اكتفى بسرد أسمائهم، ولكن هذا لا يخلو من فائدة، فإن فى وسع القارئ متى عرف الأسماء أن يرجع إلى التراجم فى مظانها.

كتاب عجيب فى الإسلاميات[١٥١]

(ARABICA & ISLAMICA)

للمستر ى. ويريف

هذا كتاب عجيب وقعت عليه عينى ذات يوم وأنا أدور على المكتبات الكثيرة الغاصة بالكتب التى لا تعنينى مما أخرجت المطابع فى هذه الأعوام الخمسة ومعظمها يدور على الحرب، وقد قرأت الكثير منها فلم أستفد إلا العناء. ولا أدرى لم لا تعنى دور النشر الغربية أو المعاهد الثقافية البريطانية والأمريكية بتزويدنا بالجيد من الكتب فى الآداب والفنون والعلوم، فإنه حتى المحارب نفسه، حين يعود من الميدان ليعالج أو يستريح، يضجره كتب الحرب وما إليها مما يتفرع عليها، ويشتهى أن يجد كتاباً ينسيه ما كان فيه.

رأيت هذا الكتاب فترددت، فما سمعت بصاحبه، ونفرتنى منه كثرة الأغلاط المطبعية على خلاف المعهود فى الكتب الإنجليزية التى لا يقع المرء فيها على غلطة واحدة، أو حتى على حرف مقلوب.

وتصفحت المقدمة فزادتنى نفوراً من الكتاب ، ذلك أن المؤلف يصف اللغة العربية بأن صعوبتها تطير العقل، ولهجته على العموم لا تخلو من فكاهة وسخر. غير أن سعة صدره راقتنى فاشتريت الكتاب وعكفت عليه ليلتين حتى أتيت عليه.

وأعترف أنه حيرنى، فما أدرى أى رأى أبدى فيه ، ذلك أنه كتاب لا جديد فيه لمثلى من أبناء العربية. ولست أظن المستشرقين الذين توفروا على درس العربية وأدبها وتاريخه وما هو من ذلك بسبيل يجدون فيه جديداً، ولكن طالب العربية من أبناء الغرب لا يعدم فائدة وإن كان خليقاً أن يخرج بأوهام غير قليلة، وأغلاط كثيرة وصورة عامة لا تعد صحيحة.

---

(١٥١) نشرت فى "البلاغ" فى ٢١ مايو سنة ١٩٤٤ (ص ٤).

ولكنه يحسن أولاً أن أذكر شيئًا عما فى الكتاب. الفصل الأول منه موضوعه اللغة العربية، وهو فصل منحوس لا يدل على فهم لها أو علم بها. ومن قوله فيها: "إن من المشكوك فيه جداً أن يكون أحد قد حذق الجموع العربية أو الفعل العربى". ومنه أيضًا وهو أعجب: "إن الطالب الذى يريد جاداً أن يدرس أجرومية "رايت" خليق أن يرشح للدخول فى مستشفى المجانين".

ثم يلى ذلك فصل وجيز في الأدب القديم – الشعر الجاهلى والقرآن – ورأيه فى الشعر الجاهلى أنه بديع ، ولكنه عسير الفهم حتى على أبناء اللغة نفسها بغير الشرح، وأن الشرح نفسه يحتاج أحيانًا إلى شرح. وأن مدار الصعوبة هو الغريب وتعدد معانى اللفظ الواحد ومَثَّلَ لذلك بلفظ – لم يعينه – قال إن من معانيه شيخ القبيلة أو رئيسها وزعيمها ووتد الخيمة، والحمار الوحشى، والجبل والقذى فى العين.

والفصل الثالث فى حياة محمد، وقد اعتمد فيه على بعض ما نشر باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية مثل كتابى مرجوليوث، وموير، وكتاب سير أمير على، وكتاب البرنس كيتانى (الإيطالى) ولامنسى وسيرنجر، وعلى ترجمة ابن هشام، والبخارى طبعة القاهرة ، ومسند ابن حنبل طبعة القاهرة. وفى هذا الفصل يبدى آراء شتى لا نعرف لها مسوغًا، وفى آخر هذا الفصل يورد ترجمة طائفة من الأحاديث على سبيل الاستشهاد ، ولا يخلو تعقيبه على بعضها من السخر من المستشرقين.

ويلى ذلك ستة عشر فصلاً، فى حوالى مائة وأربعين صفحة هى عبارة عن ترجمة أحاديث تخيرها من البخارى ورتبها على الموضوع، كالصلاة، والحج، والصيام إلى آخر ذلك، واعتمد فى ترجمته لها على ترجمة "هودا ومارسيه" الفرنسية مع الرجوع إلى الأصل العربى المطبوع بالقاهرة وإلى القسطلانى و[العينى][١٥٢] .

---

(١٥٢) ربما يعنى البدر العينى الحنفى (توفى سنة ٨٥٥ هـ) وله كتاب يُسمى "عمدة القارى شرح صحيح البخارى" ، وللكتاب طبعة حديثة صدرت فى بيروت عن دار الفكر عام ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م . (المحرر) .

وأردف ذلك بثلاثة فصول في: معجزات محمد، ووأد البنات، والحجاب. وفصل في المؤرخين، وآخر عن عنترة وبني هلال، وفصل في المتنبي وأبي العلاء، وفصل في رسالة الغفران (عن الطبعة المختصرة التي نشرها الأستاذ كامل الكيلاني) وفصل عن بهاء الدين زهير وابن الفارض، ثم فصل ختامي يشير فيه إلى أبي نواس وصعوبة شعره ويشك في أن كثيرين قرأوه، وإلى الفلاسفة على العموم وابن رشد على الخصوص ويقول فيه إن مما يعزى من لم يقرأ كتب هؤلاء الفلاسفة أن يرى دائرة المعارف الإسلامية تقول في أكبرهم وأعظمهم - ابن رشد - أنه لم يكن فيلسوفًا مبتكرًا.

وهذه خلاصة لا تعد وافية، ولا ترفع قبل العيون صورة صحيحة للكتاب، والحقيقة أن من العسير أن يتبين المرء الغرض من هذا الكتاب. فإذا كان ترجمة مختارات من الحديث، فما دخل ابن الفارض والبهاء زهير ولماذا ساق قصة عنترة؟

ليس الغرض التعريف بالإسلام والأدب العربي. فما جاء بشيء جديد، ولا عني بالبحث الوافي في باب من الأبواب، وكل ما ساقه، رجع فيه إلى ما نشر من المطولات باللغات الأوربية، وما رجع قط إلى نص عربي إلا ليقول إنه صعب، ثم إن التعريف بالإسلام لا يقتضي أن يقص قصة عنترة أو أن ينقل ترجمة قصائد أو مقطوعات للبهاء زهير أو ابن الفارض والمتنبي.

فهو من هذه الناحية يعد خليطًا غير مفهوم ، ولا يبدو أنه يرمي إلى غرض واضح، وهذا إلى أن مؤلفه ليس متمكنًا من العربية، ولا مالكًا لزمامها، وقد أقر بضعفه في مواضع شتى من الكتاب، واعترف بأنه لم يقرأ هذا أو ذاك من دواوين الشعراء، أو كتب السيرة، أو كتب التاريخ، أو آثار فلاسفة العرب ومع ذلك يصدر أحكامه ويفتي غير متلعثم أو متردد.

وقد أذكرني هذا الكتاب أن مجلة الأزهر كانت قد شرعت تنشر ترجمة حرفية دقيقة للحديث، ثم كفت عن ذلك، لا أدري لماذا، ولما كان بعض المستشرقين قد ترجموا

شيئًا من الحديث ترجمة لا تخلو من خطأ، أو ينقصها الشرح الذى يمنع سوء تأويلها، فإنه يحسن أن يتولى ذلك أبناء العربية فإنهم أعرف بلغتهم، وأقدر على فهمها، ولا خير فى القول إن الترجمة تسىء إلى الأصل أو تشوهه، أو تفقده بعض قوته أو جماله، فإن المستشرقين يترجمون ولا ينتظرون رأينا ولا يعبأون، بما نخشاه أو نتوهمه.

وقد أعود على هذا الكتاب لأعرض نماذج مما اشتمل عليه من الآراء الغربية والترجمة التى شوهت الأصل.

البصر وفنه[١٥٣]

(The Art of Seeing)

بقلم ألدَسْ هكسلى (Aldous Huxley)

(١٤٣ص، لندن ١٩٤٣)

ألدس هكسلى أديب روائى، وشاعر، وعالم، من أسرة علماء مشهورين، وقد روى فى كتابه "البصر وفنه" أنه أصيب فى صباه – وكان فى السادسة عشرة من عمره – بمرض فى عينيه كاد يذهب ببصره، فظل ثمانية عشر شهراً كالأعمى، يقرأ بطريقة بريل – أو براى – Braille ويقوده خادم حين يمشى. وقد تركه المرض، وإحدى عينيه قد سدر بصرها والأخرى سادّةٌ لا تبصر بصراً قوياً. وكان السبب فى ذلك وجود غبشات فى القرنية. وزاد الأمر تعقيداً أن فى النظر طولاً، وفى البصر انحرافاً. وقد أمره الأطباء أن يستعمل مجهراً يدوياً قوياً يستعين به على القراءة، وظلَّ هكذا بضع سنوات، حتى تسنى أن يستعمل النظارات للقراءة والمشى، على أن يضع فى أقوى عينيه قطرات من "الأتروبين" فيتسع ناظرها ، ويستطيع أن يبصر من وراء النكتة التى فى ذبابتها. إلى أن كان عام ١٩٣٩ فألفى أن القراءة أصبحت متعذرة على الرغم من النظارات القوية التى كان يتخذها. فحار ماذا يصنع إذا كفَّ بصره، وإذا به يسمع بطريقة جديدة لتدريب العين على النظر، وبمعلمة موفقة فى استخدام هذه الطريقة. ولما كانت النظارات لم تعد لها عنده جدوى، فقد استقر عزمه على تجربة هذه الطريقة. "وبعد شهرين اثنين، استطعت أن أقرأ بغير نظارات، وبدون إجهاد أو كلال، وصار ما كنت أعانيه من النقص المزمن، ونوبات الإعياء فى خبر كان. وظهر ما يدل على أن

---

(١٥٣) نشرت فى "المقتطف" فى يونية سنة ١٩٤٤ (ص ٦٧ – ٧٠).

النكتة التي ظلت خمسة وعشرين عامًا وزيادة ثابتة، قد بدأت ترق وتزول، وأن قدرتي على الرؤية لأبعد من أن تكون عادية، ولكنها الآن ضعف ما كانت حين كنت أتخذ النظارات قبل أن أتعلم فن الرؤية".

وقد ألف كتابه "البصر وفنه" ليقضي حق الشكر للمرحوم الدكتور و. هـ. بيتس - W.H.Bates مبتكر طريقة تدريب العين على النظر، وتلميذته السيدة مرجريت كوربت التي تولت تعليم المؤلف، وإليها يرجع الفضل فيما أفاد من صحة النظر.

وليست غاية المؤلف أن يصف هذه الطريقة فحسب، بل أن يوفق أيضًا بينها وبين ما انتهى إليه علم النفس الحديث والحقائق والنظريات العلمية والفلسفية الجديدة.

"الطبيب يعالج، والطبيعة تشفى" - هذه العبارة المأثورة تلخص مدى قدرة الطب والغاية من العلاج، وهي أن يهيئ الطبيب للكائن المريض الأحوال الداخلية والخارجية التي تمكن عوامل البرء والصحة من إحداث أثرها. ولولا هذه العوامل الطبيعية التي تحاول في كل كائن حي أن ترده إلى أحوال الصحة، لما كان للطب حيلة، ولا للعلاج جدوى، ولصار كل مرض قاتلاً، أو لا برء منه.

ويقول هكسلي بعد أن يسوق هذا الأصل ويشرحه إن الذي يحدث حين يذهب ضعيف البصر إلى الطبيب هو أن يزوده الطبيب بنظارة، تصحح الانحراف الذي يرجع إليه هذا الضعف، ولكن النظارة لا تمحو العلة، ولا تجعل العين تؤدي عملها إلى نحو طبيعي، وكل ما تصنعه هو أنها تبطل تأثير الأعراض ولا تمحو علة الضعف، ومن أجل هذا يزداد الضعف على الأيام، وتحتاج العين بعد فترة طويلة أو قصيرة إلى نظارات أقوى وأقدر على تقويم الانحراف، والأمر لا يخرج عن أحد فرضين: أن يكون ضعف البصر غير قابل للشفاء في ذاته، أو أن تكون طريقة العلاج المألوفة خطأ في خطأ.

وقد اقتنع الدكتور بيتس - وكان رمديًا مشهورًا في نيويورك - بأن علاج الأعراض بحث لا خير فيه، وأن ضعف البصر علته في كثير من الحالات، سوء استعمال العين، وأن سوء الاستعمال ذو صلة بالإعياء والتوتر ، وهما يؤثران في الجسم والعقل جميعًا، وأن هذا الإعياء يمكن إراحة المرء منه، ومتى تعلم المرء أن يستعمل عينيه، وعقله، على نحو لا إجهاد فيه، فإن البصر يقوى، والانحراف يأخذ في الاستقامة.

ومن الحقائق الثابتة أنه كلما كان أداء العضو لوظيفته أحسن، كانت حالة الأنسجة أحسن تبعًا لذلك، وليست العين بدعًا، فتشذ عن هذه القاعدة، فإذا استطاع ضعيف البصر أن يرخى أعصابه ويعفيها من الشد، وأن يحسن استعمال عينيه، فإن الفرصة تسنح للطبيعة، فتعمل عملها.

وكيف نكون على ثقة من أن طريقة الدكتور بيتس أقوم؟ إن الوسيلة إلى الحكم هى النتيجة. وليس أبعث على الثقة من أن النتيجة كانت النجاح فى كل حالة ، ثم إن طريقته قائمة على قواعد سديدة لابد منها للنجاح فى أى عمل. وكل معلم حاذق يقول لك "تعلم أن تجمع بين الاسترخاء والنشاط، وأن تعمل بغير إجهاد، وأن تكد وتجتهد ولكن بدون تشدد".

وقد يبدو أن هذا من التناقض، ولكن الواقع غير ذلك، فإن الاسترخاء على ضربين: سلبى وإيجابى. فأما السلبى فيكون بالراحة والكف عن بذل جهد ما، ولكن هذا لا يكفى لأن الإنسان لا يستطيع أن يقضى عمره فى راحة. أما الاسترخاء الإيجابى فذاك أن تدع جسمك وعقلك يؤديان عملهما على نحو عادى طبيعى لا تكلف فيه ولا قلق، كأن تحمل على نفسك ابتغاء الإتقان، أو أن يساورك الخوف والاشفاق بلا موجب، من أن تخطئ، وكلما صارت "أنا" أبرز، صارت الطبيعة أخفى، وعلم الطب لا ينكر ما يحدثه الشعور بالذات من إيهان المقاومة، وتهيئة الأبدان وإعدادها للمرض. ومتى اشتد القلق أو الفزع أو الجزع أو الحزن وطال، فإن ذلك يستنزف حيوية البدن ويعرضه لأدواء شتى. ولا يعقل أن تخلو الحالة النفسية للإنسان من أثر فى بعض بصره.

ومعنى الرؤية هو أن العقل يطلع على أشياء فى العالم الخارجي بفضل العينين والأعصاب. والعقل والعين والأعصاب تشترك وتتعاون لحصول الرؤية. وكل ما له أثر فى عنصر من هذه العناصر يكون له أثره فى العنصرين الآخرين. والعين والأعصاب وظيفتها الحس والنقل أما العقل فوظيفته الإدراك، والإدراك مقترن بالتجربة، أى بالذاكرة. فالرؤية الصحيحة ثمرة الحسّ الصحيح، والإدراك الصحيح. وقد يكون

السبب فى ضعف البصر راجعًا إلى العين ذاتها، أو يكون سببه مردوداً إلى حالة الكليتين مثلاً أو الغدة الحلوة أو الحلق، أو إلى ما يعتور النفس من حزن أو قلق أو اضطراب أو خوف، وما إلى ذلك من الإحساسات السلبية، فغير مقبول أن تكون النظارات علاجًا لهذا الضعف.

وبعد أن يبسط المؤلف الأسباب التى تؤدى إلى سوء الرؤية، ينتقل إلى بيان ما يتبعه الدكتور بيتس وتلاميذه من الوسائل لتدريب العين على النظر الصحيح، وكله مما لا عسر فيه، وأول ذلك إفادة الاسترخاء السلبى والإيجابى جميعًا. ووسيلته إلى الضرب الأول تظليل العينين بعد إغماضها بالراحتين، بغير ضغط أو فرك أو دعك أو غير ذلك، إلى أن يستحيل مجال النظر كله أسود حالكًا، ويمكن التعجيل بذلك بتخيل السواد أثناء التظليل، إلا إذا أحس المرء أن التخيل يكلفه جهداً. وخيرٌ من تخيل السواد أن يشغل المرء ذهنه بتذكر ما يطيب تذكره من المناظر والحوادث.

ومن الوسائل أيضًا أن يطرف المرء كثيراً، فإن الجفن حين يطرف يغسل العين وينظفها، ويحجب الضوء عنها أيضًا، وقد أثبت علماء النفس أن الحركة من ألزم اللوازم للحس والإدراك، فإذا ظلت الجفون مفتوحة نادرة الحركة فإن العين تُعدى بهذا الجمود.

ولاحظ علماء النفس أيضًا أن هناك علاقة منتظمة بين "الالتفات" و"التنفس". فالمرء مثلاً حين يرنو إلى شىء ليستثبت، يعلق أنفاسه بضع ثوان، أو يتنفس تنفسًا خفيفًا غير عميق، ولابد لصحة النظر من أن تكون دورة الدم وافية حول العين وفيها، ومن أجل هذا يجب أن يتنفس المرء تنفسًا طبيعيًا وهو ينظر.

ويجب أن يُطرد الخوف من النور ولو كان شديداً، فليس للخوف منه داع، والحيوان يحتمل الضوء فى كل حال، ولا يؤذيه ذلك، ومن أجل هذا يستهجن الدكتور بيتس وتلاميذه اتخاذ النظارات السود أو الملونة ؛ لأن الضوء إنما يتعب العين المجهدة، ومن هنا يتولد الخوف من الضوء، وينشأ الشعور بالحاجة إلى حجبه، فالعلاج هو نفى الخوف وإرخاء الأعصاب، بل يذهب الدكتور بيتس إلى حد النصح "بحمام الشمس" للعين. ويقول إنه لا خير من الشمس إلا إذا حدق المرء فيها وشخص إليها، أما مع

الاعتدال والقصد فلا ضرر، وكل إسراف مضرة، وطريقة "حمام الشمس" هى أن تغمض العينين، وترفع الوجه إلى الشمس، وتحركه يمنة ويسرة، بضع ثوان، ثم تفتح العينين وتحرك وجهك ذات اليمين وذات الشمال، فإن ذلك خليق أن يفيدك القدرة على احتمال الضوء.

ولما كانت الحدقة لا تستطيع أن تبصر بكل أجزائها على حد سواء، وإنما ترى على الخصوص ما تأخذه الذبابة التى فى إنسان العين، فإن الرؤية الصحيحة تكون بهذه الذبابة، والرؤية التامة لا تتسنى إلا بالحركة التى تنتقل بها الذبابة من موضع إلى موضع من الشيء المنظور. ومن هنا كان لابد لصحة الرؤية من تعويد العين والعقل أيضاً هذه الحركة اللازمة التى يصف لها الدكتور بيتس ما يرى أنه أعون عليها.

ومن العسير أن نورد فى هذا الفصل الوجيز خلاصة وافية لما اشتمل عليه الكتاب، وكل ما قصدنا إليه من التنويه به هو لفت النظر إلى هذا الأسلوب الجديد فى علاج ضعف البصر، وقد أسلفنا أن المؤلف يقول إنه استفاد قوة فى بصره لم تكن معهودة بعد أن قارب العمى.

وبعد، فليس ضعف البصر مما أشكو، ولكنى احتجت إلى اتخاذ النظارات ؛ لأن أعصاب العين تفقد مرونتها مع ارتفاع السن كما قال لى الأطباء، واحتجت إلى تغييرها كل بضع سنوات، وقد جربت بعض ما وصفه المؤلف فى كتابه ، وقال إنه يكسب العين صحة فى النظر وقوة، وأشهد أنى أصبحت أقدر على القراءة بغير نظارة، وأكثر استغناءً عنها.

فلعل أطباءنا الرمديين يعنون بهذا الكتاب، ولا يبخلون علينا برأيهم فيه.

دراســـة الشعـــراء[١٥٤]

بدأها المرحوم المرصفى وأكملها الأستاذان الإبيارى وشلبى

هو كتاب فى خمسة من الشعراء - امرئ القيس، والأعشى، والنابغة الذبيانى، وزهير، والحطيئة. بدأ به المرحوم الأستاذ محمد حسن نايل المرصفى، وأكمله الأستاذان إبراهيم الإبيارى المحرر بمجمع فؤاد الأول، وعبد الحفيظ شلبى المدرس بالمدارس الأميرية.

كتب منه المرحوم المرصفى الدراسات الثلاث الأولى كلها، وترجمة زهير، ووافته المنية قبل أن يشرح معلقته فتولى شرحها الأستاذان الإبيارى وشلبى، وأضافا فصلاً فى الحطيئة كان فى نية المرحوم المرصفى أن يكتبه.

وأود قبل أن أقول شيئًا فى الكتاب أن أثنى على الأستاذين الإبيارى وشلبى وأحمد لهما عنايتهما بإكماله وإخراجه، فإن هذا منهما وفاء جميل، وإخلاص للعلم يستحق الإشادة به، وأمانة قل من يؤديها فى بلادنا على هذا النحو الكريم.

ولكنى أستغرب أن يخلو الكتاب من كلمة تعريف بالمرحوم المرصفى، فما يكفى ذكر اسمه على الغلاف، ووصف النهج الذى آثره فى المقدمة التى وضعاها ، فمن هو المرصفى هذا الذى أتما عمله ونشراه ؟ أكبر ظنى أنه زميلنا وصديقنا المرحوم المرصفى صاحب مجلتى الجديد وشهرزاد، فإذا صح الظن فليس بمستغرب أن يعالج مثل هذه الدراسة، فقد جاور فى الأزهر زمنًا وتلقى دروسًا فى الأدب على المرحوم الشيخ سيد المرصفى العالم المشهور، وزامل الدكتور طه حسين حقبة طويلة كانا فيها "كندمانى جذيمةَ حقبةً من الدهر حتى قيل لن يتفرقا"[١٥٥] ، وقد استفاد ولا شك من صحبته للدكتور طه فزهد فى الطرائق القديمة ونزع إلى التجديد.

---

(١٥٤) نشرت فى "البلاغ" فى ١٨ يونية سنة ١٩٤٤ (ص ٤).

(١٥٥) القول لمُتمم بن نويرة التميمى فى رثاء أخيه مالك الذى قُتل أثناء حروب الردة بأمر من خالد بن الوليد (المحرر) ..

ولكنى لست على يقين حازم بأن صديقنا القديم هو صاحب هذه الدراسات؛ فليس فى الكتاب كله كلمة واحدة تنفى الشك وتمنع الحيرة، وليس هذا من الإنصاف للمرصفى، فيحسن أن ينشر الأستاذان الإبيارى وشلبى نبذة تعرف الناس بمن تركاه كالجندى المجهول وإن كانا قد اقتاسا به فى طريقة البحث.

أما المنهج الذى جرى عليه المرحوم المرصفى فهو أن يبدأ بموجز يورد فيه "عناصر الموضوع" التى سيتناولها بالبيان ثم يفصل ما أجمل ، فيسوق ترجمة للشاعر يعتمد فيها على ما بقى من أخباره وشعره ثم يمهد لشرح المعلقة بكلمة فيها، ثم يأخذ فى نشر ألفاظها ومعانيها بيتًا بيتًا. ولهذا تعد طريقته أشبه بالطريقة المدرسية، التى يعنى فيها بالتقريب والتيسير، ولا يخلو بحثه من مقارنات بين الشاعر المترجم له وغيره، وملاحظات شتى توخى فيها القصد، وإذا صح ظننا وكان هو صديقنا المرصفى صاحب الجديد فإن بعض هذه الملاحظات يكون مما أفادته صحبة الدكتور طه. وقد ضمن ترجمته لزهير فصلاً وجيزًا فى النقد عند العرب فيه حقائق كثيرة، ولكنه ينقصه الضبط والإحكام، ولعله كان خليقًا أن يراجعه لو أن الله مد فى عمره، وفى الكتاب هنات يسيرة كان من السهل إصلاحها.

أما الأستاذان الإبيارى وشلبى، فقد سارا على الدرب، ولكنهما اكتفيا بشرح الألفاظ دون معانى الأبيات إلا فى الندرة القليلة، ولعلهما اجتزآ بتفسير الغريب لسهولة الشعر. ولغتهما فى ترجمة الحطيئة أجود من لغة المرصفى وأنقى وأقل تكلفًا، ولكن المرصفى أكثر توسعًا وأرحب أفقًا.

وجملة القول إن الكتاب ينفع طلاب الأدب ، ويعين على تحصيل الشعر الجاهلى وفهمه ، ويقرب مناله، ويقلل النفور منه والزهد فيه.

دراسة الشعراء[١٥٦]

بدأ به المرحوم المرصفى وأكمله إبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى

(٢٨٦ ص، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٤٤)

هو كتاب في دراسة خمسة من الشعراء: امرئ القيس، والأعشى، والنابغة الذبياني، وزهير، والحطيئة، بدأه المرحوم الأستاذ محمد حسن نائل المرصفي وأتم منه دراسة امرئ القيس والأعشى والنابغة، وترجمة زهير، ثم وافاه الأجل، فتولى الأستاذان الإبيارى (وهو محرر بمجمع فؤاد الأول) وشلبى (وهو مدرس بالمدارس الأميرية) إكماله، فشرحا معلقة زهير بن أبى سلمى، وترجما للحطيئة، وساقا مختارات من شعره.

تلقى المرحوم المرصفي علومه في الأزهر، وكان زميلاً للدكتور طه حسين، وصديقًا له لا يفارقه حتى كأنهما المعنيان بقول الشاعر:

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتفرقا

فلما تفرقنا، كأنى ومالكًا ... لطول افتراق لم نبت ليلة معا[١٥٧]

وكان شيخه فى الأدب أيام الطلب المرحوم الشيخ سيد المرصفى العالم الأديب المشهور، فاستفاد منه دقة وقدرة على تفتيش الكلام وإحسان النظر فيه، ونفعته صحبته لطه فاتسع أفقه، واستطاع أن ينظر فى الأدب القديم من الناحية التى هى أضوأ له، وكانت فيه حذاقة ولوذعية وبصر.

---

(١٥٦) نشرت فى "المقتطف" فى يولية سنة ١٩٤٤ (ص ١٧١ - ١٧٢) "قارن بالمقال السابق" (المحرر).

(١٥٧) البيتان من الطويل وقد سبقت الإشارة إليهما (المحرر).

وترك الأزهر، كما تركه طه، قبل أن يستوفى حظه من علومه، ويظهر أنه ضاق صدراً بأسلوب التعليم فى الأزهر، وكان ذا يسار فلم يضره ذلك ولم يشق عليه، غير أنه أبى القعود والكسل، فتولى تدريس اللغة العربية فى مدرسة الفرير، وأصدر طبعة أنيقة بالشكل الكامل والصور لكليلة ودمنة، ثم نفض يده من التعليم، وتولى إدارة جريدة السياسة زمناً طويلاً، وفى آخر عهده بها، أصدر مجلته الشهيرة "الجديد" على غرار حديث من حيث الشكل والموضوع، ثم أردفها بأختها "شهرزاد" وقصرها على القصة، فكانت أول مجلة فى بابها تصدر فى مصر.

وعكف فى أثناء ذلك على "دراسة الشعراء" فكان فى فترات الراحة وخلو الذرع يقرأ ويكتب، فأتم، كما أسلفنا، امرأ القيس والأعشى والنابغة وترجمة زهير، وشرع فى الطبع قبل أن ينتهى من الكتاب، ولكنه مرض وثقلت عليه العلة، ثم وافاه الحين، فظلت الملازم المطبوعة مهملة لا يدرى بها أحد، حتى تذكر السيد مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية ما كان يعرفه من أمر هذا الكتاب فاستنفذه واستعان بالأستاذين الإبيارى وشلبى على إتمامه، ففعلا وتوخيا، ما استطاعا، منهج المرحوم المرصفى فى البحث.

ولكن الغريب أنهما فاتهما أن يقولا كلمة فى المرصفى، فلست ترى أكثر من اسمه على الكتاب، وكان فى وسعهما أن ينصفاه – لولا السهو – بنبذة وجيزة تعرف القراء به، وتخرجه من هذه الظلمة، فقد كان رحمه الله على نشاطه وكثرة دخوله فى الأمور العامة، وطيب مخالطته للناس، جم التواضع يؤثر الانزواء، وينفر من الظهور، ويأنف أن تأخذه خفة من الزهو، فجنى عليه هذا، فلما وافاه الأجل لُف عليه كفنان(١٥٨) .

وثم مسألة أخرى: هى أنا لا ندرى لماذا آثر الإبيارى وشلبى الحطيئة خاصة، وأهملا بقية شعراء المعلقات أو المطولات كما تسمى أحياناً؟ وكان المعقول، والمنتظر أن يسيرا على الدرب، فيتناولا بالدرس واحداً آخر – على الأقل – من أصحاب المعلقات إذا كانت أزمة الورق تحول دون ما هو أكثر.

---

(١٥٨) مثنى كفن ! (المحرر) .

وطريقة المرصفى فى البحث هى أن يبدأ بإثبات "عناصر الموضوع" أى بإجمال لما سيفصله فيما بعد، ثم يسوق ترجمة الشاعر ويقول ما يعن له فى خصائص شعره، وطبقته، وأثره، ثم يتناول معلقته ويصفها قبل أن يشرحها، بيتا بيتا- لفظا ومعنى.

وهذه الطريقة تشبه أن يكون الغرض منها التيسير على طلاب الأدب، فإن فى الكلام دقة مع الإيجاز، وعناية بجلاء كثير من الغوامض التى يشقى بها المبتدئ، وله إلى جانب هذا آراء كثيرة فى الأدب والنقد، وتعليل النزعات، وأثر البيئات المتفاوتة، وإلى أى حد يجوز استخلاص اختلاق الشاعر من شعره، وغير ذلك مما لا يتسع المقام لبسطه.

أما الأستاذان الإبيارى وشلبى فقد جريا على طريقته فى الترجمة وشرح الشعر، ولكنهما لم يتوسعا كتوسعه فى البيان، وليس لهما مثل ما له من الآراء والأحكام، وقد اكتفيا من الشرح بتفسير الألفاظ دون معانى الأبيات إلا فى الندرة القليلة.

وفى الكتاب هنات طفيفة لعلها من أغلاط المطابع، وهى أوضح من أن تحتاج إلى إشارة.

رحم الله المرصفى. كان على شىء غير قليل من الأدب والعلم، ولكن تواضعه حجب فضله، وكان رحب الجناب وافر الخير، وما من أحد من إخوانه إلا وللمرصفى عليه فضل من سجايا النفس ومروءة القلب، فحرام أن يخرج كتابه وليس فيه من ذكره إلا اسمه على غلافه، ولو كان هذا قبراً لطمعنا أن تخط على صواه كلمتان وسنتان!

سيد العزبة[١٥٩]

قصة امرأة خاطئة "لبنت الشاطئ"

ظهرت في زماننا هذا في إنجلترا وأمريكا وغيرهما نساء كثيرات اشتهرن شهرة الرجال، في عالم التأليف، ومنهن من نالت جائزة نوبل مثل بيرل بك، في سنة ١٩٣٨ ، وقد خطر لي أن المرأة فقد تكون أقدر على فهم المرأة وأعرف بها، وأصدق وأدق تصويراً لها وأبصر بطبيعتها من الرجل، ومن أجل هذا تتبعت ما كتب هؤلياتكن، أو معظم ما كتبنه، لعل واحدة منهن تجلو لي ما يتلبس عليّ من أمر هذه المرأة التي لا أرى طبيعتها تجري مع طبيعة الرجل على استواء، غير أني لم أستفد منهن شيئًا يستحق الذكر، وكثيراً ما كان يخيل إليّ أني أقرأ كتاب رجل لا امرأة، إلا "إثيل مانن" فما استطعت أن أنسى أنها أنثى، ولاسيما في روايتها "لنداشون" وإن لم تكن خير ما كتبت.

ويخطر لي في تعليل هذا – وقد أكون مخطئًا – أن المرأة ما زالت في قيد الرجل وإن كانت تظن أنها تحررت وأنها لتتعلم ما يتعلم الرجال وتزاول ما يزاولون من الأعمال والحرف، وتفعل ما تشاء كما تشاء، ولكن أثر الخضوع للرجل ألوفًا من السنين الطوال المدد لا يُمحى في عشر سنوات أو عشرين أو مائة، وهي تتعلم ولكن علوم الرجل، وتدرس أدبه، وتتتلمذ عليه، فهي ما زالت – على تحررها المزعوم من ربقته – خريجته وأديبته، فرأيها في الحياة وفي نفسها مستمد من رأي الرجل، ومأخوذ عنه. على الرغم من اللغط بالحرية والاستقلال، فإن عهدها بهما أحدث جداً من أن يعفي على آثار القرون، ذلك رأيي والله أعلم.

(١٥٩) نشرت في "البلاغ" في ٢ يولية سنة ١٩٤٤ (ص ٤) .

أقول ذلك وأمامي رواية اسمها "سيد العزبة" للأديبة المصرية البارعة بنت الشاطىء نشرتها لها مطبعة المعارف ومكتبتها. اسمها "سيد العزبة" ومدارها على خادمة صغيرة لهذا السيد الشاب الوسيم الذى آلت إليه العزبة من حيث لم تكن تتوقع زوجة أبيه ، وكانت لا تدرى أن له وجوداً ، وقد رسمت المؤلفة صورة هذا السيد من وراء السحاب، أعنى أنها صورته للقراء كما تتخيله الفتاة وتحلم به وهى مقيمة فى مساكن الخدم تسمع به، وتتلهف على رؤيته، ولا تجرؤ أن تدخل القصر الذى يعيش فيه، وهى صورة بارعة، مزدوجة للفتاة الساذجة نفسها، وللسيد كما يبدو لخيالها من جملة ما وقع فى نفسها فى أخباره.

وخلاصة قصة الفتاة أن أباها تزوج على أمها فسامتها ضرتها الخسف، وشهرت بها واتهمتها فى شرفها فحملها بنو عمها، وبقيت الفتاة - سميرة - مع أبيها وزوجته "غريبة منبوذة" حتى كان يوم حملها أبوها فيه إلى سيد العزبة وأمرها أن ترضى سادتها ليحتفظوا بها فليس لها عند غيرهم مكان. ولم تعد تراه بعد ذلك إلا فى أول كل شهر حين يأتى ليأخذ أجرها الضئيل من وكيل السيد.

وعاشت سميرة مع زميلاتها من الخدم وكان بينهن من قربها السيد إليه وآثرها بالحظوة عنده، ولهذا كانت أنقى ثياباً وأحسن هنداماً وأنظف على العموم، فاشتاقت سميرة أن تحظى بقرب السيد وتفوز برضاه، عملاً بوصية أبيها، فسعت لذلك سعيها وتطورت هذه الرغبة التى لجت بها إلى نوع من الحب، وأقول إنه نوع من الحب لأنه ليس حبًا ، وإنما هو مظهر أنوثة استيقظت وهى موقنة فى قرارة نفسها أنها ملك لغيرها وأن أمرها له لا لها وأنه ليس لها أن تكون إلا كما يشاء السيد، فكان ما لابد أن يكون، فهى خطيئة السيد والبيئة لا خطيئة البنت.

وشاع أمرها بعد أن وضعت ابنها الثالث، وزوجها السيد راعياً هرماً أقامت معه فى كوخه فرماها الناس بالحجارة والأقذار. وأعسر السيد بعد أن تزوج امرأة مسرفة، فبيعت الضيعة وانتقل عمالها وخدمها ودوابها من مالك إلى مالك.

وذهب رجال من الحى إلى سميرة يحملون فاكهة وشايًا وطعامًا ويبغون أن يقضون السهرة عندها فأبت فثاروا عليها ونغصوا عيشها، وشكوا إلى أولى الأمر هذه الخاطئة الآثمة فأجليت عن القرية وتشردت هى وأبناؤها. ثم وجدت المؤلفة لها - على قولها - مكانًا فى ضيعة صغيرة من ضياع الوقف فظلت هناك حتى أدركها الحين.

هذه خلاصة وجيزة جدًا لقصة هذه الفتاة لا ترسم صورة صادقة ؛ لأن هذا عسير، وخير ما فى القصة وصف حياة الخدم فى تلك الرقعة من الريف، حيث لا يزال الفقراء يعتقدون أنهم ملك للأغنياء، وقد وفقت المؤلفة الفاضلة فى تصوير هذه الحياة الريفية الوضيعة أعظم توفيق.

ولم يكن من الممكن أن يقع لسميرة إلا ما وقع لها - من استمتاع سيد العزبة بها ثم من اضطهاد أهل القرية لها. تسألها الراوية: "لماذا يلجون فى مطاردتك ولست "هنا بأول انثى زلت". فتقول: "لأنى أبيت عليهم ما أبحت للسيد ولقد راودونى عن نفسى فاستعصمت ولو فعلت لقتلنى الإثم، وأنا أريد أن أعيش لأنى أم". فتعجب الراوية وتسألها: "يقتلك الإثم؟". فتقول سميرة: "لم لا يا سيدتى؟ إنى أعرف الفضيلة رغم الذى زعموا على أنى ما زلت حتى اليوم أسألهم ما الذى أنكروا منى؟ كنا جميعًا ملكًا للسيد، يعز فينا من يشاء ويذل من يشاء، ورثنا مع الماشية والقصر والأرض عن أبيه، ثم باعنا جميعًا إلى سيد جديد، لم يسأله أحد عما فعل، فأين الفرق بيننا وبين الإماء والعبيد؟ لقد كان للسيد فىّ حق المالك فيما ملكت يداه، نشأت فى أرضه، وربيت فى قصره، وعشت معه ما شاء، ثم تزوجت حين شاء ممن شاء، كان سيدى وولى نعمتى ووالد صبيتى الصغار ولكن ما شأن هؤلاء الناس؟ أى حق لهم على، وما فيهم من رعانى يومًا، أو كف عنى أذاه؟ أو لم يكونوا مثلى عبيدًا لسيد الأرض؟ ومتى كان للعبد مثل هذا الحق على أخيه العبد؟ كلا، لن أكون لأحدهم يومًا. إن المرأة الخاطئة التى يرجمونها ويهيلون عليها التراب، ويسمونها بميسم العار هى الأنثى التى وقفوا على بابها بالأمس يستجدونها ويلتمسون الإذن بالدخول لديها. وإنى لأحتقر فضيلتهم وأزدرى طهرهم، وأجد من أمومتى التى زعموها آثمة، قوة أملك معها أن أوصد بابى فى وجوههم معتصمة بكل ما فى هذه الأمومة من معانى الطهر والحق والسمو والإيمان".

وقد لا تحسن سميرة أن تحتج هذا الاحتجاج القوى، ولكنه لا شك فى أن الراوية أو المؤلفة أحسنت الترجمة وأجادت الإعراب عما تنطوى عليه هذه النفس المسكينة التى جنى عليها ما ورثت الأمة فى عصور الاستبداد والظلم.

قرأت هذه الرواية البارعة فى جلسة واحدة، بنادى الصحفيين يوم تلقيتها، ولست أجهل الريف فإن لى فيه لأهلاً وإن لم يكن لى فيه غيرهم ، لكنى لا أدعى أنى أحسن تصويره - لو حاولته - على هذا النحو. وقد قمت وأنا أقول لنفسى إن هذه الحياة الموقرة بما أورثتنا قرونا طويلة من العسف والخسف جديرة بأن تصور، وتستثار عليها النفوس، ولقد كتبت مراراً أدعو حكام الأقاليم أن يعاملوا الفلاحين بالحسنى، وأن يتوخوا معهم العطف والعدل، وأن يشعروهم أنهم مثلهم ، وأن لهم عليهم حق الرعاية والإنصاف، عسى أن يؤدى هذا على الأيام إلى محو ما يسميه "الكواكبى" "طبائع الاستبداد" فما لأمة أمل فى حياة كريمة إذا كان السواد الأعظم والجمهور الأكبر من أبنائها قد ورثوا الاعتقاد بأنهم عبيد أغنيائهم وملك للسراة فى قراهم، وأنهم ليسوا أرفع مقاماً من الماشية ودواب الحمل. فلعل هذه الرواية ونظائرها تجدى حيث لم تجد دعوتنا. فإنها دعوة قوية إلى الإصلاح - لا إصلاح [البرك] ، بل إنقاذ الإنسانية التى تتمرغ فى حمأة الذلة والعبودية.

عبقرية خالد[١٦٠]
للأستاذ عباس محمود العقاد

هو حلقة جديدة يضيفها صديقنا الأستاذ العقاد إلى سلسلة العبقريات التى أخرج منها من قبل خمساً – عبقرية محمد، وعبقرية الصديق، وعبقرية عمر، وعبقرية على، وعمرو بن العاص، وإن كان لم يلحقه بالعباقرة فى العنوان ؛ لأن كتابه فيه – كما رجحنا يوم ظهوره – كان فاتحة لسلسلة أخرى ليس هو مخرجها – ونعنى بها "أعلام الإسلام" فتحرج أن يلحق السلسلة الجديدة كلها "بعبقرياته" ويجعل منها فرعًا من أصل، وقد ترك وصف العبقرية فى كتابه فى عائشة "الصديقة بنت الصديق" إيثاراً منه على ما يبدو لنا للاحتفاظ بالتناسب بين هذه الأقدار المتفاوتة على جزالة حظوظها جميعًا من العظمة.

وكتابه في خالد من أقوى ما كتب، وفى الفصل الأول منه يصحح كثيراً من أخطاء المؤرخين الحديثين والصور الشائعة فى خيال من يقرأون عن البادية، ويبين أن أسباب النصر عند العرب قبل الإسلام لم ينقصها إلا الدعوة الإسلامية التى جاءت فى أوانها، ثم ينتقل فى الفصل الثانى إلى بيان مقام قريش فى جزيرة العرب ومبلغ خبرتها بنظم الحكم، ومنزلة مخزوم منها، وهى عشيرة خالد، ويخلص من هذا إلى أن خالد بن الوليد "دخل الإسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية فصنع للإسلام، وصنع الإسلام له الأعاجيب، وكان مقياس العبقرية العربية فى عهدين متقابلين".

---

(١٦٠) نشرت فى "البلاغ" فى ٩ يولية سنة ١٩٤٤ (ص ٤) .

ثم يتكلم على نشأته، ولا تفوته المشابهة بينه وبين عمر بن الخطاب حتى كان ضعاف النظر يخلطون بينهما من قريب، ولا يميزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض - يستخلص من ذلك تاريخ ميلاده على أرجح تقدير، وقد عنى فى هذا الفصل بالعوارض النفسانية فى أسرة خالد وفى إخوته على التخصيص، وهو بحث له قيمته فى جلاء كثير من أحوال خالد وما يمكن أن نسميه شذوذه.

ثم يشرح كيف أسلم خالد، والمراحل الطبيعية التى لابد من اجتيازها بين الجاهلية والإسلام، حتى نفض عنه الكفر واستراح إلى الدين الجديد، ولم يعد يعنيه مقام قومه وعزتهم فى الجاهلية. ويتناول بعد ذلك مواقفه فى الإسلام واحداً بعد واحد بالتفصيل الوافى، إلى أن عزل فى عهد الخليفة الثانى فأقام بحمص سبع سنوات تقريباً مات فيها بنوه جميعاً وانقرضت ذريته، ثم مات هو على فراشه.

* * *

وقد سمعت من يقول إن الأستاذ العقاد يخرج كتبه هذه بسرعة عظيمة. يريد أن يقول إن السرعة قد تحول دون التحقيق أو التجويد. وليست بالعقاد حاجة إلى دفاع منى أو من سواى، ولكنى أحب مع ذلك أن أصحح هذا الخطأ، فإن السرعة هنا هى فى الكتابة لا فى الدرس، وسرعة الكتابة - إذا صح أن هناك سرعة - لا تمنع أن يكون الدرس قد طال، والتفكير قد استغرق سنوات، ثم إن العقاد يقرأ الأدب العربى والتاريخ الإسلامى مذ استطاع أن يفهم ما يقرأ أى من أيام الحداثة، فهو ليس حديث عهد بما يكتب فيه، بل لعل عهده بذلك أطول من عمر من يستغرب هذه السرعة فى إخراج كتبه. وقد ذكر لنا هو فى كتاب "عبقرية محمد" أن وضع هذا الكتاب اقترح عليه قبل ثلاثين سنة، وقد قضاها فى الاستزادة من القراءة ، والخبرة والرياضة النفسية والفكرية.

وظهر كتابه "عبقرية محمد" فى سنة ١٩٤٢، وما ظهر إلا بعد أن استوفى دراسته للعصر كله برجاله وأحواله وحوادثه فأما وقد فعل ذلك فما حاجته إلى درس جديد سوى تقصى الجوانب الخاصة بالرجال الذين يتناولهم؟ فلا عجب إذا كانت كتبه فى رجال هذا العصر تخرج متلاحقة، فإن العصر كله مبسوط أمامه، وصور رجاله مرسومة فى ذهنه من أيام التحصيل الأولى وقد زادها الدرس الجديد، أو العود إلى درسها على الأصح، بروزاً ووضوحاً وتجسداً.

ثم إن القارئ لا ينبغى أن يعنيه كيف يكتب الكاتب كتابه، وفى كم ساعة أو سنة أو قرن يكتبه، وإنما الذى ينبغى أن يعنيه هو الكتاب نفسه، وقيمته ومبلغ التوفيق فيه. وليست السرعة أو البطء بعيب، وقد كان وولتر سكوت يكتب الرواية فى أسبوع أو عشرة أيام أو أسبوعين، وفى زماننا هذا يكتب مورجان الرواية فى أربع سنوات، ولم يعب أحد سكوت بسرعته، ولا نعى أحد على مورجان بطأه واحتفظت روايات سكوت بقيمتها على الزمن، ولا يزال مورجان فى الميزان، لم يفصل الزمن فى أمره.

* * *

وسمعت من يقول أن الرجوع إلى القديم تضييع للحاضر، ولا شك أن الحاضر حرى بالعناية والدرس، ولكنه درس لا يكون إلا ناقصاً يعتوره الخطأ من جهات كثيرة، لأن المحمول على متن التيار لا يمكن أن يرى التيار كله ولا يفطن إلا إلى ما حوله هو مما تستطيع عيناه أن تأخذاه، على خلاف الواقف على الشط ينظر إلى جملة ما هناك، ويرسل نظره حيث يشاء ويديره فى كل مكان، ويتأمل الجملة والتفاصيل ونعنى به المؤرخ، وإنه لينتفع بما ترك الذين كابدوا، التيار، ولكنه هو وحده دونهم الذى يستطيع أن يتصفح كل ما تركوا، ويزنه ويفحصه ويستخلص منه كل ما يستخلص.

وهل يراد ترك القديم جملة؟ إن تاريخ الأمم كالذاكرة للفرد، ولا ندرى كيف يعيش إنسان بغير ذاكرة، ولا كيف تحيا أمة تجهل ماضيها وترى أن تدفنه وتهيل عليه التراب وترفع فوقه جبلاً شامخاً؟ وكون واحد يكتب فى السير القديمة ويرفع لنا منها صوراً

قبل عيوننا تكشف لنا عن نواحي العظمة فيها، ليس بمانع غيره أن يكتب فيما شاء من قديم أو حديث، فما أصدر العقاد مرسومًا يحرم فيه على الناس أن يكتبوا غير سير العظماء من أهل القرون الغابرة. فلا ندرى لماذا يخطر لأحد أن ينكر عليه ما هو فاعل. هذا شطط فى النقد لا أرى فيه خيرًا، ولا أعرف له داعيًا، ولو أن العقاد قصر همه كله على كتابة السير، ولم يحفل أو يفعل غير ذلك، لما كان لأحد عليه من سبيل، ولا كان حقه إلا أن نثنى على حسن صنيعه، ونستزيده، ولكل امرئ سبيله، وغاية العنت أن تفرض رأيك على غيرك، وأن تحاول إنزاله على حكمك، وذاك مستحيل، وعلى أن الأستاذ العقاد لم يقتصر على السير القديمة فقد كتب في سير المحدثين، وليس شعره [بيسير] ، وله غير هذا وذاك الفصول الجليلة فى الأدب والنقد والفلسفة – أقول هذا وإن كان لا مراء فى أن الأمر كله إلى صاحبه لا إلى من يؤثر هذه السبيل على تلك.

وأكرر أن هذا ليس دفاعًا عن الأستاذ العقاد، وأني لم أقصد أن يكون كذلك وإنما أردت أن أنبه الذين يعالجون النقد إلى أن الواجب أن ينظروا إلى العمل الأدبي فى ذاته غير متأثرين بنزعة شخصية أو هوى خاص، والنقد لازم، ولكنه يفقد قيمته إذا عدل عن المحجة، وصار ميزانه هو ما يحب المرء ويكره على طريقة الصغار.

وسمعت أيضًا من يقول إنه فى هذه العبقريات يثنى بلا تحفظ، فأما أنه يثنى فصحيح، وأما أنه لا يتحفظ فلا، والتحفظ لا يقتضى الضن بالثناء في مواضعه وما اختار لهذه السلسلة إلا عباقرة جديرين بالإكبار والتعظيم، والإنسان يخطئ ويصيب، وليس من حق هفوة أو هفوات أن تطغى على الحسنات والمزايا والفضائل التى استحق بها الرجل مرتبة العظيم، ولا من حق للكاتب أو المؤرخ أن يجسم ما يحصى من هنات حتى يجعلها ترجح على المزايا، ولو فعل لما كان منصفًا، ولا أهلا للثقة، والعدل أن يوضع المرء بخيره وشره فى كفتى الميزان فأيهما رجحت كان عليها المعول فى الحكم ووجب حينئذ أن لا نجاوز بالكفة الأخرى قدرها المرجوح، وهذا هو الذى توخاه الأستاذ العقاد فى عبقرياته. فهو يعطى من يتناولهم فى كتبه حقهم من الإعجاب، فى غير ضن، ولا يهمل الهنات ، ولكنه لا يعدو بها مقامها ولا يجسمها أو يهول بها. ولو فعل غير ذلك لكان على غير النهج القديم.

أبو نواس[١٦١]
للأستاذ عبد الرحمن صدقى

أخرج صديقنا الأديب الشاعر الأستاذ عبد الرحمن صدقى كتابًا فى أبى نواس نشرته لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية فى سلسلة أعلام الإسلام، وليس أبو نواس، ولا بشار، من أعلام الإسلام، ولكنهما من أعلام البيان فى دولة الإسلام، فلا حاجة إلى الاعتذار. على أن صديقنا رأى مع ذلك أن يعتذر عن حشره أبا نواس، وعن حشرى بشارًا فى زمرة الأعلام بقوله فى المقدمة إن هذه السلسلة ليست وقفًا على الهداة الصالحين والفقهاء وأهل الاجتهاد وأبطال الحرب، وإنما تشتمل على كل من تفيد الترجمة لحياتهم فى تمثيل وجه من وجوه الحياة الاجتماعية فى العالم الإسلامى حتى تخلص من ذلك صورة كاملة صادقة لما كانت عليه تلك العهود.

وقد توخى الأستاذ صدقى فى كتابه "إظهار المترجم له شخصية حية موصول الرحم بآبائه، معقود الأسباب بعصره، يستبان هنا وهناك فى سماته وتصرفاته عرق الوراثة وأثر البيئة" مع الحرص على "تجلية حياته الوجدانية وتطوراته النفسية... فيعود أبو نواس بعد نيف ومائة وألف سنة على عالم الحياة بشرًا سويًا كما بقى فى عالم الأدب شاعرًا متدارس الشعر متعارف القدر عبقريًا".

وعلى هذا يكون الكتاب ترجمة لأبى نواس لا دراسة لشعره، وإنه لكذلك، وإن لم يخل من نظرات هنا وهنا وملاحظات على أثر العصر وعلومه ومعارفه فى شعر

---

(١٦١) نشرت فى "البلاغ" فى ٧ أغسطس سنة ١٩٤٤ (ص ٤) .

الشاعر. وأقول فى غير تحرز إن الكاتب وفق فيما قصد إليه، ولم يبالغ فى قوله إنه "قد تهيأ له تأسيس البنيان وإقامة الأركان وملء الفجوات بما يتفق مع منطق الحياة دون أن يخلو قول من سند له، أو على الأقل من مصداق على جواز صحته" ، فجاءت الترجمة - كما قال أيضًا - "مطردة السياق متصلة الحلقات تنتظم حياته فى نشأته إلى وفاته مرحلة بعد مرحلة".

ولسنا نرى أن نزيد على وصفه لكتابه وما توخى فيه ورمى إليه، شيئًا، فما زاد على أن قال الحق، وخلاصته أنه أجاد الترجمة وأخرجها حية.

وأشد ما كنا نتمنى أن يوجز قليلاً فى هذه الفصول ليتسنى له أن يضيف فصلاً أو فصلين فى شعر الشاعر، فإنه هو نفسه شاعر مجيد، وفيه حذق وله بصر بهذا الفن الجليل، وكان خليقًا برأيه فيه أن يزيد القارئ معرفة بشعر أبى نواس وفهمًا له، ولكن لعل ضيق النطاق حال دون التفتيش. وكان بودنا كذلك أن يجلو لنا مسألة زواجه أو اكتفائه بالجوارى فإن أبا نواس يذكر فى شعره بنتين له يسميهما ولدًا ، ولا ندرى أيعنى بهذا اللفظ البنين على العموم أم كان له ولد من المذكور.

وقد وصف المؤلف البصرة التى نشأ فيها الشاعر أول ما نشأ، وصفًا أراه على جماله وعلى الصدق فيه، يحتاج إلى قدر من التحفظ. قال: "كانت البصرة حاضرة عظيمة من حواضر العلم، وأحد المصرين - البصرة والكوفة - اللذين كانا قبل بغداد يقومان على إشاعة المعارف والعلوم العربية وسائر البحوث العقلية والنقلية، ومذاهب الكلام وألوان الأدب وضروب الثقافات. وكانتا فى ذلك تتنافسان وتتكاثران بالنوابغ والعظماء فى كل حلبة وميدان. وكانت البصرة كذلك، بما يزحم أسواقها من التجارات وما اجتمع فيها من الأموال والخيرات، حاضرة عظيمة من حواضر اللهو تعج بما فيها من الملاهى وأسباب اللذة وموجبات الفتن والغوايات".

فأما أن البصرة كانت حاضرة عظيمة من حواضر العلم والأدب فصحيح لا شبهة فيه، وأما أنها كانت تعج بما فيها من الملاهى وأسباب اللذة وموجبات الفتن والغواية فهذا فيما أعلم هو الذى يحتاج إلى بعد التحفظ، وما أظن أن مدينة كبيرة تخلو من

لهو وعبث ودواعى فتنة وأسباب غواية، ولكن البصرة كانت فى ذلك العهد أميل إلى الجد وآثر له، وأزهد فى المجون وأشد نفوراً منه من الكوفة، وفى كتاب الأستاذ صدقى الدليل على ذلك فقد ذكر فى صفحة ٢٦ أن الخليفة أبا جعفر المنصور ولى محمد بن أبى العباس السفاح على البصرة وأصحبه قوماً يعاب بصحبتهم ومجاناً زنادقة ليبغضه ذلك إلى الناس فيرتفع ابنه المهدى عندهم. وما كان أبو جعفر المنصور ليفعل ذلك ، ويحتال هذا الاحتيال إلا وهو يعلم نفور البصرة من المجون والزندقة.

وقد كان المعتزلة وأهل الورع والتقوى أقوى ما يكونون فى البصرة، ولم يفت المؤلف فى تقصيه أن يذكر كيف هدد شيخ من شيوخ المعتزلة أحد دعاة الزندقة حتى أخرسه، وكيف هتف واصل بن عطاء إمام المعتزلة ببشار حتى نفى من البصرة ، فلما عاد إليها بعد موت واصل سعى شيخ من شيوخ المعتزلة به حتى نفى ثانية!

وكان المجان والزنادقة من شعراء ذلك الزمان تضيق بهم البصرة ولا تضيق بهم الكوفة، بل المغنون أيضاً وأهل اللهو والعبث لم يكن يطيب لهم المقام فى البصرة، فكانوا لا يكادون يقبلون عليها حتى يرحلوا عنها غير آسفين.

وليس معنى ذلك أن البصرة خلت فى ذلك العهد من اللهو والمجون والقصف، فما تخلو مدينة من ذلك ، ولكن هناك فرقاً بين قصف ولهو فى بيت أو بستان أو حانة، وبين شعر يحض على ذلك ويزينه ويغرى به، وهذا ما كان يكرهه أهل العلم والتقوى ويحاربونه.

ورأينا بيتاً مروياً على غير وجهه، وذلك فى القصيدة الساخرة التى بعث بها[١٦٢] إلى الفضل ابن الربيع (ص١٦٣):

لو ترانى ذكرتَ للحسن البصـ ـرىّ فى حُسنِ سَمته، وقتاده

(١٦٢) أى أبو نواس وهى من الخفيف وفى رواية أخرى "أو قتادة" (المحرر) .

والصواب فيما نعلم: "لو تراني ذكرت بي الحسن البصري إلخ". وأظن أن هذا من أغلاط الطبع.

وجملة ما يقال في هذه الترجمة البديعة أن المؤلف كتبها بروح العطف على الشاعر المرزوء الذي عدل به سوء حظه إلى النهج الأعوج والسيرة النكراء، ولا خير في الكلام على ما كان حريًا أن يكون لو لم يلتق بوالبة فلم يفسده هذا الفاسق العيار، حتى صار المجون عادة له وكالطباع فيه، وإن كان في حكاية والبة معه شك غير قليل، وما أظن إلا أن عبقريته كانت خليقة أن تتبدى في صورة أخرى.

(٢)

الملك فاروق للأستاذ كريم ثابت بك

نشرت سلسلة "اقرأ" التي تصدرها مكتبة المعارف، كتابًا لزميلنا الفاضل الأستاذ كريم ثابت بك عن "الملك فاروق" وقد سبق لزميلنا أن أخرج كتابين كبيرين عن محمد على الكبير والملك فؤاد. ويختلف كتابه الجديد عن كتابيه السابقين في أنه ليس سيرة أو ترجمة وإنما هو وصف لأخلاق الملك، حفظه الله، وشمائله الحلوة وروحه الكريمة وقلبه الكبير وتقواه وتدينه كما عرفها وخبرها الكاتب بنفسه في مواقف شتى بأسلوبه السلس الذي انفرد واشتهر به، وهو كتاب ممتع، يكتسب مزية نادرة من سمو موضوعه فنرحب به ونثني على مجهود الزميل الفاضل وإخلاصه.

أبو نواس[١٦٣]
للأستاذ عبد الحليم عباس

هو كتاب آخر موضوعه أبو نواس الشاعر العباسي، مؤلفه الأستاذ عبد الحليم عباس من أدباء عمان – شرقى الأردن – نشرته له مكتبة المعارف فى سلسلة "اقرأ".

وقد تناولنا فى مقال سابق كتاب الأستاذ صدقى، ونقول فى هذا الفصل إن المؤلفين الأديبين يتشابهان فى الإحاطة بأخبار أبى نواس وشعره، وقد أثبت الأستاذ صدقى فى كتابه أسماء المراجع التى اعتمد عليها، أما الأستاذ عبد الحليم فأهمل ذلك، ولكن وفاء إحاطته بموضوعه ظاهر من كتابه بغير حاجة إلى ذكر المصادر أو المراجع.

وكتاب الأستاذ عبد الحليم أوجز ولكنه لم يترك شيئًا، وفيه على إيجاز، بعض ما أهمله الأستاذ صدقى مما لا يقدم ولا يؤخر، ولكنه لا ترتيب له ولا نظام، وإن لم يكن هذا مما يصح أن يعاب به الكتاب.

وقد دافع عن أبى نواس فى مواطن شتى، فنفى عنه ما علق به من جراء صحبته لوالبة، وليس لهذا قيمة، وصحيح أن فيما جرته عليه هذه الصحبة شكًا غير قليل، وإن ما يعزى من الشعر القبيح إلى أبى نواس كله أو أكثره منحول على الأرجح، ولكن المهم والذى له قيمة هو أن صحبة والبة وأنداده عدلت بأبى نواس عن نهج إلى نهج، فلو أنه لم يعرف والبة ومن إليه من العيارين لكان الأرجح فى الاحتمال أن تكون سبيله فى الشعر وفيما يتناوله فيه من الأغراض غير ما صار إليه.

---

(١٦٣) نشرت فى "البلاغ" فى ١٣ أغسطس سنة ١٩٤٤ (ص ٤) .

ونفى عنه الشعوبية أيضًا فأصاب، وهون تهمة الزندقة وقال: "إن الشاعر يترجم عن عواطفه أولاً وهذه العواطف تسكن وتثور، وترضى وتغضب، فتجىء بحالاتها هذه التى يترجمها الشاعر شعرًا بما يحمل على الإيمان وما يحمل على الجحود وفى الشيء ونقيضه، وقد يكون الشاعر لم يقصد هذا كله أو قصده فى لحظة ولم يقصده فى كل اللحظات، ويجيء مؤرخو الأدب فيقول أحدهم آمن الرحل، ويقول غيره بل أغرق فى الإلحاد، وكلهم يدلل على قوله بحديث لحظة من تلك اللحظات التى مرت بحياة الشاعر، وليس هذا هو الحق والصواب وإنما الحق والصواب أن تمزج هذه اللحظات التى تكون حياة الشاعر ثم يمزج معها حالة مزاجه ويستخرج من هذا كله حديث الإيمان والجحود. وهكذا يجب أن يكون الأمر فى زندقة النواسى".

وبعد أن ساق طائفة من الشواهد انتهى إلى "أن حالة النواسى لم تكن لتساعده على زندقة مغرقة وكفر، ولكنها تساعده أتم مساعدة على التطرف بالاستهانة بألفاظ الدين... وأن "حديث الزندقة عند النواسى هو حديث أعصاب متقلبة، وليس المستغرب منها هذه الحالات من الإيمان والتطرف الموفى على الزندقة، وإنما المستغرب أن تكون إلى غير هذه الحالات ما برحت مضطربة غير مستقرة".

وأنا أوافقه على جملة الرأى. ومن أصدق ما قاله الكاتب فى أبى نواس أنه "لم يرتفع فى ملذاته عن رغائب الحس القريبة التناول ولم يشغل باله وخاطره بغيرها وبغير الحديث عنها حتى الطبيعة إذا صار إلى وصفها لم يستطع أن يصف منها إلا الجانب الذى يراه طالب هذه اللذائذ، ففيها ورد وريحان، وفيها ماء وأغصان، وهذا مما يعين على الشراب فكأن هذه الطبيعة حانة لرواد الحانات بل هى ليست شيئًا، وخير من وصفها وصف الخمر".

وقوله: "ومن الظلم أن تحمل أعصاب النواسى (ما يجاوز طاقتها) ونطالبها بفلسفة فيما عدا الحديث العابث فى الخمر واللهو وما يتبعهما من مجانة ؛ إذ كنا لا نستطيع أن نقول للنواسى فى معرض من معارض الفكر أصبت أو أخطأت ولا هو يطلب ذلك منا، ولكنه يطلب ويلح فى الطلب ونستطيع أن نقول له أجدت فى هذا

الوصف وأبدعت فى الشعر وأطربت، وبذلك نريح أنفسنا من عناء لا طائل تحته فى البحث فى ديوانه عن أبيات تستهدف غايات فلسفية أو هى من أبيات الحكمة ثم نتخذها دليلاً على أن النواسى كانت له فلسفة وكان حكيما!!".

وقوله: "إن شهرة النواسى تستمد من قوة شعره (ونحن نخالفه فى وصف شعره بالقوة) وبراعة وصفه وتصويره، وتستمد أيضًا من هذه السيرة الداعرة بل هى مدينة لهذه السيرة أكثر من دينها لقوة الشعر وما كان ليخفى على النواسى، وهو الذكى أية شهرة يمدها له سلوكه هذا إلى الجانب الذى [يستهينه] الشعراء".

وقوله: "وكان النواسى يعلم أنه لا يجيد المديح إجادة]العتاهى [على الأخص، وأما الغزل فما نظنه كان يجهل أن شعره فيه تنقصه عواطف المحبين حقا وقد جرب نفسه فى البصرة فلم يأت بكبير طائل. فلم يبق إلا وصف الخمر والإغراق بهذا الوصف حتى يعرف بأنه شاعرها".

ثم يقول: "ليس المعول فى تقدير قيم الشعراء والأدباء على سلوك طريقة جديدة أو قديمة، وإنما هو على مقدار الإبداع فى هذه الطريقة".

وقد أطلنا الاقتباس، لأننا استغربنا أن ينتهى بعد هذه المقدمات إلى نتيجة لم تكن منتظرة، فقد جاء فى ختام هذا الفصل أن منزلة أبى نواس منزلة رفيعة بلغها بحق وعن جدارة بهذا الشعر (الذى بين أيدينا) ، وإن الركاكة القليلة التى لا يخلو منها شعره لا تضير هذه المجموعة والثروة الضخمة من شعره الذى هو من مفاخر الشعر العربى".

فأما أن أبا نواس شاعر فهذا ما لا شك فيه، وأما أن شعره ثروة ضخمة ومفخرة من مفاخر الشعر العربى وأن الشاعر بلغ هذه المنزلة التى لا يزال يتبوأها بحث وعن جدارة - فهذا ما نخالف المؤلف فيه. فلسنا نراه أكثر من شاعر ظريف مجيد فى بابه على قلة قيمته، يطيب للمرء أن يتسلى ويتلهى به فى ساعات الفراغ حين يؤثر اللهو على الجد ، ولكنه ليس بشاعر عظيم ولا من شعراء الطبقة الأولى، ولو ذهب شعره كله

ما نقص الأدب العربى شيئًا يستحق الذكر أو الأسف. وما على القارئ إلا أن يسائل أيهما يخسر الأدب العربى بضياع شعره خسارة جسيمة المعرى والمتنبى وابن الرومى مثلا أم هذا النواسى؟" وأحسب أن الجواب مما لا يقع عليه الخلاف. وإذا نحن وصفنا أبا نواس بالعظمة، ووضعناه فى الصف الأول فبماذا نصف المعرى والمتنبى وأين نضعهما يا ترى؟ وأين يكون محل ابن الرومى وأبى تمام إلخ إلخ.

إنه شعر لهو وعبث يبتسم المرء وهو يقرؤه – وقد يرثى لقائله أحيانًا – ويتسلى به ويعجب ببراعته فيه، ولكنه لا يوسع أفق النفس أو العقل، ولا يعمق الشعور ولا يترك أثرًا له شأن فى الحياة.

كلا، لم يكن أبو نواس إنسانًا فحلاً، أو شاعراً فحلاً ، وإنما كان مخلوقًا ضعيفًا عجز عن النهوض بأعباء الحياة فلاذ بالخمر وعكف عليها فراراً وخوراً. وقد شرب غيره من الشعراء الخمر واستطابوها ، ولكنهم لم يتضعضعوا كما تضعضع ولم يجعلوا الحياة كلها "خموراً وأموراً" ولا شىء إلا الزق والقينة، وماذا تراه كان يصنع بالقينة وهو مخمور يحسب "الديك حماراً"؟ وكأن الحياة داء وبلاء، ومعاناتها عذاب وأوجاع وشقاء، ومن الرحمة أن يحقن المرء بالمورفين ليستريح منها! وما الفرق بالله بين خمريات صاحبنا وكلام الحشاشين ومدمنى المخدرات فى طيب ما يفيدون من متعة؟ ولسنا ننظر بهذا القول إلى القيمة الأخلاقية للشعر، ونضعها فى المقام الأول، وإنما ننظر إلى قيمة الحياة نفسها وإلى معناها فى نظر الشاعر. وقد أعطينا الحياة لنحياها لا لنهرب منها ونغيب عنها، ولكفى بالموت غيبة طويلة.

وقد آن أن نضع كل شىء فى موضعه ، وأن نضبط موازيننا ونحكمها ونتقى أن نغالى أو نهول بشىء. وليس ألزم لنا من تصحيح الموازين والمقاييس القديمة الموروثة.

والله أعلم.

ثلاثة كتب للدكتور محمد مندور(١٦٤)

ثلاثة كتب أخرجها الدكتور محمد مندور وألقى بها الناس دفعة واحدة، وكفى بهذا دليلاً على أنه أديب وعالم ، ولكنه ليس بتاجر ولا علم له أو خبرة بالسوق وأحكامها وأحوالها، وما أنا بخير منه، ولكنه اتفق لى مثل ما اتفق له من إخراج عدة كتب فى وقت واحد فاستأذننى الذى اشتراها فى دفعها إلى السوق واحداً بعد واحد حتى لا يعطل بعضها بعضًا، أو يقف الرخيص الثمن فى طريق الذى هو أغلى، فوكلته إلى رأيه، وبقيت أستغرب أن يدخل أحدنا مكتبة فيشترى عشرة كتب لعشرة من الكتاب مختلفين ، ولكنه يستكثر أن يشترى كتابين لمؤلف واحد. وعسى أن يكون ذلك راجعًا إلى الرغبة فى اتقاء الملل، أو إلى نشدان لذة التنويع، ولا شك أن العكوف على مؤلفات كاتب واحد أو آثاره، لا يخلو من إملال، ولكنى مع ذلك أرى أن هذا أعون على حسن الفهم وصحة التقدير، والإحاطة بخصائص الكاتب وجوانبه المتعددة.

وأول هذه الكتب الثلاثة، "من الحكيم القديم إلى المواطن الحديث" وهو عبارة عن دراسات فى الثقافة الأخلاقية أو محاضرات لخمسة من أساتذة الجامعات الفرنسية، المعاصرين لنا، وهم بوجليه، وبرييه، ودى لاكرواى، وبارودى، وبول لابى، وقد نشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر هذا الكتاب فى سلسلتها "عيون الأدب الغربى".

ولم أقرأ لهؤلاء الأساتذة الخمسة شيئًا من قبل، فأنا جاهل بأقدارهم ولا أحسب أن هذه المحاضرات وإن كانت متخيرة، كافية لتعريفى بهم تعريفًا صحيحًا، ولكنى أفدت منها معارف جمة، وقد علق عليها الدكتور مندور، تعليق تفسير وتعريف فى مواضع كثيرة ليزيد الانتفاع بهذه الدروس القيمة.

---

(١٦٤) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩٤٤ (ص ٤) .

والكتاب مهدى إلى الأستاذ أحمد أمين بك "وقد تلقى المترجم المعلم عليه بالجامعة قبل سفره إلى أوربا .

والكتاب الثاني "نماذج بشرية" ومقدمته بقلم السيدة الأديبة الفاضلة ملك عبد العزيز زوجة المؤلف، وتلك ولا ريب سنة جديدة فى مصر كما يقول المؤلف، ولكنى أراها حميدة ومن أولى منها بهذا التقديم وهى كما يقول المؤلف "إن يكن هناك إنسان قد أحس بكل ما وضعت فى هذا الكتاب من تفكيرى وإحساسى فهو لا ريب هذه الزوجة العزيزة" .

والمقدمة من وفاء الإحاطة بحيث لا أرى محلاً لزيادة عليها، ومن أجل ذلك اكتفى باقتباس فقرات منها على سبيل التعريف بأسلوب الكاتب فى تناول الموضوع.

قالت: "هى دراسة ، فالمؤلف يحيط بتاريخ الكتاب، وبملابسات ما كتبوا وبالآراء المختلفة فى فهم شخصياتهم والحكم عليها . يبرز ذلك حيث لا يثقل، ويطويه حيث يفضل الطى، هى "كالنور الداخلى" يضىء، دون أن يعشى، فلئن كان المؤلف يحرص على إيراد الحقائق التاريخية حول الشخصية وخالقها، فإنه لا يدعها تطغى على الخلق الفنى فتجفف ماءه، بل هو لا يوردها جملة واحدة بل يحال لينشرها هنا وهناك حيث توحى المناسبات" . "ومن وسائله الجميلة فى إيراده الحقائق التاريخية أن تراه يمزج بين النموذج ومؤلفه حين يرى أن المؤلف إنما كان يصور جانبًا من نفسه فى أنموذجه، وفى هذا ما يجسم الشخصية الروائية حتى لتحسبها ولدت وعاشت واضطربت فى الحياة بالفعل" . "وعلى الرغم من أن المؤلف إنما قصد إلى إحياء "النماذج البشرية" إلا أنه لم يغفل أن يسوق شيئًا من النقد لفن الكاتب أو لطبيعة العمل الفنى، ولكنه يسوق ذلك كعادته سوقًا محكمًا بحيث لا تحس له نفرة أو إقحامًا" .

والنماذج عديدة بعضها قديم، والبعض حديث، وقد تناول فى جملة ما تناول روايتى "إبراهيم الكاتب" فله منى الشكر على هذا التقدير الكريم الذى لم أكن أطمع فيه، ولست أقول ذلك تكلفًا منى للتواضع، ولا لأنى سيئ الرأى فى كتبى، ولكنى أنا مؤلف الرواية ، فأنا أعرف الناس بمواطن الضعف والقصور فيها، ثم إنى أقرأ خير ما

فى الأدب العربى والآداب الغربية، فلا يسعنى حين أقيس ما أكتب إلى ما فى هذه الآداب من الخارجيات الخالدة على الزمن، إلا أن أشعر بأنى ما زلت طفلاً يحبو. ولقد كففت عن الشعر لأنى قست ما نظمت إلى ما أقرأ من براعات الشعراء، فاستضعفته وعلمت من ذات نفسى أنه لا أمل فى بلوغ تلك المراتب العليا، فآثرت أن أقصر ، وأن لا أتكلف ما لا أحسن. فليس الأمر عندى أمر تواضع متكلف أو حقيقى، وإنما هو أمر درس للنفس وطاقتها، ونفور من مغالطتها فى الحقائق. وليس أحمق ممن يغالط نفسه.

والكتاب الثالث "فى الميزان الجديد" وهو مهدى إلى الدكتور طه حسين بك اعترافًا من المؤلف بجميله عليه وحسن صنيعه معه ومعاونته له على إتمام التعلم فى أوربا، وذلك منه وفاء جميل.

والكتاب كما يدل عليه اسمه فى النقد، وقد تناول فيه الأدب المصرى المعاصر، وأدب إخواننا اللبنانيين فى المهجر، وقد أنصفهم إنصافًا جميلاً، وأفرد بابًا لمناهج النقد وتطبيقها على أبى العلاء، وبابًا آخر للمنهج الفقهى تكلم فيه على الجرجانى، وبابًا آخر للمناقشات اللغوية كنت أوثر له أن يحذفه أو يكتبه هو وغيره أيضًا كتابة جديدة يخليها من الجدل، وعقد فصلين على كتاب قوانين الدواوين للأسعد بن مماتى، وفصلين آخرين على أوزان الشعر الأوربى والعربى.

ومقاييسه على العموم صحيحة، ومن الجلى أن اطلاعه واسع، ولست تعدم فى الكتاب ما تخالفه فيه، مثل نفيه التشاؤم عن أبى العلاء لأن التشاؤم هو كما يقول توقع دائم للأسوأ، وتغليب لجانب الشر فى الأشياء والناس على جانب الخير "وفى تفكير أبى العلاء شىء من هذا ، لكنه ليس صفته الغالبة التى نراها فى يأسه العقلى الذى يرى إمكان كل رأى ولا يكاد يجزم فى شىء برأى، وفى يأسه العاطفى الذى لم يعرف يقينًا غير اليقين بألم محنته التى لا ذنب له فيها". وهذا صحيح، ولكن هذا الذى يصف به أبا العلاء، هو بعينه الذى اصطلح الناس على القول بأنه من التشاؤم وهو غير الطيرة، وأحسب أن الشعراء جميعًا لا يخلون من هذه الروح، ولا داعى للتقيد بالمعنى الحرفى للألفاظ.

وقد ترجم "الهيومر" بروح العبث ، وأظن أن لفظ "الفكاهة" أصح والله أعلم. وأراه يكتب ألفاظًا أجنبية بحروف عربية، ولا أرى ذلك، فإن التعريب ممكن ولأكثر هذه الألفاظ الأجنبية مقابل فى العربية، ولو أننا سرنا على نهج الدكتور مندور لصارت لغتنا خليطًا عجيباً.

ومعظم الكتاب مقالات نشرت من قبل فى مجلاتنا الأدبية، وكان يحسن فى رأيى أن يحذف منها ما دخل فيه من الجدل مع غيره، فإن ذلك الجدل كأن ابن يومه، والكتاب غير المجلة، أو الصحيفة، ومن السهل إثبات الرأى الذى يذهب إليه الكاتب دون تعرض لأحد، فلعله يفعل ذلك فى طبعة تالية.

ثلاثة كتب فى أبى العلاء المعرى[١٦٥]
(عرض عام)

أربعة كتب فى أبى العلاء قرأتها فى جملة ما قرأت فى الأيام الأخيرة، أولها، وأولاها بالتقديم وأحقها بالتعظيم كتاب "الحياة الإنسانية عند أبى العلاء" للسيدة الأديبة الفاضلة "بنت الشاطىء". وهو بحث قدمته إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد ونوقش فى سنة ١٩٤١ فنالت به درجة "الأستاذية" - الماجستير - فى الآداب مع مرتبة الشرف الأولى - وقل لها ذلك جزاءً - ثم راجعته بعد ذلك، وانتفعت، كما تقول "بالتقرير القيم الذى كتبه عنه حضرة شيخى الجليل الأستاذ أمين الخولى والنظر فى مناقشاته لى أثناء الامتحان، وأشهد أن هذا التقرير قد غيّر من رأيى فى غير مسألة تغييراً جوهرياً فما أتردد فى الاعتراف بأنه كان تكملة للتوجيه المنهجى الذى تدين به حياتى الفكرية لشيخى الجليل".

وهذه شهادة مزدوجة لها، وللأستاذ الخولى فأما لها فبمروءة القلب وكرم النفس التى لا تأنف أن تقر بالفضل لذويه، وما أندر ذلك، وأما له فبالعلم والرسوخ فيه والإخلاص له وسداد التوجيه لأدبائه وخريجيه، ولحسب أى أستاذ مفخرة أن يكون من خريجيه مثل "بنت الشاطئ".

ومن الصعب أن أعرف القارئ بهذا الكتاب النفيس فى فصل وجيز ينشر فى صحيفة سيارة ويتوخى فيه كاتبه الإيجاز مراعاة لمقتضى الأحوال؛ لأنى إن سقت ما اشتمل عليه كنت كأنى أنقل فهرسه، وما غناء الفهارس وهى إيحاءات أخرس؟

(١٦٥) نشرت فى "البلاغ" فى ١٠ سبتمبر سنة ١٩٤٤، (ص ٤).

وحتى الفهرس أراه أطول من أن تتسع له هذه الكلمة التى لا يراد بها سوى التنويه بقيمة الكتاب. ولكنى أقول بإيجاز إن الأديبة الفاضلة تناولت فى كتابها حيرة أبى العلاء العقلية واضطرابه فى كل مسألة نظر فيها - حتى فى قيمة العقل ذاته على كثرة ما أعرب عن إيمانه به، وفى الخير والشر، والجبر والاختيار، والثواب والعقاب، وفى الحياة والموت وما بعده إلى آخر ذلك إذا كان له آخر، وقد كظت صفحات الكتاب بالشواهد من نثره وشعره. وليس ينقص الكتاب سوى أمرين لتتم به الفائدة. شكل بعض الكلمات، وكان هذا سهلاً وشرح الألفاظ الغريبة، فإن صاحبنا يتكلف الإغراب، وما أظن أحداً يستغنى معه عن معجم ولا شأن لى بغيرى غير أنى أنا ما استطعت قط أن أقرأه إلا وإلى جانبى معجم.

* * *

والكتاب الثانى وضعه مستشرق من الطبقة الثانية أو الثالثة اسمه هنرى برلاين، ونقله إلى العربية الأستاذ محمد الهاشمى المدرس بالإعدادية المركزية ببغداد، وهو عبارة عن مقالة طويلة، أو رسالة وجيزة، وفيه آراء لا مسوغ لها، وأحكام لا دليل عليها، مثل ذهابه إلى أن المعرى متأثر بروح بوذا وإن كان يخفف هذا بقوله: "إن تأثره هذا لم يكن على نحو تقليدى بحت بل إنه عمل جهده وفكر كثيراً حتى توصل إلى إيجاد فلسفة خاصة به". وما تأثر المعرى ببوذا وإن كان وهو فى بغداد قد وقف على ما تيسر له الوقوف عليه من مذاهب الهند، ولا كانت له فلسفة خاصة، لأن الرجل ما ثبت قط على رأى. ولا كان إلا شاعراً يعرب عما يدور فى نفسه ويتمثل لخاطره، ولم تكن حالات نفسه ثابتة أو جامدة، ولا نظراته كلها فى اتجاه واحد. ويزيد برلاين فيتهم العرب كلهم بأنهم "تعودوا أن يستعيروا ثياب غيرهم لمجرد أنهم يرون فيها شيئًا من الرواء والرونق" وينسب إليهم الجمود وينفى أنهم ابتكروا شيئًا، أو استطاعوا أن يفهموا الفلسفة اليونانية، وهو حكم جائر جداً، ينقضه ما كتبه المستشرقون المنصفون أنفسهم.

ومن خير ما فى هذه الرسالة بيان موقف أبى العلاء من الأحوال السياسية فى زمانه ولم يتوسع الكاتب فى هذا البيان ولكن فيما قاله الكفاية. وعقد مقارنة وجيزة جداً بين أبى العلاء وشوبنهور الفيلسوف الألمانى وسليمان بن داود صاحب سفر "الجامعة".

ولو خلت الرسالة من اعتساف الأحكام والآراء، ومن الاستطراد إلى ما لا علاقة له بموضوعها لزادت قيمتها.

* * *

أما الكتابان الآخران، فكلاهما مما نشر الأستاذ كامل كيلانى وهو من عشاق أبى العلاء المفتونين به وإن كانوا لا يلهجون بذلك كما يلهج.

وأولهما "رسالة الهناء"، ولو اقتصر عليها واكتفى بما لا غنى عنه فى شرح الغريب، لظهرت فى أقل من عشرين صفحة، ولكان هذا خيراً، ولكنه قدم لها، وأبدأ وأعاد فيها وفى صاحبها فملأ مائتين وعشرين صفحة ، وهذا كله حسن وجميل ولكن للمبتدئ الذى يصده عن القراءة والتحصيل ما يعانيه فيه من الصعوبة.

ويخيل إلينا أن الأستاذ كيلانى مطبوع على التيسير للأطفال وأشباههم وإن له فى ذلك ملكه واستعداداً فطرياً، ولهذا نراه يعنى بالتبسيط والتقريب، والتوسع فى الشرح، والإفاضة فى البيان، كما يعنى بطبع كتابه بالحرف الجليل والشكل الكامل وذلك عنده لا يصبر عليه إلا الأستاذ كيلانى الذى أسدى إلى الأطفال معروفًا مشكوراً يملأ العين المشهودة لهم.

وكتابه الثانى له اسم عام وآخر خاص، فأما العام فهو "حديقة أبى العلاء – صور فنية مقتبسة من النصوص العلائية" ، وأما الخاص فهو "مصرع الفنان" وقد ألم فيه إلمامة قصيرة بترجمة الشاعر على طريقته التى تمتزج فيها الترجمة بالثناء والإعجاب والإكبار.

ورأيي في الكتابين أنهما جديران بأن يقرأهما كل مبتدئ، فإن مزيتهما أن صاحبهما يحب أبا العلاء حبًا جمًا، وقد انقطع له، وأراد أن يحببه إلى القراء، فأدناه منهم جدًا، ولعله أسرف وبالغ، ولكن هذا لا يمنع الفائدة، فقد قربه حتى ليستطيع تلاميذ المدارس الابتدائية أن يقرأوه ويستمتعوا به.

المعرى للأطفال: على هامش الغفران[١٦٦]
(كتاب جديد للأستاذ كامل كيلانى)

نوهت فى فصل سابق بكتابين للأستاذ كامل كيلانى هما "رسالة الهناء" و"حديقة أبى العلاء" هذا كتاب ثالث له، يدور حول أبى العلاء أيضًا، فإن هذا موسمه على ما يظهر، أخرجته له مكتبة المعارف فى ١٥٨ صفحة من القطع الصغير، بالحرف الجليلى الذى لعله أصلح للعناوين، وبالشكل الكامل تقريبًا على نحو ما تشكل الكتب لتلاميذ المدارس.

وقد قلت إن كتب الأستاذ كيلانى ليست بحوثًا أو دراسات، وإنما هى تيسير وتبسيط لأبى العلاء، وقد عرف الأستاذ كامل بأنه من خير من يؤلفون للأطفال وما يسميه "مكتبة كيلانى للأطفال" ذخيرة نافعة لهم ولا شك، وهذه الكتب الثلاثة من هذا القبيل حتى ليصح أن تدخل تحت عنوان عام هو "المعرى للأطفال".

وأحسبه قد قصد إلى ذلك، فإنى أراه فى الصفحة الحادية والعشرين من كتابه "على هامش الغفران" يستطرد إلى ذكر قصة خرافية ويقول فى الهامش: انظر قصة "بساط الريح" وهى القصة الثانية من "مكتبة الجيب للأطفال" وما كان ليفعل ذلك لو كان يتوجه بكتابه إلى الكبار.

وأسلوب التأليف نفسه يشهد بأن الأطفال – أو المبتدئين – هم المقصودون بهذه الكتاب. فهو يقول: "وقد جعلنا هذا الهامش [تبيانًا] لما أحاط رسالة الغفران من ملابسات، وما بعث عليها من دوافع حتى يأنس القارئ بجلية خبرها فيما يطالع من صورها".

---

(١٦٦) نشرت فى "البلاغ" فى ١٧ سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، (ص ٤) .

ثم بسط دواعى الرسالة فبين أن ابن القارح كان يحمل رسالة إلى المعرى من أبى المفرج الزهرحى، فسرقها لص من ابن القارح فى جملة ما سرق فكتب رسالة طويلة إلى المعرى ينبئه فيها بضياع الأمانة التى حملها، ويشرح فيها حاله وما لقى فى حياته ويلخص آراءه ويتعالم فرد عليه أبو العلاء برسالة الغفران.

وقد ملأ هذا العرض أو البيان مائة صفحة من الكتاب، ولسنا نستكثرها فإنها لازمة لمن لا يعرف المعرى ولم يسبق له به عهد.

وانتقل بعد ذلك إلى ما سماه (ترجمة مقدمة الغفران) وهو يريد بالمقدمة فاتحة الرسالة، ونصها يأخذ من كتابه خمس صفحات، أما الترجمة ففى عشرين صفحة.

وقد سمى هذه الفاتحة أو المقدمة قصة القلب أو قصة الحماطة، والحماطة شجرة التين فى حالة اليبس، أو هى حبة القلب. وليس هناك قصة، وإنما هو تشبيه، والقول بأنها قصة يوهم القارئ غير الحقيقة، ويصور له أبا العلاء تصويراً مشوهاً ممسوخاً، وأحسب أن الأستاذ كيلانى إنما زعم أن هناك قصة ليجتذب الأطفال إلى الكتاب ويغريهم به ويحببه إليهم، ولكنه يحسن جداً إذا عدل فيما ينوى أن يخرج من كتب أخرى عن مثل هذا المتجوز.

وله فى الكتاب – فى متنه وهوامشه – استطرادات عجيبة لا داعى لها وإن كانت لا ضير منها، مثل نقله قول الغزالى وأبى حيان التوحيدى وغيرهما فى القلب والروح والنفس والعقل إلى آخر ذلك، وخليق بالأطفال أن يشقوا به.

وقد عنيت بهذا الكتاب وإن لم يكن للكبار لأنى رأيته جزيل النفع للصغار، فأردت أن ألفت إليه الآباء والمعلمين ليقتنوه لأبنائهم أو يوجهوهم إليه ويدلوهم عليه.

ولى ملاحظة هينة على قوله إن المعرى كان يصانع، ولست أراه كذلك، وإنما هو متحرز، وقد فرضت عليه آفته ذلك ولم يكن مع هذا يكتم رأيه، بل كان يعالن به حينا، ويلمح إليه تارة، أو يسوقه مساق السخرية والتهكم.

والله يثيبه ويحسن جزاءه عنهم.

الحياة الإنسانية عند أبى العلاء(١٦٧)

بقلم بنت الشاطئ

(٢٠٨ ص، مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر ١٩٤٤)

هذا كتاب قيم، وضعتهُ الأديبة "بنت الشاطئ" (السيدة عائشة عبد الرحمن) وتقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول فى سنة ١٩٤١ فنالت به درجة الأستاذية (ماجستير) فى الآداب مع مرتبة الشرف الأولى، ونشرته فى الشهر الماضي من هذا العام لمناسبة الاحتفال بمرور ألف عام على مولد المعرى، بعد أن أعادت فيه النظر وراجعته.

ومما يجب أن يذكر لها بالحمد والإعجاب قولها فى "مقدمة النشر" إن من خير ما انتفعت به عند مراجعة البحث وإعداده للنشر "الرجوع إلى التقرير القيم الذى كتبه عنه حضرة شيخى الجليل "الأستاذ أمين الخولى" والنظر فى مناقشاته لى أثناء الامتحان. وأشهد أن هذا التقرير قد غيَّر من رأيى فى غير مسألةٍ تغييراً جوهرياً، فما أتردد فى الاعتراف بأنه كان تكملة للتوجيه المنهجى الذى تدين به حياتى الفكرية لشيخى الجليل".

والكتاب فصول كثيرة بعضها أطول من بعض، تناولت فيها بالبحث الدقيق المعتمد على النصوص من شعر الشاعر ونثره، منهج أبى العلاء فى تفكيره، ومكانه بين الشعر والفلسفة، وأبا العلاء أمام هذه الحياة، ومراحل الحياة الإنسانية، من النشأة إلى الموت، وما عسى أن يكون بعده. فتكلمت على إيمانه بالعقل تارةً وكفره بهِ تارةً أخرى، وعللت

(١٦٧) نشرت فى "المقتطف" فى نوفمبر سنة ١٩٤٤ ، (ص٣٥٥ ، ٣٥٦) .

اضطرابه وتناقضه، وعرضت أقوال من زعموه فيلسوفًا أو غير فيلسوف، وشاعرًا أو غير شاعر، وانتهت إلى أن شأنه ليس بشأن الفيلسوف، وأنه قد يلتقي مع الفيلسوف في النهاية "ولكنه يأخذك إليه واثبًا مسرعًا"، وأنهُ بين الشعراء في الذروة من حيث وضوح الشعور وصفائه وقوته، وبينت الفرق بينه وبين غيره من الشعراء، وكيف أنه لا يكذب ولا يقول إلا ما يعني، وأن شعره ترجمة صادقة عما يجد ويرى.

وتناولت تشاؤمه – وردته إلى دواعيه – ومتاعبه الخاصة في حياته ونضاله للدنيا وهزيمته، وسوء الحياة العامة في زمانه ومكانه، وعللت خروجه إلى بغداد بأنه فوق حب العلم وطلب الشهرة، كان مظهرًا لنضاله، وتحديه للدنيا، والاستخفاف بمتاعبه وبآفته، ولكنه وجد أن مكانه قلق في بغداد، وإن كان قد زعم أنه ما رحل عنها إلا لمرض أمه وإخفاقه في طلب الثراء.

وانتقلت بعد ذلك إلى رأيه في الخلق وهل له علة غائية، فاستخلصت من كلامه أنه يرى أن الكون لم يخلق لنا أو من أجلنا، وأن ظواهره لا تتأثر بنا، وأن لكل كائن حقه في الحياة، وأن الكون لا يخلق عبثًا، ولكنا نجهل العلة والحكمة وإن كان جهلنا لا ينفي وجودهما. وتكلمت على الخير والشر، والجبر والاختيار، ورأي أبي العلاء في ذلك كله ومذهبه فيه، وكيف أنه كان متشائمًا يرى الكون حافلاً بالشر، وأن إرادة الله شاملة فهو تعالى خالق الخير والشر، وأنه سبحانه لا يقع في ملكه ما لا يريد، وأن الله لا يُحكم عليه بما يحكم علينا به، وأننا لا نملك سوى مقاييسنا المحدودة وجلَّ الله عن التشبيه والقياس وبينت أن الرجل كان مترددًا بين الجبر والاختيار لا يثبت على رأى في أحدهما، بل لقد بلغ من حيرته أنهُ كان أحيانًا يجمع بين النقيضين، وقد اختلف رأيهُ أيضًا تبعًا لذلك في الثواب والعقاب.

وساقت الشواهد على أن الشاعر، على الرغم من سوء ظنه بالدنيا وما يعرب عنه من رغبته في التخلص من محنة الحياة، لم يبرأ من حب الدنيا، بل كان متشبثًا بالحياة، شديد الفزع من الموت، لجهله بما وراءه وخوفه مما عسى أن يصير إليه بعده.

وليس هذا الذى ذكرته إلا سرداً لما حواه هذا الكتاب من البحوث الدقيقة المحكمة وأشهد أنه خير ما قرأته فى موضوعه، بل خير ما نشر فى عامنا هذا من المباحث المتصلة بأبى العلاء. والاستقصاء فيه تام، والتحقيق وافٍ، والآراء سديدة متزنة.

وليس ينقصه ليتمَّ به انتفاع القراء إلا أن يضاف إليه شرح بعض الغريب، فقد كان أبو العلاء مولعًا به، حتى لقد وصفه ياقوت فى معجم الأدباء بأنه متفاصح متحذلق، بل شتمه وقال إنه حمار، ومعتوه، ومجنون، واتهمه بالزندقة وكفرّه، ولكن هذا لا يعنينا فى هذا المقام، وإنما أردنا أن نقول إنهُ كثيرًا ما يستعمل ألفاظًا حوشية غير مأنوسة أو مألوفة مثل الصَّعْو للعصفور، والمَعْو للرطب، والنطف لفاسد النية، والكر للحبل إلخ... ولاسيما فى نثره، ومن حق القراء على المؤلفين أن يتوخوا شيئًا من التيسير عليهم. فإن بنا حاجة إلى تحبيب الأدب العربى القديم إليهم، وتألفهم من نفرتهم منه.

فى عالم الكتب(١٦٨)

(١)

"الفاروق عمر" للدكتور هيكل باشا

لولا خصائص لأسلوب الدكتور هيكل باشا لم تفارقه إلى الآن ولا نحسبها تفارقه لشك المرء فى أن هيكل المؤرخ الإسلامى هو هيكل القديم الذى لا يكاد يعرض للعرب وتاريخهم أو أدبهم بذكر فأشد ما تغير الرجل - فى ظاهرة! أو لعل الأصح أن نقول ما أسرع ما وجد نفسه كما يقولون، واهتدى إلى مايوائمها وما هو أجرى مع طبيعتها واستعداها فهنيئا له! فقد وجد طريقه مستويًا بينًا فدخل فيه ومضى. وإنى لأحسده، وأشتهى أن أهتدى إلى نفسى كما اهتدى ، فأستريح من هذا التردد فى الضلال، والتحير فى المنزع، فإنى ما زلت فيما أرى كما كتبت إلى الأستاذ جيب المستشرق الفاضل، مضطربًا لا أستقر، وحائرًا لا أهتدى، وقد أتعبنى هذا التجريب الذى لا أراه ينتهى، ومللت أن أظل خبط العشواء، وأقتحم ليلاً لا يدبر بعد ليل لا يتهور ولا يسفر فى أعقابه نهار.

ولقد زعمت مرة فى حفلة أقيمت للدكتور هيكل باشا، لا أذكر بعد أى كتاب أخرجه، أنى كنت ألمح قديمًا ما يومئ إلى هذا التغير والتحول، وكانت هذه منى سفسطة فارغة ودعوى أدعيها وأنا واهم، فما أقل ما يستطيع الإنسان أن يمد بصره

---

(١٦٨) نشرت فى "البلاغ" فى ١٥ إبريل سنة ١٩٤٥ ، (ص٤) .

هذا المد، أو يرى بأول الظن آخر الأمر من وراء المغيب كما يقول ابن الرومي، ولكن الإنسان يغالط نفسه فيغلط، وينحلها ما ليس لها من القدرة على الاستشفاف، فيرضي، وليس على أحد بأس من ذلك، وأنا أعرف الآن أني لم أكن صادقًا فيما أوهمت نفسي أني كنت أجتليه أو حتى [...][١٦٩] بل لعل هيكل باشا نفسه يوم كتب "زينب" أو "ولدي" أو "ثورة الأدب" أو غيرها من كتبه الأولى لم يكن يحلم أنه سيدع كل هذا، ويخرج من طريقه ويضرب في طريق غيره، وينقلب مؤرخًا إسلاميًا!

وقد يقع في روع القارئ من أسماء كتبه أنها تراجم فحسب، وإنها لكذلك ولكنها أيضًا تاريخ للإسلام في عهد أصحاب هذه التراجم، فليس كل ما يعنيه أن يرسم صورة للفاروق أو للصديق، بل أن يأتي على ترجمته، على قدر ما يتيسر ذلك، ويسوق الحوادث ويبين الاتجاهات ويبسط كل أمر على وجهه، بعد التحقيق والتثبت، ويدع الصور الشخصية تتبدى وحدها في أثناء ذلك وتبرز معالمها وتتجسد، وهو يعنى بالتحقيق والإحاطة عناية دقيقة، وما أكثر ما غربل ونخل، وما أقل ما يدري القارئ ما تجشم من عناء حتى تسنى له أن يبسط التاريخ على وجهه، ويستخلص حقائقه مما اختلطت به وغابت واستسرت فيه، فما يقدر هذا الجهد إلا من احتاج إلى معاناة هذا الأمر واضطر أن يرجع إلى كتب الأقدمين.

وقد أشار هيكل باشا إلى هذه المشقة التي يكابدها المؤرخ فقال: "بل لقد بلغ من إكبار المؤرخين له أن أضافوا إليه أمورًا أدنى إلى المعجزات التي خص بها الأنبياء، وأن ذكروا ما لا يستطيع المؤرخ الناقد إثباته"، إلى أن يقول: "ولو أن المؤرخين الأقدمين لم يضيفوا هذه الخوارق إلى سيرة عمر لأغنوا من جاء بعدهم عن بذل الجهد في تمحيصها، ولجنبوهم الاختلاف على مبلغ صحتها، ولما طفف ذلك من قدر عمره، ولا نقص من جلال صنعه. وقد رأيت من الخير أن أغفل من هذه الحوادث ما لا يقره العقل، ولا يثبت للنقد، ثم رأيتني بعد ذلك مضطرًا إلى أن أثبت حوادث يتصور العقل

---

(١٦٩) كلمة ممسوحة في الأصل المتاح (المحرر).

فى شىء من العسر وقوعها، ومع هذا تضافر المؤرخون على روايتها [تضافر تواتر] يدعو إلى النزول على حكمهم فيها... على أنى حاولت أن أفسر ما استطعت تفسيره من الحوادث على هدى البحث العلمى".

فلنا أن نطمئن إلى أنه بذل غاية الجهد فى التمحيص، وأن ما يورده أو يأخذ به هو الصحيح، أو هو الأرجح عند الاختلاف، وأنه لا يكتمنا شكه حين يشك، ولا يضن بالتفسير حين يحتاج الأمر إليه، ولا يقول فى كل حال إلا ما يقتنع به عقله ويهديه إليه بحثه. ولا أحتاج أن أقول إن هيكل باشا قد يسر الأمر على طالب التاريخ الإسلامى وقرب مناله، وأغناه عن الغرق فى كتب الأقدمين وإن كان لا غنى عنها للباحث المحقق.

وهذا الجزء الأول من سيرة عمر، ينتهى باخضاع الشام، وما تلا ذلك من المجاعة والوباء وموت من مات فيه من كبار المسلمين. وسيليه بإذن الله الجزء الثانى وفيه القضاء على الأكاسرة، وفتح مصر وما بقى من عهد عمر رضي الله عنه.

ومما يستحق أن يذكر مقرونا بالشكر والتقدير، ما أشار إليه هيكل باشا من أن الورق لم يكف لطبع الجزء الأول، فأعاد الطلب من الحكومة المصرية "وعلمت بذلك السلطات البريطانية، فسمحت كل منهما بكمية من الورق" فتم طبع هذا الجزء وتهيأ الجزء الثانى للطبع. وهذه لفتة - كما يقول - من جانب السلطات البريطانية تستوجب كل حمد وثناء.

* * *

-٢-

"جنة الشوك" للدكتور طه حسين بك

"جنة الشوك" كتاب جديد للدكتور طه حسين بك. سماه كذلك لأنه نقد على الأكثر أو مرايا يرفعها قبل العيون ويرى الناس أنفسهم فيها، وهو عبارة عن كلمات قصار،

بعضها سطور والبعض صفحة أو أقل أو أكثر قليلا. وهذه الكلمات من الضرب الذى يسميه الإغريق واللاتينيون "أبيجراما" ، وقد صدق الدكتور طه حسين حين قال إنه لون من ألوان القول لم يطرقه أدباؤنا المعاصرون" وفى قوله "إنه فن جديد قديم" ويقول الدكتور طه "فإذا كان فى هذا اللون الذى يعرض عليك فى هذا الكتاب من ألوان الكلام شىء جديد فهو أنه يعرض عليك نثرًا لا شعرًا" لأنه يذهب إلى أن العرب لم يعرفوه إلا فى الشعر، ونحن نخالفه في ذلك، فإن كتب الأدب حافلة بأمثال هذه الكلمات، ومن الممكن أن يجمع منها المرء مجلدًا ضخمًا بل مجلدات.

على أن هذا لا ينفى أن هذا أول كتاب من نوعه، كله كلمات من هذا القبيل وسبيله أن يجعل الكلمة حوارًا بين فتى طالب، وأستاذ شيخ فيقول الطالب مثلاً للشيخ:

"ألم تر إلى فلان ولد حرًا، وشب حرًا، وشاخ حرًا، فلما دنا من الهرم آثر الرق فيما بقى له من الأيام على الحرية التى صحبها فى أكثر العمر".

فيقول الأستاذ الشيخ لتلميذه: "أضعفته السن فلم يستطع أن يحتمل الشيخوخة والحرية معًا، وأنت تعلم أن الحرية تُحمل الأحرار أعباءً ثقالاً".

وعلى هذا فقس.

وقد عاب بعضهم الكتاب فقال إنه تافه، وساق كلمات لا تخلو من ضعف، على سبيل الاستشهاد، وأوهم القراء أن الكتاب كله من هذه الطبقة، وليس الأمر كذلك، وليس من الإنصاف أن يورد الناقد أمثلة من الكلمات الضعيفة ويهمل القوية المترعة، فإن هذا مسخ وتشويه، وما من كتاب فى الدنيا يكون كله طبقة واحدة فى الجودة وعلو اللسان.

وهذا الضرب على الخصوص، صعب ومأتاه غير هين، وسبيله كلها وعور ؛ لأنه يتطلب معرفة محيطة، وخبرة واسعة، ونظرًا نافذًا، وقدرة على اختزال ما يمكن أن يكون بحثًا مسليًا، فى ألفاظ قليلة، وقد وفق الدكتور طه حسين فى معظم الكلمات، وليس يعيبه أو يغض منه أن بعض الكلمات بايخة، فما يسلم إنسان من الضعف

والفتور، وما كان طه بدعًا من الناس، وليس من النقد النزيه المنصف أن يبسط المرء لسانه فى الكاتب ويرفض كتابه جملة لأن فيه مواضع ضعيفة، فهذا تحامل لا خير فيه، حتى ولا للمتحامل نفسه، وأن أهل التحامل لخليقون أن يريحوا أنفسهم ويريحوا الناس من عبثهم، إذا راضوا أنفسهم على السكون إلى هذه الحقيقة، وهى أنهم لا يستطيعون أن يهدموا رجلاً بناه فضله وأدبه ، وأن الظلم يزيده رفعة، ورسوخ قدم، ولا يؤذيه فتيلاً. وليت من يدرى ماذا يكسبون حتى إذا استطاعوا أن يهدموا رجلاً كطه، وهو ما لا سبيل إليه؟ إنها حماقة وقلة عقل وجهل، وسيظل طه من أعلام الأدب المصرى ومفاخره فى هذا العصر، وسيحفظ له التاريخ كل ما أحسن فيه وأجاد. أما المتحاملون فلن يذكروا حتى الذم.

في عالم الكتب[170]

(1)

أخشى إذا أنا خصصت كل كتاب بفصل كامل، أن ينتهى العام ويحول الحول وما قلت شيئًا فى أكثر الكتب. وليس هذا من الإنصاف فى شىء؛ لأن مؤداه أن نقتصر على كتب المشهورين والأعلام دون غيرهم، وهؤلاء لا تنقصهم الشهرة ولا حاجة بهم إلى التعريف بما يخرجون، وحسبهم إعلان ينشر فى الصحف فيقبل القراء على ما ألفوا أو ترجموا . لأن لهم من الثقة بهم ما يغنيهم عن كل حمد جديد، حتى السلاطة عليهم لا تزيدهم إلا ذيوع صيت واستفاضة شهرة. وما زلت أرى أنه ما نفع الكاتب مثل النقد بالغًا ما بلغ العنف أو الشطط أو التجنى فيه، وللناس عقول وإن كنا نتكلف سوء الظن بهم أو نسرف فى ذلك، والكتاب الذى يعييك أن تقع فيه على عيب لا يكون "إنسانيًا" . فأكبر عيب فى كتاب أن يخلو من العيب، وأخلق بالقارئ أن يشعر أن صاحبه من عالم آخر، وأن تفوته متعة الشعور بأن الكاتب على جلال قدره ليس إلا بشر مثلنا يجوز عليه ما يجوز علينا من الخطأ والنقص والقصور وما إلى ذلك.

وسأقدم للقراء فى هذا الفصل كتابين جديدين لا أرى أولى منهما اليوم بالتقديم ولا أحق باستيجاب التعظيم.

---

(١٧٠) نشرت فى "البلاغ" فى ١ يولية سنة ١٩٤٥ ، (ص٤) .

(٢)
من وحى المرأة

والأول للأستاذ عبد الرحمن صدقى، وهو شاعر مجيد وأديب كبير لا أعرف أحداً أشد منه تقصيراً فى حق نفسه، فإنه على سعة اطلاعه على الأدب العربى والآداب الغربية، وخصوبة ذهنه وكثرة مواهبه لم يعن بأن يخرج للناس شيئًا إلا منذ عام أو عامين، والعادة والمألوف أن يظلم المرء غيره. أما أن يظلم نفسه ويغمطها مثل هذا الغمط الشديد ويؤثر لها أن تظل مستسرة على وضوح الفضل، فهذا هو الجديد، ويزيد الأمر غرابة أن فضله لا منكور ولا مردود ولا مشكوك فيه وأنه لم يلق قط إلا الإقرار له بالمزية ففيم كل هذا الزهد أو الضن أو الكسل أو الإهمال؟

وكتابه الجديد ديوان شعر لا كالدواوين لأن موضوعه واحد وهو رثاء زوجته عليها الرحمة، بدأ فى نظمه "فى استحكام يأسه وتضعضع حسه وانهدام قواه بعد ليلة من مصابه" فيها وانطلق يسح ويهضب بالشعر ويقول فيما يقول:

كان لى فى أخريات الـ	ـعمر بيت فعدمته
سنوات أربع ، أمن كا	ن ذا حلماً حلمته؟
ليته طال ، ولو طا	ل لما كنت سئمته
زوجتى صنوى وما لى	غيرها صنو علمته
همها همى فلا تعـ	ـزم إلا ما عزمته
نظمت بالعطف والتفـ	ـكير عيشى ونظمته
برهة ، وانتبه الدهـ	ـر فعفى ما رسمته
أترى الرضوان ذنـ	ـباً أثمته وأثمته
أحرام أن سعدنا؟	أم خبال ما زعمته
كل ما أعرف أنى	كان لى بيت عدمته

وعلى هذا النحو يمضى! ولكنه ليس من شعر الضعف والخور، فليس بإنسان من لا يحزن، لا بكريم أو ذى مروءة أو رشيد من يستكبر أن تتبدى عاطفته الطبيعية حتى فى صورة فنية.

وهنا أحب أن أذكر ما لعل صديقى صدقى لا يعرفه أو لا يدرى ما تأويله، ذلك أنى اتقيت عامداً أن أعزيه، وكنت قد عدت من العراق فأنبأونى بما نكتب به قبل أوبتى، فحرت وترددت: أعزيه أو لا أعزيه؟ وبدا لى أن أعفيه من العزاء السخيف، ما قيمة أن أصافحه وأقول له تجلد؟ إنه يعرف مودتى له، وهو أعز علىّ وأكرم عندى من أن أبدى له العطف عليه، ثم إنى أعرف رجولته، فأنا أخجل أن أقول له تشدد وقد حل بساحتى قبله مثل ما حل بساحته، فليس يخفى علىّ ما هو فيه، وخير له أن يترك لنفسه يعالجها على الوجه الذى يوائم طبيعته، ولو كان أميًا أو نصف أمى لسلكت معه غير هذا المسلك، حتى حين لقيته لم أقل له شيئًا، ثقة منى بصحة إدراكه. وماذا أقول بالله؟ ولم يخطئ ظنى، فقد عرف ما أنطوى له عليه بلا كلام!

وقد لاحظ الأستاذ العقاد بحق أن هذا ثانى ديوان يظهر فى عصرنا وكله رثاء لزوجة والأول هو ديوان عزيز بك أباظة، والثانى هذا. ولا مثيل لهذا فى الأدب العربى، بل أنا لا أذكر أن له نظيراً فى الآداب الغربية. ولولا المروءة لقال المرء جزى الله هذه المحن خيراً.

(٢)

قصص روسية

هى بعض ما نقل إلى العربية صديقنا وزميلنا المرحوم محمد السباعى وصلتى به قديمة ترجع إلى سنة ١٩٠٦، وقد أهدى إلىّ، أحد كتابيه الجليلين "السمر" والكتاب الآخر هو "الصور" وهما كل ما ألف. أما البقية فترجمة.

وقد قدم هذا الكتاب الأستاذ العقاد فقال: "منذ توفى هذا الصديق النابغة ونحن نفكر في قضاء حقه بشيء من الذكر والتأبين، وكان صديقنا الأستاذ المازنى يوالى التفكير فى ذلك ويمهد له أسبابه، فعلم أن الوفاء للفقيد العزيز قد يوجب علينا إرجاء ذلك الجزاء الضئيل في جانب فضله على أدب مصر الحديث وأدب العربية بأسرها، وإنه لأيم الحق لمن عجائب المقادير! إلا أنه ظن صادق وتقدير لا غبار عليه لأننا نحن أصدقاء السباعى والعارفين بشئون أدبه وحياته كنا فى زمن من الأزمان معارضين أشداء المعارضة، وكانت لأسرة الفقيد مطالب عند ولاة الأمر لعلهم لا يعطفون عليها كل العطف إذا قام المعارضون بتأبين عميد الأسرة الراحل والإشادة بفضله، فمن الوفاء لذكرى الفقيد أن لا نهدف أسرته لما نخشاه وإن أسرفنا فى الظن والتقدير".

وهذا كله صحيح، وقد أنصفه الأستاذ العقاد إذ قال: "إنه كان فى طليعة المدرسة الأدبية الحديثة فى نهضة الأدب المصرى التى تجددت منذ أوائل القرن العشرين". وإن "مما يذكر للسباعى بالحمد والإعجاب أن فتنته بالإنجليزية لم تفتنه عن جمال البلاغة العربية كما فتنت سواه من المترجمين عن تلك اللغة أو عن غيرها من اللغات الأوربية، فكان حريصًا جد الحرص على متانة الأسلوب وفحولة اللفظ واستبقاء البلاغة الموروثة عن العربية الأولى".

وأكتفى الآن بهذا التعريف العادل، وسأعود إلى الكتابة فى صديقنا وزميلنا الراحل، فقد أتيحت لى الفرصة بظهور هذا الأثر الجميل.

فى عالم الكتب:

التصوير الفنى فى القرآن للأستاذ سيد قطب(١٧١)

"التصوير الفنى فى القرآن" كتاب جليل كان ينبغى أن أقول فيه شيئًا من زمان طويل، ولكنى بعد أن قرأته وهو من إمتاعه يقرأ فى جلسة واحدة وإن كان دقيقًا - تركته على المكتب وفى مرجوى أن يوفقنى الله ويهدينى فأنصفه وأنصف صاحبه، فتراكمت عليه الكتب والأوراق والمجلات والصحف والظروف والبرقيات وزجاجات الحبر. ولولا الحياء وأن يظن القارئ بعقلى وبأهلى الظنون، لقلت والمناديل، فإنى أجلس الى المكتب وأحتاج إلى المنديل أمسح به العرق أو أطرد الذباب عوضًا عن المنشة، فأنسى الجرس وأنسى أن المناديل فى "حاضر! حاضر!" لتسكتنى ، فإنى لا أكف عن الصياح حتى أجاب، وتجيئنى بالمنديل فأفعل به ما أنا فاعل ثم أدعه، فيغيب بين الأوراق أو تحت الكتب، فأروح أبحث عنه بعد ذلك فى كل مكان آخر - على غير جدوى كما لا أحتاج أن أقول، ولما كنت أرفض أن أدع أحدًا يمس أوراقى وكتبى ولو لينفض التراب عنها، ولما كانت أكداسها قد صارت تلالاً، فلا سبيل إلى الجلوس إلى هذا المكتب، فإنى أهرب إلى غرفة أخرى كلما أردت أن أكتب أو أقرأ، وقد صنعت بهذه الغرفة مثل ما صنعت بأختها فازداد البيت ضيقًا على من فيه، فشكواهم لا تنقطع وأمرهم وأمرى إلى الله. وهكذا غاب كتاب القطب وخفى عنى كل هذا الزمن المديد ، فقصرت برغمى فى أداء حقه، فإذا كان يعذر فله الشكر، وإلا فإنى مقر باستحقاق العتب.

---

(١٧١) نشرت فى "البلاغ" فى ٢٢ يولية سنة ١٩٤٥ ، (ص٤) .

والكتاب جديد فى بابه بلا مراء، لا يشبهه كتاب قديم أو حديث. وصاحبه قد حفظ القرآن وقرأ التفاسير واطلع على ما كتب من الأولون من مثل "دلائل الإعجاز" للجرجانى و"إعجاز القرآن" للباقلانى وغيرهما، ولكنه لا يقلد أحداً وإنما ينحو منحى جديداً يذهب فيه - كما قال - إلى (أن الصور فى القرآن ليست جزءاً منه تختلف عن سائره، إن التصوير هو قاعدة التعبير فى هذا الكتاب الجميل. القاعدة الأساسية المتبعة فى جميع الأغراض - فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال - فليس البحث إذن عن صور تجمع وترتب، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز).

ويبدأ الكتاب بالكلام على (سحر القرآن) وكيف أنه كان العامل الحاسم، أو أحد العوامل الحاسمة فى إيمان من آمنوا فى أول أيام الدعوة، ويروى قصة إيمان عمر، أو قصصه وقصة تولى الوليد بن المغيرة وكيف تلتقى قصة الكفر بقصة الإيمان فى الإقرار بسحر القرآن، ثم يورد ما حكاه القرآن عن قول بعض الكفار وتأثيره فى نفوس بعض الذين أوتوا العلم من قبله.

ثم ينتقل إلى (منبع السحر فى القرآن) وهو فصل آخر، ولا يرى أن يتعلق بالمزية الثانية للقرآن بعد أن صار كاملاً بمبانيه ومعانيه وموضوعاته، ويرى أن السحر كامن فى صميم النسق القرآنى ذاته وذلك من غير إغفال لقيمة الموضوعات على اختلافها، ولما فى العقيدة الإسلامية من روحانية وما فى بساطتها من جاذبية، ولهذا يتناول السور القصار القلائل التى لا تشريع فيها ولا غيب ولا]علم [والتى لا تجمع بطبيعة الحال كل المزايا المتفرقة فى القرآن.

وهنا نستأذن فى مخالفته فيما استخلصه من "عبقريات" الأستاذ العقاد وذلك حين يعرض للبواعث على إسلام ابن العاص وخالد وأبى سفيان، فإنه يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه الأستاذ العقاد، ولكن هذا موضوع آخر.

ثم يعقد فصلاً على القرآن كيف فهم؟ فينصف الزمخشرى والجرجانى ويسوق مثلاً من توفيقات الجرجانى يعقب عليه ويبين أن الجمال فى قوله "اشتعل الرأس شيبا"[(١٧٢)] إنما هو فى هذه الحركة التخييلية السريعة التى يصورها التعبير - حركة الاشتعال التى تتناول الرأس فى لحظة.

---

(١٧٢) سورة مريم / ٤ (المحرر).

ثم ينتقل إلى سلسلة فى فصول مطولة عن التصوير الفنى، والتناسق فيه، والقصة فى القرآن وأغراضها وآثار خضوعها للغرض الدينى، والدين والفن فى القصة، والخصائص الفنية للقصة، والتصوير فيها، ورسم الشخصيات، ثم يورد طائفة من النماذج الإنسانية فى القرآن، ثم يتكلم على طريقة القرآن، ويعود إلى إنصاف الجرجانى.

وليس من السهل أن نعرض على القارئ نماذج من أسلوب المؤلف فى البحث، فإن تقصه شديد واجتهاده فى الإحاطة بالجوانب المختلفة عظيم، والتوفيق فيما حاول كثير ولا ريب، ولهذا قلنا إن الكتاب جليل، وسيجد الذين يقرأونه أن المباحث القرآنية قد زادت به شيئًا له قيمة.

وليت الأستاذ القطب يتخلى لمثل هذه المباحث، فإن له لقدرة عليها وتهيؤًا لها، وإن فيه إلى جانب القدرة لصبراً يحسد عليه.

* * *

وقد كان من غرائب الاتفاق أنى كنت أقرأ أول من أمس فى كتاب "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجانى ثم طويته ونمت فلما أصبحت قلبت المخدة لآخذ من تحتها شيئًا – وما أكثر ما تحتها – فإذا كتاب "التصوير الفنى فى القرآن" تحت رأسى وأنا لا أدرى! فرفعت عينى إلى السماء – لا أدرى لماذا، فإن الله فى كل مكان، ولكنى أحسبها عادة – وقلت:

"يا رب! سبحانك وتعاليت! لا اعتراض عليك! ولكن لماذا خلقتنى هكذا؟ إنى لأطمع فى مغفرتك، فإنك واسعها، حين أقول إنه يخيل إلىّ أنك احتقرت طينتى، فرميت بها إلى بعض ملائكتك الحافين بعرشك وقلت خذوا اصنعوا من هذه شيئًا إذا استطعتم، وما أظن بكم إلا أنكم ستجيئون ببدع! عفوك اللهم! وإنى لراض بما قسمت لى، وشاكر، ولكن ماذا أصنع بهذا العقل الذى لا يحسد عليه صاحبه، وهذه الذاكرة التى

أعوذ بك وحدك من عبثها، وهذا البدن الخرع القمىء الذى لا يصلح لشىء، وهذه الأعصاب التى بلغ بها التلف غاية مداه، وهذه النفس التى أراها كالبحر لا تهدأ أو تستريح؟ فسبحانك ربى! لو كنت خيرتنى لآثرت أن أكون خلقًا أخر، فما أرى الإنسان أعز من سواه ولا أكرم. ولكن بهذا جرت مشيئتك، ولا اعتراض ، وسبحان من له الأمر كله، ولا حول ولا قوة إلا به.

فـى عـالـم الـكـتـب:
دفـاع عـن الـبـلاغـة للأسـتـاذ أحـمـد حـسـن الـزيـات[١٧٣]

ذكرني كتاب صديقى الأستاذ الزيات "دفاع عن البلاغة" برسالة شيللى الشاعر الإنجليزى "دفاع عن الشعر" وما أظن صديقى الزيات قرأها أو حتى سمع بها، فإنها فيما أعلم، لم تترجم إلى الفرنسية وهو يذهب فيها – على ما أذكر – إلى أن "أداة الخير الكبرى هى الخيال"، وبهذه العبارة البسيطة الوجيزة يجلو لنا القوة "الأثيرية" لكل أدب جليل أو عظيم، وينقض قول من يزعمون أن الشاعر لا يستطيع الإصلاح إلا بالوعظ على طريقة من يقول:

يا أيهـا الرجـلُ المعلمُ غيـرهُ   هلا لنفسك كانَ ذا التعليمُ؟[١٧٤]

وهو البيت السخيف الوحيد الذى يخطر لى الآن.

وقد استشهيت أن أرجع إلى هذه الرسالة أمس فإنها نفحة من نفحات العبقرية فأعيانى البحث و"التنقيب" وأيقنت أن يداً سطت عليها، وما أكثر ما تسطو الأيدى على كتبى حتى أصبحت أرتاب فى كل زائر أضطر إلى استقباله فى المكتبة لضيق البيت واكتظاظه بمن فيه ، حتى المصحف الشريف سرقوه فأعجب لهذا، وهو الذى يقضى بقطع يد السارق والسارقة!

وقد يسأل القارئ: وهل تحتاج البلاغة إلى دفاع؟ ويجيبنا الأستاذ الزيات أن

(١٧٣) نشرت فى "البلاغ" فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٤٥ (ص٤) .

(١٧٤) من "الكامل" وهو للشاعر الأموى "المتوكل الليثى" (ت ٨٥ هـ / ٧٠٤م) (المحرر) .

السـرعة والصحـافـة والتطفل جنت عليـهـا، فـالسـرعـة جنت على "الفكر بوجـه أعم" فاستحال "تقدير القيم التي يحتاج وزنها إلى الروية والتأمل" وعلى البلاغة بوجه أخص إذ "أصابت الأذهان فلم تعد تملك الإحاطة بالأطراف ولا الغوص إلى الأعماق فجاء لذلك أكثر إنتاجها من الغثاء الذي لا رجع منه، أو من الزبد الذي لا بقاء له" ، "وأصابت الأفهام فلم تعد تصبر على معاناة الجد من بليغ الكلام" ، وأصابت الأذواق فلم تعد تميز الفروق الدقيقة بين الطعوم المختلفة فاختلط الحلو بالمر، والتبس الفج بالناضج".

أما جريرة الصحافة تلك "أنها أوشكت أن تستبد بالمجال الحيوي للكتابة" وأنها "استخلصت لنفسها أمراء القلم ، فهم يعلمون فيها على ما تقتضيه أحوالها من مجاوبة السرعة، وتوخي السهولة، وإيثار العامية". على أن الأستاذ الزيات غير قانط من رحمة الله ولطفه بالأدب، فإنه يقول إن "العامية الأدبية عرض من أعراض العامية الاجتماعية، فمتى برئ المجتمع من أمراض الضعة فجنح للقوة، وطمح للكمال ظهرت الأصالة في فكره، والمتانة في خلقه والسلامة في ذوقه".

وأما التطفل فظاهر الأثر على موائد الصحافة "غير أن هناك ضربًا من التطفل المغرور.. هو تطفل فئة من أرباب المناصب لا يقدح في كفايتهم إلا أن يكونوا كتابًا ولا شعراء ، ولكنهم يأبون إلا أن يضموا المجد من جميع حواشيه، فهم يتكلفون ما ليس في طباعهم من صناعة البيان، فيقعون في النقض وهم يريدون الكمال".

لهذا احتاجت البلاغة إلى دفاع. وقد دافع فأحسن الدفاع، وبين أن البلاغة كسائر الفنون طبيعة موهوبة، لا صناعة مسكوبة، وأنها "لا تفصل بين العقل والذوق ولا بين الفكرة والكلمة، ولا بين الموضوع والشكل، إذ الكلام كائن حي، روحه المعنى وجسمه اللفظ، فإذا فصلت بينهما أصبح الروح نفسًا (بالتحريك) لا يتمثل، والجسم جمادًا لا يحس".

ثم يمضي فيبين أن "آلة البلاغة الطبع الموهوب والعلم المكتسب" والطبع عنده ملكات أربع "الذهن الثاقب، والخيال الخصب، والعاطفة القوية، والأذن الموسيقية" ، ولكن هذا لا يكفي فلا بد من العلم بمعناه الأعم. واللغة أداة القول والكتابة "والثقافة العامة منها قدر مشترك يجب تحصيله على كل مثقف، ولكن الكاتب أو الشاعر محتوم عليه أن يدرسها دراسة خاصة".

ثم ينتقل إلى البحث فى الذوق، والأسلوب، ومن أحسن ما قال فيه أن الأسلوب هو طريقة خلق الفكرة وتوليدها وإبرازها فى الصورة اللفظية المناسبة، أو هو ذلك الجهد العظيم الذى يبذله الفنان من ذكائه ومن خياله فى إيجاد الدقائق والعلائق والعبارات والصور فى الألفاظ والأفكار أو فى الصلة بين الأفكار والألفاظ، والشق الأول من هذا الكلام أدق وأحكم عندى وأن "الأسلوب خلق مستمر – خلق الألفاظ بواسطة المعانى، وخلق المعانى بواسطة الألفاظ" ، فليس الأسلوب "هو المعنى وحده، ولا اللفظ وحده، وإنما هو مركب فني من عناصر مختلفة يستمدها الفنان من ذهنه ومن نفسه ومن ذوقه".

وقد أسهب فى هذا الفصل وأشبع. واستطرد من ذلك إلى بحث قيم فى التطور الذى حدث فى الكتابة العربية فى عصرنا هذا وقاسه إلى ما حدث من تطور مثله فى الآداب الأوربية، وساق أمثلة من بعض كتاب العصر، وتكلم على الرمزية فى لبنان وما يمكن أن تعلل به، وتعليله يقرب من تعليلى الذى نشرته فى بعض أعداد المقتطف فى العام الماضى لمناسبة نشر طائفة من شعر الأستاذ ميخائيل نعيمه، ولكن لى رأيًا فى الرمزية يخالف الرأى الشائع، وهو أن الرمزية أوضح الكلام وأنصعه وأسهله، أما الغموض والاستبهام والاستغلاق فليس إلا عجزًا عن التعبير، ورأى آخر لى هو أن الرمزية ليست نباتًا مصريًا، ولا يمكن أن يزكو فى مصر لأن طبيعتها تحول دون ذلك، وقد شرحت هذا الرأى فى بعض ما كتبته عن "رحلة العراق" ، ثم إنى أخالف صديقى الزيات فيما ذهب إليه من غموض الدكتور بشر فارس، وإن كان لم يذكره بالاسم وكل ما فى الأمر أن الرجل يستعمل الألفاظ بمعانيها الأصلية لا بما علق بها من حواش، فمن الظلم والغبن أن نرميه بالغموض أو أن يقول قائل إن شعره رموز وأحاج. ولست أدافع عنه ؛ لأنه صديق أعتز بصداقته، بل لأن هذا هو الحق فيما أرى.

وبعد فهذا عرض موجز لكتاب الصديق الجليل، وإنه لصفحات مشرقة من أنصع بيان، وهو إلى هذا، يجىء فى أوانه، فيساعد على اعتدال الميزان بفضل ما فيه من حرارة وإخلاص، وصراحة وجد، دون أن تعوزه – كما يخشى – وثاقة الحجة، وأصالة الرأى، وإصابة الغرض.

في عالم الكتب:

"التصوف وفريد الدين العطار" للدكتور عبد الوهاب عزام[175]

(١)

فرحت بكتاب الدكتور عبد الوهاب عزام - عميد كلية الآداب - في "التصوف وفريد الدين العطار" لسببين: الأول أنه كتاب فريد في بابه وجديد في موضوعه لم يسبق إلى مثله كما سأبين فيما بعد، والثاني أني عكفت عليه فقرأته كله في ليلة واحدة فأقنعني بأني أنا أيضًا من المتصوفة، أو أني على الأقل رجل صالح وحسبك مني هذا الإقبال النادر - فإن بي كسلاً شديداً ولاسيما في هذه الأيام، التي لم يفتر حرها كثيراً - وإن كان الكتاب من مؤلفات "الجمعية الفلسفية المصرية" والعياذ بالله منها ومن الفلسفة كلها.

وأعترف أن الكتاب فتنني - بنفسي خاصة - فما كنت أدري أني رجل صالح إلى هذا الحد. وما أشبهني بذلك الذي ظل طول عمره يتكلم "نثرا" وهو لا يدري.

ومن الصلاح والتقوى والورع أن لا أتحدث بمحاسني وفضائلي، وإن كان من حقي - ولعله من واجبي أيضًا - أن أحدث بنعمة الله عليّ، وسأكتفي بمثل - أو دليل واحد - يريك أني بلغت درجة الصالحين ولا شك، وأني أستحق أن أنظم في سلك المتصوفين أو أحشر في زمرتهم، وإني جدير ولو برسالة في وصف تصوفي والتعريف به.

---

(١٧٥) نشرت في "البلاغ" في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٤٥ (ص٤) .

والمثل الذى أسوقه هو قول إبراهيم بن أدهم، وهو من أعجب الصوفيين شأنًا، لبعضهم: "اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات: أولاها تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة، والثانية تغلق باب العز وتفتح باب الذل، والثالثة تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد، والرابعة تغلق باب النوم وتفتح باب السهر، والخامسة تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر، والسادسة تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت".

وأنا لا عمل لى طول عمرى إلا تغليق هذه الأبواب وتفتيح تلك! ولا نكران أن الإغلاق والفتح كانا برغمى وصحيح أن الأبواب التى ينبغى إغلاقها أغلقت كلها دفعة واحدة، وأن ما فتح فتح على مصراعيه فى أقل من لمح البصر، وأعترف أنى كنت أوثر الأخرى، ولكن هذا ما كان، وما أكثر ما يثاب المرء رغم أنفه، وأنا رجل أؤمن بالقضاء والقدر، وأذهب إلى أن كل شىء فى الدنيا مصادفة واتفاق، وأحسن التوكل على الله، ولا أبالى المضجع الخشن، ولا أنفر من الكسرة الناشفة - فإن أسنانى قوية.

ومما يكسبنى الحق فى رتبة الصلاح، وإن كنت لم أغلق ولم أفتح هذه الأبواب بيدى، أنى كنت صبيًا لا إرادة له فى تلك الأيام التى جرى فيها الفتح والإغلاق - أو الإغلاق فقط على الأصح، فإن فتح الأبواب الأخرى يحدث من تلقاء نفسه - أى أنى كنت قاصرًا فتولى أخ لى كان أكبر منى، هذه المهمة عنى جزاه الله خيرًا، فقد جعل منى رجلاً صالحًا، وصحيح أنه لم يكن ولى أمرى ولا كان هو الوصى علىّ. وقد لجأ إلى حيلة يسميها الذين يجهلون ما يجوز بين الأقارب الأدنين - تزويرًا ووكل نفسه عن أمى وباع كل ما كنا ورثناه وأنفق باليمين وبالشمال، فى غفلة من الرقباء - قبح الرقباء كما يقول ابن الرومى - وكسح ومسح - كما يقول العامة - فقد كان دقيقًا، ولكن ما قيمة هذا؟ أى فضل لإنسان فيما يرث وهو ليس من مجهوده هو؟ وبأى شىء يستحق مجهود غيره وينعم به وحده؟ فأخى لم يخطئ حين فعل ما فعل، فقد أراد صلاحى، ويظهر أنه كان قوى الفراسة،[...][١٧٦] لا محالة فاعل ما فعل هو،

---

(١٧٦) جزء من جملة ساقطة من الأصل المتاح، وربما يكون هكذا: "ولو كنت مكانه لكنت ... إلخ" (المحرر).

فأعفاني من العناء، واختصر الأمر، وعمد إلى أبواب النعمة والعز والراحة والغنى فأحكم إغلاقها وضببها بالحديد ووضع خلفها المتاريس، وسد الشبابيك والكوى والخوخات زيادة في الاحتياط والتحرز، وبقى بابان هما باب النوم وباب الأمل، لم يعرف له فيهما حيلة، وقد كنت أتعجب في صباى لأخى وتجشيم نفسه كل هذه المشقات، وأستنكر أن أراه ينقلب كالإعصار، ولو كان في أيامنا هذه لقلت كالقنبلة الذرية، ولكن المسكين لم يدركها فحرم نعمتها، غير أن الله ولا شك قد عوضه خيراً منها، فإنه كريم – أعنى الله سبحانه لا أخى كما لا أحتاج أن أقول – ويقينى أنه الآن في الجنة، فقد كان يخاف الله ويديم السجود له، ويصوم رمضان ويخرج الزكاة ولو من مالنا، فعسى أن لا يعصف بها قبل أن أدخلها أنا أيضًا بعد عمر طويل، فإني غير مستعجل، فلا أدرك من نصيبي من الآخرة إلا كما أدركت من نصيبي من دنياى الذى لا أنساه نزولاً على أمر ربنا سبحانه وتعالى.

وقد تكفلت النوراستينيا[177] بإغلاق باب النوم، فصارت بنات السهاد تسطو على جفوني، وتسلبني حتى الغمض بل الرقاد، وليتها إذ سلبتنى الكرى أغفت ولم تسهر لى، ولكنى ما لبثت أن أيقنت أن ما أتاه أخى لم يكن بأمره بل بإرادة من الله، وأنه تعالى قد شاء أن أكون رجلاً طيبًا صالحًا ولو احتاج أن يقضى بكسر عنقى، ومن أجل هذا قلت لنفسى إنه لم يبق إلا باب الأمل فلنطع مولانا ابن أدهم (وإن لم أكن أعرفه يومئذ ولكنك تفهم ما أعنى) ولتغلق الباب الباقي فنستريح. وصحيح أنه لا يبقى لى بعد ذلك شيء يستحق أن يحيا المرء في سبيله ومن أجله، وأن الحياة والعدم يصبحان سيين، ولكن هكذا أراد ابن أدهم – أو أراد أخى الذى كان على ما يظهر من تلاميذه المتحمسين – أو فلنوارب الباب على الأقل، ومواربة باب الأمل معناها في رأى ابن أدهم فتح باب الاستعداد للموت ببطء، وعلى مهل شديد! لا على المصراعين كما يريد هذا الصوفى الشديد على نفسه. وهذا الفتح البطيء، أو مواربة الباب، ليس بالعمل الشاق، لأن الحياة نفسها تتولاه عنا، إذ كانت تعدنا للموت على الأيام وتهيئنا لتلقيه شيئًا فشيئًا، إلا أن يتدخل عامل فضولى مثل الترام أو ما هو في معناه من عوامل الاختصار.

---

(١٧٧) "النوراستينيا" أو كما يكتبها أحيانًا "النيرستانيا" هو تلف يصيب الأعصاب فيؤدى إلى الهذيان والوسوسة والأوهام (المحرر).

وبعد . فإن القارئ قد اقتنع ولا شك بأنى رجل صالح على الأقل، إذا لم أكن صوفيًا - ومن يدرى؟ إن معرفة النفس أرقى مراتب الفلسفة، وأنا ما زلت على فرط اجتهادى عند الدرجة الأولى من أدنى هذه المراتب، وإن كنت أرجو بعد أن أقرأ كل ما ستخرجه الجمعية الفلسفية المصرية من كتب الفلسفة أن أرتقى إلى ما فوق ذلك!

وبقى أن يعرف القارئ شيئًا عن هذا الكتاب النفيس الذى أفادنى هذه المعرفة على قلتها - بنفسى ولكنى أطلت، وبى كنشوة الخمر من فرحى بما اطلعت عليه مما كان خافيًا على من ذات نفسى، فيحسن أن أرجئ الكلام عن الكتاب إلى الأسبوع المقبل حتى أفيق، أحيانا الله وأحياكم.

فى عالم الكتب:

"التصوف وفريد الدين العطار" للدكتور عبد الوهاب عزام(١٧٨)

(٢)

سأكتفى فى هذا الفصل بوصف الكتاب والتعريف به، فما لى من العلم بالتصوف ورجاله ما يسمح لى بالوقوف منه موقف الناقد، وإن كنت قد قرأت بعض ما نظمه المتصوفون، باللغة العربية، وقليلاً من الشعر الفارسى، مترجمًا إلى الإنجليزية أو العربية - وما أقل ذاك - وما كتبه بروان ونيكلسون وغيرهما، ولكن كل ما قرأته فى هذا الباب لا يعد درسًا للتصوف ولا يخولنى ادعاء العلم به، فقصاراى أن أقف من كل بحث جدى فى هذا الموضوع موقف الطالب المستفيد.

وأول ما أعجبنى من الكتاب، وحببه إلى، وأغرانى بالمضى فى قراءته، تواضع المؤلف على غزارة علمه وعظم إحاطته بمادته، فإنى أكره الانسياق مع دواعى الغرور، فتراه يقول فى المقدمة: "لما درست الأدب الفارسى واطلعت على أقوال شعراء الفرس الصوفية، بدا لى أن أكتب عن واحد من هؤلاء الشعراء، هو فريد الدين العطار وكان هذا الاختيار طموحًا واعتداداً بالنفس وهجومًا على المشاق. فالعطار الذى نظم زهاء أربعين منظومة فى التصوف لا بد له من دراسة طويلة يتداولها باحث بعد آخر حتى تجمع كتبه كلها وتصحح ويستخرج منها تصوفه".

ويقول أيضًا: "فلما وقعت فى بحر هذا الشاعر راعنى لجه وهالنى موجه، فجهدت حتى رجعت إلى الساحل، وقنعت بأن أصف سعة الماء واضطرابه، وتتابع أمواجه

---

(١٧٨) نشرت فى "البلاغ" فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٥ (ص٤) .

وعراكها الدائم، وما يقذف الموج حينا من جواهره أو حيوانه، لم أستطع ركوب أثباجه إلى مجاهله، ولا الغوص في لجه إلى قاعه، ولكني لم أصف إلا ما شهدت ولم أقل إلا ما تحققت".

وهذا كله من تواضع العالم المحقق. فقد غاص إلى القاع وخرج فطرح لنا كل ما فيه من الدرر والجواهر، وأخذ بيد القارئ في المجاهل وطوف به في "الأودية السبعة" كما قاد الهدهد جماعة الطير في قصة الطير للعطار (وقد أورد المؤلف خلاصة جميلة لها) ورفع مئات من الحجب - كما فعل حاجب الرحمة في قصة الطير.

ويبدأ الكتاب ببحث في أصل التصوف، وهل نشأ في الجماعة الإسلامية نشوءاً مستقلاً أو انتقل إلى هذه الجماعة من الأمم الأخرى واتخذ لوناً إسلامياً؟ وينتهي إلى أن "تصوف المسلمين وجد مبادئه في الكتاب والسنة، ووجد الآخذون به في الجماعة الإسلامية مذ كانت" ، وإن كان هذا لا ينفي الاتصال بين الصوفية والنساك في الأمم الأخرى.

ثم ينتقل من ذلك إلى نشوء التصوف الإسلامي وتطوره، ثم إلى التصوف والأدب، وما أنشأه المتصوفة من أدب منثور ومنظوم ضمنوه فلسفتهم وطريقتهم ورياضتهم ودعاءهم ومناجاتهم "وما يشعرون به من العشق والوجد وما يلوح لهم في سلوكهم من لمعات إلهية وجذبات روحية" وما امتازوا به في طريقتهم "من التحقيق والتدقيق، والنظر إلى البواطن والقصد إلى الغاية في الأمور الدينية والنفسية التي عالجوها" وكيف نشأت لهم لغة خاصة واصطلاحات شرحوها في كتبهم وجمعها بعضهم في معاجم. وقد ساق المؤلف نماذج من هذا الأدب في اللغة العربية ثم أجمل تاريخ الأدب الصوفي عند الفرس والترك، وليته توسع في هذا البيان، ولكني أحسب أن موضوع كتابه صده عن ذلك فليته يضع لنا كتاباً فيه.

وفي الباب الثالث يبدأ الكلام على فريد الدين العطار فترجم له باختصار، وتكلم عن أسرته، ووصف سيرته، وكيف كان عطاراً كأبيه وتعلم الطب والصيدلة وكيف ورث النزوع إلى التصوف عن أبيه الذي كان من مريدي بعض المتصوفة ثم ترك العطارة

والتطبيب واعتزل الناس وطوف فى الأرض. وعاش زمنًا طويلاً معتزلاً متعبداً متأملاً، ناظمًا عقائده وآراءه وتجاربه" فافتقر بعد غنى وصار كما يقول: "حينما أضع خبزى اليابس على مائدتى لا أجد إلا دمعى بلالا، ولا أجد غير قلبى شواء، ولكنى أضيف على هذه المائدة جبريل أحيانًا، فكيف أقبل وجبريل رفيقى لقمة من لئيم؟ حسبى [بلاغًا] خبزى وحسبى شرفًا قناعتى".

ثم تكلم عن منزلته بين الشعراء الصوفية وتقديم كبارهم له وقول جلال الدين الرومى فيه: "إن العطار طوف مدن العشق السبع، وبقينا فى منعطف شارع واحد". وقول آخر: "لا يلحقنى عار بشعرى هذا فإن مثل العطار لا يأتى فى مائة قرن".

ثم يأتى على كتب العطار مقتصراً من ذلك على المتواتر وما ذكره المؤلف فى ثنايا كتبه، ويقول إن أسير هذه الكتب وأجلها "منطق الطير" وكتاب آخر صغير فى النصائح والمواعظ، ترجم إلى التركية والعربية وشرح مراراً. (لم أطلع عليه).

ويتكلم بعد ذلك على تصوف العطار وطريق المعرفة عنده، وكيف أنه لا يثق بالعقل كثيراً لأن مقصد الصوفى وراء العقل: ولأن العشق الإلهى هو مفتاح التصوف، ولكن العطار لا يلغى العقل جملة، بل يقرر عجزه فى المعرفة الإلهية فحسب، إلا إذا هداه العشق، وهو يبغض الفلسفة. وكلامه فى العقل والأمر أو الفلسفة والشرع، يشبه المسألة التى أثارت الجدل حقبًا بين المعتزلة وغيرهم وهى مسألة حكم العقل وهل له حكم فى الأشياء يدرك به خيرها وشرها أو الحكم للشرع وحده؟

ولما كان البحث فى التصوف لا يعدو الكلام عن الله والإنسان وصلته بخالقه والطريقة التى تحكم هذه الصلة، وما الى ذلك فقد عقد المؤلف فصلاً فى هذا بيّن فيه تصور العطار لله وهو لا يعدو فى جملته تصور المسلمين ولاسيما الصوفيه منهم. ويلى ذلك كلام فى القضاء والقدر ورأى العطار فيهما، ويذهب المؤلف إلى أن شعر العطار على اختلاف أقواله يشعر أنه أقرب إلى الاعتقاد فى الاختيار.

ثم يتكلم على "الطريقة" وتقسيم "الطريق" - ويعنى الصوفيون به الرياضة - إلى مراحل تسمى "المقامات" كما يسمى الذى يقطعها "سالكًا" ومعنى "الحال" عند القوم.

ولخص قصيدة "منطق الطير" وفيها وصف الأودية السبعة التى قطعتها - وهى رمز لمقامات السالكين - وهى أودية الطلب والعشق والمعرفة، والاستغناء والتوحيد، والحيرة والفقر والغناء. وقد جعل الشاعر الوصف على لسان الهدهد قائد الطير فى هذه الرحلة. ومن الطير من أحجم عن السفر خوفًا مما سمع من الأهوال، والطير التى سافرت رجع بعضها، وهلك بعضها ولم يبلغ الغاية إلا قليل منها. وهذا أطول فصل فى الكتاب وآخر فصل عن تصوف العطار والإسلام، وقد بيّن فيه أن العطار يعد صوفيًا سنيًا متشددًا يلح فى تبيين الاتفاق بين الشريعة والحقيقة، ويوصى باتباع الشرع فى كل شىء.

هذه خلاصة لا غناء لها لكتاب الدكتور عزام، وهى تريك أنه كما قلت فريد جديد فى بابه، وأهم ما فيه وأجله ثمرة اجتهاد الدكتور وبحثه الشخصى الذى لا اعتماد فيه على المؤلف سابق.

في عالم الكتب
"أبو حنيفة" للأستاذ عبد الحليم الجندي(١٧٩)

ضحكت وأنا أقرأ في "تاريخ بغداد" لصاحبه الخطيب البغدادي قوله في خبر أن الهيثم بن عدي قال: "أبو حنيفة النعمان بن ثابت التيمي - تيم بن ثعلبة - مولى لهم توفي ببغداد سنة خمسين ومائة".

وهكذا! لا شيء يعرف به الرجل الذي ملأ الدنيا علمًا واجتهادًا، وسمي الإمام الأعظم، وصلي عليه يوم مات ست مرات، من كثرة الزحام - لا شيء يعرف به أو يذكر عنه إلا أنه كان مولى لهؤلاء القوم!

وقد قيل في أبي حنيفة طعن كثير - قيل إنه مرجئ وإنه زنديق، وإنه كفر وتاب من الكفر مرات، وإنه كان جهميًا، وقال بعضهم: "أراه كان يهوديًا". وفرح غير واحد لما مات فمنهم من قال: "الحمد لله الذي عافانا مما ابتلى به كثير من الناس"، وقال غيره: "إن فتان هذه الأمة قد مات". وزعموه من أبناء السبايا، ومن الدجاجلة، وقال بعضهم: "لأن يكون في كل حي من الأحياء خمار خير من أن يكون فيه رجل من أصحاب أبي حنيفة"، وأنه "لم يولد في الإسلام من هو أشأم عليه منه". وكان بعضهم

---

(١٧٩) نشرت في "البلاغ" في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٤٥ (ص٤).

يقول لأصحابه إذا رآه مقبلاً: "قوموا بنا، لا يعدنا بجربه". وقيل إنه كان جاهلاً بالنحو، ولكن أخيب كلمة وألأمها أيضاً وأدلها على الغباء وشدة الحفيظة هي تلك المعزوة إلى الهثيم بن عدى "أبو حنيفة مولى لتيم بن ثعلبة توفى سنة كذا"!

وما خلت الدنيا قط – ولن تخلوا أبداً من أمثال هذا الأحمق الذى يتوهم أنه يكفى أن يتجاهل إنساناً ليغض من قدره أو يمحو ذكره فيكون تجاهله أدل على عظمة العظيم وسمو قدره .

وما كان أبو حنيفة أوحد أهل زمانه في الفقه، فقد كان من معاصريه مالك والشافعي وابن حنبل والليث بن سعد وغيرهم! وكانت مزيته الاجتهاد في القياس. سئل مرة:

"إذا قلت قولاً، وكتاب الله يخالف قولك؟".

قال: "أترك قولى لكتاب الله".

قيل: "فإذا كان خبر رسول الله يخالف قولك؟"

قال: "أترك قولى بخبر رسول الله".

قيل: "فإذا كان قول الصحابى يخالف قولك؟"

قال: "أترك قولى بقول الصحابى".

قيل: "فإذا كان قول التابعى يخالف قولك؟"

قال: "إذا كان التابعى رجلاً فأنا رجل".

أى أنه لا يبتدع ولا يخرج عن كتاب الله وسنة رسوله، ولكن إذا عرض له ما لم يسبق قول فى مثله اجتهد وقاس وحكم عقله وأبى أن يكون جامداً، وقد روى عنه مثل هذا بعبارات شتى وجاء فى وصيته لبعض من تولى القضاء "أن أبواب القضاء لا

يدركها إلا العالم النحرير، فإذا أشكل عليك شيء من ذلك فارحل إلى الكتاب والسنة، والإجماع، فإن وجدت ذلك ظاهراً فرده إلى النظائر واستشهد عليه الأصول، ثم أعمل بما كان إلى الأصول أقرب وبها أشبه.

وقيل في وصفه إنه كان "قياساً" "يقيس المسألة على أخرى ليردها إلى أصل من أصول الكتاب والسنة اتفاق الأئمة فيجتهد".

وكان في حياته ورعًا تقيًا، عظيم المروءة، واسع النفس حليمًا رحيمًا، يواسي الناس بماله ويخص تلاميذه ببره تعهده، وكان (لباسًا) يتأنق في ملبسه ويتطيب ويتعطر، ولا عجب فقد كان من أغنى التجار بالكوفة وكان الخز بضاعته، ولكنه كان ينفق ما يربحه من تجارته في وجوه الخير والبر ولا يبقى لنفسه وأهله إلا القليل الذي لا يكاد يبلغ حد الكفاية.

ومن الظريف أن أمه كانت لا تثق به ولا تطمئن إلى فقهه ، فكانت تسأله فيفتيها فتأبى أن تعمل برأيه وتصر على أن تسأل مؤذنًا لا علم له ولا دراية فيتلطف ويحملها إلى ويوعز إليه أن يفتيها بمثل ما أفتى فترجع راضية.

وكان لا يكف عن الدرس والمدارسة ، ومن قوله لأبي يوسف، وقد رأى منه بعض الاغترار، بما أفاد من علم "من ظن أنه يستغني عن التعلم فليبك على نفسه".

وقيل إن الخليفة أبا جعفر استقدمه إلى بغداد وأرداد أن يوليه قضاءها فأبى وأصر على الإباء ، وذكروا أن أبا حنيفة قال له وهو يجادله: "اتق الله ولا ترع أمانتك إلا من يخاف الله. والله ما أنا بمأمون الرضى فكيف أكون مأمون الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات لا خترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك إلخ".

وزعموا أن المنصور حبسه، وأنه أمر فداروا به في الأسواق على أن يقبل القضاء فأبى، فردوه إلى السجن، وقيل إنه ضرب مائه سوط، أو مائة وعشرة، أو ثلاثين حتى سال دمه، ورووا أن عم الخليفة لامه وقال له: "سللن على نفسك مائة ألف سيف! هذا

فقيه أهل العراق، فقيه أهل المشرق". فأمر له أبو جعفر بمال كثير رفضه. وقد مات فى بغداد بعد قليل، فى السبعين من عمره.

* * *

وأحدث ما ظهر من الكتب عن أبى حنيفة كتاب للأستاذ عبد الحليم الجندى المحامى بأقسام قضايا الحكومة، وهو فى أكثر من مائتى صفحة من القطع الكبير، وقد صور لنا المؤلف فيه حياة الأمام وسيرته فى شبابه، وتجارته، وفى المسجد حيث تعلم وعلم، وعلاقته بتلاميذه وأسلوبه ونهجه فى التعليم، وطريقته فى القياس والاجتهاد وأورد شواهد عديدة ونماذج كثيرة، واتقى الإكثار من المسائل الفقهية حتى لا يثقل على القارئ أو يضجره ، ولأن غايته ليست شرح مذهب أبى حنيفة وبيان ما بينه وبين المذاهب الأخرى من وجوه الاختلاف والتفاوت، بل أن يرسم شخصية الإمام نفسه. فهو ليس بكتاب من كتب التراجم بالمعنى المألوف وإن كان القارئ يستخلص كل ما يحتاج إلى معرفته والوقوف عليه من سياق الحديث، ولا هو بكتاب من كتب الفقه، وإن كان قد ساق - كما لا بد أن يفعل - أمثلة غير قليلة لاجتهاد أبى حنيفة، وإنما كان هم المؤلف كما أسلفت أن يرفع قبل عيوننا صورة حية لهذا الرجل العظيم النادر لأن أبصارنا - كما يقول - "يجب أن تتجه إلى المستقبل وإلى الماضى معًا، لأن الماضى مركز الثقل الذى يحتفظ توازننا فلا نقبل على المجهول إلا وفى أيدينا قدر كاف من المعلوم، ولا نرد حياض الغير إلا إذا نهلنا من مصاردنا وارتوينا، وإذا كنا لم نغترف إلى اليوم من كنوزنا الزاخرة إلا حفنات، فلنرجع البصر كرات إلى تاريخنا ذاكرين أن العلاج لا يستورد من الخارج إذا تحققت المناعة بإنهاض القوى الذاتية للجسم الحى".

وأراه قد أحسن وإن كان كتابه لا يخلو من هنات يسيره - وأى كتاب يخلو منها - كمبالغته فى دلالات بعض الأقوال أو الاحتجاج بها على غير ما أراد أصحابها، وحماسته للرأى الذى يذهب إليه، حتى ليجيء كلامه أحيانًا على أسلوب الخطب. ولكنى أعذره، فما يعاب المرء بأنه يبالغ فى التعظيم وإنما يعاب بأن يغمطه قدره. ويروح يتعاظم عليه بالتجاهل والغبن. ولأن تسرف فى الإقرار بالحق والفضل خير من أن تسرف فى الجحود والنكران.

"الأمير حيدر" تأليف الأستاذ إبراهيم جلال بك[١٨٠]
(٢٣٦ صفحة من القطع الكبير. دار المعارف. القاهرة ١٩٤٥)

هو كتاب جديد بموضوعه وأسلوبه، لك أن تسميه قصة من طراز غير مألوف فى هذا العصر الذى ينزع إلى التحليل والتأويل والغوص على البواعث التى يصدر عنها المرء فيما يفعل ويترك، ولك أن تسميه، إذا اعتبرت ما اقتضاه وضعه من التنقيب والبحث، ودراسة لأحوال عصر من العصور التى مرت بمصر، وإن كانت لا تعد شاملة محيطة، ولا متعددة الجوانب، كما سنبين فى موضع من هذا الفصل.

وقد اختار المؤلف فترة من عصر دولة المماليك الذين حكموا مصر وسورية نحو ثلاثة قرون هى التى تولى الحكم فيها السلطان الأشرف قايتباى من سنة ١٤٦٧ إلى سنة ١٤٩٥ ، ويظهر من البواعث على هذا الاختيار ما ذكره المؤلف فى المقدمة من أن الرأى استقر "بين أكثر الباحثين فى نقد القصص (يعنى ألف ليلة وليلة) وعلى رأسهم وليم لين، على أن هذا الكتاب وضع وكتب بين عامى ١٤٧٥ و١٥٢٥، ويتفق أن عام ١٤٧٥ يدخل فى مبدأ حكم السلطان أشرف قايتباى سلطان مصر والشام الذى حكم قرابة ثلاثين عامًا من ١٤٦٧ إلى ١٤٥٩ ، فكأن حكايات ألف ليلة وليلة قد وضع أغلبها على التحقيق العلمى فى عصر ذلك الملك العظيم الشأن، وهو العصر الذى جعلت بعض أحداثه موضوعًا لقصة الأمير حيدر".

ولما كان عظيم الإكبار لهؤلاء السلاطين المماليك، ولقصص ألف ليلة وليلة، فقد وضع قصته "على نسق ألف ليلة وليلة، وحرص جهده على تصوير المجتمع المصرى،

---

(١٨٠) نشرت فى مجلة "الكتاب" فى نوفمبر سنة ١٩٤٥ (ص٨٤ – ٩) .

بين أتراك ومصريين ، والتحدث عن مجالسهم ولهوهم وسمرهم، وزواجهم ومتاجرهم ودسائسهم وبعض الأحداث الخارجية". ومرجعه في ذلك كله المقريزى، وابن تغرى بردى، وبن إياس، وابن فضل الله، والقلقشندى، وابن خلكان، وكترمير، ودوزى.

ومن العسير أن نسوق للقارئ موجزاً للقصة، فإن شجرتها سوف تتشعب من ساقها أغصان كثيرة ما بين دقائق وغلاظ، ويتفرق من شعب أفنانها شماليل شتى، وليس المعول فى القصة - أية قصة - على ما يجرى من الحوادث سواء أكان مدارها على الحب أو القتال أو غير ذلك، وإنما المعول على التناول الفنى للحادثة أو الحوادث. وما أكثر القصص التى يكون موضوعها غاية فى البساطة والخلو من التعقيد، وهى مع ذلك توضع فى أسمى مرتبة بين نظائرها. والعكس أيضًا يصح فى كثير من الأحيان، فرب قصة لا يكاد القارئ يقرأ منها صفحات حتى يعكف عليها ويلتهمها لشدة حذق صاحبها ببواعث التشويق، وهى مع ذلك لا ترتفع إلى مرتبة الأدب، ولا تعد أكثر من مسلاة يُزجى بها الفراغ أو يقتل بها الوقت كما يقولون. ومن هذا القبيل معظم الروايات البوليسية وقصص المغامرات التى يكون الشأن الأكبر فيها للوقائع وما فيها من غموض واستبهام وإشكال، أو ما تنطوى عليه من خطر ماثل أو محتمل، وما تحفل به أحياناً من مفاجآت معقولة أو بعيدة فى الاحتمال. والفن فى أمثال هذه القصص هو فن التشويق، ويتفاوت كتابها بعد ذلك فى أسلوب الكتابة وأسلوب التناول أيضاً، ومنهم من يرقى إلى مرتبة ملحوظة فى هذا الباب، ولكن هذا الضرب من القصص لا يحسب على كل حال من الأدب الرفيع.

وقد حرص المؤلف فى روايته "الأمير حيدر" على التاريخ حرصًا أخرجه فى مواضع كثيرة عن أسلوب القصة. مثال ذلك أنه يصف نظام الدولة فى ذلك العهد ورتب الوزراء وكيف يجلسون بين يدى السلطان، ومن أية طبقة يختارهم، وبأى الألقاب يخاطبون، وما عملهم أو أعمالهم الموكولة إليهم، ولا يدع هذا للقارئ يستخلصه من سياق الكلام على نحو ما يفعل كتاب القصة الغربيون إذا أداروا قصصهم على حوادث تاريخية. وطريقة الغربيين أقوم، لأن القصة غير التاريخ، وفى وسع القارئ أن يخرج بصورة واضحة للحقيقة التاريخية - إذا كان الكاتب حاذقًا - دون أن يحتاج إلى ما يشبه الدرس يلقى على تلميذ أو جاهل.

ومن أمثلة التقيد بما فى المراجع التى اعتمد عليها المؤلف، أن وصفه للقصور وما فيها من زينة ورياش وأثاث وما إلى ذلك لا يكاد يختلف، حتى ليخيل إلى القارئ أن كل قصر ككل قصر آخر فى المظهر والمخبر، وأنها جميعًا صور مطابقة لأصل واحد. وليس الأمر كذلك، وإن كان غير مستبعد أن تتشابه إلى حد ما، ومعقول أن يقلد الناس بعضهم بعضًا، غير أن الأمر لا يبلغ الحد الذى يتعذر عنده التمييز ويمتنع الاختلاف والتفاوت. والعلة أن أوصاف هذه المراجع عامة، وكثير منها على السماع.

على أن المؤلف عنى مع ذلك، وعلى الرغم من تشابه الأوصاف القديمة فى عمومها، بالتمييز والتفريق، فلست تجد بيت الطبيب كبيت الوزير أو كاتب السر، ولا بيت المغنية كبيت الأميرة، وهو يحرص حرصًا شديدًا على الدقة فى الوصف وتصوير ما جرت به العادة والعرف فى ذلك الزمن. فتراه يقول مثلاً: "ودخل الغلام وفى عنقه حبل فيه إبريق الزيت، وعلى كاهله طنجير فيه شواء الدجاج، وبين يديه جام القطائف..."

"وكانت سقوفه كلها مذهبة قد موهت باللازورد، يدخل إليه النور من طاقات من الزجاج القبرصى الملون كقطع الجوهر، كما فرشت أرضه جميعها بالرخام الجميل".

"وكانت البيسرية شاهقة البناء، تمتد جدرانها إلى السماء خمسين ذراعًا، وقد طليت سائر (يريد جميع) الجدران بخالص الذهب، وكان بها خمسون ثريًا من خالص الفضة مطلية بذهب تضاء كلها، وبصدر القاعة برج صنع من العاج والأبنوس المطعم، فيه مقرنص قطعة واحدة، وشبابيك وطرازات مصوغة وشرافات وقبة. كل ذلك صيغ من خالص الذهب وبلغت النفقة عليه خمسين ألف دينار".

"وقد جمع فى بستانه أنواعًا من الورد والياسمين والبان والزنبق والسوسن، وجعل فى وسطه بركة ماء، وحولها مجالس السرور، ومناظر تطل على البستان، واتخذ لنفسه دكة عظيمة مطعمة بالعاج والأبنوس، وكساها بالمخمل والأنطاع اللطيفة لجلوسه بين أنصاره وحاشيته حيث تظله فروع الياسمين، وتقف حوله المماليك الحسان بأيديهم المذاب، وتعلق بالأشجار أقفاص الطيور المغردة بين مطوق وهزار وقمارى، وقد أطلق بين الأشجار دجاج الحبش والبط الصينى وأنواع الحجل".

"ودخل ابنه... ليلاً وأمامه الغلمان يحملون المشاعل والشموع فى الفوانيس، وبينهم محفة يحملها بغلان صنعت من المخمل الأحمر المرقوم بالذهب، فنزلت منها جارية هيفاء تمشى فى مرط من حرير أخضر نسج بخيوط الذهب، وقد تحجبت بنقاب من لانس ثمين، وكان مرطها مسبلاً فوق خفيها، وجاء من خلفها جاريتان تحملان بقج الثياب... وجاء على أعقابهن غلمان ملك التجار يسوقون عشرين بغلاً تحمل غرائر السلع الإفرنجية وصناديق فيها ألوان من البلور وأثواب المخمل وشقق الحرير والأطلس".

"وصاح فى الملاح خل القارب ودعا حيدراً للركوب وهرول أمامه يبسط له السجادة. وجعل الملاح ينشر المظلة ويوقد القناديل، فانطلق القارب يسبح بهم فى ذلك المحيط الحافل بالزوارق والعشاريات ذوات الأمراس المجدولة من الحرير الأصفر والأحمر، والمظال الأطلس وتعاليق الحرير التى تحمل عليها القناديل والثريات الملونة".

"ومشى... من باب القصر فى دهاليز مفروشة بالرخام، ثم هبط على درج من المرمر الوردى، إلى بستان يمتد على شاطئ البركة، فرأى الخولة مجتمعين بباب البستان، فانتقل إلى مجلس فسيح فرش بالنمارق من أوله إلى آخره، وفى صدره سحابة من حرير أصفر بأعمدة من ذهب، وأرضه مصورة بفصوص حمر وصفر وخضر من بللور، وبوسطه فسقية من المرمر الجميل عليها أنبوب من نحاس، يزعج الماء بقوة، وحولها أقفاص الزرازير وطيور الفواخت تغنى".

وقد أكثرت من الاقتباس عامداً لأدل القارئ على أسلوبه فى الوصف، أولاً، ولأقول إنه اقتصر فى قصته على تناول الذين يحيون حياة البذخ والترف، وأنه لم يكد يصور لنا شيئًا من حياة الشعب، وطبقة المجاهيد من عامة الناس. وأحسب أن عذره أنه اعتمد على المراجع، ولم يكلف خياله إلا ما يقتضيه حبك القصة وسبكها. ومعروف أن الكتب القديمة لم تعن إلا بالملوك والأمراء والكبراء والمشاهير من الناس، وأنها قلما تذكر عامة الشعب إلا بكلام لا يفيد شيئًا خاصاً، ولا يتعذر أن يقال مثله فى حالة أى شعب فى أى عصر.

وليس مما يعاب به المؤلف أنه اكتفى بأهل الثراء والسعة والخفض، وأهمل الدهماء، أو كاد، ولكنه كان يستطيع - بقليل من الجهد لا يستكثر عليه بعد الذى تجشم - أن يصور لنا حياة الشعب أيضًا، فما تكاد تختلف بين عصر وعصر، وإن كانت العادات والعرف والتقاليد يلحقها بعض التغير، أو التطور.

وقد نقل فى روايته من مراجعه، ألفاظًا استعملها وحرص عليها، وحسنًا فعل، وأكثر هذه الألفاظ مما يتقيه الكتاب فى هذا العصر ويعدون استعماله غير جائز، مثل "الفوانيس" و"البقجة" و"البخانق" و"الشاش" و"الزبادى" و"الفسقية" و"القماش" و"الخوخة" إلى آخر ذلك. وأقول حسنًا فعل لأنى لا أرى داعيًا لاجتناب هذه الألفاظ وأكثرها مأنوس، وكلها متداول، والاعتياض منها ألفاظًا أخرى نستخرجها من بطون الكتب القديمة أو نشتقها أو ننحتها أو نفعل غير ذلك، فليس من الضرورى أن تكون الكلمة جاهلية ليجوز لنا أن نستعملها فإن هذا جمود يؤذى اللغة، وكل لغة فى الدنيا تقتبس ألفاظًا من اللغات الأخرى أو تضع وتسك ألفاظًا جديدة تعبر بها عن حاجاتها الجديدة، ولا يضيرها ذلك ولا يزرى بها أو يفسدها، بل يزيدها سعة ومرونة وقدرة على الأداء. وليس المهم أن تكون الألفاظ جاهلية أو مستحدثة، بل المهم المحافظة على أوضاع اللغة وأحكامها وطريقتها فى تأليف الكلام على "معانى النحو" كما يقول الجرجانى، وإلا فمن الذى يجرؤ أن يدعى أن الجاهلين وضعوا كل لفظ يمكن أن يحتاج إليه العربى فى كل بلد وكل عصر؟ بل من الذى يجرؤ أن يزعم أن لغة ما من اللغات لا تحتاج فى كل عصر من العصور التى تتعاقب عليها أن تهمل ألفاظًا تستغنى عنها وأن تتخذ ألفاظًا جديدة بحسب ما تقتضيه حياتها الجديدة ومطالب التعبير التى لم تكن لها وجود فيما مضى؟

وأين فى هذه الدنيا لغة لم تدخل فيها ألفاظ ليست فى الأصل من معدنها؟ وليس فى وسع المتحرجين والمشددين أن يحولوا دون هذا، وقد وجد فى كل عصر ناس منهم فما استطاعوا أن يمنعوا اللغة العربية أن تستمد من اللغات الأخرى، وأن يستحدث أبناؤها ألفاظًا لكل جديد لم يكن لأسلافهم به عهد، وسيظل الحال كذلك - [يتحدر]

تيار التجدد ويقف المتشددون والمتحرجون كالصخور، لا تمنع أن يتدفق التيار الذى يدور حولها غير عابئ بها، وهى عاجزة حتى عن تعويقه.

* * *

وما دام أن الكتاب موضوع على نسق ألف ليلة وليلة، فلا محل لملاحظات كثيرة كان يمكن أن يبديها المرء فيه، مثل المبالغة فى تصوير شجاعة حيدر - بطل القصة - وبراعته فى القتال حتى ليصدق عليه قول ابن الرومى:

يَهزِمُ الجيشَ أوحديًّا ويُلْوى بالصَّناديد أيَّما إلـواء [(١٨١)]

ومثل حشو القصة بكثير من الشعر الذى لا قيمة له ولا خير فى إثباته، وكل ما له من قيمة أنه مثال للشعر فى ذلك العهد.

ومثل إطالته فى وصف بركة الرطلى وربع الزيتى، وبركة الفيل وحمام السلطان وخيال الظل وخان الخليلى ومقياس النيل، إلى آخر ذلك، حتى يكاد ينتفى الشعور بأن هذه قصة. ولكن إذا عرف السبب بطل العجب، والسبب أنه يقتاس ألف ليلة وليلة، وأنه ينشر المطوى فى أصول هذه الأحياء أو العادات.

ولا مفر من الاعتراف بأن القارئ يخرج بفوائد كثيرة عن جماعة الفتوة المشهورة والخلافة العباسية فى مصر، وكثير من المنشآت والمعاهد والأحياء الباقية إلى زماننا هذا، وأصول بعض العادات، ومتى دخلت القهوة مصر وكيف كانت تطبخ، ومكانة العلماء ونفوذهم، والملاهى والألعاب إلخ إلخ. وهذا إلى المتعة المستفادة من القصة نفسها.

ولا يخلو كتاب ما، من نقص، ولو خلا - وتلك مرتبة لا تنال - لما كان إنسانيًا، ولكان خليقًا بقارئه أن يحس أن صاحبه ليس من بنى الإنسان، وأن ينظر إليه نظرة

---

(١٨١) من الخفيف (المحرر).

فيها رهبة وأن يستوحش من جانبه. بل أنا أذهب إلى أن من البواعث الخفية على الإعجاب أن يفطن القارئ إلى مواضع النقص ومواطن الضعف، وأن يحس، ولو إحساساً غامضاً، أن الكتاب من الكتب على جلال قدره وعظم شأنه وندرة مثله وعجز الأكثرين عن الإتيان بما يقاربه، لا يخلو من زلات وعثرات، ووهن هنا، وسقوط هناك، أو إسفاف أو خمولة، أو قصور أو تقصير أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى، ويلحق به. وهذا الشعور – ولك أن تقول هذه الثقة من القارئ بأن الكتاب لا يبرأ من العيوب والمآخذ حتى ولو كان يعيبه أن يبينها ويضع إصبعه عليها، يحفظ له احترامه لذاته أو يستبقى له القدر اللازم لحياته من الغرور، ويشعره أن الكاتب مهما سما، قريب منه وإنسان مثله، فيهون عليه أن يوليه الإكبار الذى يستحقه، دون أن يشعر بغضاضة من ذلك على نفسه، ومن هنا كان شر الكتب الإنسانية أو أشدها استفزازاً للنفس واستثارة لسخطها، ذاك الذى يشعر القارئ بهوانه ويبرز له مبلغ ضعته وضآلته. وليست ثورة القارئ على الكتاب الذى يكون من هذا القبيل إلا مظهراً من مظاهر الدفاع عن النفس.

أقول هذا على سبيل البيان، لا الاعتذار، ومن أجل هذا كان مذهبى فى النقد أن أنظر إلى جملة ما فى الكتاب من الإحسان مقيسة إلى جملة ما فيه من العيب، فإذا أربى الإحسان على الإساءة تقبلته وتجاوزت عما فيه من نقص أو مأخذ، وإلا رفضته. فهو ميزان ينصب وأى كفتيه رجحت أخذت بها. وهذا فى مذهبى هو العدل الميسور فى وزن الآراء والأعمال والحكم عليها.

ولهذا لا أتردد فى الثناء على قصة "الأمير حيدر" على الرغم مما فيها من بواعث الملال، ومن التكلف المتعمد على الأرجح، ومن الهفوات القليلة، والهنات المفردة، ومن قلة العناية بالتنويع، أو قل إذا شئت ضعف الخيال، ومن كثرة الحشو وكظ الكتاب بما كان يحسن الاستغناء عنه لولا ما قصد إليه المؤلف، فإن الحسنات – بعد كل هذا التقصى – أرجح كفة.

فى عالم الكتب

"أبو تمام الطائى" للأستاذ نجيب محمد البهيتى(١٨٢)

(١)

هذا بحث نفيس وضعه الأستاذ نجيب محمد البهيتي و"حسبته عن الناس – تسع سنوات – مؤامرة قبيحة" ويقول الأستاذ: "ويحزننى أن أقول إن أبحاثى كانت فى هذه الفترة الطويلة، نهبًا مقسومًا، فنشر بعضها ممسوخًا مشوهًا دون إشارة إلى مصدره".

أما كيف كانت هذه "المؤامرة القبيحة" ولم كانت، فهذا شرحه وبيانه:

هذه الأيام "تعتبر دون ريب، استهلال عهد من عهود الثورات فى حياة الأمم" أى "الانقلابات التى تصيب حياة الناس بعد الحروب الرهيبة" و"فى مثل هذه الثورات المجتاحة التى تهز النفوس إلى أعمق قراراتها. لا تجد النفوس صورتها فى أقلام أصحاب المدرسة القديمة ولا فى تفكيرهم ولا فى نظرتهم إلى الأشياء" و"هذا الكتاب وإن يكن قديم الموضوع إلا أنه أشبه بهذه الأيام الجبارة الثائرة"، وقد كان من جراء ذلك "غضبة حاقدة مكبوتة من أحد أقطاب المدرسة القديمة، فأخذ يحتال ما استطاع ليحول بين هذا الكتاب وبين الوصول إلى أيدى الناس، فطلب منى أصوله بحجة طبعها فسلمتها له فظل يحبسها عنده ثمانى سنوات".

وأنا أستأذن الأستاذ البهيتى فى القول إنى مع عطفى عليه فى هذه المحنة الطويلة التى قاساها، لا أصدق أن رجلاً فاضلاً من أهل العلم والأدب (لابد أن يكون

---

(١٨٢) نشرت فى "البلاغ" فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٥ (ص٤).

من أهل العلم والأدب مـا دام أنه قطب، ولو قـديم، وأنه ممن يعطون أصـول الكتب ليتوسطوا في طبعها) - أقول لا أصدق أن مثله يبلغ من خسة النفس ولؤم الطباع أن يحبس الكتاب هذا الزمن، بل قل يبلغ من قلة العقل أن يفعل ذلك. والأرجح عندى أنه كما يقول ابن الرومي:

لم يكن ما كان شيئاً يُعتمدْ   بل أموراً وافقت يوم الأحد[(١٨٣)]

ولست أستخف بأن يحبس كتاب مثل هذا الزمن المديد، فلو صحت التهمة لكانت مخزاة لا يذهب عارها، والأقرب فى الاحتمال عندى أن هذا كل عفواً، ولكن القلوب تتغير فتسوء الظنون، ويبدو كل شيء فى رأى العين كالحًا، وفى إحساس القلب سقيمًا. ولست أستبعد أن يكون ما حدث راجعًا إلى السهو أو الإهمال أو الكسل. وليذكر المؤلف الفاضل أن الأقطاب مرهقون بالتكاليف ولست "قطبًا" ولله الحمد، ولكنى أستشار فى أمور كثيرة يسرنى أن أوفق فيها إلى رأى نافع، وتعرض على الكتب لأراجعها أو أقرأها، فأضعها حيث أرجو أن لا تغيب عن عينى، فتتكدس عليها الأوراق والكتب فأذهب عنها، وأنساها شهرًا وشهرين بل عامًا، وقد أتذكرها، ولكن الشواغل كثيرة، والواجبات متعددة وثقيلة، واليوم ليس فيه سوى أربع وعشرين ساعة، وليس أخون من ذاكرتى، وأنا مع هذا لسوء حظى لا أعول إلا عليها، فلا أدون شيئًا، ولا أتخذ دفترًا، أثبت فيه ما يجب أن أعنى به أو ما أحب أن أكون منه على ذكر ؛ لأنه لا فائدة من الدفتر ما دمت أنساه جملة. وتردنى الرسائل فأدسها فى جيبى لأرد عليها، فتظل فيه بغير جواب، لا ترفعًا أو تكبرًا أو غير ذلك، بل لأنى أنساها، أو لا أتذكرها إلا وأنا متعب مكدود، فأؤجل الأمر إلى غد، ثم إلى غد آخر، وهكذا حتى يفشو علىّ الأمر فأخرج الكوم الذى صار جيبى منتفخًا به وأضعه تحت الوسادة حتى تصبح فيما أحس كالحجر الصلد تحت رأسى، فأصيح بأهل البيت: "يا ناس انقلوا هذا إلى

(١٨٣) من الرمل (المحرر).

مكان آخر! أليس فى رءوسكم عقول؟" كأنما كانوا هم واضعيها! فلو ذهب الناس يحاسبوننى كما يحاسب الأستاذ البهيتي ذلك "القطب" لكان من حقهم أن يرمونى بكل ما يخطر على البال والعياذ بالله.

وأنا أعذر الأستاذ / ولكنى لا أحمد هذه النفثة الحامية. ولعل له من شبابه عذرًا، كعذره مما لقى من المماطلة أو الإهمال، ولا أستملح قوله فى وصف أدب من يسميهم "أصحاب المدرسة القديمة" بأنه "ثرثرة واهنة قبيحة". فليس هناك أصحاب مدرسة قديمة وآخرون أصحاب مدرسة جديدة، وإنما هناك كهول وشبان يجتهدون، ولا مدرسة تجمع هؤلاء أو هؤلاء، وكل واحد منهم يصح أن يعد مدرسة قائمة بذاتها، أو يمثل لونًا معينًا من ألوان الأدب الحديث مستقلاً بنفسه، ولا شك أن هناك تماثلاً وتشابها ، وأن فريقًا من أدبائنا يعدون من "معدن" واحد إذا صح هذا التعبير، ولكن الاختلاف بينهم فى الاتجاه والمذهب واضح. على أنى لا أظن أن المؤلف يعنى الأدباء أو فريقًا منهم حين يقول "أصحاب المدرسة القديمة" وأكبر ظنى أنه يعنى جماعة من الأساتذة، فإن سياق الكلام يوحى بذلك وهؤلاء - مهما يكن رأى المؤلف فيهم - هم الذين أخذوا بيده ويد غيره وساروا بهم على الدرب وإذا كان المؤلف يرى أن التلاميذ قد بذوا الأساتذة وسبقوهم وصاروا أقوم تفكيرًا فى رأيه وأهدى سبيلاً، فإن هذا لا يغض من قدر الأساتذة ولا يسلبهم فضلهم فى التعليم والتثقيف والتوجيه على الأقل.

وقد تمنيت بعد أن فرغت من قراءة الكتاب لو أن مؤلفه استغنى عن الصفحتين الأوليين من المقدمة فإنهما غير لائقتين ببحثه الدقيق الوافى المتزن. وما الداعى مثلاً لأن يصف كتابه بأنه "أشبه بهذه الأيام الجبارة الثائرة"؟، ما محل كلام كهذا فى بحث فى أبى تمام وحياته وشعره؟ قد تكون طريقته جديدة، ووسيلته العلمية قوية، وترتيب البحث بديعًا، وتبويبه طريفًا، ولكن هذا كله لا يستوجب وصف الكتاب بأنه "جبار ثائر" فهو أشبه بحماسة الشبان منه باتزان العلماء.

وليعذرنى المؤلف الفاضل إذا رآنى ألومه وأعيب هذه اللغة الجافية فى مقدمة كتابه فإن الكتاب أجل من أن تكون هاتان الصفحتان فى مقدمته، فليته نزهه عنهما.

وفى الأسبوع المقبل نتناول الكتاب بالعرض إن شاء الله.

فى عالم الكتب:

"أبو تمام الطائى" للأستاذ نجيب محمد البهيتى[184]

(٢)

هذا كتاب نفيس إلا أنه طويل، بل أطول مما يجب، ولو كنت صاحبه لاختصرت نحو نصفه، وقد كنت على استحسانى له أشعر بالملل وأنا أقرؤه، من الإطناب والإعادة، فأنظر إلى كلمات فى أول الصفحة وكلمات فى وسطها وأخرى فى ذيلها فإذا لم أقع على جديد أو مفيد انتقلت إلى ما بعدها، وكنت أقول لنفسى هذا زمن الإيجاز يا عالم. قنبلة ذرية واحدة تغنى عن حرب طويلة كانت خليقة أن تستنفد سنوات من الجهود الضخمة المضنية، ومسافات كان يقطعها المسافر فى أيام أصبحت الطائرة تمرق فوقها وتطويها فى ساعات، وإنا مع ذلك نحس أن الطيران ما زال أبطأ مما ينبغى، وأن عليه أن يبلغ سرعة الفكر أو الصوت أو الضوء، وما ستمائة ميل فى الساعة؟

وماذا يصنع القارئ بكل هذه الكتب التى تخرجها المطابع فى الشرق والغرب والتى لابد من الاطلاع عليها؟ أين الوقت الذى يتسع لذلك وليس فى اليوم إلا أربع وعشرون ساعة يذهب نصفها فى النوم والطعام، والربع فى الراحة والبقية فى السعى لكسب الرزق؟ ومن سوء حظ الإنسان أنه قسم الزمن فصار يحس بمره، وأن طاقته ما انفكت محدودة، فليس فى وسعه أن يقرأ أكثر من ألف كلمة فى الدقيقة مهما فعل لتدريب عينه على السرعة، ولقد استطاع أن يحطم الذرة التى لا يراها لا بعينه ولا بمهجر، وأن يطلق بتحطيمها قوة مروعة كانت كامنة، ولكنه لم يستطع أن يفعل مثل

---

(١٨٤) نشرت فى "البلاغ" فى ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤٥ (ص ٤) .

هذا بنفسه، وإن كان فى بدنه كل العناصر التى يأخذها من الأرض ويسخرها، فقوته حبيسة من جراء هذا العجز العجيب، وقدرته محصورة فى نطاق ضيق، على أنى أؤمن بأنه لا محالة فاعل هذا بنفسه يومًا ما، إذا لم تفنه القنابل الذرية وغيرها من المهلكات الوبيلة التى قد يخترعها فيما بعد، أو إذا لم ينقرض كما يتنبأ هـ. ج. ولز، لعجزه عن التكيف، كما انقرضت حيوانات كثيرة من قبل، ولكن هذا استطراد فلأعد إلى الكتاب.

يبدأ الكتاب ببحث قيم جدًا فى طيىء ونسب أبى تمام فيها، ولكنه "مدرسى" الصبغة، فيتناول الكلمة واشتقاقها والأقوال المختلفة فيها، وهذا حسن، وهو لازم ولا شك فى دراسة يتقدم بها صاحبها لنيل إجازة جامعية من أساتذة علماء أهل تحقيق وتدقيق، ولكن القارئ قلما يصبر عليه. وفى هذا الفصل يتكلم على أصل طيئ وموطنها، ونزولها فى جبليها، وعلاقاتها بجيرانها، ثم مكانتها من العرب، وعباداتها قبل الإسلام، ثم ما صارت إليه فى الإسلام وأثرها فى الحركة الفكرية ويخرج إلى نسب الشاعر فيها، وينفى أنه دخيل فيها، ويذهب إلى أنه إذا كان فى أبى تمام عنصر أجنبى فهو فى الثقافة لا فى الدم.

ويلى ذلك فصل أو باب ثان فى شخصية أبى تمام وأسرته، وهو وافٍ، وقد أورد فيه كل ما أمكن أن يعرف عن أسرته التى فجع فيها كلها - ما خلا ابنه تمامًا - فى حياته.

وفصل ثالث فى حياة أبى تمام "وحياة شعره" فيذكر بلده، ويحاول أن يحقق سنة ميلاده، دون أن يقطع برأى لصعوبة ذلك ؛ لأن "تحقيق حياة أبى تمام" كما يقول "لا يتأتى إلا من قبل مقارنة شعره بأحداث التاريخ، ولكن هذا الشعر لم يأتنا كاملاً". ويصف فى هذا الفصل نشأته فى الشام، ورحلته إلى مصر وحياته فيها، ويأتى على نواحى ثقافته، ويبين أثر القرآن فى شعره، وهو أثر بالغ، ويورد شواهد عدة من شعره، وهو التفات من المؤلف جدير بالتنويه والثناء، ويبين أثر التاريخ فى شعره مع الشواهد أيضًا ومبلغ اتصاله بالمذاهب فى عهده، وحظه من النحو، وخصائص شعره الأول، وما بين مذهب السراج شاعر مصر فى ذلك العصر، ومذهب أبى تمام من صلة،

وكيف أن أبا تمام تأثر به وإن كان خصمًا له. وبعد أن يفرغ من ذلك يقول في شعره بالشام، ثم [بأطراف] العراق، وطابع شعره في ذلك الوقت الذي تكرر فيه فشله في مساعيه، ثم عودته إلى مصر، فارتحاله عنها إلى العراق حيث تزهر أيامه وتخصب واضطرابه بين البلدان، واتصاله بالرؤساء إلى آخر ذلك وهو أطول فصول الكتاب وأحفلها بالتحقيق.

وينتقل بعد ذلك إلى الكلام في القدماء والمحدثين ويصف أدوار التطور ويشرح "عمود الشعر" شرحًا حسنًا - توطئة للكلام على شعر أبي تمام وأصحابه، وصلة فن أبي تمام بعصره وأراه يبالغ في التعبير، مثال ذلك ذهابه إلى أن مظاهر الجمال الحسي مقترنة عند أبي تمام "بالقبح النفسي" وإن هذا هو الذي "باعد بين فن أبي تمام وبين المثالية، وقرب بينه وبين الجسدية" فإن هذا غلو وشطط، والمؤلف نفسه ينقض هذا القول بما يسوقه لتأييده.

وأخالفه أيضًا في أن وصف أبي تمام للطبيعة - ولاسيما أبياته في الربيع - "كونت صورة لم تحظ العربية بمثلها قبل أبي تمام أو بعده على ما أعرف". وأنا أحيله على فصل قديم لي في كتابي "حصاد الهشيم" في الفرق بين التصوير والوصف الشعري والحدود الطبيعية لهما، وفي هذا الوصف على ما أذكر موازنة بين وصف أبي تمام للربيع ووصف البحتري له. وخلاصته بإيجاز أن التصوير مجاله المناظر الثابتة لا الحركة ، وأن الوصف اللفظي على نقيضه مجاله الحركة لا المناظر الثابتة وكل ما يستطيعه هو وصف وقعها في النفس كما صنع البحتري ، ولهذا فضلت وصفه للربيع على وصف أبي تمام.

ثم تكلم المؤلف عن الخصائص الفنية لشعر أبي تمام ، فذهب إلى أن الفكر والشعور يجريان معًا في شعره، وأن التسلسل الفكري في القصيدة لم يقتصر على ربط أجزاء القصيدة، بل تعداه إلى الخروج بوحدة الشعر العربي القديمة وهي البيت إلى وحدة أوسع هي القصيدة ، وأشار إلى كثرة المعاني المخترعة عنده وإلى إحساسه الدقيق بجمال الطبيعة وميله إلى وصفها وتناوله النواحي النفسية، واعتماده في فنه

على الواقع والحقيقة، وتكلم على نهجه فى قصائده واختلاف النهج باختلاف الموضوع، وتطور "الصورة" فى شعره، واللفظ وتوخيه الصنعة فى اختياره، والتكرار وكثرته، وحكمته المستفادة من تجاربه في الحياة، ونظراته فيها وتأملاته فى تصاريفها. كل ذلك مع التمثيل الوافى.

وقد أطلت في وصف الكتاب وسرد ما تناوله من المسائل ليعرف القارئ ما فيه من بحوث تعب فيه المؤلف، وأى مشقة تكلف لإنصاف هذا الشاعر المغبون ، وفى هذا الكفاية فإن غرضى هو التعريف لا النقد.

فهرس تفصيلى للمجلد الثالث

المحقق فى سطور

عبد السلام حيدر

حاصل على دكتوراه الفلسفة (.Dr. Phil) من جامعة بامبيرج الألمانية عام ٢٠٠٢ ويعمل حالياً فى الجامعة الألمانية بالقاهرة.

له:

* "الأصولى فى الرواية" (تأليف وترجمة)، المشروع القومى للترجمة - رقم ٥٦٨، القاهرة , ٢٠٠٣

* ترجمة كتاب "الشرق والغرب، حياتى الغرب- شرقية" لأنا مارى شيمل، المشروع القومى للترجمة - رقم ٧٥٤، القاهرة , ٢٠٠٤

* وتحت الطبع بالمجلس الأعلى للثقافة تحقيقه لـ:

* "الأعمال الكاملة لإبراهيم عبد القادر المازنى: الأعمال غير المنشورة" (خمسة مجلدات).

المراجعة اللغوية : **عبد الرحمن حجازى**

الإشـراف الفنى : **إنچـــــى چـــورچ**


تليجرام
هنا
سور الأزبكية


تليجرام
غواص في بحر الكتب

يستطيع القارئ المتفحص لهذه المقالات المجموعة هنا أن يفهم التطور الفكرى للمازنى كناقد، كيف بدأ حياته الأدبية عنيفًا فى النقد، ثم أصبح فى النهاية لين الملمس رقيق الحاشية يتقبل أغلب الكتب بالحمد، بل ويثنى عليها أجمل الثناء. وقد علل ذلك فى أحد مقالاته الكاشفة بتغير الزمن وزوال دواعى العنف القديم: "ثم إنى رشدت أيضًا، فمما ترتفع السن دون أن تفيد المرء شيئًا من البصر والحكمة ولو قليلاً، وقد كنت فى شبابى أحمل على من نسميهم أصحاب المذهب القديم البالى، وأهل الجمود والخمود، وأخوف ما أخاف الآن أن أصير أنا إلى ضرب آخر من الجمود، فأنا رقد، فقد فتحت الدنيا كلها عيونها ولله الحمد، وإنما همى الأكبر أن أمنع أو أركد، وكل جديد يصبح قديمًا عتيقًا إذا لم يتعهده صاحبه بما يقتضيه التطور، ولم يتوله بما يجعله صالحا للزمان الجديد ونزعاته واتجاهاته".





الغلاف / أنجى جورج